موسوعة العلوم الإسلامية

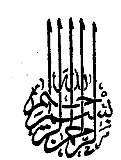


خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين

١٩٢٠/١٩٤٠

أنور الجندي

دار الاعتصام





خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين

١٩٢٠/١٩٤٠

ضوء على البحث ومراجعة لخطته
بعد مرور ربع قرن على كتابته الأولى

هـذا البحث يعد حجرا اساسيا من احجار (بناء منهج دراسـة التغريب والغزو الثقـافى) لأنه يمثل دراسة دقيقة مستفيضة لحركة الفـكر العربى الاسلامى وهو العمل الذى شغلت به نفسى منذ أربعين عاما تقريبا (١٩٤٨ ـ ١٩٨٨) حيث كتبت أولى مقالاتى عـن قضية التغريب لأنه يمثل دراسة دقيقة مستفيضة لحركة الفكر العربى الاسلامى (عربى اللغة اسلامى المضمون) خلال فترة مابين الحربين العـالميتين الأولى التى انتهت عام ١٩١٨ والثـانية التى بدأت عام ١٩٣٩ وقد توفرت على دراسة هـذه المرحلة بالتفصيل يوما بعـد يوم من خلال جريدة الأهرام فى الأساس وأنا متنبه للونها المـارونى الفرنسى فى هـذه الفترة بالاضافة الى المجلات الأسبوعية والشهرية خلال هـذه الفترة والتى تناولت بالبحث مختلف القضايا السياسـية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وكشفت عن الدور الذى قامت به حركة اليقظة الاسـلامية فى مواجهة الأحـداث من خلال صحف متواضـعة جاهدة ولكنها لم تتوقف عن الرد على كل الشبهات ودحض السموم والكشف عـن الزيف الذى كانت توجهه أقلام لامعـة من خلال صحف واسعـة الانتشار . كتبت هذا عام ١٩٦١ (بعد أن انتهيت من دراسة معالم الأدب العربى المعاصر الذى كان يكتب لأول مرة عن منطلق وحدته من المغرب الى العراق ، وقد وجدت أننى لابد أن اوسـع دائرة دراستى فلا أتوقف عند العملين اللذين شـغلت بهما فى هـذه الفترة وهما : الأدب العربى وتراجم الأعلام ، فقد انتقلت من الفرع الى الأصل بمفهوم أن الأدب والتراجم هى قطاع من الفـكر الاسلامى وكان على أن استوعب العمل كله وكنت من قبل أعمل فى دائرة الدعوة الاسلامية ، وعندما فرضت ظاهرة القوميات انتفعت بها انتفاعا واسع النطاق فى دراسة الاسلام بوصفه ثقـافة وتاريخ وركزت تركيزا شديدا على محاولات الاستشراق والتبشير فى تزييف مفهوم الاسلام ، وكان مفهومى للعروبة سليما وصحيحا بوصفها حلقة من حلقـات العقد الجامع ومنطلقا للوصول بها الى الوحدة الاسلامية الجامعة ، كتبت هذا فى أشد أوقات استعلاء لمبدأ القوميات بالكشف عن أصالة الاسـلام فى التعليم والشريعة والثقافة والصحافة . ولذلك فأنا حين أعود اليها اليوم ١٩٨٨ وبعد ربع قرن تقريبا أجد أن هناك بعض القضايا وقد تكشفت فيها جوانب جديدة فكان على أن أصحح موقفى منهـا دون أن يؤثر ذلك على منطلق فهمى الصحيح ومنهجى فى الأساس القائم على الايمان بالأصولية الاسـلامية والعمل على مواجهة التحديات التى ساقها التبشير والتغريب والغزو الفكرى ومن هنـا فقد آثرت أن أجرد البحث من تلك الأخطـاء التى لم تكن قـد تكشفت لى فى أول الشوط وخاصـة وأن مذكرات هرتزل التى كشفت الغطاء عن مؤامرة الصهيونية ضـد السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية قـد ظهرت بعد ظهور كتابى هذا تحت اسم (الفـكر

العـــربى المعاصر فى معـــركة التغريب والتبعية الثقافية) ومن هنا فقد انجاب كثير من الانهـــام الظالم الذى كنـــا نخوض فيـــه دون وعى والذى عرفته جميع كتب التـــاريخ المقررة فى مدارســـنا ومعاهدنا عن مظـــالم الدولة العثمانية واســـتبداد السلطان عبد الحميد وقد كان لنـــا ان نعرف ان المرحلة المضطربة التى يوجه فيها الى الاتهام الى الدولة العثمانية هى مرحلة تولى الاتحاديين للحكم بعد عزل السلطان عبد الحميد منذ ١٩٠٩ الى عام ١٩١٨ ، فالاتهامات التى توجه فى هذه المرحلة هى موجهة فى الحقيقة الى الاتحـــاديين الذين احتوتهم المحافل المـــاسونية ودفعوا الدولة العثمانية الى الدخول فى الحرب العالمية الأولى ، والذين سلموا طرابلس الغرب للايطاليين والذين فتحوا الطريق لليهود الى القدس بعد وقفة السلطان عبد الحميد الكريمة فى مقاومة مؤامرة هرتزل بكلمته الحاسمة له والتى كانت مصدر الحملة التى شنتها الصهيونية عليه بقصد هدم شخصيته فى نظر العرب توطئة لاسقاطه حتى وصف بالمستبد الأحمر وما روى عنه من اكاذيب .

وقد صححت موقفى من السلطان عبدالحميد بعد أن كشف خطورة مدحت والاتحاديين وقد ثبت ان الدولة العثمانيـــة لم تكن مصـــدر التاخر او التخلف الذى كان يسود البلاد العربية وانمـــا كان لذلك مصادر اخرى ، فضلا عن عظمة الدور الذى قامت به الدولة العثمانية فى حماية الوجود العربى من زحف الحمـــلات الصليبية مرة اخـــرى بذلك الترابط الاسلامى الذى جمع الأتراك والعرب تحت لواء الخلافة الاسلامية . وقد صححت موقفى بان الأمة هى امة واحدة : هى الأمة الاســـلامية وان المنطقة العربية هى وطن او كيـــان وانه ليس من المقبول القول بامه عربية وامة اسلامية او بامتين او اعطاء الوطن العربى اكثر من مكانه الصحيح فى دائرة الوحدة الاسلامية .

وكان خير ما قدم فى هذا المعنى ما رســـمه الأستاذ الامام حسن البنا من تحديد الدوائر الثلاث : الوطنية والقومية والاسلامية وتكاملها كذلك فقد كان واضحا أن الوحدة العربية هى صـــيحة تجمع واخاء اتسع نطاقها فى الحقيقة بعد سقوط الخلافة الاسلامية كمحاولة الالتقـــاء حول هدف أصغر مع التنادى والتعاهد على اعادة الخلافة وقد كان ذلك مادة فى برامج جميع الحركات الاسلامية ، ولقـــد كان هناك تفريق واضح عميق بين مفهوم الوحدة العربيـــة كما تحدث به رجال اليقظة الاســـلامية وبين مفهوم القومية الوافد الذى دعت اليه بعض الأحزاب العلمـــانية مفرغا من العقيدة والتعـــارف الاســـلامى جامعا بين العـــرب والترك والفرس والهند ... الخ .

وقد تغير رأيى فى عدد من الشـــخصيات فى مقدمتها رفاعة الطهطاوى الذى لم يستوعب الخلاف العميـــق بين الفـــكر الاسلامى والفـــكر الغربى (والفرنسى) حين ظن أن ما يقدمه الفـــكر الغربى يمكن ان يقبل فى افق الاسلام كذلك صححت رأيى فى دعوة عبد الرحمن الكواكبى بعد أن تبين انه كان من دعاة خلافة عربية هى من أفكار الماسونية .

وكذلك صححنا موقفنا من قضية ما يسمى تحرير المـــراة والمؤامرة التى كانت وراء قاسم امين وصالون نازلى فاضل .

وقد كان موقفى من الصهيونية وانهـــا واليهودية وجهان لعملة واحدة واضحا وقد اتهم هذا الموقف

اذ ذاك من بعض الموالين للنفــوذ الحــاكم بأنه مضطرب حيث كانت تلك القوى المســيطرة تفرق بين الصــهيونية واليهودية ، وقد تبين من بعــد صدق الوجهة التى ذهبنا اليها وفيما عدا ذلك فقد سار البحث فى طريقه الصحيح كاشفا عن وجهه (الفكر العربى الاسلامى) ويمكن القول ان البحث استطاع ان يجلى مجموعة من الحقائق :

أولا : الدفاع عن مفهوم الاسلام الصحيح : دين ودولة ونظام مجتمع ومنهج حيــاة فى وجه كل محاولات تصوير المجتمع الاسلامى على انه مجتمع انشطارى .

ثانيا : تجلية حقــائق الشريعة الاسلامية وعظمتها وما شهد لها به خصوم الاسلام من علماء الغرب فى وقت تعــالى فيه الدفاع عن القــانون الوضعى .

ثالثــا : الدفاع عن الوحدة الاســلامية فى وقت علت فيه صــيحة القوميات والاقليــات والاستعلاء بالعنصر والعرق .

رابعا : دافعت دفاعا شــديدا صادقا عن مجموعة حقائق ابرزها دور الأزهر الشريف فى حماية مفهوم الاسلام الصحيح وموقفه الحاسم فى ثورات الحمــلة الفرنســية وثورة ١٩١٩ ومواقفــه ازاء التغريب فى وجه على عبد الرازق وطه حسين .

خامسا : كشــفت واكدت ان اليقظــــة الاسلامية هى حقيقة اصيلة نابعة من قلب المجتمع الاسلامى وان مصــدرها حركة الامام محمــد بن عبــد الوهاب وليس الحملة الفرنســية ثم نماها المصــلحون من بعد حتى ارســت وجهتهــا الى تصحيح المفــاهيم وكشف زيف مخططات التغريب والغــزو الفــكرى كمقدمة لتشــكيل ارادة الأمة الاسلامية فى بناء المجتمع الاسلامى على منهج الله تبارك وتعالى ..

* * *

توطئــــــة

تعرض الفكر العربى الاسلامى المعاصر فى تطوره الى معركة ضخمة : هى معركة التغريب والتبعيـــة الثقافية التى فرضها الاســـتعمار مستهدفا تحطيم قيم الفكر العربى الاسلامى والقضاء على الملامح الأصـــيلة لشخصيته .

وقد وقف الفكر العربى الاسلامى من هذه المعركة موقف « التحدى ورد الفعل » ، ذلك أن الفكر العربى الاسلامى فى مطالع يقظته بالدعوة الوهابية انما كان يهدف الى التحرر من التقليد والجمود فى الفكر والاستبداد فى السياسة عن طريق تحرير الفكر العربى الاسلامى من الزيوف التى دخلت اليه خلال فترة الضعف التى مر بها العالم الاســـلامى ، غير أن العالم العـــربى الاسلامى سرعان ما واجه أول حملة عسكرية غربية بعد الحروب الصليبية هى الحملة الفرنسية ، ومن ثم بدات معـــركة الاستعمار الفرنسى البريطانى التى ادت الى احتـــلال اغلب اجزاء العالم العربى والســـــيطرة عليه وفرض الثقافة الغربية عليه ، ومن هنا بدات (معركة التحدى ورد الفعل) التى واجهها الفكر العربى الاسلامى فى قوة وحيوية واستطاع بعد ١٤٠ عاما (١٧٩٨ ــ ١٩٣٩) تحقيق انتصار واضح اعترف به خصوم العرب والمسلمين وعبر عنه مستر جب المستشرق الانجليزى حيث قال :

« ان المسلمين الغيورين يسلكون سبيلا وسطا ، فيأخذون خير ما فى الشرق وخير ما فى الغـــرب ، وبدأ ينفضون عنهم غبار العصور الوسطى ، ويحمون الاسلام من قوى المدنية الغربية المدمرة ، وان يستطيع العرب ان يقطعوا صلتهم بالماضى كما قطعها الأتراك ، ولما كان الاسلام جزءا لا يتجزأ من الماضى فليس فى وســـع المثل العربى الا على أن يتجرد منه تجردا تاما » .

نعم ، لقد دخل الغرب هذه المعركة بكل اسلحته ، فحاول التأثير فى التعليم والسياسة والمجتمع واللغـــــة العربية والصحافة والدين ، وعمد الى السخرية بتاريخ وأمجاد الأمة العربية الاسلامية وخلق نظريات القضاء على القيم والمثل العليا وخلق عملاء للثقافة الغربية ، وحاول عن طريق المستشرقين ومن تابعهم من المفكرين العرب نشر عديد من الأخطاء والشكوك والشـــــبهات واستغلال روايات موضوعة لتصـــوير تاريخ العرب والاسلام واللغة العربية بصورة مزرية .

وحاول الغرب انكار فضل الاسلام على الثقافــــة والحضارة الحديثتين وكذلك انكار فضــــــل مصر على حضارة اليونان ، كما عمد الى تغليب اللغات والثقافات الغربية على اللغة العربية ، عن طريق حملات التبشير بالارساليات والمدارس وتحوير انظمة التعليم والسيطرة على الصحافة واستعان فى ذلك بقسوة النفوذ الأجنبى والامتيازات الأجنبية ، وعمل فى سبيل تحطيم القـــوى المعنوية للامـــة العربية فرفض البغاء والخمر والمخدرات وجرى عزل جامعات الأزهـــر والقرويين والزيتونة عن العمل حتى يتحقق للاستعمار عن طريق التعليم المدنى تنفيذ نظريات ابعاد الدين عن التعليم وخلق منـــاهج لا هدف لها الا تخـــريج موظفين يعملون تحت اشراف رؤساء اجانب على حد قول كرومر (رأس انجليزية وأيد مصرية) .

وحرص الغرب على أن يقدم لنا من الحضـــــارة الجوانب المتصلة بالغرائز والترف وارضاء الأهواء بغية تحطيم المجتمع العربى وبث روح الفســـاد فيه وتمزيق كيانه .

وجرى الزعم بأن المدنية الغربية كل لا يتجـــزأ ، فاما ان تؤخذ كلها أو تترك كلها ، وكانت هذه مغالطة واضحة فى التفريق بين الثقافة والحضارة والأولى تمثل القيم والمشاعر وهى لا تنقل ، والثانية تمثـــل الماديات والمخترعات والمكتشفات وهى ما يمكن نقله دون قيد .

وقد عمد دعاة التغريب الى اثارة الشكوك حول

الدين وحول الاسلام بالذات بحسبانه القوة الموجهــة التى كانت دائما عامــــلا فعالا فى مقاومة العبـــودية والاستسلام .

وقد واجه الفكر العربى الاسلامى هــذه المعركة الخطيرة فى قوة ، وكانت نظرية (المقاومة ورد الفعل) التى حمل لواءها الفكر العربى الاسلامى قائمــة على اساس المقاومة والتجديد والاجتهاد والمحافظـــة على الأسس وعـــدم الاستسلام . وكشف الفكر العربى الاسلامى طوال هذه الفترة عن حقيقة واضحة هى : أن الحضارة الانسانية القائمة الآن ليست من عمل الأوربيين وحدهم بل هى من عمل جميع الشعوب التى شاركت فى المدنية منذ قرون ، فالورق من الصـــين ، والأرقام من الهند والكتابة من مصر وفينيقية .

وقد كان لهذه المقاومة اثرها عن تحول عدد كبير من عملاء الثقافة الغربية فى العالم العربى من الايمان بالحضارة المعاصرة الى الكفر بها ومن ثم عادوا يبحثون عن وسائل النهضة على اساس من تراثنا الاســلامى والعربى .

كما كشفت الأحداث عن فشل الدعوات والنظريات الغربية فى بلادها واعلن كتاب وفلاسفة غربيون منصفون ان الفلسفة المادية الغربية وما استندت اليه من علومها الكونية قــد عجزت عن تحقيق مجتمع سليم فى الغرب ومفهوم انسانى واضـــح ، ودعا الكثيرون الى ضرورة تطعيم الحضارة المادية بروحانية الشرق .

وكان الرأى السائد هـــو أن المنطقة العربية الاسلامية ليست مادية خالصة او روحية خالصة ، وانما تؤمن بالامتزاج بين الروحيــة والمادية ، وكان من اكبر اخطاء دعوة التغريب : نقل النظريات التى طبقت على المسيحية لتطبيقها على الاسلام مع الاختلاف الواضح فى موقف كل منهما من الحضارة والعلم ، وقد كشف البحث عن ان اليقظة الفكرية العربية بدأت قبل الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية ، وأن العرب قد استيقظوا قبل أن يوقظهم الغرب واحسوا بحاجتهم الى تجــديد تفكيرهم وحياتهم قبـــل ان تغـــزو حملات الغرب شواطىء بلاد العرب .

وقد انتهت هذه المعركة بفشـــل نظرية (التغريب الكامـــل) واثبتت المعـــركة حيوية الشخصية الاسلامية وقدرتها على المقاومة ومواجهة الأحـــداث والتطور ، والاقتباس دون القضاء على الملامح الأصلية للشخصية الاسلامية ، على ضوء تجربة سابقة للغرب ، فهم قــد اخذوا فى الماضى عن اليونان والفرس ولم يفقـــدوا شخصيتهم ، وتأكد الغرب بأن العـــرب لن يتخلوا عن ماضيهم ولن يقيموا فكرهم الحديث الا على اساس من قيمهم العربية الاسلامية الأصيلة .

وقد احس الاستعمار بأن المعركة أوشكت أن تنتهى بانتصار الفكر الغربى فحاول بعد الحرب العالمية الثانية تجديد اسلحته وتقدم ليدخل معركة اخرى بعــد عام ١٩٤٦ اشد هولا ، وقد بدأت اسلحته تزداد حدة وعنفا وهذا هو موضوع دراستنا فى المرحلة القادمة .

* * *

وبعد فهذه دراسة سريعة شاملة لتطـــور الفكر العربى الاسلامى المعاصر تصور مواجهته لمعارك التغريب والتجزئة والتبعية الثقافية فى خلال المرحلة فيما بين الحربين ١٩١٩ ـــ ١٩٣٩ فى مجال المسائل الكبرى : التعليم والسياسة والمجتمع والمرأة والقوميــة العربية واللغة العربية والصحافة والدين .

وهى تكشف فى صراحة وصدق عن جميع المعـــالم والتيارات والحركات التى اشتملتها فى هذه المعركة فى خلال هذه الفترة الدقيقة الحرجة ، فترة ما بين الحربين العالميتين .

واعتقد ان هذه هى الدراسة التمهيدية للكشف عن هذه الفترة التى يمكن أن توصف بأنها كانت المحـــاولة لوضع اسس بناء الفكر الاسلامى والثقافـــة العربية والمجتمع العربى ، وكل ما يمكن أن توصف به هـــذه المعركة فى كلمات : أن الفكر العربى الاسلامى لم ينهزم بالرغم من القوى والأســلحة والمؤامرات التى تجمعت للقضاء عليه . وانه استطاع أن يقاوم بقوة وعنف وأن يكشف عن اصالة وحيوية وقدرة على التطور والتلقى والاقتباس مع الاحتفاظ بمعالمه الأصيلة .

انور الجندى

* * *

مواقف حاسمة

فى تاريخ الفكر العربى المعاصر

(١٠٩٦ — ١٢٩١) الحروب الصليبية :

١٧٤٣ .... الوهابية (١٨٠٣ الاستيلاء على الحجاز)

١٧٥٠ .... تركيا دولة الرجل المريض .

١٧٨٩ .... الثورة الفرنسية .

١٧٩٥ .... ثورة المصريين على ظلم الأمراء وتوقيع وثيقة حقوق الانسان العربية .

١٧٩٧ .... الحملة الفرنسية .

١٨٣٠ .... احتلال فرنسا للجزائر .

١٨٣٩ .... احتلال بريطانيا لعدن .

١٨٤٢ .... ثورة الدروز والمـــارون (اعادة تنظيم لبنان ١٨٦٠) .

١٨٤٣ .... ثورة « السنوسية » فى طرابلس .

١٨٥٠ .... نظرية دارون .

١٨٥٤ .... انشاء قناة السويس — افتتاحها ١٨٦٩

(١٨٦٣ — ١٨٨٠) حكم اسماعيل والديون .

١٨٧٠ .... « المهدية » فى السودان (القضاء على المهدية ١٨٩٦) .

١٨٧١...... ...... جمال الدين الافغانى فى مصر .

١٨٧٥ .... المحاكم المختلطة فى مصر .

١٨٧٥ .... شراء بريطانيا لأسهم مصر فى القناة .

١٨٧٦ .... الدستور العثمانى الأول .

١٨٧٩ .... خلع اسماعيل .

(١٨٧٦ — ١٩٠٩) السلطان عبد الحميد (فترة حكمه)

١٨٨١ .... احتلال تونس .

١٨٨٢ .... الثورة العرابية فى مصر والاحتـــلال البريطانى .

١٨٨٣ .... (نظرية ماركس) .

١٨٩٥ .... وزارة مصطفى فهمى « تصفية مصر » .

١٨٩٨ .... قاسم أمين يعلن دعوة تحرير المرأة .

١٩٠٠...... ...... « نظرية فرويد » .

١٩٠٤ .... الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا .

١٩٠٦ .... دنشواى — وخروج كرومر (١٨٨١ — ١٩٠٧) .

١٩٠٨ .... سيطرة الاتحاديين .

١٩٠٨ .... انشاء « الجامعة المصرية » .

١٩٠٩ .... خلع عبد الحميد .

١٩١١ .... احتلال ليبيا .

١٩١٢ .... احتلال مراكش .

١٩١٣ .... مؤتمر باريس « أول مؤتمر عربى » .

١٩١٤ .... الحرب العالمية الأولى واعلان الحماية على مصر (١٩١٤ — ١٩١٨) .

١٩١٦ .... الثورة العربية الأولى (الشريف حسين)

١٩١٧ .... الثورة الشيوعية فى روســـــيا وخلع القيصر .

١٩١٧ .... احتلال العراق .

١٩١٧ .... وعد بلفور .

١٩١٩ .... ثورة مصر .

١٩٢٠ .... ثورة العراق .

١٩٢٠ .... انشاء « بنك مصر » .

١٩٢١ .... تركيا تهزم اليونانيين .

١٩٢٢ .... اكتشاف قبر « توت عنخ آمون » .

١٩٢٣...... ...... اعلان الجمهورية التركية والغاء السلطنة

١٩٢٣ .... بدء الفاشية والنازية فى أوربا (ايطاليا والمانيا) .

١٩٢٣ .... انشاء الاتحاد النسائى .

١٩٢٤ .... الغاء الخلافة (٣ مارس ١٩٢٤) .

١٩٢٥ .... ثورة سوريا .

١٩٢٦ .... تولى السعوديين حكم الحجاز .

١٩٢٨ .... الحـــروف اللاتينية بدلا من العربية فى تركيا .

١٩٣٦ .... معاهدة (١٩٣٦) فى مصر .

١٩٣٩ .... اندلاع الحرب العـــالمية الثانية (انتهت ١٩٤٥) .

مدخـــل

تأثر الفكر العربى الاسلامى المعاصر بعوامل متعددة كانت بعيدة المدى فى يقظته وتطوره ويمكن اجمال هذه العوامل فى عبارة واحدة هى « التحدى والاستجابة » او التحدى ورد الفعل .

فقد كان الفكر العربى الاسلامى الى ما قبـــل اصطدامه بالغرب الزاحف يعيش حياة منبثة يغلب عليها الركود والضعف والانطواء .

وكان هذا طبيعيا بالنسبة للجمود الذى خيم على العالم الاسلامى كله نتيجة للمرحلة التى كانت تمر بها الدولة العثمانية فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة بعد ان دخلت هذه الدولة مرحلة الضعف الذى وصفت فيـــه « بالرجـــل المريض » وهى نفس القرون الثلاثة التى استيقظت فيها أوربا ودخلت خلالها معركة النهضةالتى سيطرت فيها على العلم وانفصلت عن الكنيسة وتحررت من المسيحية ودعت الى العلم التجريبى ونظرياتالمادية والجنس ، ثم كانت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) التى اعتبرتها أوربا قمة انتصاراتها فى مجال الحرية وفىخلال ذلك ظهرت عوامل الاحتكاك بين الشرق والغرب التى بدأت بالاستكشافثم تطورت الى التجارةالى الاستعمار .

وكان هذا الاحتكاك هو المعركة الثانية بين الشرق والغرب بعد مضى اربعـــة قرون على نهاية الحـــروب الصليبية (١٢٩١) وقد كانت الحملة الفرنسية علىمصر هى أول حركة استعمارية للعالم العربى (١٧٩٨) .

كان لهـــذا الاصطدام بين العالم العربى واوربا « بداية الاستجابة للتحدى » ، بل يمكن القول بأن اليقظة الفكرية العربية بدأت قبل الحملة الفرنسية بأكثر من اربعين عاما ، عندما بدأت أول حـــركة فكرية عربية اسلامية هى « الوهابية » عام ١٧٥٧ كرد فعل على انهيار تركيا العثمانية وجمودها ومقاومة للجمود الذى ران على التفكير العربى الاسلامى .

هنا بدأت هذه المعركة التى نطلق عليها « التحدى والاستجابة » ، كانت الحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر هى بدء هذه المعركة الضخمة التى ما تزال ممتدة حتى اليوم : معركة التحدى ورد الفعل .

كانت الحضارة التى حملها الاستعمار معه باهرة مثيرة فتح الوطن العربى عينه عليها ، فاضطرب فترة حيث التقت بالضـــوء بعـــد الظلام الطويل ثم لم يلبث أن واجهها ولم يتقبلها الا بتحفظات .

وقد حمل الاستعمار معه حضارته وثقافته الىالعالم الاسلامى كسلاح من اسلحة الغزو والاحتلال ، بل لعلها قمة الأسلحة الضخمة البعيدة المدى بعد اسلحة الغزو العسكرى ، اذ كانت الأداة التى حرص الاستعمار على استعمالها لتأكيد الغزو والاقرار بقائه فى المناطق التى احتلها ، فقد رسم الاستعمار خطته على اساس أنيقضى على الحياة الفكرية العربية الاسلامية بالغزو الفكرى والثقافى الغربى ومحو اللغة والدين واحلال لغة اخرى ودين آخر وثقافة أخرى مكانها ، مما يمكن له — اى الاستعمار — بالبقاء الطويل ، ومما يحول الغزو الى عملية ادماج كاملة وتجنيس لأهل المنطقة العربية ، فقد كان حريصا على أن يمحو وجود العرب محوا نهائيا .

وقد كان الاستعمار الفرنسى والانجليزى ، — وقـــد تقاسما المنطقة — (بالاضافة الى الاستعمار الأسبانى والايطالى) حريصا على أن يحطم الشخصية العربية ويقضى على وجـــــــودها أو يمحـــوها وكانت لمحاولة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ثم محـــــاولة الاستعمار الايطالى فى ليبيا دلالة واضحة على ذلك الاتجاه الذى تحطم من بعد ، على اثر المقاومة الضخمة التى واجهت بها الأمة هذا الاستعمار .

ونحن فى هذا البحث انما يعنينا الغزو الفـــكرى والثقافى وأثره فى تطور الفكر العربى الاسلامى المعاصر .

كان هذا الفكر العربى فكرا اسلاميا خالصا ، ثم تطور مع انتفاضة اليقظة الى فكر قومى ووطنى وسياسى يقـــوم على أساس التحـــرر من الاستبداد الداخلى والاستعمار الغربى .

وقد بدات حركة المقاومة السياسية للاستعمار ، منذ اليوم الأول للاحتلال وفى نفس الوقت بدات حركة رد الفعل والاستجابة فى ميدان الفكر أيضا : وامتدت المقاومة ورد الفعل الى عدة ميادين فى وقت واحد .

وكان ابلغ ما تدل عليه هو : قوة الشخصية العربية الاسلامية وقدرتها على المقاومة وصلابتها واعتدادها ، ووقوفها موقف الرد على التحدى .

لقد حاول الاستعمار أن يستغل ضعف العالم الاسلامى والوطن العربى فكريا واجتماعيا وسياسيا للسيطرة عليها ، ولكن المنطقة استطاعت ان تواجه هذه المعركة فى يقظة وقوة ، فمضى الفكر العربى الاسلامى يرفع عن نفسه اصر الجمود ويستكشف معدنه الاصيل المخبوء تحت ضباب الجمود الذى ران على الشرق .

كانت مهمة الفكر العربى فى هذه الفترة : تجديد الفكر الدينى ، وكشف حقيقة المعالم الأساسية للثقافة العربية والتراث الاسلامى ، وفتح باب الاجتهاد . ومواجهة افكار الغرب وذلك بالنظر فيها وتقبل بعضها ومعارضة بعضها الآخر والرد على ما وجهه الغرب الى العرب والمسلمين من اتهامات ، ونقض النظريات الفكرية الاستعمارية .

كما واجه الفكر العربى الاسلامى حملات التبشير والاستشراق والتغريب ، فلم يقف ازاء الحضارة الغربية الغازية موقف الجمود ، بل سرعان ما فصل بين الحضارة والثقافة . فوقف من الحضارة موقف القبول لوسائلها وأدواتها وان عارض الجانب الاباحى منها .

اما من ناحية الثقافة فقد وقف منها موقف الحذر ، فرفض مذاهبها التى تتعارض مع روحه ومقوماته ، وقبل اساليبها فى البحث ، فجدد بها ثقافته وتاريخه وتراثه .

ولقد كانت المعركة بين الفكر العربى الاسلامى ، والفكر الغربى طويلة المدى عميقة الجذور وهى ما تزال مستمرة لم تتوقف ، خلال مائة عام من اندلاعها ، ولكن على مستوى آخر غير مستواها الأول ، فقد كان الاستعمار يطمع بقوته واسلحته وسلطانه وجيوش احتلاله ان يفرض ثقافته وحضارته فرضا كاملا ، وأن يمسخ الثقافة العربية والفكر العربى الاسلامى مسخا نهائيا ، ليقضى على اصوله وجذوره وتراثه ومعالمه الأولى ، غير أن المقاومة القادرة على رد التحدى حالت دون سقوط الفكر العربى الاسلامى ، بل ردت عليه قوته وحيويته بما استفادت من تبادل القذائف فى المعركة ، فان الفكر العربى الاسلامى لم يلبث ان استيقظ ونفض عنه غبار الجمود وحاول أن ينطلق بقوة تعوض ما فاته خلال الاغفاءة الطويلة التى قضاها مقيدا بسلاسل الجمود الذى سقطت فى هوته الامبراطورية العثمانية ، فعمل فى ميادين البعث والتجديد والاقتباس والنقل والترجمة للدفاع عن كيانه وهذا العمل فى جملته يهدف الى :

- × المحافظة على الأسس الأصلية للشخصية .
- × التقريب بين وجهات النظر .
- × الاستفادة من الجديد والانتفاع به .
- × صقل التراث القديم وابرازه فى صورة عصرية .
- × تصحيح الاخطاء المتعمدة وغير المتعمدة .
- × الانتفاع بأسلحة الغزو لرد الغزو نفسه .

لقد كانت تيارات الغزو مدعمة بأسلحة مختلفة منها جيش الاحتلال وسلطان الاستعمار ، والأمراء ، والحكام ، والعملاء من المفكرين والسياسيين ولم يكن يقف فى وجهها أو يردها الا صلابة القوى الشعبية العميقة الايمان بشخصيتها وتراثها وقيمها ، لذلك قام معسكر قوى للدفاع عن الكيان الفكرى العربى الاسلامى ، مهما اتهم هذا الكيان « بالمحافظة » فانه كان الحاجز الضخم الذى رد « موجة الادماج » وحال دون بلوغ الاستعمار غايته فى القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى ، مما اضطر معه أن يعدل من خططه بعد أن تأكد من أن محاولة القضاء النهائى على كيان الفكر العربى الاسلامى ومقوماته ، هو أمر جد مستحيل .

ولما فشلت معركة « الادماج » بدات معركة « التغريب » وهى معركة أشد قوة لأنها معركة غير مكشوفة ، ولكنها خفية تسرى فى برامج التعليم ومناهج البحث ويسيطر عليها الاستعمار من عدة نواحى ، من ناحية الصحيفة والمدرسة ، والكتاب ، والسينما ، والاذاعة .

وهذه هى المعركة الضخمة التى خاضها الفكر العربى الاسلامى وواجهها فى صلابة ، وهى موضع دراستنا هنا فى مجال مرحلتها الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٤) حيث بدات معركة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية أشد عنفا واخطر قتالا وسيكون مجالها دراسة أخرى .

العرب بين الامبراطورية العثمانية

وتركيـــا الكماليـــة

كى نستطيع أن نصور معالم الفكر العربى الاسلامى المعاصر وتياراته فى هذه الفترة علينا أن نستعرض الحياة السياسية للعالم العربى فى اتصالها بالدولة العثمانية : دولة الخلافة الاسلامية التى سيطرت على الكيان العربى والاسلامى اكثر من أربعـــة قرون ، والتى كان الوطن العربى جزءا منها حتى أوائل الحرب العـــالمية الأولى ١٩١٧ .

ولقد ارتبط تاريخ الوطن العربى بتركيا أمدا طويلا حتى بعد أن انفصل عنها ، عندما انتهت الدولة العثمانية وسقطت الخلافة وقامت الجمهورية التركية ، فقد ظل الوطن العربى يتطلع الى هذا الجزء من العالم الاسلامى، الذى ارتبط به برباط الخـــلافة الاسلامية والتبعيـــة للامبراطورية العثمانية ، ثم ظل مشدود النظر اليها وهى تنهزم فى الحرب العالمية الأولى ثم تحارب اليونان وتتحرر وتنتقل الى دولة عصرية علمانية تنفصـــل عن الشرق والاسلام وتتجه الى الغرب ، وتلغى النظم القديمة وتلغى اللغة وتكتب اللاتينية من الشمال وتحرر المرأة وتفرض القبعة .

ولقد كان لتركيا فى المرحلتين اثرها فى الوطن العربى فى المرحلة الأولى وهى قائمة باسم الخلافة الاسلامية عندما بدأت حركة الوحدة الاسلامية التى قادها السلطان عبد الحميد باسم العالم الاسلامى كله فى مواجهة المؤامرة الاستعمارية الصهيونية والتى حاولت الســـيطرة على فلسطين ثم كيف عملت الحركة الطـــورانية التى قادها جماعة الاتحاد والترقى لاسقاطه والقضـــاء على حركة الوحدة الاسلامية واحلال دعوى القـــوميات والعنصرية وفتح الطريق أمام الصهيونية السيطرة على فلســـطين وتسليم طرابلس الغرب لايطاليا واقامـــة ذلك الصراع العنيف مع العرب فى محاولة لتتريكهم حيث وقعت المعركة بين العرب والاتحاديين ، وانتهت بانفصال العرب عنهم .

وفى المرحلة الثانية : عندما انهزمت تركيا العثمانية فى الحرب العالمية الأولى . وسقطت فى يد الحلفاء ، وتبع ذلك قيام مصطفى كمال بحركة التغريب والارتماء فى احضان الغرب كلية والقضاء على الخـــلافة والسلطنة حيث قبلت تركيا الاندماج الكامل فى النظـــم الغربية وانفصلت انفصالا كاملا عن الشرق والاسلام والعرب فى اللغة والفكر والسياسة والاجتماع .

فى هذه المرحلة ايضا ، كان العرب مشدودو النظر نحو تركيا . وقد كان لهذا التطور الحضارى والثقافى اثره فى الوطن العربى ، بل وفى العالم الاسلامى ايضا ، حيث تأثرت به ايران وافغانستان .

بل لعلنا لا نعدو الحق اذا قلنا ، « ان حـــركة التغريب » فى الوطن العربى انما تطورت وتعمقت على اثر حركة التغريب التى قامت بها تركيا الحديثة التى رات أن الوسيلة المثلى للنهضة والحرية هى قبول الحضارة الغربية قبولا كاملا .

وقد تم هذا التحول بقوة السلطة الحاكمة وسلطان القانون المفروض ، ولم يتم بالاقتناع والتطور ، لذلك لم يكن عميق الجذور وسرعان ما اعتوره الاضطراب ولم يعدو طوال عشرين عاما ما بين (١٩٢٤ — ١٩٤٤) أن يكون الا قشرة ظاهرية ، مما حمل الباحثين على القول بأن تركيا فى خلال هذه الفترة كانت تعانى آلام المخاض .

وقد ظهرت دلائل تؤكد ذلك فيما بعد ، حين اضطرت الحكومة التركية الى اعادة الكثير من معالم الحياة الفكرية والروحية القديمة بعد أن ثبت أن القضاء عليها كان غير يسير .

وقبل أن يبزغ القرن التاسع عشر كان نابليون قد زحف الى الشرق بأسطوله واحتل مصر ، ورسا الى عكا محاولا فتحها وأثارت حركته مطـــامع بريطانيا حيث تم

بدأ صراع طويل المدى منذ ذلك التاريخ بين بريطانيا وفرنسا ، كان له أثره السياسى البعيد المدى وأثره الفكرى الذى ما زال قائما الى الآن .

ولقد كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨) نقطة الالتقاء بين الشرق والغرب فى العصر الحديث وهى المرحلة الثانية للحروب الصليبية .

وقد امتد هذا الدور حتى عام ١٩٦٧ عندما وضعت فرنسا وبريطانيا يدها على الوطن العربى كله واعلن اللورد اللنبى فى القدس انتهاء الحروب الصليبية .

وقد كشفت هذه الحملة عن اتجاه أوربا نحو الشرق الاسلامى ، والبلاد العربية ، وكانت نقطة البدء ، فقد توالت بعد ذلك حملات الاستعمار وامتدت ، حتى بعد ان جلت الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ ، واجهت المنطقة العربية حملة بريطانية عام ١٨٠٧ ولم يمض على ذلك اكثر من ثلاثة وعشرين عاما حتى احتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وتبعتها بريطانيا عام ١٨٨٢ باحتلال مصر ، ثم توالت مراحل الاحتلال .

كان هذا الجمود والضعف الذى اصاب الشرق الاسلامى ، والوطن العربى مدعاة لأن تنطلق دعوة المقاومة والاصلاح واندلاع فى نفوس المصلحين شرارة الغيرة : هنالك بدأت طلائع دعوتين :

(١) دعوة الى مقاومة جمود الدين وقشوره .

(٢) ودعوة الى مقاومة استبداد السلاطين والأمراء

أما الدعوة الأولى ، فحمل لواءها محمد بن عبدالوهاب وقد تحولت الى حركة فدولة كانت بعيدة المدى فى العالم الاسلامى ، مؤثرة اكبر الأثر فى مختلف طوائف المسلمين (اهل السنة والشيعة والمتصوفة جميعا) .

ولم تكن « الدعوة الوهابية » دعوة دينية خالصة وانما كانت « حركة سياسية » ذات مذهب فكرى ، لذلك اهتزت لها دولة الخلافة العثمانية ، واهتز لها الغرب الواقف وراء سرير الرجل المريض ، ينتظر اليوم الذى يقتسم فيه امبراطوريته الواسعة ، لذلك كان لابد من محاولة تأتى عن طريق تركيا العثمانية الخائفة من هذا الخطر الذى يزحف اليها من أطراف العراق ، ويهاجم المواقع المقدسة فيها ، وخاصة بعد أن تحقق لها — أى الوهابية — امتلاك الحجاز وسيطرتها على (الجزيرة العربية) : ان لم يكن عسكريا فسياسيا وفكريا .

وكانت مصر اذ ذاك قد تحررت من الحملة الفرنسية بقوتها المعنوية الشعبية التى حطمت هذه الحملة ، والتى وجدت لها قيادة فعالة استطاعت ان ترد من قبل ظلم المماليك وتفرض عليهم توقيع وثيقة حقوق الانسان (١٧٩٥) ثم استطاعت أن تنزع الحاكم التركى (خورشيد) من منصبه فى القلعة باسم الشعب على نحو يدل على مدى اليقظة والفهم والايمان بالحق الشرعى فى خلع الحاكم الفاسد .. وقد جاء هذا نتيجة للايمان بالتراث العربى الاسلامى ، وليس نقلا عن الحضارة الأوربية التى لم تكن بعد ، قد وضعت موضع الاقتباس فى العالم الاسلامى . وقد اتسع هذا الاتجاه فيما بعد حينما بدأت دعوة جمال الدين الى اقامة استبداد الملوك . واتجهت فعلا الى مقاومة شاه ايران ، وخديو مصر .

* * *

القوة الجديدة فى مصر

وفى مصر بدأت قوة جديدة بقيادة محمد على وابراهيم بلغت ذروتها من القوة ، واخذت بها تركيا ، كما أخذت بها أوربا التى كانت تخشى أى قوة جديدة شابة يمكن ان تفرض سلطانها على المنطقة .

لذلك ضربت القوتان بعضهما ببعض فسلطت محمد على على الوهابية فانهزمت (١٨١٦) ثم انهزم محمد على بعد ذلك باقل من عشر سنوات حينما حطم الغرب مجتمعا أسطوله فى موقعة نفارين (مايو ١٨٢٥) مما انتهى بامبراطوريته التى اجتاحت الامبراطورية العثمانية وكادت تستولى عليها ، والتى امتدت الى الجزيرة العربية عام ١٨٤٠ الى أن تتقلص فى حدود مصر وحدها ، وبذلك قضى على الحركتين : الحركة الوهابية ذات الطابع العربى السياسى المذهبى ، والحركة المصرية .

* * *

المؤامرة على الدولة العثمانية

كان الغرب يهدف الى تمزيق الدولة العثمانية لالتهام الأقطار العربية التابعة لها والسيطرة عليها ، والقضاء على الخلافة الاسلامية التى هى علامة الوحدة الاسلامية الجامعة للعالم الاسلامى كله .

كان هذا الهدف يعيش فى اعماق الفكر السياسى الغربى منذ استطاعت الدولة العثمانية الزحف الى أوربا والسيطرة عليها والوصول الى اسوار فيينا ، مما خلق فى الغرب بعد أن وصل الى مرحلة القوة والتفوق روح الانتقام والعدوان وهو ما حاوله من مؤامرات واسعة خلال أكثر من مائة عام لتمزيق الدولة العثمانية .

وكانت الدولة العثمانية قد التقت بالاقطار العربية فى وحدة اسلامية جامعة عام ١٥٠٠ ميلادية ، ولم تكن هذه الوحدة استعمارا كما حاول البعض أن يصفه ، ولكن كان لقاء تحت مظلة الاسلام فى سبيل حماية الامة من عوامل الغزو الغربى الذى تجدد بعد انتهاء الحروب الصليبية .

وكانت المؤامرة الغربية تهدف الى القضاء على روح الجامعة الاسلامية باثارة روح القوميات والتعصب والعروق والدماء وهى الدعوة التى حمل لوائها جماعة الاتحاد والترقى وسيطر عليها مدحت وبعض المثقفين الذين تعلموا فى الغرب وكانت دعوتهم ترمى الى تمزيق الروح الاسلامية والقضاء عليها واعلاء ما اسموه « الطورانية » وهى العنصرية التركية القديمة وذلك فى سبيل القضاء على الوحدة الجامعة بين العرب والترك وهى الدعوة التى حمل لوائها الاتحاديون الذين حكموا تركيا بعد اسقاط السلطان عبد الحميد ، وقد اندفعوا فيها الى الحد الذى حملهم على العمل على تتريك العناصر وتتريك العرب بالذات بحرمانهم من لغتهم وتسفيه تاريخهم وماضيهم وهو العامل الخطير الذى أثار روح الخلاف بين عنصرى الدولة العثمانية ومهد للقضاء على الامبراطورية وكذلك مضى الى هدم الدولة وتسليم فلسطين لليهود وطرابلس الغرب للايطاليين وجاء بعد ذلك دور مصطفى كمال اتاتورك فى تغريب تركيا كلية والقضاء على الخلافة واللغة العربية والاسلام وقد كشفت الايام عن سلامة موقف السلطان عبد الحميد وصموده أمام مغريات ومؤامرة الصهيونية فى مخططها الرامى الى الاقامة فى القدس وكان موقفه الحاسم معهم هو العامل الأساسى فى اسقاطه .

* * *

العرب والاستعمار

(ما ذا كان اثر الاستعمار فى الكيان العربى وما مدى هذا الأثر من الناحية الفكرية) .

لقد بدأ الاستعمار فى الكيان العربى بالحملة الفرنسية على مصر التى حفزت أسطول بريطانيا الى التحرك للبحث عن الأسطول الفرنسى . وكان هذا علامة الصراع الفرنسى البريطانى ، الذى اتصل فى الوطن العربى منذ ١٨٩٨ حتى ١٩١٧ حينما اقتسمت بريطانيا وفرنسا بمعاهدة (سايكس باكو) الوطن العربى : اى انه فى خلال قرن وربع قرن ظلت المعركة محتدمة الأوار ثم انها استمرت بعد ذلك فى الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بالرغم من الاتفاق الودى الذى تم توقيعه بينهما عام ١٩٠٤ وبه أطلقت كل منهما يد الأخرى فى مصر ، ومراكش .

كانت بريطانيا تسيطر على مصر والعراق وفلسطين والأردن ، بينما تسيطر فرنسا على سوريا ولبنان ومراكش وتونس والجزائر . وكان الاستعمار البريطانى والفرنسى متباين الوسائل والأساليب فى كل من الاقطار المحتلة ، غير انه كان هناك شبه اتفاق غير مكتوب بينهما يلتقى فى مفهوم واحد هو (أن الشرق كله هو منطقة نفوذ وتوسع للغرب ، وان سكان افريقيا وآسيا ، فى درجة اقل من درجة اهل أوربا ، وانه لا بد ان تظل بلادهم منطقة نفوذ للغرب ، ومورد خامات وأسواق انتاج وان يظلوا وقود الجيوش التى يجندها الغرب ، وعمال مصانعه ، وعبيد أرضه وأداة استغلاله) وكان اختلاف فرنسا وبريطانيا فى النظم والأساليب ، يمثل جانبا من الخطة المرسومة لتجزئة المنطقة وعزلها ، والفصل بين كل منطقة منها وبين الأخرى بوسائل مختلفة اقل مافيها الأسلاك الشائكة ، فقد كان هناك اختلاف فى الأسماء ثم فى نوع نظام الحكم والعملة والاعلام ومناهج التعليم ومفاهيم الثقافة والفكر فضلا عما آثاره الاستعمار من خلافات بين حضارات قديمة ومذاهب ودعوات تفرقة بين المسلمين ، والمسيحيين والبربر والعرب والموارنة والدروز والسنة والشيعة . كان الاستعمار بعد أن احتل هذه الأقطار بالغزو العسكرى قد أخذ يدعم بقاءه فى المنطقة . وكانت وسيلته الى ذلك هى الغزو الثقافى والفكرى ، وهذا لا يتم الا بعزل هذه الأجزاء ونشر دعوات التجزئة والانفصالية فى كل منها ، ثم تجزئتها داخليا مرة أخرى بالأحزاب السياسية أو بالخلافات المذهبية .

ولقد قاوم الكيان العربى الاستعمار منذ اليوم الأول ، بالثورات والمعارك وبمختلف أسلحة المقاومة ، واستمر فى معركة متصلة معه ، لم تتوقف ، قدم خلالها الشهداء والضحايا ، ثم وقفت بالمرصاد لكل مؤامراته . ووجد الاستعمار أعوانا وعملاء كانوا اداته فى تنفيذ دعوات التغريب والتجزئة وفرض سلطانه السياسى والفكرى . كانت الحضارة الغربية هى وسيلته فى تحطيم جبهة المقاومة والقضاء على كيان الأمة ذلك لانه لم يقدم لنا من هذه الحضارة جانب الزخرف والجنس والملذات والاثام ، فكان ذلك عاملا ضخما فى تحطيم اقتصادنا العربى ، فلقد تهاوت ثروات الأسر كلها تحت سلطان الملذات والمخدرات والبغاء ، وكلها اسلحة هيأ لها وحماها ، عن طريق الامتيازات ، وشجع على استمرارها ، وجند لها من الكبراء من وقفوا دون القضاء عليها . أما الجانب الايجابى الفعال من الحضارة جانب القوة العسكرية والكشف والاختراع والمدافع والطائرات ومصانع الانتاج فقد حال بيننا وبينها ، وبذلك انهارت ثروتنا الاقتصادية ، فى نفس الوقت الذى تحطمت فيه قوانا الاجتماعية والروحية ، هذا بالاضافة الى حملاته التغريبية فى فرض « ثقافة » الغرب التى تحمل بذور المادية وانكار الأديان والتشكيك فى التاريخ ومحاولة تحطيم معنوياتنا عن طريق « التعليم » الذى فرض سلطانه عليه وعن طريق « التبشير » الذى سانده وحماه ودفعه الى الأمام ، وعن طريق الحملات المستمرة على اللغة العربية ومحاولة احلال اللهجات العامية بدلا منها وحملات الشعوبية واذاعة نظريات السامية والآرية .

واجهت العرب الاستعمار فى معارك المقاومة المختلفة : السياسية والفكرية والاجتماعية ، واعانها على المعركة صلابة شخصيتها وقوة روحيتها وايمانها بالله

واستهانتها فى التضحية من اجل الحــرية والدفاع عن الحمى وكرامة الوطن .

وكانت معركة « التحدى والاستجابة » معــركة ضخمة، ظلت تدور رحاها خلال الفترة التى نؤرخها ، بين الاستعمار باسلحته وقواته ووسائله وعملائه واغرائه وحملاته التغريبية ، وسلطانه على الحــكم والتعليم والصحافــة والاذاعة والسينما فى الوطن العربى كله ، وبين قوى الأمــــة ممثلة فى قادتها ومفــكريها حيث استيقظت لتدافع عن وجودها وتدعم من كيانها ، وقد اندفعت اقلامها تكتب داعية الى الجهاد والفداء والمقاومة بينما كانت حركات الأصلاح تجــرى فى محيط الدين والمجتمع والفكر والتعليم والاقتصاد ، فقامت جمعيات الشبان المسلمين والاخوان والرابطة الشرقية ، وبنك مصر وانشئت مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وجرت اصلاحات فى الأزهر وتجديد فى اساليب دراسة العقيدة واللغة والمجتمع والمرأة . وتوحيد فى الجهات الداخلية ازاء المستعمر مما يمكن القول معه بأن الاستعمار هزم فى معركته الأولى ، وتحطمت اسلحته . وكسبت الأمــة العربية الجولة الاولى .

فقد بقيت اللغة العربية وبقى الاسلام وتحــرر الاقتصـــاد ونقض التعليم عنـــه آثار الاستعمار . وفشل التبشير ، وتحطمت دعاوى المستشرقين وانكشفت اتهاماتهم المتعصبة .

ولكن هل توقف الاستعمار على اثر الهزيمة التى منى بها ، ذلك لم يحدث مطلقا ، فقد جدد الاستعمار خططه وبدا معركة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية ليس هذا موضع بحثها .

وجملة القــول فى هــذا المدخــل ، ان امتنــا قاومت الاستعمار والغزو العسكرى والثقافى وواجهت الحملات المختلفة بايمانها . وفرضت رايها فى الحضارة فرات ان هذه الحضارة ليست غربية خالصة وانما هى تراث الانسانية كلها وقد شارك فيها الشرق من قبل وقدم لها خلاصة جهده وتجاربه ما أوصلها الى مرحلة القــوة والفعالية ، كمــا فرضت البــــلاد رايها فى الثقافة الغربية فأنكرت قول القائلين : بقبولها جميعا خيرها وشرها ، ما يحمد فيها وما يعاب ، وتحررت من التبعية ، واعلنت حقها فى أن تقبل مناهجها فى البحث ، حيث جددت بها تراثها ، ورفضت مالا يتفق مع معالم شخصيتها وقيمها وكيانها وأمجادها .

* * *

(١)

الفكر العربى الإسلامى فى مرحلة اليقظة

(الى الحرب العالميـــة الأولى)

يقظة الفكر العربى الإسلامى

كانت الفترة التى سيطر فيها الأتراك العثمانيون على العالم الاسلامى فترة خمود للفكر العربى الاسلامى بصفة عامة ، اذ لم يكن للفكر العربى ملامح خاصة يتميز بها . فقد دخلت العرب فى نطاق الامبراطورية العثمانية ١٥١٧ واستمروا حتى عام ١٩١٧ اى انها امضت اربعمائة سنة فى نطاق الامبراطورية التركية التى بدات تهوى الى الضعف منذ عام ١٨٦٣ عندما اغار الاتراك على أسوار « فيينا » وارتدوا عنها مهزومين ، وكانت هذه أول هزيمة لهم فتحت اعين الغرب على ضعف الامبراطورية مما حمله على مواصلة الحملات عليها وفتح عينه على بدء معركة الانقضاض والغزو .

واذا كان الغزو الأدبى للشرق قد بدا بوصول فاسكودى جاما الى الهند (مايو ١٤٩٨) ومن ثم بدات هزيمة الوحدات البحرية العربية وتحطمت أساطيل العرب التجارية فى المحيط الهندى ، فان انتصار العثمانيين فى حكم المنطقة وحمل لواء الزعامة السياسية والثقافية والدينية قد اخر الاصطدام الى ما بعد ذلك ، غير ان الغرب لم يتوقف عن الغزو وذلك بمحاولة حصول دوله على امتيازات فى مختلف اقطار الامبراطورية العثمانية تكفل للتجار سلامة اشخاصهم واملاكهم ثم اتسعت هذه الامتيازات حتى أصبحت سلطانا ضخما لا سبيل الى مراجعته ، لها محاكمها وسلطاتها وقد تغلغل الفرنسيون قبل غيرهم فى العالم العربى .

واذا قيل ان حركة الثقافة الأوربية قد بدات بحملة نابليون على مصر (١٨٩٨) او من قبلها بوصول الجمعيات التبشيرية الفرنسية ١٨٤٧ والأمريكية ١٨٦٨ الى بيروت واليها تنسب يقظة الفكر العربى فاننا نرى ان اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الفكرى الغربى بأمد طويل حيث بدات بدعوة محمد بن عبد الوهاب الى تجديد الدين والعودة الى بساطته الأولى . واذا كان عبد الوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته فى حدود الأربعين فان يقظة الفكر العربى تكون قد بدات قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوربية بمائة عام على الاقل . وقد كانت هذه الدعوة الفكرية السياسية بعيدة المدى فى تحرير الفكر العربى ويقظته ، ولا سيما بعد ان اتيح لها ان تتحول الى دولة فتية كان لهـا اغارات على حدود الشام والعراق .

* * *

كانت يقظة الفكر العربى الاسلامى منصبة على تاكيد الحقائق الأساسية للفكر الذى قامت عليها الحضارة الاسلامية . وهى فى موجزها تتمثل فى مبادىء محددة صريحة :

× كرامة الانسان وحريته .

× امتزاج الروحية بالمادية . والعمل لليوم والغد معا .

× قل هاتوا برهانكم فى كل قضية « مبدا سياسة العقل والعلم » .

× حفظ التراث وتجديده .

× تجديد الفكر بالغربلة واقصاء القشور والاجتهاد والموائمة مع التطور والزمن والبيئة .

× تكريم الطوائف المختلفة ورعايتها .

× اقامة عملية الصهر والوحدة واقامة الكيان الموحد .

× حماية الوطن والحضارة والتسلح واليقظة للعدو .

× المقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاع عن العرض

× تغليب السلام والأخوة والمحبة وعدم العدوان .

× الدعوة الى العدل الاجتماعى ومساواة الأجناس والمفاضلة بالعمل والتضامن الاجتماعى .

× الشورى وقبول الآراء المختلفة ودراستها .

ولقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى التجديد الفكرى الاسلامى وقيام هـذه الدعوة من قلب الجزيرة العربية بالذات عاملا ضخما فى هذه الفترة الدقيقة بالذات ، لاسيما اذا ربطنا هذا بأن العالم الاسلامى قد

وجد دائما مثل هذه الدعوات التجديدية للفكر على فترات ممتدة من تاريخه ، وحمل لواءها امثال الغزالى وابن تيمية .

وقد روى الجبرتى أن واعظا من تركيا جلس فى جامع المؤيد (١١٣٢ — هـ) وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم ، وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وايقاد الشموع والقناديل على قبورهم وتقبيل أعتابهم ، ووصف ذلك كله بأنه كفر يجب على الناس تركه ، ورد على ما قاله الشعرانى من أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وأن ذلك لا يجوز وأنه لا يجدر بناء القباب على ضرائح الأولياء أو بناء التكايا . ولم يتوقف هـذا الواعظ الذى لم يذكر الجبرتى اسمه — عند الوعظ بل عمد الى جمع طائفة من الاعوان والاتباع حوله واتجه الى العمل لتقويم الناس بالعصى ، فخرج ورجاله بعـد صلاة التراويح ووقفوا بالبنادق والأسـلحة على باب زويلة فهرب الذين يقفون معه » ودعا هذا الواعظ الى هدم التكايا ، وقد نفاه الوالى الى الشام وكان لحركته اثرها فى مصر ، وقـد تأثر بها حسن العطار ، الذى اصبح فيما بعد شيخا للازهر .

وقد كانت الدعوة الوهابية فاتحة الدعـوة الى تحرير الفكر ، وقد تلتها بعد ، حركة تحرير الفرد التى دعا اليها المشايخ والعلماء فى مصر ، حين فرضوا على المماليك توقيع وثيقة بحقوق الشعب .

واذا كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب قد واجهت خصومة من معسكر التقليديين فانها هيأت الاذهان لمقاومة سيطرة الخرافات والأوهام وتنقية العقيدة .

٢ — مقاومة جمود النظم .

٣ — مقاومة استبداد الحكام .

٤ — تحرير الدين من التقليد وفتح باب الاجتهاد .

٥ — تحرير الشعب من سيطرة العلمـاء التابعين للحكام .

٦ — مواجهة الفساد والتحلل الاجتماعى .

وقد حمل الفكر العربى الاسلامى المعاصر فى أول مواجهة لليقظة .

ولذلك كان أبرز ملامح هذا الفكر :

« المقاومة » أو الرد على التحدى وقد اثبتت الأمـة قدرتها على المواجهـة السريعة ، فان اليقظـة لم تلبث ان وصلت الى مرحلة القوة حين بدأ الغزو يدخل معارك متصلة شملت الوطن العربى كله (مصر والجزائر وتونس والخليج العربى وليبيا) .

واتصل بهذا ما واجهته مصر فى اقصـاء الحـاكم الظالم حين اقتضت المقاومة الشعبية بقيادة عمر مكرم ابعاد الوالى التركى (خورشيد) وكانت « مهمة الحاكم وحق الشعب فى عزله اذا ظلم » واضحة فى ذهن عمر مكرم حين نادى بهذا المعنى فى هذه الفترة الباكرة .

ولا شك أن كان « للأزهر » دوره الضخم ، فقد كان معقل كل حركات المقاومة السياسية والعسـكرية والثقافية والحديث عن دوره فى حماية الثقافة الاسلامية فى خلال فترة الظلام يعتبر من الكلام المعاد . وكان للأزهر دوره ايضا فى حماية الشعب من ظلم الأمراء . ودوره فى مقاومة الحملة الفرنسية . وتأكيد حق الشعب فى تولية الحاكم .

* * *

وظهر من رجاله من دعوا الى التجديد : كحسن الطويل شيخ الأزهر المجدد ثم الجبرتى الذى سجل مظالم محمد على وطغيانه ورفاعة الطهطاوى رائد الترجمـة والنقل .

ولقد كان للغة التركية والفكر التركى اثرهما على اللغة العربية ، هذا الأثر الذى قاومه الفكر العربى مؤكدا شـخصيته ، ولم يلبث ان قاوم اللغتين الفرنسـية والانجليزية والفكر الغربى من السيطرة عليه فيما بعد .

ولا شك كان « للقرآن » اثره الواضح الكبير فى نقاء اللغة العربية وبقائها وصـمودها أمام الحمـلات التركية والغربية التى وجهت اليها .

فى هـذه الفترة ظهرت تيارات مختلفة فى الفكر العربى الاسلامى .

(١) تيار تجديد الدين بتنقية ، الذى حمل لواءه خلفاء محمد عبد الوهاب امثال السنوسى والمهدى والشوكانى ومحمد عبده .

(٢) التيـار الثقافى : الذى حمل لواءه رفاعـة الطهطاوى فى مصر وخير الدين فى تونس .

(٣) التيار الثقافى : الذى حمل لواءه اليسوعيون والمرسلون الأمريكيون فى لبنان .

(٤) التيار السياسى : الذى حمل لواءه جمـــال الدين الأفغانى .

(٥) التاريخ القومى التركى الذى حمـــل لواءه الاتحاديون فى الدستور والطورانية .

(٦) تيار القومية العربية الذى حمل لواءه عـــرب الشام .

وقد سار كل تيار من هـــذه التيارات فى طريقه وتكونت من هذه الروافد صورة الفكر العربى الاسلامى المعاصر الذى يمثل فى مجموعه :

الواقعية والايجابية والربط بين الماضى والحاضر « وبناء » الجديد على « أساس » القديم والغربلة الدائمة لكل ما يتجدد من الافكار .

وقد كان فى الامكان أن يؤدى هـــذا الى تحقيق النهضة الأكيدة للعالم الاسلامى والبلاد العربية لولا ان الاستعمار كان يحمل معه تيارا ضخما قويا فى خطة كاملة لسحق هذا الفكر — قد بلغ فى نفس الفترات مدى اعمق بكثير من هذه التيارات مجتمعة ذلك هو تيار « التغريب »

* * *

تيـارات الفكر العربى الاســـلامى
حتى نهاية الحرب العالميـــة الأولى

١ ـــ تيار التجديد الدينى :

محمد بن عبد الوهاب ، الشوكانى السنوسية ، المهدية ، محمد عبده .

٢ ـــ التيار الثقافى (المزج بين الشرق والغرب) :
رفاعة الطهطاوى ، وخير الدين التونسى .

٣ ـــ التيار الثقافى الغربى :
اليسوعيون والمرسلون الأمريكيون فى لبنان .

٤ ـــ تيار « الجامعة الاسلامية » :
جمال الدين الأفغانى . الكواكبى .

٥ ـــ تيار « الجامعة العربية » .

(١)

تيـــار التجـديد الدينى

يعد تيار « التجديد الدينى » من اقوى التيـــارات الفكرية التى بدات بها يقظة الفكر العربى والاســلامى عامة : هذه الدعوة التى بدأها محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية ولم تلبث ان انطلقت الى مختلف الاقطار ، فظهر الامام الشوكانى فى اليمن ، والألوسى فى العراق ، والسنوسى فى ليبيا ، والمهدى فى السودان ، ومحمد عبده ومدرسة المنار فى مصر ، وذلك غير ما ظهر فى مختلف اطراف العالم الاسلامى من دعوات مماثلة :

محمد بن عبد الوهاب	١٧٠٣ — ١٧٩١
الشـــوكانى	١٧٥٦ — ١٨٣٤
شهاب الدين الألوسى	١٨٠٢ — ١٨٥٤
السنوسى	١٧٨٥ — ١٨٥٩
المهـــدى	١٨٤٣ — ١٨٨٥
محمد عبده	١٨٤٩ — ١٩٠٥

ومعنى هذا أنه فى خلال فترة قرن ونصف قرن لم تنقطع هذه الدعوة الى التجديد الدينى بل واصلت عملها بقوة وحمل لواءها عـــدد كبير من الأعلام وقد اتصلت هذه الدعوة بالمعركة الكبرى ، معركة الغزو الغربى : العسكرى والسياسى والاجتماعى والفـــكرى ، ولذلك تعمقت جذورها واتسع نطاقها حتى أصبحت علما على اتجاه فكرى واضح فى اكبر جانب من جوانب التفـــكير العربى ، وهو التفكير الاجتماعى المتصل بالعقيدة والقيم والحـــرية والمعـــاملات بل لا نعدو الحق اذا قلنـــا « ان التجديد » كان بعيد الأثر فى جميع مفاهيم «المقاومة» التى قامت بها البلاد العربية ازاء الاســتبداد الداخلى والاستعمار الغربى وانها اثرت فى مفاهيم الفكر العربى : السياسى ، والثقافى ، والاقتصادى .

يمكن القول بأن تيار التجديد الدينى انما قام على اساسين واضحين هما :

(١) العودة الى التوحيد والمنابع الأولى للاسلام ، فالتوحيد هو أساس الاسلام . وقد دخله كثير من الفساد فى خـــلال فترة الركود التى اصابت العالم الاسلامى تحت حـــكم العثمانيين وقـــد أثر فى نقـــاء التوحيد ما توسع فيه المسلمون من البدع : التى يتصل بالتقرب الى الأولياء ، والنذر لهم ، وبناء الأضرحة وزيارتها ، وقد حملت هذه الدعوة لواء عبادة الله وحده ، ورد البدع وابطال التوسل والشفاعة .

(٢) فتح باب الاجتهاد وقد كان اقفال باب الاجتهاد بعيد الأثر فى الجمود الذى أصاب الفكر العربى الاسلامى مما غلب التقليد فكانت الدعوة الى تحرير العقل الاسلامى من أصار التخلف .

وقد حمل محمد بن عبد الوهاب لواء الدعوة على هذا النحو وقال : ان مسألة « التوحيد » ، هى عماد الاسلام ، وان الانحراف فى العقيـــدة هو سبب ضعف المسلمين وسقوط همتهم . ولم يلبث ابن عبد الوهاب أن حول دعوته الى برنامج سياسى ودعا لمقاومة استبداد الحاكم والتحرر من سلطان الدولة « العثمانية » وهاجم حدود سوريا والعراق ، وهاجم كل انحراف عن المبـــادىء الأســـاسية للاســـلام ، ودعا الى التحـــرر من سلطانها ، كما هاجم علماء الدين الرسميين الجامدين ، واستطاع أن يحول الدعوة الى حركة لها كيانها الذى هز الامبراطورية العثمانية حين أقنع « محمد بن سعود » حاكم نجد ، الذى حمل لواء الدعوة فى جزيرة العرب

جمعاء . ومن ثم آمن اتباع محمد بن عبد الوهاب بأنهم الدم الجديد فى الوطن العربى . وبذلك تحولت الدعوة الى حركة تحميها دولة .

واعلن الوهابيون ان سبيل الاصلاح ، هو العودة الى منابع الاسلام الأولى ، وتنقية الدين من البـــدع الدخيلة عليه والايمان بعقيدة التوحيد الخالص ، وكان محمد بن عبد الوهاب تلميذا لمذهب احمد بن حنبل وقد تأثر أفكار ابن تيمية وابن القيم الجوزية . واتيح له ان يطوف فى أنحاء العالم الاسلامى ويزور بالذات بغـداد وكردستان وهمزان وأصفهان وقم وهى معاقل الشيعة التى كانت تحمل لواء الأفكار التى هاجمها ووجدت رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط محمد بن عبد الوهاب .

وقد انتهت المرحلة الأولى للحركة الوهابية بهجوم (محمد على) على الحجاز ، حيث بدأت الحملة المصرية الأولى ١٨١٣ وانتهت . وقد أخذ على الوهابيين انهم لم يكونوا على استعداد حربى حديث مما مكن لمحمد على هزيمتهم وقد أخذ عليهم المؤرخون عدم اتصالهم بالحضارة أو التفاتهم الى الثقافات الغربية وان برنامجهم فى الاصلاح السياسى والاجتماعى لم يكن محققا لمواجهـــة الغزو الغربى ، وقيل ان الدعـــوة لم تكن سلمية محضة ، وانما كانت تواجـــه خصـــومها بالعنف وتستحل دماءهم وأموالهم وكان ذلك من الوهابية خروجا على سماحـــة الاســـلام .

٤ — وفى اليمن : ظهر « محمد عبد الله الشوكانى » الذى تأثر بابن تيمية وابن حـــزم وقـــد نشأ على مذهب الزيدية فى الفروع . وفتح باب الاجتهاد وحارب التقليد وذهب الى تحريمه ، ودعا الى الاجتهـــاد وترك زيارة القبور والف كتابه المعروف « نيل الأوطار » الذى شرح فيه مؤلف ابن تيمية « منتقى الأخبار » .

وقد أثارت آراؤه فى عدم زيارة القبور معركة حيث قال :

« كم سرى عن تشييد بنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الاسلام . منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للاصنام ، وعظم ذلك فظنوا انها قادرة على جاب النفع ، ودفع الضرر ، فجعلوها مقصـــدا لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجح المطلب وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا اليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا »

وقد وقف من خصومـــه موقفا صلبا ، واعلن أن المذاهب جميعها سواء ، ولا يخص مذهب الزيدية منها . وأن مذهبه فى العقائد هو مذهب السلف .

٣ — وظهر : أبوالثناء محمود شهاب الدين « الألوسى » (١٨٠٢ — ١٨٥٤) فى العراق على نفس النهج التجديدى فى الفكر العربى الاســـلامى المعاصر . وهـــو مفتى بغداد وامام العراق فى اللغة والدين والتفسير وله « روح المعانى » فى تفسير القرآن الدينى يمثل مذهبه وقد اثارت آراءه غضب العلماء التقليديين فسعوا سعيهم ضده فعزل عن منصب الافتاء . جمع فى كتابه « روح المعانى » من ثلاث طرق : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة ، ورد على آراء فخر الدين الرازى .

ولم يلبث أن ظهر من آل الالوسى ، عالم آخر سار فى نهج التجديد الدينى هو « محمود شكرى الألوسى » ١٨٥٦ — ١٩٢٤ الذى يمم نفس الطريق الذى سلكه علماء نجـــد فى الدعوة الى تطهير عقائد الناس من البـــدع والخرافات وفتح باب الاجتهاد ، معرضا نفســه للخصومة العنيفة مع رجال التصوف فى وقت كان فيه أبو الهدى الصيادى شيخ الصوفية ، مستشارا للسلطان عبدالحميد وقد لقى من العنت ما لقى كل من دعاة التجديد الدينى فى الفكر العربى الاسلامى ، من محاربة واضطهاد حيث كان الاستبداد والنفوذ الأجنبى يلتقيان فى جبهة واحدة لتحطيم التجديد الدينى وتحريره من جمود التقليد ، فأصـــدر عبد الحميد أمره بنفى شكرى الى الأناضول ، غير أن أنصاره فى الموصل استطاعوا أن يحولوا بينه وبين المنفى .

٤ — محمد بن على السنوسى الكبير ، سمع الدعوة الوهابية فى مكة فاعتنقها ، وعاد الى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقته فى المغرب . وقد صرف صدر عمره فى مكة ، ثم عاد بعد الخمسين الى برقة ، حيث مضى يؤسس الزوايا لبث تعاليمه بين أهل البادية .

وكان أبرز معالم دعوته : العودة بالاسلام الى منابعه الأولى ، كما حملت السنوسية لواء الجهاد ، ومقاومة الاستعمار الايطالى ، حينما هاجم طرابلس وكان لتعاليم الدعوة أثرها الضخم فى الفداء .

فقد نهى السنوسي عن حياة الترف ، وحيازة الذهب والجواهر .

وفى السودان : حمل المهدى لواء الدعوة الى التجديد الدينى على نحو أقرب الى التجرد السياسى ، وقد قاوم الاستبداد ممثلا فى سلطاته المفروضة على اهل السودان .

(٢)

التيـــار الثقـــافى

المزج بين الشـرق والغـرب

برز التيار الثقافى المصرى فى الوطن العربى واضحا فى أوائل القرن التاسع عشر يحمل لواء :

(١) الاقتباس من الغرب بالترجمة والتعريب .
« الترجمة »

(٢) خلق الراى العام وتنبيهه بالصحافة .
« الصحافة »

(٣) رفع مستوى الشعب بالتربية والتعليم .
« التعليم »

(٤) تبسيط اللغة العربية وتحريرها من السجع والزخرف « اللغة العربية »

(٥) الدعوة الى تعليم المرأة وتصحيح منـــاهج المجتمع « المجتمع والمرأة » .

وكانت معالم هذا التيار الثقافى العصرى تتمثل فى :

(١) المطبعة العربية التى دخلت العـــالم العربى (١٨٢١ ، مطبعة بولاق : القاهرة) و (١٨٣٤ مطبعة المرسلين الأمريكية : بيروت) هذا مع ملاحظة ان أول مطبعة عربية انشئت فى حلب فى أوائل القرن الثامن عشر وطبع بها الانجيل ١٧٠٦ .

(٢) المدارس الغربية الحديثة فى لبنان : وأول هذه المدارس ما أنشاه الآباء المازاريون ١٨٣٤ (عنيطورا — لبنان) : مدرسة بيروت (٢) القس وليم طمسن الأمريكى الدكتور غانديك : مدرسة عبية لبنان ١٨٤٧ (٣) المدرسة الانجليزية ١٨٦٠ الكلية الانجليزية للبنـــات ١٨٦١ (٤) المدرسة الوطنية (بطرس البســـتانى) ١٨٦٣

(٥) الكلية الأمريكية ١٨٦٦ .

(٦) الكلية اليسوعية ١٨٧٤ .

(٣) ظهور الصحف العربية : (١) الوقائع المصرية: رفاعة الطهطاوى وفارس الشدياق ١٨٢٧ القـــاهرة (٢) مرآة الأحوال : رزق الله حسون ١٨٦٥ . (٣) الرائد التونسى — تونس ١٨٦١ .

(٤) البعثات التى اتجهت الى اوربا والتى كان نواتها امثال : رفاعة الطهطاوى (١٨٢٦) وعلى مبارك (١٨٣٤) .

(٥) الهجرة اللبنانية الى أمريكا والدور الفكرى الذى قامت به فى المهجر .

ومن هـــذه المعالم جميعا بدأ هذا التيار الثقـــافى المصرى الذى اعتمد على النقل والاقتباس من الحضارة الغربية فى (مجال الترجمة والصحافة والتعليم) والذى أثر فى ميادين التربية والمجتمع واللغة العربية . وهو مكون من عنصرين : عنصر الرواد الذين ســـافروا الى أوربا وعادوا ، وعنصر الأعلام الذين تأثروا بالمرسلين الغربيين الذين وفدوا الى العالم العـــربى والذى ركزوا جهودهم بصفة خاصة فى لبنان وحرصوا على ان يبدا بالعمل من القرية بدلا من المدينة فانشأوا مدارسهم فى قرى لبنان وكان بين الانجيليين الأمريكين واليسوعيين والفرنسيين منافسة على العمـــل فى هـــذا الميـــدان وقد اشتركت القاهـــرة وبيروت وتونس فى هـــذه الحركة الضخمة التى كانت تيـــارا طبيعيا لابد منه بعد اتصالنا بالغرب ، هذا الاتصال بدأ بالحملة الفرنسية ١٧٩٨ عندما استقدم نابليون الى مصر أول مطبعة عربية وكانت حملته عبارة عن نقطة البدء فى الغزو الثقافى الغـــربى حيث بدأت البعثات المختلفة من أمريكا وفرنسا وبريطانيا ودول أخرى عديدة تزحف الى العالم العربى وتقيم فيه المـــدارس والمطابع والصحف وترصـــد فى ميزانياتهـــا اعتمادات ضخمة للتبشير .

وفى هـذا المجال ظهرت مدارس اربع :

* المدرسة المصرية (رفاعة وعلى مبارك) .

* المدرسة اللبنانية (وقد امتزجت بالمدرسة المصرية حينا) .

* المدرسة المهجرية .

* * *

المدرسة المصرية

ظهرت المدرسة المصرية فى تيار الثقافة الحديثة المتصلة بالغرب مبكرة فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر حينما بدأت البعثات المصرية الى اوربا . وكان رائد هذه المدرسة هو « رفاعة الطهطاوى » (١٨٠١ — ١٨٧٣) الذى سافر الى فرنسا ١٨٢٦ وعاد ١٨٣١ وعمل فى ميادين الترجمة والتربية والصحافة والتأليف والتعليم والشعر . ونظم الأناشيد الوطنية وتراجم القوانين .

وكان رمزا على الرابطة بين الأزهر والثقافة الغربية ، ولا بد انه كان هو بطبيعته النفسية متأهبا لحمل لواء هذه الرسالة ، وتقبل التطور الفكرى بين دراسات الأزهر ودراسات الجامعات الغربية ، وقد كان رفاعة عاما على المدرسة التى دعت الى النقل والاقتباس من الثقافة والحضارة الغربية فى حدود ما هو صالح منها وما هو نافع لنا . وقد حاول نقل خير ما وجد فى أوربا ، ونقد ما شاهده من عيوب فى مجال الحضارة الغربية ، ومرجع هذا الى اصالة الثقافة العربية الاسلامية والمفاهيم الأساسية وايمانه بالكيان الفكرى الاسلامى الأصيل ، وحرصه على تنقيته وصقله والزيادة فيه بالاقتباس ، ولذلك فقد حال ذلك كله دون اضطراب شخصيته أمام مفاتن الحضارة ومع ذلك فان هناك تحفظات على وجهة رفاعة الطهطاوى كشفت عنها الابحاث فيما بعد وخاصة فى موقفه من الاقتبس من الغرب ومن مفهوم الوطنية المصرية .

وكان لأستاذه (حسن العطار) الفضل فى تكوين هذا الاتجاه عنده ، فقد عرف العطار بالتجديد والايمان بضرورة النقل من الغرب بما يزيد شخصيتنا قوة .

ولعل حرص (رفاعة) على ان يحقق لوطنه ريادة كاملة فى الفكر الغربى هو ما حمله على ان يساهم بهذا المحصول الضخم فى ميدان الفكر العربى ، فقد كان اول من كتب عن « الوطنية القومية » ان صح اطلاق هذا التعبير عليها ، على أساس غلبة اللون المصرى ومقاومة الاتجاه التركى . وتعليم المرأة وتحريرها ، وحب الوطن والمفاخرة به ، ووحدة وادى النيل واحياء التاريخ القديم .

بل انه قد تكلم عن قناة السويس وحق مصر فيها وصور مظالم الاقطاع فتحدث عما يلاقيه العمال الزراعيون من الظلم على أيدى الملاك الاقطاعيين وهاجم الاقطاع مهاجمة عنيفة وندد بالامتيازات الأجنبية .

ثم هاجم فرنسا لاحتلالها الجزائر . كما هاجم المجتمع الفرنسى وانتقد كثيرا من اخلاقه وعوائده وانتقد نظرة المجتمع الفرنسى العلاقة بين الرجل والمراة وبذلك يكون (رفاعة) قد عمل فى الميادين الخمسة التى حمل لوائها التيار الثقافى . وهى الاقتباس من الغرب بالترجمة والتعريب ، وخلق الراى العام وتهيئته بالصحافة ورفع مستوى الشعب بالتربية والتعليم ، وتبسيط اللغة العربية وتحريرها من الزخرف وتحرير المراة والدعوة الى تعليمها ، وتصحيح مفاهيم المجتمع .

وقد واجه (رفاعة) اضطهادا فى عهد عباس نظرا لآرائه الجريئة فى الحرية والحكم والدعوة الى تجديد مصر وتحسين اوضاعها ، واعتباره التربية : الأساس الأول لخدمة الوطن .

وهو يرى أن الوطن هو « عشيرة الانسان الذى فيه درج ومنه خرج ومجمع اسرته وهو البلد الذى نشأته تربته وغذاه هواؤه . وان حب الوطن من الايمان ومن طبع الأحرار احراز الحنين الى الاوطان . ومولد الانسان على الدوام محبوب منشؤه ، مألوف له ومرغوب . ولأرض الوطن حرمة كما للوالدة حق لبنيها والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ولا ينسى دارا بها قبائله » .

وقد شهد « رفاعة » الثورة الفرنسية ودرس عواملها وترجم مواد الدستور الفرنسى (دستور ١٨٢٤) وترجم القانون المدنى وقانون التجارة الفرنسى كما اشترك مع عبد الله ابو السعود واحمد حلمى فى نقل قانون المحاكمات وقانون الحدود والجنايات .

ولم يقبل رفاعة ان يشترك فى مشروع الخديو اسماعيل لنقل قوانين نابليون واحلالها بدل التشريع الاسلامى . كما اقتبس من الدستور الفرنسى عدة عبارات

ونظم بعض الأشعار التى عبر فيها عن الشورى وحاجة وطنه الى العدل .

وقد أعلن (رفاعة) دعوته الى تعليم المراة ويرى أن تربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورها واناثها من أوجب الواجبات ، كما يرى أن من حق المراة أن تعرف كل أمور دينها ، بل ان حقها على الزوج أن يعلمها ذلك اذا لم تكن تعلمته .

كما كان لآرائه الجريئة عن الشورى والحرية ما دفع عباس الى نقله منفيا الى السودان ١٨٤٩ حيث بقى نحو أربعة أعوام بعيدا عن مجاله فى العمل ترجم فيها كتاب (مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك) .

كما ترجم الى العربية تاريخ اليونان ، والميثولوجيا اليونانية وأخبار الأمم القديمة كالمصريين والبابليين .

وبه بدأت نهضة الترجمـــة التى اتسعت وامتدت بعد انشائه لمدرسة الالسن ١٨٣٥ حيث تكون جيل من تلاميذه فى مقدمتهم : صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود

وجملة رأيه أن للتمــدن والعمران واسطتين :
(١) تهذيب الأخلاق والآداب الدينية والفضائل الانسانية
(٢) المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى فيحسن الحال وينعم البال .

٢ ــ أما على مبارك (١٨١٦ ــ ١٨٨٦) فهو لم يتعلم فى الأزهر ، وانما تعلم فى مدرسة الهندسة وسافر فى احدى بعثات محمد على وأقام فى فرنسا خمس سنوات ووصل الى منصب ناظر المعارف فى عهد اسماعيل ، وقد عمل على اصلاح التعليم ، وأنشأ مدرسة دار العــلوم فأخذ أهلها من خيرة طلبة الازهر حيث تلقوا العلوم الدينية واللغــوية والتاريخ والجغرافيا والرياضـــــة والطبيعة والكيميا وأنشأ مجلة « روضة المدارس » ورأس تحريرها « رفاعة الطهطاوى » وألف الخطط التوفيقية فى عشرين مجلدا (١٠٨٧ ــ ١٨٨٩) وقد دعا الى ما أســـماه « الوجوه الحسنة من مدنية الغرب ، ونبذ السيء منها » وآمن باصلاح التعليم ، ويرى أن الاصلاح السياسى خير من الثورة ، ولذلك فهو لم يشترك فى الثورة العرابية كما أنشأ دار الكتب .

جمع آرائه فى الحضارة والشرق والغرب فى قصة ألفها باسم « علم الدين » وهى قصة شيخ تربى فى الأزهر تتلمذ عليه مستشرق انجليزى تعلم منه اللغـــة العربية ودعاه الانجليزى ليزور معه انجلترا فلبى الدعوة وقد ضمت مجموعة ضخمة من المعلومات والأفكار . قصر رفاعه ميدانه الفكرى على اصـــلاح التعليم فاقتبس من أنظمة المدارس الفرنسية وحول الكتاتيب الى مــدارس نظامية واصدر لائحة التعليم ١٨٦٨ .

٣ ــ امتدت هذه المدرسة الثقافية المصرية فى مجموعة من الأعلام فى مختلف الميادين من بينهم : صالح مجدى ، وعبد الله أبو السعود وخليفة محمود ومحمد قدرى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمود الفلكى ، وعبد الله فكرى .

* * *

المدرسة اللبنانية

كان للمدرسة اللبنانية دورها الضخم الواضح فى هذا التيار ، فقد عملت فى مختلف الميادين ومن اعلامها حسب الترتيب التاريخى :

الدور الأول : ناسيف اليازجى . بطرس البستانى فارس الشدياق .

الدور الثانى : سليم البستانى . سليمان البستانى ابراهيم اليازجى . يعقوب صروف .

وقد جمع هؤلاء بين العمل فى ميدان الترجمـــــة والصحافة وتجديد اللغة العربية وعمل ناسيف اليازجى وبطرس البستانى وسليم البستانى فى التعليم وحمل لواء تحــرير المراة (خطاب بطرس البستانى ــ ١٤ كانون الأول ١٨٩٤) وفارس الشدياق .



١ ــ البستانيون :

وقد كان للبستانيين دور كبير فى التيار الثقافى فى هذه المرحلة . فبطرس البستانى مؤسس أول مدرسة وطنية عالية فى لبنان (١٨٦٣) . ومنشيء أول معجم عربى عصرى ومخرج أول موسوعة عربية وفق الأساليب المتبعة فى الغرب . وقد ترجم للانجليز ثم اتصل بالمراسلين الأمريكيين وعمل مع المستشرق فانديك وأنشأ مجـــلة (نفير سوريا) ثم مجلة الحنان كما ترجم التوراة بالاشتراك مع الدكتور غالى سمث .

ومن مؤلفاته : قاموس محيط المحيط ، قطر المحيط، دائرة المعارف .

وقد طبع الثقافة العربية بالطابع الحديث ، وجارى علماء الأفرنج ، وقد اتم مشروع دائرة المعارف فى سبعة اجزاء .

وعمل سليم البستانى (١٨٤٨ — ١٨٨٤) فى نفس الميدان ، حرر مجلة الحنان وشارك فى اعداد دائرة المعارف وواصل العمل فى المدرسة الوطنية التى انشأها والده فى بيروت .

وعالج الرواية الاجتماعية . وقد سبق جورجى زيدان بعشرين عاما فى وضع الروايات الافرنجية كما قام سليمان البستانى (١٨٥٦ — ١٩٢٥) بأكبر عمل فى ميدان الثقافة والفكر العربى المعاصر وهو ترجمة الياذة هوميروس شعرا الى العربية وساهم فى دائرة المعارف واحترف التعليم وحرر مجلة الحنان .

وعنى عبد الله البستانى (١٨٥٤ — ١٩٣٠) باللغة والمعاجم والتعليم . وعلم فى المدرسة البطريركية فى بيروت وله معجم البستانى فى مجلدين . ومن تلاميذه: شكيب أرسلان ، وبشارة الخورى، واسعاف النشاشيبى وداود بركات .

* * *

٢ — اليازجيون :

عمل اليازجيون (ناصيف : ١٨٠٠ — ١٨٧١) فى ميدان خدمة اللغة العربية وتجديدها، كما علم فى المدرسة الوطنية للبستانى والكلية للامريكان . وهذب اللغة العربية والمنطق والشعر ، كما ساهم فى احياء تراث اللغة المشترك ونشره : واتصل بالمراسلين الأمريكيين وصحح مطبوعاتهم ولا سيما الكتاب المقدس وأبرز مؤلفاته : مجمع البحرين ، الذى عارض فيه مقامات الحريرى فى ستين مقامة ، ومؤلفاته فى (اللغة العربية) فصل الخطاب فى اصول لغة الاعراب . الجوهر الفرد فى موجز الصرف وفى (البيان والبديع) : مجموع الأدب فى فنون العرب .

وعمل ابراهيم اليازجى (١٨٤٧ — ١٩٠٦) فى نفس الميدان : فاشتغل باللغة العربية والصحافة والترجمة وكان ناقدا لاذع النقد . له مساجلة هامة مع فارس الشدياق . وقد فاق والده فى العلم باللغة والفقه لأسرارها . وانتدبه اليسوعيون للاشراف على تعريب التوراة ، فعمل بها تسع سنوات ، ثم هاجر الى مصر وأصدر البيان ١٨٩٥ والضياء (١٨٩٨ — ١٩٠٦) .

٣ — وعمل فارس الشدياق (١٨٠٤ ، ١٨٨٧) فى ميادين اللغة والصحافة والترجمة . وكان ابرز معالم فكره ، حرية الراى وسخرية النقد والرأة فى نقد الكنيسة ورجالها ، واصلاح المجتمع . وتجديد اللغة العربية والأسلوب العربى .

عمل فى الوقائع مع رفاعة الطهطاوى واصدر الجوائب (١٨٦١ — ١٨٨٣) ودعا الى تحرير المرأة .

وعمل مع المراسلين الأمريكيين فى ادارة مطبعتهم بمالطة وتصحيح الكتب العربية . كما عمل فى لندن بدعوة من جمعية ترجمة التوراة وحرر الرائد التونسى واشترك فى ترجمة الكتاب المقدس ١٨٥٩ .

وله فى اللغة ، سر الليال فى القلب والابدال . والجاسوس على القاموس وله رحلته التى ترتبط مع رحلة رفاعة الطهطاوى وعبد الله فكرى . (الساق على الساق فيما هو الفارياق) .

* * *

وقد ارتبطت هذه المدرسة اللبنانية بالثقافة الفرنسية ، وعمل رجالها مع المرسلين الأمريكيين وجمع اغلبهم بين الصحافة والتعليم واصلاح اللغة العربية والترجمة والدعوة الى تجديد الفكر اعربى بالاقتباس من الفكر الغربى .

وقد امتدت هذه المدرسة فى يعقوب صروف ١٨٥٢ — ١٩٢٧ صاحب المقتطف ، ولويس شيخو صاحب (المشرق) وشبلى شميل (١٨٦٠ — ١٩١٧) داعية مذهب النشوء والارتقاء فى الفكر العربى .

ثم لم تلبث مدرسة مصر ، ومدرسة لبنان ان ارتبطتا وانصهرتا فأخرجنا أعلام التجد د الفكرى بمفهوم (التبعية) والصحافة والترجمة ، امثال : اديب اسحق ، وفرح انطون ، ورزق الله حسون ، ويعقوب صنوع ، وفرنسيس مراش .

وبالجملة فقد كانت المدرسة اللبنانية تابعة لمخطط للتبشر الغربى ومنفذة له .

٤ — اثر الهجرة اللبنانية

بدأت الهجرة اللبنانية الى امريكا الشمالية ١٨٥٤ التى فتح طريقها أنطون البشعلانى وتوالت طـــوائف المهاجرين وازدادت بعد حوادث ١٨٦٠ ثم اتسع نطاقها بعد الثورة العرابية ويمكن اطلاق اسم الهجرة الشامية عليها نظرا لاشتراك الفلسطينيين والسوريين فيها .

وكانت ظاهرتا المجاعة والفقر من ابرز عوامل هذه الهجرة ، بدأت الهجرة الى البرازيل (أمريكا الجنوبية) عام ١٨٧٤ وتكاثر المهاجرون بها فى نهاية القرن بعد هرب يوسف كرم من لبنان مع فريق من جنـــوده الى أمريكا الجنوبية ووصلت طلائع المهاجرين الى الأرجنتين ١٨٨٤ التى فتحت أبوابها للمهاجرين العرب حتى زاد عددهم عن ٣٠٠ الف .

وقد بدأت النهضة الفكرية ١٨٨٨ فى الشمال حيث صدرت أول جريدة لهم فى نيويورك (كوكب امريكا) ثم صدرت (الهدى ــ نعـــوم مكرزم ١٨٩٨) ثم توالت الصحف كما انشأت الجمعيات . وفى مقدمتها الرابطة القلمية بنيويورك١٩١٢ والعصبية الأندلسية (سان باولو ١٩٣٢) وفى المهجر ظهر تيار من الأدب العربى عرف بالأدب المهجرى تاثر اصـــحابه الأدب الغربى فى طلاقته وفى التحرر من قيود الاسلوب والمعانى . وكان ولا شك لظهور هذا الأدب فى بيئة غير البيئة العربية التى كانت محتملة فى ذلك الوقت بقيود الاستبداد والتقاليد ما مكن له من أن يحمل لواء التحرر .

وابرز من ظهر فى المهجر : جبران وامين الريحانى ونسيب عريضة وفرحات وميخائيل نعيمة وايليا أبوماضى والشاعر القروى وشفيق معاوف .

ولا شك كان للعوامل النفسية والاجتماعية التى احاطت بهؤلاء المهاجرين اثرها فى أدبهم ، فهم قد هاجروا من أوطانهم فى ظل من الحاجة والمسغبة والاضطهاد ، فاذا بهم يقطعون الطريق الى عالم مجهول ، عاشوا فيه بين الاغتراب والفاقة والعمل المضنى فى سبيل كسب العيش ، وذلك بحمل « الكشة » على اكتافهم يدورون بها فى القرى ويعرضون ما يحملون فيها من لعب ودبابيس وامشاط وصاتون على البيوت التى يدقون ابوابها وقـــد استمروا طويلا فى هذا الجلاد المضنى حتى تحقق لهم الحصول على الغنى ، وفى ظل هـــذا الكفاح المضنى انتجوا اثارهم الأدبية التى حملت فى تضاعيفها معنى الحرمان والاغتراب والشوق الى الوطن وتصــــوير ما احتملوه من متاعب وآلام . وقد ذاع هذا الأدب فى العالم العربى كمذهب جديد تأثر به الأدب فى اسلوبه ومضمونه ، وكان الشعر اشد تأثرا به ، وحمل الأدب العربى فى لبنان لواء اللون المهجرى حتى عرف به .

ولا شك أن كان الأدب المهجرى بمعالمه وآرائه وحريته أثر واضح فى الفكر العربى الحديث فقد حمل لواء الدعوة الى الحرية والقوميـــــة العربية ومقاومة الاستبداد والاستعمار ، واتاح للاثار التى صدرت منـــه باللغة الانجليزية أن تعرف الغرب بالفكر العربى وقـــد أصابت أثار كثيرة منه وفى مقدمتها كتاب النبى لجبران خليل جبران شهرة بعيدة فطبعت منه عشرات الآلاف من النسخ .

ويمثل الأدب المهجرى صورة واضحة لامتزاج الفكر العربى بالفكر الغربى والتأثر به فى الأسلوب والطريقة . قد وصف الأدب الهجرى : بالواقعية والانسانية ، وقد تأثر الروح الغربىواتجه نحو الانسان منحيث هو انسان حى ، فكان فى مجموعـــه يحمل لواء الدفاع والكرامـــة والحرية الانسانية .

وتمثل الهجرة اللبنانية فى الفكر العربى طابع الأمة العربية فى الهجرة والاقتحام والمغامرة والتطلع الى الآفاق البعيدة والخروج من البيئة اذا تضاعفت فيها عوامل الاضطهاد والفقر فى محاولة للبحث عن الرزق والحرية والكرامة مهما احتمل فى سبيل ذلك من العنت . وقد حققت الهجرة اللبنانية هذا المعنى ، ففتحت افاقا جديدة وظل العدد الكبير من المهاجرين مرتبطا بالوطن ، مؤمنا بالعروبة واللغة العربية . يمتزج فى تفكيره الشوق الى أرض الوطن بأفكار الحرية والكفاح فى سبيل الرزق . وكانت لصيحات الحرية التى اعلنها اثرها الواضح فى الوطن العربى .

وقـــد كان للباحثين على الأدب المهجرى تحفظات كثيرة تتعلق بعدم التزامه بالقيم الاسلامية .

(٢)

دور الأزهـــــر

لاشك أن للأزهر (٩٧٢ م) دوره الكبير فى ثقافتنا العربية ، هذا الدور الذى امتد خلال الف سنة دون ان يتوقف ، حتى فى الفترة التى ركد فيهـــا الفكر العربى الاسلامى واصابه الجمود والتوقف ، ظل الازهر حمى للتراث الاسلامى وملاذا للغة العربية والدين ، فلما بدأت اليقظة الفكرية المعاصرة دبت الحياة فى الأزهر من جديد ومضى يواجه الطريق الى التطور والنهضـــة ومقاومة الغزو الثقافى والاستبداد والنفوذ الأجنبى والاستعمار ، فكان مصـــــدرا لكل حركات المقـــــاومة الوطنية فى خـــلال العصر الحـــديث كما كان فى الفترة الســـابقة معقلا لحمـــاية اللغة العربية والدين والتراث الاسلامى حيث حفظ اللغة العربية من طغيـــــان اللغات الأجنبية وقد قام الأزهر بدوره ازاء النفوذ الأجنبى والاستعمار .

أولا ــ قاوم استبداد الولاة المماليك وقام بتحرير وثيقة تحرير الانسان .

ثانيا ــ قاوم الحملة الفرنسية وقاد المقاومـــــة الشعبية .

ثالثا ــ عزل الحاكم التركى خورشيد .

رابعا ــ اشترك فى الثورة العرابية .

خامسا ــ كان الأزهر معقلا لثورة ١٩١٩ .

وقد اتصل الأزهر بالثقافة الغربية الحديثة منذ أوائل القرن التاسع عشر حيث سافر رفاعة الطهطاوى الى باريس ، وعياد الطنطاوى الى بطرسبرج وشهدت جامعة السربون عام ١٨٢٨ حفلا عاما من علماء فرنسا وعظمائها يســـتمعون الى الأزهريين فى امتحانهم وكان « حسن العطار » الذى تولى ــ فيما بعد ــ منصب شيخ الازهر هو استاذ رفاعة الطهطاوى ، وعيـــــاد الطنطاوى وغيرهم ، حيث كان يدرس لهم مقـــــامات الحريرى وديوان الحماسة ، ولم تكن هذه الكتب تدرس فى الأزهر وقد اتصل بعلماء الفرنسيين الذين قدموا مع الحملة الفرنسية وافاد منهم ثقافيا .

كان الشيخ حسن العطار (١١٨٠ ــ ١٢٥٠) اول من نبه الى اصلاح الازهر بتجديد برامج التعلم فيه، ونقد اهمال الأزهر كتب المتقدمين والعلوم الحـــــديثة والرياضة ووجه رفاعة الطهطاوى الى دراسة العـــلوم التى نبغ فيها الغرب ليقوم بنقلها الى اللغة العربية .

وحقق رفاعة امل شيخه وكان لترجماته وابحاثه أثرها فى كسر ذلك القيد الذى وقف طويلا بين الأزهر وبين الثقافة الحديثة وخفف من حدة نظرة العداء الى المدنية الاوربية .

ودعا رفاعة الطهطاوى الى اصلاح الأزهر وادخال العلوم العصرية فيه غـــــير ان الازهر لم يكن مستعدا للتطور السريع ، ولذلك فقد عجز ان يواجه الاتجـــــاه التغريبى الذى قام به اسماعيل فى نقل القوانين الفرنسية.

وقد ورد فى بعض المراجـــع (كتاب مســـتر دن المستشرق الانجليزى : الحياة الفكرية فى التاسع عشر) أن الحملة الفرنسية حينما قدمت الى مصر وجـــدت فى صحن الازهر بضع نساء يتعلمن الى جانب الشبان لكى يتفقهن فى الدين . وانه كانت هناك عالمة ضريرة يلتف حولها الشبان ويتلقون الدروس عنها . واذا كان البعض قد اثار الشك حول هذه الرواية فان التاريخ قد حفظ اسماء : فاطمة الازهرية وسنية الطبلاوية ، وهما اللتان تعلمت على أيديهما عائشة التيمورية فن القصـــــائد والموشحات .

٢ ــ وقد كانت طريقة التعليم فى الازهر اذ ذاك كما وصفها : محمد خالد حسنين هى الطريقة الاملائية . فكان الاستاذ يجلس وسط حلقة من طلبته ويملى عليهم درس الاملاء . وقد لبث الازهر على ذلك فترة من الزمن الى ان كثر التدوين والتاليف فشرعوا فى دراسة الكتب.

ولم يكن للأزهر قانون ينظم الدراسة التى كانت تجرى على أساس رغبة كل طالب فهو الذى يختار درسه ويختار استاذه ، فاذا بلغ قدرا من الكفاءة تقدم باذن من شيخه الى حلقة يحضرها بعض الطلاب ويشهدها العلماء فيقرأ لهم فان فهموا واستفادوا اقبلوا عليه ، وكان ذلك شهادة بأنه من العلماء .

واول قانون وضع للازهر (فبراير ١٨٧٢) ينص على نيل شهادة العالمية بامتحان على يد لجنة من العلماء يختارهم شيخ الازهر ، ويقسم العلماء الى ثلاث درجات: أولى ، وثانية ، وثالثة ، وتصدر بذلك براءة عالمية — والمواد هى : الفقه والأصول ، والتوحيد ، والحديث ، والتفسير ، والنحو والصرف ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، ثم زيدت علوم الحساب والجبر والهندسة والفلك . وفى عام ١٩١١ أنشىء مجلس الازهر الأعلى وهيئة كبار العلماء واقسام التخصص .

٣ — كان لجمال الدين الأفغانى دوره فى اصلاح الأزهر فقد دعا الى اصلاح مناهج التعليم ، واتصل ببعض أساتذة الازهر وخريجيه ، ودرس لهم امهات الكتب فى علم الكلام والحكمة والهيئة والتصوف واصول الفقه وكما دعا الازهريين الى دراسة التاريخ وقال :

اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ على هذا الحد فلا يمكنكم ان تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم فى دنياكم . ان قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان اليقين فلابد من تحصيله .

٤ — وكان لمحمد عبده دوره الايجابى فى تجديد الازهر واصلاحه اذ استطاع انشاء مجلس ادارة الازهر وكان هو من اعضائه فترة غير طويلة . وقد اجرى المجلس محاولات لاصلاح نظام التدريس والامتحان ، غير أنه لقى عقبات كبيرة فى سبيل اجراء اصلاح شامل يقضى على كل أثر لاجمود فى الازهر ، وكان رأى الجهات المسئولة الواقعة تحت سلطان النفوذ الأجنبى توقيف التطور باسم التدرج فى الاصلاح وقد انتهى الأمر الى وضع قانون يقوم باصلاح نظام الدروس والامتحان صار به الازهر ادارة نظامية .

وقد لقى محمد عبده مقاومة ضخمة من الخديو الذى كان نصيرا للاستعمار وحريصا — على أن لا يدخل اى تقدم فكرى من شأنه ان يحرر الأذهان ، كما وجد المقاومة من اساتذة الازهر وعلمائه ، الذين كانوا يؤمنون بنظام التعليم القديم حتى لقد يذهب البعض الى القول بأنه حين وجه الى الشيخ عبده القول فى مجال الدفاع عن النظام القديم انه واحد من ثمراته وانه قد وصل الى ارقى الدرجات . ان اجاب بأنه اذا كان لى خط من العلم الصحيح فانى لم احصله الا بعد أن مكثت عشر سنين اكنس من دماغى ما علق فيه من علوم الأزهر . وقد حملت دعوة محمد عبده الاصلاحية عملا من شقين : (١) اصلاح الازهر (٢) الاصلاح الدينى بفتح باب الاجتهاد .

٥ — غير أن هذا النظام الجديد للازهر لم يلبث أن توقف بعد أن وقع الخلاف بين الخديو والشيخ محمد عبده فاستيقظت النزعة القديمة التى وضعها الشيخ الظواهرى وعبر عنها بقوله . « الدين كما تركه انا الائمة . ما سوى من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للأزهر به » وانكر العلماء التجديد « الذى من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى ويحول المسجد الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره » ووافق الخديو على ادخال العلوم الحديثة . ورفض الاصلاح الدينى .

ووقف عدد من مشايخ الازهر منهم (الشربينى والبشرى) ضد الاصلاح مما انتهى الى الغاء النظام الجديد واعيد النظام القديم عام (١٩٠٩) وكان من اهم أسباب الاعتراض على النظام الجديد : الزام الطلبة (الامتحان فى العلوم الحديثة) .

٦ — ربط الأزهر العالم الاسلامى فكان مجال الالتقاء بين شباه مصر والشام والمغرب والترك والسودان والحجاز وجاوة والحبشة والأفغان والهند والعراق وقد بلغ طلابه عام ١٩٠٦ (١٠ آلاف طالب) .

وخرج الأزهر اعلاما قاموا بقيادة الفكر العربى الاسلامى فى هذه الفترة ومابعدها وفى مصر امثال : حسن العطار الستاذ الطهطاوى والطنطاوى ، وحسن الطويل أستاذ محمد عبده ، ومحمد عتده ، وحسين المرصفى ، وسعد زغلول ، واحمد ابو خطوة ، وعلى يوسف وابراهيم الهلباوى ، وعبد السلام المويلحى ، وابراهيم اللقانى . والمراغى .

ولقد عرف للشيخ حسن العطار موقفه من نابليون حيث انتزع القلادة التى قلده اياها والقى بها الى الأرض فى حضرته ورفض ان يقبل تحية محتل لبلاده وقد اشترك

الأزهر عام ١٩٠٢ فى مؤتمر اللغات الشرقية (بهامبورج) بألمانيا ولا شك أن الاستعمار الغربى والغـزو الثقافى بمختلف مراحله قد وجه كثيرا من خططه التغريبية نحو الازهرفحرص على أن يفصل بينهوبين التطور والحضارة وذلك بالتوسع فى التعليم المدنى مما خلق مشكلة (ثنائية التعليم) التى كان لها أثرها الواضح .

٧ ــ ويتصل باثر الأزهر فى التفكير العربىالحديث اثر معاهد أخرى تقوم بنفس رسالته منها : معاهـد النجف بالعراق والزيتونة فى تونس والقروى فى المغرب والخلايا فى السودان ، وحلقات مساجد دمشق والجزائر والزوايا السنوسية فى طرابلس .

* * *

فقد كان لهذه المعاهد العلمية القائمة على الدراسات الدينية واللغوية أثرها الواضح فى الروابط التى قامت بين اللغة والفقه والذى كان لهـا بعيد المدى فى مقاومة تيارات التغريب والغزو الثقافى التى استهدفت ، القضاء على اللغة العربية والاسلام وتزييف اريخ لأمة العربية والامة الاسلامية والتشكيك فى القيم والتراث والبطولات ومدى الدور الذى قامت به الأمة العربية فى نقل الحضارة والمحافظة عليها والتفاعل معها وتطويرها ، مما كان له ابعد الأثر فى ظهور الحضارة والحديثة .

* * *

مراجع البحث

/ك/ الأزهر بين الماضى والحاضر : منصور رجب ملحق المقتطف (ابريل ١٩٤٦) .

الرسالة ص ١١٠ مجلد السنة التاسعة .

محمود ابو العيون ــ مجلد ٤٠ الهلال ص ٦٠ .

التعليم فى الأزهر = ص ١٣٨ الهلال مجلد ١٥ .

الأزهر فى جامعة غرناطة : الاهرام ٣٢/١٢/١٩ (محمد خالد حسنين) .

/ك/ تاريخ الاصلاح فى الأزهر : عبد المتعـــال الصعيدى .

* * *

(٣)

دور الصحـــــافـة

كان الصحافة العربية دورها فى يقظة الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، فقد عاصرت هذه اليقظة وارتبطت بها وكانت عاملا فاعلا منفعلا بها . فالصحافة هى أبرز عوامل الثقافة واعمقها اثرا ، وهى اقوى من المدرسة والكتـــاب فضلا عن انها بعيدة الأثر فى التيارات المختلفة: الاجتماعية والسياسية ، وقد حملت لواء تجديد الفكر الدينى والدعوة الى الحرية والاصلاح ، مقامة طغيان السلاطين والملوك والأمراء ومهاجمة التدخل الأجنبى والاستعمار . وقـــد استغلها الحاكم المستبد والأمير والسلطان والاستعمار .

حملت الصحافة لواء الدعوات المختلفة : التجزئة والوحـــــدة ، والجامعة الاســـلامية والقومية العربية والفرعونية والفينيقية ودعوات التغريب والغزو الثقافى ، ودعوات المقاومة وتحرير الفكر العربى من اطار التبعية الانجليزية او الفرنسية .

وكانت الصحافة فى دورها الضخم تمثـــل معركة الفكر العربى كله مجسمة فى صورة صحف تصدر هنـــا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ، وفى خارج الوطن العربى فى لندن وباريس والاستانة .

ولقى الصحفيون الاستشهاد والغنائم على حـــد سواء ، عاش المجاهدون والأبرار منهم حياة الضّـــمير والكرامة مع الفقر والاضطهاد من الاســـتعمار وعاش المحترفون العملاء حياة الثراء وكانت اقلامهم تقطر السم وتحرف القول .

و فى هذه الفترة (حتى نهاية الحرب العالمية الأولى) تبدو الصحف فى ثوب بسيط تغلب عليه ركاكة الاسلوب الذى تطور الى اسلوب وســـط . مع بساطة الاخراج وغلبة الرأى على الخبر ، وغلبة الكتابة على الصورة . وغلبة روح الوطنية الخالصة على روح العمالة للاحزاب والهيئات . وغلبة صحف الافراد على صحف الشركات والمؤسسات .

× صدرت الصحف فى أول أمرها بواسطة الحكام او الاستعمار . فاصدر محمد على الوقائع المصرية (١٠٢٨) واصدر والى سورية (حديقة الأخبار) والباى فى تونس اصدر (الرائد) وداود باشا حاكم لبنان اصدر جريدة لبنـــان ١٨٦٧ وصـــدرت الجوائب فى الاســـتانة موالية للسلطان عبد الحميد والخديو فى مصر والباى التونسى ، كما اصدر الاستعمار صحفا تدافع عن وجوده مثل المبشر فى الجزائر (١٨٤٧) والمقطم فى مصر (١٨٨٩) .

ثم صدرت من بعد صحفا حرة ، قام باصدارها الأفراد ، ولكنها كانت ذات ولاء من نوع أو آخر ، ولم تتحرر الصحف الا حين دعا جمال الدين دعوته فى مصر الى الحرية ومقاومة الاستبداد ، حينئذ ظهرت مدرســـة الأبرار فى عالم الصحف ، أولئك الذين صارعهم الحاكم او الاستعمار أو النفوذ الأجنبى ، فأغلق صحفهم واحدة بعد أخرى ، ولقوا بعد ذلك السجن والنفى والتشريد ، ومن هؤلاء اديب اسحق وسليم نقاش .

× وكان رزق الله حسون أول عربى انشأ صحيفة عربية هى مرآة الأحوال ١٨٥٥ ثم فارس الشدياق اصدر (الجوائب) الاستانة واصدر عبد الله ابو الســـــعود (وادى النيل) ١٨٦٦ .

× واستطاعت طوائف من أحرار سوريا وصحفها أن نقلت من الحصار وصدرت فى القاهرة صحف تهاجم فيها ما يسمى الاستبداد الحديدى والخلافة العثمـــانية ولم يكن هذا فى حد ذاته يعنى الا أن بريطانيا التى كانت تحكم مصر اذ ذاك تشجع مهاجمة دولة الخلافة لتحطيمها والاستيلاء على ميراثها . وكان الهجوم على دولة الخلافة يحمل أكثر من معنى فقد كان بالنسبة لبعض كتّاب لبنان رد فعل لأحداث سنة ١٨٦٠ والجرى فى تيار الاستعمار الفرنسى والبريطـــانى الذى كان يعمـــــل على تحطيم الامبراطورية العثمانية .

× كانت الصحافة العربية فى هذه الفترة تهدف الى : (١) اصلاح اللغة العربية بعد أن تحولت من الركاكة فى التعبير الى أسلوب ميسر معقول (٢) تحـرير الوطن العـــــربى مـــن الحـــكام المستبدين فى مختلف الاقطار ، والاستعمار (٣) تحرير الوطن العـربى من التقاليد والعادات البالية .

كما قامت الصحافة تدور فعـال فى قضية المرأة وانشاء الجامعة ، ودعم الاقتصاد الوطنى والاشتراكية والقومية العربية .

× واستعملت الصحافة فى هــذه الفترة اسلوب العاطفة ، واثارة النفوس والحماس والراى الجرىء ، وقامت على اكتاف دعاة مؤمنين بأفكارهم أو تجار محترفين يجيدون صناعة بيع القلم ، وحتى نهاية فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى تحطمت صـــحافة الراى الحر وسيطرت صـــحافة (١) المدارس المتأثرة بالغــــرب (٢) الصحف ذات اللون الممالىء للمحتل (٣) الصحف المائلة للاقطاع ومن أسماهم الاستعمار اصحاب المصالح الحقيقية .

وقد استطاع الاستعمار فى مصر القضـاء على الصحف الوطنية حتى اذا جاءت الحرب العالمية لم يبق فى الميــدان الا الصحف الشــبيهة بالرسمية والمــوالية للاستعمار والمحايدة .

× بدأت الصحف اخبارية : تحمل الأوامر الحكومية وشئون التجارة والدواوين واحوال السياسة والتجارة ثم حملت رسالة النقد الاجتماعى والسياسى . وقد اهتم رفاعة الطهطاوى بالاصلاح الاجتماعى ، وجدد التعبير الصحفى . واهتم ابراهيم اليازجى بلغة الجرائد وصحح تعبيراتها ، وأحل فارس الشدياق التعبيرات الجديدة فى مكان الكلمات الأجنبية ، ومنها كلمات : المؤتمر ، والأسطول والباخرة والبريد والمنطاد والحافلة والازمـــة المالية والسند والسلك البرقى .

× كان كتاب الصحف فى أول الأمـر كتاب بلغاء امثال : ناصيف اليازجى وبطرس البستانى ، ورفاعـة الطهطاوى ، وفارس الشدياق وليسوا صحفيين على النحو الذى عرف بعد الحرب العالمية الأولى .

وكانوا يجمعون الى الصحافة : التعليم ، وتاليف الكتب ، والبحث العلمى ، واللغوى ، ولم تكن الصحافة مهنتهم الوحيدة .

× وسجلت الصحف فى هذه الفترة معارك ومناظرات ادبية غلب عليها الطابع الشخصى من اهمها معركة : فارس شدياق وابراهيم اليازجى . كما اجرى مناظرات مع ابراهيم الأحدب ، ولويس صابونجى ، وسعيد الشرتوبى ، وبطرس البستانى ، وقامت معركة الشدياق مع اليازجى على اثر موت ناصيف اليازجى ١٨٧١ حين رثاه الشدياق على صفحات الجرائد وانتقده وكان موضوع الانتقاد لفظة (فطحل) وقد انتصر اليازجى لأبيه على صفحات الجنان لبطرس البستانى .

ومن أجل معركة رزق الله حسون وفارس الشدياق اصدر حسون مجلة سماها (رجوم وغساق) وهـــو مؤسس جريدة مرآة الأحوال .

وقد أخذ المؤرخون على فارس الشدياق اسلوبه المقذع ، والعدول عن البرهان الى الطعن والشتم .

× حاولت الصحافة العربية خلق راى عام يهدف الى (١) مقاومة النفوذ الأجنبى (٢) مقاومــة استبداد السلطان والولاة والحكام والامراء (٣) الاصلاح الاجتماعى ورفع المستوى .

وانقسمت الصحف بين التيارات الأربعة)١(التيار الوطنى القومى الحر (٢) التيار العثمانى (٣) التيــار الفرنسى (٤) التيار الانجليزى .

وصدرت الصحف فى العالم العربى باللغة التركية والعربية فى مصر وسوريا ، وبالعربية والفرنســية فى الجزائر ، وهاجر كثير من الكتــاب اللبنانيين الى أوربا وأمريكا وصدرت لهم صحف فى لندن وباريس وروما .

فاصدر رزق الله حسون فى لندن « مرآة الأحوال » وندد بمبادىء السلطة العثمانية وكان من الهجــاء وعمل معه ، لويس صابونجى ، وجبرائيل دلال ، وأمين الشميل وعبد الله مراش ، وكانت دعوتهم الى اقامة خلافة عربية بدلا من الخلافة العثمانية .

واصدر خليل غنام صـــحفا فى فرنسا قاوم بها السلطة العثمانية .

وقامت الصحافة العربية فى المهجر ، بدور ضخم ، فقد ربطت بين الجاليات العربية وبين الوطن العربى ، وقد صدرت صحف عربية متعددة فى كندا ، والمكسيك ،

والارجنتين والبرازيل التى صدر بها وحدها ١٤٠ صحيفة وقد حملت صحافة المهجر لواء الحرية وحب الوطن وايقاظ روح القومية العربية ، وكانت اشد جراة فى النقد من صحف الوطن .

وتمخضت هذه الحركة الصحفية عن ظهور تيارين صحفيين واضحين فى العالم العربى :

١ — تيار الدعوة الى الوطنية والحرية ، لمقاومة الاستعمار الغربى .

٢ — تيار قبول الالتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق ، وقبول الحضارة الغربية والدعوة الى التجزئة والاقليمية .

* * *

(التيار الاول)

اثر جمال الدين الافغانى فى الصحافة من ناحيتين: التقاؤه فى مصر بالكتاب الذين اقاموا صحافة جديدة لاول مرة فى العالم العربى كله قوامها (١) مقاومة الاستبداد فى الحكم ، والدعوة الى الدستور والحياة النيابية للحد من سلطان الفرد (٢) مقاومة الاستعمار البريطانى ، والنفوذ الاجنبى (٣) الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى ، وتحرير اللغة من قيود السجع ، والكتابة من المدح والهجاء وتحرير الدين من قيد التقليد وابرز من قام بهذا الدور اديب اسحق ، وابراهيم اللقانى ، وسليم عنحورى ، وقد شارك جمال الدين فى هذه الصحف وكتب بتوقيع «مظهر ابن وضاح » وكانت حملاته على الانجليز من اهم ما كتب وقيل انه اوحى الى يعقوب ابن صنوع باصدار صحيفة شعبية ساخرة (٣) كان عمله الآخر بعيد المدى حيث انشأ صحيفة (العروة الوثقى) فى باريس صدرت فى ١٣مارس ١٨٨٤ وتوقفت بعد صدور ١٨ عددا منها .

كان لها اثرها البعيد المدى على الصحافة العربية كلها حيث خلقت تيارا قويا حملت لواءه المنار والمؤيد فيما بعد .

ومن اقواله البعيدة المدى فى تكوين الراى العام قوله : انت ايها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتنبت منها ما يسد الرمق ، وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ، لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة اتعابك .

× حملت هذه الصحف لواء الرد على افتراءات الغرب واكاذيبه . وقد كان لمحمد عبده دور كبير فى الرد على اخطاء هانوتو وفرح انطون (١٩٠٠) .

وكان محمد عبده قد رأس تحرير الوقائع (١٨٨٠) وعمل مع تلميذه عبد الكريم سليمان على خلق صحافة النقد والاصلاح الاجتماعى ، ورفع مستوى الكتابة والتحرير فى التقارير الرسمية . وبلغ من تشدده فى النهوض بالتحرير فى الصحف العربية ، انه انذر مدير جريدة شهيرة بتعطيل جريدته اذا لم يجد لها محررا ، صحيح العبارة . وقد وجه نقده الصحفى الى مختلف قضايا المجتمع وكان اهم ماركز عليه تركيزا متصلا « التعاليم » وعرض لحكومة الشورى ، ودعا الى اقامة نهضة وطنية حقيقية على أسس ثابتة .

* * *

وصور اديب اسحق منهج هذا التيار فى العدد الاول من صحيفة (جريدة مصر القاهرة) ٢٤ كانون اول ١٨٧٩ .

« مسلكى أن اكشف حقائق الأمور ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التعريض والتلميح . وأن اجاور مبادىء الحرية وآراء ذوى النقد . وأن ابين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ومقاصد اهل الحل والعقد . وأن اوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا (أولى الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما (أمناء الامة) ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا «ولاة النظام».

ومقصدى ان اثير بقية الحمية الشرقية . واهيج فضالة الدم العربى وارفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين ليعلم قومى ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه . ومالا منهوبا فيطلبوه . ولتخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشترى بحقوقهم ثمنا قليلا . ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا ليستميتوا فى مجاهدة الذين يبيعون ابدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم من الأجانب بما يطمعون فيه من رفعة المقام . فمن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

× وقامت اللواء فى مصر بدور ضخم فى مقاومة الاستعمار البريطانى والحملة على كرومر . وحمل مصطفى كامل على العميد البريطانى عقب حادث دنشواى

(يونية ١٩٠٦) شهرين كاملين فى صحف مصر وأوربا وأهمها الفيجارو الفرنسية ، وظل هجومه على الاستعمار البريطانى وممثله كرومر فى مصر مستمرا لم يتوقف .

وحملت (اللواء) الدعوة الى الجلاء والحرية والدستور وكانت دعوتها حماسية صادقة الايمان بدورها فى التعبئة الوطنية ، حتى انها انفصلت عن الخديو عندما غير اتجاهه ، وهاجمت فرنسا بعد عقدها الاتفاق الودى (وكانت تعتمد عليهما من قبل) .

وقد اعلن مصطفى كامل فى اللواء (٣ يناير ١٩٠٠) أن هدفه هو « خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبل وأنفعها والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة أخرى . والعمل لتربية ابناء مصر أحسن تربية وطنية وترقية التجارة والصناعة » .

كما دعت الصحف الوطنية الشعبية الى تعليم الشعب وانشاء الجمعيات التعاونية .

× وكان للصحافة العربية دورها فى مجال الحرية والدستور ففى مصر بعد صدور الدستور العثمانى (يولية ١٩٠٨) انطلقت الصيحة بالدعوة الى انشاء حكومة نيابية فى مصر واضطر مجلس شورى القوانين (ديسمبر ١٩٠٨) أن يطلب من الحكومة وضع مشروع قانون يمنح الأمة حق الاشتراك الفعلى مع الحكومة فى ادارة امورها الداخلية .

وحمل عبد العزيز شاويش على سياسة دنلوب فى وزارة المعارف والحكم الانجليزى فى السودان . وهاجم رئيس محكمة دنشواى وهو رئيس الوزراء .

وكان موقف الصحافة من مشروع امتياز قناة السويس من ابرز مواقف المقاومة ، فقد هاجم محمد فريد المشروع فى جريدة اللواء فى (اكتوبر ١٩٠٩) هجوما مدعما بالأسانيد والحجج ، وظل يواصل حملته حتى أبريل ١٩١٠ . ونقل الفكرة من عمل اقتصادى الى عمل سياسى ، يتصل بكرامة الوطن ، وحريته ، وكان لهذه الحملةأثرها اذ عجز مجلسشورى القوانين عنالحصول على موافقة تكفل تنفيذ المشروع بالرغم من مرافعة (سعد زغلول) لصالح المشروع .

× وفى تونس نهض التونسيون يطلبون الشورى بدلا من الحكم الفردى الاستبدادى ، وكان للصحافة دورها فى مؤازرة هذه النهضة . وقام محمد بيرم الخامس بحمل لواء الدعوة الى الدستور والشورى بمؤازرة خير الدين باشا الوزير التونسى .

× وكانت مجلة ثمرات الفنون فى بيروت (١٨٧٥ — ١٩٠٨) من ابرز الصحف التى حملت لواء الدعوة الى الحرية وقد واجهت مساجلات جريدة من الجوائب التى كانت تؤيد السلطان ومجلة البشير اليسوعى .

× وعبد الرحمن الكواكبى بصحيفتى : الشهباء ١٨٧٧ ، والاعتدال ١٨٧٩ يمثل هذا الاتجاه الوطنى الحر ، وقد لقى المعارضة والسجن والنفى والمحاكمة مما اضطره الى الهجرة الى مصر واعلان آرائه فى الاستبداد ، والدعوة الى الجامعة الاسلامية بها .

× وكان عبد الله نديم من رجال هذا الاتجاه ، بصحيفة الطائف التى هاجمت الاستعمار البريطانى قبل الثورة العرابية وخلالها ، ومجلة الاستاذ فى خلال حكم اللورد كرومر .

* * *

(التيار الثانى)

وكان التيار الثانى الموالى للحكام او للاستعمار ، اقوى ماديا فقد حصل على اعتمادات مالية ضخمة آزرته كما سمحت له الحكومات بموالاة الظهور حين ضيقت على الجانب الآخر وتصفت اقلامه ، وعطلت صحفه . وكان المقطم فى مصر أهم هذه الصحف . فقد رأى الاستعمار مقاومة الصحافة بالصحافة فأصدر المقطم (١٨٨٩) صحيفة يومية سياسية تجارية وذكر « بلنت » فى مذكراته أن وزارتى الحربية والداخلية دفعتا لصحيفة المقطم مبلغا عظيما من المال لتدافع عن تصرفات الانجليز فيها وقد عجز الخديو ازاء حملات المقطم أن يقدمها للمحاكمة .

واتيح للمقطم ان تحصل على اهم الأخبار وتنفرد بها، بينما حرمت منها الصحف الأخرى حتى أنها استطاعت أن تنشر بعض الاحكام القضائية قبل النطق بها بعدة أيام . وقد صاغت عقود المديح للاحتلال وتصرفاته . وقاومت خصومه وحملت على الخلافة والسلطة العثمانية .

ولما صدرت المؤيد ، اندلعت بينهما خصومات ومساجلات فاتهمت المقطم جريدة المؤيد بالتعصب . واتهمت صاحب المؤيد بالجهل وانضمت الصحف الأجنبية الى المقطمضد المؤيد . ووصف المقطم كتابات علىيوسف بأنها تعرض حياة الأوربيين للخطر .

وقد سافر فارس نمر الى لندن واجتمع بكبـــار السياسيين فيها وحرص على ترجمة تقارير اللورد كرومر السنوية ومن بعده تقارير مندوبى بريطانيا ونشرها فى المقطم والمقتطف .

× وفى بريطانيا اصدر لويس صابونجى صحيفة النحلة ١٨٧٧ باللغة العربية والانجليزية ، كما انشا جريدة الاتحاد العربى وجريدة الخلافة : ومثـل لويس صابونجى بين يدى فيكتوريا ملكة بريطانيا وقام على خدمة مصالح الدولة البريطانية فى مصر اثناء الثـورة العرابية . ثم تحول من خدمة الاستعمار الى خدمـــة النفوذ العثمانى فســافر الى تركيــا ١٨٩٠ وعمل فى معية السلطان عبد الحميد .

وكان الدكتور صابونجى يؤيد الاستبداد ويناصر الخديو اسماعيل ، والنظام حيدر أباد وقد تبرع له بعض المولين فى انكلترا بعشرة آلاف جنيه لاصـدار جريدة الخلافة فى لندن التى كانت حريصة على مهاجمة الاسلام ونشر الأخبار الجارحة عن السلطان ، محمـــلة بروح الخصومة والحقد ، وكانت جريدة الخلافة تطبع بالعربية والتركية والفارسية والهندية .

* * *

واصدر ابراهيم المويلحى صحفا فى ايطاليا ، اهمها جريدة الخلافة ١٨٧٩ بالعربية التركية لمهاجمة السلطان عبد الحميد وبايعاز من الخديو اسماعيل المخلوع ثم اغراء الســلطان عبد الحميد فأوقف الصـحيفة وسافر الى الاستانة وقربه السلطان وانشأ مصباح الشرق فى مصر لكى يمدح السلطان .

وقد وصفه احمد فؤاد صاحب الصاعقة قال عن الوان صحفه (٣٤ جريدة بينها من اختـــلاف الراى ما بين الروافض . ومن البعد فى الفكر ما بين المسجد الحرام والمسجد الاقصى . وقيل لم يسلم من قوارض قلمه الا من يعرفه) .

× وفارس الشدياق كان يرضى بجريدته (الجوائب) التى نشرها فى الاسـتانة الخليفة العثمانى ، والخديو اسماعيل ، والباى التونسى ، وقد عمل (لخدمة افكارهم وترويج مصالح بلادهم) وكان يحصل سنويا على ٥٠٠ ليرة عثمانية من كل من : الخليفة ، والخديوى ، والباى .

ومن أعماله المشينة طبعه المنشور الذى اصدره الباب العالى ، باعلان عصيان عرابى وقد عزى الى هذا المنشور ما أصاب عرابى من هزيمة وسقوط فى نظر المسلمين وحصل من سفارة بريطانيا فى الاستانة فى مقابل هذا العمل على الف ليرة انجليزية .

× وقد هاجت الأهرام والمقطم الثـورة العرابية ووصفتا عرابى بما أسمته الصحيفتان : (العاصى عرابى ورفاقة) البغاه ومدحت سلطان باشا الخائن والجنرال ولسلى .

× وقد ظهر تيار حيادى المظهر ، داخل هذا التيار لا يحمل لواء مدح الاستعمار صراحة : هذا هو اتجاه لطفى السيد فى (الجريدة) وهو اقل فى الدرجة واقرب الى الالتقاء مع الاستعمار فى منتصف الطريق ، وقـد اتجه هذا التيار الى محاسنة الاحتلال ، ومهاجمة الخلافة والسلطة العثمانية ، ونقد اسلوب مصطفى كامل فى تعبئة المشاعر الوطنية واتهامه بالحماسة والعنف . والدعوة الى التعقيل ، وقبول الأوضاع والاصلاح تدريجيا . وقد حددت دعوتها فى تحقيق الأمانى الوطنية بأنها انما تتم باتفاق يحدث بين الاحتلال وبين أعيان المصريين وحدهم بحسبانهم أصحاب المصالح الحقيقية . وكانت تعتبر (الخديو) صاحب السلطة الشرعية . و (ممثل بريطانيا) صاحب السلطة الفعلية . وقد اتجه هذا التيار ايضا الى تقييد التعليم وقصره على ابناء الأثرياء . كما دعا لطفى السيد الى الكتابة باللغة العامية .

وقد أطلق كرومر على هذا التيار : تيار المفكرين البعيدى النظر ، ولهذا التيار شبيه فى البلاد العربيـــة الأخرى .

* * *

مراجع

تاريخ الصحافـــة العربية : الفيكونت فليب دى طرازى ج ١ و ٢ .

الصحافة العربية : اديب مروة .

تطور الصـــحافة المصرية ١٧٩٨ ــ ١١٥١ ــ ابراهيم عبده .

* * *

(٤)

تطـــور التعـــليم

للتعليم أثره الواضح في تكوين الفكر العربي الاسلامي المعاصر وكانت نهضته علامة على اليقظة الفكرية التي شملت الوطن العربي كله. غير أن هناك عوامل متعددة حالت دون دفعه في طريقه الطبيعي اهمها : الاستبداد والاقطاع والنفوذ الأجنبي . فقد كانت هذه الفئات الثلاث تكره التعليم وتراه خطرا على وجودها . ولذلك وقفت في وجهه فلما عجزت عن صد تياره أثرت في مفاهيمـــــه وغاياته وانحرفت بها عن الهدف الأصيل .

وقد كان التعليم في أوائل القرن التاسع عشر في العالم العربي قاصرا على المدارس الدينية والكتاتيب ومعاهد اللغة والدين ، كالأزهر ، والقرويين ، والزيتونة وغيرها من الخلايا والزوايا الملحقة بالمساجد الجامعة لحلقات الدرس والصلاة .

وكانت أولى حركات اصلاح التعليم تهدف الى ادخال مناهج العلوم العقلية والنظم الحديثة الى هذه المعاهد .

غير انه لم تلبث ان ظهرت تحت تأثير الاتصـــال بالحضـــارة الحديثة انظمة جديدة للتعليم خاصـــــة في الاستانة، ومصر، ولبنان اذ انشئت المدارس ، والمعاهد والكليات على الأنظمة الحديثة . وكان شـــباب العالم العربي كله يتجه الى الاستانة للتعليم العالي ، وفي مصر كان لنهضة محمد على العسكرية أثرها في انشاء المدارس الحديثة .

وكان للمراسلين الأجانب : من الفرنسيين والأمريكيين أثرهم الواضح في انشاء المدارس الحديثة ، والمعاهد ، والكليات ، في بيروت واسيوط .

(المرسلين الأجانب هم المبشرين)

وكانت المدارس العربية في الشام (لبنان وسوريا وفلسطين) والعراق تعلم باللغة التركية بوجه عام ، حتى لقد كانت تدرس قواعد اللغة العربية باللغة التركية

ثم اتجهت المدارس العليا التركية الى التعليم باللغة الفرنسية الى جوار اللغة التركية ، وفي مصر كان لرفاعة الطهطاوي وعلى مبارك (في منتصف القرن التاســـع عشر) اثرهما في تطوير التعليم فقـــد كان الأول ازهري التعلم وكان الآخر مدني التعلم ، وقد اتيح لهما أن يدرسا في فرنسا ، ثم كان لهما العمل في اعداد المناهج بعد عودتهما . وقد وصل على مبارك الى مرتبة عليا حيث نال ارقى منصب في وزارة المعارف (١٨٧٩) .

وقد عمل رفاعة في ميدان التأليف والترجمة واعداد المناهج وبلغ في ذلك أسمى غاية حيث دعا الى الاقتباس الصالح من الغرب وادخل النشيد الوطني ، واعلى شأن الدعوة الأقتابية الى الدستور والحرية ، ويعد أول من تحدث عن الوطنية ودعا الى الاعتزاز بالتاريخ المصري ، والتراث الفرعوني وحاول ان يغطي الثغرات المختلفة في الكتب والمؤلفات المقررة على المدارس .

اما « على مبارك » فقد كان اداريا نابغا حقق التعليم نتائج هامة ، حيث نقل المدارس من العباسية الى سراي درب الجماميز ، ونظم المدارس الاهلية وانشأ مدارس مركزية في بعض مدن القطر . وانفق على المدارس من تبرعات الأهالي وأموال الأوقاف الخيرية وكان له فضله في انشاء مجلة ثقافية حررها عدد كبير من رجال الفكر المسماة (روضة المدارس) أنشأ دار الكتب ، حيث جمع الكتب المتناثرة في المكتبات المختلفة في مكتبة كبرى جامعة كما انشأ دار العلوم ليكمل بها النقص الذي وجده في مناهج الأزهر وهو نفس العمل الذي قام به طاهـــر الجزائري في دمشق ، حيث انشأ المكتبة الظاهرية من مختلف المكتبات المتناثرة .

وكان لعلى مبارك « مندرة » لها اثر تاريخي ، واضـــح الدلالة فهي اشبه بالرواق العباسي الذي كان

يلقى فيه محمد عبده دروسه الشهيرة ، التى حولت الفكر الدينى ورسمت له مناهج التجديد والاجتهاد .

وكان على مبارك يفتح مندرته لكل من يرد اليه وخاصة الطلاب والشباب الذين افسح لهم السبيل الى مناقشته فاذا ما كمل حديثه معهم قال لهم : انا ناظر ، انا اكبر من مديركم فاذا ذهبتم الى بلدكم ووجدتم الناس يشكون من عيوب الادارة فلا تتهيبوا أن تذهبوا الى المدير وتعرضوا عليه الشكوى .

وكان يهدف من ذلك الى علاج ناحية الذل والاستكانة التى كانت احدى ثمرات عهود الضعف ، وقد أرجع المؤرخون تحرر على مبارك وواقعيته الى دراسته العلمية الصحيحة حيث بدأ حياته مهندسا ، والى انه لم يتعلم فى الأزهر .

وقد حاول أن يرسم فى قصته « علم الدين » كيف يمكن للأزهرى أن يتصل بالمدينة الحديثة وان يتقبل محاسنها دون أن يتجهم او ينحرف وقد نقل على مبارك طرق التعليم الغربية والفرنسية خاصة ، الى دور العلم المصرية .

ويتصل برفاعة ، وعلى مبارك رائد ثالث هو : عبد الله فكرى ، الذى كان له دور فى ميدان التأليف التعليمى .

٣ ــ تطور التعليم فى العالم العربى من نظم المعاهد الدينية الى الأنظمة الحديثة وقد كانت الطريقة القديمة هى الطريقة الاملائية على نظام الحلقات التى يتوسطها الأستاذ ليملى دروسه ، ثم نشأت طرق التدوين والتأليف ووضع شروح للمتون والحواشى والتقريرات ، حتى فاق ذلك الاهتمام بالمتون الأصلية . وكان يعتمد على المدارس لا على المنهج .

ولم تكن هناك أنظمة أو قوانين تقيد الدراسة ، وكان للطالب وفق رغباته أن يختار أستاذه وان يقضى المدة التى يراها . وهذا النظام كان موجودا فى الأزهر والمعاهد الدينية واللغوية المختلفة ، ثم كان للنهضة اثرها فى :

× وضع قوانين وأنظمة التعليم تحدد نوع الدراسات ومددها وما يتعلق بالامتحانات والشهادات .

× وضع برامج للدراسات .

× تأليف كتب للمناهج والدراسات .

فى لبنان وسوريا

ــ كان لابنان دورها الواضح فى التعليم الحديث عن طريق المدارس الطائفية ، والمدارس الأجنبية ، هذه المدارس التى استطاعت ان تقوم على منهج وفق نظام الطوائف الذى منحته الدولة العثمانية لغير المسلمين فى انشاء الكنائس والأديرة والمدارس الخاصة .

ولذلك فقد أسست الطوائف المختلفة معاهد تعليمية خاصة بها كان طابعها الأول دينيا لاهوتيا ، ثم تطورت الى معاهد عصرية .

وقد استقت مناهجها من مناهج المدارس الأجنبية واتخذت كل مدرسة اللغة التى تراها .

وفى المدارس الأجنبية كان الاهتمام باللغة التى تتبعها الارسالية ، وكان أبرز هذه المعاهد : الفرنسية والأمريكية .

ثم قامت معاهد متعددة تبشيرية : ايرلندية وانجليزية ودنمركية وروسية غير أن هذه المعاهد لم تلبث أن ادخلت اللغة العربية بين مناهجها عملا على كسب المسلمين الى صفوف التعليم بها . وذلك بعد أن انتشر التعليم الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين ، وكان هدف هذه المدارس تبشيرى ، وكان لها دورها الخطير فى مهاجمة الاسلام ، ومحاربته ، ومحاولة التشكيك فى كثير من مقومات الشخصية العربية الاسلامية ، والحضارة ، والتاريخ ، واللغة العربية .

وكان لحماية الدول الأجنبية لهذه المعاهد اثره فى جراة هذه المدارس وحرية عملها فى هذا الميدان دون أن تخشى اى مقاومة من جانب الحكومات العربية التى كانت هى الأخرى خاضعة للنفوذ الأجنبى ، وفى سوريا كانت جميع المناهج تدرس باللغة التركية غير انه على اثر صدور دستور ١٩٠٨ طالب العرب بجعل لغة التعليم : اللغة العربية ، وقد تحقق ذلك فى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى .

ولا شك انه كان للمدارس المتعددة فى مصر والعراق والشام والشمال الافريقى من فرنسية وانجليزية وروسية وايرلندية والمانية ودانمركية وايطالية اثره فى الثقافة العربية ، واضطراب الفكر العربى بين تغليب احدى الثقافتين : السكسونية ، واللاتينية . وما كان لهذا من أثره على الثقافة العربية واللغة العربية .

اثر الاحتلال فى التعليم

بعد أن وقع الاحتلال البريطانى على مصر ١٨٨٢ والفرنسى على الجزائر ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ سيطرت الدول المحتلة على مناهج التعليم وشئونه ، فتحــول التعليم من اللغة العربية الى اللغة الانجليزية فى مصر ، والفرنسية فى الجزائر وتونس ، وفى مصر بدات ثنائية التعليم التى شجعها الاستعمار : بتفريقه بين التعليم الدينى والتعليم المدنى وعدم المزج بينهما ، نشأت عنها ثنائية فى الثقافة : هى التيار الفرنسى الذى كان يحميه القصر والحكام الاتراك ، والتيار البريطانى الذى كان يحميه ويشجعه الاحتلال .

وقد كان ادنلوب أثره فى تحطيم اللغــة العربية ومناهج الأزهر ، ومناهج التعليم المدنى ، ومقاومــة الثقافة الفرنسية وقــد احتفظ الانجليز لأنفسهم بحق اختيار الأساتذة فى المدارس وتوقفت البعثات الخارجية التى كانت تبل الاحتلال تقصد فى الأغلب الى فرنسا . فلما أعيدت وجهت الى بريطانيا .

واستطاعت بريطانيا أن تحول التعليم من هدفه الثقافى الشامل ، الى مهمة تخريج موظفين فحسب ؟ وقد الغيت المواد الثقافية من المناهج فضلا عما كان يقوم به دنلوب من ضغط مرتبات المعلمين ، وذلك حتى لايصل الى هذا العمل الا اقل الناس كفاية .

× وقد صور اللورد دوفرين فى تقريره الذى كتبه بعد الاحتلال البريطانى : هدف التعليم فى ظل الاحتلال الرامى الى تمزيق اللغة العربية الى لهجــات وتغليب اللغة الانجليزية ، فقال : ان أمل التقدم ضعيف طالما أن العامة تتعام اللغة الفصيحة العربية .

وقد نفذ ما أوصى به تماما فقد تحول التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية الى اللغــة الانجليزية وبذاك تدهور التعليم وعجز الطلاب عن أجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين أو ثلاثة .

كما الغى الانجليز المجانية فى جميــــع المدارس (بأنواعها الثلاث) وحرموا الفقراء من دخولها .

وصور اللورد كرومر فى تقريره ١٩٠٠ النتائج التى وصل اليها بعد ثمان سنوات من الاحتلال فقال : فى ١٨٧٩ كانت نســبة المجانية فى مدارس الحكومة ٩٥٪ أما فى السنة الماضية فان نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية ٩٨٫٥ فى المائة ، وانا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجانى كلية أو تكون فى حكم ذلك .

وقد ذكر الشيخ محمود ابو العيون فى يوميــاته (الصحيفة السوداء : ١٦ يناير ١٩٢٣ ـ الاهرام) أنه فى ١٩٠٤ لم يعد هناك غير تلميذ واحد يتلقى التعليم مجانا فى المدارس الابتدائية .

والذى حدث بعد الاستعمار البريطانى فى مصر ، حدث على نحو أشد فى الجزائر وتونس . فقد أصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة الوحيدة الالزامية ، وقد الغيت اللغة العربية كلية واصبحت البعثات جميعها الى فرنسا وحدها، وحيل بين اللغةالعربيةومناهج الثقافة الاسلامية وبين المدارس الجديدة التى انشأها الاستعمار الفرنسى والتى جعل نسبة ٧٠ فى المائة منها للمستوطنين الذين لا يبلغ عددهم أكثر من ١٠ ٪ من أهالى الوطن . وكان معنى هذا أن « التعليم » وهو سلاح بتار فى يدالاستعمار قد أخذ طريقا شاقا سيظهر بوضوح فى المرحلة التالية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

* * *

مراجــع

حولية الثقافة العربية : ساطع الحصرى ج ١

مذكرات الخديو عباس الثانى .

تاريخ التعليم الحـــديث فى مصر : أحمــد عزت عبد الكريم .

الصحيفة السوداء : محمود ابو العيون (الاهرام ـــ ١٩٢٢) .

* * *

(٣)

التيـــــار السـيـــــاسى

التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر: هو تيار الوطنية والقومية الذى حمل لواء مقاومة الاستعمار والتدخل الأجنبى والاستبداد فى الحكم وأتوقراطية الملوك والأمراء، وخلق الرأى العام فى البلاد العربية، وقد نشأ عن تطور العاطفة الدينية التى كانت تحمل نفس الاتجاه كانت العاطفة الدينية هى ابرز دوافع الجهاد الذى قامت به مصر ازاء الحملة الفرنسية التى هى اول صدام بين الشرق والغرب، وكانت المقاومة الشعبية قد تكونت قبل ذلك بتوقيع وثيقة « حرية الشعب » التى وقعها حــكام مصر عن طريق مشايخ الازهر والعلماء (١٧٩٥) ثم تضخمت هذه المقاومة عندما حمل عمر مكرم البيرق النبوى ونزل به من القلعة واندفعت وراءه الجموع الى بولاق لحفر الخنادق لمقاومة الفرنسيين، وقد كانت هذه المقاومة التى تعد صفحة فخار فى النضـــال من اجل الحفاظ على كيان الوطن، مثلا العاطفة الدينية التى تعتبر الدفاع عن الوطن دفاعا عن العرض والدين وقد بلغت هذه العاطفة قمتها فى معركة خلع خورشيد عندما اعلن عمر مــكرم « ان أولياء الأمر هم أصحاب الشريعة وان الشعوب كان لها الحق فى عزل الحاكم اذا ظلم او خان واجبه لأمته » .

وقد تطورت هذه العاطفة الدينية الى عاطفة سياسية قومية قوامها « الوطنية » . وقد بدأ هذا عند ما تحدث رفاعة الطهطاوى عن ذلك بعد عودته من أوربا ١٨٣١ .

وظل الكفاح الوطنى يحمل مفهوم العاطفة الدينية الى وقت طويل، حين تمثل فى جهاد السنوسيين فى ليبيا والمهدويين فى السودان .

والمعتقد ان رفاعة الطهطاوى هو اول من كتب عن مباحث الدســتور والحــكم النيابى والرأى العــام فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر، واعل المجلس الذى انشأه نابليون ١٧٩٨ فى مصر هو اول صورة للمجالس النيابية فى العالم العربى . وكان مجلس الشـــورى التونسى فى عهد الباى محمد على باشا اول مجلس شورى فى العالم العربى (١٨٦٠) وقــد تبعه مجلس شورى النواب فى مصر (١٨٦٦) فى عهد اسماعيل . ثم انشىء مجلس المبعوثان فى تركيا ١٧٨٦ بعد صدور الدستور العثمــانى الاول ١٨٧٦ ثم اعد الدســتور المصرى عام ١٨٧٩ وصدر عام ١٨٨٢ .

وهكذا بدأ التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى يأخذ صورته الاستهلالية وكانت تونس وتركيا ومصر تمثل المرحلة الاولى فى تكوين الرأى العام وبدء الحياة النيابية والدستور ومقاومة التدخل الأجنبى . وكان معنى هــذا الاتجاه مقاومة استبداد الملوك والأمراء، وخلق الرأى العام وايقاظ الوعى السياسى فى العالم العربى .

ومما يذكر أن هذه الدساتير والمجالس النيابية لم تســتمر ولم تحقق الهــدف منها فقد كانت اما خدعة، أو رغبـــة من المـــلك والأمير لتغطيـــة موقفه فى نظـــر التدخل الأجنبى كما فعـــل اســماعيل، أو ارضاء الشعب فى الوقت الذى كان فيه الباى والخديو والسلطان، يكرهون الحكم النيابى ويؤمنون بالاستبداد والاتوقراطية فى الحكم ولم يكن للشعب فى هذه الفترة القدرة على المطالبة بهــذا الحق، أو ممارسته، اذا أعطى له .

***

١ ــ تونس : خير الدين التونسى ١٨٦٠

١ ــ كانت تونس فى ظل حكم البابات أشبه بمصر فى ظل حكم الخديويين من أسرة محمد على وقد اتجــه الى تونس فى هذه الفترة ١٨٦٠ بعد احتــلال الجزائر الضغط الفرنسى لتقوم الدولة على أساس اقتباس نظم

أوربا وقوانينها . وهو نفس الضغط الذى وجهه الخديو اسماعيل واتجاه الباى احمد باشا الى فرنسا لمعاونته تنظيم جيشه كما فعل محمد على . وقد ظهر فى تونس « خير الدين » (١٨١٠ — ١٨٧٩) المصلح الذى قام فيها بمثل اصلاحات مدحت فى العراق وسورية وتركيا وقد تعلم خير الدين فى فرنسا وفى ١٨٦٠ شكل أول مجلس شورى منتخب . وقد اصطدم هذا المجلس برجال الدين الذين عارضوا الأنظمة السياسية الحديثة على أساس أنها غير شرعية . وقد عين خير الدين رئيسا للمجلس النيابى ولكنه لم يلبث أن اصطدم مع الباى محمد باشا الذى أعلن عند عرضه لبعض المسائل أنه حصل على وعد من قنصل فرنسا فجابهه خير الدين بأنه لم تكن هناك مدعاة لعرض هذا الموضوع على المجلس .

وقد تعددت الضغوط الأجنبية ، فاستقال وسجل موقفه فى صراحة حيث قال : « حاولت أن أسعى بالأمور فى طريق العدالة والنزاهة فذهب مسعاى سدى ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبنانى بتمسكى بالمناصب » .

ثم فرغ نفسه لدراسة أسس الحضارة الغربية وعوامل قوتها وحمل لواء الدعوة الى « الاقتباس » من الغرب فى ميدان الفكر كما حدث فى ميدان الحضارة ، وألف فى ذلك كتابه « أقوم المسالك فى معرفة احوال الممالك » وهو ما أطلق عليه فى الترجمة الفرنسية « الاصلاحات الضرورية للدول الاسلامية » (صدر ١٨٦٧) .

وقد عرض فلسفته فى الاقتباس من الحضارة ، وكان أكثر جرأة من رفاعة الطهطاوى (١٨٤٠) اذ جاء بعده بربع قرن . وقد نعى على المسلمين كراهية الأخذ بأساليب المدنية الحديثة فى الاصلاح ، والاعتقاد بأن كل ما يصدر عن أوربا حرام . أو مخالف للشريعة الاسلامية وقال : ان التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والاخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية . وعنده أن الحكمة ضالة المؤمن انا وجدها فهو أحق الناس بها . وأن على المسلمين الاستعداد لمقاتلة العدو بمثل سلاحه وأن الأخذ بالعلم من أسباب العمران . وقد دعا الى الأخذ بالفكر الغربى فى أساليب الحكم والتنظيم والادارة والأسلحة « كما أخذنا الحضارة فى الملابس والأثاث والمخترعات » . وقال ان الامة التى لا تجارى جاراتها فى معداتها الحربية ونظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة فى أيديهم ونعى على المسلمين سبق النصارى لهم اذا اجتمعوا فى قطر واحد كان النصارى أسبق الى تشرب المدنية الغربية والاستفادة منها ، فى الوقت الذى لا يمنع الاسلام من نقل حضارة الغرب ولا يمانع من الأخذ بنظم ادارتهم مع مراعاة الظروف ، وأن لهم أن ينقلوا ما يستطيعون هضمه ثم يوسع هذا شيئا فشيئا بنمو أسباب التمدن . كما دعا الى الأخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم وأشار الى عوائق التقدم : فحصرها فى فئتين ، هما : رجال الدين ، ورجال السياسة . أما رجال الدين ، فانهم يعرفون الشريعة ولا علم لهم بأمور الدنيا . وأن رجال السياسة يعرفون الدنيا ولا يعلمون الدين ، وهم يريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع الى الدين . فنقول للأولين اعرفوا الدنيا . ونقول للآخرين اعرفوا الدين ، ودعا الى امتزاج الطائفتين وتعاونهما . وانشأ مدرسة عصرية تعلم فيها الثقافة الغربية بجوار الثقافة العربية.

ونعى على العالم العربى أن الحكم النيابى لا يتحقق الا بأحد أمرين : رغبة الملك أو الأمير او قوة الراى العام ورغبته رغم اتجاه الملك والأمير الى الاستبداد . وقال : ان الأمة العربية لا يزال حكامها يكرهون الحكم النيابى وأن الراى العام جاهل خاضع .

* * *

٢ — مصر : عبد السلام المويلحى (١٨٧٩)

اتجه الخديو اسماعيل الى الغرب بحكم الضغط الذى لقيه من الدول الأوربية نتيجة للديون واضطراب الحالة الاقتصادية فى مصر . ودعا الى أن مصر قطعة من أوربا . وقال نوبار رئيس وزرائه (أغسطس ١٨٦٧) ان التقدم لا يأتى الا من ناحية أوربا وان حكومة اسماعيل تتطلع الى اشتراك العنصر المتمدين — اى الأوربيين — فيها وتريد أن تكل اليهم كبار اعمالها . وقد اتجهت الى تعديل الأنظمة والقوانين دون مشاركة للأزهر فيها والالتجاء الى القوانين المدنية الفرنسية . وانشاء المحاكم المختلطة لاقرار الامتيازات الأجنبية ولايجاد حصانة للاجانب من محاكمتهم أمام القضاء المصرى .

وقد عمل اسماعيل لتغريب مصر ومحاولة ادماجها ضمن نطاق الشعوب الأوربية على أساس فرض القوانين لاعلى أساس تنمية وعى الراى العام او توجيهه مما كان عاملا حاسما فى التعجيل بنهاية اسماعيل ، ذلك أن اسماعيل باعتباره حاكما مستبدا تجاهل مقومات الشعب وجهه الى البذخ والاتجاه التغريبى الفقر والجوع ، ولم يكن فى الأمة من يحاسبه على هذا الاسراف وقد وفدت فى ظل حكمه وبتشجيعه بعثات الأجانب للتبشير والتعليم والتجارة .

وكانت جماعتا : الفرير ، والجزويت ، اولى هذه البعثات التغريبية . وقد أعان حكم اسماعيل الطويل مدة ستة عشر عاما (١٨٦٣ — ١٨٧٩) على تعميق الاتجاه التغريبى ولكنه خلق الوعى السياسى فى مصر ، هذا الوعى الذى يتمثل فى الدور الذى قام به مجلس شورى النواب بعد عشر سنوات من تكوينه .

وقد بدا مجلس شورى النـــواب ١٨٦٦ ولم يكن للمجلس اى ســلطة قطعية ، غير انه لم يلبث فى عام ١٨٧٦ أن ظهرت المعارضة فى دورات المجلس بقيـــادة عبد السلام المويلحى الذى نعى على الحكومة (نوبار باشا) فى جلسة ٦ يناير ١٨٧٩ : اغفال مجلس النواب فى مرسوم القوانين المتعلقة بالشئون المالية وقال : « لم نر لمجلس النواب فى هذا (الدكريتو) اسما ولا خبرا مع أن سائر ما يختص بالادارة العمومية من تحصيل اموال، وفرض ضرائب ووضع لوائح أو قوانين انما يقصد به الأهالى ، وكل ما يقصد به الأهالى لابد من عرضه عليهم ورضاهم به ، عن طيب خاطر قبل وضعه وتكليفهم به ، وحيث أنهم انابوا عن أنفسهم نوابا فهم منوطون بالمدافعة عنهم ، والمحاماه عن حقوقهم فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم لينظروا فيهويتدبروه وقال : ان مثل رئيس مجلس النظار لايجهل حقوق مجلس النواب ومقـــدار احترامها كما لا ينكر ان موضــوع (الدكريتو) المحكى عنه هو من حقـــوق ذلك المجلس المقدسة التى لا يصح انتهاكها » .

وقد كان لهذا الاتجاه أثره وخطره فقد اهتز له الوزيران الأوربيان اللذان كانا صاحبى الكلمة فى سياسة الحكومة .

* * *

ولكن الاتجاه الثورى الشورى ، مضى فى طريقه فتقدم ٤٩ نائبا على راسهم (عبد السلام المويلحى) فى ١٩مارس ١٨٧٩ مطالبين « بتخفيض الضرائب والاتاوات الفادحة التى ينوء بها الشعب » ورأى الوزيران الأوربيان أن المجلس اصبح يخلق العقبات ففضت جلساته فى ٢٧ مارس ١٨٧٩ ولم يدع (عبد السلام المويلحى) المجلس ينفض دون أن يهاجم ناظر النظار (رياض باشا) فأكد فى خطاب الختام قائلا : أن المجلس طالب عدم قطع امر فى اى شأن كان الا باشتراكه ، وجرت بينه وبين(رياض) مناقشة حادة رد فيها المويلحى على اتهامات رياض فقال: من ضمن ما قلتموه ، أن أهالى مصر همج ، وانه لا يوجد فيهم عشرة يفقهون ما يقال فى الجرانيل ، مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالى الوطن لهذه الحالة التى لا تليق .

وقد كان لهذا الاتجاه الجرىء نتيجته المحتومـــة نفض المجلس ، غير ان النواب الأحرار اجتمعوا فى بيت الشـــيخ البكرى نقيب الأشراف ، ثم فى منزل اسماعيل راغب رئيس مجلس النواب وعقدوا « جمعية وطنية » تضم صفوة كبراء البلد وأصحاب الراى ، وتم اتفاقهم على المطالبة باسقاط الوزارة الأوربيـــة وتأليف وزارة وطنية برئاسة شريف كما طالبوا فى « اللائحة الوطنية » التى وقعوها ، بتعديل نظام مجلس شـــــورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها المجالس النيابية فى أوربا وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية امامه .

وقد اذعن الخديو اسماعيل لقوة الراى العام ، ووافق على المطالب مرغما وكان ذلك انتصارا للمجلس، وتم وضع الدستور الاول (دستور ١٨٧٩) على احدث المبادىء العصرية ، مخولا مجلس النواب سلطة البرلمان الحديثة ، وقوامها حق اقرار القوانين واقرار الميزانية وجعل الوزارة مسئولة امامه . كما خول سكان السودان حق انتخاب ممثلين لهم فى مجلس النواب ، باعتبـــــار السودان جزءا من الدولة المصرية .

غير ان هذا الدستور لم يصدر اذ سرعان ما سقط اسماعيل وفض المجلس ، ثم اجتمع المجلس مرة اخرى فى ظل حكم توفيق (ديسمبر ١٨٨٦) ووضع دســـتور (١٨٨٢) الذى صدر به المرسوم الخديو ، ويعد«محمد شريف» مؤسس النظام الدستورى فى مصر . وقد كان احد أعضاء البعثات الى فرنســـا ١٨٤٤ وتخصص فى الفنون الحربية . وكان شريف يكره التدخـــل الأجنبى والحـــكم الاستبدادى ويطالب بوجوب اقامـــة الحكم الدســـتورى ، ووضع حد للتدخل الأجنبى ، وكان رأى شريف أن الطريقة الوحيدة للخلاص من الورطات التى كانت محيطة بالبلاد هى توسيع نطاق الشـــــورى ، واشراك رأى نواب الأهالى مع الحكومة .

المراجع

عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى .
زعماء الاصلاح : احمد امين .
المجددون فى الاسلام : عبد المتعال الصعيدى .
عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى .
تاريخ الأدب الربى : جورجى زيدان (الجزءالاخير)
تقويم الفكر الدينى : محمود الشرقاوى .
اقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك : خير الدين التونسى .

(٤)

مدرسة الأفغانى الفكرية وآثارها

(مصر من ١٨٧١ - ١٨٧٩)

كان لجمال الدين دوره فى تطور التيار السياسى فى الفكر العربى المعاصر، وقد اختار مصر من بين بلاد العالم العربى كله لاذاعة دعوته لتحرير العقول من قيود الجمود واتجاهه الى اصلاح الفكر الدينى ، وخلق الفكر السياسى عن طريق توجيه الخطابة والكتابة والصحافة. الى الحرية ومقاومة الاستبداد وتطهير العقيدة وقد عرف بخصومته للاستعمار البريطانى . وكان له مواقفه الواضحة مع اسماعيل وشاه ايران كجزء من خطته لمقاومة تسلط الملوك والأمراء وقد بعث «روح الكرامة » فى العالم الاسلامى وآمن بأن يقظة الروح العربية ، هى العامل الأول فى استعادة مجد الاسلام . وكان لدعوته اثرها فى الثورات : العرابية المصرية والفارسية والتركية .

وكانت وسيلة جمال الدين اخلق الوعى السياسى فى العالم العربى وتحرير الفكر من قيود الاستبداد وخلق روح الكرامة والعزة ومقاومة المستعمر « هو الثورة السياسية » ، فقد رأى تغلغل النفوذ الأجنبى وتسلط الملوك مما حمله على الطعن فى الحكم الاستبدادى والدعوة الى الحد من سلطانهم بالدستور .

وكان ايمانه بالثورة السياسية نابعا من اعتقاده بأنها اسرع الطرق وآكدها فى تحرير الشعوب . واذلك رأى جواز خلع وقتل أمراء المسلمين الذين يشجعون النفوذ الأوربى . وفى حديث له مع الاستاذ (براون) قوله : لا امل فى الاصلاح قبل قطع ستة او سبعة رءوس وسمى بالاسم : شاه العجم ، وزرائه (كتاب : الاسلام والتجديد) وقد كثرت المناقشة بين انصار جمال الدين فى الوسائل التى يمكن بها خلع الخديو اسماعيل او اغتياله ، اذا استعصى خلعه (بلنت : التاريخ السرى) .

وقد جاءت دعوة جمال الدين السياسية (ولدعوة اخرى الى الجامعة الاسلامية أها مكانها) فى نفس الوقت الذى كان اسماعيل يعمل على ادخال الافكار الأوربية على نحو سريع وقد كان فى أوائل اقامته فى مصر ، يرى أن أى مجلس نيابى يشكله أمير أو ملك ، هو مجلس موهوم ، موقوف على ارادة من احدثه . وانه لابد للقوة النيابية أن تنبعث من ضمير الأمة ووعيها . ولكنه عاد فى أيامه الاخيرة ، فحرص على طلب الحكم النيابى والاصرار عليه — ولعل هذا الأمر حدث بعد اعلان الدستور العثمانى الأول وفشله (١٨٧٦ — ١٨٧٧) ويذكر مؤرخوه أنه لم يدخل فى السياسة الا فى خلال ١٨٧٨ ، اى بعد توقف الدستور العثمانى ، وقد استدعاه الخديو توفيق ليناقشه فى مدى أحقية « المصريين » للحكم الدستورى الشورى وقال لجمال الدين : ان اكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيأتون أنفسهم والبلاد فى تهلكة. فانبرى جمال الدين يفند للخديو رأيه فى جراة وايمان برايه قال : أن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو فيه من وجود الخامل والجاهل بين افراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل . فبالنظر الذى تنظرون به الى الشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، واسرعتم فى اشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم .

* * *

وقد عدل « جمال الدين » الكثير من النظريات الفكرية فحول الأدب والصحافة من مدح الملوك والأمراء الى دعوة الاصلاح ، وسخر الادب لخدمة الشعب والمطالبة بحقوقه ، وقاوم نظرية الزهد الصوفية السائدة فى العزلة عن المجتمع .

وقال : فناء الصوفى فى الله ، وفنائى فى خلق الله .

وقد هز الشاعر بدعوته الحماسية الى الحرية مما كان له أبعد الأثر فى اتقاد هذه الجذوة التى كانت بعيدة المدى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر .

« انكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد . وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم . وانتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الظلم والجور وتنزل بكم الخسف والذل . وانتم صابرون بل راضون . تستنزف قوام — حياتكم — التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط وانتم صامتون . انظروا أهرام مصر ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط . . فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة اجدادكم . هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم . عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء » .

وحق لمحمد عبده أن يصف شعب مصر عند قدوم جمال الدين اليها بأنهم كانوا يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، يتصرف فيها حسب ارادته ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم ، موكولان الى امانته وعدله ، أو خيانته وظلمه . ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه » ، ثم ظهر بوضوح اثر جمال الدين فى يقظة الرأى العربى كله وتطلعه الى حقه فى التفكير السياسى عن طريق الدستور والنظام النيابى . وذلك فى مناقشات عبد السلام المويلحى فى مجلس شورى النواب وتطور ذلك حتى قال القاضى الهولندى (فان بملن) احد قضاة المحاكم المختلطة : ان المثقفين المصريين يخطىء من يظن انهم لا يهتمون الا بمصالحهم الشخصية ، ومصالح عائلاتهم ، وهم على العكس ، يكرهون الحكم التركى والحكم الأوربى على السواء ويريدون حكومة وطنية (بكل معنى تحمله هذه الكلمة) .

وكان هذا مقدمة اتجاه العالم العربى نحو القومية والتحرر من أنظمة الحكم الاستبدادى .

— ٥ —

عرابى والحزب الوطنى الأول ١٨٧٩ — ١٨٨٢

تعد حركة احمد عرابى عاملا من ابرز عوامل التيار السياسى فى يقظة الفكر العربى الاسلامى . فقد تأثر عرابى بجمال الدين والاتجاه الدستورى العثمانى . وكان بمثابة رد فعل واضح للتركية المتغلغلة المسيطرة . ورد اعتبار لما كان وجه الى المصريين من اتهام بأنهم « فلاحون » وقد تمثلت دعوته فى مقاومة (١) الأسرة التركية (٢) التدخل الأجنبى (٣) حكم الفرد الاستبدادى ، ويعد عرابى أول سياسى فى العالم العربى وقف فى وجه الحاكم المستبد مناديا باسم الحرية وتمثل عبارة الخديو فى يوم (٩ سبتمبر ١٨٨١) مفهوم الحاكم المستغل كما تمثل عبارة عرابى مفهوم اليقظة الفكرية السياسية .

وقد كانت مظاهرة عابدين ترمى الى مطالبة عرابى بمطالب ثلاثة هى :

(١) عزل رياض (٢) تشكيل مجلس النــــواب (٣) وصول الجيش الى العـــــدد المعين فى الفرمانات السلطانية .

قال الخديو : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها . وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما انتم الا عبيد احساننا — فرد عليه عرابى قائلا : لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا ولا عقارا ، فوالله الذى لا اله هو اننا سوف لا نورث بعد اليوم .

وهذا الحديث ولا شك علامة هامة من علامات تطور التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، وهو أول علامات ظهور « القومية المصرية » .

فقد كان الطابع التركى هو الغالب على الفكر والحكومة والجيش ، فكانت الأسر المتصدرة لشئون البلاد من عائلات تركية ولم يعرف رئيس وزراء الا وهو تركى الأصل . كما كانت استانبول هى قبلة المصطافين .

ولم يجد عرابى مصريا صميما يملك شيئا يؤبه له وقد تزعم عرابى الحزب الوطنى الذى أعلن عن وجوده فى نوفمبر ١٨٧٩ حين وزع اعلانه الذى بلغت كميته عشرين الف نسخة مطبوعة من منشور احتوى على بيان محدد لانقاذ مصر من ويلاتها ، وقد عزا البيان ما تقاسيه البلاد الى الحكم المطلق . وخلو البلاد من برلمان منتخب متمتع بسلطات كاملة . وعدم سيادة القانون وعـــــدم تساوى الناس امامه ، وافتقار البلاد الى التعليم العام .

وقد ظل عرابى مؤمنا بأهدافه حتى بعد فشـــل الثورة العرابية التى لم تهزم الا بالخيانة ، فقد صور اهدافه فى مذكرته التى رفعها الى اللورد « دوفرين » ،

الذى استقدمه بريطانيا بعد الاحتـلال لتنظيم الادارة المصرية وفق أهداف الاستعمار ، وتلك هى ملامح هذا التفكير السياسى :

- × اعظم مصاب مصر من المرابين والسماسرة الذين امتصوا دماء الفلاحين .
- × من أشد ويلات مصر الأجانب الذين يشغلون اعلى المناصب ويتقاضون أضخم المرتبات .
- × وأولئك الذين يحيطون بالحكومة ساعين لابعاد المصريين وهضم حقوقهم .
- × أن يكون نظام الحكم فى مصر نظاما دستوريا : مجلس وزراء مسئول عن وزارته .
- × أن يكون حاكم مصر ملما بأحوال البلاد ومحبوبا .
- × يكون الأمة مجلس نواب ومجلس أعيان يعرض عليها اللوائح والقوانين .
- × المساواة بين سكان مصر ، ولا يجوز التمييز بين الوطنى والأجنبى فى الضرائب وسواها وتوحيـد القوانين فى جميع المحاكم المصرية .
- × الاستغناء عنخدمة الموظفين الأجانب الذين لاحاجة للبلاد بهم .
- × منع المرابين من ابتزازات الأموال .
- × منع المرابين من ابتزازات الأمـوال ، والاهتمام بأعمال الرى .
- × نشر التعليم فى مختلف البلاد .

* * *

وقد اعلن أحمد لطفى السيد أن الدستور من عمل أحمد عرابى . ومن وضع يده ومن آثار جرأته .

واكد داود بركات ، أن الثورة العرابية غـيرت بلا شك ولا ريب وجه سياسة العالم فى الشرق . وانها لم تنته ، (الأهرام ١٩٣١/١٠/٧) ولن تنتهى قريبا ، وأن الأمة قد سارت وراء عرابى لانه رمى عن قوس عقيدتها ومناها بحريتها .

* * *

— ٦ —

عبد الرحمن الكواكبى : مقاومة الاستبداد

وعبد الرحمن الكواكبى (١٨٤٨ — ١٩٠٢) الذى دعا الى مقاومة الاستبداد (وهو صاحب دور آخـر فى الجامعة الاسلامية) فى أواخر القرن التاسع عشر وعمله يمثل مدى تطور التيار السياسى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر فقد كان الاستبداد الذى طبع الحكم فى العـالم العربى هو العائق الأكبر عن الحرية .

* * *

وقد هاجم عبد الرحمن الكواكبى الاستبداد هجوما عنيفا . وفصل بين الاسلام وبين الحكم المطلق ، الذى يفرضه المستبدون . وبين كيف أن الاسلام مؤسس على « شورى » أهل الحل والعقد . وهو لا يعترف بسلطة دينية ولا منزلة خاصة لرجال الدين .

وعبد الرحمن الكواكبى يسير فى تيار جمال الدين فى مقاومة الاستبداد وتمجيد الحرية . وقـد دعا الى اسلوب الحـكم الديمقراطى واقامته على دعائم من الشورى والعدل والمساواة . كمـا طالب بالعدالة الاجتماعية وعمق مفهوم الوطنية . وحارب البدع فى مجال الدين ، ودعا الى تنقية الدين والعودة به الى سماحته ويسره وبساطته ، كما هاجم الماديين .

* * *

ودعا أيضا الى التعليم وتحرير المرأة واقامة نظام الشورى والغاء الاقطاع .

* * *

— ٧ —

محمد فريد والدستور

ويتصل بالتيار السياسى عمل محمد فريد فى طلب « الدستور » عقب توليه رئاسة الحزب الوطنى ١٩٠٨ فقد وجه الوطنيين الى مطالبة الخديو بالدستور وذلك بعد اعلان رد الحكومة على ما طلبته الجمعية العمومية (مارس ١٩٠٧) من انشاء المجلس النيابى ، واشار الرد « بأن الحكومة ترى ان الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب » .

وقد رأى محمد فريد ان هذا الرد ما هو الا اهانة للأمة واتهام لهـا بعدم كفايتها النظام الدستورى ورأى ان خير وسيلة للرد على ذلك ، القيام بحركة جماعية المطالبة بالدستور واعدت عرائض وقعت فى مختلف انحاء مصر بلغت عشرات الألوف وقد انهالت هذه العرائض على الخديو واشترك فى توقيعها أعيان البلاد والمثقفات من السيدات والآنسات وكان لها دوى هائل كان اكبر دعاية للدستور . وقد اكتمل من هذه العرائض ٦١ الف توقيع فى حوالى الف عريضة .

وقد كان لاعلان الدستور العثمانى (يولية ١٩٠٨) اثره فى ازدهار هذه الحركة واضطراب الخديو والانجليز لها . ثم لم يلبث الانجليز (اللورد جراى) ان اعلنوا معارضتهم لحركة الدستور بحجة ان المصريين لا يزالون غير أهل لتحقيق هذا العمل ، وقد رد عليهم محمد فريد ، بقوله : ان مصر اكثر استعدادا واهلية لحكم نفسها بنفسها من كثير من الأمم الأوربية ، وقال : انها محاولة لادخال اليأس على قلوب المصريين للتأثير على حـركة المطالبة بالدستور . واعلن ان ذلك لن يؤدى الا الى زيادة الشعور الوطنى قوة .

وقد كان لهذه الحركة اثرها فى تطور الفكر السياسى العربى .

* * *

— ٨ —

محمد عبده : الاجتهاد

وكان للشيخ محمـد عبده (المتوفى فى ١١ يوليو ١٩٠٥) دوره فى الاصلاح الدينى وفتح باب الاجتهاد . وهو دور يختلف عن دور جمال الدين الأفغانى ، الذى كان يغلب عليه العمل السـياسى وقد لخص الشيخ عبـده مذهبه فى خمس نقاط :

— فتح باب الاجتهاد وعدم الاكتفاء بالتقليد .

— تجديد شباب اللغة العربية والعناية بأمرها .

— محاربة الخرافات والأباطيل التى نسبت زورا الى الدين .

— تحريك رجال الدين من رقادهم لأنهم مصابيح الظلام .

— الاعتماد فى نهضة المسلمين على النهـوض بالأزهر لأنه حصن الدين ومعقل اللغة .

وكان لمحمد عبده دوره فى تطوير الفكر العربى فقد حول الأدب والصحافة من مدح الملوك والأمراء ، الى دعوة الاصلاح الاجتماعى وسخر الأدب لخدمة الشعب والمطالبة بحقوقه . وفسر القرآن تفسيرا ينطوى على الاجتهاد والسير مع الزمن .

وكان له عمله فى اصلاح الأزهر وانشاء مدرسة القضاء الشرعى ، واصلاح المحاكم المختلطة ، ومحاربة البدع .

* * *

وقد بدأ حياته الفكرية بكتابة رسائل اصلاحية فى جريدة الاهرام ١٨٧٦ ، ثم تولى رئاسة تحرير الوقائع المصرية — ونفى بعد الثورة العرابية ست سنوات زار خلالها اوربا وبيروت وتونس وعاد الى مصر ١٨٨٨ حيث وجه اهتمامه الى هدفين هامين (١) تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى (٢) اصلاح اساليب اللغة العربية فى التحرير سواء فى المخاطبات الرسمية او المراسلات بين الناس .

وقد قاوم محمد عبده بقلمه كل ما وجه الى الاسلام من الاتهامات وكان ابرز موقفين له رده على هانوتو عن روح الاسلام وموقفه من الاستعمار ، ورده على فرح انطون عن : سماحة الاسلام وموقفه من العلم والعلماء وحرية الرأى .

واتسمت مساجلاته بالعمق وقوة الحجة والترفع عن المجادلات الرخيصة .

ولم يأخذ المؤرخون على محمد عبده الا موقفه من الاستعمار البريطانى بعد عودته من منفاه وارتباطــه بالمعتمد البريطانى (كرومر) الذى وصـــــفه فى كتابه (مصر الحديثة) بأنه زعيم حزب سياسى اجتماعى معتدل يختلف عن موقف الحــزب الوطنى المتطرف وقال انه (انشأ مدرسة فكرية فى مصر على نحو ما فعل السيد احمد خان منشىء كلية عليكرة فى الهند) .

* * *

وانه « يعرف بلزوم معاونة الغربى لاصلاح مصر على انه يختلف عن الفئة من المصريين المقلدين للأوربيين» وان هذا الفريق (أى فريق عبده) « عمله صعب جدا لأنهم حلفاء الأوربى المصلح ومساعدوه وسوف يجد محبو الوطنية المصرية احسن أمل فى ترقى اتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج » .

ومعنى كلام كرومر هذا فى الشيخ محمد عبده انه يؤمن بالتعاون مع بريطانيا فى سبيل الاستقلال التدريجى وهـــو المذهب الذى صنعه كرومر واطلق عليه اسم « الالتقاء مع بريطانيا فى منتصف الطريق » وعلى نسقه قام حزب الأمة الذى انشأه الارستقراطيون والاقطاعيون و « أصحاب المصالح الحقيقية » فى مصر ، واصدروا « الجريدة » لسانا لهذا الحزب وهو ما وصفه اطفى السيد بالدعوة الى التمثيل ومعاداة « النزعة العاطفية» هذه النزعة التى حمل لواءها مصطفى كامل .

ولا شك أن محمد عبده كان له دوره الخطير فى اصلاح الأزهر وفى تعزيز الفكر العربى الاسلامى وترقيقه وتحريره من قيود التقليد فى المضمون والزخرف فى الأسلوب

* * *

تيـــار الجامعـة الإســـلامية

يمكن القول بأن الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، أو الوحدة الاسلامية ، انما جاءت على اثر تغلغل النفوذ الاستعماري فى العالم الاسلامى ، ومهاجمته لمقـــومات التفكير والعقائد وتغلغله فى مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فكانت هذه الدعوة من عوامل الاســـتجابة للتحدى .

وقد جرت فى عدة ميادين تختلف فى غاياتها ، ولكنها فى مجموعها تهدف الى توحيد العالم الاسلامى واعادة ربطه مرة أخرى بميثـــاق ، او هيئة أو خطة تحمل معنى المقاومة والمواجهة والتجمع لدرء الخطر .

ولمـــا كان الاستعمار الغربى قد ركز على هذه المنطقة التى تضم العالم العربى والهند وأندونيسيا ، وهاجم القيم والمعتقدات فقد رأى المفكرون أن هـــذا الغزو انما هو حملة صليبية مستأنفة فى أسلوب جديد ، مجاله العالم الاسلامى كله ، وقوامه البقـــاء الطـــويل وتركيز القواعد الاستعمارية .

ولقد بدأ الغزو ، بمهاجمة المعتقد الاغلب فى المنطقة وهو « الاسلام » ظنا منه أن القضاء على العقيـــــدة الدينية سيحقق للاستعمار تمزيق المنطقة وضمان البقاء الطويل ، ولذلك أطلق مختلف أدوات الغزو الفكرى : من مستشرقين ومبشرين ودعاة ومفكرين وكتاب وصحف ، وهذا هو السر فى اطلاق عبارة « الجامعة الاسلامية » على هذا التنادى الى التجمع ، وقد اجتمع رأى المؤرخين على أن أحدا من مفكرى الاسلام لم يسبق الى الجامعة الاسلامية قبل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) وخاصة فى فترة السنوات السبع التى قضاها فى مصر .

وقد أخذ الغزو الفكرى فى هذه الفترة لون الصراع بين الاسلام والمسيحية وركز الاستعمار هجومـــه على مقومات العقيدة ، وحاول الصاق الاتهام بالتخلف وبأن ما وصل اليه المسلمون من جمود وضعف انما مرجعـــه الاسلام نفسه .

وقد دعا السلطان عبدالحميد فى أواخر القرن التاسع عشر الى «الجامعة الاسلامية» فى ظل الخلافة العثمانية وظن البعض حينئذ ارتباط دعوة جمال الدين بدعـــوة عبد الحميد . والواقع أن هناك فرق بعيد المدى بين دعوة « المصلح السياسى » للفكرة وبين دعوة « الحاكم » لنفس الفكرة تحت قيادته وسلطانه .

ذلك أن عبد الحميد كان يدعو الى الجامعـــــة الاسلامية مرتبطة بالخلافة وفرق بين الجامعة والخلافة فقد كان هدفها الاحتماء بالدول الاسلامية من وجه الغزو الغربى ومواجهته جبهه واحدة ومن أجل هذا ارســـــل عبد الحميد صيحته :

« يا مسلمى العالم اتحدوا » .

* * *

فدعوة عبد الحميد قد انبعثت نتيجة احساس الدولة الثانية بخطر مهاجمة الدول الأوربية للامبراطورية وكانت امكانيات الدولة قد أعطت الفكرة قـــوة عظمى للدولة العثمانية .

٢ — أما جمال الدين فقد كان مذهبه فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية مختلفا أشد الاختلاف ، كان جمال الدين يؤمن بالجامعة الاسلامية ، كعمل فكرى سياسى واسع المدى يهدف الى جمع كلمة العالم الاسلامى وتحريره من الحكام والأمراء المستبدين الذين يحولون دون الالتقاء فى هذه الوحدة ، كما يرمى الى تحرير الوطن الاسلامى وتطوير المجتمع ورفع مستواه ودفعه فى طريق النهضة. وكان جمال الدين يراها جامعة تقوم على الشورى وحق المسلمين فى حكم أنفسهم . وقد تكلم عن الحاكم القوى العادل — وليس المستبد العادل كما تردد خطأ — وعند جمال : أن المسلمين من المحيط الأطلسى الى المحيط الهادى أمة واحدة يمكن أن تجمعهم رابطـــة سياسية وفكرية واحدة .

وهـــــو يرى أن ذلك ممكن التحقيق على أساس الارتباط بالهدف والوسائل ولا يلتمس « أن يكون مالك

الأمر فى الجميع شخصا واحدا فان هـذا ربما كان امرا عسيرا » ويرجو « أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين . وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقاءه ».

ومن هنا كانت « الجامعة الاسلامية » تيارا هاما فى الفكر العربى المعاصر يهدف الى القضاء على استبداد الحكام والأمراء وجمع الشعوب الاسلامية فى جبهة لمقاومة الاستعمار والغزو الغربى ، فاما لم يتحقق هذا الهدف اتجه التفكير الى مسائل اخرى كالدعوة الى القومية العربية واتخاذ الأنظمة الغربية فى الحكم للحـد من استبداد الملوك والحكام ومواجهة الغزو الاستعمارى .

وقد عمل عبد الحميد على استغلال دعوة جمال الدين ، وذلك بجعل السلطنة والخلافة شيئا واحـــدا والتمسك بانه الخليفة للعالم الاسلامى كله وليس سلطانا للمماكة العثمانية وحدها ، واستقدم جمـــال الدين الى الاستعانة فى محاولة توحيد الوجهة ووعد بتنفيذ آرائه لاصلاح العالم الاسلامى ، وكان جمال الدين يرى أول الأمر فى عبد الحميد انه ربما حقق خيرا غير انه لم يلبث ان وصفه بأنه (سل فى رئة الدولة) وكان يأمل فى أن يستطيع الأتراك تحقيق الدعوة الى الجامعة الاسلامية بشرط وهـــذه عبارته « لو انصرف الأتراك أنفسهم لاستعربوا وتراسوا ذلك الملك وعدلوا فى اهله » .

٣ — وقد كان جمال الدين يقاوم الاستعمار الغربى والانجليز بصفة خاصة بالدعوة الى الجامعة الاسلامية معتقدا « أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صـــدور « الغربيين » كمون النار فى الرماد ، وان «روح التعصب لم تنفك حية معتاجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قاب بطرس الناسك من قبل . وان « النصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها متغلغلا فى احشائها متمشيا فى كل عرق من عروقها . وهى ابدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت » — وهو يرى « أن العالم الغربى على اختلاف أممه وشعوبه عربا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العمـــــوم والاسلام على الخصوص فجميع الدول الغربية متحدة معا على ذل الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا» وأن دعاة الغرب « يأخذون شواعر كل مســـلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره ، ثم يمثلونها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء .. » وأنه من أجل ذلك يجب على العالم الاسلامى « أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى الغاية الكبرى ، انما يجب عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وتدرته » ».

ومن هنا يكمل جمال الدين ما قام به محمد بن عبد الوهاب، فقد كان عبد الوهاب ينظر الى المنابع واصلاح العقيدة بينما ينظر جمال الدين الى الحاضر واصلاح الحكومـــة وقد عيب على جمال الدين انه لم يركز قوته الذهنية فى خدمة الاسلام كنظام للتوجيه الانسانى .

ولكن الهدف الذى قصد اليه جمال الدين فى دعوته الى الوحدة ، انما كان عملا بعيد المدى يصور مقتلا من مقاتل العالم الاسلامى وقد بلغ امره فى نظر جمال الدين أنه هو العمـــل الاكبر ، وانه الغاية يقول : (الشرق) وقد خصصت دماغى لتشخيص دائه وتحـــرى دوائه فوجدت اقتل ادوائه ما يعترض فى سبيل توحيد الكلمة فيه ، داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلا ف، فقـــد اتفقوا على الا يتفقوا » .

وقد تأثر جمال الدين فى دعوته الأمارات الجرمانية التى اتحدت بعد تشتتها واوضح محمد عبده هدف جمال الدين حين قال بانه ، كان يرمى الى تنكيس دولة بريطانيا فى الاقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الاسلامية .

خلفاء جمال الدين فى الدعـــوة

سار محمد عبده فى نفس الطريق الى « الجامعـــة الاسلامية » ثم تحول عنه بعد عودته من منفاه حيث عدل الى الدعوة للقومية المصرية حتى وصفه (كرومر) بانه على راس مدرسة تعارض اتجـــاه مصطفى كامل فى الارتباط مع الخلافة العثمانية . ومع هـــذا فان محمد عبده كان يرى أن المحافظة على الدولة العثمانية ، ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين ، الكافلة لبقاء حوذته .

وكان يفرق بين شخص السلطان عبد الحميد ، وبين الدولة العثمانية .

(الكواكبى)

ويعـــد « عبد الرحمن الكواكبى » مقنن الجـــامعة الاسلامية فى كتابه « أم القرى » فقد عزا تخلف المسلمين

الى عوامل متعددة (١) الجهل (٢) العقائد التى اقحمت على الاسلام ، ومنها عقيدة الجبرية (٣) الحكومات الملكية المطلقة (٤) الامراء (٥) العلماء المدلسين الذين صانعوا الأمراء (٦) فهم الدين على غير أساس العبودية لله وحده (٧) الطرق الصوفية (٨) اهمال العلوم الرياضية والطبيعة (٩) الفقر (١٠) عدم وجود « قيادة » يلتف حولها المسلمون .

وقال : « ان ضعف الدين من أهم اسباب البدع ، ومن أهم اسباب البدع تقديس الأولياء وهو أن الناس يقيسون جبروت الله وسلطانه على جبروت الملوك وسلطانهم » .

وقد رسم صورة (الطوبيا) للاصلاح فى الأمة العربية بتكوين « هيئة اسلامية عامة » يطلق عليهاجمعية لاتنتسب الى مذهب أو شيعة اسلامية معينة . تسير فى مذهبها الدينى على سنة السلف المعتدل . وتكون نواة لجامعة اسلامية ثقافية تتطور مع الزمن الى جامعة اسلامية سياسية .

وتعمل هذه الهيئة على تنفيذ برنامج يرمى الى :

× نشر التعليم ، لنشر الوعى السياسى فى البلاد الاسلامية .

× وضع مؤلفات ترمى الى تقويم الأخلاق والدين بلغة ميسرة .

× الدعوة الى التسامح وتجنب التعصب الدينى او الجنسى ، ومعاشرة غير المسلمين بالحسنى ، والمساواة فى الحقوق .

× بعثات الى مختلف البلاد الاسلامية لتعرف احوالها وارشاد اهلها .

(شكيب ارسلان)

تأثر « شكيب ارسلان » دعوة جمال الدين الأفغانى بعد أن التقى به فى استانبول ١٨٩٢ ولازمه . وقد عاش حياته يدعو الجامعة الاسلامية ، وقد صور دعوته فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون » وفى تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامى .

ويرى شكيب ارسلان ان من أعظم اسباب انحطاط المسلمين هو فقدهم كل ثقة بأنفسهم . وقد ساعد على الارض سعى الفرنجة ودعاتهم فى ترويج النظريات التاعسة بين المسلمين من انهم لا يصلحون لعلم أو صناعة او حرب أو سلم » .

ويرى أن الجامعة الاسلامية : انما هى الشعور بالوحدة العامة ، والعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، بين جميع المسلمين فى المعمور الاسلامى ، قائمة على ركنين هما اساساها ، ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام فى مكة ، والخلافة ، ويرى أن الحج أهم من الخلافة . « والحج هو المؤتمر الاسلامى السنوى حيث تتباحث الوفود الاسلامية من اقطار المعمورة فى كافة مصالح المسلمين ووضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام .

وقال : ان الاسلام بذاته صالح كل الصلاحية لكى يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، من أجل هذا يكتفى فى الأخذ من الغرب بمناهجه العلمية ووسائله المادية .

عبد الله نديم

وكان عبد الله نديم يؤمن بانه لا مانع من قيام الجامعتان الاسلامية والقومية ، الأولى بين المسلمين ، والثانية بين أبناء الوطن الواحد .

مصطفى كامل

ويرى مصطفى كامل ان بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى وان بقاء سلطانها فيه سلامة لأمم الغرب، وأمم الشرق . وان واجب المسلمين هو أن يلتفوا حول راية الخلافة الاسلامية وهاجم مصطفى كامل مشروع الخلافة العربية ، وقال انه احدى دسائس الانجليز .

وقد اعترف كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » بسعة انتشار فكرة الرابطة الاسلامية بين المصريين وما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسع فى مصر وتمسك المصريين بالايمان والوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر اقطار الأرض .

المراجع

عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى .
الرحالة ك (الكواكبى) : عباس محمود العقاد .
زعماء الاصلاح : أحمد أمين .
بناء النهضة العربية : جورجى زيدان .
حياة الشرق : محمد لطفى جمعه .
شكيب ارسلان : د.م سامى الدهان .
الفكرة العربية فى مصر : د.م أنيس صائغ .
التيارات الوطنية : د.م محمد حسن ج ١ ، ٢ .
سيرة الامام : رشيد رضا (ج ٣) .
الاسلام والتجديد : تشارلس ادمس : ترجمة عباس محمود العقاد .
حاضر العالم الاسلامى : ترجمة اوتروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض .

تيـــار القوميـــة العربيـــة

تعد الوحدة العربية من اهم معارك « التحـــدى والاستجابة » التى عرفتها الأمة العربية فى مواجهـــة حملات الغزو السياسى والفكرى التى فرضها الاستعمار على الامة العربية وهى من ناحية اخرى محاولة للتجمع فى كيان واحد لمواجهة الاستعمار الغربى . غير أن عوامل مختلفة حالت دون بلوغ هذا التيار غايته ، اهمها :

● تعذر صهر المنطقة فى وحدة سياسية كاملة فى وقت قريب .

● تحول كبرى الدول الاسلامية وهى تركيـــا عن التيار الاسلامى الى التيار القومى حيث حمل «الاتحاديون» الذين خلفوا السلطان عبد الحميد لواء الدعـــوة الى الجامعة « الطورانية » وقد بلغت هذه الدعوة مرحلة العنف والتطرف حين اتجهت الى فـــكرة تتريك عناصر الدولة العثمانية ومن بينها العرب .

هنالك برزت دعوة الوحدة العربية فى حركة دائمة لمقاومة هذه المحاولة التى اريد بها القضاء على الكيان العربى ، أن تيار الفكرة العربية كان قائما منذ أمد بعيد وان كان قد انطوى ثمة بعد انتفاضة صـــلاح الدين الأيوبى .

والحركة الوهابية على ما تحمل من طابع دينى كانت دعـــوة استقلالية ، تهدف الى تحـــرير المنطقة من نير الامبراطورية العثمانية وذلك تحت ضغط احـــداث النفوذ العثمانى وانحراف السـلطة فى اتجـــاهاتها الفكرية والسياسية عن المعالم الواضحة التى عرفهـــا العرب فى خلال تاريخهم الطويل ، ثم كانت حركة محمد على التى قضت بفصل مؤامرات السياسة على الحركة الوهابية وكانت — أى حركة محمـــد على — فى ذاتها انفصالية بالعالم العربى عن تركيا العثمانية ، هذا مع ملاحظة ان الحركة الوهابية لم تأخذ طابعا قوميا عصريا واضحا ، وان حركة محمد على كانت قائمة أيضا على الطمع الشخصى دون هدف عربى واضح ، ولقد كان للتيار القومى الذى غمر أوربا فى هـــذه الفترة أثره فى الاتجاهين التركى والعربى ، كما كان له أثره فى اتجاهات القومية الضيقة (الأقليمية) التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى — مما يدخل فى المرحلة التالية من كتابنا — غير أن الدعوة الى القومية العربية ارتبطت بعد ذلك باليقظة الفكرية التى سادت العالم العربى ، وتركزت فى الشام (سوريا ولبنان) واحتضنها أول الأمر العرب المسيحيون الذين تأثروا بالثقافة الغربية عن طريق الجامعـــات الأمريكية والفرنسية التى قامت فى لبنان والتى حملت لواء الدعوة الى الوحدة العربية ارتبطت بعـــد ذلك باليقظة الاسلامية وتمزيق كيان الامبراطورية العثمانية .

ومن أجل هذا كانت الوحدة العربية تيـــارا فكريا أكثر منه تيارا سياسيا، ذلك أنها اعتمدت أول ما اعتمدت على مقاومة تيار القضاء على اللغة العربية ، والتاريخ العربى ، ومعالم التراث العربى والبطـــولات والاعـــلام العربية حين اتجهت تركيا الى تغليب اللغة التركية فى المدارس والمحاكم والثقافة واستعادة امجاد جنكيزخان وتيمورلنك ومحو أسماء أبطال العـــرب التى تحملها الشوارع والميادين وتغييرها بأسماء أبطـــال التتار والمغول .

ولذلك كان تيار الوحدة العربية فى مطالعة يعمل على احياء تراث الأجداد والكشف عن الصفحات التى علاها التراب من البطولات واستغل الأسلوب الغربى فى البحث العلمى لأبراز هذه الجوانب مما أوقد جـــذوة الايمان بالشخصية العربية ، وكشف للعرب عن معالم تاريخهم الناصع المليء بالبطولات العديدة ومواقف الكفاح فضلا عن عمليات الصقل التى جرت للاسلوب العربى بتخليصه من الزخرف والاتجاه بالمضمون الى المعـــانى الموضوعية ، هذا مع ضرورة الاشارة الى ظاهرة تحويل هذا التيار فيما بعد نحو التغريب كمحاولة للتشكيك فى مقدرات العرب والمسلمين .

وقد كان العرب يهدفون في هذه الفترة الى الاحتفاظ بكيانهم واضح الاستقلال في ظل السلطة وهـو ما اطلق عليه « اللامركزية » .

بلغ هذا التيار قوته حينما اعتبر الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى القديم كله تراث عربى يمكن أن يفاخر به المسلم العربى والمسيحى العربى وكان هذا مدعاة لأن تنقل الكنائس الكاثوليكية العربية صلواتها الى اللغة العربية كما نقل الانجيل الى اللغة العربية وتحـررت الكنيسـة العربية من سلطة الكنيسة اليونانية وكان أول بطريرك عربى هو المطران دومانى ١٨٩٩ .

وقد كان هذا الاتجاه واضحا حيث حمل هذا التيار في هذه المرحلة لواء القومية فربط بين المسلم والمسيحى في العالم العربى واطلق الدعوة الى القومية من الدين باسمه مع اعتبار التراث الروحى اساسا للوحدة والعمل على مزج عنصرى الأمة وقد بدأ هذا المعنى واضحا في مؤتمر باريس ١٩١٤ الذى عقده العرب (السـوريون واللبنانيون) واشترك فيه العراق .

٢ ــ تأثر الفكر العربى الاسلامى بتيار الوحدة العربية في مجال الجمعيات والتبليغ والصحف فكانت حلقة طاهر الجـزائرى في دمشق (١٨٨٠) وحلقـة محب الدين الخطيب (١٩٠٣) وقـد جمعت هـذه الحلقات صفوة المتعلمين والنبغاء والمفكرين العرب . كمـا انتقل هذا التيار الى استانبول نفسها وحمل لواءه : محب الدين الخطيب وعارف الشهابى ودعيا اليه شباب العرب فيها .

وقـــد استهدفت هذه الجماعات تعريف العرب بأنفسهم وتاريخهم وقوميتهم ويعزو محب الدين الخطيب الى هذه الحلقات الفضل على جميع الحركات الفكرية والسياسية والتحريرية في الشرق . فهى التى أرست القواعد الأولى للفكرة العربية في ظل الحكم التركى المطلق وهى التى اشعرت العرب بشخصيتهم وأنارت طـريق الثورة على الظلم والاستعمار .

٣ ــ تأثر الفكر العربى بتيار القومية العربية ، فكان أول كتاب في الدعوة الى القومية هو « يقظة الأمة العربية في آسيا » صدر عام ١٦٠٤ بقلم نجيب عازورى الذى دعا الى توحيـد الكنائس الكاثوليكية تحت اسم الكنيسة الكاثوليكية العربية وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن يكون الحجاز مقرا لخلافة اسلامية عربية . وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية . كما أصدر مـع جماعة الفرنسيين مجلة (استقلال العرب) ١٩٠٨ .

ويلاحظ هذا ضرورة التفرقة بين حـكم السلطان عبد المجيد وبين حكم الاتحاديين منذ ١٩٠٨ .

٤ ــ وكان المؤتمر العربى في باريس (١٧ حزيران ١٩١٣) مقننا لفلسفة القومية العربية فقد أبرز ضمان تمتع العرب بحقوقهم السياسية وذلك بالاشـتراك في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا . وفيما يتعلق بالفكر العربى فقد نص على ان تكون اللغـة العربية معتبرة في مجلس النواب ، وأن يقرر المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية . واشار الأعضاء الى بعد الحركة العربية عن الغايات الدينية واعتبـار المسلمين والمسيحيين افراد أمة واحدة هى (الأمـة العربية) وقال عبد الحميـد الزهراوى أن الرابطة الدينية لم تتمكن من تحقيق « الوحدة السياسية » كما اكد احمد طبارة انه يعنى بالعرب كل ناطق بالضاد لافرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم . وكان هذا الفهم خاطئا تماما .

وصور عبد الغنى العريسى فلسفة القومية العربية بقوله :

هل للعرب حق جماعة . ان الجماعات في نظـر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق الا اذا جمعت على رأى علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر وعلى رأى علماء الطليان : وحدة التاريخ ووحدة العادات وعلى مذهب سياسة الفرنسيين : وحدة المطمح السياسى ، فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسى ، فحق العرب بعد هذا البيان أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة دون استثناء : حق جماعة . حق شعب . حق أمة .

نحن عرب قبل كل صبغة سياسية . حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة ــ رغما عما كان ينتابنا من حكومة الاستانة من أنواع الادارات ، كالاختصاص السياسى ، أو التسخير الاستعمارى ، أو الذوبان العنصرى ، فكل ما تذرعت به الاسـتانة من الوسائل لم يؤد الى غير نتيجة واحدة : وهو الحرص على مكانة حق الجماعة واحياء هـذا الجس الشريف النبيل ، حس الجنسية ، فاقتفاء الماضى نقرر مناهضة كل ما يؤول الى اضعاف هذه القومية والتذرع بكل ما في حياة خصائص العرب وميزات العرب فنحن كتلة حية قائمة بذاتها وخاضتها لا تدع قوة تمس هذا الركن الركين

فتصرح في هذا مليوم بملء الأفواه اننا خلقنا لانفسنا والبلاد العربية لا تكون بعد اليوم مسدا للمطامع الاجنبية عن بلاد اخرى .

وهكذا اختلف مفهوم الوحـــدة العربية عن دعوة القومية العربية التى حمل لوائها المارون والتى اصبحت تشكل تيارا صحفيا وثقافيا واضحا منذ الثمانيـــات من القرن التاســـع عشر فى شعر ونثر ابراهيم اليـــازجى بقصيدته :

تنبهـــوا واستفيقوا ايهـــا العرب
فقد طمى السـيل حتى غاصت الركب
لا دولـــة لـــكم يشـــتد ازركـــم
بهـــا ولا ناصـــر للخطب ينتـــدب
اقـــداركم فى عيـــون الترك نازلة
وحقـــكم بين الأتراك مغتصـــب

وقد تنوع هذا الانتاج واتصل حتى قبيل الحرب العالمية الأولى ، وحمل لواءه السوريون واللبنانيـــون الذين هاجروا الى مصر وامريكا ، وكان فى مقدمة دعاته الشاعر القروى والزهاوى والرصافى .

وقد ركزوا على الاشارة بمجد اللغة العربية وعظم الأمـــة العربية وتراثها وأمجـــادها والتنديد بالحـــكم الاستبدادى .

والملاحظ جملة ان الوحدة العربية هى تيار اصـــيل نشأ واتسع بعد سقوط الخلافة وان هنـــاك فارقا بينه وبين مفهوم القومية العربية التى حملته احزاب علمانية

مراجـــع

نشوء الفكرة القومية : ساطع الحصرى .
الاتجاهات الوطنية : دكتور م . محمد حسين .
القومية العربية : الأمير مصطفى الشهابى .
الوحدة العربية : محمد عزه دروزة .
رواد القومية العربية : أنور الجندى .
القومية العربية والوحدة الكبرى : انور الجندى .
حياة الشرق : لطفى جمعة .
ترجمة حياة محب الدين الخطيب : المجلس الأعلى للفنون والآداب .
الدكتور صـــــلاح الدين القاسمى : محب الدين الخطيب .

* * *

تيــار الإصــلاح الاجتـماعى

كان من ابرز عوامل يقظة الفكر العربى المعاصر : ظهور تيار (الاصلاح الاجتماعى) هذا التيار الذى ارتبط بالصحافة والتعليم ونشأة الجماعات والهيئات وكان فى أول أمره جزءا من تيار تجديد الفكر الدينى ، ثم انفصل عنه واصبح تيارا مستقلا .

ولقــد كان المجتمع العربى يمر فى أوائل القرن التاسع عشر بمرحلة من أقسى مراحل التأخر والاضطراب نتيجة لتحكم الأمراء والولاة واستبداد الاقطاعيين وتحكمهم فى الفلاحين ، وزاد من ذلك الاضطراب تغلغل الاجانب فى الوطن العربى وسيطرتهم على مرافق التجارة ودوائر المــال والاقتصاد .

وكان الحكم القــائم لا يهتم بالشعوب الخاضعة لسلطانه ولا يحرص على تطهير البلاد من الفساد ممــا استدعى انتشار الرشوة وسوء السيرة وســفك الدماء وتسلط الأمراء على الفقراء . وقد كان هؤلاء الامراء على جانب كبير من السفاهة مما أدى الى انتشار المفاســد والمنكرات ، فقد كانت تساق الى قصور الخلفاء والامراء الجوارى اللائى كان لهن عملاء ومستوردون وأسواق .

كما كان الخلاف بين أمراء المماليك فى مصر وحروبهم كانت من أسباب عزلة الشعب وانفصاله عن الأحداث وهروبه الى الصوفية والزهادة .

وقــد بدأت فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠) سيطرة الأجانب على بلاد المملكة العثمانية وحصولهم على الامتيازات ، التى كانت سلاحا موجها ضــد الشعب حيث مكــنت هؤلاء الأجانب من الســيطرة عــلى أعمـــال الربا والمضاربة وغزو المسارح والحــانات والمسكرات واستخدام المغنيين والقيان الجوارى مما دفع الاغنياء الى انفاق أموالهم فى هذا الســبيل وسيطر الأجانب على الاقتصاد كله عن طريق انشاء الخمارات على كل قرية يبيعون لاهلها الخمور ويتاجرون بالربا بذلك انتقلت الثروات اليهم وتحول عدد كبير من الاثرياء الى فقراء .

وامتد هــذا النفوذ حتى سيطر الاجانب على الاقتصــاد والمجتمع ســيطرة كاملة ، وقد صــور الجبرتى انتشار الرشوة وانعزال المجتمع بقــوله : الأمراء فى قصورهم وحــواشيهم فى جانب ، والشعب الفقير الجائع فى الجانب الآخر يستنزف خيراته مما خلق الحقد والكراهية والمقت والاستسلام .

وزاد فى عمق هذا التمزق جمــود رجال الدين وانضواؤهم الى صف الأمراء يقدمون الفتاوى التى تؤكد سلطانهم وطغيانهم .

وكان أغلب أهل الطبقــة العليا هم من الاتراك والاجانب ، وهم الحكام واتباعهم ، ولهم عصبة انفصالية عن الامة وقد شغفوا بتقليد الافرنج فى أمور الطعــام والشراب والقصور وانتقــل ذلك الى الطبقات التالية بعدها بالتدريج .

وكان لتغلغل الاجانب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أثره فى الأخلاق الاجتماعية فقــد تحول الأثرياء من الطبيعة الجماعية المعروفة فى البلاد العربية الى الطبيعة الفردية والأنانية ، القادمة من الغرب .

وانتقل الأغنياء من البذل الى البخل وتوقف عمــل الخير وأغلقت البيوت التى كانت دائما مفتوحة لاستقبال ذوى الحاجات ، واتجهت هذه الاموال الطائلة الى الملاهى والملذات وانواع الترف . وقد أحصى عدد البيوت التى أخربها الاسراف فى خــلال السنوات ١٨٩٤ — ١٨٩٩ فوجدت ٣٦٣ بيتا بمعدل بيت كل خمسة أيام .

وقد كانت هذه الطبقة تتكلم التركية والفرنسية ،

وتكره العرب والوطنيين وتعتبرهم خوله وفلاحين وخدما لهم ويعتقد هؤلاء أن هذه البلاد ليست الا مزارع لهم ، ولذلك كانوا يترفعون عن الاندماج او الامتزاج بالطبقات المختلفة .

وقد حرص الاستعمار البريطانى بعد ان سيطر على مصر عام ١٨٨٢ ان ينشىء طبقة جديدة من اعوانه فأعطى الفرصة لظهور ١٦٢٠ اسرة كبرى استطاعت ان تحصل على نصف مليون فدان (فقد زاد عدد الملاك من ١١٣٢٠ مالكا عام ١٨٩٤ الى ١٢٨٤٠ مالكا عام ١٩١٤ وزادت املاكهم من ١٫٩٩٧٫٠٠٠ فدانا الى ٢٫٣٧٨٫٠٠٠ فدانا) ومن هؤلاء جنـــد الاستعمار الوزراء والذوات والكبراء ولم يفت الزعيم اوطنى « محمد فريد » أن يعلق على هذه الظاهرة البعيدة المدى فى المجتمع المصرى فقال: لو كان ذواتنا وكبراؤنا من ذوى الشرف واصحاب النخوة لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة ، ولكن الكل يغار على ماهيته وابهته اكثر مما يغار على اسمه واستـــقلال وطنه ، وكيف يكونون كذلك وهم الذين ساعدوا الانجليز على احتلال بلادهم ويساعدونهم الآن على اكمال ضمها لأملاكهم » .

من المفارقات أن « محمد فريد » انفق على الجهاد فى سبيل تحرير مصر ما يزيد عن الف وخمسمائة فدان من ميراثه عن أسرته التى كانت تملكه قبل الاحتلال .

اما الشعب فقد كان الضحية لتسلط الحكام والامراء على الأراضى الزراعية باستيلائهم على خيراتها ، وحرمان أصحابها الفلاحين . واستولى محمد على فى مصر على أراضى الملاك بتنفيذ نظام الاحتكار وحولهم الى عمـــال زراعيين .

وقـــد اضطروا لظروفهم القاسية ومظالم الولاة والحكام الى التعامل بالربا الذى كان يقوم به الاروام واليونانيون واليهود وقد احصى فى مصر (١٨٩٨) ٥٠ بيتا لتسليف النقود بالربا وظهر فى سجلات المحـــاكم المختلطة ان قيمة الدين المسجل على الفلاحين هـــــو ٧٫٣٢٣٫٣٠٠ جنيها مصريا ، وبلغ تقدير الديون غـــير المسجلة ضعف هذا المبلغ ، وانه قد لحقت بالاهالى عام ١٩٠٠ خسارة قدرها ١٠ آلاف جنيه بسبب مضاربات البورصة والشراقى .

ومن اخطائهم ان احدهم قد يستدين مبلغا ليشترى أرضا يبلغ ثلث دخلها الطبيعى نصف ربا الدين .

وقد اغراهم الأجانب بشراء الأسهم والسندات . وبلغ عدد سماسرة هذه الشركات فى مصر وحدها ثلاثة آلاف فكانوا يسرحون فى القرى والبنادر ، ومما يتصل بذلك ما ذكره (المؤيد) من أن اجنبيا انشأ بيتا ماليا رأس ماله الفى جنيه ، أصبح بعد ثلاث سنوات يملك خمسين الف جنيه .

وقد تم احصاء فى القاهرة (١٨٩١) عن المحلات التى كانت تستعمل قهاوى وخمارات فبلغت ٩٤٧٥ محلا يبيع فى السنة بمبلغ ١٫٧٣٠٫٠٠٠ جنيه ووصل هــذا المبلغ الى ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه فى القطر كله ، واغلبها بيد الأجانب والذى سجلناه عن مصر قد حدث مثله فى مختلف انحاء العالم العربى .

(الاحصائيات من كتاب حاضر المصريين أو سر تأخرهم — ١٩٠٢) .

أما التجارة فقـــد توسع فيها الأجانب وتضاءل الوطنيين فى مختلف العالم العربى ، واصبحت التجارات الناجحة كالسجاير وتجارة البيض فى مصر حكرا على الأرمن واليونان .

وقال كرومر فى تصريح له : لقد تحولت واجهـــات المحلات التجارية فى مصر فى خلال سنوات قليلة بعـــد الاحتلال البريطانى الى محلات اجنبية واختفت اســماء المصريين من واجهاتها .

وقد قال « محمد عمر » فى كتابه [حاضر المصريين] السر فى تأخر المصريين الى انهم يأتمنون على متاجرهم اجانب او عجائز متقدمين فى السن يستنزفون ثرواتهم وانهم لا يفتحون محلاتهم الا ضحى ويتركونها لهؤلاء العمال لحبهم النوم ظهرا ، وهذا لا يفعله الاجانب » .

وقد تأثرت الأسرة المصرية نظـــرا لفساد أنظمة المحاكم المختلطة . كما كان لانتشار المتصـــوفة الذين يدعون معرفة الأسرار وسقوط التكليف السماوى اثره فى فساد معنى الدين ، وقد حرص الأجانب على حضور حلقاتهم ونقلوا هذه الصور على انها صورة الاسلام ، وكان يعمل فى القاهرة وحدها ٨٠ مولدا فى السنة يظهر فيها عديد من الأخطاء الاجتماعية .

وأدى احتلال مصر الى التوسع فى اخطار(١) الدعارة الرسمية (٢) المخدرات (٣) الاقطاع والرق الاجتماعى

(٤) السـخرة والكرباج وقد بلغ ما ضبط من الحشيش (تقرير كرومر — ١٩٠٠) ١٥٦٢٥ كيلو جرام بزيادة ٦٤٧٧ كيلو عن عام ١٨٩٩ والمعروف أن عمليات تهريب المخدرات بمختلف انواعها كانت تتم بمعرفة الاستعمار وبواسطة رجاله واجهزته .

وقد ادى منع الفلاح من حق التملك ، أو ظلمه فى محصوله الى ان ساءت حالة الفلاحين لدرجة اضطرت لها اكثر اهلها الى الهجرة من قراهم وزاد فى ذلك أعمال السخرة التى كانت تستخدم لاصـلاح اراضى الولاة والحكام وقد حشد لها عدد كبير من شباب الفلاحين ، عملية حفر قناة السويس اسوأ مثـل لفقدان ١٠ آلاف عامل من شباب الوطن .

وقد كان الضرب بالكرباج عادة مألوفة فى جباية الضرائب ، ولم يكن هناك قانون يحمي الفقير او المظلوم ولم تكن هناك رقابة على الحكام .

ومما ادى الى الفساد الاجتماعى تعدد الزوجات، وكثرة وجود الرقيق وذكر انه كان يوجـد فى بيروت الأغنياء بالقاهرة (عام ١٩٠٠) ٣ آلاف من الجوارى البيض الشركسيات .

وقد تأثر أبناء الطبقة الوسطى بالأغنياء فى فنون الترف والسهرات ، وكان هذا طبيعيا بحكم تطلع الطبقة الوسطى الى الطبقة العليا ، ولذلك اثره فى فساد هذه الطبقة واستنزاف ثروتها ، وانحراف سلوكها .

أما التعليم فقد كان هدفه اخراج موظفين يعملون فى خدمة الولاة حيث لا يحسنون الا ما يمكنهم من اداء عملهم آليا .

هذه ملامح صـورة المجتمع العربى الى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وقد ظهرت فى هذه الفترة دعوة الاصلاح وبدأت عوامل اليقظة . وكان أبرز مظاهرها الدعوة الى الدستور والحـكم النيابى بحسبانه الأداة الوحدة للحد من نفوذ الفرد ، وتوقيف طغيان الولاة وحكام الأقاليم ازاء وجود حكم شعبى يقـوم على أساس انتخاب مجلس نيابى يقوم بوضع التشريعات التى ترفع هذه المظالم ، وتحرر الشعب من طغيـان الاقطاعيين وجور الولاة .

غير أن الاستعمار الذى سيطر على المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى قد حرص على انشاء طبقة من العملاء الخاضعين له كما فعل فى مصر بعد احتلالها ، ولهذه الطبقة اسلم زمام الحكم والسلطان .

وكان الاستعمار حريصا على أن يبقى الشعب فى جهل ، فحارب التعليم والب القوى كلها عليه : قوى النفوذ الأجنبى واستبداد الولاة حتى حيل بينه وبين معرفة حقوقه ، بيد أن العلماء — وعمـر مكرم فى مقدمتهم ، والأمراء استطاعوا أن يحققوا للشعب نصرا مبينا وذلك (١) بارغام المماليك على توقيع وثيقة حقـوق الانسان (٢) عزل الحاكم المستبد وذلك بخلع خورشيد والى تركيا على مصر (١٨٠٥) .

وقد كشف المصلحون الاجتماعيون الذين ظهـروا — فى هذه الفترة — عن حقيقة موقف الاسلام من الامراء والظلم وحق الشعب فى التعليم والحرية وقد كان الاسلام تقدميا اكثر من المجتمع نفسه ، غير أن المسلمين هم الذين تركوا أصول الاسلام ومبادئه .

وقد ترتب على ذلك ظهور دعوات الى (١) محاربة الاقطاعية بالاشتراكية وكانت كلمات جمال الدين الافغانى فى هذا المعنى واضحة الدلالة : « أيها الفلاح : يا من تشق قلب الأرض بفأسك ، لماذا لا تشق قلب ظالمك . » الخ .

الى (٢) تحرير المرأة : بتعليمها وتثقيفهـا وهى دعوة بدأت فى التعليم العربى مبكرة حين بداها البستانى وفارس الشدياق ورفاعة الطهطاوى ثم تناولهـا قاسم أمين فى عمل فكرى واضح الملامح فى كتابه تحرير المرأة .

(٣) الدعوة الى حق الشعب فى التعليم ، وقـد حرص استبداد الأمراء وسلطان النفوذ الأجنبى على حرمان الشعب من التعليم وقصره على الأغنياء ثم انتقل الى مرحلة اخرى أن أصبح تعليما قائما على أساس تخريج موظفين وقد طعم بالسموم المختلفة على النحو الذى رسمه له أمثال (دنلوب) .

مراجـع

حاضر المصريين او سر تأخرهم : محمد عمر .
تطور الحركة الوطنية المصرية : شهدى الشافعى
عصر اسماعيل : عبد الرحمن الرافعى
عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى
المجتمع الاسلامى : دكتور احمد شلبى .
الاتجاهات الوطنية : دكتور م . محمد حسين .

تحـــرير المرأة

كانت الدعوة الى « تحرير المراة » من ابرز ملامح الاصلاح الاجتماعى فى العالم العربى ، وهى دعوة بعيدة المدى فى تطور الفكر العربى الاسلامى المعاصر وقد حمل لواء هذه الدعوة ثلاثة من أعلام الفكر العربى الحديث هم : بطرس البستانى ، فارس الشدياق ، رفاعة الطهطاوى وكان ذلك فى منتصف القرن التاسع عشر ، فقد القى (بطرس البستانى) خطابه فى تعليم النساء فى ١٤ كانون الأول ١٨٤٩ وتناول ذلك فارس الشـــــدياق فى مجلته الجوانب (صدرت ١٨٦١) كما عرض له رفاعـــــة الطهطاوى فى كتابه المرشد (١٨٧٢) وهذه نماذج من كتاباتهم فى الدعوة الى تعليم المراة .

* * *

راى بطرس البستانى

« انه (١) فى النظر الى هـــذا الموضوع ، لا بد من ملاحظة ما كتبه أصحاب الدراية والتحقيق وما شهد به اختبار جميع الأعصار والأمكنة من أمر النساء تحت اختلاف أحوالهن من حيث المعرفة والجهل والتمدن والتوعر والذين اختبروا هذا الجنس وجربوه على كل حال قد استخرجوا نتائج جليلة تؤيد ما نريد اثباته فى هـــذا الخطاب من وجوب تعليمهن وفوائده والاضرار اللاحقة بالكون من جراء جهلهن وحكموا عن روية وصواب ، بأن سبكهن فى قوالب التعليم والتمدن وانصياعهن الى شرائع تقتضيها الهيئة الاجماعية يكللان عالمنا هذا بتيجان الفوز والنجاح ويحليان جيده بقلائد الراحة والسلامة .

أما وجوب تعليم النساء فنتصح بما يأتى : لا يخفى أن الانسان ذكرا كان أو انثى عند دخوله عالمنا هـــذا بالولادة يكون موكولا بجملته الى عناية غيره وتدبيره فهو لا يدرك ما حوله من الموضوعات ولا يقـــدر على تمييز النافع من الضار او الخير من الشر .

ولكن بواسطة ما يعرض على حواسه ظاهراً وباطنا من المواد الطبيعية والقضايا العقلية العادية عن المادة يأخذ فى التقدم شيئا فشيئا فى ادراك ما حوله وتقليده والحكم عليه وتتوسع قواه العقلية والأدبية بحيث ان يكون له حق التصرف بها (القوى العقلية والأدبية) وتهذيبها وتوسيعها بحسب الاقتضاء .

لا يجب أن توجد شريعة أو عادة أو عائق آخر يمنع المراة من التمتع بحقها فى هذا القبيل .

لو سلمنا أن للرجل حقـــه فى التعليم والتمدن انما يلزمنا التسليم بوجوب تعليم النســـــاء لكى نيسر له الحصول بسهولة على هذه الحقوق .

فمن فوائد التعليم للمراة منها انه يوســـع قواها العقلية ويهـــذبها ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه ويقوم ارادتها وعواطفها الأدبية ويرتب سلوكها وتصرفها .

* * *

أما الاضرار الناتجة من جهل المراة فمن جملتها فساد ذوقها لانها تستحسن ما يستهجنه الذوق السليم من أمر الملبوس والزينة والحركات ومنها فساد عقيدتها لانها تصدق خرافات ومنها فساد آدابها كما يظهر من كلامها وتصرفها بين الجماعات ومنها فقدان المحبة الطبيعية حتى نحو أولادها .

تعلم النساء بناء على أن التى تهز السرير بيمينها هى التى تحرك المسكونة بذراعها .

* * *

(١) العدد الثامن من مجلة الجنان .

(١) من كتاب (كنز الرغائب منتجات الجوانب) .

راى فارس الشدياق

ان الأمهات (١) فى الشرق يربين أولادهن فى الوساوس والأوهام والأضاليل فيقلن لهم مثلا ان العفريت أو الجن يترصدهم ويصاحبهم وانهما يأتيانهم فى الليل ويبطشان بهم ، وان القاء الماء على الارض من غير دستور يحاهما على الغيظ وما اشبه ذلك فيربى الولد على هذه الأوهام هيوبا هلوعا مخلوع القلب . أما اذا كان الولد انثى فانها لا تسمع من أمها الا اسم الزواج والطلاق وقصة فلان مع فلانة فتعتقد البنت بأن النساء لم يخلقن الا للزواج والطلاق ، فما ظنك بصبى يربى بلا قلب ، وبنت تنبت بلا عقل ، فان قلت ان الأولاد تذهب الآن الى المكاتب وتتعلم فيها القراءة والكتابة قلت : ان ما يتعلمون فى الكتاب لا ينفى عنهم تلك الأوهام التى تحكيها عليهم أمهاتهم فى البيوت واذا هم حفظوا كلام الله عن ظهر الغيب فما يفهمون معناه .

فعندى أن اهمال الولد من غير تربية أصلا خير من تربيته على هذه الأضاليل ويمكن أن يقال ان هؤلاء النساء معذورات على تربية اولادهن على الوجه الذى تقدم فانهن لا يعرفن غيره ، وهو الذى ألفنه وتعودن عليه ، فلا غرو أن يعودن عليه اطفالهن ، انما الذنب على الرجال حيث يتركون نساءهم على جهالة الجهل والغباوة . بل هؤلاء ايضا يظنون أن المرأة لم تخلق الا للفراش .

فان (١) قلت انه ليس عندنا كتب فى العربية تصلح للنساء قلت هب ما قلته حقا ولكن اليس عند الافرنج كتب مختصة بالنساء والأولاد فلم نشترى منهم الخز والمتاع ولا نشترى منهم الحكمة والآداب ؟ .

اما تعلم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندى انه محمود بشرط استعماله على شروطه وهو مطالعة الكتب التى تهذب الاخلاق وتحسن الاملاء فان المرأة اذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختراع الحيل .

ان البنات فى مصر والشام لا يعاشرن أحدا سوى الخوادم واهل البيت اما امهاتهن فلا يطالعهن بشىء من أمور الدنيا مخافة ان تنجلى الغشاوة عن ابصارهن فيعرفن ما يراد منها .

ولا يخفى أن البنات اذا كن جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرات وبآداب المجلس والمائدة وغيرها فلا بد ان تتعوض عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكائد التى تتخذها وسيلة لما يردن ويطلبن . فان البنت اذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون أو بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل .

فالأولى عندى أن تشتغل البنت بأحد الفنون والعلوم النافعة سواء أكان ذلك عقليا أو يدويا . وجهل البنات بالدنيا غير مانع لهن من معرفة الرجال واستطلاع احوالهم — اما اذا كن تأدبن بالمحامد والعلم اللائق بهن فانهن يعرفن الرجال عن تبصر وتدبر .

* * *

راى رفاعة الطهطاوى

ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يزيدهن ادبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف اهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والراى ، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن . وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الاقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ، وما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها ، وهكذا ...

أما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة وانها مكروهة فى حقهن ارتكانا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار فينبغى أن يكون ذلك على عمومه ، ولا نظر الى قول من علل ذلك بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية وان الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الراى وحب الفضائل لفعل ، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء لصون مادة النسل

---

(١) من كتاب (كنز الرغائب فى منتجات الجوائب)

(٢) للشدياق ايضا من كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياق) .

فمثل هذه الأقوال لا تفيد ان جميع النساء على هــــذه الصفات الذميمة ولا تنطبق على جميــع النساء وليس مرجع التشديد فى حرمان البنت من الكتابة الا اتفانى فى الغيرة مليهن من ابراز محمود صفاتهن اياما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بحميةجاهلية ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة .

ولا شك ان حصول النساء على ملكة القـــــراءة والكتابة وعلى التخاق بالأخلاق الحميدة هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المستنيرين من الجمال فالأدب للمراة يغنى عن الجمال ، لكن الجمـــــال لا يغنى عن الأدب !! » ا . هـ

* * *

٢ ــ دعوة قاسم امين

ثم كانت صيحة قاسم أمين بعد ذلك ، بأكثر من سبعة عشر عاما ، فى نهاية القرن ١٨٩٩ ، وتمتاز على ما سبقها بأنها دعوة مدروسة واضحة المعــــالم اقام صاحبها بحثه فيها على اساس من التشريع ، وعــــلم الاجتماع ، ومناقشة الآراء القديمة الجامدة . وقــــد زادت الى مطلب تعليم المراة ــ وهو لب دعوة الثلاثة : البستانى والشدياق والطهطاوى ــ السفور والغــاء الحجاب والطلاق أمام القاضى ، ومنع تعدد الزوجات .

وقد ظهر كتاب تحرير المراة عام ١٨٩٩ وذلك بعد أن نشره مؤلفه فصولا فى جريدة المؤيد مما أثار ضـــجة كبرى اضطر ازاءها الشـــــيخ على يوسف أن يفسح للكاتبين الرأى فى تأييد أو معارضة ، ما دعا اليه قاسم أمين .

وقد كتب قاسم مؤلفه (تحرير المراة) على نحو علمى دقيق . قدم صورة عن حالة المراة القديمـــــة واضطهادها واذلالها ثم عالج موضــــوع ١ ــ « تربية المراة » وأثر هذه التربية فى تثقيف عقلها ٢ ــ وشرح حجاب النساء باعتباره أصلا من أصول الآداب ، ودعا الى التدرج فى السفور ٣ ــ بين علاقـــة المراة بالأمة باعتبارها نواة الاسرة ٤ ــ وبحث نظام الأسرة ومايمس حياة العائلة . وجملة المسائل التى عالجها هى : الحجاب والسفور ، تعليم المراة ، الطلاق امام القاضى ، منـــع تعدد الزوجات .

* * *

آراء قاسم امين

واشار فى مقدمة كتابه ، بانه ليس « ممن يطمع فى تحقيق أماله فى وقت قريب لأن تحويل النفوس الى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر اثر العاملين فيه ببطء شديد فى اثناء حركته الخفية » .

ودعا الى تعليم المراة ورآه واجبا « أن تتعلم المراة ما يلزمها لتربية اولادها على مبادىء الفضيلة والأدب ، وفهم ما يحيط بها من الأشياء . بل ينبغى أن تســـتعد للاجابة على تلك الأسئلة التى لا نهاية لها مما اعتاده الأولاد الصغار (ك : المصريون) وقال : ان المـــــراة والرجل على حد سواء فى الاحتياج الى الانتفاع بالعلم والتمتع بلذته ، ولا تحصل المراة على المطلوب من هـــذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية بل تحتاج ايضا الى تعلم اصول العـــلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية (ك : المراة الجديدة) .

وفى أمر (الحجاب) ندد به ، وقال : انه « يحبس المراة فى دائرة ضيقة فلا ترى ولاتسمع ولاتعرف الا ماتقع فيها من سفاسف الحوادث ، ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شىء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفا مقلوبا (ك : تحرير المراة) فالحجاب هــو عنوان ذلك الملك القديم واثر من آثار الاخلاق المتوحشة التى عاشت بها الانسانية اجيـــالا قبل ان تهتدى الى ادراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها انثى . كما اهتدت لأن تفهم ان سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل الأسود عبدا للأبيض (ك : المراة الجديدة) وقال : ان كل ما يستميل النفس الى المطامع والدرس لا يتوفر للمراة مع حجابها « ذلك لان الحجاب يحبس المراةفى دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولاتعرف الا مايقع ويحول بينها وبين العالم الحى ، وهو عالم الفكروالحركة والعمل .

ودعا الى منح المراة حق حرية الفكر والعمل ، وقال : اننا لا نهاب ان نقول بذلك « بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى ولو كان من المحقق ان يمررن فى جميع الادوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات .

وفى الطــلاق : طالب بأن كل من يريد ان يطلق زوجته ان يحضر أمام القاضى الشرعى ، أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه . ويخبره بالشقاق الذى بينه

وبين زوجته ، فاذا اصر الزوج بعد مضى اسبوع على نية الطلاق أن يبعث حكما من أهل الزوجة وحكما من اهل الزوج او عدلين ليصلحا بينهما ، فاذا لم ينجح الحكمان فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى الذى يأذن بالطلاق .

وجملة آراء قاسم هى :

(١) رفع الحجاب الذى كان سائدا بصورة شاملة (٢) تعليم المرأة حتى ترتفع الى المستوى اللائق بوظيفتها فى الحيـاة (٣) لا تتزوج المرأة بلا ارادة ولا اختيـار (٤) تحريم تعدد الزوجات ، وتقييد حق الرجل فى الطلاق .

* * *

تطور الحركة

وقد عرفت المرأة العربية ضياء العلم فى مصر ، قريبا من ذلك العهد حيث ذكرت أسماء الست جليلة تمرهان الحكيمة التى اقدمت على الاشتغال بمهنة الطب وكان لها مكانة مرموقة وكتبت فصولا فى مجلة يعسوب الطب و (زبيدة المغربية) الشاعرة الزجالة المشهورة وهى أول امرأة ظهرت سافرة بين الناس حيث كانت تحضر مجالس الأدباء وتساجلهم .

كما سـجل المؤرخون أسـماء ستيتة الطنلاوية وفاطمة الأزهرية التى قيل انهما تربتا فى الأزهر وحضرتا على كبار علمائه وكانتا من معلمات عائشة تيمور .

وعندما قدم جمال الدين الأفغانى الى مصر ١٨٧١ اثار الدعوة الى تحرير المرأة فى مجالسه على نحو يتفق مع اسلوبه ، فقد كان يوجه انظار تلاميذه نحو هذا الرأى أو ذاك بطريق غير مباشر . وقد روى ابراهيم الهلباوى انه كان جالسا مع جمـال الدين وكان معهما ابراهيم اللقانى وجماعة آخرين فى الجزيرة بين المزارع فمرت من بعد سيدة انجليزية راكبة جوادا فلما لمحها السيد خاطب اللقانى وجمـاعة آخرون فى الجزيرة بين المزارع قال : ما تتمنى يالقانى . فأجابه : أن تكون لى زوجة كهـذه السيدة ، فأبدى السيد علامة الاستحسان . وقد تردد ان جمال الدين كان يعتقد بأن المرأة تتمتع بنفس التكوين العقلى الذى للرجل ولا يعتقها الا نشأتها وان لم « تتأكد مصادر هذا الرأى .

وقد ظهرت أول مجلة تحررها فتاة عام ١٨٩٠ وهى مجلة الفتاة لهند نوفل ثم فتـاة الشرق للبيبة هاشم

وتوالت الصحف التى صـدرت فى القاهرة وكان بعض اصحابها من الشام .

وكانت مدرسة البنات الأمريكية قـد تأسست فى بيروت ١٨٦٢ فكان لها أثرها فى تعليم المرأة ودفعها نحو السفور ، وظهرت اذ ذاك كاتبات منهن زينب فـواز وسليمة ابو راشد ومارى عجمى وجوليا دمشقية .

وكان للمدارس الأجنبية اثرها فى مصر ولبنان . وقد تبادلت مصر والشام المدرسات لمـدارس الأمريكان والفرير والجزويت . وفتحت ابواب التعليم الفتـاة المصرية ، ومن تقارير المراسلين الأمريكان يظهر أن عدد البنات اللائى يتلقين التعليم فى المدارس فى مصر بلغ عام ١٨٩٨ : ٣٧٢٠ بنتا اغلبهن من الاقباط : وقـد حال الاستعمار البريطانى فى مصر دون فتح أبواب التعليم الثانوى والعالى امام الفتاة وكان المستشار الانجليزى يمنع ذلك بحجة أنه مخالف لتقاليد البلاد .

ومما يذكر أنه ابان الثورة العرابية (١٨٨٢) بينما كان « عبد الله نديم » يخطب الناس فى الاسـكندرية تقدمت « زينب ضيف » وطالبت بحقوق المرأة وقالت :

هـل يرضيكم أن يعيش نصفكم ويموت النصف الآخر . ان العلم هو الحياة والجهل موت زؤام . ان المرأة المصرية لها فى أعناقكم حقوق ولها عندكم واجب وهو ان تعلموها . ومن العار ان تخلو بلاد كمصر من مدارس البنات » ثم كان صالون نازلى هانم فاضل الذى جمع محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وغيرهم من أصدقاء اللورد كرومر وفيه تمت عملية « مخاض » كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين .

ونازلى فاضل هى حفيدة ابراهيم وابنة فاضل باشا وتحسن اللغات الفرنسية والانجليزية والتركية (توفيت ديسمبر ١٩١٣) .

وقد كشف (داود بركات ــ الاهرام ٤ مايو ١٩٢٨) وفارس نمر (الحديث يناير ١٩٣٩) حقيقـة الدوافع لصدور كتاب تحرير المرأة ، وجملة القول فى هذا أن قاسم امين حين قرأ كتاب الدوق « داركور : المصريون» ورد عليه بكتاب باللغة الفرنسية فند فيه اتهاماته . وصف هذا الكتاب بانه لم يكن فى صف النهضة النسائية فقد رفع من شأن الحجاب وعده دليلا على كمال المرأة كما ندد بالداعيات الى السفور وقد رأت فيه الأمـيرة

نازلى تعريضا بها . وقد اشير على جريدة المقطم بأن تكتب ستة مقالات عنه تفند اخطاء قاسم أمين فى هــذا الاتجاه . ودفاعه عن الحجاب واستنكاره اختلاط الجنسين واوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد عبده وســعد زغلول مع قاسم أمين على تصحيح رايه . وقد حمــل الشيخ محمد عبده الدعوة الى تحرير المراة فى دروسه فى الرواق العباسى حيث أعلن ،رارا أن الرجــل والمراة متساويان عند الله .

وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول هذا الكتاب أو كان له دور فى مراجعتها ، ومما أورده لطفى السيد انه اجتمع فى جنيف عام ١٨٩٧ بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ، وان قاسم اخذ يتلو على الشيخ فقرات من الكتاب تحرير المراة وصفت بأنها تنم عن اساوب الشيخ محمد عبده نفسه . وقد صدر الكتاب عام ١٨٩٩ ومعنى هذا انه أمضى ثلاث سنوات فى اعداده .

وقد قوبل كتاب (تحرير المراة) بضجة قوية . والف العلماء لجنة للرد عليه برئاسة محمــــد حسنين البولاقى . وانبرى للرد عليه طلعت حرب وفريد وجدى حيث اصدر كل منهما كتابا فى معارضة آراء قاسم .

وقد تراجع فريد وجدى شيئا ما عن آرائه غير انه ظل محتفظا برأيه فى حجاب المراة حتى ردده مرة أخرى عام ١٩٣٣ فى مقالات له بالاهرام وقد انشأت زوجته مجلة واشتغلت بالسياسة ، ومما قاله محمد فريد وجــدى (المراة المسلمة ــ ١٩٠١) أن الحجاب ضرورى للنساء لصالح النوع الانسانى كله على العموم ، وصلاحها على الخصوص ، لا ينقص المراة المسلمة لكى تبلغ اكمل نقطة يمكن ان ينالها جنسها الا تعلم مبادىء العلوم الضرورية وان اشتغال المراة فى اشغال الرجال قتل لمواهبها واطفاء لمكانتها .

وقال فريد وجدى : أن وظيفة المراة هى حمــل ووضع وارضاع وتربية .

وأن تعليم الأم لابد أن يشمل تربية الطفل وتربية ملكاته ، وقال ان علينا « أن نعمل كل ما يمكننا لتقترب المراة من كمالها وتدخل الى حدود وظيفتها وان تعتبر أن كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التغلب على ملابساته او بذل الجهد فى حصره فى محله وان كل امراة مهما قيل انها مكتشفة لمنجم او باحثة فى الميكروبات او علم التشريح او غير ذلك ناقصة وعاصــية للطبيعة وخارجة عن حدود وظيفتها » وان للمراة كمالا خاصا بها لا يتأتى لها الحصول عليه البتة الا اذا صارت زوجــة وأما تلد وتربى وتدير البيت . وان كان شىء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ويؤثر عليها تاثيرا ســيئا . ولا تكون الأمة كاملة الا اذا توزعت فيها الأعمال على العاملين كل على حسب استعداده ووظيفته الكونية .

وقال فريد وجدى عن الحجاب : انا لا أنكر ان فى الحجاب شرا ولكنى اعتقد انه مانع من شر اكبر فهــو بهذا الاعتبار يعتبر خيرا ، وانه لا يمنع من التهذيب . وشبيها من هذا كان راى طلعت حرب ، وهو للتاريخ : ضد سفور المراة وحده ، ولم يكن ضد تعليم المراة كما ورد خطأ فى مقال للصحفى العجوز بالاهرام (هامش سبتمبر/١٩٣٢) ومجمله أن الحجاب لا يحول دون تعليم المراة .

وكأنما كان كتاب قاسم امين قنبلة عنيفة الانفجار احتاجت الى اكثر من عام ونصف تشغل الصحف اليومية والأسبوعية وقــد وجد قاسم فى الشباب مؤازرا وفى مقدمتهم ابراهيم رمزى الذى انشأ مجلة خاصة لمقاومة آراء خصوم قاسم أمين وعبد الحميد حمدى الذى انشأ مجلة السفور من بعد ، وفى خلال ذلك ، كان راى قاسم مؤيدا فى دوائر اللورد كرومر وصالون نازلى فاضل . ولكنه كان مكروها فى دوائر الأواء والحــزب الوطنى والقصر .

وظل قاسم خلال هذه الفترة صامتا يجمع النقود الموجهة الى آرائه ويعد الرد عليها وكان ثمرة ذلك كتابه الثانى : «المراة الجديدة» الذى اهداه الى سعد زغلول . وقد تناول فيه أسانيد الخصوم وفحصها ورد عليها . وقد كان فى كتابه الثانى مثــل ما كان فى كتابه الأول حصيفا ، تسلح بضبط النفس وبعد قلمه عن الهــوى والعاطفة ومضى يقنن بأسلوب العلم وفق منطق العقل كل راى . ولم يتناول رايا جــديدا ولكنه وضح بعض الجوانب خاصة فى الموضوعات الرئيسية : الحجــاب وتعليم المراة والطلاق وتعدد الزوجات .

ولقد كان مجمل راى خصوم قاسم : ان تحرير المراة يناقض أصول الدين بينما اعتمد هو فى كتابه الأول على نصوص الدين : القرآن والحديث ، وقد كان الفرق بينه وبين خصومه فى هــذه المعركة انهم حملوا عليه بعنف وتركوا لعواطفهم العنان فى تجريحه واتهامه ولم

يتخذوا الأسلوب العلمى ، بينما وقف هو يرد الحجة فى أسلوب قائم على المنطق والدليل وخال من الشطط او الحماسة او الهوى .

وكان الكتاب الجديد مثار جدل ومناقشات جديدة وقد استمرت الزوبعة بعض سنين ثم هدأت ، وظل قاسم يواصل جهاده فى سبيل رأيه حتى توفى (فى ابريل عام ١٩٠٨) .

* * *

تردد قاسم فى رأيه

× غير أن قاسم أمين فيما تروى صحيفة الظاهر (اكتوبر ١٩٠٦) قد بدا له أن يغير رأيه فيما دعا اليه تحت تأثير نتيجة التجربة التى عاناها المجتمع فى مصر خلال هذه الفترة منذ أصدر كتابه ١٨٩٨ حتى أعلن رأيه ذاك (١٩٠٦) وصاحب جريدة الظاهر هـــو محمد أبو شادى الصحفى المعروف فلا غرو ان جمع هذا الرأى أحمد تيمور باشا فى كناشته المحفوظة فى دار الكتب (تحت رقم ٣٢ جرائد تيمور) ولو كان قد وجه قاسم اعتراضا أو مراجعة لهذا الرأى لاحتفظ به أحمد تيمور فى كناشته أو لتردد أمره وهذا هو رأى قاسم الذى يعتبر رجوعا منه عن رأيه الأول فى تحرير المرأة وخلاصته ان الدعـــوة الى تحرير المرأة سابقة لأوانها .

« لقد كنت ادعو المصريين قبل الآن الى اقتفاء اثر الترك بل الأفرنج فى تحرير نسائهم وغاليت فى هذا المعنى حتى دعوتهم الى تمزيق ذلك الحجاب والى اشراك النساء فى كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم ، ولكنى ادركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس فلقد تتبعت خطوات النساء فى كثير من أحياء العاصمة والاسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن اذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على ما خذل من دعـــوتى واستنفر الناس الى معارضتى . رأيتهم ما مرت بهم امرأة أو فتاة الا تطاولوا اليها بألسنة البذاء ثم ما وجدت زحاما فى طريق فمرت به امرأة الا تناولتها الأيدى والألسن جميعا .

انه قد تصح الدعوة فى الاستانة لتحـــرير المرأة التركية تمام التحرير مثل نساء الافرنج لأن الآداب العامة راقية جدا فى دار الخلافة ولكن لاتجوز الدعوة من هـــذا القبيل فى مصر . ولهذا كله لا أجد الوقت مناسبا للدعوة الى تحرير المرأة بالمعنى الذى قصدته قبل » .

تطور الحركة النسوية

تطورت الحركة النسائية وبدأت تأخـــذ سمتا واضحا فى (الشام ومصر) ففى مصر . بدأ سنة ١٩٠٦ تجدد هبوب العاصفة على اثر مقالات نشرها عبدالحميد حمدى فى جريدة المنبر التى كان يحررها محمد مسعود وحافظ عوض تحت عنوان (كلمات عن المرأة) وكانت ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) قــــد تقدمت الى الامتحان الذى كان يتقدم اليه الفتيان وحدهم وفازت بالشهادة الابتدائية . وكانت أول فتاة لأول مرة (١٩٠٠) ثم لم تلبث أن مضت فى طريقها فنشرت فى المؤيد قصيدة تفاخر فيها بأن الفتيات أخذن يسايرن الرجال وأتيح لها بعد أن تشتغل بالتعليم فكانت أول فتاة أقدمت على اتخاذ هذه المهنة وكتبت فى الجريدة مقـــالات (النسائيات) المعروفة ، حيث تناولت مشاكل المرأة فى عصرها : علاقة الرجل بالمرأة وسن الزواج وتعدد الزوجات ، والحجاب والسفور . ولم تكن ملك تجرى وراء بريق الآراء الجديدة بل كانت معتدلة محافظة عارضت فكرة السفور الا بشرط التدرج .

وقد أعلنت باحثة البادية (ديسمبر ١٩١٠) ان نساء مصر قد اعتدن الحجاب فلو أمرتهن مرة واحـــدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبن على أنفسهن من الخزى وما تقع فيه بحكم الطبيعة والتغيير الفجائى من أسباب البلاء . وقالت « ان خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه اذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال ورأت ان الوقت لم يحن بعد لرفع الحجاب . ودعت الى ايجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده وأعلنت ان تعدد الزوجات مفسدة للصحة والمال والأخلاق والأولاد وقلوب النساء .

× فى هـــذه الفترة تقدمت نبوية موسى لامتحان الثانوية (١٩٠٧) فرفض (دنلوب) قبولها وتقدمت فى السنة الثانية فقبلت ونجحت بعد أن أحدثت ضجة فى الصحف ولم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثـــانوية من ١٩٠٨ — ١٩٢٩ وأرسل الشيخ محمد المهدى ابنته لتلقى العلوم فى احدى الجامعات الانجليزية . وتقدمت (أسماء منصور) الى محكمة الاستئناف العليا بقضية بعد أن منعت من امتحان شهادة (الكفاءة) فحكمت المحكمة بأنه يجوز للبنت المصرية أن تتعلم كالولد تماما .

وقد حملت (باحثة البادية) لواء الدعوة الى تعليم البنت وتهذيبها وادخال بعض الاصلاحات فى الحيـــــاة

الزوجية . فلما عقد مؤتمر مصر الجديدة (مايو ١٩١١) قدمت له رسالة ضافية عن ترقية المراة المصرية جعلت اساس مذهبها فى تحرير المراة تقرير المساواة لا على وجه الاطلاق بل فى حدود الاعتدال والدين وقال عنها لطفى السيد انها (اكتب امراة قرانا لها فى عصرنا الحديث) .

ولم يحل الموت دون مهاجمة آراء قاسم فقد قام معارضوه بعد وفاته فى نفس اليوم (يونية ١٩٠٨) الذى اقيمت حفلة لتأبينه تحت قبة الغورى بعقد اجتماع برئاسة الشيخ شاويش وتوالت هذه الحملات فى صحف الحزب الوطنى بينما دافعت (الجريدة) لسان حال حزب الأمة عنه .

وكان الرجال هم حملة لواء تحرير المراة والدفاع عنها ، هذا الدفاع الذى امتد بعد اغلاق الجريدة ١٩١٥ الى مجلة السفور التى أصدرها عبد الحميد حمدى وجعل رسالتها مشتقة من اسمها واستمرت تعمل سبع سنوات حتى كانت الثورة الوطنية ١٩١٩ .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى كان الكتاب الرجال فى أوربا يدعون الى تحرير المراة ومساواتها فى الحقوق مع الرجال وخطاب اميل فاجيه فى الأكاديمية الفرنسية (١٩١٠) مشهور حيث أبدى أسفه لحرمان المراة حق الالتحاق بالأكاديمية .

وكان لاعلان الدستور العثمانى ١٩٠٨ اثره فى تركيا والعراق والشام فقد ظهرت امينه سامى الكاتبة المشهورة وحررت خالده أديب فى جريدة طنين لسان حال جمعية الاتحاد والترقى ودعت الى تحرير المراة ووجوب تعليمها ومساواتها بالرجال ، وكان لهـا اثرها فى فتح باب التعلم امام المراة بمساعدة نجية هانم . وقد اختار نادى الوجاق خالدة عضوا وحيدا من الجنس اللطيف بها والفت عـام ١٩١٢ اول كتاب (طوران الجديدة) ١٩١٢ فى تأييد الجامعة الطورانية وقد وصلت خالدة بعد الى قريب من منصب الوزارة فى عهد مصطفى كمال (اتاتورك) .

وفى هذه الفترة بدا الزهاوى فى العراق حملة لتحرر المراة فلقى مصادمة وخصومة واعراضا .

أما عائشة التيمورية (١٩١٢) ووردة اليازجى (ت ١٩٢٤) فانهما لم يحفلا بالدعوة الى تحرر المـراة — ولم يعرضا لمشاكلها الاجتماعية .

ثم اسست أول رابطة نسائية باسم جمعية الرقى الأولى للسيدات وبدات المراة تدخل الجامعة المصرية القديمة التى افتتحت عام ١٩٠٨ وتلقى بها محاضرات أمثال ملك ناصف ونبوية موسى ولبيبة هاشم ورحمـة صروف ومى زيادة .

* * *

(٣ — ثورة ١٩١٩)

وكان لثورة ١٩١٩ أثرها الواضح فى دخول حركة تحرر المراة دورها الايجابى فقد اشتركت المراة المصرية فى مظاهرات مارس ١٩١٩ وهزت الفكر العربى الحديث حيث وصفها الشيخ محمود أبو العيون (١٩٢٢/٢/١ — الأهرام) فقال : انه ليس اكبر أثرا مما راى الناس وشهد التاريخ يوم مظاهرة النساء امام بيت الأمة اذ احاط الجند المسـلح بالمدافع والحراب جاثين عـلى ركبهم مستعدين للنزال فانبرت فتاة منهن فاتحة صدرها قائلة لقـائد الجند هذا صـدرى اقتلنى ان اردت فسأموت شهيدة الايمان والعقيدة الوطنية المقدسة وقالت (عزيزة على فوزى — الأهرام ١٩٣٢/٣/٢) ان النساء خرجن بالرغم مـا أرسلت به اليهن الحكمدارية الانجليزية مهددة اياهن أن لا يبرحن ، خرجن سائرات على الأقدام ومشينا الهوينا « ثم التقينا (وقد شهدت المظاهـرة واشتركت فيها) فاذا بالجنود محيطة بنـا والعربات المصفحة تصوب مدافعها علينا ، والطيارات تحلق فى الجو وتبدى أسلحتها فى أشعة الشمس فتبرق والشمس تصلينا نارا وتسعر داظاها رءوسنا وقد حاصرنا جنودهم البواسل اكثر من ثلاث ساعات » .

وقد استشهدت المراة المصرية فى ثورة ١٩١٩ : وحفظ التاريخ أسماء الشهيدات : شفيقة محمد وفهيمة رياض وعيشة عمر وحميدة خليل وقد سبق بعضهن الى السجنون واتخذن من سجنهن أوكارا الحركة الوطنية وكان لهن فضل اخفاء المنشورات السرية وتوزيعها .

وعندما أعلن الحاكم البريطانى فصل كل موظف لا يعود عمله فى اليوم التالى توجه عدد كبير من النسـاء المصريات الى أبواب الوزارات والمصالح ورابطن بها ومعهن سلال الخبز والطعام والنقـود فكن اذا راين موظفا متسللا بادرن بملاقاته قائلات له « هـذا هو الخبز اذا كنت جائعا وهذا المال اذا كنت محتاجا فيعود خجلا وعندما أعانت مقاطعة البضائع الانجليزية بادرت

السيدات بمحاصرة المحلات الانجليزية دون سـواها ومعهن جيش مرابط من طالبات المدارس يمنعن كل احد من دخـولها .

وقد اشتركت المراة فى ثورة ١٩١٩ (فى المظاهرات والخطابة وقيادة الشعب واذكاء جذوة الوطنية دون ان تصادف معارضة الرجال) وكان هـذا تطورا طبيعيا للحركة فى مصر تبعه تطور فى مختلف انحاء العالم العربى فقد اشتركت السورية فى ثورات ١٩٢٥ وكان لهـا دور واضح .

وفى هذه الدور ظهرت هدى شعراوى وشريفة رياض وتشكل الاتحاد النسائى المصرى ١٩٢٤ .

واتسعت بعد الحرب العالمية الدعوة الى تخريج المعلمات والمراة التى تعمل فى التطبيب وفتح باب الجامعة امامها عام ١٩٢٣ حيث سجل التاريخ اسم (عفيفـة اسكندر) التى حضرت درس الآثار مدى ست سنوات ويمكن القول بأن هذه المرحلة التى استغرقت خمسين عاما قد حققت هدفين من اهدافها : التعليم والسفور وبدات قضية المراة تدخـل معركتها الكبرى فى سبيل حل مشاكل (١) تصحيح الأوضاع القـانونية (٢) الاختـلاط (٣) المساواة (٤) الحقـوق النيابية السياسية .

* * *

مراجـع

عبد الحميـد حمدى ــ السياسة الأسبوعيـة ١٩٢٩/١٢/٤ .

الهلال ــ يونية ١٩١٠ ــ المراة فى القرن العشرين

الاهرام ــ نهضة المراة فى الشرق ١٩٢٦/٧/٢٥ .

باحثة البادية ــ النسائيات (الجريدة) ١٩١٠ .

جريدة الظاهر : ٨ اكتوبر ١٩٠٦ .

/ك/ تطور النهضـة النسائية فى مصر : درية شفيق وابراهيم عبده .

/ك/ المراة المسلمة . محمد فريد وجدى ١٩١٠ .

خطاب هدى شعراوى ــ الاهرام ١٩٣٨/٤/٢٤ .

آراء قاسم امين ــ الهلال ١٩٤٥ مجلد ٣٦ .

كلمات لهدى شعراوى . مجلد الشئون الاجتماعية (اغسطس ١٩٤٢) .

الاهرام ١٩٢٣/٣٢/٣ ــ ذكرى قاسم .

* * *

(٢)

الفكر العربى الإسلامى إزاء الغزو الثقافى

(بعد الحرب العـــالميـة الأولى)

(١)
الاستعمار وأثره الفكرى

كان من الطبيعى بعد أن نهضت اوربا وحققت انتصارات ضخمة فى مجال الصناعة والتجارة والكهرباء ان تتجه الى الشرق والعالم العربى بالذات ، وقد كانت حملة نابليون ١٧٩٨ على مصر ارهاص هذا الاتجاه الذى ظل يوالى انقضاضه خلال القرن التاسع عشر كله حتى اكتمل له استعمار العالم العربى كله عام ١٩١٨ وقد بدأ الاستعمار باحتلال فرنسا للجزائر ١٨٣٠ وبريطانيا لعدن ١٨٣٨ ثم احتلال فرنسا لتونس ١٨٨١ وبريطانيا لمصر ١٨٨٢ واحتلال ايطاليا لليبيا ١٩١١ .

وكانت الدول الأوربية منذ حملة نابليون حتى الحرب العالمية الأولى قد رتبت خططها لهذا الغزو : عسكريا واقتصاديا وثقافيا على نحو يحقق لها البقاء الطويل فى المنطقة والقضاء نهائيا على شخصيتها ومقدراتها وقيمها وثقافتها ودينها وتاريخها . وقد ظهرت ملامح هذه الخطط فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية والتى تمثلت فى :

(١) أساليب الاحتلال فى مصر وعدن والجزائر وتونس .

(٢) النفوذ الأجنبى والامتيازات وعمليات الغزو الاقتصادى والثقافى الموجهة الى السلطة العثمانية .

(٣) امتداد النفوذ الأجنبى والامتيازات والغزو الاقتصادى والثقافى الى مختلف البلاد العربية وجميعها واقعة تحت سلطان الدولة العثمانية وقد اعان على تمكن الغرب من فرض سلطانه ضعف الدولة العثمانية التى كان يطلق عليها اسم « الرجل المريض » واستبداد الحكام والولاة والأمراء المسيطرين على مختلف الأقطار العربية وضعف القوى الشعبية وانهزامها نتيجة لتسلط الامراء وحروبهم وفساد نظام الحكم .

غير أن عوامل اليقظة كانت قد دبت منذ اواخر القرن الثامن عشر بدعوة « محمد بن عبد الوهاب » وكانت لحركة « محمد على » أثرها فى اليقظة غير ان العوامل كلها كانت تدل على أن الغرب انما يعد خطة واسعة المدى للسيطرة على المنطقة واحتلالها . وقد كانت الحرب العالمية الأولى فرصة للقضاء على دولة الخلافة وتمزيق جبهة الدول العربية وتجزئتها .

وقد كانت فكرة « الوحدة العربية » قد بلغت مداها قبل الحرب العالمية الأولى وفرضت وجودها بعد الاختلاف مع سلطان تركيا العثمانية التى انضمت الى المانيا ووجدت من بريطانيا ما شجعها على دخول الحرب العالمية فى صفها وصف حلفائها بناء على وعد بقيام الدولة العربية بعد الحرب . وكان أن خدعت بريطانيا العرب ونفذت مشروع تقسيم المنطقة بينها وبين حليفتها فرنسا واعلنت قيام الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

وبذلك تمزقت هذه المنطقة الواحدة الى دول لها حدود وجيوش وملوك ونظم ونقود وثقافات ومناهج تعليمية .

وسيطرت فرنسا على لبنان وسوريا وتونس والجزائر ومراكش .

وسيطرت انجلترا على العراق والاردن والخليج العربى والسودان ومصر .

وسيطرت ايطاليا على ليبيا .

وقام فى فلسطين نظام استعمارى مزدوج : بريطانى يهودى .

وبذلك انفصلت الدول العربية لأول مرة بعد اربعة قرون وعام واحد (١٥١٧ — ١٩١٨) عن تركيا ولكنها لم تنفصل عنها فى الحقيقة الا سياسيا أما فكريا فقد ظلت مرتبطة بها متطلعة اليها . وقد استغل الاستعمار هذه الرابطة استغلالا بعيد المدى بعد تغريب « تركيا الكمالية » .

* * *

ومنذ اليوم الأول لهذا التقسيم الذى فرضه الاحتلال العسكرى بدأت حملة الغزو الثقافى التى قصد بها الاستعمار الى تركيز سلطانه على نحو عقلى وعاطفى يتصل بالنفس العربية ويحول مفاهيمها ومعالمها وتيارات فكرها على النحو الذى يحقق له البقاء وقد ركز الاستعمار فى غزوه الثقافى على :

(١) خلق جوا من عدم الثقة بشخصية المواطن وتشكيكه فى جميع عقائده وقيمه وتراثه وتاريخه على النحو الذى يجعله يعتقد بأن وطنه دائما كان نهبا مقسما لكل الأقوياء وتحويل هذه الأفكار الى عقائد بتعليمها فى المدارس ونشرها فى الصحف والكتب .

(٢) اقامة فواصل طبيعية بين كل قطر واقامة معالم قومية خاصة به تنبع من تاريخه البعيد وتسبق الروابط الاسلامية العربية التى بدأت فيما بعد ظهور الاسلام وخلق جامعات متعددة ودعوات متباينة لخلق البلبلة الفكرية التى لا تمكن من قيام فكرة واحدة .

(٣) رسم صورة باهرة للغرب ، جبارة لاوربا ، رهيبة للاستعمار ، مخيفة للاحتلال وسطوته وجبروته ، ومضى الى تلقين معنى الثقة بهذا الحلف القوى ، والايمان بحضارته والتيقين من أن الاندماج فيها هو وحده السبيل لتحقيق الحرية والاستقلال والوصول الى النضوج والقدرة على حمل مسئولية الحكم .

(٤) سيطر الاستعمار على الحكام والأمراء والاعيان واسماهم « أصحاب المصالح الحقيقية » واعانهم على التوسع فى التملك ليتخذ منهم ركائز يسيطر بها على العامة واخضاع الوزراء والحكام لنصائح مندوب الدولة المغتصبة . وفرض المستشارين على الوزارات وجعل اوامرهم نافذة .

(٥) سيطر على الحياة الاقتصادية بواسطة أعوانه من الاجانب ، وخفض أسعار المحاصيل الرئيسية للبلاد وبيعها بأبخس الاثمان والحيلولة دون تصنيع البلاد او انتفاعها بالمخترعات الحديثة وبقائها بدائية .
والحيلولة دون استخدام الوطنيين فى هذه الاعمال وقد بلغت ارباح هذه الشركات اكثر من ميزانيات الدول نفسها .

(٦) ادخلوا الى البلاد المحتلة الوفا من المستوطنين الذين استطاعوا بسلطان الاستعمار الاستيلاء على آلاف الافدنة الجيدة والقضاء على الصناعات الوطنية والسيطرة على مالية الدولة ووضعها تحت وصايته — أى الاستعمار — بفضل سلطان الامتيازات الاجنبية ونفوذ المحاكم المختلطة .

(٧) القضاء على روح المقاومة بشراء الذمم بالمال والمنصب والمرأة وخلق روح « النفعية » وقتل روح « المثالية » . وخلق نزعة الانانية بدلا من نزعة الجماعية وتحويل الوطنية الى سياسة . واثارة الطوائف بعضها على البعض الآخر وخلق حياة نيابية واحزاب تتصارع .

(٨) الغاء الجيش الوطنى للأمة المحتلة وفرض جيش الاحتلال فى ميادينه وايقاف الأمراء واولياء النعم تحت أعلامه .

(٩) فتح ابواب السجون والمنافى لكل مجاهد او مفكر صاحب راى حر يحاول أن يرفع رأسه أو يقاوم واصطناع أساليب القتل فى الظلام .

(١٠) تحويل الصحافة الى موالاة الاحتلال . ومصادرة الصحف ذات الطابع الوطنى المعارض للاحتلال وذلك لتكوين راى عام يؤمن بعظمة المستعمر ويجرى وراءه .

(١١) الغاء مجانية التعليم وتدريس العلوم بلغة المحتل ، وقصر التعلم على طبقة خاصة واحلال المدرسين الأجانب محل الوطنيين ووضع برامج تهدف الى تحطيم معنويات الأمة وتصويرها بصورة الامة المستعبدة وتدريس تاريخ الامة المحتلة على نحو تعظيم واكبار واستبعاد التاريخ القومى وحجب كل معانى عظمة الامة من لغة وتاريخ وبطولات وامجاد . واثارة جو من الشكوك والريب حول القيم الروحية والوطنية ومحاولة اقناع الامة المحتلة بأن الاحتلال عمل مدنى وان الأوربيين هم سادة

البشر وانهم المكلفون بنشر الحضارة وتمدين الامم غـــير البيضاء .

(١٢) فى خلال الحرب العالمية الأولى والثانية جندت بريطانيا وفرنسا عشرات الالوف من ابناء الامة العربية فى جيوشها . وقد قدمت مصر فى الحرب العالمية وحدها مليون عامل مصرى لم يعد منهم احد فضلا عن الغلات والدواب والخيرات .

* * *

وكان لهذا الاتصال بين الغرب والشرق أثره البعيد فى استيراد عديد من النظريات والمذاهب الفكرية الغربية

* * *

(٢)

مذاهب الفكر الغـربى

اتصل النفوذ الأجنبى والاستعمار الغربى بالغزو الثقافى وكان من نتائجه استيراد عـديد من النظريات والمذاهب والآراء : وقد تأثر الفكر العربى الاسـلامى بالثقافة الغربية ومذاهب الفكر الغربى تأثرا بعيد المدى وقد كانت هذه المذاهب تهدف فى الحقيقة الى رسم فلسفة حيـاة للمجتمع التى تخلص من نزعته الدينية المسيحية بعد أن تحرر من سلطان الكنيسة وسلطان الكهنة وفصل بين الدين والدولة وتوالت شكوكه فى الخالق والانبياء والاديان والكتب المقدسة .

كان هذا كله بين العوامل التى دفعته فى الطريق العلمانى لمحاولة رسم فلسفة حياة له تمثلت فى نظريات متعددة : كان اقدمها المذهب المـادى ونظرية النشـوء والارتقاء ومذهب نيتشه وروسو ثم النظرية الماركسية والتحليل النفسى والسريالية والنـازية والفاشـية والبراجماتزم وكان للاستعمار نظرياته التى كان ابرزها نظرية الاجناس (الآرية والسامية) ونظرية تفوق الرجل الأبيض وحقه فى حماية الحضارة وتمدين الجنس البشرى

***

المذهب المادى والنشـوء والارتقاء

أما « المذهب المادى » فقد غمر الفكر الأوربى وارتبط بالحضارة الحديثة ومكتشفات البخار والكهرباء فى القرن الثامن عشر ومؤداه ان الوجود قديم وأن المادة هى مصدر كل كائن . وانها تدرجت فى حلقات متتابعة وفق نواميس ثابتة تبتدأ بالجماد وتنتهى بالانسـان فى أرقى درجاته الفكرية ، وانكرت نظرية المادة ما جاءت به الاديان من وجود عقل مدبر وروح مفكر خلف هذا العالم ، وقالت أن هذا القول وهم جهال . واتصل المذهب بنظرية «النشوء والارتقاء » التى جاء بها « تشارلس دارون — ١٨٤٣ » فى كتابه « اصل الانواع » وخلاصته : القول بوحـدة المخلوقات الحية جميعا ، اى ان الانسان والحيوان والطير والاسماك والحشرات مشتقة من أصل واحد او بضعة أصول واحتقر « دارون » الانسان وهاجم القول بأنه سيد الخليقة وأن الروح هى ميراث الانسان دون سواه من سائر الخلائق .

وقد نقلت هذه الآراء الى الفكر العربى فأثارت مساجلات ودراسات ومعارك فكرية بعيدة المـدى ، وكانت مجلة المقتطف والدكتور شلبى شميل اول من حمل لواء هذه الأفكار حيث نشر مقالات متعددة فى المقتطف ١٨٨٤و١٨٨٥ ثم جمعها فى كتاب فلسفة النشوء والارتقاء وقـد حرص الدكتور شلبى شميل ان يبـدأ معركة مع القارىء العربى بهذه العبارة « طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعـد ان تطلق نفسك من أسر الاغراض لئلا تغم عليك وانت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها » .

وقد رد على هذا المذهب كثيرون فى مقدمتهم : جمال الدين الأفغانى فى كتابه (الرد على الدهريين) ومحمد عبده ، وفريد وجدى فى كتابه (على أطلال المذهب المادى) الذى نشره فى المقتطف ١٩١٨ ثم حمل لواء الدعوة للمذهب المادى : سلامة موسى واسماعيل مظهر فى الوقت الذى كانت أوربا قد انتقضت هذا المذهب . وشرحته واشارت الى الأخطاء التى تتصل به فقد سقطت نظـرية ناموس الانتخاب الطبيعى التى نادى بها دارون وتشكك العلماء فى ناموس الوراثة واشارت دائرة المعارف الفرنسية الى ان العلماء قد اعترضوا على هذه النظرية واتهموها بأنهـا مختلة من أساسها لانها تفرض ان جميع الصفات النافعة أعنى كل صفات الانواع الحية قد حدثت فى بداءتها اتفاقا (اى بالصدفة) .

وجاء العلماء من بعد ذلك يقولون بتصور العلم ، وبدأ فى أوربا — كرد فعل على النظرية المادية — مباحث الروحية العصرية ، وقد تشدد علماء المادية فى رفض الروحية وأبنائها ورموا القائلين بها بكل مثلبة ، غير أن العلم التجريبى سلم فى نهاية الأمر بانه قد اكتشف العالم الروحانى بأسلوبه العلمى المحسوس » .

وقد دارت هذه المعركة فى أوربا خلال القرن التاسع عشر ، ولكننا نحن هنا فى الوطن العربى كنا ما نزال نقذف بسيل من الابحاث حول المادية والنشوء والارتقاء كوسيلة من وسائل البلبلة الفكرية والغزو الثقافى والتشكيك فى ثقافتنا الاسلامية الجامعة بين العلم وعقائدنا الدينية .

* * *

المادية التاريخية

وظهرت نظرية المادية التاريخية التى دعا اليها ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) وملخصها : أن الظواهر الاقتصادية يمكن ملاحظتها وتسجيلها بنفس الدقة التى تسجل بها العلوم الطبيعية ، وهى مقتبسة من نظرية الفيلسوف الالمانى « هجل » التى تتلخص فى « أن كل شىء كائن فى العالم فى حالة تغير دائم متواصل وان التقدم والارتقاء نتيجة الاثر والتأثر بين قوى يدافع بعضها البعض . وقد لخص ماركس نظريته فى أن تاريخ المجتمع الحاضر كله ما هو الا تاريخ نزاع بين الطبقات . فالعبد والاحرار والدهماء ورجال الطبقة العليا والسيد والتابع والمعلم والصانع . وفى الجملة كل هؤلاء وقف الواحد منهم ضد الآخر فى حرب لا هوادة فيها .

وتفسر « المادية التاريخية » التاريخ تفسيرا ماديا وتعلل بها الثورات والحروب والأحداث . وقد وجد ماركس « أن التاريخ يمثل صراعا عنيفا بين الطبقات الاقتصادية وأن جميع أنواع الصراع فى التاريخ سواء فى ميدان السياسة او فى ميادين الدين والفلسفة والاجتماع ما هى الا تعبير صادق عن الصراع الطبيعى فى المجتمع » .

ويتصل بهذا نظرية « كارل ماركس » فى رأس المال وتوزيع الثروة وحق الطبقات العاملة وهى النظرية التى قامت على أساسها الثورة الشيوعية السوفيتية الى اطاحت عام ١٩١٧ بحكومة القياصرة .

* * *

وقد أثارت هذه النظريات جدلا كبيرا فى الفكر العربى الاسلام ، ووقف الوطن العربى الذى كان واقعا تحت سلطان الدول الغربية الرأسمالية يعمل على مقاومة النظرية الماركسية وجرت مقارنات بينها وبين ما يماثلها فى النظم الاسلامية مما أطلق عليه اسم الاشتراكية الاسلامية . ووجهت حملات عنيفة على الاشتراكية بصفة عامة تحت تأثير الاستعمار الذى كان يحرص على تدعيم انظمة الاقطاع والراسمالية والاستغلال الاقتصادى الذى تقوم به الرأسمالية الاستعمارية فى العالم العربى .

* * *

(نظرية ماركس)

« أن الضرورة الأولى والأساسية والشغل الشاغل لبنى الانسان هو الطعام والشراب والملبس والمأوى التى لايستطيع بدونها أن يشغل باله بالسياسة والعلم والفن والدين وغير ذلك . وهذه الحقيقة تعنى أن انتاج المواد الضرورية الحيوية لبنى الانسان وما يتبعه من تطور مظاهر الاقتصاد القومى القائم فى عصر ما ، او امة ما ، هو الأساس الذى بنيت عليه جميع انظمة الدولة من قانونية وفنية وحتى المعتقدات الدينية نفسها ، وجملة القول أن التنازع على الطعام والمأوى هما العاملان اللذان يهيمنان على شئون الجنس البشرى جميعا ، ويرى ماركس أن « المسيحية تعلم الناس القناعة بنصيبهم فى الحياة الدنيا وتشيد بالاستسلام والخنوع والتواضع فكأنها تخدر أعصاب الشعب وتعمل فيه عمل الأفيون « روبرت . ب . دوانز : كتب غيرت وجه العالم » .

وقد وجه النظرية الماركسية الكثير من النقد . وقد نقضها الماركسيون انفسهم أمثال (سدنى هوك) .

وقد تحولت نظرية ماركس الى دولة بقيام الثورة الشيوعية فى روسيا ولكنها كانت بعيدة الأثر فى التفكير الاقتصادى فى العالم كله ، فانها عدلت كثيرا من انظمة الدول الراسمالية ودفعت الدول المختلفة الى تقبل نظم (الاشتراكية) وتأميم المرافق لصالح الشعب وبذلك قامت انظمة وسطى بين الراسمالية الديمقراطية وبين الشيوعية الماركسية .

* * *

النظرية الديمقراطية

واتجه التفكير الغربى الى نقل نظريات الديمقراطية الغربية الى الفكر العربى على انها اصلح النظريات فى الحكم والفكر للوطن العربى الاسلامى وأجرى الاستدلال على قرابتها للفكر العربى واتصالها به أشد اتصالا من التفكير الاسلامى ونظريات الحكم الاسلامى .

وكان لهذا اثره فى نقل الأنظمة الديمقراطية الى الحكم فى جميع البلاد التى استطاعت بعد جهاد مع الاستعمار أن تحصل على الاستقلال الذاتى ، عن طريق معاهدات أقرت وجود قوات الاحتلال وارتبطت مع الدول المحتلة بواسطة محالفات عسكرية وثقافية واقتصادية .

ثم قامت دساتير فى الاقطار العربية وتأسست احزاب وفق النظام الديمقراطى وقامت برلمانات ومجالس نيابية وقد اثبتت هذه الأنظمة فشلها خلال الفترة التى طبقت فيها ، فقد كان النظام الحزبى الذى هو اساس النظام النيابى فى النظرية الديمقراطية وسيلة من وسائل الصراع فى كل قطر ، واداة من أدوات التفكيك والتجزئة والحيلولة دون قيام الوحدة الاقليمية مما جعل الاحزاب تتهم بعضها الآخر بالخيانة وموالاة المستعمر ، وكان المستعمر ينتصر لهذا الحزب تارة ولذلك الحزب تارة أخرى بما يحقق بقاءه وسلطانه وبما يحقق اسراع كل حزب لارضائه بأكثر مما يستطيع الحزب الآخر لضمان البقاء فى الحكم وعلى حساب الوطن نفسه .

وفى الحق أن الوطن العربى لم يكن فى حاجة الى تقبل نظام بعينه او رفض نظام بعينه ، وانما كان فى حاجة الى الحرية التى تمكنه من ان يبحث ويغربل ويقتبس الصالح من جميع النظريات والمذاهب بما يتفق مع كيانه ومقدراته ومقومات شخصيته وتراثه وارتباطه بماضيه وموقعه وحاجاته دون أن يفرض عليه هذا الاقتباس التبعية لنظام معين او مذهب معين ، تبعية تجعله يسير فى ركاب الديمقراطية الراسمالية أو الشيوعية الماركسية ولم يكن ذلك ممكنا فى ظل الاحتلال القائم الذى كان يفرض مذاهبه وآرائه وافكاره بالقوة المسلحة .

* * *

نظرية الشك : ديكارت

وتأثر الفكر العربى بنظرية « ديكارت » التى سجلها فى كتابه « مقال عن المنهج » وكان ديكارت وقد اهتدى الى نظريته فى ١٠ نوفمبر ١٦١٩ .

وهو فى جملة ، لا ينظر الى الماضى ولا يأخذ النظريات المقررة المتداولة حقيقة مسلما بها ، غير أن الشك الذى يفرضه منهجه لا يجعل من الذهن صحيفة بيضاء ، فهو يؤمن بعملية الغربلة والانتخاب بين الأفكار والمعانى التى تداولها الذهن البشرى ولا يمنع هذا عنده من الاحتفاظ بالقديم الصالح ، غير انه يرى هدم ما لا يستحق البقاء من الآراء المتوارثة وقد نعى على فلسفة أرسطو الحيرة والعمق .

ورفض ديكارت كل سلطة تحاول أن تفرض على الفكر فرضا ورأى أن العقل هو اساس قبول اى نظرية او رأى وهو لا يسلم بشىء ما لم يتبين له صحته بداهة ومن غير التباس .

ووجد خصومة من البروتستانت الذين اتهموه بالتشكك والالحاد والعمل على هدم الجامعات والكنيسة والدولة . كما وجد خصومة من الكاثوليك الذين اتهموه بالمروق فى الدين .

وقد رأى ديكارت أن يتحرر من قيود الدين المسيحى الذى رآه بصورته لا يمكن من البحث العلمى الحر . فدعا الى تغليب العقل على الموروثات وقال انه قصد بمذهبه مجال العلم وحده وأنه استبقى اعتقاده فى الحقائق الدينية . وقد تأثرت بمذهبه ميادين السياسة والدين (توفى ١٦٥٠) .

وقد حاول كثير من المفكرين اصطناع مذهب ديكارت فى البحث العلمى فى مجال الفكر العربى الاسلامى ونادوا به كشىء جديد فى حين أن الفكر العربى القديم عرف نظرية الشك التى أخذها ديكارت من المسلمين وحمل آراءها الغزالى وابن حزم وابن رشد ولهم عبارات واضحة الدلالة (عثمان أمين — الثقافة مايو ١٩٤١) فى مذهب الشك الذى يؤدى الى اليقين ولكن هذه النظرية حين حملت الى الفكر العربى حرفت فى اساسها بغية الوصول بها الى الهدف التغريبى الذى يرمى الى التشكيك فى تراثنا وتحطيم مقوماته .

الفاشية والنازية

وقد قامت بعد الحرب العالمية الأولى دعويان أخريان على اثر قيام « الثورة الماركسية فى روسيا ١٩١٧ هما الفاشية فى ايطاليا والنازية فى المانيا كرد فعل لها ، وقد ظهرت الفاشية أولا كحركة مقاومة للشيوعية وجعل الفاشيست شعارهم القوة والاتحاد وقد زحف الفاشيست

على روما فى اكتوبر ١٩٢٢ وتسلم الحزب مقاليد الحكم وبدأت هذه المبادىء تتسرب الى مختلف بلدان العالم ، وكان أبرز معالمها ادخال الحماسة فى كل فروع الحياة وتمجيد حب الوطن وحب الأسرة وقد استهدفت الفاشية احياء المجد الرومانى باعتبار أن روما مهبط العلم والعرفان والاتجاه الى جعل الكنيسة الكاثوليكية هى كنيسة العالم كله . كما ادخلت التعاليم الدينية على المنهج الدراسى .

وفى المانيا ظهرت الفكرة النازية عقب خروج المانيا من الحرب مهزومة ، تحمل لواء الدعوة الى انقاذ الوطن الجرمانى وبعثه من جديد ومقاومة البلشفية واطلقت على نفسها « الوطنية الاشتراكية » وقد اتخذت النازية من نظريات الجنس(العرق) والدم والسلالة قاعدة لها ، وغلا الهتلريون فى نظرية الدم الألمانى ونقاءه وتفوق السلالة . ونادى هتلر بتفوق الجرمان على جميع اجناس البشر ووصموا الأجناس السامية بعـــدم الأهلية لانشاء الحضارة (١) .

وقد جرت مراجعات لنظريات النازية وتردد ان ما اورد هتلر فى كتابه (كفـــاحى) انما نقله من آراء جوبنيو وريتان ، وكان هتلر يهدف بمهاجمة السامية الى مهاجمة اليهود .

وقد قسم هتلر فى كتابه « كفاحى » الجنس البشرى الى ثلاثة اقسام : الأول يضم الأمم التى خلقت الحضارة وهى الشمالية او الآرية وخاصة الشعب الالمانى . والثانى يضم الأمم الناقلة للحضارة مثل اليابانيين . والثالث يضم الأمم الهدامة للحضارة مثل اليهود والزنوج ويرى هتلر أن من حق العنصر المتفوق أن يغزو ويستغل ويطرد او يبيد جميع الأجناس الأخرى تحقيقا لمصلحته. ولما كان الالمان هم اقوى أجناس الدنيا فلهم الحق كل الحق فى التحكم فى الأجناس الاقل رقيا من ســـكان الارض .

وبذلك كانت « نظرية الأجناس » كما طبقتهـــا « النازية » نظرية استعمارية وقد استولى الحـــزب النازى على السلطة فى المانيا سنة ١٩٣٣ .

ولعل من اهم اسباب سقوط الفاشية والنازية انهما مذهبان يقومان على التفرقة العنصرية وسيادة جنس من الأجناس وتفوقه على سائر أجناس البشر .

وقد تأثر الوطن العربى بالفاشية والنازية فجرت محاولات مشابهة للقمصان السوداء فى ايطاليا والبنية فى المانيا فظهرت القمصان الخضراء والزرقاء فى مصر كمحاولة تقليدية .

وحاولت حركات القمصان الملونة ان تجعل من هذا الاتجاه تنظيما عسكريا للشباب او توحيدا للزى غير أن هذه الحركات لم تلبث أن تحولت الى أدوات حزبية ولم يتحقق من ورائها قيام جيل جديد من الشباب . وقاوم الاستعمار هذه الحركة وربطها بالدكتاتورية .

* * *

فرويد والجنس

وكان لنظرية فرويد عن التحليل النفسى ابعد الاثر فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر فقد حملها الفكر الغربى الينا وحاول تأكيدها مع انها لم تكن اكثر من نظرية تعرضت للمعارضة والنقض والتحول من يونج وادلر وهم زملاء فرويد .

لقد رأى فرويد أن الغرائز الجنســية تلعب اهم الأدوار فى تكوين شخصية الفرد وقال ان الطفل يتجه اتجاها جنسيا الى والديه . كما انكر فرويد الحب والقلب ووصف النفس البشرية بأنها مجموعة من الرذائل تتحكم فى قواها .

وجاء ادلر فخالف فرويد فى اساس النظرية فقـــال أن الغريزة الجنسية ليست اساس الدافع البشرى ولكن الدافع هو حب السيطرة والتملك .

ولما كان فرويد يهوديا فقد انتشرت نظريته انتشارا كبيرا فى كل الاقطار التى حمل لواء الثقافة فيها المفكرون اليهود ، وكان لها اثرها فى الأدب الاوربى المعاصر حيث ظهرت نزعة التحليل النفسى فى القصة ودراسات الاعلام وتراجم العظماء والقادة .

ولقد تأثر الفكر العربى الاســلامى بنظرية فرويد والتحليل النفسى وخاصة فيما يتعلق بالغريزة الجنسية حيث ظهرت معركة الجنس والأدب المكشوف .

وكان فرويد (١٨٥٦ — ١٩٣٩) قد نادى بنظريته

---

(١) وهذه المعركة ضد « السامية » عامة جزء من معركة اخرى ضد اليهود وقد اطلق اسم «ضد السامية» على الحملة التى قامت فى اوربا ضد اليهود .

قبل نهاية القرن التاسع عشر واتسع نطاق الدعوة لها فى أوائل القرن العشرين وواجهت الكثير من النقــــد والتعديل كما ذكرنا . وألف الدكتور « هافلوك اليس » فى بريطانيا كتابه عن الحب والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة (١٩٠١) وقدم لمحكمة الجنايات التى اتهمته بأنه كتب أشياء « وقحة » لا يصح نشرها بين الجمهور ثم جرت أبحاث حول الصراحة فى المسائل الجنسية .

ويرجع المؤرخون هذا الاتجاه الى الأدب الماجن والاباحى فى الادب الاوروبى الى أن عصر النهضة فى أوربا قام على أساس التحلل من قواعد الدين والاتصال بالتراث الافريقى الذى كان فى أغلبه من الأدب المكشوف مما دعا الى ظهور أوسكار وايلد ولورنس بعد هافلوك اليس وفرويد . وقد جرت فى الأدب العربى المعاصر مساجلات حول الأدب المكشوف والأدب المستور .

❋ ❋ ❋

السريالية

وتأثر الفكر العربى الاسلامى المعاصر بمـــذهب السريالية فى الفن ويهدف الى التحرر من ضغط كابوس المقاييس الفنية ويرمى الى أن يتم تســـجيل ما يرد على مخيلة الفنان من صور ابداعية كما هى بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قيمتها الخلقية أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية .

❋ ❋ ❋

وقد اتسع نطاق هذه المذاهب المنطلقة ، بعد الحرب العالمية الأولى وخروج ملايين الجنود من الخنادق بعد قضاء فترة أربع سنوات كاملة فى خطوط النيران وهــو اتجاه طبيعى يتبع فى المجتمعات المختلفة بعد الحروب وكان المفهوم أن هذه النظريات جميعها ، وهى لم تثبت فى ميدان الفكر الأوربى ولم تأخذ صورة الحقائق أو العقائد أنه لاضرورة الى نقلها الى الفكر العربى الاسلامى ولكن الاستعمار اراد من نقلها واذاعتها دعم معركة الغـــزو الثقافى الذى يهدف الى بلبلة الفكر العربى وتشكيكه فى قواعده وأصوله ومحاولة تحطيم مقومات هذا الفكر القائمة على دعائم من الروحية والقيم الانسانية العليا .

❋ ❋ ❋

البراجماتزم

وتأثر «الفكر العربى الاسلامى» بمذهب «البراجماتزم» الذى دعا اليه وليم جمس وحملت لواءه الثقافة الامريكية وهـــو مذهب الذرائع او الوسيلة ، والذى يرى أن الحقائق انما هى وسائل لفهم الدنيا وهو ما يطلق عليه بمذهب « الغاية تبرر الواسطة » .

وقد امتزجت هذه التيارات الفلسفية فى شبه تيار فكرى مؤثر أخذ جانب الغلبة على القيم والمثل العليـــا الانسانية والروحية التى اتسم بها الفكر العربى الاسلامى فى تاريخه الطويل وحاول التيار الجديد الطغيان عليها ، لولا أن تعمق التيار العربى الأصيل وازداد قوة نتيجة لنظرية «التحدى والمواجهة» التى عرفها الفكر العربى الاسلامى فى هذه المرحلة . ولم يكن هذا التيار العربى جامدا ولا متزمتا ولكنه كان متطورا مرنا عمل على الاستفادة من التيارات الفكرية الغربية على النحو الذى يزيده قوة ، مع محاولة الحيلولة دون سيطرتها أو تمكينها من تشويه الملامح الرئيسة للشخصية العربية الاسلامية والمعالم الاساسية للفكر العربى .

وقد ساعد على هذه المقاومة اضطراب الفكر الغربى نفسه ، وتميعه وتأثره بالحروب والأزمات العالمية مما دعا الكثيرين الى الشك فى هذه التيارات ومهاجمتها وارتفاع الصيحة بالاتجاه الى ثقافة الشرق الروحية ومحـــاولة تطعيم الفكر الغربى بها ــ فالفكر الأوربى الذى اتجه فى أول النهضة لمقاومة الدين نتيجة لخروج أوربا من أسر الدين المسيحى واتجاهـــها الى الثقافات اليونانيـــة واللاتينية القائمـــة على الأسطورة والجنس ، وظهر الاصلاح الدينى الذى أقام البروتستانتية بجوار الكاثوليكية ولم يلبث أن مر بما أسماه «أزمة الضمير» وهو مهاجمة كل قديم من دين ونظم وسياسة ومن أصول الاخـــلاق والاجتماع (أواخر القرن السابع عشر وأوائل القـــرن الثامن عشر) وقد أحدث تقدم العلم والكشوف اضطرابا فى الحياة الدينية ، دفع المفكرين الى تمحيص المسيحية فى ضوء القوانين العلمية والشك فى الكتب المقدسة . وظهور مذهب ديكارت . وتأثر المؤرخين به مما دعاهم الى الشك فى مصادر « التوراه » وما اعلن (اوجست كنت) من أن الدين نظام اجتماعى قابل للتطور ، كل هذا أصاب الفكر الأوربى بالاضطراب والقلق ، حتى اذا انتهت الموجة التى أثارتها الحرب العالمية الأولى من ارتفاع موجات الالحاد والاباحة علت الصيحة التى تقول

بأن أوربا مصابة فى صميم كيانها وان دعائمها الثقافية تتداعى وتنهار .

واشفق ذوو الرأى من الحد الذى وصلت اليه زعزعة العقائد الدينية حيث أصبح المذهب الكاثوليكى فى نظر الغالبية الأوربية مجرد أوضاع تقليدية جوفاء وطقوس مادية قد تبدو براقة ولكنها لا تقنع العقل العلمى . هنالك قام جماعة من الفلاسفة والمفكرين أمثال الكونت هرمان دى كايسرلنج ورينيه جينون وجان كاف وموريس ماترلنك وبرتراند رسل يدعون بالرجعة الى الشرق وجرت ومحاولات لتلقيح الحضارة الأوروبية بالبوذية والبرهمية ، والاتصال بالثيوصوفية ومحاولة تغليب قيم القناعة والتأمل والتطهر .

ونعى « برتراند رسل » على الحضارة ماديتها وقال ان الانسان فى الحضارة الصناعية تتضاءل حياته الى حد أنه يعتقد أنه مخلوق لكى يكون جزءا من الماكينة لا غاية لها الا الانتاج .

وجرت أبحاث تقول بأن اشتغال المرأة قد زاد انحلال الأسرة ، فان المرأة التى تعمل تتمرد على تقاليد الأخلاق ويؤدى الكسب عندها الى فسخ الرابطة الاقتصادية بينها وبين الرجل غير أن هذه الدعوة لم تلق عند الأوربيين صدى .

وقد جرت محاولات لنقل ميدان هذه المعركة الى الفكر العربى الاسلامى ولم يكن ذلك طبيعيا ولا مؤديا الى نتائج غير بلبلة الفكر ، ذلك أن الاسلام يختلف عن المسيحية كثيرا فى حرية الفكر ومناهج البحث ، وقد أعطى المفكرين فى الأزمنة المختلفة الحرية التى اتاحت لهم انتاج اعمال فكرية بعيدة المدى ، واذا كان الشرق الأقصى (الهند والصين) قد عرف بالمذاهب الروحية المطلقة واذا كان الغرب (أوربا وامريكا) قد عرف بالمذاهب المادية البحتة فقد كانت الأمة الاسلامية العربية (الشرق الاوسط) تؤمن بمزيج الروح والمادة فى الفكر والحضارة والحياة .

وجملة القول أن الفكر العربى الاسلامى قد وقف من هذه المذاهب والآراء والدعوات موقف الحذر غير أن تجربة ذات خطر حدثت وطبقت فيها نظريات الفكر الغربى واتجهت نحو الغرب اتجاها كليا : تلك هى تجربة تركيا .

* * *

المراجـــع

ديكارت : عثمان امين : الثقافة مجلد (١٩٤١) .
اربون وسامبون : المازنى : البلاغ : ٢١ يونية ١٩٣٦ .
الفاشية : الاهــرام : نوفمبر وديسمبر ١٩٢٣ ويوليو ونوفمبر ١٩٣٦ .
دارون : الهلال : مجلد ١٣ ومجلد ١٨ .
محمد فريد وجدى : /ك/ على أطــلال المذهب المادى : ١٩٢١ .
برتراند رسل : المقتطف يناير ١٩٣٠ .
ابراهيم المصرى : /ك/ الفكر والعالم .
يعقوب فام : /ك/ البراجماتزم : مذهب الذرائع ١٩٣٦ .

* * *

(٣)

تغريب تركيا وأثره على الفكر العربى الإسلامى

كان لتغريب تركيا بعد الحرب العالمية الأولى أثره البعيد المدى فى حركة التغريب والغزو الثقافى فى العالم الاسلامى والوطن العربى . ذلك ان تركيا كانت دولة الخلافة التى ارتبطت بها الأمة العربية اربعة قرون كاملة، ولذلك فقد كانت تتطلع اليها بعد أن انفصلت عنها (بعد الحرب) لتتابع خطواتها على الطريق .

ولقد اهتز الوطن العربى لمصطفى كمال حين قام بمحاولته الجريئة فى اجلاء اليونانيين وتحرير تركيا واعادة هزيمتها فى الحرب نصراً .

غير أن تحول مصطفى كمال بعد ذلك الى الغرب كان موضع الدهشة والغرابة ، هذه الدهشة التى بلغت قمتها عندما الغى مصطفى كمال « الخلافة الاسلامية » وفرض الكتابة من الشمال الى اليمين وفرض القبعة والحضارة الغربية بقوة الحاكم الديكتاتور وليس بالتربية والاقناع .

* * *

وقد كان هذا بالنسبة للامة العربية امتحانا خطيرا عاشت فى بوتقته خلال هذه الفترة حتى الحرب العالمية الثانية .

× اقفل عبد الحميد أبواب تركيا فى وجه الحضارة وفتح مصطفى كمال الأبواب على مصاريعها لتركيا أمام الحضارة الغربية .

× قاوم عبد الحميد التغلغل الأوربى الفكرى وذهب مصطفى كمال الى الغاية فى قبول افكار أوربا الى الحد الذى نزع به الى اعتبار تركيا من الغرب وليست من الشرق ورفض كل الأفكار الاسلامية التى تتصل بالحكم واللغة والدين والمجمع والتقاليد والأخلاق .

واذا كان « الاتحاديون » قد دعوا الى تتريك عناصر الامبراطورية العثمانية وعارضوا بمذهب (الجامعة الطورانية) مذهب (الجامعة الاسلامية) الذى دعا اليه عبد الحميد فان مصطفى كمال رفض غير « ما تركيا » نفسها وأدار وجهه للعالم الأوربى .

ولقد كان اتجاه تركيا الى الغرب اتجاهاً ماكراً كونته عوامل مختلفة أهمها ما قاسته تركيا العثمانية قبل الحرب العالمية وخلالها من تسلط الدول الأوربية عليها وتغلغلهم واتساع النفوذ الأجنبى فيها نتيجة لضعف مركز الخلافة .

وكان للثورات المختلفة التى قامت فى أطراف المملكة والانتفاضات التى احرز بها الغرب الاستيلاء على عدد من الأقطار ، ثم ما كان من اشتراك تركيا العثمانية (بقيادة الاتحاديين) فى الحرب العالمية فى صف المانيا ثم هزيمتها واحتلال الحلفاء ومنهم اليونان لها . هنالك سيطرت فكرة تغريب تركيا واخراجها من تاريخها وماضيها كله ، وكان بانتصار مصطفى كمال فى معركة « سقاريا » وقيام الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية أثره الواضح فى احداث هذا الانقلاب التغريبى .

وكان لسلطان الحاكم الذى اطلق عليه « الحكم الأبوى» قوته وسيطرته على تحويل النواميس الاجتماعية بقوة القانون وفرض الأنظمة الجديدة لسلطان الحاكم وحده ، دون تقدير للعوامل النفسية للشعوب وحملات التعبئة للمشاعر ازاء عمليات التطوير وشحذ الاذهان

لتقبل الأفكار الجديدة ، كان لهذا كله أثره البعيد المدى فيما بعد وصف بأن تركيا ما تزال الى الحرب العالمية الثانية تعانى « آلام المخاض ».

ولست أدرى الى أى مدى يمكن قبول ما أذيع ورددته الصحف من أن شروط الصلح التى عقدت بين تركيا والحلفاء فى لوزان عام ١٩٢٣ والمعروفة بشروط كرزون الأربع قد تضمنت (١) قطع كل صلة بالاسلام (٣) الغاء الخلافة (٣) اخراج أصار الخلافة والاسلام من البلاد (٤) اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم .

وقد اتجهت تركيا الى الغرب اتجاها عاصفا عنيفا شاملا ، وقبلت نظرية الغرب قبولا كاملا . لم تتردد فى النظر اليها أو الاقتباس منها كما فعلت البلاد العربية ، بل قطعت كل صلتها بالماضى القديم واتجهت نحو الغرب اتجاها كاملا فى ميادين اللغة والزى والدين والمرأة وحققت :

— الغاء الخلافة والغاء الأوقاف وحذف مادة دين الدولة الرسمى الاسلام .

— الغاء الزى الشرقى وفرض الزى الأوربى والقبعة .

— الغاء الحروف العربية .

— تحرير المرأة ودفعها الى المجتمع والحرية .

(١) اللغة : قرر مؤتمر باكو (٢٧ مارس ١٩٢٦) استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغات التركية والتتارية وجاء فى قراره « لقد دفن المؤتمر الحروف العربية نهائيا « ولم يقم مندوب واحد للدفاع عنها » واستعمال الحروف اللاتينية بعد أن رأى هذه الحروف أوفى بالعمل من الحروف العربية من الوجهتين الأدبية والاجتماعية . وقد حمل مصطفى كمال بنفسه لواء العمل فوقف أمام السبورة وعلم الشعب الكتابة بالحروف اللاتينية . وكلف حوذيا أميا يدعى بكير أغا ولا يعرف القراءة والكتابة بأن يقف عند السبورة وعلمه عليها الحروف اللاتينية وقال مصطفى كمال للاهالى : امحوا من أذهانكم الحروف القديمة محوا تاما . وقال ان الكتابة الجديدة ستمكن الكفايات العالية والعبقريات الباهرة من التقدم وصدر الأمر بتعليم اللغة الجديدة فى المدارس التركية كلها . وأرغمت الصحف والمجلات على أن تطبع بالحروف اللاتينية وصدرت الأوامر الا تطبع أو تنشر شيئا بالحروف العربية ورفعت اللافتات العربية وأمرت مكاتب البريد الا تقبل أو تخرج رسالة معنونة بالحروف العربية . واستقدمت ماكينات لينوتيب مجهزة بالحروف اللاتينية .

ثم تقرر قطع كل صلة باللغات العربية والفارسية وتنقية اللغة التركية من جميع الألفاظ العربية والفارسية والاستعاضة عنها بكلمات تركية او اوربية .

* * *

فصل الدين عن الدولة

واعان مصطفى كامل بأن الدين يجب الا يتعدى المعابد وأن حرية الفكر هى أساس لحرية الدولة ، ولكل أنواع الحرية وقال : أن المادة التى تنص على أن الاسلام هو دين الدولة الرسمى لم تعد صالحة لهذا العصر وانه يجب حذفها من الدستور فى أول فرصة .

ثم ندد تنديدا شديدا بالذين استخدموا الدين سلاحا لهم ووسيلة لتحقيق اغراضهم الدنيوية . وقال فى الدفاع عن اتجاهه هذا بأنه لا يتوقى من فصل الدين عن الدولة الا المحافظة على كرامة الدين وانتزاعه من أيدى محتكريه واعادته الى ضمير الأمة مخافة أن يصير مع الزمن كما كان فى عهد الخلافة آلة بيد المستبدين الظالمين .

وفى خلال السنوات التى سبقت معركة سقاريا (١٢ أغسطس ١٩٢١) وهزيمة اليونان (٦ اغسطس ١٩٢٢) بدأت المعركة التغريبية التى استمرت خمسة عشرة عاما فقد خلع السلطان (نوفمبر ١٩٢٢) واعلنت الجمهورية (اكتوبر ١٩٢٣) ثم الغيت الخلافة ووزارة الأوقاف والقوانين الشرعية والمحاكم الدينية ، واغلقت المدارس الدينية (مارس ١٩٢٤) ثم الغى الطربوش واستبدل بالقبعة (يوليو ١٩٢٥) ولم يمر على ذلك عامان حتى الغى الدستور وحذفت مادة « الاسلام دين الدولة » وابدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية (١٩٢٨) وفى العام التالى الغى تعليم الدين فى المدارس (١٩٢٩) وفى عام ١٩٣٣ الغى قسم الدين من الجامعة وفى العام التالى (١٩٣٤) منع اللباس الشرقى نهائياوفى عام ١٩٣٧ نص الدستور على أن تركيا دولة علمانية . وبذلك تم اتجاه تركيا نحو الغرب .

* * *

وقد كشف الغرب عن صلته بالتحول القهرى الذى تم فى تركيا حين أعلن لورد كرزون فى مجلس العموم البريطانى (مارس ١٩٢٣) تصريحه : لقد قلت للترك بأن توجيههم وجوههم الى جهة ايران والافغان مضر بهم وانه ينبغى لهم أن يوجهوا وجوههم نحو الغرب ويقيموا أنظمتهم على أساس الحضارة الأوربية ، غير أن صحف تركيا لم تؤيد حركة التغريب وقالت جريدة « توحيد أفكار » أن على الغربيين أن يقيموا الدليل على ان انظمة الحضارة الأوربية خير من انظمة الحضارة الشرقية .

وقد كان لحركة التغريب فى تركيا اثران واضحان :

١ — فى تركيا نفسها والعالم الغربى .

٢ — فى العالم العربى .

وقد كان لحركة التغريب فى تركيا اثران واضحان : لقد قالوا انها اكسب للشرق كله وان نجاح دولة اسلامية فى ميدان التقدم والنهضة والحرية لا شك له اثره الكبير فى مواجهة الغرب .

وان الحركة قضت على جميع الخرافات المذهبية التى كانت متسلطة على عقول السذج ، ومحت الأمية من البلاد وبثت روح العسكرية والنظام فى الشعب التركى وحررت المراة التركية وعلمتها واجبها فى الحياة .

وقال أنصار الحركة : ان التفكير الذى تتجه اليه تركيا هو ثمرة من ثمار المدرسة الفرنسية التى تقود الروح التركية ، وان الروح الفرنسية هى التى ستظل تملى على الحياة التركية الفكرية اتجاهاتها وان الثورة التركية وليدة الثورة الفرنسية : وارجع الكثيرون اثر الحركة الى حركة الماسونية الفرنسية التى انتشرت فى سالونيك وانقرة والتى كان من اثرها الاتجاه بالروح التركية الى ما اطلق عليه (الراديكالية الفرنسية) وقد أكد هذا المعنى قول مصطفى كمال (١٩٢٤/٢/٢) أن وجهتنا هى السير من الشرق الى الغرب . اعلموا اننا لاننا اضطررنا الى اختيار موطن لنا فى الشرق قد وقع اختيارنا على موطن غربى بقدر الامكان لما الغرب من علاقة بمنشأنا الاول فاذا كانت اجسامنا فى الشرق فانظارنا ما برحت متوجهة الى الغرب » .

وقال خصوم الحركة : ان العمل الذى تم فى تركيا انما فرض عسكريا ولم يقم على أساس الاقتناع . وان الحركة جاءت من رجال الجيش وليس من جانب الأمة

« وان الذهنية التى غلبت على جماعة انقرة فى ان يقنعوا أوربا بأنهم صاروا مثلها ان تتحقق الا يوم يستطيعون ان يصنعوا بنطلونهم وابرتهم ، اما البرنيطة والرقصة فتأتيان بعد المدرسة » .

وقال الدكتور هيكل (كتاب وادى ص ٢١٦) ان هذه النهضة تبدو كانها ليست اثرا محتوما لتطور طبيعى وانها مصنوعة على يد مصطفى كمال واصحابه الذين فرضوها على تركيا عن طريق التشريع ، ولزموها الأخذ بها بقوة القانون ، وبما وراء القانون من الجندى وسيفه ومدفعه ، وهاجم الكتاب العرب موقف تركيا من الالفاظ العربية واتجاههم الى حذفها من لغتهم ، وقالوا انهم بعد أن حذفوا هذه الألفاظ التى استعانوا بها طوال مدة الدولة العثمانية قد حدثوا ازاء ذلك عقبات لا يمكن اقتحامها ، ولذلك لم تستطع اللغة التركية ان تبلغ مرتبة اللغة العلمية وقالوا : انه بينما كان علماء العرب فى الاندلس العراق ومصر والشام يسهرون الليالى على ضوء السراج الضئيل لخدمة الفلسفة ووضع اصطلاحات لها كان أجداد الترك لا عمل لهم غير ركوب الخيل وطلب الرزق من وراء الدخول فى مختلف الجيوش » .

* * *

نظرة الغرب الى تركيا

وقد نظر العالم العربى الى حركة الجديد فى تركيا تتجه بسرعة الى التغريب بعيون مفتوحة فيها دهشة وتطلع ، وفى عقولهم اسئلة : ترى هل يسيرون وراء هذه الحركة وينقلونها ، وجدت قضايا بحثت فى الصحف والكتب : حول الخلافة وهل هى من الاسلام ام ليست منه . والحجاب والسفور وما مدى حرية المرأة وهل يمكن أن تنطلق المراة من حياة البيت المحجبة مرة واحدة الى حياة المراقص كما يحدث فى تركيا حينما أصبحت الصحف تقول أن مهنة استاذ الرقص من اعظم المهن قيمة واكثرها ربحا .

وبدأت معارك حول الطربوش والقبعة . ومدى اثر الزى فى نهضة الأمة وشخصيتها وتقاليدها ، وكان للمجددين من الكتاب والباحثين دورهم فى رسم صور الاعجاب بالحركة التركية . التى لم تلبث ان تبعتها حركات فى ايران وافغانستان ومصر نحو الحرية الاجتماعية .

وفى مصر جرت محاولات لخلع العمامة فى الأزهر

ودار العلوم ، واصطناع الطربوش ، وجرت محاولات فى محيط المتمدينين نحو تغيير الطربوش بالقبعة .

وجرت حملات ترمى الى مهاجمة اللغة العربية على أثر تغيير الحروف التركية واستبدالها بالحروف اللاتينية.

* * *

× أما أثر الحركة فى تركيا فقد انتهى بعد ربع قرن الى تأكيد معنى الروحية الأصيلة . فقـد عاد الآذان للصلاة باللغـة العربية . وتحول الاتجاه الى الناحية المضادة ، فقد ادخل تعليم الدين بعد الحرب العالمية الثانية وفرض تعليم الدين اجباريا عام ١٩٣٥ وتأسس قسم لتدريس الدين فى جامعة أنقرة . وبلغ الاتجـاه الفكرى فى تركيا قمته بالعودة الى الدين لاصلاح المجتمع وقال (جون بيرج) فى كتاب الاسلام فى نظر الغرب : أن اصول الاسلام فى تركيا من حيث هو دين ما زالت راسخة فى الأعماق وقد تصور التركى انه يعيش فى دولة غير دينية وقد يذهب الى ابعد من ذلك انه لا يزال عنـده احساس قوى متصل بالاسـلام وبأنه هو الذى يقرر اعماله » .

وعادت تركيا فطالبت بأنه من الضرورى على التركى ان يعرف الحروف العربية وذلك ليتعمق فى تاريخ الترك وآداب الترك . ويقرأ مؤلفات « نعيم » والبجوى وجودت باشا وهم كبار مؤرخى الاتراك ، فاذا لم يعرف الحروف العربية فانه لن يستطيع أن يقرأ المخطوطات ولا النقوش على الاحجار ولا كتابا واحدا من خمسة واربعين الف كتاب مطبوع . كذلك لم يجد الاتراك بدا من تعلم اللغة العربية حتى يمكنهم دراسة تاريخ بلادهم .

* * *

مراجــع

(٥) الاسلام فى نظر الغرب : جون بيرج .
نهضة الاتراك : هل تدوم : الهلال ص ٤٦ مجلد ٣٥ .

* * *

(٤)

إلغـــاء الخـلافة العثـمانية

اذا كان حدث الحركة التركية التجديدية بمختلف تطوراته بعيد المدى فى الفكر العربى المعاصر ، فقد كان الغاءالخلافة «الاسلامية» العثمانية من أبعد هذه التطورات اثرا . وقد آثار وقع هذا الحادث البعيد المدى فى العالم العربى والعالم الاسلامى عديدا من المساجلات والمعارك الفكرية — وقد تم الغاء الخلافة على مرحلتين :

الاولى : فصل الخـــلافة عن السلطنة (نوفمبر ١٩٢٢) .

الثانى : الغاء الخلافة (٣ مارس ١٩٢٤) .

وذلك أن مصطفى كمال بدأ بفصل الخلافة عن السلطة وعزل السلطان وحيد الدين « محمد السادس» واتخذ خليفة بغير سلطة زمنية كخطوة أولى فى سبيل الغاء الخلافة نهائيا بعد ذلك بأقل من اربعة شهور .

وكان من رأى مصـــطفى كمال أن الســـلطة شيء والخلافة شيء وأن السلطنة العثمانية قد اغتصبت السلطة من الشعب ومن حق الشعب أن يستردها ويفصل بين السلطة والخلافة ثم الغى السلطنة وأقام الجمهـــورية التركية .

وقال بعد أن عين عبد المجيد خليفة بغير سلطنة زمنية : أن منصب الخلافة لا يزيد الآن عن أن يكون اثرا تاريخيا ليس له حق شرعى يسوغ له البقاء ، وهكذا مهد لالغاء الخلافة .

وقال السلطان محمد السادس أن الفصـــل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية لا يطابق ماهو معروف فى التشريع الاسلامى وأنه لا يمكن أن يكـــون الخليفة رئيسا دينيا فقط .

ومشروع فصل الخلافـــة عن السلطنة مشروع قديم كان قد أعده « مدحت » أبو الدستور مع الدســـتور ذاته ولأجله نفى السلطان عبد الحميد مدحت وقضى عليه أخيرا ، ذلك أن مدحت كان يرى فصل الخلافة عن الحكم على أساس أن السلطة للأمة وقد كان اعتراض العلماء على فصل الخلافة على السلطة مبنيا على أنه اذا جرد الخليفة من هذه السلطنة فقد جرد من كل شيء وأصبح عضوا أشل لا معنى لوجوده » .

وفى ٢٣ مارس ١٩٣٤ قدم مصطفى كمال اقتراحا للمجلس بالغاء الخلافة بعد أن قدم اتهامات مؤداها تعاون الخلافة مع النفوذ الاجنبى .

وقد أشار الكماليون فى تقريرهم عن الخلافة أن وجودها لم ينقذ تركيا من أن تكـــون ذات رأسين فى سياستها الداخلية والخارجية وأن آل عثمان كانوا سبب مصائب تركيا .

ومن الطبيعى أن يتخلص مصطفى كمـــال من الخلافة لعدة أسباب منها : أنه لم يكن يرغب فى أن تكون هناك قوة أكبر منه أو لها صفة من الصفات التى تجعل فى تركيـــا أكثر من نفوذها ، فضلا عن ايمـــان أتاتورك الأكيد بالطريق الذى سار فيه نحو الغرب : ثقافـــة وحضارة .

* * *

وقد واجهت تركيا خصومة عنيفة من العـــالم الاسلامى كله لهذا العمل الذى قضى على القيادة العليا للدول الاسلامية .

ورسمت (المقطم) لالغاء الخلافة (٤ مارس ١٩٢٤) هذه الصورة :

« اليوم تهتز أعصاب العالم كله لنبأ يطير من أنقرة

الى الشرق والغرب عن الغـــاء الخلافة فى تركيا وانزال آل عثمان عن عروشهم التى سمت دهرا طويلا على عروش الممالك والامارات والامبراطوريات . حكموا ٨٣٢ سنة فملأوا التاريخ بأعمالهم وبطولة رجالهم وحسناتهم بالرحمة وسيئاتهم بالبطش . منذ ١٥١٧ انقرضت خلافة العباسيين فى ارض مصر بعد انقراض خلافة الامويين بها من قبل وانتقلت هذه الخلافة الى آل عثمان فى الاستانة فتولوها ٤١٧ سنة من حكمهم الذى ابتدأ ١٠٩٢ وانتهى اليوم ١٩٢٤ جلس على عرشهم ٧٢ سلطانا » .

ولم تلبث ان قامت فى « العالم العربى » حركة فكرية بعيدة المدى : فى مصر وفى الحجاز وفى الاردن وفى الهند . ففى مصر أعلن علماء الأزهر ان خلع الخليفة غير شرعى « لأنه صادر من طائفة قليلة » من المسلمين وقال وكيل الأزهر (محمد حسنين) لقد اخطأ الترك اذ ظنوا أن الخلافة عقبة فى سبيل ما يريدون من أنظمة الحكم . فان سلطة الخلافة كما تتمثل فى فرد يقوم باعبائها تتمثل فى ملك او خليفة او سلطان . ثم طالب المسلمين بالنظر فى اسناد الخلافة لمن هو أهلها واحق بها « فان الاجماع منعقد على وجوب نصب الخليفة واولى الناس بالقيام بذلك هى الأمة المصرية فان بها علمـــاء الدين والازهر الشريف » .

وقالت الاهرام (٨ مارس) أن الاتراك ارادوا الطفرة والتشبه بغيرهم . وجعلوا معيار عملهم الثورة الفرنسية يقلدونها ناسين أن التقليد الذى لا يتفق مع اخلاق الأمة ومداركها لا يفضى الى غير الخراب والدمار .

وقالت آراء اخرى : أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شذرا ويعدونهم المغتصبين للخلافة اغتصابا . وقد جهد عبد الحميد لاحياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لهـــا من الجلال والهيبة . وقد ظن الغربيون أن مقام عبد الحميد فى الاسلام كالبـــابا فى النصرانية .

ولم يلبث شيخ الأزهر (ابو الفضل الجيزاوى) ان دعا فى ١٢ مايو ١٩٢٦ الى عقد المؤتمر الاســـلامى الخلافة فى القاهرة وذلك « لما كان لزوال الخلافة من الوقع الشديد فى انفس الشعوب الاسلامية . ولذلك اصبح على المسلمين ان يفكروا فى نظام الخلافة على قواعد توافق احكام الدين الاســـلامى ولا تجافى النظم الاسلامية التى رضيها المسلمون نظما لحكم» وقد ارسلت دعوات الى مختلف بلاد العالم الاسلامى .

وقال « حسن محمود علم الدين » فى نداء الى الأمة المصرية « ان علينا الا ندع الخلافة تسقط من ايدينا بل علينا أن نتكاتف على رجاء مولانا جلالة ملك مصر فى قبولها » وكان الشريف حسين قد اسرع فأعلن نفســـه خليفة للمسلمين بعد سقوط خليفة الاستانة ولذلك حرص علماء مصر فى نداءاتهم أن يحذروا من بيعـــة الشريف حسين « اياكم أن تخدعوا بنداءات بيعة الملك حسين بن على صنيعة الانجليز ومانع حجاج بيت الله الحرام من القيام بالفريضة فى العام الفائت (الاهرام ١٩٢٤/٣/١٠) وقد أبرق العلماء الى الشريف حسين بعمان فى التريث فى قبول البيعة حتى يتكون راى عام اسلامى لجمع كلمة المسلمين على خليفة واحد .

وقد ابلغت حكومة شرق الأردن فى ٧ مارس شركة روتر رسميا « ان الملك حسين قبل الخلافة التى عرضها عليه مسلمو العراق وشرق الاردن والحجاز الذين اعلنوه خليفة » .

ولكن الجهات الغربية اخذت تبدى رغباتها فى احقية ملوك العالم الاسلامى للخـــلافة فأعلنت صـــحف روما (ايطاليا) تأييدها للملك فؤاد وأعلنت انه اذا قبل منصب الخلافة فان المسلمين يقابلون قبوله اعظم مظاهر السرور وتواترت الابحاث والدراسات واشترك فيها عـــدد من الكتاب : رشيد رضا ومحمد لبيب البتانونى . وقال بعض الكتاب ان الاسلام «مارمى بسهم اوهى لجلده واوهن لعضده وأدمى لكبده من هذا السهم الذى رماه الكماليون على الغاء الخلافة اكبر جريمة فى عهد الدولة واشنع خيـــانة فى تاريخ الاســـــلام على الاسلام (الاهـــرام ١٩٢٤/٣/١٤) .

* * *

وأشارت جريدة الطان ان الملك فؤاد سيزور فرنسا من شأن الترشيح للخلافة وتركزت الدعوة فى مصر حول مطامح الملك فؤاد فى الخلافة وايدها علماء الأزهر وبعض الصحف ـــ ونشرت الاهرام فى ٢١ مارس ١٩٢٤ مقالا تحت عنوان « يكون ملك مصر خليفة » جاء فيه أن مصر اليوم اكبر دولة اسلامية وأرقى دول الاسلام طرا واغناها واغزرها علما واعلاها نهضة ولربما يكون رأى كبـــــار علمائها ان يجعلوا الخلافة فى وطنهم وفى عرشهم ناظرين الى ذلك من الوجهة الدينية والاجتماعية .

ويعيب مصر الوحيد ـــ وقـــد لا تخلو منه مملكة اسلامية ـــ هو وجود جيش اجنبى محتل لأرضها ولكن

هذا الجيش الأجنبى قوة زائلة بحكم السياسة وباعتراف الانجليز .

وكذبت الأهرام ما يدعيه الانجليز من « انهم لا يتعرضون الخلافة لانها عمل دينى » وقالت « ان أوربا كلها تهتم بالخلافة اهتماما عظيما لأن نفوذ الخلافة الاسلامية فى العالم الاسلامى هو فوق نفوذ البابوية فى العالم المسيحى وعملها اكبر اذا عادت هذه الخلافة الى أصولها ونظمت على الطريقة العصرية . اذ ليس قول الاتراك بأنها لم تنفعهم بالقول الصحيح على اطلاقه » .

ودارت أبحاث حول « مفهوم » الخلافة : وتسمى « الامامة » وهى رئاسة عامة فى الدين والدنيا قوامها النظر فى مصالح الملة وتدبير الأمة والامام نائب عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فى حياطة الدين وتنفيذ احكامه . ويصير الامام اماما بالبيعة من اهل الحل والعقد أو استخلاف امام قبله ولا بد مع ذلك من نفاذ حكمه فى رعيته (الاهرام — ٢٥ مارس ١٩٢٤) .

* * *

٣ — وتحدث الانجليز عن رأيهم فى الخلافة على لسان لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا السابق الذى قال « قضى الأمر والغيت الخلافة الاسلامية . ثم جاء عرب الحجاز وشرق الأردن فبايعوا الملك حسين بالخلافة وبذا عادت او على الأقل شطر منها الى الشعب الذى أسسها واحتفظ بمجدها » . وشبه الغاء الخلافة بقضاء نابليون على الامبراطورية الرومانية المقدسة والغاء سلطة البابا الزمنية . ورأيه انه لا يبعد أن تنقلب الخلافة وتتحول الى نظام يشبه نظام البابوية وان « محمد على » من كبار مسلمى الهند — يرى ان خير بديل للخلافة هو أن تختار جمعية مؤلفة من رجال الدين المستقيمى السيرة فى البلدان الاسلامية رجل لا ثروة له ولا مال ويسند اليه منصب الخلافة . وانه ليس بين ملوك العرب من هو جدير بملء الفراغ الذى حدث بعد خلع الخليفة التركى ، وأن السلطة الزمنية قد أخذت تنهار فى كل مكان وقد جاء الآن دور العقيدة لكى يظهر تأثيرها مرة أخرى » . (الاهرام ٢٨ مارس ١٩٢٤) .

ولم يكن الملك فؤاد وحده طموحا لمنصب الخلافة ، بل ان قلينى فهمى يذكر فى مذكراته (ج ١) ان عباس حلمى كان شغوفا بأن يكون يوما ما خليفة للمسلمين وانه استخدم لتحقيق هذا الغرض وسائل جمة منها استخدام نفوذ مسلمى الشام والأناضول . وانفق مبالغ طائلة فى هذا السبيل وقال قلينى فهمى أن أول من دفعه الى هذه الفكرة هو الشيخ محمد عبده . « ولذلك تخلص الباب العالى منه » .

ودعا محمد لبيب البتانونى الى الاسراع للعمل من اجل الخلافة حتى « لايدعو الملك حسين لنفسه فى الحجاز والعراق وشرق الأردن والسلطان يوسف فى مراكش والامام يحيى فى اليمن . والادريسى فى عسير وابن السعود فى نجد وابن سعيد فى عمان وآغا خان فى الهند والبهاء فى العجم والسنوسى فى مجاهل لوبيا والميرغنى فى السودان ولا نبعد ان نسمع بالدعوة للورد هلدن فى انجلترا » .

* * *

٤ — وكان للحجاز دورها فى الخلافة فان الملك عبد العزيز آل سعود كان فى هذه الفترة قد استولى على الحجاز وانهى فيه حكم الشريف حسين وأولاده . واذلك دعا الى عقد مؤتمر اسلامى بمكة وارسل الى ملوك الأفغان والعراق والى شاه ايران ورئيس الجمهورية التركية والامام يحيى ورئيس المجلس الاسلامى المقدس وجمعية الخلافة فى بومباى وجمعية الحديث فى أمر تسر بالهند وجمعية الخلافة فى دلهى وباى تونس ورئيس حكومة طرابلس وبدر الدين الحسينى وبهجت البيطار فى دمشق وجاوه برقية (٢٢ ابريل ١٩٢٦) لعقد مؤتمر الشعوب الاسلامية فى مكة .

وقد تم انعقاد مؤتمر مكة والقى الملك عبد العزيز خطابا افتتاحيا جاء فيه قوله :

« تفاقم البغى والعدوان بعد زوال سيادة الدولة العثمانية من هذه البلاد وخلوص أمرها الى الشريف حسين بن على آخر أولئك الأمراء فاضطرب العالم الاسلامى كله من استبداده وظلمه ، ومن عجزه عن توطيد الأمن فى البلاد من جعلها تحت السيطرة الأجنبية غير الاسلامية . جعل نفسه عاملا موظفا لبعض الدول الأجنبية . وكنا معشر النجديين جيران الحجاز عرضة لبغيه وايذائه لنا . منع اداء فريضة الحج واغرى بعض رعايانا بالخروج علينا . وقد ثبت بالتشاور مع أهل الحل والعقد أنه يجب علينا انقاذ مهد الاسلام من بغيه وظلمه وعزمنا على ذلك » .

وقال ان المسلمين قد أهلكهم التفرق فى المذاهب

والمشارب فائتمروا فى التأليف بينهم والتعـــاون على مصالحهم وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سببا للعداوة والبغضاء » .

وكما أن مؤتمر مكه لم يؤد الى نتيجة ما فان مؤتمر القاهرة الذى عقد فى ١٣ مايو ١٩٢٦ لم يؤدى ايضا الى أى نتيجة اذ انتهى الى تقرير ان الخـــلافة الشرعية المستجمعة لشروطها المقررة فى كتب الشريعة الغراء ومن أهمها الدفاع عن حوزة الدين فى جميـــع بلاد المسلمين وتنفيذ احكام الشريعة الغراء فيهـــا لا يمكن تحقيقها بالنسبة للحالة التى عليها المسلمون الآن .

وقال احمد شفيق فى حولياته (ج ١ ص ١١١) : ان جمعية الخلافة اعلنت عدم صلاحية مصر لا نعقاد المؤتمر العام للخلافة بها ووجوب انعقاد المؤتمر بمكة المكرمة لانها خالية من النفوذ الأجنبى . وارسل مؤتمر الخلافة الاسلامية برقية الى مؤتمر مكة المكرمة راجيا ان يوفق فى وضع نظام للحكم فى البلاد المقدسة وقال ان عمل هذا المؤتمر فى نظر البعض هو تاكد سقوط الخلافة وعدم قدرة المسلمين على جمع كلمتهم وتوحد أعمالهم لدرء الأخطار التى تتهددهم وتعبث بكيانهم الدينى والسياسى وقال انه استقر الرأى على وجوب الخلافة وتعذر ايجادها بين المسلمين وانه كانت هناك مآرب خاصـــة لفئة من ذوى النفـــوذ فى مصر وقال رجال السياسة ان رجال الدين ليسوا ذوى اختصاص وان الفشل حالفهم .

٥ — وقد واجه الفكر العربى هذه المعركة مواجهة لها وجهين واضحى الخلاف ، فوجه كان يهدف الى تأييد قيام الخلافة ووجـــه يعارض فى إعادتها . اما الذين يؤيدونها فقد كانوا مختلفين فى شخص الخليفة ، بعضهم يرى أن الملك عبد العزيز آل سعود احق بها لوجوده فى بلاد الحجاز مهد الاسلام والبعض يؤيد قيامها فى مصر والبعض الآخر يرى أن تقوم خلافة عربية .

والأزهر الرسمى الذى أيد الخلافة لحساب الملك فؤاد واه معارضة لرايه من اربعين أزهريا وقعوا مذكرة اعربوا فيها عن أن مصر لا تصلح دارا للخلافة لتسلط الانجليز عليهـــا ودعا بعضهم الى أن يعقـــد مؤتمر الخلافة فى مكة المكرمة .

وكان لراى الشيخ على عبـــد الرازق دوى حين اصدر كتابه (الاسلام واصول الحكم) معارضا اعتبار الخلافة اصل من أصول الاسلام . وكان مصدر الدوى أن الكاتب منسوب الى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان يعارض عودة الخلافة اصـــلا لاتجاه دعاته الى التغريب ، ولأن الحزب بالذات كان يحارب رغبة الملك فؤاد فى الخلافة .

ولقد اعلنت صحيفة السياسة قبل صدور كتـــاب على عبد الرازق رأيها فى الخلافة (٢ فبراير ١٩٢٩ وما بعدها) اذ أعلنت أن مسألة الخلافة تمس سياسة الدولة وان الدستور ينص على أنه لا يجوز للملك أن يتولى مع ملك مصر امور دولة اخرى بغير رضاء البرلمان ولذلك فان أمر بحث الخلافة هو من عمل السياسيين وليس رجال الدين .

وقال على عبد الرازق ان البلاد التى تهتم بالخلافة هى البلاد التى يحركها الأجنبى وان الذين يتولون أمر البحث فى الخلافة رجال لا يملكون لانفسهم أمرا ولكن يحركهم غيرهم فيتحركون (السياسة ١٣ مارس ١٩٢٦)

وقد شغلت الصحف العربية وصحف مصر بالذات بالخلافة بين مؤيدة ومعارضة ، وظهر اكثر من كتاب فى هذا الموضوع من أهمها كتاب رشيد رضا (الخلافة أو الامامة العظمى) وهو فى تأييد الخلافة وكتاب على عبد الرازق (الاسلام وأصول الحكم) فى معارضتها ثم ظهر مؤلف بعد فترة الدكتور عبد الرزاق السنهورى يدعو الى أن تحل محل الخلافة عصبة امم اسلامية .

١ — وقد كشف رشيد رضا فى كتابه عن انه هناك ثلاث جبهات تقف ازاء الخلافة الأول وهم (١) المجددون أو (المتفرنجون) : يرون أن الدين لا يتفق فى هـــذا العصر مع السياسة والعلم والحضارة . وهم يرون أن تكون الحكومة غير دينية وهم موجودون فى تركيا ومصر وسوريا والعراق والهند .

٢ — الفقهاء الجامدون : وهم الذين يرفضـــون القول بالاجتهاد المطلق فى كل المعاملات الدنيوية ولوفوض اليهم أمر الحكومة لعجزوا عن أن ينهضوا به .

٣ — المؤمنون بالاجتهاد والاصـــلاح وهم الذين يجمعون بين الاستقلال فى فهم فقه الدين وحكم الشرع الاسلامى وهم القادرون على ازالة الشقاق من الأمة وذلك باحياء منصب الامامة وان موقفهم الوسط من شأنه ان يجذب المستعدين لتجديد الأمة من الطرفين .

وقد بين رشيد رضا أن الخليفة فى الاسلام ليس

الا رئيس الحكومة المقيدة ، لا سيطرة ولا رقابة له على أرواح الناس وقلوبهم ، وانما هو منفذ للشرع وطاعته محصورة فى ذلك فهى طاعة للشرع لا له نفسه ، فالخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . وبين الفارق بين الخليفة عند المسلمين وبين البابا عند المسيحيين الذى ينفرد بتلقى الشريعة ويستأثر بالتشريع .

٤ــ أما « على عبد الرازق » فى كتابه الاسلام واصول الحكم وقد حاول اثبات أن الخلافة نظام ابتكره المسلمون ولم يكن له أصل فى الشريعة . وأن الخلافة ليست من الدين فى شىء وانما هى خطة دنيوية صرفة لا شأن للدين بها فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ولا نهى عنا ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة . وان رئاسة النبى كانت رئاسة دينية جاءت عن طريق الرسالة فلما انتهت الرسالة بموته انتهت الزعامة وما كان لأحد أن يخلفه فى هذه الزعامة . وأن بيعة أبو بكر كانت بيعة سياسية ملكية عليها كل طابع الدولة المحدثة .

ويقول الدكتور م . محمد حسين (الاتجاهات الوطنية ــ ج ٢) بأن على عبد الرازق تأثر فى مراجعه وآرائه بالمستشرقين وبالكتاب الذى أصدرته الحكومة التركية لتبرر به الغاء الخلافة وهو (الخلافة وسلطة الأمة) الذى ترجمه عبد الغنى سنى عن التركية وقد وضعته لجنة من كتاب الترك باشارة من الكماليين .

٥ ــ ويتجه كتاب الدكتور عبد الرزاق السنهورى (الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية) الذى ألفه بالفرنسية الى محاولة ايجاد نظام بدلا من الخلافة يجمع شمل المسلمين ، وطالب الدكتور السنهورى بتطوير نظام الخلافة فيصبح عصبة أمم شرقية .

＊＊＊

وقد أشار الى أن الاسلام الذى يعنيه هو تلك الثقافة الاسلامية التى أنارت جوانب العالم فى ظلمات القرون الوسطى « فالثقافة الاسلامية لا الدين الاسلامى هو الذى يعنينى . ذلك أن الذين يؤمنون بتعاليم الدين هم المسلمون أما الذين ينتمون الى الثقافة الاسلامية فاولئك هم أولاد ذلك الوطن الاسلامى الكبير . وقد وسع المسلمين والنصارى واليهود ، وقد عاشوا جميعا تحت علم الاسلام طوال هذه القرون » .

وتطلع الدكتور السنهورى الى أن تتخطى الشريعة الاسلامية أعناق القرون فتصبح شريعة العصر تتسع لمقتضيات الحضارة وتصبح شريعة الشرق دون تمييز بين دين ودين » .

＊＊＊

ولقد تجدد الحديث مرة أخرى فى شأن الخلافة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وتولى فاروق الملك ، واتسع نطاق هذا الحديث عام ١٩٣٨ بعد أن صلى فاروق الجمعة فى الأزهر الشريف برؤساء وملوك الدول العربية .

وقد تناولت الصحف الموضوع تناولا يكشف عن وجهات النظر المختلفة . أما الصحف الفرنسية فقد أعلنت (١٩٣٨/٤/٢٤ الاهرام) بأنها تخشى أن تؤدى اعادة الخلافة الى تأليف كتلة من الدول الاسلامية تقف فى وجه الدول الأوربية . وأن فرنسا تهتم اهتماما كبيرا بالمسألة وبما أن الخلافة ستعاد يوما ما فلا بد أن ذلك مع فرنسا وضدها ، ولما كانت المصلحة تقضى بأن تكون مقرها القاهرة . وأن فرنسا هى أشد الدول الأوربية تفاهما مع المسلمين ولا سيما مع المصريين .

وقالت صحف ايطاليا (١٩٣٨/٦/٢ ــ الاهرام) أن القاعدة الأساسية للسياسة البريطانية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط وفى الشرق الأدنى عامة هى الدفاع عن طريق الهند وحماية منابع البترول فى العراق وغيرها . وقد كانت انجلترا حتى الأمس تخشى أن تصبح مصر دولة قوية على رأس البلاد العربية ، ولكنها غيرت سياستها ازاء الخطر الايطالى وأصبحت تؤيد اسناد الخلافة الى مصر على أمل تأليف كتلة فى البلدان العربية خاضعة لنفوذها وقصدها من وراء التوصل الى تعزيز مركزها ومقاومة الدعاية الايطالية وتأمين طريق الهند وحماية منابع البترول فى البلاد العربية .

＊＊＊

وأشارت جريدة ستمبا (روما ــ عن الاهرام ١٩٣٩/٢/٩) أن على ماهر والشيخ المراغى يعملان على اعادة الخلافة الى الملك فاروق . وأن المناداة بخليفة جديد لا يمكن أن يكون من الحوادث المفاجئة ولا يتم الا اذا اجتمع مؤتمر اسلامى ورأى فى الأحوال الحاضرة أن فاروق هو الأصلح والاجدر . وهل يوافق ملوك

البلدان العربية الأخرى على أن يتولى ملك مصر الخلافة أم لا . واشارت الى ان تركيا تعارض فى احياء الخلافة فى القاهرة ، وأن العالم العربى يتجه الى مقاومة ترشيح رجل تركى للخلافة وفى هذه المرحلة ظهرت جبهة جديدة من الكتاب تؤيد قيام الخلافة وجبهة تعارضها : ويرى عبد الحميد سعيد (الهلال الذهبى — ١٩٣٩) أن الخلافة فى العصر الحاضر الزم منها فى أى عصر مضى . وان دول اوربا تعلم أن فكرة الخلافة تهدد سياستها الاستعمارية والذى يرعب اوربا أن قيام الخلافة يؤدى الى اتحاد الأمم الاسلامية وتعاونها فى سبيل نهضة الشرق كله ، هذه النهضة اذا قويت باتحاد الأمم الاسلامية تحطمت دونها مطامع الدول الأوربية وشهواتها الاستعمارية .

ويقـــول عبد القادر حمزة : أن من الحكومات الاسلامية المستقل والمستعمر والمحمى والخاضع للانتداب وهى حكومات ملكية وجمهـــورية وامامية وسلطانية واميرية جمعها تحت لواء الخلافة متعذر فضلا عن أن تركيا والمغرب تعارضان فى الخلافة ولا فائدة من نظام لا يعترف به الجميع ، كما أن الخلافة فى مصر تكون مصدر خطر عليها من الدول القوية وقد تحرك فى نفس بريطانيا عوامل جديدة تدفع بها الى الرغبة فى البقاء حتى تحين ساعة الجلاء . والخلافة عبء قبل أن تكون مزية .

ورأى بعض المعارضين فى الخلافة انها ربما تخلق مع الزمن كهانة .

* * *

وهكذا ظلت مسألة الخلافة تشغل الفكر العربى بآراء وأدلة تؤيد هذا الجانب أو ذاك ولم تتوقف الدعوة الى اعادة الخلافة ، وهى فى نظر دعاتها انما هى وسيلة لربط المسلمين برباط روحى ، وهى كالجامعة الاسلامية فى هذا الغرض وكل وسيلة من شأنها أن تربط أو توحد بين المسلمين يمكن أن تقوم مقام الخلافة .

* * *

ولا شك ان الاستعمار قد حرص على الا تقوم هذه الرابطة على اى وضع كان ، وكان ينظر الى الخلافة من وجهة نظره الخاصة فهو حين يؤيدها ويدعو اليها انما كان يحرص ان يلتمس من وراء السيطرة وتأكيدا لنفوذه وهو حين حال دون قيامها انما قصد الى تمزيق وحـــدة المسلمين ومع ذلك فقد عجز الاستعمار عن فصم الروابط الروحية فى العالم الاسلامى بل وربما زادتها مقاومـــة الاستعمار قوة وبأسا .

* * *

مرحلة التحـدى ورد الفعـــل
تطـور الفكر العربى الإســلامى
خــلال الحربين العــالميتين

- حملات التغريب
- حملات الغزو الثقافى
- حملات التجزئة

(١)

حمـــلات التغريب والغزو الثقـــافى

قامت الحضارة الغربية على أساس المـــــادية والاقتصاد والصناعة . لذلك كان الاستعمار ثمرة من أهم ثمارها ، وجزءا مرتبطا بها مكمل لها لا ينفصل عنها. وقد اختلفت بذلك عن الحضارات التى سبقتها والتى كانت تجمع بين المادة والروح .

ولقد قامت الثقافة الغربية على أساس تفكير بدأ بالتحرر من سلطان الكنيسة عندما رأى المسيحية تحده عن الانطلاق فانفصل عن الدين كلية وجرى مع العـــلم الحديث فى مكتشفاته وعلومه وانشأ نظما وقيما اشتقها من حاجاته ورغباته وحاول تطبيقها .

وقد بدأت الحضارة الغربية بالثورة الصناعيـــة وقامت على أساس التنافس فى البحث عن المواد الأولية والخامات والصلب والبحث عن أسواق لتصريف المنتجات وكان لاختراع وسائل المواصلات السريعة أثره فى ربط أنحاء العالم وسرعة الانتقال بين اجزاءه المختلفة .

ولما كان الاستعمار هو عامل « الحـــركة » فى الحضارة الغربية المادية فقـــــد كان لابد أن يتخذ من الوسائل التى تكفل له البقاء فى المناطق التى يغزوها . وذلك بعد أن استطاع فى خلال القرن التاسع عشر أن يخضـــع القارتين الآسيوية والأفريقية وجنـــوب أمريكا وكما ارتبطت الحضارة بالغزو الاستعمارى ارتبط هذا الغزو بالخصومة لغير الرجل الأبيض وغير الأوربيين . وصاحبت عمليات الغزو العسكرى عملية غزو فكرية واقتصادية وكان هذا الغزو أشبه بحملة انتقام عنيفة ربما كان مصدرها هزيمة الغرب فى الحروب الصليبية .

وقد بدأ الغرب نهضته على أساس ترجمة العلوم والفلسفات العربية التى كانت قوام حضارته الجديدة ومع ذلك فقد حملمعه لواء الغدر والافتراء والحقد على العرب والمسلمين وانكار فضلهم وأثرهم وقد استهلت أوربا حملتها بحرب صليبية عنيفة على العرب فى أسبانيا وعلى المسلمين فى تركيا وعلى العرب فى المغرب وهذه ربمـــا كانت انتقاما لمقتل القديس لويس وهو يقود الحمـــلة الصليبية التاسعة الى ساحل المغرب . ولم يلبث اللورد اللنبى أن كشف خبيئة هذا الأمر حين اعلن عند دخول « القدس » عام ١٩١٧ أنه قد انتهت الحروب الصليبية.

وقد ارتبطت الحضارة بالاستعمار ، وارتبط الغزو بصورة تحمل معنى الخصومة للاسلام على نحو صليبى فيه معنى الصراع بين المسيحية والاســــــلام ومحاولة الانتقام أو ربما كان الضغط على الاسلام انما جاء باعتباره العدو الأول للاستعمار وأن بقاء الاستعمار الغـــربى المسيحى فى العالم العربى لا يتم الا بالقضاء عليه .

ويظهر ذلك واضحا فى أول مشروع استعمارى تقدم به القس « ميبنتز » فى ١٥ مارس ١٩٧٢ الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا جاء فيه « **أريد أن اتحدث اليكم يا مولاى فى مشروع غـــزو مصر ، ولا يوجد بين اجـــزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة منه على العالم كله. وعلى تجارة الدنيا بأسرها وهى تستطيع أن تلعب هذا الدور لسهولة استيعابها لعدد كبير من السكان . وهى اليوم معقل الديانة المحمدية ، ولأى داع تخسر المسيحية تلك الأرض المقدسة التى تصل آسيا بأفريقيا والتى جعلت منها حاجزا بين البحر الأبيض والبحر المتوسط ومدخلا لبلاد الشرق بأجمعها والذين يحقـــــدون على فرنسا سينظرون بعين الارتياح لهجومكم على المسلمين تحدوهم روح مسيحية** » .

وعندما عرض المركيز دى سنيلاى مشروع شق قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر قال فى مشروعه « انه مشروع صليبى ومن مميزاته امكان حفر قناة تكون ملكا مشتركا للعالم المسيحى » .

ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة « مرحلة التحدى » لما حفلت به من حملات التغريب والغزو الثقافى والتجزئة التى اندلعت وفق مخطط مرسوم له هدف واضح وخطة واسعة المدى قوامها الغزو التجارى والاقتصادى والثقافى والعسكرى والسياسى ، **وعمليات الغزو الثقافى عن طريق الصحافة والكتابة والسينما والتعليم ، وحركات التبشير والاستشراق والدعوات المتعددة التى تهاجم التراث والقيم والدين ومحاولة التشكيك فيها ، والثنائية فى التعليم الدينى والمدنى وثنائية الثقافة بين الفرنسية والانجليزية والحملات على القيم ، والاتهامات ودعوات التجزئة والتمزيق ومحاولات نقل حشد هائل من المذاهب والنزعات والدعوات الغربية المتصلة بالدين والمجتمع والفكر وحملات الشيوعية والصهيونية والالحاد ، والحملات على الدين واللغة .**

وقد وقفت الأمة العربية من الحضارة الغربية موقفا رائعا ، لم يكن موقف الجمود ولا موقف الانصهار . لم **يمانع من تقبل الأضواء الحديثة على اساس ان تظل معالم شخصيتنا حية قائمة ، على ان تزداد بهذه الأضواء الجديدة قوة وحياة واندفاعا فى طريق الامم الناهضة .**

ولم يكن لدى البلاد العربية مانعا من تقبل الحضارة باعتبارها نتاج بشرى اشترك فيه الجنس الانسانى كله وقد قام العرب بدورهم فيها وحملوا امانتها ـ وحدهم ـ فترة تزيد على اربعة قرون كاملة وحدهم فحموها وزادوا فيها واضافوا اليها .

والاسلام دين متطور فسيح منطلق يتجوب مع الازمان المختلفة والبيئات المتعددة ، ولا يحول دون اقتباس اسباب الحضارة ، وقد تقبل مجتمعنا الحضارة من قبل واقتبس وترجم من ثقافات الشرق والغرب ومن حضارات الفرس والروم والهند والمسحيين واليونان مازاد شخصيته قوة وحياة .

ولكن الغرب عندما اتصل بالوطن العربى لم يقدم لنا من الحضارة الا الجوانب المتصلة بمظاهر الحياة وهى فى مجموعها جوانب الغرائز والترف وارضاء الاهواء .

وللحضارة الغربية جانبها : العلمى العقلى المتصل بالآلة والاختراع والتقدم العلمى والكشوف المختلفة . وجانبها المتصل بالترف والمتاع الحسى واطلاق الاهواء واللذات مما كانت المراة والمراقص والحانات والكحول والمخدرات وسائلها وادواتها .

وقد حرص الاستعمار ان ينقل هذا الجانب وحده الى البلاد المحتلة ، وأن يحجب عنها الجانب الايجابى ، ولم يقصد بتقديم هذا الجانب من الحضارة الا العمل على تحطيم المجتمع العربى وبث روح الفساد فيه وتمزيق كيانه واستلاب ثروات الأثرياء الذين اندفعوا وراء اللذات ، وسقطوا فى حمأة المتاع الحسى فتركوا القرية وعكفوا على الاهواء فى المدن وبذلك فقدوا ثرواتهم والتهمتها المؤسسات الاستعمارية الربوية والعقارية ، اما فيما يتعلق بالثقافة فقد حجب الاستعمار عن الوطن العربى جانبها العلمى الرفيع المتصل بترقية الحياة والسمو بالفكر الى عوالم الاحساس والتسامى ، وأباح الجانب المتصل بالمذاهب الهدامة والآراء الالحادية والشبهات وقضايا الفكر التى ما زالت معروضة للبحث والتى لم تصل بعد الى درجة العقائد ، واتصل هذا بالنظريات ذات المظهر العلمى التى خلقها الاستعمار ليحاول اقناع الشرقيين والشعوب الملونة والمحتلة بانهم أقل من الشعوب البيضاء قدرة عقلية ، وأن الرجل الأبيض هو الانسان الذى خصته العناية الالهية بتحضير الشعوب المختلفة وحمل أمانة حمايتها وتنويرها ، وهذا هو ما اقام هذا الاضطراب العميق والصراع النيير بين الفكر العربى والحضارة والثقافة الغربيتين .

وعندى أن أمر الحضارة والثقافة الغربيتين لو انتقل الينا انتقالا طبيعيا دون أن تكون وراءه هذه القوى التى تقوم على الغزو الثقافى وتنظم الحملات فى سبيل « سحق الشخصية العربية » لما حدث اى انحراف ، وانما الذى أحدث الانحراف هو محاولة الغرب فى غزو بلادنا بجانب من ثقافته أن يفرض الجانب المنحرف المضطرب المتشكك .

***

والواقع ان الآراء والمذاهب الغربية لم تكن قائمة فى الغرب بهذه الكثرة او التعدد فى وقت واحد وانما جرت محاولة حشد كل الآراء والأفكار والدعوات التى مرت بمختلف الثقافات والفلسفات فى الفترة الطويلة من عصر النهضة الى الآن حتى تأخذ صورة الحملة الجائحة التى تثير الأعصاب وتبعث الشك وتزلزل العقائد فى حين أن هذه الدعوات والمذاهب قد ظهر بعضها اثر البعض الآخر وانها لم تكن فى صيغة الحقائق المقررة وانما فى صيغة الآراء المعروضة للمناقشة وكآراء قابلة للنقد وأن أغلبها انطوى وظهرت مذاهب أخرى تنقضه ثم ظهرت أفكار أخرى تقضى على الأولى .

ولقد كانت هناك معركة ضـــــخمة هائلة ، هى « معركة التغريب والغزو الثقافى وقد حـــدث انحراف ووقعت ضحايا وظن الاستعمار ان تجـــربة « تغريب تركيا » يمكن أن تتكرر فى العالم العربى .

حقا ، لقـــد كانت تجربة تركيا سلاح رهيب فى ابانة ، ثم تبين من بعد أنها عمل فاشل وان « التطور » غير « التغريب » وأن « الاقتباس » غير « النقل » .

ذلك أن « تجربة تركيا » لم تقنع الأمة العربية بتقبل الحضارة الغربية كاملة ، بل لعلها زادتها حذرا من أن تمسخ شـــــخصيتها ولعلها هى التى حكمت بأن « الاقتباس » خير من النقل ، وأن تقبـــول جوانب من الحضارة والثقافة ورفض أشياء أقوى لشخصية الامة من نقل كل شىء : لقد ظهر كيف تميعت الشـــخصية التركية فلم تعد اسلامية او شرقية أو غربية وانما هى خليط غير واضح المعالم .

* * *

— ١ —

حمـــلات على الجنس الســامية والآرية

اتسمت حملات « لتحطيم الكيان » التى قام بهـــا الاستعمار بالعصبية والهوى والمغالطة وتجـــاهل المنهج العلمى الصحيح . وقد اتصلت هذه الحملات بكل مايتعلق بكيان الشخصية العربية من قيم وتراث وخاصة فى ميادين الدين واللغة والتاريخ والجنس . وصدرت عن مخطط مرسوم واضح وضع قاعـــدته الأولى كاتبين متعصبين استعماريين هما : جوبنيو ورينان .

وتقوم النظرية على وجود فوارق طبيعيـــــة بين الساميين والآرايين ، وهما قاعدة الفوارق بين الشرق والغرب والرجل الأبيض والرجل الملون ، بل قاعـــدة الاستعمار نفسه حين فرض الرجل الابيض نفسه على افريقيا وآسيا باعتباره حامل لواء المدنية .

حمل الغرب لواء الدعوة الى نظرية الجنس واقام على اساسها معركة التفرقة العنصرية . وترى هـــذه النظرية ان هناك اختلافات جوهرية وجسمانية وذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات ، وتفسير التاريخ تفسيرا يقوم على الهوى والانانية مع احتقار كل ما هو ليس آريا وتجريد غير الآريين من خير الصفات الانسانية .

وقد اختلفت أوربا فى حمل لواء هذه النظرية فقالت فرنسا بسيادة الجنس الكلتى ضد الجـــرمانى ودعت بريطانيا الى سيادة السكسون ضد الكلت . واكدت المانيا سمو العنصر الجرمانى فوق الكلت والسلاف واللاتين .

ونشأ عن هذه الدعوة نظرية الحاجز اللونى التى تقوم على أساسه ظاهرة الاضطهاد الحضارى . وقد طبقت هذه النظرية فى أفريقيا وآسيا وامريكا باضطهاد الزنوج أصحاب الأرض الأصليين .

* * *

نظرية جوبنيو

ونظرية الأجناس البشرية التى دعا اليها الكونت دى جـــوبنيو الفرنسى عام ١٨٥٨ قد اســـــتغلها الاستعمار فى الفتح والتوسع ، على اساس انه لا مساواة بين البيض والسود ولا بين المتعمرين والشعوب التى يحتلونها ، وان البيض المستعمرين اعظم عقلا من السود المحتلين . وان هناك اختلاف جوهرى فى سلالة العرق وجريان الدم .

وترى هذه النظرية انه ما دام هناك شعوب عليا ، وما دام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للآرى المتفوق فان من حقه أن تكون له السيطرة وان يقبض بيده على مقدرات العالم . وان الجنس الأبيض ينفرد بكل الخلق العظيم كما انه اختص بالجمال والذكاء والقوة فى تاريخ الحضارات المتعاقبة وان ما عداه من الأجناس الأخرى عالة عليه .

وقال جوبنيو : ان « اليتو توبيين » هـــم ارقى الأجناس البيضاء جميعا وأفضل السلالات البشرية على الاطلاق .

ولقد كان لاتصال جوبنو مع الموسيقار « ريتشرد فلجنز » الألمانى اثره فى تبنى الموسيقار الألمانى للنظرية التى تلقتها المانيا فى الوقت الذى تحققت فيه الوحـــدة الجرمانية واتجهت الى تأسيس امبراطورية كبرى وقد اتخذها رجال غليوم الثانى وسيلة لتعبئة قوى الشعب لغزو المستعمرات .

وتأثر « فردريك نيتشة » الفيلسوف الألمانى بهذه النظرية واوحت اليه بعض قصائده عن « السوبرمان » .

* * *

نظرية رينان

وكان للفيلسوف الفرنسى ارنست رينان (١٨٦٣ — ١٨٩٢) أثره الواضح فى توسيع هذه النظرية الاستعمارية وخلاصة آراء رينان هى :

● أن هناك فوارق بعيدة المدى بين الأمم السامية والأمم الآرية .

● أن الأمم السامية قصيرة الخيال ، جافة التصوير تدرك الأشياء ادراكا أوليا ولا تتعمق فى بحثها ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها وتحكم على الأشياء لأول مرة حكم المعتقد الجازم بصحة الشىء الذى اعتقدته . وخيالاتها محدودة وادراكاتها محدودة ، ونظاماتها الاجتماعية لا تعرف التطور . وليس فى نظام حكومتها ما يدل على سعة الادراك ولا على أثر التفكير . وليس لها فى علم الأدب والفن اثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الاخرى ، بل ليس لها فلسفة ولم تسترشد الأمم الأخرى بشرائعها .

● أن الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد فى الغيبيات وخوارق العادات والايمان التام بالقضاء والقدر .

● من اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد واحرقت كتبه وما وصل اليه هؤلاء من الفلسفة ليس له قيمة كفيره فهو ليس الا فلسفة اليونان مشوهة . والفلسفة التى اخذها الأوربيون عن المسلمين فى اسبانيا كانت فاسدة رديئة الترجمة مشوهة الأصل لم تستفد منها أوربا الفائدة الحقة .

● العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ، فالزمن الذى كان يسود فيه العنصر العربى — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ولم يظهر البحث العلمى ولا الفلسفة الا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين .

● أن العقل العربى لا يصلح للدراسة والبحث لأن العقلية السامية مجدبة كالصحراء التى نشئت فيها ولاتقوى على التحليل والتعمق كما هو الحال بالنسبة للعقلية الآرية .

● ان عقيدة الجبرية عند المسلمين من شأنها أن تخنق الروح العلمية وأن تحول دون المضى فى سبيل التقدم وأن الاسلام عجز عن التطور وعن قبول اى عنصر من عناصر المدنية فاجتثت من قلبه كل بذرة من بذور الثقافة العقلية .

وكان رينان قد اذاع هذه الآراء فى محاضرة القاها فى السربون فى ٢٩ مارس ١٨٨٣ تحت اسم (التعاليم الاسلامية والعلم) ونشرت فى جريدة الديبا ورد عليها جمال الدين الأفغانى — الذى كان بباريس اذ ذاك — وجرت بينه وبين أرنست رينان مقابلة نوقشت فيها هذه الأفكار .

* * *

رد جمال الدين الافغانى

وقد كان رد جمال الدين على هذه الآراء علميا واضح الدلالة : قسم موضوع المحاضرة الى عنصرين :

(١) ان الديانة الاسلامية كانت بما لها من نشأة خاصة تناهض العلم .

(٢) ان الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة وأجاب عن (النقطة الأولى) فقال :

ان المرء ليتساءل أصدر هذا الشر عن الديانة الاسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الاسلامية فى العالم ام ان اختلاف الشعوب التى اعتنقت الاسلام او حملت على اعتناقه وعاداتها وملكاتها الطبيعية هما جميعها مصدر ذلك .

ان مناهضة المسلمين العلم او الفلسفة فى بعض عصورهم المتأخرة لا ترجع الى طبيعة دينهم بل أولى بنا ان ننسبها الى سوء فهم بعض الشعوب التى اعتنقته من غير العرب .

٢ — اما عن النقطة الثانية فالكل يعلم ان الشعب الذى خرج من حال الهمجية التى كان عليها واخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ويغذ السير بسرعة لا تعادلها الا سرعة فتوحاته السياسية وقد تمكن فى

× هذه النظريات هى اساس كل ما حمل لواءه كتابا غربيون كثيرون قد انصفوا الاسلام والحضارة العربية . فقد ظلت هذه الآراء ذات أقوى أثر عندهم . كتابنا المغتربون امثال طه حسين وسلامة موسى ومع أن

خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية فتقدمت العلوم تقدما مدهشــا بين العرب وفى كل البــلدان التى خضعت لسيادتهم .

وقد كان العرب فى ذلك الجهل حين شرعوا يتبادلون ما تركته الأمم المتمــدنة فاحبوا تلك العلوم المندثرة . ورقوها وحلقوا عنها بهجة لم تكن لها من قبل . أو ليس هذا دلالة بل برهانا على حبهم الطبيعى للعلوم ! صحيح ان العرب اخذوا عن اليونان فلسفتهم كما اخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى اخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضـــحوها ونسقوها تنسيقا منطقيا وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والانجليز والألمان لا يبعدون عن رومه وبيزنطه بعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم ان يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمـــة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب .

فالواقع يكذب ما ذهب اليه رينان فليست عقلية العرب التى استطاعت تحصيل ثقــافة الفرس والروم بسرعة لا تعدلها سوى برعتهم فى الفتوح الاسلامية بعقلية جامدة راكدة .

ان هناك نوعا من التناقض عند ما يصف (رينان) عقلية العرب بالاجداب ثم يقول بأنهم اخذوا الفلسفة من الحرانيين ا . هـ .

وقـــد دارت مناقشة بين رينان وجمال الدين بينت له « أن الاسلام فى نصفه الأول لم يحارب العـــلم وانما حاربه فى نصفه الثانى . وان المسلمين لا يحاربون العلم والفلسفة الا عندما يبتعدون عن المنـــابع الأولى لدينهم وعندما تضطرب أحوالهم الاجتماعية والسياسية واستطرد رينان : لقد خالنى الشيخ غير منصف انى لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل فى المسيحية ما قلته فى الاسلام وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين وهذا قول حق ، فجاليلو لم يلق من الكاثوليك خيرا مما لقيه ابن رشد من المسلمين .

* * *

وقد ظلت هذه الآراء التى قدمها جوبينو ورينان مصدرا الحملة على الفكر العربى والاسلامى واساسا لم ينقض ابدا بالرغم مما وجه اليه من رد وبالرغم من تراجع رينان عنه فيما روينا من حديثه مع جمال الدين .

وبالرغم من أن هناك مؤرخون منصفون وأحرارا فى الفكر : أمثـــال جوستاف لوبون وسيديو ودوزى فان الحملة على الكيان العربى قد اتخذت آراء المتعصبين أساســا وتجاهلت آراء المنصــفين ومضى الكثيرون من الكتاب العرب المتغربين على هذا النحو الخاطىء الظالم فهاجموا كياننا وقادوا حملة التغريب ، ولعل كل ما اورده طه حسين وانطون سعادة وغيرهم انما كان مصدره آراء رينان مما سنعرض له فى مكانه .

* * *

المراجـــع

مجلة المجلات العربية : مايو ١٩٠٧ .
الاسلام والتجديد : تشارلس ادمس .
الاتجاهات الوطنية : د . م . محمد حسين .
جمال الدين الأفغانى : د . محمود قاسم .
زعماء الاصلاح لـ احمد أمين .
مصر الحديثة : كرومر — ترجمة اسكندر شاهين ١٩٠٨ .
رائد الفكر المصرى : د . عثمان أمين .
تاريخ الأستاذ : رشيد رضا .
قاسم أمين : احمد زكى .
مجلة الرسالة : نظرية الأجناس البشرية اجيبون .

* * *

(٢)

حمـــلات على الدين

مهاجمة الدين واعتبار الاسلام سبب التخلف

تعددت حملات كتاب الغرب الذين قادوا معركة التغريب الثقافي على الدين وعلى الاسلام بثلذات بادعاء أنه سبب التخلف للعرب والشعوب التي اعتنقته .

ونمثل للحملة على الدين ومهاجمة الاسلام بحملة الدوق داركواز بكتابه « مصر والمصريون » الذي صدر عام ١٨٩٣ جريا في نفس الطريق وان اقتصر الكتابة عن المصريين وحدهم . وقد ضم كتابه سلسلة من المطاعن القاسية وكان قوامه التعصب .

وحاول مؤلف الكتاب أن يصور الاسلام في صورة الدين الخرافي العتيق ، ويصور المسلمين في صور الضعاف العجزة . ونعى على المصريين ضعف الخلق القومي وعزا تأخر الحركة الفكرية الى الاسلام . وقال انه — أي الاسلام — هو السبب الأساسي في هذا التأخر وانه لا يحض على البحث في العلوم غـــير الدينية وأنكر أن للعرب الأوليين مدنية خاصـــة واتهمهم باحراق مكتبة بالاسكندرية وادعى أن الاسلام هو الذي أمر بالحجاب .

***

رد قاسم امين

وقد رد قاسم امين على دوق داركور بكتـــابه « المصريون » باللغة الفرنسية . وقال ان رادكور ملىء بالحقد على المصريين والاسلام ، جاهل باصول الدين وتاريخ العرب . وأن ما يوجد فعلا مما رمى به المصريين من قصـــور لا يرجع الى طبيعتهم ولا الى دينهم ، وانما يرجع الى أنهم كانوا يعيشون في ظل الاستبداد الذي أوقف تقدمهم ونهضتهم .

وقال قاسم امين : أن الأســـــلام سبق الثورة الفرنسية بألفي سنة أو يزيد حيث أنكر امتيازات النبلاء والثروة ، ودعا الى العدالة الاجتماعية . وان ليس في الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التي كانت للكنيسة وانه افسح المجال للكفايات وجعل للفقراء حقا معلوما في أحوال الاغنياء . وأن النظام الاسلامي يؤكد الاخاء والمساواة ، وأن ضعف هذا النظام انما حدث نتيجة لاضطراب المسلمين وقيام أمراء طغاة يحكمون العـــالم الاسلامي مما ادى الى شيوع الظلم والقسوة .

ونقد قاسم أمين حال المراة في أوربا وقال : أن نظام تعدد الزوجات والطلاق هو نظام أرقى وأنقى من نظام الخلائل والتعدد غير الشرعي السائد في فرنسا وأوربا ، هذا النظام الذي يطبع الاطفال بطابع الجريمة وأن الاسلام قد احتاط لهذه الاخطار على أن الأصل أن يكون للرجل زوجة واحدة .

وأورد قاسم امين احصاءا عن البغاء في فرنسا ودلل على أن ربع المواليد فيها غير شرعيين . وأن ١٥٠ الفا منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون امهاتهم ك

وقال قاسم : ان المصريين يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنوى أعلى يضحى في سبيله بلذات الدنيا .

وأن الاسلام لم يمنع المصريين من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيميا والطبيعة والفلك ، وليس هو الذي أسلمهم لجماعة الطغاة المستبدين . وأن الاســـلام لم يعترض تطور العقل الانساني ولا تقـــدم العلوم ولا الآداب . ولم يحل دون اكتشاف الحقائق العلمية وأن ما تسرب الى الدين من اوهام وخرافات مما يراه بعض السائحين ليس من أصول الدين وخلص قاسم امين الى أن الاستعمار هو الذي حال بين بلادنا بين التقدم وأن القناصل الأوربيين كانوا يكونون حكومات داخل الدولة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكي الدماء من رعاياهم وأن الغرب فرض تجارته علينا . وأن رعاياهم كانوا مثلا للفســـاد والتسلط ، وانهم نعموا بخيرات البلاد دون أن يدفعوا مقابلا لها .

وقال أن حكام مصر حاولوا السير بمصر أولا أن أوربا خلقت لهم العثرات فاضحت البلاد مزرعة الغريب الأجنبي . وانه على الرغم من أن مصر تقابلهم بالاحترام، فأنهم لم يجدوا سبيلا للاساءة الا سلكوه . (ترجمة احمد خاكي : الثقافة — ١٩٤٢/٥/١٩) .

حمـــلة هــانوتو

مهاجمة الإسلام والمفاضلة بينه وبين المسيحية

وكانت حملة « هانوتو » واحدة من هذه الحملات التى شنها الغرب على الاسلام ومحاولة اثارة الشبهات حوله والسخرية منه وقد حاول هانوتو (وزير خارجية فرنسا) أن يلصق بالاسلام كل عيب. متهما اياه بالتعصب والتخلف . وحاول أن يرفع من شأن المســيحية على حساب الغض من قدر الاسلام حيث قال : ان الاســلام يرفع حق الربوبية ويجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن بينما ترفع المسيحية من شــأن الانسان وتخوله حق القربى من الذات الالهة ، وقال هانوتو أن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الانسان على اغفــال شئون نفسه وبث القنوط فى قلبه وتثبيط همته .

وقال أن « المسيحية » هى الوارثة لآثار الآريين ، وهى منقطعة الصلة بالمذاهب السامية وان كانت مشتقة منها . أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامى ، وذلك فهو ينزل بالانسان الى اسفل الدرك ويرفع الاله عنــه فى علاء لانهاية له .

واعتد قول كاتب آخر هو « كيمون » الذى يعتقد أن الاسلام جذام فشا بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ويقول « كيمون » بل هو مرض مريع . وشلل عام . وجنون ذهولى . يبعث الانسان على الخمـــود والكسل ويرى أن المسلمين وحوشا ضارية ويعتقد أن الواجب ابادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشــغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع ضريح « محمد » فى متحف اللوفر .

واشار الى أن الاسلام دين وسياسة وان شـــعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية والرابطة المدنية او الوطنية ، فالوطن عندهم فى الاسلام وهم يقولون أن السلطة مستمدة من الالوهية فلا يجوز أن يتولاها الا المسلمون .

وقال هانوتو : أن الاسلام عقبة فى سبيل العلم والحضارة .

رد محمد عبده

ورد محمد عبده على هانوتو متهما اياه بتحريك نيران العداوة فى الفرنسيين اثارتهم على حرب المسلمين . وقال ان أصل التمدن الآرى هو الهند وأن الاسلام هو الذى بعد أن صفاها وهذبها ، وذلك عن طريق الاندلس . وقال انه لا صلة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة، فالانجيل يأمر اتباعه بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها. ويقص عليهم ان دخول الجمل فى سم الخياط ايسر من دخول الغنى فى ملكوت السماوات . فهل تقوم المدنية الأوربية على هذا الأساس .

ثم قال أن الفينيقيين — وهم ساميــون — هم أساتذة العالم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية لا فرق بين آرى وسامى .

ودفع « محمد عبده » عن الاسلام تهمة الاتكال على القدر والجبرية وبين أن النبى وأصحابه جاهدا فى سبيل نشر الدعوة ولم يكتفوا بالتسليم للقدر فى اتمامها ، قائلين ان الذى كفل لهم النصر يكفيهم التعب . وأن الآريين الذين دخلوا فى الاســلام من فرس ورومان هم الذين افسدوا العقائد الاسلامية فادخلوا فيها ما ليس منها . وقال أن ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ، وأن نظرية التشبيه لم تظهر فى المسيحية الا بعد قرون من نشأتها . وقال أن من المسيحيين الآن من يعتقد أن المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر أما الاسلام فقد دعا الى التوحيد وبعقيدة التوحيد فتح المسلمون الدنيا وجالوا فى علوم السماوات والأرض فنبغوا فى مختلف العلوم ، وانما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها » ا.هـ .

* * *

ومما يذكر ان عصر التغريب بالذى امتد فى مصر خلال هذه الفترة (١٩٢٠ — ١٩٤٠) قد فرض ان يختار « هانوتو » هذا نفسه ليكتب تاريخ مصر فى مقابل ثمانية آلاف جنيه ، والعجيب أنه كتب تاريخا مشوها نقدته الصحف وعارضه الكتاب ، فقد زعم أن مصر لم تستقل فى حياتها الا فترات قصيرة جدا واجابت مجلة النهضة الفكرية (١٨ يناير ١٩٣٢) على ذلك : بأن مصر كانت امبراطورية كبيرة يوم كانت أوربا تتخذ من الكهوف والمغاور مساكن ومن جلود الحيوانات اطعمة . ولو لم يتصل اليونان بمصر لظلت فرنسا وانجلترا فى العصر الحجرى الى القرن العشرين . وتساءلت المجلة : هل كانت مصر مستعمرة فى عهد البطالسة أم كانت فرنسا مسكونة بصنف من البشر همجى متوحش .

* * *

(٣)

حمــلة كرومــر

على الإســـلام والعرب ومصر والشرق

ويمثل كرومر بحملاته المتوالية التى اوردها كتابيه مصر الحديثة والخديو عباس وتقاريره الســنوية صورة الحملة الجماعية على كل مقومات شخصيتنا ومعالمهـا وتراثنا ووحدتنا وثقافتنا وماضينا .

يقول : ان الاسلام نجح كعقيدة ودين . ولكنه فاشل كنظام اجتماعى فقـد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى . ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهـة المجتمع الانسانى . وأن الاسلام يحرم المراة من كل حقـــوقها ويعتبرها احط من الرجل وانه يبيح الرق . وانه دين متعصب متطرف يبيح لاتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة اسرى حرب ورقيقا . ويجعل من اتباعه جماعة من انصـــار الهمج المحبين للحروب والذين لا تتســـع صدورهم لأى تسامح فهم لا يفهمون أن الخدف فى الراى ليس موجبا للكراهية والحقد .

وقال ان الاسلام دين مناف للتجديد ولم يكن صالحا الا للزمن والمحيط الذين وجد فيهما . وان المسلمين لايمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد ان يتركوا دينهم ، وينبذوا القرآن واوامره ظهـــريا لأنه يأمرهم بالخمـــول والتعصب ويثبت كيهم روح البغض للاغيار والشقاق وحب الانتقام وان الاسلام على الجملة هـو العقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة الاسلامية .

وقال ان الشرقيين أسرع الناس الى تصـــديق الشائعات وهم يتملقون من فوقهم بنفس القـــدر الذين ينتظرون قـــه الملق ممن هم دونهم . وهم لا يكـــترثون للمستقبل ولا يتبصرون فى العواقب ولا يرون شيئا لمن يتركونهم من خلفهم وهم يدسون فى الخفاء ولا يعملون فى الضوء نتيجة للعصور المتوالية التى عاشوا فيهـــا من الاضطهاد وهم يؤمنون بالقضاء والقدر . ويدفعهم ايمانهم هذا الى الرضوخ لكل ذى سلطان .

وقال : ان المسلم غـــير المتخلق باخلاق اوربية لا يصلح لحكم مصر ، وان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية .

وفاصل كرومر بين الاســـلام والمسيحية وانتصر لديانته .

* * *

الرد على كرومر

وقـــد رد على كرومر : مصطفى العلايينى وفريد وجدى ومصطفى المنفلوطى ورشيد رشا ومصطفى كامل وغيرهم .

وجملة ردودهم ان كرومر انما قصـــد الى محاولة تشويه سمعة المسلمين والعرب والمصريين فى العالم الغربى انتقاما منهم . وان هدفه هو التشفى من السخط الذى واجهه وان حملته على الاسلام انما هم الرابطة التى تعد القوة الأولى فى مواجهة الاستعمار وان الاسلام لم يكن فى يوم من الأيام مناقضا للمدنية العصرية او حائلا دونها ، وهـــو لا يناقضها ولكنه لا يقبلها كلها ويرفض زيفها وانه اذا كانت المسيحية وقفت مانعا أمام المسيحى وبين المدنية بالحضارة فان الاسلام ليس مانعا .

وان الاسلام لم يعرف فى عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عند ما كان يضع القوانين التى لها قدسية الأوامر المنزلة .

وأن ادعاء الغرب بأنه فصـل حكومته عن الدين ليس الا أكذوبة ضخمة فان فرنسا ما تزال حاميـة الكاثوليكية وملكة انجلترا حامية البروتستانت .

وقد اضطر كرومر أمام الحملة العنيفة الى التراجع فأعلن انه كان يعنى مجموعة القوانين الاسلامية التى تسمى « الفقه » وانه لم يهاجم الدين الاسلامى نفسه .

* * *

المراجـع

الاسلام : رسالة هانوتو : ورد الشيخ عبده عليها
الاسلام والرد على منتقديه : محمد عبده
الاسلام روح المدنية : مصطفى العلاييني (الرد على كرومر) .
شبهات النصارى وحجج الاسلام : محمد رشيد رضـا .
الاسلام والنصرانية مـع العلم والمدنية : محمد عبده .

* * *

حمـــلات التعصب

وليست هذه الحملات التى عرضناها الا نموذجا لعديد من الحملات المتصلة القائمة على الهوى ، وقد قام بها كتاب وقسس وقضاة جنـــدهم الاستعمار فى خدمته للانتقاص من الأمة العربية ومقدراتها ، واتهامها بمختلف الاتهامات .

قال القاضى « مارشال » أن ما بين المســلمين والأقباط فى مصر كما بين المسلمين والهندوس وأثنى على مصطفى فهمى رئيس الوزراء الذى أبقــاه كرومر ثلاثة عشر عاما رئيسا للحكومة وقال : ان مصـــطفى فهمى بكل تأكيد ليس مصريا وقال ان دم سعد زغلول ربما كان مزيجا من الدم الأوربى . وقال ان المصرى يمقت كل دين غير الاسلام ولا يعطف الا على الطغاة الذين يعاملونه بحزم .

وقال مسيو لوى برتران فى كتابه « بازاء الاسلام » أن الأوربى النازل الى مصر لم يبق موضع التقــديس والمهابة ، وان المصريين يعطفون على الأمير عبد الكريم الخطابى ويجمعون له الأموال وعبد الكريم ومن معه ليسوا الا ثائرين على فرنسا . وان مساجد المســلمين تشعر أن أهل البلاد يعيشون فى طمأنينة لا يخشــون اغارة مغير ولا عدوان معتد ، بينما كنائس النصارى فى صورة القلاع تدل على أنها عرضة لغارة هؤلاء الهمج عليهم .

وقد رد عليه الدكتور هيكل فى السياسة الأسبوعية (١٩٢٦/٣/٢٠) مقال : ان مســـيو برتران يريد أن يعلن أن قومه اكرم عنصرا واشرف مقاما فى الانسانية من الشرقيين ومن المسلمين ، فليعلم أن الزمن الذى اتاح لأوربا أن تحكم العالم ردحا من الزمن قد اتاح مثل ذلك من قبل لأمم آسيا ولأمم افريقيا ، ومصر قد حكمت العالم عصورا عديدة وقد صبغت العالم بمدنيتها ولعل أهلها يومئذ كانوا يعتقدون ان الأجناس التى تقطن أوربا كلها همج وبرابرة ومتوحشون .

وهناك كتاب «فوليتر» عن النبى محمد الذى رفعه الى البابا وكتب فى مقدمته يقول « فلتأذن قداستك فى ان أضع الكتاب ومؤلفه تحت قدميك . ولتستغفر قداستك لعبد خاضع من اشد الناس اعجابا بالفضيلة ، اذ تجرا فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسسى ديانة بربرية كاذبة . .

ومن هذه الحملات حملة الكردينال لا فيجرى على الرقيق (يوليو ١٨٨١) والتى ادعى فيها بأن سوء معاملة الرقيق أمر يبيحه الاسلام ومن مغالطاته قوله : ان الرق قد الغى منذ عشر سنين فى معظم البلاد الاسلامية بتقيدا للمعاهدات التى عقدت بينها وبين انجاترا .

وقد تصدى للرد عليه المؤرخ احمد شفيق ١٨٩٠ بمؤلف بالفرنسية عن الرق فى الاسلام قال فيه أن الدين الاسلامى لا يبيح فى أى حال من الأحوال معاملة احد من الناس معاملة الرق اذا كان ابواه مســلمين حربين ، ولا يكون الاسترقاق الا فى الحرب ، ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة ، وأن الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين .

وقد تحدث اللورد لويد فى كتابه « مصر منذ عهد اللورد كرومر » الذى أصدره عام ١٩٢٩ عن البـــلاد العربية فقال انها لا تزال كل قرية فيها حتى اليوم تمثل الحوادث والتقاليد والعادات التى ســمعنا بها فى أيام الطفولة . والنساء يطحن الحبوب بالرحى اليـــدوية والثيران تدرس الحصاد حــول الجرن ، ومن دواعى الأسف ان الذباب لا يزال يحوم على الصيدلية ويجعل ما نصنعه من العقاقير ذا رائحة كريهة .

وقال : انه لا يظن احدا فى راسه عقل يصدق ان بريطانيا ستمنح الهند حكما ديمقراطيا بمعنى الكلمـــة أو استقلالا تاما ، وتساءل عن فائدة الاســـتقلال فى مصر وفلسطين والهند للجماهير .

وقال : لقد رفعنا الحماية عن مصر وصرحنا باستقلالها بموجب الصيحة التى كانت ذائعة يومئذ وناديناً فى الوقت نفسه بقداسة المصالح البريطانية .

وطعن القس « جوين وكدويدن » على مصر والاسلام وقال أن العلاقات بين حكومة المبشرين والاسلام على ما يرام ، وقال ان تأسيس مركز قوى للتبشير فى السودان يحول دون انتشار النفوذ الاسلامى فى الشمال .

كما هاجم الكاهن (لاكى) الاسلام فى صحف بريطانيا وهاجم نظام الزواج الاسلامى كما هاجم الأزهر والقرآن وقد رد عليه الكاتب المصرى المسيحى « قرياقص ميخائيل » فقال : ان ما نشره القس من معلومات خاطئة من أساسها وغير صحيحة . فهو اما أن حرف ما يتحدث عنه واما أنه بالغ فى رواياته ، فان الدين الاسلامى لا يسمح لأحد بأن يتزوج أكثر من أربع نسوة فكيف جعلهن لاكى ستا ، فضلا عن أن تعدد الزوجات ليس مألوفا الا فى جزء من المجتمع لا يقيم وزنا للخلق الكريم وفى وسعى أن أؤكد بأن يقولون صادقين أن تعدد الزوجات لا يسمح به الا فى أحوال المسلمين استثنائية .

وقال قرياقص ميخائيل : ان الاسلام دين عظيم متمدن سمح بتعدد الزوجات تحت شروط معينة ، وان منزلة المرأة فى مصر تزداد قوة واحتراما ، وان الكاهن مخطىء فيما ذكره عن الأزهر الشريف مركز الثقافة الاسلامية فى العالم وليس صحيحا ان القران الكريم هو المادة الوحيدة التى يدرسونها فى هذه الجامعة بل يعكفون فى الأزهر على التضلع فى اللغة العربية والفقه ويتعلمون الحساب والتاريخ والطبيعة .

* * *

وقد لقيت هذه الحملات نقدا شديدا من الصحافة العربية وردودا مدعمة بالوثائق والأدلة من كتاب العالم العربى فى هذه الفترة ، ولم تنقطع هذه الحملات بل استمرت وتوالت ، حتى لقد ذكر الدكتور عمر فروخ فى كتابه « التبشير والاستعمار » ان هذه الكتب بلغت عشرات الألوف ، ومما لا شك فيه أن معظم هذه الكتب كانت حملات حاقدة طائشة وأن البقية القليلة منها لم تقم على أساس مذهب البحث العلمى الذى ابتدعه الغرب وباهى به وانما غاب عليها هدف واضح محدد هو « التغريب » وخدمة الاستعمار ومحاولة الانتقاص من هذا الكيان العربى وتمزيقه وتحطيمه .

ولا يمنع هذا الحكم الذى يعم الكثرة الغالبة من استثناء قلة قليلة من الكتاب حاولت ان تنتصف للعرب وأن تذكر الحقيقة ولقد كان للفكر العربى الاسلامى دوره الواضح فى هذه المرحلة ، وعمله الايجابى الضخم ازاء هذه الحملات فقد واجهها فى حكمة ومرونة وقدرة على ضبط النفس وبعد عن أساليب الهجاء أو الحقد .

وقد بلغ تجنى كتاب الغرب حدا جعل من المؤمنين بالغرب وكتاباته يهاجم تخبط كتاب الغرب فى فهم بلاد لبنان هو فؤاد افرام البستانى (مجلة المشرق مجلد ٧ ص ٩٣١) حيث يقول : أن الصحفى ربما يأتى ليراسل احدى الصحف الغربية فيتصل ببعض الفتيات الراقصات فتريه ما يشاء عن بلاد الشرق وتخبره بما يجول فى مخيلتها من سيطرتها على بعض رجال الحكومة البارزين فيؤخذ الصحفى بكل هذا ويكتب أن حكومة البلد الفلانى تحكمها الراقصات ولذلك أصبحنا نقف موقف الريبة والشك ازاء كل كتاب جديد عن بلادنا » . .

* * *

ولم يقف أمر الغربيين عن مهاجمة الأمة العربية بالكتب والصحف بل امتدت الى الاذاعات والسينمائيات . فطالما عرضت دور السينما فى مختلف عواصم أوربا أفلاما تمثل المصريين والعرب « فى هيئة مزرية قذرة متوحشة وكتبت تحت عبارات تقول أن « الاسلام هو السبب فى جذب هذه الأمم الى الوراء وأن تعاليمه التى قذفت بهم فى احضان الهمجية والتوحش وشعائره هى التى امرتهم بالكسل والخمول وحالت بينهم وبين الأخذ بأسباب المدنية الحاضرة » وذلك كما صورته عبارة الأمير شكيب ارسلان (مارس ١٩٣٢) فيما صور من المطاعن التى يوجهها الغربيون وقال « ان نظرة الى القرآن وتاريخ النبى كفيلة بأن تظهر عملا أن ناشرى هذه الآراء السخيفة عن الاسلام من المنغمسين فى بحار الجهالة بهذا الدين » وقال أن هذه ليست الحملة الأولى من نوعها فان كثيرا من مشاهير الكتاب والمفكرين أمثال توربان وباسكال وجيترار وجانبيه ورنيان والدوق داركور وهانوتو وكازانوفا تناولوا الاسلام على هذا النحو وقد علقت جريدة الأهرام ١٩٣٢/١/٢٩ على مثل هذا العمل عن فيلم عرض فى لندن وصف بأنه يتضمن وقاحة غريبة وقالت نقلا عن الديلى تلغراف : ان اكبر عدو لمصر هى السينما الأوربية فان رجالها يبحثون فى مصر عن أخطر الأمور حتى يصوروا الأمة المصرية على أنها أمة همجية متوحشة ليس لها من التقاليد ما يضعها فى صف الأمم الراقية . وقالت الاهرام ان أى أمة لا تخلو

من الطبقات الدنيا وان فى اشد بلاد العالم مدنية مناظر تفوق ما فى مصر من مناظر فى هذه الناحية » .

ولقـــد ظل كتاب الغرب يتحاملون على تاريخنا ويصورون الفتوحات العربية والاسلامية فى أوربا بأنها غزوات بربرية وحمــلات ناهبة مخربة ولطالما هاجموا هــذا الفضل وجحدوا العرب الذين حملوا اليها ضـــياء الحضارة وانكروا هذه الحقيقة التاريخية .

ويتصل بهذا ما قامت به الصهيونية بما لها من سيطرة على دوائر النشر والاعلان فى أوربا وآســـيا وافريقيا من تزييف تاريخ العرب لمصلحة قيام وطن قومى فى فلسطين ومنع نشر حقـــائق الانصاف عن العرب والاسلام . وقد نشرت خلال هذه الفترة التى تؤرخها مؤلفات ومراجع ودوائر معارف بمختلف لغات العالم كتبها اليهود وعملائهم من المؤرخين والباحثين اغفلت اثر العرب وفضلهم على التاريخ والحضارة مع اقحام اسماء اليهود بغير مناسبة .

* * *

النظرية اليونانيـــة

وإنكار فضـــل العرب على حضــارة الغرب

من أهم الدعوات التى أثارها الغرب فى ســبيل الغزو الثقافى والتغريب : النظرية اليونانية ، مستهدفا تحطيم مكانة الثقافة العربية . وغاية النظرية : انكار اثر العرب على الفلسفة اليونانية وتجاهل فضـــل مصر والشرق على حضارة اليونان ـ ثم يستطرد هذا الى محاولة فرض فضل للثقافة اليونانية على الثقافة العربية

فقد انكروا أن أعلام اليونان سافروا الى الشرق لارتشاف علومه ، وقالوا ان الفلسفة العربية ليست شيئا آخر الا الفلسفة العربية دونت بحروف عربية .

وقد اشار المستشرق جويدى فى محاضراته التى القاها فى مصر عام ١٩٢٨ فقال : ان سفر اعلام اليونان الى الشرق للاستفادة من علومه قول منتحل ، وان مصر وسائر بلاد الشرق لم يكن لها فضل على العلوم والآداب والثقافات التى تنسب الى اليونان .

وقد ذهب طه حسين فى بحثه الذى صدر به كتاب (نقد الشعر) لقدامة الى أن قواعد البلاغة العربية انما اسست على وضع ارسطو ونقله العرب عن اليونانية وشايعه كثيرون .

وقال طه حسين : أن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان . وقال أن عقلية مصر عقلية يونانية ، وانه لم يكن للشرق فى تكـــوين الفلسفة اليونانية والعقل اليونانى والسياسة اليونانية تأثيرا يذكر وانما كان تأثير الشرق فى اليونان تأثيرا عمليا ماديا ليس غير .

وقد جرت بشأن هذه النظرية مجادلات شتى وكانت احدى الدعوات التى قصد بها القضاء على مكانة الفكر العربى القديم او التقليل من شأنه والواقع الذى روته كتب التاريخ وابحاث العلماء المنصفين فيه اجماع على أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية ، وان فلاسفة اليونان تلامذة فلاسفة مصر القدماء . واليونانيون يعترفون بأنهم تلاميذ المصريين ، وكانت زيارة مصرواجبة على كل يونانى يريد التفقه فى اسرار الوجود . (زكى مبارك : الرسالة ١٩٤٣/١١/١٥) .

ولقد بلغ من عنف دعوة التغريب أن فرض هذا القول الخاطىء على الكتب المقررة للتدريس فى المدارس فى مصر ، ليؤمن الطلاب بالادعاء الكاذب الذى يقول بأن العقل الشرقى قد انهزم أمام العقل اليونانى مرات .

والواقع أن ارسطو وزملائه اخذوا من الفلسفة المصرية القديمة وانه سجل الفضل للعقلية الشرقية فى مقدمة كتابه (ما بعد الطبيعة) اما ما ذكر من أن العرب لم يزيدوا فى فلسفة اليونان عندما ترجموها فالرد عليه يظهر لكل منصف فيما أضاف العرب الى علوم اليونان ، وأول فضل العرب على فلسفة اليونان هى النزعـــة الديمقراطية التى أنزلت الفلسفة من السماء الى الأرض ويسرت لكل انسان أن يفكر فيها وازراى مجمع على أن العرب اضافوا الى الفلســفة اليونانية كثــيرا ، وابرز ما اضافوه ما ابتكره (ابو النصر الفارابى) من وضع أصول علم الموسيقى ووضع التعاليم الصوتية . كما أن العرب سنوا سنة الجمع بين الحكمة والعلم ، ولم يكن ذلك معروفا لليونان ، والمعروف أن العرب عندما تمثلوا فلسفة اليونان أضافوا اليها عنصرا جديدا وهو الدين ، أما الرد على ما يقال من أن العرب نقلوا فلسفة اليونان وعلومهم ، ولم ينقلوا آدابهم ، فان آثار اليونان الأدبية التى لم يتقبلها العرب فقد كانت من الأدب المكشوف الذى يثير الشهوات وهى الدعامة التى قام عليها الأدب الأوربى الحديث .

وقد سجل ذلك الشيخ رشيد رضا (المنار ج ٥ م ٢٧ ص ٣٩٧) موقف العرب من الشعر اليونانى على اثر ما اثير من أن العرب نبذوه ولم يترجموه أن يقتبسوا

من معانيه ، قال : قد كنا نجهله قبل أن يترجم لنا سلمان البستانى (الالياذة) نظما ، وكنا نبيح لانفسنا الحكم عليه ، فلما أطلعنا على (الالياذة) وهى أعلى شعر الاغريق ومفخرتهم التاريخية حكما بأن اجدادنا لم ينبذوا شعرهم وراء ظهورهم ، الا لانهم وجدوه دون الشعر العربى فى حكمة وسائر معانيه وأنه على ذلك محشو بالخرافات الوثنية التى طهر الله عقولهم ومخيلاتهم منها بالاسلام .

***

ومما يتصل بالنظرية اليونانية المحاولات الفكرية التى جرت فى انكار فضل العرب على الثقافة العربية والعمل على التشكيك فى مساهمة العرب فى الحضارة ورد كل فضل الى اليونان ثم الادعاء بأن العرب كانوا نقلة ومترجمين فى الوقت الذى سجل لهم التاريخ الفضل فى الاضافة والانماء للثقافة والعلوم التى ترجموها عن اليونانية .

وقد كانت اسبانيا العربية (الاندلس) بعيدة الأثر فى ثقافة أوربا وحضارتها : سواء فى الادب أو الموسيقى أو الفن أو العمارة .

وقد سجل أكثر من باحث ومؤرخ وفى مقدمتهم المستشرق الأسبانى الأب اسين بلاسيوس الذى قال : ان شعراء (التروبادور) قد تأثروا بالشعر الاندلسى وان قصص (سرفانتس) انما تصور فى الحقيقة شهامة ونجدة الفارس العربى .

كما أشار غيره الى اثر (ابن رشد) هذا الاثر الذى بقى فى ايطاليا حتى القرن السادس عشر بعد أن نقلت مؤلفاته الى اللاتينية ، وقامت له مدرسة من الفلاسفة الأوربيين ، كما نقلت آثار الطب وفى مقدمتها كتاب ابو القاسم الزهراوى فى الجراحة الذى ظل يدرس فى جامعات أوربا واكسفورد بالذات حتى عام ١٧٧٨ ، كما خرجت جامعات طليطلة وقرطبة عددا من الباحثين الأوربيين الذين سجلوا أن قرطبة كان بها ٧٠ دارا للكتب و ٩٠٠ حمام بينما كانت أوربا تعيش فى ظلمات القرون الوسطى ، هذه القرون الوسطى الذى يطلقها الغرب على أزهر فترات الحضارة الاسلامية تعنتا منه وتعصبا فانما كانت القرون الوسطى ثقافة واجتماعا ، بربرية وظلاما على الغرب وحده .

***

أما فى الاندلس العربية والشرق العربى كله فقد كانت تمر بأزهر فترات اليقظة والنهضة وأنضر صفحات الحضارة والمدنية .

ولقد انهزمت هذه النظريات بأقلام كتاب من الغرب نفسه ، ومن المستغربين الذين استفاق ضميرهم الى الحق كزكى مبارك وهيكل ومنصور فهمى .

***

حمـــلات التغريب والغزو الثقـــافى

ليس شك ان حركة « تغريب الشرق » هى دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ولهـــا قادتها الذين يقومون بالاشراف عليها .

وهى حلقد من مخطط واسع فى تأكيد الاســـتعمار ودعمه ، وعمل استعمارى فكرى بعيد المدى قصد به الى القضاء على معالم الشخصية العربية وتحويل هذه الأمة الى الصورة الغربية ومسخ ملامحها .

ويدعو « التغريب » الى تغليب الأنظمة والمذاهب والثقافات الغربية والقضاء على القيم والتراث العربى والمذاهب والثقافات الاسلامية .

وقـــد اصطنع التغريب لتحقيق رسالته وسائل متعـــددة ، كان برزها اعمـــال الاستشراق والتبشير والامتيازات وفرض المعاهـــدات على الأقطار المحتلة والزامها باتخاذ انظمة الحكم الغربى وفرض الارساليات والمعاهد والجماعات باتجاهاتها التبشيرية .

واستهدف الاستعمار من وراء حملة « التغريب » تركيز قواعده التى اقامها بالاغتصاب والتسلط والغـــزو العسكرى ، وذلك محاولة تغيـــير مفاهيم الوطن العربى ومحاولة كسب عقليات الشعوب وتفكيرها وعواطفها الى صفة والفصل بينها وبين ماضيها وقيمها ، ومحـــاولة تحطيم هذه القيم والتشكيك فيها واثارة الشبهات حـــول الدين واللغة والتاريخ ومعالم الفكر ومفـــاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

وقد بدأ الغزو الثقافى قبل الغزو العسكرى ومعه ، وتسللت جيوشه فى أزياء العلماء والمبشرين الذين يدرسون عقليات الشعوب ونفسياتها ويقرأون تاريخها السياسى والفكرى ، وبدأت مؤسسات أمريكية وفرنسية وبريطانية تعمل فى هذا المجال باسم : المدارس والصحافة والثقافة والتربية والتعليم والسينما وفى ميادين أخرى كالتطبيب .

ولقد كان لتعدد هذه الألوان من الثقافات أثرها فى بلبلة الفكر العربى الاسلامى واضـــطرابه وتخريج أنواع متعددة تدين كل طائفة منها بالولاء للجهة التى خرجتها .

وقد « كان هـــذا التعليم — كما صـــوره جبران خليل جبران — يأتى من الغرب بشكل الصدقة . وكنا ولم نزل ناتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون . ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا . احيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلا . وأماتنا لانه فرق كلمتنا واضعف وحدتنا وقطع روابطنا وابعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفـــة الأذواق متضاربة المشارب . كل مستعمرة منها تشد فى حبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد أمريكى . والشاب الذى تجرع رشفة من العلم يسوعية صار سفيرا فرنسيا والشاب الذى لبس قميصا من نسج مدرسة روســـية أصبح ممثلا للروسيا » .

أضف الى هذا الأثر للغزو الثقـــافى ما قاله لورد كرومر من « أن الشبان الذين يتلقون علومهم فى انجلترا وأوربا يفقـــدون صلتهم الثقافيـــة والروحية بوطنهم ولايستطيعون الانتماء فى نفس الوقت الى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون الى مخلوقات شاذة ممزقة نفسيا » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الارساليات المختلفة التى غزت بلادنا والبعثـــات المرسلة الى التعـــلم فى أوربا .

وهكذا كان « التغريب » عملا منظما دقيقا قوامه الحرب المنظمـــة للقيم الذى عاشـــت عليهـــا الأمة والحيلولة دون وصول أضواء الثقافة والعلم الغربى الينا

والاكتفاء بنشر غمامة كثيفة من الغموض والتشكيك والآراء المتناقضة وذلك في محاولة ضخمة لاعطائنا الصورة المظهرية دون الصورة الحقيقية للثقافة فقد قاوم الاستعمار التعليم الشامل لوجه الثقافة ووقف في وجه انشاء الجامعة المصرية .

وحاول أن يجعل هدف التعليم قاصرا على اخراج موظفين وليس لتخريج علماء وباحثين .

كما قدم في ميدان الحضارة أسوأ ثمراتها في تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وهي الأجهزة التي تمكن الغرب بها من القضاء على مقومات شخصيتنا والاستيلاء على أموالنا .

ولقد ظهر واضحا اثر هذا « التغريب » في الأقطار التي تحررت من بعد وكسبت الاستقلال ، فقد ظلت خطط التغريب قائمة في كل ميادين الفكر والصحافة في خلق طبقة من المفكرين ورجال الدولة الذين انصهروا في بوتقة التغريب فآمنوا بهذا الاتجاه ودافعوا عنه ، وكان ذلك باسم التمدين وباسم العهد التي قطعته الاتفاقيات والمعاهدات بأن نسير سيرة الأوربيين في انظمة الحكم والتعليم والثقافة وقد اتخذ « الغزو الثقافي » في سبيل فرض » التغريب « وسائل متعددة ، فالكتب التي تترجم هي كتب معينة تعين على حماية الاستعمار ودعم مركزه وتصورنا بصورة القصور والتخلف . وتصور أوربا والغرب بصور الأمم العظيمة ذات القوى الجبارة وقد كانت هذه الكتب دائما من النوع الهدام الذي يهدف الى الفتك بالدين والأخلاق وتحطيم كيان المجتمع وتحويل نظره عن الحرية واجهاد في سبيل الاستقلال والجلاء ومحاولة قتل الشخصية العربية ومقوماتها وتدمير تفكيرها وتسميم ينابيع الثقافة فيها وعن طرقه ارتفعت أصوات الدعوة الى اذابة الأمة الاسلامية في الحضارة اذابة كاملة باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد الى النهضة والحرية . وجرت الادعاءات الغربية التي تنفي أن العرب أمة وتحاول ان تجعل من دول البحر الأبيض المتوسط جامعة ورابطة .

ولقد ركز الغزو الثقافي أعماله كلها على مهاجمة «الاسلام» كدين ونظام مجتمع واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب ورأى «جب» ان « حركة التغريب كانت بعيدة المدى بانزال الاسلام من عرشه في الحياة الاجتماعية» وقد أعلن الكثيرون من دعاة التغريب اننا لسنا شرقيين اطلاقا واننا أوربيون في الدم والمزاج والثقافة واللغة ، وادعى هؤلاء اننا سكان العالم العربي من بغداد شرقا الى طنجة غربا نشترك وأوربا في ميراث واحد هو ميراث الدولة الرومانية .

وكان من نتائج هذا كله ان اضيف الى الفكر العربي الاسلامي « ترقيعات » متعددة من الثقافات الفرنسية والانجليزية والأمريكية ، وهي البطاقات التي فرضت نفسها في المنطقة .

* * *

النقل والاقتباس

كان لحركة « التغريب » اثر واضح في الفكر العربي الاسلامي المعاصر والحياة الاجتماعية في العالم العربي فقد كانت مصدر كل الانحرافات والاضطرابات التي اصابت الشخصية العربية الاسلامية وانحرفت بها فترة من الزمن عن طريقها الطبيعي ، وليس من شك ان الثقافة والحضارة الغربيتين كان لهما نتائج ايجابية ونتائج سلبية .

ولو قد استقبلت الأمة العربية هذه الحضارة وهذه الثقافة دون أن ترتبطا بحملات الاستعمار والغزو الثقافي والتغريب لأمكن لها أن تنقل منها ما تراه صالحا لها ، كما فعلت من قبل في ابان النهضة الفكرية الأولى خلال العصر العباسي الأول .

غير أن الأمر لم يكن باختيارها فقد فرضت الحضارة الغربية فرضا وفرضت معها الثقافة الغربية بما فيها من تيارات ومذاهب ونظريات في الاجتماع والدين والسياسة واساليب في الحكم والتشريع والتعليم والصحافة .

ولذلك فقد كانت القضية الأولى في الفكر العربي الاسلامي المعاصر هي :

النقل أم الاقتباس ؟

وكانت هناك تجربة كاملة من تجارب النقل هي تجربة تركيا ، فقد تحولت من الشرق الى الغرب ، ومن اللون الاسلامي الى العلمانية اللادينية في الثقافة والحكم والتعليم .

وقد قام تياران واضحان : أحدهما يدعو الى النقل الكامل والثاني يدعو الى الاقتباس ، **وكان تيار « النقل الكامل » الذي دعا اليه سلامة موسى ومحمود عزمي**

وطه حسين جريا وراء دعوة « جاك الب » التركي وهم جميعا من تلاميذ **(دوركايم) العالم الاجتماعي الاسرائيلي** الذي نقل آراء كارل ماركس من ميـــــدان الاقتصاد والسياسة الى ميدان **الأخلاق والاجتماع . والذي يؤمن بأن الفرد لا قيمة له وانما القيمـــة للمجتمع** . وأن القيم **كلها كالاخلاق والأديان والعقائد والآداب انما يخلقهـــا المجتمع ولذلك فهي ليست ذات قيمة او أهمية حقيقية .**

وقد كان **طه حسين** تابعا لأحمد غايف التركي في **القول : بأن المدنية الاوربية كل لا يتجزأ** ، اما ان يؤخذ كله او يترك كله وهو قول مردود وكان الطرف الثاني يقول : أن التجديد في الأدب والثقافة كالتجديد في العلم لا يمكن أن يقوم الا على أساس تعاون الماضي والحاضر ، وأن الفكر يبنى في حاضره على ما اسس في ماضيه .

ولم يكن لدى العالم الاسلامي مانعا من قبل الحضارة باعتبارها نتاجا بشريا اشترك فيه الجنس الانساني كله وقد حمل العرب امانتها فترة تزيد على أربعة قرون .

أما الذين قالوا بالتوقف دون الاقتباس فلم يكونوا على فهم صحيح بحقيقة الاسلام وقدرته على تقبـــل التطور وحقيقة مفاهيم الفكر العربي ، ذلك أن القاعدة في ذلك هي اننا لانتقبل **كل شيء ، ولا الاسلام يتحول الى صور ممسوخة من الأمم الأخرى ، وان علينا أن نضع امام انفســنا أولا المحافظة على ملامحنا الحقيقية ومعـــالم شخصيتنا الواضحة والايمان الصـــادق بتراثنا وقوميتنا وتاريخنا ولغتنا ومشخصات فكرنا ثم نقتبس ما يزيد هذه الشخصيـــة قوة وحياة ويدفعنا الى الامام في طـــريق الحضارة جنبا الى جنب غير متخلفين في ركب الأمم .**

وقد كان هذا المبدأ « البناء على الاساس » هو حصاد المعركة الفكرية الطويلة الممتدة خلال اكثر من مائة عام .

فالمزج بين القديم والجديد والمـــــاضي والحاضر والشرق والغرب انما يقوم على وجود شخصيتنا أولا والمحافظة على ملامح فكرنا العربي الاسلامي الواضح حيث لا يجوز أن يطمس ملامحه الاقتباس .

وقد كنا طوال تاريخنـــا (١) متحركين غير جامدين ولا متوقفين (٢) اصلاء اكبر من الاحداث وغير أمعات تجرى مع التيار (٣) لدينا من المرونة والحيوية ما يمكننا من التكيف مع الظروف والمقـــاومة الدائمة لكل محـــاولة للطغيان علينا او سحقنا ومن القدرة ما يمكننا من مواجهة التحدي برد الفعل السريع الذي يرقى فوق الاحـــداث ولا يجعلنا نضيع في زحمتها .

وقد كان « **الاقتباس » في معناه مزيج من « المعالم** الاساسية » التراث الجديد ومن هذا **كله يتكون شيئا** جديدا هو شخصيتنا الفكرية العربية الاسلامية المتجددة .

وكان هذا التيار « **الوسط** » **أصدق التيارات التي** حققت ما أراده دعاة الثقافة القديمـــة من بعث التراث وتجديده **بأساليب** جديدة وحقق خـــــير ما اراده دعاة التغريب الذين يريدون منا التحول نهائيا الى الصـــورة الغربية .

وكان مفهوم الاقتباس ، أن معنى نقل الحضارة ليس في **مستوى** مفهوم نقل **الثقافة . وأن نقل الحضارة** ليس معناه نقل كل الحضارة فهناك فوارق واضحة بين الثقافة والحضارة .

* * *

غير أن « التغريب » لم يكن يهدف الا الى النقـــل الكامل للقضـــــاء على شخصيتنا وكياننا ، ولذلك كان يضغط علينـــا ليحولنا من الاقتباس الى النقل عن طريق دعاته وعملائه .

وقد حدث انحراف فعلا ولكن اثاره لم تمتد طويلا ، فان بعض دعاة التغريب **انفسهم** قد تحولوا عن دعواهم تحول منصور فهمي والدكتور هيكل ومحمود عزمي .

وهكذا سار تيـــار النقل وتيار الاقتباس **جنبا الى** جنب ، كان الاقتباس يعني الاعتدال وكان **النقل يعني** الاندفاع وقد كان لمادية الفكر الغربي وتحلل الجوانب المنقولة من الحضـــارة الغربية أثرها في موجة الانحراف التي أصابت الأمة الاسلامية .

ذلك أن أول آثار الثقافة للغربية والحضارة الغربية كانت القضاء على مقومات حياتنا **الفكرية** وهي مقومات روحية مقتبسة من الدين والخلق فظهرت ملامح الذاتية الفردية واسرا فالطبقة الوسطى في تقليد الطبقة **العليا** المترفة التي صنعها الاستعمار له ، وتفشي الوصولية والزلفى والتبذل واستشراء روح الخنوثة والميوعة ،

حيث سرت روحها الى الصحافة والاغانى والكتابة والمسرح .

وبلغ الاهتمام غايته بالالفاظ ، واستولى روح من اليأس ، صاحبه روح من الاستهانة والسخرية بامجادنا وتراثنا واعلامنا وتاريخنا ولغتنا وديننا ، وبدأ الوجود العربى تحت ضغط صراع الثقافات المتعددة من امريكية وفرنسية وبريطانية ، وثنائية التعليم الغربى والقديم ، مزيجا غريبا مضطربا من القديم والجديد ، دون أن يتبلور ذلك فى حضارة جديدة أو ثقافة جديدة، وحرص الاستعمار على ان تظل هذه الجماعات المختلفة والآراء المختلفة ، والدعوات المختلفة ما بين اسلامية وعربية وبابلية واشرية وبربرية قائمة حتى لا يتم « الامتزاج والتباور » بين اجزاء البلاد العربية التى انفصلت فعلا بحواجز وحدود وقامت فيها حكومات وعروش ونظم مختلفة مابين ملكية وجمهورية وامارات وما بين حماية ووصاية وانتداب واستقلال واحتلال .

وبذلك امكن للتغريب ان يسيطر وان يحول الحياة الاجتماعية فى الأمة العربية تحت ضغط « النزعةالمادية» الى الاندفاع وراء اللذات والمتاع المادى مما ادى الى افلاس عدد كبير من التجار وسقوط عدد كبير من اعيان البلاد وهو ما أطلق عليه فريد وجدى « المبالغة فى المتاع بالحياة المادية » مما أدى الى استيلاء الاجانب اصحاب البنوك والأندية على هذه الثروات تحت تأثير التهالكعلى الشهوات على نحو خطير لم يعرف من قبل .

وقد كان حرص الغرب على نقل هذا الجانب الآثم من حضارته الى بلادنا خطير الأثر فى عملية التغريب والقضاء على كياننا ، وكان اخطر ما فيه من اثر هو القضاء على الكيان الاجتماعى والاقتصادى والنفسى لنا، مما يجعلنا عاجزين عن الجهاد والنضال فى سبيل مقاومة الاستعمار ، وما يؤدى الى سحق قوانا وهدم معالم روحنا المعنوية وتطرق الفساد الى النفوس والوصولالى درجة التحلل التى تقضى قضاءا نهائيا على كياننا .

ولذلك كان كتاب الغرب يحرصون على تسجيل هذا المعنى فى دراساتهم ومشاهداتهم : يقول روث فرانسيس فى كتابه الشرق الناهض « لقد اصبحت البضائع التى تغمر الأسواق الشرقية هى الجوارب الحريرية والأثاث والمفروشات وثياب السهرة المكشوفة والأحذية العالية الكعوب . والسيارات والمشروبات الكحولية والمياه المشبعة بالصودا والكتب الافرنجية .

وقد حرص التغريب ان يربط بين التجديد وبين الاباحة وان يجعل التجديد هدما دون بناء وان يكون التجديد فى اعم قممانيه هو ترويج البضائع الاجنبية وازدراء المصنوعات الوطنية وهدمها وجعل كل قديم مزدرى .

وكان اضغط التغريب اثره فى ان العربى كان يعرف عن شكسبير وبرناردشو وكبلنج اكثر مما يعرف عن المتنبى والجاحظ وابن الرومى .

وكانت غزوات المفكرين الغربيين لبلادنا انما تهدف للبحث عن صور مسمومة يراد بها الاساءة ، والقاء محاضرات ترمى فيها بالاتهامات حتى ان احدهم كان لا يتورع عن أن يحاضرنا فى الجمعية الجغرافية عن عقليتنا باسم (عقلية الشعوب المنحطة) أمثال الدكتور ليفى برول ويفسر هذه الشعوب بأنها شعبنا .

والجمعيات الثقافية التى انشئت فى بلادنا كان هدفها ربطنا بالغرب ، من هذه جمعيات التاريخ المصرى ونادى القلم وجماعة اكسفورد والمجمع الجغرافى والاتحاد المصرى الانجليزى الذى كان يتولى رئاسته اللور ملنر وبرنامجها كما ذكرت الصحف هو « افهام الرأى العام الانجليزى الخدمات التى ادتها الحكومة المصرية الحكومة البريطانية والحلفاء فى خلال الحرب » كما كان هدف هذه الجمعيات خلق صداقات بين المصريين والفرنسيين من ناحية وبرنهم وبين الانجليز من ناحية أخرى تولى رئاستها اجانب ثم مصريين متغربين .

حتى الجمعية المصرية التى انشئت ١٨٣٦ باللغة الانجلزية كان هدفها كما ذكر توفيق اسكاروس (الأهرام ١٩٢٥/١/١٣) جمع معلومات خاصة بمصر وما لها من العلاقات بينها وبين بلدان افريقيا وآسيا وان أعضائها كانوا من الأجانب واغلبهم الانجليز ، وقد استعملت طبعا هذه المعلومات والابحاثلخدمة الاستعمار البريطانى ومهدت لوضع يده على بلادنا وقد عزا الدكتور محمد حسنى ولاية (الاهرام ١٩٣٤/١/٣) جمود روح البحث العلمى فى مصر الى وقوعها تحت نير الحكم الاجنبى عصورا طويلة وما يتبع ذلك من التضييق على ميادين الاقتصاد والعلم والزراعة .

ولا شك ان حركة التغريب كانت تستهدف ان تظل معرفتنا بتاريخنا ناقصة ، مما كان له ابعد الأثر فى ضعف الوطنية والقومية . ولذلك دعا عباس مصطفى عمار

(الاهرام ١٩٣٤/٤/١) الذين يعالجون ضعف الوطنية عندنا ويثيرون الشعور القومى ان يتاكدوا ان الاهتمام بشئوننا السياسية وحدها لا يكفى ، وأن تقوية العقيدة الوطنية انما يكون بقدر فهمنا لهذا الوطن الذى نعيش فيه من حيث جغرافيته وتاريخيه ومدنيته وحضارته كما ادى التغريب الى فقدان « الطابع » وانعدام التجانس الفكرى وأن الاستعمار الفكرى حرص على أن لا يصهر فى بوتقة واحدة حتى لا يحدث « التجمع » الذى هو اخطر عوامل مقاومة الاستعمار ولذلك كان يعول كثيرا على اثارة عناصر التفكك والتمزيق والتجزئة مما يحول دون خلاه طابع واضح .

وقد كان أبرز عوامل فقد الطابع كما اوردها عباس عمار (الاهرام ١٩٢٥/٩/٣) هى : احتقار تراث الاجداد والنظر الى الدين نظرة ليس فيها احترام ولا تقـديس والامان بمادية الغـرب والسخرية بروحانية الشرق واعتبار كل ما فى الغرب جميل حتى اباحيتـه ونواحى الضعف فيه وكل ما فى الشرق حقير ان استحق ان ينظر اليه بعين الاحترام يوما ما فزمنه قد انقضى . وقد آن الأوان للتخلص من تراثه ووئده حيا كما اعتبر ظاهره الزواج من الغرب لها ابعد الاثر فى هذا التفكك لما يؤدى الى تنشئة الاولاد النشأة الغربية التى لا صلة لها بالشرق والتعلم باللغة الاجنبية وتجاهل اللغة العربية .

ونعى عبد العزيز الاسلامبولى (المعرفة ــ يولية ١٩٣٣) على مفكرينا التنكر لأبنائنا وأجدادنا وافكار ادبنا ولغتنا والزراية بتاريخنا وثقافتنا وقطع الصـلـة بين ماضينا وحاضرنا » وطالب بالتعرف الى التراث العربى والبحث عن اثاره ومخلفاته من اسلامى وعربى وقبطى وفرعونى فى أديانه وفلسفاته وروحانياته وماديانه ، وانه لا بد لتجديد من شرط الدين والقومية الصحيحة .

وليس ادل على اضطرابنا فى هـذه المرحلة اننا احتفلنا بذكرى رينان وهو الداعية الاستعمارى الذى جهر باتهامنا بالقصور وصاحب نظرية الآرية والسامية .

* * *

الحمـلة على العقـــائد والقـيم

انصبت حملة « التغريب » على ثلاث قيم هامة فى الفكر العربى الاسلامى هى : الدين واللغة والتاريخ فقد كان مفهوما أن القضاء على العوامل الثلاث من شأنه أن يحقق لمعركة التغريب نصرا بعيد المدى .

* * *

الحملة على الاسلام

ولقد كان « الدين » عنصرا هاما فى الفكر العربى الاسلامى ولا يزال دعامة كبرى من دعائمه لا سبيل الى تجاهل مدى خطرها واثرها . كانت وستظل عاملا فعالا فى الثقافة والحضارة الاسلاميتين والنهضة التى حققتها . وعندما أصيب الدين بالضعف ودخلت عليه القشور والزيوف والبدع وانتفت عنه عوامل القوة ممثلة فى التجديد والاجتهاد كان مصدر الاضطراب والجمود الذى أصاب الوطن العربى والعالم الاسلامى ، ولذلك فان ظهور أول حركة لتجديد الاسلام ورفع الزيوف عنه ممثلة فى دعوة « محمـــد بن عبد الوهاب » كان علامة على يقظة الفكر العربى الاسلامى كان الدين عاملا هاما فى حياة الأمة العربية وكان الاسلام وهو دين الاغلبية قد اسبغ حضارة عربية اســلامية اشتركت فيها جميع العناصر وكان لها اثرها الواضح فى قوة الأمة الاسلامية وهيبتها ، **ولما كانت عناصر القــوة والحرية والكرامة والوحدة والتجمع والذود عن الكيان والاجهاد فى سبيل الله من ابرز عناصر الاسلام وهى اذا استيقظت فى الأمة كانت عاملا بعيد المدى فى مقاومـــة الاستعمار والقضاء عليه لذلك عول الاستعمار فى غزوه الفكرى وحملته التغريبية فى حشد اكثر قواه لزلزلة قواعد الاسلام والقضاء عليه وعزله عن المجتمع وتحطيم قواعده وابعاده عن ميدان السياسة والاجتماع والفــكر وسلبه سلطانه وفرض قوانين اجنبية وتشريعات غربية بدلا منه** حتى تزول أثاره القوية فى مقاومة الاستعمار .

من أجل هذا وجه الاستعمار للاسلام حملات عنيفة قاسية فوصف الاسلام بأنه دين مناف للمدنية وانه ليس صالحا الا لزمن الذى ظهر فيه ومحيط الصحراء الذى عاش فيه .

وحاول كرومر أن يقنع المصريين والعرب بانهم لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهـــريا « لأنه يأمرهم بالجمود والتعصب ويبث فيهم روح البغض » .

وردد هانوتو الفرنسى أن تقدم المسلمين مستحيل لأن الاسلام يحول دون ذلك ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهج أوربا نجحت وأن « موات » الشرقى وضعفه وتخاذله وتواكله « وحياة » الغربى وقوته وانتصاره مصدرها اتصال الأول بالدين وانفصال الثانى عنه ، وأن الرابطة الوطنية أقوى من الرابطة الدينية .

وردد عشرات غيرهم مثل هذه الاتهامات حول النبى والقرآن والاســـــلام وزوجات النبى والطلاق وتعـــدد الزوجات ومجافاة الاسلام للمدنية ، وتعصب الاســـلام ومعاملة الاقليات والأجانب .

وجرت فى هـــــذا المجال محاولات نقد للأنظمـــة والشرائع القـــديمة واتهامها بأنها لم تعد صالحة نظرا لاختلاف الزمن وقيل أن أغلب هذه الأنظمة والآراء بدائية وذلك بقصـــد القضاء على قداســـة الشريعة ، وجرت محاولات للمقـــاومة بين الأديان السماوية وايجـــاد شقة بينها ووضع الكتب السماوية موضع النقد وايجاد شبه وشكوك واحياء الأساطير والاسرائيليات والاحتفال بها وتحويلها الى أدب وفن وتعمد الفصل بين الدين والقومية ، والدين والتاريخ ، والدين والأدب واذاعة مذاهب متطرفة فى البحث تدعو الى عدم الاحتفال بتمجيد الأمة والغض من تاريخهـــــا أو الاكتراث بنصر الاســـلام أو هزيمته ودون التقيد بما ترضـــاه القومية أو تنفر منه العـــاطفة الدينية . ويتصل بهذا الحملات التى أثيرت على الغيب وتشكيك الناس فيما يخرج من دائرة المحسوس .

وكل هذا المخطط الذى جرى على السنة كتـــاب الغرب وغيرهم من كتابنا الســـائرين فى مجرى التغريب يهدف الى هدم الدين والقضاء عليه والقضاء على الروح

المعنوية التى تحمل راية جهاد المحتلين والمغيرين وتفكيك الرابطة بين المسلمين والقضاء عليها نهائيا وهما الحائلان الهامان أمام اضطراد الاستعمار ونموه وتدعيم مقامه .

وحول هذه النقط ردد الكتاب الغربيون اتهامات متعددة فندها كتابنا فى ردود قوية : كان أبلغها ما كتبه محمد عبده وفريد وجدى ومصطفى الغلايينى ومحب الدين الخطيب وشكيب وارسلان واحمد زكى باشا ورشيد رضا وعبد القادر المغربى .

وكان مجمل الرد على ذلك بأن الشريعة الاسلامية كليات وحدود عامة قابلة للتطور مرنة ، تستطيع مسايرة الحضارة وهى بذلك شريعة لا تصطدم بالواقع وتجرى مع كل زمان وكل امة ، وقد قام الاسلام على النظر العقلى والاقناع بالحجة : واقر قاعدة تلاقى العقل مع الشرع والتجاوب مع الزمن وتطور البيئة واختلافها ودعامته فى الحكم : الشورى ، والحاكم فيه ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحى وهو مطاع مادام على الحق ورضى المسلمين عنه ، وليس فى الاسلام سلطان الهى . كما ليس فى الاسلام وساطة ولا اكليروس وفيه — الى ذلك — تسامح مع العلم وتقبل له ، وتسامح مع الطوائف الأخرى وحماية لحقوقها وحرية اعتقادها وحماية مصالح الدنيا واباحة الزينة والطيبات والمزج بين الروحية والمادية .

وان الجمود الذى استولى على المسلمين ليس سببه الاسلام ، فجوهر الاسلام الذى دفع الأمة بقوة عجيبة وانشأ هذه الحضارة الضخمة لم يتغير وجاء الخطر حين اخذ المسلمون بالتقليد وترويج خرافات وأوهام وثنية نسبت الى الدين الذى لم يكن فى حقيقته الا محررا للعقول والأفهام من معانى الوثنية أو من معانى الاستبداد ، أما المرأة فقد كرمها الاسلام ومنحها من الحقوق فى الحياة والمال والقضاء ما سبق الغرب بقرون طويلة :

* * *

الحملة على نظم المجتمع

واتصلت الحملة على الاسلام بالحملة على نظم المجتمع وهدم الأخلاق واللغة والتاريخ وقد أذيع الالحاد ونشرت الاباحة تحت اسم حرية الفكر بالدعوة الى التحرر من قيود البيئة والوراثة وكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين مع التشكيك فى كل العقائد والآراء الموروثة والمتداولة .

وجرت محاولات اخرى لنقل ما حدث فى تركيا من القضاء على اللغة العربية والكتابة بالحروف اللاتينية .

واتصل هذا بالعمل على زلزلة النظام الاجتماعى وتحطيم الأسرة . وانتشار المخدرات وظهور الكوكاكين وحماية المحتل له وتجارة الرقيق الأبيض ودور البغاء . وقد ظلت هذه التجارات محتكرة للانجليز واعوانهم ، ومضت فرنسا وبريطانيا تصدر المورفين والحشيش وتحمى أعمال تسميم الأمة بحواجز ضخم أطلق عليه اسم المحاكم المختلطة والمحاكم القنصلية والامتيازات الأجنبية تحمى المهربين واللصوص والسفاكين ومصاصى دماء الشعوب وفى الصحافة والسينما جرت محاولات متصلة لعرض الصور المنحرفة والمائعة والرخوة وتغليب الحديث عن الممثلات والمغنيات والراقصات واحاديث الأزياء والسهرات وملكات الجمال واستعراضات المانيكان والحديث عن مذاهب العرى والأدب الماجن والكتابة المكشوفة والاختلاط ووصف الشهوات واثارة الأهواء وترجمة القصص الاباحية وقد طغا هذا على كل شىء ، وانزوى الحديث عن المثل العليا والقيم والأفكار الحية والتسامى فاذا جرى حديث حولها فهو عن المذاهب الغربية فى الفلسفة والأدب والاجتماع والترجمة لعظماء الغرب وتمجيد دعاة الاستعمار والحاد والاثارة .

وحجب التراث العربى والاسلامى وسير اعلام العرب والاسلام وجرى اضعاف النعرة الوطنية والدينية باثارة الشكوك والاتهامات أو بالغض من شأن العاطفيات والحماسة باعتبارها عيب وخطأ امام المذهب العلمى الحديث .

وقد كان لتعمق تيار التغريب اثره الحياة الفكرية العربية فقد اضطربت الطوائف المختلفة واهتزت امامها القيم . وانطوى معنى الزهادة والتجرد وغلبت روح النفعية على حد قول داود بركات (لا تجد اليوم الشيخ الأزهرى العالم الذى يكتفى بالجراية مأكلا ولا الزعبوط ملبسا . . ولا تجد الراهب فى عزلته فى صومعته لايشغله شاغل غير تسبيح ربه) .

ومرجع هذا الى غلبة النزعة المادية وتسلطها واختفاء روح التجرد والأريحية .

واتصل بهذا ما جرى من السخرية بالجادين والعالمين واحتقار المتدينين والاكتفاء بقشور الحضارة وغلبة روح التفرنج ، واعلن كرومر أن المسلم غير

المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر وان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربيين ترتية أوربية .

وانتهى هذا الى ضعف الفكر والعلم والدين عن التجرد واستشرى التطاحن والتسابق فى ميادين المادية وتفشت « المنفعة » والوصولية فى جسم الأمة .

حتى الشبان العرب الذين سافروا الى أوربا عادوا ليضعوا ثقافاتهم واقلامهم فى خدمة الطبقات الحاكمة والأحزا بوالاقطاعيين ممن أسماهم كرومر أصحاب المصالح الحقيقية فقد كانوا يتطلعون الى بيئة السادة من الأغنياء والمترفين والوصول الى المناصب العليا وقد علمتهم الثقافة الأوربية تغليب المنفعة على القيم ولم تكن الدعوة الى الحرية عندهم مذهبا فكريا ولا عقيدة اجتماعية بل قشورا لامعة لا تخفى وراءها الا تدمير القيم الحقيقية لذلك لم يستطيعوا قيادة الأمة وانما اكتفوا بأن عاشوا على هامش الحكام المستبدين وفى ظلهم .

***

حمـــــلات التجــزئة

كانت حملات تجزئة الكيان من اقوى حملات الغزو الفكرى والثقـــاف والسياسى التى شنها الاستعمار على الوطن العربى والفكر العربى الاسلامى خلال هذه الفترة كجزء مكمل احملات التغريب والتبعية الثقافية . كان الهـــدف هو تقطيع اوصال الأمة الى دول لها حدود ونظم وقوانين وعملات ومناهج تعليمية مختلفة وصحف ، مع ايقـــــاد نيران الصراع بـ ين هذه الأجزاء وبين ملوكهـــا وامرائها وحكامها ، ثم « تجزئة التجزئة » وذلك بتقســـيم القطر الواحد الى احزاب وعنصريات واثارة عصبياتها القديمة وخلافاتها الدينية والجنسية والفكرية وخلق قوة شعوبية يؤيدها الاســـتعمار تعمل على مهاجمـــة القيم والتراث والآراء والعقائد المتعارف عليها وتحطيمها والنيل منهـــا وذلك توسيعا لشقة الصراع وعملا على دعم سياســـة التمزيق وتعميق جذور التجزئة .

(الشـــعوبية)

وقد تركزت فى الشعوبية كل دعوات « التمزيق » و « والتجزئة » واثارة القوميات الضيقة ، ولمـــا كانت « الأمة الوجود العربى » قبل النفوذ الغربى والاحتلال والغزو الثقافى موحدا : ثقافة وارضا ، فقد حرص الاســـتعمار ان يثبت اقدامه عن طريق تمزيق هذه الوحـــدة فى دول وجزئيات وامارا ت ، واتخذ دعوة « الشعوبية » ركيزة لتثبيت هذه التجزئة ، والشعوبيون هم خصوم وحـــدة الأمة العرب وهم دعاة كل ما من شأنه ان يحـــول دون عودتها الى الوحـــدة مرة اخرى وذلك بخلق قوميـــات ضيقة ، واتخاذ سلاح الغزو الثقافى وسيلة الى تفتيت وحـــدة العرب ، كالفينيقية والفرعـــونية والبربرية وخلق دعوات جديدة كدعوة البحر الأبيض المتوســـط والكيـــان المصرى والكيان الســـورى والكيان اللبنانى والكيان السودانى .

وقد اتخذ الشعوبيون عديدا من الصور على هيئة كتاب واحزاب وهيئـــات وصحف وحملوا لواء هـــــذه الدعوات بقصـــد التفريق بين العرب والبربر فى المغرب والسوريين واللبنانيين فى المشرق والموارنة والدروز فى لبنان والمسلمين والمسيحيين فى مصر والسنة والشـــيعة فى سوريا والعراق والعرب والأكراد فى العراق .

وحملت هذه الدعوات لواء التبشـــير من طريق البحث العلمى القائم على المغالطات واتخـــاذ الصحافة والكتابة ودور النشر وبعض الاذاعات وسلطان الحاكمين وسيلة لفرض هذه الآراء والدفاع عن هـــذه النظريات المضـــللة .

وقد كان حصاد هذه النظريات الشعوبية ، ماأذيع من ان اللبنانيين ليسوا عربا وان اصلهم فرنسى والدعوة بأن سوريا امة تامة ، هذه الدعوة التى حمـــل لواءها انطون سعادة ، وان العلويين بقية من الصليبيين وان الدين العلوى جزء من الديانة المسيحية . وقـــد حرض الاستعمار الفرنسى على نشر هـــذه الدعوات وايدها ، وكان من ثمارها « سليمان المرشد » احد زعماء العلويين الذى امدته فرنسا بالمال عندما ادعى الألوهية (١٩٤٦) كما فتحت فرنسا باب الهجرة للأرمن الى سوريا وفتحت بريطانيا باب الهجرة للاشوريين من العراق الى الجزيرة فى سوريا لخلق شعوبية جديدة ، وفى العراق استغلت الشعوبية الخلاف القديم بين السنة والشيعة ، كما عمد الاستعمار الى خلق صراع بين الأكراد والعرب فى العراق واجج ثوراتهم وثورات السريان اعوام ١٩٣٠ و ١٩٣١ و ١٩٣٢ وكانت الشعوبية فى فلســـطين اشد خطرا فان تصريح بلفور قد اباح قيام شعوبية عارمة تهـــدف الى خلق حاجز اجنبى بين الأجزاء العربية فى آسيا وافريقيا وفى مراكش حاولت فرنسا خلق امة من البربر لا صلة لها بالعرب حتى فى الدين وذلك بارجاع البربر الى التقـــاليد القديمة ، وايفـــاد الأرساليات المسيحية الى المنـــاطق البربرية ومساعدتها فى نشر النصرانية ومنع اختـــلاط العرب بالبربر وجعل الانتقال بينهما يتم بواسطة جواز ســـفر . ويعد الحزب القومى الســـورى اكبر منظمة شعوبية قامت فى الوطن العربى .

دعـوات التجـزئة

× تجزئة المغرب : البربر والعرب .

× تجزئة لبنـان : الدروز والموارنة / القـوميون السوريون / الكتائب .

× تجزئة مصر : المسلمون والمسيحيون .

× التجزئة بالقومية الضيقة : المصرية .

× التجزئة باحياء الماضى القديم (١) الفينيقية .
(٢) الفرعونية .

× دعوات التبعية : ثقافة البحر المتوسط .

× دعوات التموية : توحيد الاسلام والمسيحية .

تجزئة المغرب : البربر والعرب

اتجهت حملة التجزئة التى قامت بها فرنسا لشمال أفريقيا الى (١) التجنيس (٢) الفرنسة (٣) الادماج (٤) الفصل بين البربر والعرب .

وكانت حملة التجزئة الأولى هى « التجنيس » وتحويل أهل المغرب (تونس والجزائر ومراكش) الى فرنسيين وقد فتح باب التجنيس بالجنسية الفرنسية أسوه بما فعلوه فى مراكش واستصدروا فتوى من رجال الدين والعملاء بأن تجنيس المسلمين لا يتعارض مع الدين ثم اتجهوا الى « الفرنسية » عن طريق «تمسيخ» الشعب العربى ولما باءت هذه المحاولات بالفشل اتجهوا الى فكرة تمزيق عنصرى الأمة العربية المغربية : البربر والعرب وذلك بالفصل بين البربر وبين لغة العرب وقضائهم وثقافتهم فى اتجاه الى اقامة ثقافة منفصلة للبربر تستمد من تراثهم القديم قبل ارتباطهم بالعرب . قد عمدوا فى هذا الى البحث عن الروحانية القديمة التى عرفها البربر فى اتصالهم بروما وأذاعوا فيهم الدعوة الى تحريرهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية .

وقد قام تالثقافة الفرنسية الاستعمارية التى تحمل لواء التغريب الى توجيه الاستعمار نحو هذا العمل حين أشار الباحثان « جود فروى » و « موتبين » فى رسالة لهما عن التعليم الى خطورة ترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ، وتكون لغتها واحدة وانظمتها واحدة . وقالا : لابد أن تستعمل لفائدتنا العبارة القديمة « فرق تسد » وان وجود العنصر البربرى هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربى ويمكننا أن نستعمله ضد الحكومة المراكشية نفسها . وانه يجب أن تقوم اللغة الفرنسية ــ لا البربرية ــ مقام اللغة العربية كلغة مشتركة ولغة للمدينة » .

ورسمت هذه الدعوة أن تقوم برامج التعليم فى المدارس البربرية على اللغة الفرنسية وتحذف منها اللغة العربية والديانة الاسلامية وان تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية . وان يعلم البربر كل شىء ماعدا الاسلام » وقد بدأت هذه السياسة تظهر (سبتمبر عام ١٩١٤) بزعامة « المرشال ليوتى » مقنن الغزو الثقافى فى المغرب ، وصنو الجنرال مود فى سورية ولبنان وكرومر فى مصر .

وقد حققت فرنسا الخطوات التنظيمية لذلك حين أصدرت الظهير البربرى الأول ١٩١٩ والثانى ١٩٣١ ومجملهما ان القبائل ذات التقاليد البربرية يجرى عليها الحكم والادارة بموجب شرعها الخاص وعاداتها اما ظهير (١٦ مايو ١٩٣١) فقد قضى باغلاق محاكم الشرع الاسلامى بين البربر على أن ترجع قضاياهم الى هيئة تؤلف تسمى الجماعة تربط مباشرة بالسلطة الفرنسية وتنصيب قضاة فرنسيين من البربر واعلنت انها انما تفعل ذلك بدعوى احترام التقاليد البربرية .

وأفسح الفرنسيون المجال للبعثات التبشيرية بين البربر لتنصيرهم ، ووجهوا حملة اعلامية دعائية الى البربر على أساس انهم شعب مستقل عن « الغزاة العرب » ينحدر من شعوب اوربية ، وأنهم أوروبيون أصلا ، ولذلك يجب أن يرتبطوا مع فرنسا وأن يتجهوا الى الغرب . وعمد الفرنسيون من ناحية أخرى الى احياء العرف والعادات والتقاليد القديمة . واعترفوا بها مصدرا للتشريع المدنى . وأقاموا لهم عملاء وأعوانا من شيوخ القبائل الذين أصبحوا حلفائهم ويعد وجلاوى باشا مراكش الذى حاصر قصر السلطان محمد الخامس نموذجا لهؤلاء الشيوخ .

وهكذا تركزت سياسة التجزئة فى المغرب فى (١) القضاء على مقومات الوحدة بين العرب والبربر (٢) غزو البربر بتمزيق وحدتهم مع العرب فى اللغة والقضاء والثقافة (٣) دفع عدد ضخم من المستوطنين الفرنسيين والأوربيين الى الهجرة الى المغرب العربى للقضاء على الأصل العربى وتقليل وزنه ، وبذلك تقوم ثلاث قوميات

أقلهـــــا القومية العربية مع اتحــــاد البربر مع قومية المستوطنين كما اتخذت حركة « التجزئة » وسيلة بالغة الخطورة حين عزلت المغرب العربي عن المشرق العربي وعمدت الى اقفال أبوابه ثقافيا واقتصاديا عن باقى أجزاء الأمة العربية فى آسيا .

كما حالت بين الأجــزاء الثلاثة : تونس والجزائر ومراكش بعضها عن الآخر ، وأقامت فى كل اقليم سياسة وثقـــافة وخطط استعمار تختلف عما اتخذته فى القطــر الآخر ، ولم يســتطيع المثقفون فى الأقطار الثــلاثة من الالتقاء الا فى القاهرة لارتياد الأزهر أو فى باريس .

* * *

(حركة المقـــاومة ورد الفعل)

وقد قاوم المغرب بأقطاره الثلاث هــذه الدعوات وحطمها فى جهاد طويل ممتد وكان عبد العزيز الثعالبى (تونس) هو رائد دعوة الوحــدة العربية والربط بين المغرب والعـــالم العربى وقد قام بحملات متعـــددة فى القاهرة ودمشق وبغداد ودعا الى توحيد الثقـــافة بين البلاد العربية وهاجم فى القاهرة بعنف أساليب التجزئة والتغريب والتجنيس والفرنسية التى تصطنعها فرنسا فى الشمال الأفريقى كما قام المغاربة الذين التجئوا الى الاســتانة برفع صوت المغــرب عاليا ضمن الجــامعة الاســـلامية ، وقد كان للشيخ على باشا حنبه والشيخ للعتـــابى أثرهما الكبير فى الدعوة للشخصـــية العربية المغربية فى السويد والدانمرك والنرويج وقد عقــد لذلك مؤتمر فى استكهولم ١٩١٧ .

كما كان لعبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء فى الجزائر التى قام عليها ، أثرها البعيد فى مقاومة هـــذا الاتجـــاه وذلك بمكافحة البدع والخرافات ومهاجمـــة « الأيدلوجية » التى أقامتهـــا حملات التغريب لتجــزئة المغرب وفصل العرب عن البربر فقد دعم اللغة العربية بانشاء المدارس العربية فى المساجد والزوايا .

وكذلك قامت حركة « رد الفعل » والمقاومة للغزو الفــكرى على أساس علمى صـــحيح قوامه العقـــل والاســـتقراء فهدمت كل النظريات التى قدمهـــا الغرب وكشفت كيف أن عنصرى الأمة (البربر والعرب) قـــد امتزجا منذ الف وأربعمائة عام وأن الفوارق المختلفة قد ذابت كلها ولم يبق لها وجود حى وأن اطلاق اسم البربر انما جاء نتيجة تاريخية لانقسام الدولة الرومانية بعــد وفاة الامبراطـــور (تيردو ســـيوس) عام ٢٨٨ م بين بيزنطة وروما ، وكان من نصيب بيزنطة ما يعرف الآن بالجبل الأخضر من ولاية بنى غازى الى مصر ، أما باقى افريقيا فقد كان من نصيب روما وقد أشار البستانى فى دائرة معارفه الى لفظ (البربر) وقال أنه مأخوذ من لفظ (ورورا) باللغة السنسكريتية ومعناه غريب . ولم يكن لفظ خاص بأمة خاصة بل أطلقه اليونانيون على من لم يتكلم لغتهم وبه سمو ايطاليا (بربار) ثم أخذه الرومان وأطلقوه على من لم يتكلم اليونانية اللاتينية .

وقد جرى تقـــارب اللغتين العربية والبربرية الى حد كبير يدركه من له المام بهما .

٣ — وكان للحركة السلفية فى مراكش تقيـــادة « محمد بن العربى العلوى » دورها كرد على احتضان حركة التجزئة والغزو الفكرى لمشايخ الطرق . وقـــد حملت الحركة السلفية لواء عملين هامين فى محيط الفكر العربى هما :

(١) التحرر والجهاد ومقاومة الاستعمار ، ودعوة الشعب الى العلم والاصـــلاح ومقاومة الجمود وتحطيم الخرافات وتربية الشخصـــية الاسلامية على مبـــادىء الاسلام (٢) وتكوين وحدة سياسية تحت لواء الروابط الثقافية والعقائدية . كما دعت الحركة الســـلفية الى مقاومة الاقليمية والتجزئة وجعل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم العربى كله وصـــلة الوصل بين سائر أفراده .

* * *

الرد على النظـــرية البربرية

وقد كان مجمل الرد على النظرية البربرية قائمـــا على أساس ما اتفق عليه النسابون من أن القبـــائل البربرية ترجـــع الى أرومتين مهمتين ، وهما : برنس وما دغيش . بحوث لا يوجد بين البرابرة من يخرج عن هذين الأصلين . فهم اما برانس كالمصـــامدة وصنهاجه وكتامه أو بتر كنفوسه وضريبسه . وقد ذكر المؤرخون أن البرانس من واد مازيغ بين كنعان بن حام وأن البتر من ذرية برين قيس ، وأن قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب فى المساكن والأسواق ، فازداد العنصران امتزاجا وتداخلا منذ أقدم العصور ، فالبتر عرب مصريون والبرانس أغلبهم من عـــرب اليمن . ونص كثـــير من

المؤرخين على انهم قدموا من آسيا فمروا بمصر وليبيـــا ودخلوا المغرب .

ولم يكد « ادريس » يشارف العقد الثـــانى حتى جمـــع حوله من العرب الاقحاح واناط بهم مهمـــة نشر اللغة العربية بين البربر ، وتعليم القبائل المنضويه تحت راية الادراسة الدين ، وسارت اللغة العربية فى أعقاب جيوش (ادريس) فتركزت حيث تركزوا وان الفضل فى تعريب برابرة الريف لا يرجع للادراسة وحدهم .

ومن هذا ينكشف مدى بطلان نظريةالعرب والبربر بعد أن امتزجا منذ آلاف السنين .

وهكذا فشـــلت دعوة التجـــزئة التى قام بهـــا الفرنسيون فى تونس والجزائر ومراكش لاحيـــاء القومية البربرية .

المـــــراجع

عبدالعزيز بن عبدالله : مظاهر الحضارة المغربية.

هلال الفـــاسى : الحركات الاســـتقلالية للمغرب العربى .

(د) نبيه أمين فارس : هذا العالم العربى .

الاهرام : « اغسطس ١٩٢٥ : شمال افريقيـــا واصول سكانه » .

* * *

* * *

النظرية الفينيقيــة (لبنــان)

وتعد مؤامرة فصل لبنان عن الوحدة العربية من اهم احداث حركة «التجزئة» التى قام بها الاستعمار عن طريق الغزو الفكرى . فقد قامت هذه الحركة على اساسين .

(١) خلق دعوة فكرية تعتمد على عزل لبنــان ، واعتباره قطرا مستقلا له حضارة تتصل بالغرب والبحر الأبيض المتوسط . (٢) خلق قوى حزبية كتائبية تعتمد على الارهاب والقتل تحمل لواء هذه الاتجاه ولا تتورع عن اغتيال احرار الفكر الذين يقفون فى وجه الاستعمار .

ولحملة التجزئة فى لبنان تاريخ قديم منذ بدا صراع الاستعمار حول تقسيم العالم العربى والسيطرة عليه . ووقوع لبنان بين نفوذ فرنسا وبريطانيا ومؤامراتهما ، هذه المؤامرات التى ادت الى خاق النزاع والصراع بين الدروز والموارنة وهما عنصرى لبنان ، وقد امتدت هــذه المؤامرة حتى حققت ازمة دموية عام ١٨٦٠ كان لهـــا اثرها فى دعم النفــوذ الأجنبى وتاكيد سلطان فرنســا وارتباط المارونيين بها وقيام وضع (التجزئة) فى لبنان ، وهو ما اطلق عليه « الوضع الخاص للبنان تكفله الدول الغربية الستة » وقد أعطى السلطان ، لهذه الدول عهدا بأن يكون لابنان وضع ادارى وسياسى خاص ولا تزيد علاقته بتركيا عن العلاقة الاسمية ، فقد كان يرشـــح لبنان حاكميه ويعرض اسماءهم على سفراء الدول التى تحمى استقلال لبنان فيختار السفراء واحدا منهم ويصدر السلطان الفرمان الخاص به .

كان من حق لبنان الا يدفع اى ضرائب للاســـتانة او يجند رجاله او تمر القوات التركية ببلاده الا باذن ، ولقد استغلت فرنسا هذا الموقف استغلالا كان بعيــد المدى فى مفاهيم أهل لبنان وتفكيرهم ومحاولة عزلهم عن الفكر العربى والوحدة العربية . فأحيت تاريخا قديما ارتبط بتصريحات لويس التاسع الى بطريرك لبنان التى حاول ان يربط بين لبنان وفرنسا وفى هذا قوله « نحن على يقين من أن هذه الأمة التى وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون انما هى قسم من الأمة الفرنسية ، لان اخلاصها للفرنساويين اشد باخلاص الفرنساويين بعضهم لبعض»

وقد ضمن لويس رسالته « ٢١ مايو ١٢٥٠ » تعهدا بأن تحمى فرنسا لبنان » اما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم وشعبكم نفس الحماية التى لفرنسا وبين انفسهم وان نعمل على الدوام كل ماهو ضرورى لسعادتكم » وقد ارتبط هذا بموقف المارونية من الحروب الصليبية حيث أمد الموارنة الصليبيين بثلاثين الف نبال واذا كان لهذا الخطاب معنى حقيقى فى مفهومنا اليوم فانما هو اخفاء مطامع فرنسا تحت اسم الطائفيــة وحماية المارونية .

ثم اعلن لويس الرابع عشر (٢٨ ابريل ١٦٤٩) الحماية الفرنسية على الطائكية المارونية .

وعمل الغزو الثقــافى الغربى فى حمــلة التجزئة الضخمة على لبنان الى محاولة تصوير لبنــان بصورة القطر الذى ليس عربيا وليس لاتينيا اوربيا وانمــا هو جسر وممــر ، وانه مكون من طائفيين :من المســلمين والمسيحيين . وان كل طائفة منهما تضم طرائف فالمسيحية تضم الموارنة والأرثوذكس والكاثوليك والاسلامية تضم : السنة والشيعة والدروز .

وادعت فرنسا أن الشعب العلوى هو بقيــة من الصليبيين وأن الدين العلوى جزء من الديانة المسيحية وأن اللبنانيين من اصل فرنسى .

واثارت فرنســا دعو ى فينيقية لبنــان وذلك فى محاولة عزلها عن الجماعة العربية .

وقد تبين من بعد أن « الفينيقية » هى موجة عربية صدرت من جزيرة العرب كالفرعونية تماما .

وقد حملت البعثات التبشيرية والمراسلين الأمريكان والفرنسيين لواء هذه الدعوة لهدفين واضحين : (أولهما) التفريق بين جزئى لبنان : المارون والدروز (او المسيحيين والمسلمين) على نفس النحــو الذى اتخذته فرنسا فى

المغرب (ثانيا) عزل لبنان عن العالم العربى واقامة قومية خاصة به تستمد معالمها ومقوماتها من الكيان القومى الضيق ، والارتباط مع الغرب .

ولذلك فان فرنسا لم تلبث بعد احتلال لبنان ١٩١٧ أن نفذت منهاجا ضخما للقضاء على عروبة لبنان وعزله عن العروبة . بعد ان كانت الارساليات الغربية قد تقدمت بهذه المحاولة سنوات تزيد عن ستين عاما .

وكان ابرز معالم ذاك هو : وضع اللغة الفرنسية فى مستوى اللغة العربية فى الدستور و فى المدرسة والمحكمة والمصرف ، والصحافة ، والكتابة وبذلك خلقت ثنائية فكرية وثقافية ادت الى كثير من الانحراف الفكرى .

كما حاول الاستعماد الفرنسى فى غزوته الثقافية على دعوة الوحدة العربية التى كان لبنان اول من حمل لواءها ودعا اليها فى العشرينات من القرن العشرين ، والحقيقة الثابتة ان المسيحيين فى الشام وفى لبنان بالذات هم أول من حمل لواء الدعوة الى القومية العربية ولكن الاستعمار حرصا منه على تمزق كيان لبنان الداخلى وعزله عن القومية العربية عمد الى خلق «ازدواج لبنان» بدعم الطابع الطائفى تحت اسم المحافظة على الكيان اللبنانى .

غير أن مؤامرة التجزئة ما لبث ان انكشفت ، وتبين اولا أن الصراع بين بريطانيا وفرنسا هو الذى خلق الطائفية وعمقها بأحداث ١٨٦٠ التى حرضت عليها بريطانيا وان الطائفية ــ كما يقول ادوارد حنين (مجلة : الندوة اللبنانية ٢٢ نوار ١٩٥٠) ليست الا مزيجا من قشور الدين دون لبه ، ومن شعائر الأديان دون الا مان ، ومن غيرة الشماوسة والمشايخ دون رافتهم . ومن سذاجة اللبنانى دون فطنته ومن عمل السياسة دون وعيها وضميرها ومن خبث السياسيين وقساوة قلوبهم »

كما تكشفت حقائق الامتزاج بين طائفتى لبنان « حتى ان بعض العائلات اللبنانية الدرزية تربط نفسها بوشائج الأخوة والقربى الى بعض العائلات اللبنانية المارونية وبالعكس ، وان ما جرت به العادة بين الموارنة والدروز كان جاريا مثله بين الموارنة والشيعيين وبين المسيحيين والمسلمين » .

وتكشف « ان بريطانيا عملت على على ازالة المملكة الناشئة فى مصر بالاحتلال وتهديم الامارة المستكنة فى لبنان بالفتنة » .

وان الاستعمار بنفوذه قبل احتلال لبنان وبادواته ووسائله بعد احتلاله عمد الى « انماء روح التفرقة بين اللبنانيين » وقال حبيب أبو شهلا « ان الطائفية فى لبنان معطلة للوحدة القومية ومسببة للتفكك فى الجسم اللبنانى وان الأنانية الطائفية والتوازن الطائفى والمصلحة الطائفية نكبة عظيمة وشر مستطير » وقد تأكد باجماع الراى ان المطامع الأوربية هى التى مزقت لبنان .

وقد القت الأربعينات على لبنان ضياء جديدا حين اعلن استقلال لبنان ١٩٤٣ اذا كان هذا الاستقلال نقطة تحول ونقطة التقاء .

فقد أعلن رياض الصلح ان (لبنان وطن ذو وجه عربى ــ وان لبنان لن يكون للاستعمار مقرا ولا لاستعمار الأقطار العربية ممرا) .

وكان هذا مقاومة لأفكار التجزئة التى تمثلت فى منظمة (الحز بالقومى السورى) ثم وجه بشارة الخورى وهو من أصدق الوطنيين الذين حكموا لبنان عند اعتزاله النظر الى القومية العربية فقال « لاتحولوا وجوهكم عن دنيا العرب فان لكم فيها اخوان فكر وقلب ولسان » .

* * *

الحزب القومى السورى والكتائب

وقد تركزت هذه الدعوة الى تجزئة لبنان وعزله عن الأمة العربية فى منظمتين فى لبنان : هما الحزب القومى السورى الذى يعمل فى سوريا ولبنان وحزب الكتائب وهما متحدين فى الأهداف ــ وان كان حزب الكتائب فى حقيقته منظمة طائفية متطرفة ــ غير انها تحمل نفس الأهداف فى الولاء لفرنسا لا للبنان وفى الايمان بوسائل الارهاب والاغتيال .

وقد حمل الحزب القومى السورى لواء الدعوة الى الاقليمية والتجزئة وتزييف الحقائق للقضاء على الوحدة العربية ومقاومة دعوة القومية العربية فالوطن السورى ــ عند الحزب القومى السورى ــ هو البيئة الطبيعية التى نشأت فيها الأمة السورية . وهى ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس فى الشمال الى قناة السويس والبحر الأحمر فى الجنوب .

وحدد الحزب موقف سوريا من الأمة العربية فقال

أنطون سعادة (مارس ١٩٨٣) ان العرب ليسوا فاتحين كغيرهم من الأمم التى مرت بهذه البلاد والفتح لميغير هوية القومية السوريةوان اندماج القضية السورية القومية فى القضية العربية كان سببه وقوع بلاد عربية غير سورية تحت التسلط التركى مما ساعد تولد فكرة اجتماع أمم العالم العربى الخاضعة لتركيا على القيام بحركة تحريرية مشتركة » كما وصف العرب بالصحراويين وبلادهم بالصحراء وقال انهم متخلفون عن بيئة سوريا وعنده « ان الأمة السورية هى الأمة المؤهلة للنهوض بالعالم العربى » .

وجرى الحزب القومى السورى على هدم التراث العربى واحياء تراث الشعوب التى حكمت سوريا قبل الاسلام كالأشوريين والكلدانيين والبابليين والحيثيين والفينيقيين .

وبذلك حملت منظمة القوميين السوريين لواء حملة التجزئة فى لبنان لمقاومة الوحدة بين اجزاء الكيان العربى وجرى الاب لامنس فى كتابه عن سوريا على نفس النهج فأعلن أن السوريون أمة تامة وأن القضية السورية قضية قائمة بنفسها ومستقلة عن اى قضية أخرى . وأن الأمة السورية هى وحدة الشعب السورى والمولدة من تاريخ طويل وأن الوطن السورى هو البيئة الطبيعية التى نشأت فيها الأمة السورية .

وجرى انطون سعادة على نفس النهج فقال بأن الأمة العربية شىء غير قائم فى الواقع وان هناك شعوبا متعددة تتكلم اللغة العربية . وأن العرب لم يؤثروا فى سوريا اى أثر يذكر ، وانما هى أثرت فى العرب . وهو نفس ما تردد فى مصر بالنسبة للعرب فى الدعوة الى المصرية الضيقة والى الماضى الفرعونى .

ولم تقف منظمة (الحزب القومى السورى) الى حد اذاعة هذه الآراء والدعوة لها وانما عملت علىفرضها بالقوة عن طريق الارهاب المسلح والقضاء على من يقف فى وجهها بحجة أن الشعب العربى لا يعرف ما يريد ، وهدفها الاتجاه الى قلب الأوضاع باسم « تغيير عقلية الحكم » . ولو كانت هذه الدعوة مجردة خالصة من التبعية والعمالة للاستعمار والغزو الاستعمارى الفكرى والتغريب لكان هناك مجال لقيام سجال فكرى بينها وبين مبادىء القومية العربية . للكشف عن مدى زيف هذه الآراء ، غير ان تأكد الصلة بين هذه المنظمة وبين الاستعمار قد حكم عليها بأن توضع فى صف الاستعمار نفسه كمنظمات التبشير ومختلف هيئات العمل الاستعمارى فى ميدان الغزو الفكرى العربى .

ذلك أن انطون سعادة انما بدأ دعوته الى فكرة القومية السورية فى المهجر ثم تابع الدعوة ١٩٢٩ بعد عودته الى وطنه لبنان ثم انشأ فى (١٦ نوفمبر ١٩٣٢) الحزب القومى السورى وكون تشكيلاته العسكرية متأثرا بالفاشية والنازية وعلى أساس الارهاب والتعصب والأقليمية والخيانة .

وقد أظهر عداءه للكيان السياسى اللبنانى ، فاعتقل مع اعضاء حزبه ، وحكم عليه بالسجن وحل الحزب عام ١٩٣٧ وعاد الى المهجر ، وفى ابريل ١٩٤٤ انشأ اتباعه الحز بالقومى الاجتماعى برئاسة نعمت ثابت . فلما عاد انطون سعادة ١٩٤٧ الى لبنان رأس الحزب ثم بدأ يدخل مرحلة تنفيذ فكرته باحداث انقلاب فى لبنان وفق مخططه الاستعمارى واتصل بالسلطات الأجنبية وانكشفت هذه التحضيرات (يونيو ١٩٤٩) التى اتجهت الى تسلم الحكم بالعنف حل الحزب واعلن سعادة التعبئة الشعبية العامة وأعان الثورة فى لبنان حيث هاجم انصاره المخافر ودور الحكومة (تموز ١٩٤٩) ثم هرب سعادة الى دمشق بعد فشل الثورة حيث قبض عليه وحوكم فى ٢٠ يوليو ١٩٤٩ وحكم عليه بالاعدام ، غير ان الحزب عاد مرة اخرى بصورة أخرى كان لها بعد الحر بالعالمية الثانية دور كبير فى خيانة أهداف القومية العربية . وكان للحزب تاريخ واضح فى التغريب والتجزئة والعمل للاستعمار عن طريق عصابته الارهابية التى كانت سلاح المستعمر وأداته فى القضاء على الأحرار وقتلهم امثال : رياض الصلح أول من قال (ان لبنان وطن ذو وجه عربى) وعدنان المالكى داعية القومية العربية فى الجيش السورى ونسيب المتنى الصحفى اللبنانى الحر .

وقد التقى حزب الكتائب اللبنانى مع الحزب القومى السورى فى أهدافه ومخططاته واغتيالاته يؤمنا بأن الاخلاص للقومية العربية خيانة واشتراكا فى كل مؤامرة ضد الوحدة وضد تجمع الأمة العربية وحريتها واتخذوا لهم من لبنان قاعدة ومنطلقا .

وقد أيد الحزبان الصهيونية فى فلسطين ووقفا فى وجه العمل لتحرير فلسطين وكشفا عن دورهما بالوقوف صراحة فى صف الصهيونية وهاجموا وثيقة الاستقلال التى أعلنها رياض الصلح واتفقا مع الجنرال كاترو (١٩٤٤) على مقاومة التيار العربى .

وقد عمل سعادة مع الألمان والأمريكان والانجليز وكان ايمانه بفرنسا أنها « الأم » .

وتدواجه الفكر العربي الاسلامي المعاصر هذه الدعوة ، بالتفنين والتحليل وكشف عن مغالطاتها واخطائها وزيفها وعناصر الافتعال فيها والهوى الاستعماري والتغريبي الواضح في مخططها .

وأول عوامل الخطأ في نظرية انطون سعادة اضطرابه في تحديد المنطقة التي يعتبرها (الوطن السوري) وتغييره حدود هذه المنطقة عدة مرات بالزيادة والحذف .
وان نظريته قامت على اساس الخروج من نطاق لبنان دون الدخول في حوزة العروبة ، وزعمه أن سوريا منطقة منفصلة من الأمة العربية .

فقد عين حدود سوريا ببادية الشام ثم ادخل اليها قسما كبيرا من العراق ثم بلغ بحدودها الى جبال بختيارى وبذلك ادخل العراق كله في حدود سوريا وقد فسدت منذ وقت بعيد نظرية العامل الجغرافي في تكوين القوميات والأمم وتأكد أن دعامتي القومية هما اللغة والتاريخ .

ومن مغالطات سعادة معارضته للغة كعنصر من **عناصر القومية ورفض القول بأنه متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته خسر قوميته ، وقد أعلن نظرية لا تثبت للمناقشة وهى أن في الامكان أن تقبل الأمة لغة جديدة دون أن تفقد خصائصها وهو قول لا أساس له .**

ولقد كانت الدعوة الى « التجزئة » وخيانة القومية العربية ، وتأييد الصهيونية وخيانة لبنان العربي بأحداث انقلاب ضده . **وتأييد المستعمرين كلها من العوامل التى** كشفت عن زيف الدعوة فضلا عن سيرها ضد التيار الضخم ، تيار التقاء الجزء بالكل وارتباط سوريا الأكيد بالأمة العربية تاريخيا وفعليا .

ويرى ساطع الحصرى أن الدافع الذى دفع انطون سعاده الى التحامل على القومية العربية هو (١) أن فكرة العروبة تختلط في ذهنه مع معانى البداوة والصحراوية (٢) ومع الفكرة الاسلامية (الحزبية المحمدية) فقد توهم أن فكرة الوحدة العربية قناع لهدف اسلامى وهو في هذا غير سليم النظرة .

* * *

نظـرية البحـــر المتـوسـط

هذه دعوة من دعاة التجزئة والتغريب معـــا وهى ليســت قاصرة على لبنـــان وحده وانما هى : دعوة « فرنسية » تحاول أن تربط العـــالم العربى : المغرب بأقطاره ومصر ولبنان بأوربا . بدلا من ارتباطها بالأمة العربية ، وهى احدى نظريات التجزئة الثقـــافية وهى دعوة القول بأن لحوض البحر المتوسط وحدة جغرافية وتجـــارية واجتماعية وفكرية قوامهـــا : الفكر اليونانى والنظام الرومانى والدين السامى وأن الذين ساهموا فى ابداع هذه الحضـــارة : الفينيقيون أصحاب الفضـــل فى استنباط الحروف الهجائية ومن نماذج مصرية ويونانية ورومانية وسواهم وقد حاول الاســـتعمار الفرنسى أن يذيع دعوى أن اللبنانيين ليسوا عربا بل فينقيين وان حضارتهم هى حضـــارة البحر المتوسط وانهم لا يمتون للعرب بصلة وقربى الا باللغة ـــ كما نادى موسولينى أبان دعوته الفاشية الى حضارة المتوسط ـــ وقد حمل الاستعمار الفرنسى لواء الدعوة الى بعث أمجاد الفينيقيين عن طريق الشعر العربى (قد موس ـــ ســـعيد عقل) وجرت مع ذلك محاولة بعث اللغة العامية واتخاذها اداة الكتابة وقد دعمت نظرية البحر المتوســـط والاتجاه الى الغرب بدلا من الاتجاه نحو الشرق والصحراء .

كما حاولت فرنســـا تأكيد الدعوة الى حضـــارة المتوســـط فى المغرب كمحاولة لربط تونس والجـــزائر ومراكش بأوربا والغرب وفرنسا ووقف تيار الارتباط مع الأمة العربية التى هى جزء منها .

وقد واجه الفكر العربى هذه المعركة كما واجـــه افكار التجزئة الأخرى واعلن زيفها وشكك فى جديتها ، وقال ذلك أن الثقافة أمر معنوى ويمكن ربطه بالعوامل الجغرافية .

كما تبين أن الفينيقيين فرع من الأمة العربية ، وان الحضـــارة الفنيقية جزء من الحضـــارة العربية . وان العرب عندما دخلوا معترك التاريخ سيطروا على البحر المتوسط وحولوه الى بحر عربى . وكان لثقافتهم اثرها فى شاطىء البحر الأبيض المواجه ، فقد تأثرت ايطاليـــا وفرنسا واسبانيا بهذه الثقافة .

* * *

المســـلمون والمســـيحيون : مصــر

اتخذ الاســـتعمار الانجليزى فى مصر من قضـــية الأقليـــات نقطة ارتكاز فى « مؤامرة التجزئة » فقد أثار الخلاف بين المســـلمين والأقبــاط وادعى حماية الأقباط وخلق مشـــكلة الأكثرية والأقلية ، وبينما كان المصريون يعيشـــون فى ظل مجتمع متحـــد قبل الاحتلال ، حرص الانجليز على ضم فريق المسيحيين اليهم وخلقوا لهم وضعا معينا فى مختلف ميادين العمل والتعليم .

وقد سجل المؤرخون الأوربيون والمنصفون سماحة المسلمين ازاء الأقليات وان الاســـلام اكد حقوق اهل الكتاب ، غير أن النفوذ الغربى اتخذ من حماية الأقليات وسيلة للتدخل لتوطيد أقدامه ، وخلق عددا من المشاكل والخلافات والفتن بين الطوائف المختلفة .

وكانت لبنـــان أبرز مثل لقدرة الاســـتعمار على استغلال الخلاف بين الموارنة والدروز ، أما فى مصر فان الموقف قد اختلف عن ذلك نظرا لليقظة وضـــبط النفس والقدرة على افساد الخطة التى حاولها الاستعمار .

وقد شهد بذلك فوردو كاتنج (١٩٢٩/١٠/٢٧ — الأهرام) فقال ان الأقليـــات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلاد الاسلامية الى ان تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة .

وقد كان للأقبـــاط منذ تعريب مصر مكانة مرموقة حيث كان اليهم ادارة البلاد وأعمال المال وبينما اختص الأتراك بالمناصب العسكرية والادارية واختص المسلمون بالقضاء اختص المسيحيون بأعمال المال ، ولم يكن عـــدد الأقباط عام ١٩٠١ يزيد عن عشر سكان القطر بينمـــا كانوا يحتلون ٤٥ فى المائة من الوظائف ويحصلون على ٤٠ فى المائة من المرتبات ، بينما لم يزد نصيب المسلمين منها عن ٤٤ فى المائة وقد أحرز عددا منهم الباشوية ، وكان أول قاض قبطى هو (عبد الملاك كتكوت) بمحكمة منا الأهلية كما عين يوسف فعبد الشهيد مديرا لديوان القضايا بمديرية المنيا وسرور بك وكيلا لمديرية الدقهلية وكان ذلك رمزا لاتحاد البلاد كما ألف الأقبـــاط الجمعية الخيرية القبطية برئاسة قرياقص مفتاح .

غير ان الاستعمار البريطانى بدأ يدس بين المسلمين الأقباط على نحو يفهم منه أن هناك أقلية وأكثرية وانهم — أى البريطانيين — يراعون فريق المسلمين كما يحمون فريق الأقلية ، وذلك حتى يجعلوا نفوذهم مرجعـــا للفريقين ، وقد بدأت سنة ١٩٠٧ حملة صحفية قادتهـــا صـــحيفتا « الوطن ومصر » المســـيحيتين حيث هاجمتا الاســـلام هجوما عنيفا اضطرت معه اللواء والمؤيد للرد عليها فكتب اللورد كرومر فى تقريره (١٩٠٨) يقول أنه يوجد فرق ظاهرى شاسع بين المسلمين والأقباط . ولكن هـــذا الفرق لا يكاد يذكر فى الواقع . غير أن الضرورة تحتم أن الأقلية تتأثر بالأغلبية » وتحت ضغط الاشاعات التى روجها المستعمر بأن هناك دستور سيوضع وستهمل حقوق الأقلية ، رفع الأقباط الى كرومر عام ١٩٠٨ مذكرة ضمنوها بأربع مطالب :

١ — المســـاواة الكاملة مع المسلمين فيما يختص بالتعيين فى الوظائف .

٢ — اغلاق المحاكم يوم الأحد .

٣ — تعيين عضو آخر فى الجمعية الاستشارية .

٤ — تعليم الدين للطلبة المســـيحيين فى المدارس الأميرية .

وقد قبلت الســـلطات المطلبين الأول والثـــالث . وتبادلت جريدتى المؤيد واللواء التهانى لهذه الخطوة نحو المساواة الاجتماعية .

غير ان الاستعمار البريطانى لم يشـــأ أن يلتقى الأقباط والمسلمون فوسع شقة الخلاف حيث أزال امتياز

المسيحيين فى العمل المالى واخذ يدفع المسلمين اليه . (توفيق حبيب وجاك تاجر (ك) اقباط ومسأمون) ثم لم يلبث أن عين بطرس غالى رئيسا للوزراء (١٣ — نوفمبر ١٩٠٨) وقد كان هذا عملا مستغربا اذ انه لأول مرة يراس الوزارة مسيحى فى بلد له اغلبية مسلمة ، وقد اثار هذا عاصفة من النقد فى مجال الصحافة ، وان كان بطرس غالى عندما سألته الصحف المسيحية عن مطالب المسيحيين لم يشأ ان يعلن عن وجهته واكتفى بأن قال انه لا ينوى التدخل فى هذه المسألة . وكان بطرس غالى قد رأس المحكمة المخصوصة لمحاكمة اهالى دنشواى ووقع مع كرومر سرا اتفاقية السودان ١٨٩٩ التى قضت على كل صلة لمصر بالسودان وقد كان هذا كله مما اعده الانجليز للوصول الى النهاية التى وقعت بعد اذ تقدم شاب متحمس من شباب الحزب الوطنى فاغتال رئيس الوزراء ١٩١٠/٢/٢٠ وان كان قد ثبت ان هذا الشاب كان مدفوعا بمفاهيم السياسة لا بالعاطفة الدينية .

وبذلك وصل الانجليز الى غايتهم فى تعميق شقة الخلاف ، وكان مصطفى كامل من قبل قد حاول ان يجمع بين عنصرى الأمة . وضم الى حركته عددا كبيرا من أعيان الأقباط امثال ويصا واصف ومرقص حنا وهو القائل « ان المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق واسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد . وان الأقباط اخوة لنا بن الوطن وقد شهد (مرقس حنا) بعد وفاة مصطفى كامل بأنه هو الذى « ارانا طريق الحرية والاخاء وافهمنا ان الاتحاد هو السلم الأول للوصول الى الحرية والاستقلال»

وقد أمكن ان يلتقى نخبة من رجال العنصرين فى مؤتمر عام استنكروا فيه عمل تلك الفئة التى اتجهت الى استعداء سلطات الاحتلال .بيد أن الاستعمار استطاع أن يدفع بالغلاة الى العمل على اثارة الخلاف مرة اخرى وتعميقه واعانت على ذلك الصحف الأوربية فى الخارج والافرنجية فى مصر التى وصمت المصريين المسلمين بأقبح النعوت (ابراهيم عبده — تاريخ الأهرام ص ٣١٠) وقد كسب الاستعمار من هذه الفرقة ان شغل المصريين عن الجهاد الأساسى الذى يقوم ضد الاحتلال الى الانقسامات والخلافات المذهبية .

ثم عقد الأقباط مؤتمرهم فى اسيوط (مارس ١٩١١) وتم به اعداد مطالب خمسة هى :

(١) راحة يوم الأحد .

(٢) المساواة فى الوظائف .

(٣) تشخيص العناصر القبطية فى الهيئات النيابية.

(٤) المساواة فى التعليم فى مجالس المديريات واعانة مدارس الأقباط .

(٥) الانفاق من الخزينة المصرفية على جميع المرافق المصرية على السواء .

وقد واجهت صفوة رجال الأمة هذا المؤتمر بالتسامح ولم تشأ أن تعقد مؤتمرا يحمل اسم المؤتمر الاسلامى حتى تفسد على المستعمر خطته فى التفرقة بل عقدوا مؤتمرا « مصريا » ضم المسلمين والمسيحيين فى مصر الجديدة برئاسة رياض باشا (مايو ١٩١١) وقد رفض هذا المؤتمر تقسيم الأمة المصرية الى عنصرين اكثرية اسلامية واقلية قبطية ودعا الى وحدة الأمة السياسة وسجل هذا فى عبارة مضيئة : « ان لكل أمة دينا رسميا . ودين كل أمة هو دين الأكثرية منها ومن غير المفهوم ان يكون فى الأمة اكثر من دين رسمى واحد وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليات دينية تعمل فى السياسة بهذه الصفة » .

وبذلك حطم المصريون مؤامرة « التجزئة الدينية » بعد أن استمرت اكثر من ثلاث سنوات .

وعندما طالبت مصر بحقوقها بعد الحرب العالمية الأولى ، ومنعت بريطانيا المصريين من حضور اجتماعات مؤتمر الصلح ، هب المصريون جميعا مسلمين ومسيحيين فى ثورة ١٩١٩ : وكان القساوسة ومشايخ الأزهر يتبادلون الخطابة والدعوة الى الحرية الوطنية فى الأزهر والمساجد والكنائس وكانت الأعلام التى رسم عليها الهلال والصليب تظهر متعانقة فى كل مكان ، وسجلت الحركة الوطنية مبدأ واضحا هو : الدعوة الى حرية مصر على أساس أن الجميع مصريون ، ولما اصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير من جانب واحد لم تنس ان تنص على أن من المسائل المعلقة بينها وبين مصر « حقوق الأقليات » وعندما بدأ وضع الدستور دس الاستعمار البريطانى دسائسه مرة اخرى بين المسلمين والأقباط فظهر اتجاه يدعو الى تحديد تمثيل نسبى لجميع الطوائف الدينية : وقال انصار هذا النظام (جاك تاجر — اقباط ومسلمون) انه اذا ضمنوا للأقليات الدينية تمثيلا ثابتا فى الجمعية الوطنية فانهم يمنعون بذلك الانجليز من التدخل فى شئون مصر الداخلية بدعوى حمايتهم للأقليات،

وقد ايد هــذا بعض المسلمين غير ان اغلبية الأعضـــاء عارضـــوا هذا الاتجـــاه كما عارضـــه المستنيرون من المسيحيين : وكان الراى ان هذا لو تحقق سيبقى على الانقسامات القديمة ويضعف الوحدة القومية ، وقد جرت مساجلات طويلة فى الصحف فى هذا الشأن حمل فيها لواء الدعوة الى تحديد التمثيل « توفيق دوس » ومن شايعه وحمل لواء الدعوة الىالاطلاق (عزيز ميرهم) ومنشايعه.

ومما كتبه عزيز ميرهم فى هذا الصدد تحت عنوان حماية اقليات (افتتاحية الأهرام ٨ مارس ١٩٢٢) قوله « لاانكر ان فى مصر اقليات من قبط وعرب ويهود وطوائف من المسيحيين الشرقيين وان كثيرا من هذه الأقليات يتمتع بقوانين خاصة وامتيازات مختلفة من التمثيل فى الهيئات النيابية ، وقد وجدت هذه الأقلياتبحكم أسباب تاريخية لا تختلف كثيرا عن الأسباب التى انتجت ما يشابهما من الأقليات التاريخية فى بلاد الغر ب .من هـــذم الأسباب قيام الوطنية فى الماضى على اساس الدين قبل قيامها على وحدة الدم والتاريخ والوطن . وانما تقـــدم الغرب على الشر قفى فكرة بناء الوحدة القومية على اساس وحدة الدم والتاريخ والوطن . اما فى الشرق فلتساهل الدين الاســـلامى وتسامحه لم يمنع الاســـلام الطوائف غير الاسلامية من المعيشة والانتشار فى جواره . » ثم اشار الى الصـــعوبا تالتى وقعت بين طوائف من الأديان فى الشر قوقال ان هذه الخصومات لم تكن الا اعمالا فردية وقتية ، وقد وضع الأسلام منذ نشأته قاعدة حرية الدين وأجاز للطوائف غير الاســـلامية حق مباشرة شـــئونها الداخلية بنفسها . وان مصالح الأقليات فى مصر مضمونه ضـــمانا تاما من مدة مديدة ومنهـــا تمتع الأقبـــاط فى مصر بالأنظمة الدينية الخاصـــة بهم والتمتع بشـــعائرهم الدينية وحق بناء المدارس والكنـــائس والأديرة من غير قيد ، وحق امتلاك الأملاك الموقوفة عليها وادارتها .

وقال ان ادعاء بريطانيا حماية الأقليات انما يفتح باب الدسائس واســـعا ، واشار آلى الأساليب التى يســـتعملها الانجليز تحت ســـتار حماية الأقليـــات التفـــريق بين الطائفتين ، وقال ان الأمة المصرية قامت تنادى بمبدأ واحد وان جميع عناصرها قد التقت فى وحدة المطلب ووحدة الوطن وان مثل هـــذا الاجراء ـــ تحديد نسب التمثيل ـــ تدخل معيب تأباه كرامة شـــعب يريد الحياة » .

وعادت الأهرام فسجلت شعور المصريين (٩/٣/ عام ١٩٢٣) ورغبتهم فى الغاء مذهب الأكثرية والأقلية الذى خلقه الانجليز وابتدعوه «ليغروا به ضعاف النفوس وضعاف العزائم حتى يســـتميلوهم الى قوتهم فيكونون خدمة لها فى ما تطمع وتريد » .

وقد نص دستور ١٩٢٣ على المساواة التامة بين جميع المصريين أيا كان دينهم او عقيدتهم كما نص على حريتهم فى ممارستهم لشـــعائر دينهم وقبولهم بالوظائف الحكومية . وجرت التقاليد على أن يكون دائمـــا ضمن مجلس الوزراء وزير قبطى .

ولكن بريطانيا لم تتوقف عن اثارة النعرة الطائفية فترددت تحذيرات الصحف منها فى سنوات ١٩٢٨و١٩٢٩ معلنة « أن الأكثرية والأقلية بضاعة من بضـــائع أوربا السياسية تصنع للتصدير الى الخارج وترسل الى الشرق التعس الذى القى فيه هذا الميكروب منذ دهر بعيد فغفل عنه وعمل عمله . وان الشرق لم يعرف فى ابان مجـــده وحضارته مثل هذه التفرقة ، وقد سجل « جاك تاجر » فى كتابه أقبـــاط ومسلمون : ان الاندماج بين المسلمين والمسيحيين فى الحضارة والثقافة قد بلغ حدا بعيدا وان تقاليد المسلمين فى مصر لم تخل من الأثر الفرعونى ، بينما طبع الاسلام بروحه الأقلية القبطية التى ظلت متمسكة بالمسامين ، وقد كف الأقباط عن التكلم بلغتهم وتعاموا اللغة العربية ونقلوا عباداتهم فى الكنـــائس الى اللغة العربية ايضا وما حل القرن الثانى عشر حتى اصبحت كلها تتحد ثباللغة العربية ، كما اخذ الأقباط عن المسلمين ختان الأطفال كما تشبهوا بالمسلمين من حيث المطهر وهو ما عجز عنه اليونان والروما نومن قبل الأتراك من بعـــد وكان هـــذا علامة عل ىامتزاج العرب بالأسر المصرية والتقاء المسلمين والمسيحيين فى وحدة حضارية وثقافية كاملة .

* * *

التجزئة بالقومية الضيقة : المصرية والفرعونية

كانت حملة التجزئة يخلق القوميات الضيقة جزءا منخطة التمزق والقضاء علىوحدة الفكر العربىالاسلامى وجلق وحداتفكرية اقليميةضيقة تقوم علىاساس المفاهيم المحدودة بحدود كل اقليم بحيث تصبح هنـــاك نزعات وفاســـفات ضيقة . مصرية وســـورية ولبنانية وعراقية وتونسية ومغربية وهكذا ، وقد تمثلت هذه المفاهيم فى التغنى بأنهار الأقليم وجباله وآثاره وعلاماته المميزة على اساس أنه شخصية مستقلة منفصلة وتلغ هـــذا العمل مداه فىمعاداة مفاهيم الأقطار الأخرى ، فمصر غير العرب ولبنان غير سوريا وتونس غير مراكش كما جرتمحاولات للفصل بين كل قطر على اساس ان لكل قطر مقومات خاصة وعلامات مميزة فكرية وجنسية ونفسية ، وان كل قطر شعب ، وكل اقليم له جنس وحضارة وماضى وتراث وكانت كل هذه المحـــاولات مصطنعة مفتعلة حيث كانت الأمة العربية منذ قرون « متحـــدة » فى فكرها ومقوماتها تتلاقى جميعـــا بترك مشـــترك وتاريخ واحد ولغـــــة واحدة .

وقد كانت دعوة التجزئة بالقومية الضـــيقة اقوى ما تكون فى مصر ، ذلك لأن مصر سقطت فى يد الاستعمار منذ ١٨٨٢ مبكرة عن الوجود العربى كله ما عدا الجزائر، ولذلك كانت عملية الغزو الثقافى لعزلها عنالوحدة العربية بعيدة المدى ، وكانت عملية تغريبتها وردها الى ماضيها القديم الساتق على ماضيها العربى باسم احياء مجدها والتغنى بعظمة الأهرام وأبو الهول التى لا مثيل لها فى العـــالم .

وقد ارتبطت الدعوة الى القومية المصرية الضيقة بالدعوة الفرعونية وأحياء ماضى مصر القبطى . وقـــد حشد الاستعمار لبث دعوة الفرعونية كل القوى : فكانت الصحف التى تســـير فى ركابه تدعو كل يوم دعـــوى الفرعونية وتربط مصر الحديثة تماضيها القديم وتتحدث عن الحضارة الفرعونية كما تبرع روكفلر بعشرة ملايين دولار لانشاء متحف للآثار الفرعونية فى مصر ومع ذلك الجهد المبذول فقد ظلت الدعوة الفرعونية غامضـــــة ، حيث لم يكن هناك تراث فكرى حقيقى يمكن ن تقوم على أساسه الدعوة .

وكان من ابرز الأخطاء تجاهل الحقيقة التى تقـــوم على أن الفرعونية عصرا من العصور وليست جنسا من الأجناس .

وظن البعض ان الهدف أن تحيا مصر اليوم حيـــاة مصر منذ خمسين قرنا مضت ، تعيش كما كان الفراعنة يعيشون . أو أحياء الفرعونية فىالفن والأدب او ترك الدين الذى ندين به للغابية او اللغة التى تكتب بها .

وقد قيل فى مجال خلق المقارنة ان الغرب لميستطع اقامة حضارة قوية الدعائم الا بعد ان وصل بينه وبين حضارة اليونان والرومان .

وعارضت صفوة المفـــكرين ان يكون الفن المصرى فرعونى ، لأن الفن الفرعوني انما هو فن وثنى قائم على التهاويل والأساطير والخرافات .

ووحد الفكر العربىالاسلامىان الفرعونيةلاتتمشى مع روح العصر ، اذا لم يكن لها ثقافة ، وانها توقفت منـــذ ظهور الاســـلام وجمدت ، وفصل بيننـــا وبينها تاريخ اجابا الفعالية قوامه : اللغة العربية والاسلام .

* * *

لم تكن الدعوة الاقليمية او دعوة التجزئة قاصرة على دعوة واحدة وانما تعددت دعواتها وتنوعت ، فكانت هناك (١) الدعوة الى المصرية (٢) والدعوة الى المصرية الفرعونية القبطية (٣) والدعوة الى المصرية النيلية — ومن الناحية الأخرى كانت هناك دعوات الوحدة العربية والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية .

وكان الهدف من اثارة هــذه الدعوات جميعهـــا ومناقشتها في الصحف والتركيز على احداها بعد الأخرى .. وقيام دعاة لهذه ولتلك ، ومحاضرات وكتب واحاديث، كان الهدف من ذلك كله خلق جو من البلبلة والتمزيق للفكر .. وتفســيخه حتى يعجز عن السير في تياره الطبيعي وداء واجبه .

وكان الاستعمار البريطاني في مصر حريصـــا على التركيز على دعوة القومية الضيقة بأنواعها للوقوف بها ضـــد الوحدة العربية التي كان معروفا انها الاتجـــــاه الطبيعي والمجـــرى الأساسى العميـــق الذي يؤدي الى تضامن سائر دول العالم العربي في وحدة سياسية وهو ما يحرص الاستعمار على افساده . كما حرص الغــزو الثقافي في مجال التجربة الى أن يحمل الأقباط لواء الدعوة الى القــومية المصرية ذات اللون الفرعوني المرتــبط بالقبطية بينما يحمل المسلمون لواء الدعوة الى القومية المصرية ذات اللون النيلي أو اللون الاسلامي .

وكان لظهور الأفـــكار القـــومية في أوربا اثره في الاتجاه الى دعوة القومية ، غير أن الاســـتعمار حصر هذه الدعوة في المجال المحلي الضيق ، وبذلك ظهـــرت دعوة « تمصير » الفكر وعزله عن الفـــكر العربي تأثرا بالمفـــاهيم اوربية ، ومحاولة خلق صـــورة ذات ملامح للقـــومية المصرية والشـــخصية المصرية قوامهـــا ميل المصريين الى التدين وتمسكهم بعادات اجتماعية معينة ، وهي صـــورة لا تزيد عن انها جزء من صـــورة القومية العربية والشخصية العربية ، فقد كانت ملامح الأجزاء العربية كلها متحدة في المشاعر والتقاليد والأخلاق والفكر والتأثر بالأحداث المختلفة نتيجة الركيزة الأساسية من الثقافة العربية والتراث الاسلامي والأديان والتـــاريخ المشترك .

وجرى في ظل هـــذه التيارات الدعوة الى الأدب المحلي الذي يصـــور الحياة المصرية وحـــدها ، وجرت الدعوة الى اللغة المحلية والانفصال عن اللغة العربية الأم والعصبية للاقليم وتفضيله ورفعه فوق كل اقليم .

وجرت الدعـــوة الى « مصر للمصريين » وكانت تحمل هدف فصل المصريين عن الأمة العربية وعن جيرانها فقد هاجم دعـــاة القومية الضيقة أولئك الذين هبـــوا لمساعدة الليبيين من هل طرابلس الغرب عنـــد الهجوم الايطـــالي عليهم وقالوا أن على المصريين الا يتـــأثروا بعواطف غير منبعثة من اقليمهم وحده .

وحملت دعوة مصر للمصريين الكراهية للارتبـــاط بالعرب او المسلمين او دعوة الخلافة وكانت مثل هـــذه الدعة تجري في سوريا والسودان وفي كل مكان بدأت فيه حركة مقاومة للاستعمار .

ولم يشأ احـــد أن يرى الطريق الصحيح بعيدا عن العاطفة الاقليمية العصبية المندفعة بفعل الغزو الثقافي وتحت رداء التجزئة ويفهم أن الوحدة المصرية عمل نافع لالغاء الخلافات المذهبية والحزبية والارتفاع عليهـــا كمقدمة لتكوين حلقة من وحدة اكبر كالوحدة العربية ، انما كان الدعاه يرون أن مصر وحدة مستقلة ، منفصـــلة تقوم على أساس الهرم او النيل فقط وتحمـــل الكراهية للعرب ولكل ما هو عربي وترى أنهم دخلاء غزاة كالبونان والرومان .

وكانت الحركة الفكرية قد رسمت خطة لدعم هذه التجـــزئة بدعوة القومية المحلية بدراسة الكتـــابات الهيروغليفيـــة وتاريخ الفراعنـــة والربط بين العصر الفرعوني والعصر القبطي .

واستهدف هذا العمل القول ان مصر أمة مســـتقلة لها مقوماتها العقلية والاجتماعية ، وانهـــا ظلت معزولة عمن جاورها ، تفصـــل بينها وبين جيرانها البحـــــار والصحارى وان الصحراء تحيطها شرقا وغربا وانها نمت منفرده منذ اقدم الأزمان كوحدة تاريخية منعزلة لها تراث خاص وتقاليد مستقلة .

وكانت تحاول أن تصور العرب بصورة مزرية ، هي صورة أولئك الأعراب الذين يقيمون في الخيام يرعون الأغنام ، وهي صورة غير صحيحة اطلاقا فالكيان العربي في حضره لا تقل من حيث المدنية والحضارة والثقافة عن مصر ، وان بغداد ودمشق والمدينة وطرابلس والخرطوم وتونس ومراكش والجزائر لا تقل من حيث الحضـــــارة والثقافة عن القاهرة . وان لكل قطر حاضرته وباديته .

* * *

١ — الدعوة المصرية

كانت الدعوة الى « المصرية » تحمل هدف اقامة ادب محلى . وفن فرعونى . واحياء التاريخ المصرى القديم فى حلقاته الثلاث : الفرعونية والقبطية والرومانية واعتبار العرب غزاة كالفرس والترك والانجليز . والعمل على تمصير كل شيء : اللغة والفكر والتاريخ . وقد ارتبطت الدعوة الى المصرية بالدعوة الى الماضى الفرعونى وتقدمت فى سبيل ذلك ابحاث عن عظمة الحضارة المصرية القديمة ، وكما جرت أبحاث اخرى لمحاولة اثبات ان المصريين ليسوا من العرب ولا من الشرق ولكنهم من دول البحر الابيض يرتبطون مع الغرب بوضع أوربا فى العقلية والثقافة وتركيب الجمجمة والبشرة ، وكان الدكتور محمد شرف قد اذاع ان المصريين امة غير شرقية وان جماجم المصريين تشبه الشعوب التى عاشت حول حوض البحر الابيض فى جنوب أوربا ولا علاقة لهم بآسيا اصلا . وقال انه من البحث فى الدم يتضح ان المصريين هم من الطراز الادرى من ٢ الى ٤ وليسوا من الطراز الآسيوى . ويمكن القول ان مصر الحديثة هى نفسها من سلالة مصر القديمة وأن الفحص عن الدم اثبت انها غير افريقية وغير اسيوية وانها اوربية وردد سلامة موسى آراء اليوت سمث التى اذاعها فى كتابه المصريون القدماء

The Aneieut Egyqt Imas

بما يفيد المشابهة بين المصريين وسلالة البحر المتوسط والتى تقول بأن شعوب البحر المتوسط من جهاته الاربع تنتهى الى أصل واحد وأن قدماء المصريين وقدماء الانجليز يرجعون الى سلالة واحدة . كما ان هنا ككلمات فرعونية تتفق لفظا ومعنا مع الكلمات الانجليزية الحديثة . . وانه ليس هناك فرقا بيننا وبين الأوربيين فى السلالة والدم . وأنه لذلك ليس بيننا وبين الأوربيين خصومة فنحن وهم ننتمى الى أصل واحد ونتفق فى المزاج النفسى والذهنى ونختلف قليلا فى الأخلاق لاختلاف الأحوال الاقتصادية وليس هناك فرق الا اننا نعيش حضارة زراعية وهم يعيشون حضارة صناعية » .

وليس معنى هذا القول اذا نظرنا اليه نظرة مجردة — الا أنه دعوة لنا الى قبول الاستعمار البريطانى والتغريب والغزو الثقافى والانفصال عن الأمة العربية والاسلام والشرق ، باعتبارنا جزء من أوربا وبيننا وبين بريطانيا نسب قديم وهو معنى استعمارى ودعوة الى قتل روح النضال الفكرى والمقاومة الاسياسية .

واذا كانت الدعوة الى « المصرية » الضيقة هى فى حقيقتها دعوة تغريبية فانها قد حققت بعض جوانب اليقظة للفكر العربى الاسلامى اذ خلقت الدعوة الى الاستقلال عن الفكر الغربى وعدم نقله آليا او سيطرته على ثقافتنا . فقد ظهرت صيحات تطالب بأن علينا أن نمصر الفن والأدب فلا نقتبسه من الادب والفن الأجنبيين ، أو اعطائه روحا ايطالية أو فرنسية فان ذلك يمسخه مسخا على حد تعبير عبد الله حسين (الأهرام ١٦/٥/١٩٢٣) .

فهو يرى أننا نقتبس من البلاد الأوربية علومها الحديثة واختراعاتها وسياراتها وقاطراتها واقتصادها ، ولكننا يجب لا نواصل الامعان فى اقتباس الفن الأوربى وجعل النهضة الفنية فى مصر قائمة على رقابة أجنبية . . ذلك أن الفن كالشعر والأدب والعادات من مشخصات القومية فاذا جعل الفن اجنبيا آذينا قوميتنا وحكمنا على خننا بالعقم واستحال علينا النهوض » ا هـ .

كما أن الدعوة الى القومية المصرية بالرغم من خضوعها للغزو الثقافى الغربى قد اعانت على تحقيق وحدة عنصرى مصر بما أعان على مقاومة خطة الاستعمار بالتفريق بينهما ، غير ان الدعوة الى المصرية بالرغم من — الأعلام المتعددة القوية ذات النفوذ واطلحف الكثرى التى كان تتظاهرها — لم تستطع ان تقدم مخططا واضحا لها ينفصل انفصالا تاما عن الوحدة العربية ، ذلك لأن عناصر الفكر العربى كلها كانت عميقة التغلغل فى اى دعوة قومية مهما كانت ضيقة وجزئية ، وان الفصل بين الدعوة المصرية وبين الوحدة العربية او الفكر العربى او اللغة العربية او التاريخ العرتى كان أمر ميئوسا منه ، وأن محاولة الارتباط بتراث فرعونى كان مستحيلا . وأن المحاولات التى جرت لاحياء ذلك التراث او بينه او ايجاده لم يكتب لها أى نجاح فضلا عن ذلك الهجوم العنيف الذى لقيته الدعوة ودعاتها من مثقفى الوجود العربى على أساس من العلم لا العاطفة .

وقد كان من أبلغ المتناقضات أن دعاة التغريب كانوا فى الوقت الذى ينكرون على المصريين الارتباط بالتراث العربى وهو الماضى القريب الحى المتصل بحاضرنا باللغة والدين والتاريخ ، يدعونهم الى الارتباط بماض أشد ايغالا فى القدم يبتعد عنا خمسة آلاف سنة وليس له قيم ولا تراث ولا ثقافة وقد انقطعت رابطته وزالت بعد ظهور الاسلام وتعريب مصر .

كانت الدعوة الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والاشورية فى العراق : دعوات تجزئة وانفصـــال تقوم على اساس احياء الماضى القديم وبعثه ، والغاء الماضى العربى الطبيعى واعتبار العرب غزاة .

وكان العثور على حجر رشيد عام ١٨٠١ ونقلــه الى لندن وقيام (شامبليون) بتفسير كتاباته عام ١٨٢٣ هو نقطة البدء فى هذه الدعوة التى اتســع نطاقها مع حملات الغزو الثقافى فى عهد الخديو اسماعيل ثم حمل لوائها الاستعمار البريطانى بعد احتلال مصر .

وكان تأســيس متحف بولاق الفــرعونى ١٨٦٣ بواسطة ماريت وماسبيرو دعاة الفرعونية ودار الآثار العــربية ١٨٦٩ والمتحف القبطى ١٩٠٠ عــلامة على الشروع فى خطة « البلبلة » والمسخ لتاريخنا وتصويرنا فى صـــورة البلاد التى غزاها العرب والرومان واليونان والتى لها ماض فرعونى وقبطى ويونانى وعربى . وان الصلة بيننا وبين العرب هى صلة غزو وليســت رابطة اساسية قامت على اساسها الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصــادية فى محيــط الامة العربية منذ تعربت هــذه المنطقة جميعا وارتبطت باللغة العربيــة والاسلام وشاركت فى ذلك التراث والثقــافة والتاريخ الحافل بالأمجاد .

وقد عمد الانجليز الى الدعوة الفرعونية كاساس للحركة الانفصالية ودعوة التجزئة فاثاروا حملة ضخمة ـــ لا فى مصر وحدها ـــ ولكن فى العــــالم العربى كله للكشف عن الآثار القديمة والتهليل لهذه الآثار ، وخلق تيار فرعونى قومى يحمل لواء الدعوة الى فرعونية مصر وقد تحقق للاستعمار نصرا كبيرا فى هذا المجال بالكشف عن قبر توت عنخ آمون ١٩٢٢ مما عمق هذا التيار وظهر محمود مختار بتماثيله الفرعونية ونحت تمثال نهضة مصر فى باريس ١٩٢٠ ثم انشاء قبر سعد زغلول على الطراز الفرعونى ووضع صورة ابى الهول على طوابع البريد واتخاذ الجامعة المصرية تمثــال الآلهة الفرعونية رمزا لشارتها .

وقد حاول ماسبيروا عام ١٩٠٨ وضع نظرية لربط مصر المعاصرة بمصر الفرعونية فى محاولة ملفقة قوامها ان مصر قاومت كل الغزاة واثرت فيهم بما فيهم العرب ، وان المصريين اقباط اصــلا . وان التراث الفرعــونى القبطى صمد فى وجه الفتح الاسلامى وان الاقباط حافظوا على نقاوة دمهم بينما اختلطت دماء المســـلمين مع دماء شــــعوب اخرى . وقال ان القومية المصرية تقوم على اساس تغلب مصر على دخلائها وان المصريين أصـــلهم فرعونى وانه لا يوجد مصران : مصر مســلمة واخرى قبطية بل توجد مصر واحدة ، وان مسألة مسلم وقبطى مسألة دينية فقط .

وكانت الاكتشافات الفرعونية قد بدات عام ١٩٠٣ عندما ظهرت مقبرة الملك تحتمس الرابع واكتشف مستر كارتر مقبرة الملكة حتشبسوت وكشف (كوبيل) ١٩٠٤ عن مقبرة الملــكة (تى) والملوك اخنــاتون وحرمحب وسيبتاح وامضى كارنفون وكارتر فى الحفر عن طيبة من عام ١٩١٧ حتى اكتشفوا عام ١٩٢٢ قبر توت عنخ سمون .. وتوالت الأبحــاث واشترك فيهــا المصريون فكانت حفريات متصلة لم تتوقف وكان احمد كمال باشا (المتوفى عن ٧٣ سنة فى اغسطس ١٩٢٣) اتى الاثريين فى مصر وصاحب المدرسة التى انشئت لتمصير علم الآثار ، قــد تحقق لم انشاء اول مدرسة لتعليم اللغة المصرية القديمة عام ١٨٦٩ واشهر من نبغ منها سليم حسن ومحرم كمال لكمال باشا ابحــاث متعددة وقاموس هيروغليفى عربى فرنسى يضم الالفاظ العربية ذات الأصول العربية ، هو اول القائلين بأن اللغة المصرية القديمة فرع من اللغة العربية ، وان اللغة العربية اصل لها . وقد كان لأحمد كمال محاولة هــامة فى قتل هــدف الدعوة الفرعونية التغريبى وكان لسليم حسن دوره وخطره فى الاستكشافات والابحاث وهو الذى كشف عن الهــرم الرابع (فبراير سنة ١٩٣٤) وكان قد بدأ العمل فى منطقــة الهرم منذ عام ١٩٢٩ حيث كشف عن مضجع اول امراة حكمت مصر فى التاريخ (خنت كاوس) وهى الحلقة الموصــلة بين الاسرة الرابعة والأسرة الخامسة وقد أسمت نفســها ملكة الوجهين القبلى والبحرى كما كشــف من بعد حتى عام ١٩٣٥ عن الطريق الموصل بين المعبد الواد ى والمعبد الجنائزى وكشف عن أسرة (خفرع) كما كشــف عن حقيقة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فقد كان الشائع ان احجار الأهرام قد نقلت من جبــل المقطم على حين ان الواقع أن هذه الأحجار انما قدت من الصخور المثبتة حول الأهرام .

وقد ظل علم الآثار احتكارا للغربيين والفرنسيين

بالذات خـلال مدة طويلة بدات منذ قدوم (ماريت) الى مصر ١٨٤٦ بعـد أن وقف على رموز الهيروغليفه على طريقة شامبليون وقد اتيح لم عام ١٨٥٠ أن ينفذ خطة واسعة ظاهرها قيـامه بشراء الكتب القبطية من بعض الاديار والبحث عن مدفن العجل ابيس . وقد وجـد فى رمال سقارة تمثالا لأبى الهول ينطبق على الوصف الذى وضعه المؤرخ سترابون لهيكل العجل ابيس ، هنالك تبين له ان الهيكل مدفون تحت الرمال فاستأجر بعض الفلاحين لرفع الرمال وكشف عن ١٢٤ تمثالا وظل يحفر حتى عثر على تمثال لأبيس من الجبس وسمح الخديو لمـاريت أن يرسل الى فرنسا ٥١٣ قطعة . وكانت هذه مقدمة حركة لسرقة الآثار المصرية وتهريبها الى الخـارج حيث غمرت عواصم اوربا .

وأمكن لمـاريت فتح قبر ابيس (نوفمبر ١٨٥١) وكان هذا اول كشف اثرى من نوعه وكان محمد على من قبـل اسماعيل قد وهب الفرنسـيين مسلتين من قصر الأقصر حيث نقلت الى باريس ونصبت احداها فى ميدان الكونكورد (٢٥ اكتوبر ١٨٣٦) وتكلف نقل المســلة الواحدة الى باريس مليون وثلاثة وخمسين الف فرنك ذهبـا .

وقد ارتبطت الكشوف الأثرية بالدعوة الى الفرعونية وتأثر تها «شوقى» بعد كشـف قبر توت عنخ آمون . هذا فضلا عما كشف من أوراق البردى التى باعها الأثرى بريس دافين ١٨٤٧ وهى تمثل اقدم كتاب فى العالم يضم نصائح وحكم ومواعظ منذ ٥٥٠٠ سنة كما أصل ذلك بدعوة احمـد كمال الى تعليم اللغة المصرية القـديمة باعتبـارها لغة الأجـداد وقد نشر (١٩٢٣/١/١٥) اسماء الكتب التى تعين على ذلك .

وقد ارتفع صوت الصحافة فى الثلاثينيات بتسرب آثار مصر الى الخارج طالما ان أعمال الحفر والتنقيب فى ايدى الأجانب الذى يرون أن (سرقة) هـــذه الآثار لا يعدو أن يكون خدمة علمية .

وكان «هوارد كارتر» مكتشف قبر توت عنخ آمون (المتوفى فى ١٩٣٩/٣/٤) قد جاء الى مصر ١٨٩٠ وعاون فى حفائر تل العمارنة وعين مفتشا لمصلحة الآثار وتنظيم دار الآثار فى مصر العليا وادخل نور الكهرباء الى وادى الملوك وابو سمبل واكتشف لحســاب الحكومة المصرية مدافن الملوك منتوحب وحتشبسوت وتحتمس وامنحتب الأول .

وكان آخـر مديرى المتحـف المصرى الأب ايتين دريتون (١٩٣٧) وقـد تبين أنه خلال عمل الأمنــاء الأوربيين قد اختفت من المتحف ٢٦ الف قطعـة ، وقد حرص هؤلاء الاثريون جميعا على تحريف التاريخ وافتعال نظريات تهدف الى تعزيز (الدعوة الفرعونية) كجـزء من خطة « التجـــزئة والتغريب » التى كانت هـدف الاستعمار كله فرنسـيا كان او انجليزيا ، ولكن خطوة واحدة لم تتحقق هى أن تصبح الهيلغريفية لغة مرة اخرى او أن تصبح الفرعونية حركة أو ثقافة أو تيـارا فكريا واضحا .

* * *

٣ — التيـــار القبطى

هذا هو الوجه الثالث للقومية الاقليمية الضـيقة فقد كانت « المصرية » ترتبط بالماضى الفرعونى . وكان حملة الدعوة الى الفرعونية هم المثقفون الأقبـاط الذين اتصلوا بدعاة التغريب ورجال الآثار الذين ركزوا على احياء الفرعونية فى الثقافة والفكر والمجتمع ، وكان دعاة الفرعونية الأقباط يحاربون الاتجاه الى الوحدة العربية أو التراث الاسلامى ويعملون فى نفس الوقت الى الربط بين الفرعونية والقبطية باعتبار ان الأقباط هم خلفـاء الفراعنة وورثة هذا التراث .

وقد ردد دعاة القبطية ما نادى به « ماسبيرو » من أن المصريين اقباط اصلا ، وان العرب غزاة وعملوا على تمجيد الفرعونية وتعظيم الحضـــارة المصرية القديمة ، وكان فى مقـدمة هؤلاء الدعاة : مرقص سـميكه منشىء المتحف القبطى وجرجوس فلينـاس عوض وميخـائيل عبد السيد وتوفيق اسكاوروس وتارس شنوده ميخائيل عبد السيد وسلامة موسى .

ولما كان عدد الأقباط فى أول القرن التاســع عشر ١٥٠ الف قبطى بين ثلاثة ملايين مصرى فقــد كان ذلك عاملا على الاحساس بمعنى الأقلية الذى يفرض قيـام طائفية قوامها المحافظة على مصالح مجموعهم من الأغلبية عن طريق التماسك والتكافل . وكان الاسلام قد رسـم نظاما عادلا للطوائف المختلفة التى تعيش فى مجتمعه غير أنه فى خـلال عهود الظلم وســيطرة الولاة والاتراك والمماليك قد احس الأقباط بضغط واضطهاد ، ولذلك كان لهم موقف ازاء المستعمر ، وقد كان هذا الموقف واضحا ابان الحملة الفرنسية ثم تكشف بصورة أوضح بعد ذلك ابان الاحتلال البريطانى .

ويؤكد الدكتور أنيس صايغ — وهو كاتب مسيحى لبنانى — فى كتابه الفكرة العربية فى مصر — ص ٩٨) ان الأقباط تحالفوا مع الفرنسيين وتجسسوا لصالحهم على حساب الشعب وتنكروا لحـ قالمشاركة القومية .

وانهم انحازوا الى نابليون وزودوا جيشه بالرجال والعتاد وكان لهم اليد اليمنى فى دعم الحكم الانجليزى فى مصر وقد اقاموا الصلاة فى كنائسهم يوم وصول الانجليز الى مصر . وقال ان الأقباط « كانوا يبررون علاقاتهم مع عـدو البلاد بحقهم فى حفظ كيـانهم وحقوقهم » واشار الدكتور صايغ الى زعامة المعـلم يعقوب القبطى الذى عاون الفرنسيين واستحق انعام السلطة الفرنسية عليه بتعيينه قائدا للفرقة القبطية التـابعة الجيش الفرنسى والذى رقى الى رتبة جنرال وصاحب مشروع اسـتقلال مصر عن العثمانيين المسلمين برعاية الغرب المسـيحى هو أول من طالب بأن تكون مصر وطن مستقل عن العرب والأتراك وان يعتبر مصر جزءا من اوربا وقد اضـطر للجنرال يعقوب أن يسافر مع الفرنسيين فى حالة جلائهم عن مصر ومعه مشروعه ليعرضه مستجديا عطف فرنسا وبريطانيا .

وقـد انطوت هذه الصـفحة حتى جاء الاحتلال البريطانى فبدأت دعـوة المصرية التى ترتبط بالمـاضى الفرعونى تبرز فى حضانة الأقبـاط الذين بداوا يؤلفون الكتب ويصـدرون عشرات الصـحف التى تدافع عن الفرعونية والربط بين المـاضى الفرعونى والقبطى كما انشأوا عشرات النوادى والجمعيات والمدارس وفىمقدمتها جمعية التوفيق ١٨٧٢ .

وقد بدا عملتاريخى لاعادة دراسة التاريخ المصرى وايضـاح اثر الأقباط فيه وكان لظهـور الآثار المصرية واتساع نطاقها اثر فى دعم هذا الاتجاه التاريخى والقول بأن الحضارة المصرية القديمة هى أولى حضارات العالم القديم .

وقد كانت اهم هذه الأبحاث ما يتعلق بتصـوير الروابط بين الفرعونية والقبطية وبين اللغة الهيروغليفية اللغة القبطية .

وقد صور (مرقص سميكة) كيف حافظ الاقبـاط على تاريخ اجدادهم بمحافظتهم على اللغةالمصرية القديمة وكيف « أن اللغة التى تستعمل فى اقامة الشعائر الدينية عند الأقباط هى نفس اللغة التى كان يتكلم بها الفراعنة ، وقد ادخل عليها طائفة من الألفاظ اليونانية . وقال انه لولا المحافظة على لغتهم الأصلية لما تمكن شامبليون من قراءة وترجمة الكتابة المنقوشـة بالحروف الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية على حجر رشـيد الموجود الآن بالمتحف البريطانى ، وقال أن لفظ قبطى معناها مصرى وهى محرفة من اللفظة اليونانية **Stguttlions** وقال : لذلك فان جميع المصريين : بعضهم اقباط مسلمون والبعض مسيحيون وكلهم متناسلون منالمصريين القدماء.

وقد جرت احكام كثيرة منهذا النوع ، ليست قائمة على الأساس العلمى وانما قائمة على التعصب . ولقـد بلغ هذا الأمر حدا دفع مثل احمد زكى باشا الى أنصحح الأوضاع حتى يذود التعصب والطائفية وكانت دعـوته مثلا جرى على الالسنة : وهى قوله : « مصريون قبـل كل شىء » غير أن جرجس عوض جبهة بدعـوة أخرى مضادة هى « اقباط قبل كل شىء » واتخذ نفس أسلوب مرقص سميكة ودعواه .

وقد حمل دعاة الفرعونية القبطية فى هذه الفترة الدعوة لفصل العرب عن مصر وهاجموا الحزب الوطنى واشادوا بالاحتلال البريطانى .

* * *

الفرعونيـــة والعربيـــة

كانت الدعوة الفرعونية احـــدى دعوات التغريب والتجزئة والغزو الثقافى وقد وجدت ارضا خصبة وحمل لوائها الكتاب المسيحيون ثم اشترك فيها عـــدد من دعاة التغريب من الكتاب المصريين واستغل الاستعمار الكشوف الأثرية واصطنع اسلحة الصحافة والكتـــابة وغيرها فى سبيل . اثارة « عاطفة » لأمجاد مصر القديمة لربط مصر الحاضرة بها ، وكان قوام دعوته ان المصريين جميعـــا اقباط وان العرب غزاة . وان القومية المصرية تتطلب فنا مصريا خالصا وادبا محليا ولغة مصرية منفصلة من اللغة العربية . وقد حمل لواء الدعوة الى اللغة المصرية كتاب غربيون وقضاة ومهندسون ، ثم حملها كتاب مصريون . بغية القضاء على اللغة العربية .

وقد ظل دعاة التغريب يوجهون النظرية الفرعونية اتجاها منحرفا ضد القومية العربية حتى ظهر أحمد كمال باشا أول رائد مصرى لعلم الآثار وأعلن أن اللغة العربية أصل للمصرية القديمة (الهيلوغريفية) لمـــا بينهما من الموافقة فى كثير من العصور . وقد دفعه ايمانه بهـــذه النظرية الى اعداد قاموس اللغة المصرية القديمة لم يطبع حتى الآن ، قضى فى تأليفه ربع قرن ويقع فى ٢٢ مجلدا ضخما كشف فيه عن حقيقة العلاقة بين اللسان المصرى القديم واللغة العربية وجملة قوله « أن نصف اللغة التى استعملها قدماء المصريين هى عربية الأصل لفظا ومعنى فضلا عن انها شبيهة بالعربية المصرية التى نســـتعملها اليوم ، وبالجملة فان لغة المصريين القـــدماء هى لغـــة جزيرة العرب لا تختلف احداها عن الأخرى الا بالامالات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغـــة واحدة وبذلك يكون قد تحدد القول بأن الفرعونية سلالة عربية وفدت الى مصر من بين الموجات التى خرجت من جزيرة العرب ولم يعد هناك صراع حقيقى بين العربية والفرعونية » .

ولا شك أن عظمة الفراعنة جزء من تاريخنا وان ريادتهم للحضارة الانسانية شرف كبير ، غير أن هنـــاك فارق بين الحقائق تعرض مجردة أو فى حلقة من حلقات التاريخ وبين استغلالها ونقلها الى اتجاه منحرف للقضاء على الروابط العربية والاسلامية بين مصر والكيان العربى

وقد كان الهدف السياسى لدعاة التغريب من بعث الدعوة الفرعونية هو احيـــاء الوثنية واضـــعاف روح الاسلام واللغة العربية وتمزيق وحدة الفكر العربى المتجه فى مجراه الواسع ، وخلق ثنائيات فكرية ودعوات متعددة وقطع الماضى القريب عن المستقبل ومحـــاولة الارتباط تقديم منعزل ليست له ثقافة واضحة .

وغاية ما حققت هذه الدعوة فى مجال الفكر العربى الاسلامى هو كسر الحاجز الذى كان يقف أمامه المفكرون دون دراسة تاريخ الفراعنة واعتباره من تراث الوثنيـــة . وبذلك اعتبرت الحضارة المصرية جزءا من أمجادنا كعرب وشرق وخاصة بعد أن تبين مدى الارتباط بين الفراعنة والعرب وان الفراعنة ما هم الا موجة من موجات الجزيرة العربية .

وقد جرى سجال فى المقطم (اكتوبر ١٩٢٩) أثاره نقولا الحداد حيث نقل راى المؤرخ (رو لنصون) الذى يقول ان المصريين الأولين وفدوا من بلاد العرب وغزوا البحر الأحمر ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا الى ان هبطوا وادى النيل واسسوا دولتهم فاذا رجحت هذه النظرية فسيكون العرب قد دخلوا الى مصر ثلاث مرات : الأولى وهى التى نحن بصددها والثانية غزوة الهكسوس اى الرعاة والثالثة : الفتح الاسلامى وبذلك لا يبقى شك أن المصريين القدماء (الفراعنة) سلالة عربية الأصل .

ورد احمد زكى باشا (١٠ اكتوبر ١٩٢٩) قوله : « الفراعنة عرب عرباء » وقد أشار الى أن القول الراجح من علماء العاديات المصرية أن أوائل المصريين الأقدمين قد هبطوا من ارض اسيا الى وادى النيل . وقد اثبت ذلك بروكس الألمانى وابيرس الألمان ولوث وليبان النرويجى . وكان اول من اثبت هذه النظرية « هومل الألمانى » حين ذهب الى أن الحضارة المصرية بحذافيرها كلها انما هى مشتقة من الحضارة البابلية اما الاخصـــائيون فيقولون بمجىء أوائل المصريين الى هذا الوادى عن صحراء لوبيا وما اليها من الأصقاع الممتـــدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط (ا هـ .) .

وفى مجال المساجلة الفكرية قال دعاة الفرعونية ان عشر اللغة العربية التى نتحدث بها هيروغليفى ومنها الأرغول والدف والناى والعود وكان الرد على ذلك بأن اكثر من نصف اللغة المصرية القديمة انما هى فى الأصل عربية .

وقال ساطع الحصرى (آراء واحاديث فى القومية العربية) انه لا تعارض بين الفرعونية والعربية وان التعارض والتصادم لا يحدثان الا بين الأشياء التى تسير على مستوى واحد فى عالم واحد . والفكرة العربية التى تعمل فى القرن العشرين للأجيال القادمة لا يمكن أن تتعارض مع آثار بقيت ميراثا من ماض سحيق يرجع الى اكثر من خمسة آلاف من السنين . وأن الأهرام لم تمنع مصر من الاتحاد مع سائر الأقطار العربية اتحادا تاما فى ساحة اللغة ، فهل يمكن ان تحول دون اتحادها مع تلك الأقطار فى ساحة السياسة أيضا وان العرب لم يطلبوا من المصريين التنازل عن مصريتهم بل انهم طلبوا اليهم أن يضيفوا الى شعورهم المصرى الخاص شعوراً عربيا عاما .

* * *

كما ذكر محب الدين الخطيب ان « مينا رأس الفراعنة رجل آسيوى جاء الى مصر من آسيا عن طريق سينا العربية او من جبال واودية أخرى وراء سينا واعمق فى العروبة » بل انه ليس هناك ما يمنع من القول بأن مينا ابن جزيرة العرب . وذلك أن جزيرة العرب تغذى مصر بأبنائها من قبل مينا ومن بعد مينا ومن قبل عمرو ابن العاص ومن بعد عمرو بن العاص . وأن فرعون نفسه كانت تجول فى عروقه دماء غير قليلة من الدماء التى كانت تجول فى عروق عدنان .

وقال ساطع الحصرى فى مجال الرد على العلاقة بين الفرعونية وبين الآثار ان مصر قد تباعدت عن ديانة الفراعنة دون ان تهدم ابا الهول وتخلت عن لغتها القديمة دون أن تقوض الأهرام . وجميع آثار الفراعنة التى زينت بها متاحف مصر ومتاحف العالم لم تولد نزوعا الى الديانة التى اوجدت تلك المآثر الخالدة ولا حركة ترمى الى بعث اللغة التى رافقتها خلال قرون طويلة .

ورد ساطع الحصرى على القول بأن تاريخ مصر مستقل تمام الاستقلال عن تاريخ اى بلد آخر فقال : ان هذا الادعاء افتئات صارخ على الحقائق الواقعة فان تاريخ مصر اختلط اختلاطا عميقا بتاريخ سائر البلاد العربية وتشابكت اوشاجه معها خلال القرون الثلاث عشرة الأخيرة على الأقل ، وان من يلقى نظرة عامة على تواريخ الأمم المعاصرة لنا يضطر الى التسليم بأن العلاقات التاريخية التى تربط مصر بسائر الأقطار العربية أقوى واعمق واطول من العلاقات التاريخية التى تربط الأقاليم الفرنسية بعضها ببعض .

وفى هذا المجال اعلن مكرم عبيد المصرى القبطى أن المصريون عرب « نتيجة امتداد أصلنا القديم الى الأصل السامى الذى هاجر الى بلادنا من الجزيرة العربية » واشار المؤرخ فيت (الأهرام ١٩٣٣/٤/١) ان المسيحية لم تنفح مصر بمدينة جديدة غير مدينتها الفرعونية ، وان مصر حين انتقلت ذلك الانتقال الرائع من حكم بيزنطة الى حكم العرب لم تضطرب ولم تتقلقل لأن القبط الذى أساء اليهم الاغريق تقبلوا العرب وتلقوهم تلقى المنقذ المخلص .. واذا كانت قد وقعت فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع احداث ، فان سبب الثورة لم يكن الاضطهاد الدينى ولكن سببه ثقل عبء الضرائب . ولا يستطيع المؤرخ ان يغفل أن الخليفة العزيز اصدر عام ٩٧٥م أمره بالمساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين وكم مضى من القرون والأجيال على أوربا حتى وصلت الى مثل هذه الهوادة بالدين .

واذا كان الدكتور محرم كمال (الأهرام — ٢٨ — سبتمبر ١٩٢٥) يمجد عظمة مصر ويقول : انه بينما كانت اليونان تغط من نومها كانت مصر تحمل علم الفنون ومصباح المعرفة . وبينما كانت اليونان فى مهدها كان ذكر مصر من حيث عظمتها وبهائها وثروتها وقوتها قد طار يعم البلدان واعترف لها الجميع بالتفوق بل بمنصب الأستاذية فى الحكم والمدينة . وقد اخذ الأغريق عنهم كثيرا من الأشكال المصرية » فان هذا القول يرد الى أن عظمة الفرعونية هى جزء من عظمة البلاد العربية .

* * *

المـــراجع

الاتجاهات الوطنية : الدكتور محمد حسين .
المعارك الأدبية : انور الجندى .
الفكرة العربية : انيس صايغ .
آراء واحاديث فى القومية العربية : ساطع الحصرى .
الأهرام : ١٩٢٨/٩/٢٥ — ١٩٣٣/٤/٢٣ — ١٩٣٣/٩/١٩
المقطم : ١٩٢٩/١٠/٩ و ١٩٢٩/١٠ .
الأهرام : ١٩٢٦/٢/٣ (اللغة القبطية — مرقص سميكة)

أدوات التغريب والغزو الثقـــافى

* الاستشراق
* التبشير
* دعوات التغريب
* صراع الثقافات الغربية
* دور الحضارة الغربية
* الامتيازات واستعارة النظم

(١)

الاســــتشراق

كان الاستشراق والتبشير من أبرز ادوات التغريب والغزو الثقافى . ولاشك أن بين الاستشراق والتبشـــير فوارق واضحة . ذلك أن الاستشراق « عمل ثقـــافى » يحمل معنى دراسة الشرق وجغرافيته وتاريخه ونفسية أممه وتراثه . وليس الكشـــــف عن التراث المـــدفون والمخطوطات الفردية النــادرة وتقديمها محققه مراجعة على مختلف النسخ مبوبة مفهرسة الا غشاء شــفاف يخفى الهدف والغاية التى هى فى حقيقتهـــا « استكشاف الأرض المستعمرة » واعدادها للغزو والتبشير وسيطرة الاستعمار .

***

الاستشراق والمستشرقون

أما التبشير فهو « حركة » ينتقل بها مجموعة من المرســـلين الى بلاد الشرق حيث ينشئون المدارس او المستشفيات أو المعاهد التى تجتذب أبناء البلاد وفق منهج مرسوم لنشر المسيحية بينهم .

غير أن هناك بين الاستشراق والتبشير خيوطا دقيقة وصلات اساسية تتجه كلها الى الهدف الذى رســـمه الاستعمار وهو التغريب والغزو الثقافى .

ولقـــد بدأ الاستشراق والتبشير معا بعد الحروب الصـــليبية ونشأ فى حضانة الكنيســة والبـــابا ، وكان الاستشراق يستهدف ترجمة القرآن الى لغـــات أوربا وترجمة الانجيل والتوراة الى اللغة العربية .

أما التبشير فهو توأم حركة الغزو الثقافى الغربى وفق مخطـــط مدروس على اساس اســـتغلال الطلاب والمرضى وتحويل عقائدهم والتأثير على مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة اجيالممسوخة مبلبلة العقائد مضطربة الثقافة منكرة لقيمها وتراثها ولغتها وتاريخها وبذلكيمكن القول أن المستشرقين هم طلائع المبشرين » وليس مايمنع من أن ننظر الى رجال الاستشراق على اساس أنهم علماء لهم جهد وكفاية وقد قدموا اعمالا هامة فى احياء التراث ، غير أن الهوى والتعصب كان عند أكثرهم يغلب عـــلى الحق والانصـــاف وانهم لم يطبقوا المذهب العلمى الذى نادوا به فى أبحاثهم ، واذا أخذنا برأى باحث تغلغل فى هذه الأوساط وتعرف بالمســـتشرقين وعاشرهم وصحح معهم ترجمـــة التوراة وخدم مطابعهم فى مالطــــه ولندن كفارس الشدياق وضعنا نظارات ســـوداء على أعيننـــا ونحن ننظر الى اعمـــال المستشرقين فهـــو يقول (ذيل الفارياق ص ٢) : أن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم من شيوخه وانما تطفلوا عليه تطفلا وتوثبوا توثبـــا . ومن تخرج فيه بشىء فانما تخرج على القسس ثم ادخل راسه فى اضغاث احلام وتوهم أنه يعرف شـــيئا وهو يجهله ، كل منهم اذا درس فى احدى لغـــات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقعة من عنده بما شاء ، وما كان بين الشبهة والتبين حدس فيه وخمن فرجع منه المرجوع ، وفضــــل المفضول » .

ونحن اذا نظرنا فى عوامل نشأة الاستشراق وجدنا هدفه وغايته :

لقد نشأ الاستشراق لمقاومة الامتداد والتوســـع العربى الاسلامى ، هذا الامتداد الذى عـــبر الى أوربا وسيطر على أسبانيا واجتاح جزءا من جنوب فرنسا حتى مدينة) بواتيه (أو بلاط الشهداء ، ونفـــذ الى جزيرة صقلية وبدأ يسيطر على جنوب ايطاليا معقل المسيحية ، وكان من نتيجة ذلك أن تألف (مؤتمر فيينا ١٣١١) الذى تراسه البابا كليمان الخامس وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة فى برلين وبولون واكسفورد وسلمنكة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخرج وعاظ يســـتطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم فى عقائدهم .

وقد كان هذا العمل الذى بدأ فى أحضان البابوات

والكنيسة ثم تحول الى خدمة الملوك ورجال السياسة . يهدف الى دراسة الشرق ولغاته وتاريخه والعقلية العربية

وكان ذلك كله يقدم فى تقارير الى الحكومات ،وكان جل المستشرقين على اتصال دائم بوزارة الخارجية او وزارة المستعمرات . ولم تكن بعثاتهم التى قاموا بها الى بلاد الشرق بعثات علمية خالصة لوجه العلم وان حملت أسماء الجامعات والمعاهد العلمية ، وانما هى بعثات سياسية يذهب محصولها الى وزارة المستعمرات ولا زلنا نذكر البعثات العلمية التى وردت الى الوطن العربى قبل الحرب العالمية الأولى والتى ساحت فى صحراء سينا وجزيرة العرب وكيف انها كانت فى الحقيقة بعثات سياسية حربية ارادت ان تكشف عن الطرق والمياه والسكك الحديدية ومواقع الجيوش وتحركات الغزو ، وقد جاء الجاسوس « لورنس » الذى اطلقوا عليه من بعد الحرب العالمية الأولى ملك العرب غير المتوج مع احدى هذه البعثات .

وقد استهدف الاستشراق خدمة الاستعمار عن طريق العلم ، وظهرت جميع النظريات الاستعمارية التى قامت على التهوين من شأن الشرق والعرب والاسلام فى أحضانه . وكلها نظريات انخدع بها باحثونا فى الثلاثينيات من هذا القرن ورددوها فى مؤلفاتهم ، وقد قامت على الهوى والغرض وكان فى مقدمتها نظرية « السامية » والآرية التى تصف العرب والجنس السامى بأنهم قوم اقل درجة فى الفكر والثقافة من الاجناس الأخرى كما سجل ذلك ارنست رينان احد كبار المستشرقين عام (١٨٩٢) فى كتابه تاريخ اللغات السامية قال : ليس الجنس السامى روحانية الآريين التى عرفها الهنود والألمان وليس لهم هذا الاحساس بالجمال الذى بلغ حد الكمال عند اليونان : وقد ارتبط التوحيد عند الساميين بالتعصب . فالساميون تنقصهم الدهشة التى تدعو الى التساؤل والتفكير . فلسفتهم منقولة عن اليونان . ينقصهم الاحساس بالتنويع . ملكة الضحك عندهم معدومة . وعندهم نقص فى الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير » .

ولعل هذه النظرية وحدها تعطى حقيقة الاستشراق وموقفه من المنهج العلمى ومن التعصب .

وقد اداهم هذا التعصب الى أن يتحذوا طريقا محفوفا بالمخاطر حيث تراهم يفرضون فرضا يتفق مع اهوائهم ثم يبحثون فى القرآن او الحديث او الآثار المختلفة عن الأدلة التى تؤيدها وجهة نظرهم .

وقد كانت مؤتمرات الاستشراق لا يدعى اليها من البلاد العربية الا اعوان المستشرقين ودعاة التغريب وان احدا منهم لم يعارض اى اتجاه للمستشرقين فيما عدا احمد زكى باشا شيخ العروبة وعبد الله فكرى فى أول مؤتمر للمستشرقين حيث تحدث الأخير عن بطلان دعوى اللغة العامية .

* * *

(التركيز على الاسلام)

ولعل أهم ما ركز عليه المستشرقون هو الاسلام والنبى محمد فهم معتدلوا الراى عندما يتعرضون لتاريخ العالم القديم فاذا بلغوا مرحلة الاسلام بدا التحريف والافتراء والكذب على الدين وعلى النبى فمرجليوث يقول ان « محمد » هو مؤسس دين حربى لا صلة بينه دين الفضيلة وان « ابن عبد الله » تطلق على الوالد المجهول أو على من ليس لى اب وكان لفظ (عبد الله) معناه الشخص المجهول . وان القرآن مافق .. وان القرآن كسجل تاريخى ليس مرتبا حسب الحوادث والتاريخ . وفنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية قد حشا دائرة المعارف الاسلامية طعنا جارحا على النبى وعلى الاسلام فى كل مادة .

وهم فى سبيلهم الى اثارة الشكوك والبلبلة لا يدرسون الاسلام الصحيح ولكنهم يدرسون الالحاد فى الاسلام والشخصيات التى عرفت بالانحراف كابن الراوندى والحلاج والسهروردى وابن عربى ويدرسون مذاهب الخلاف والفرقة كالمذاهب الكلامية والتصوف والزندقة كما يدرسون القرامطة والزنج والشعوبية البابكية وغيرها على انها فرق من الاسلام ومذاهب منه .

والغرض من هذا كله تصوير الاسلام بصورة مضطربة منفرة قوامها الخلاف والصراع والتخلخل .

وقد وزع المستشرقون أنفسهم على ابحاث الاسلام فاختص قسم منهم بمباحث القرآن وآخر بمباحث النبى وثالث بأبحاث الدين الاسلامى .

وفنسك المستشرق الهولندى المتعصب قد زود جماعة المبشرين والمستعمرين باجابات على اسئلة ورد على فروض لتكون اداة فى زعزعة عقائد المرسلين ومما ردده فنسنك أن محمدا كان وثنيا قبل البعثة وقول

ابول در منجم ان محمدا كان يتعبد على طريقة اليهـود والمسيحية .

واعلن المستشرق سيكارو صراحة : ان الاسـلام فى روحه الخاصة يتنافى مع مصلحتنا فيجب التقليل منـه بين الشعوب الخاضعة لنا .

ويقول مرجليوث ان الاسلام معناه الذل والخضوع .. وقال عن القرآن ان أول ما يلفت النظر اليه هو كثرة التكرار لدرجة المبالغة وهو يحوى شـيئا كثيرا من اللفظ الحوشى .

وجملة آراء المستشرقين فى الاسلام والقرآن واللغة العربية :

● — محمد : مجهول الأب ، كان وثنيا قبل الهجرة

● — القرآن كتـاب وضعه محمد ، وانه حرف وبدل بعـد النبى وان التوراة والانجيل مقدسـين وان القرآن غير مقدس .

● — الدين الاسلامى مخترع ملفق .

● — اللغة العربية الفصحى لا تصلح لشىء وهى لغة قديمة قد ماتت ولا يتكلم بها احـد واللهجات المحلية انفع منها .

● — لم يكن للعرب فضل فى ثقافة او تاريخ .

كما جرى الاهتمام بانكار ان أصل العلوم اليونانية وتطورها له صـلة بالشرق . وانكار النصـوص اليونانية التى تعترف للشرق بأنه واضـع العلوم وان اليونان اخذوا عنه معارفهم (جويدى) .

— العناية بدراسة اللهجة العامية بمصر . وهى ما يطلقون عليها اللغة المحكية . (نلينو) .

● أن اهالى مراكش من البربر لم يعرفوا الاسلام ولم يؤمنـوا به . وانهم لا زالوا غير مسـلمين ، وأن « العرب » الذين فتحوا الأندلس وغزوا فرنسا وايطاليا كانوا مسيحيين وأن طارق بن زياد لم يكن عربيا ولـكنه كان بربريا مسيحيا .

واذا كان بعض مؤرخو الغرب أو كتابه قد انصفوا الاسلام والقرآن امثال كارليل وجوستاف لوبون وجوته وهنرى دى كاسترى وولز وبرناردشو فانهم ليسوا من المستشرقين .

ومن مثال ذلك قول ولز : عن خصائص الاسـلام « ان ابرز خصائصـه الوحدانية المطلقة التى لا تعرف هوادة ، وعقيدته السهلة المتحمسة فى الله وحكمه وخلوه من التعقيد المذهبى والتحرر المطلق من الرهبنة والمعبد ، ذلك هو تأكيده الاخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن الوانهم واجناسهم واوضاعهم » .

* * *

موقف الفكر العربى الاسلامى من الاستشراق

كان موقف الفكر العربى الاسلامى من الاستشراق كشانه دائما من كل ما هو غربى : الحرص والحذر بالرغم من ظهور طائفـة من دعاة التغريب من تلاميذ المستشرقين الذين رددوا آرائهم وحملوا لواء افكارهم امثال منصور فهمى واحمد ضيف وطه حسين وزكى مبارك واسماعيل مظهر وتوفيق الحكيم . فقد كتب منصور فهمى رسالة الدكتوراه فى باريس تحت اشراف المستشرق الاسرائيلى « ليفى بريل » عن (حالة المراة فى التقاليد الاسلامية وتطوراتها) وكان مما جاء بها أن محمد شرع لكل الناس واستثنى نفاسه وكان له ضعفه واختص نفسه ببعض المزايا . وقال منصور انه نشأ مسلما فى وسط اسلامى وانه قصـد باريس ففتح عليه بارشـاد العلامة ليفى الاسرائيلى فظهرت فيه « المؤثرات السعيدة » فدون هذه الرسالة التى بحث فيها حالة المراة فى الاسلام .

وكتب طه حسـين تحت اشراف اليهودى دور كايم رسالة عن ابن خلدون نقل فيها راى المستشرقين فى كفاح أهل المغرب ضد الغزاة والمستعمرين الفرنسيين وهاجمهم واتهمهم بأنهم يؤخرون عمل فرنسا فى نشر الحضارة .

ونقل آراءه فى كتاب الشعر الجاهلى من رسالة لبشر وايس لمستشرق هو (هاشم العربى) وفى الشعر الجاهلى كذب طه حسين القرآن فى اخباره عن ابراهيم واسماعيل وانكر القراءات السبع المجمع عليها فزعم انها ليست منزلة من عند الله تعالى وطعن فى نسـب النبى وانكر أن للاسلام أوليته فى بلاد العرب وانه دين ابراهيم وردد توفيق الحكم آراء « رنيان » فى العقل العربى . وردد اسماعيل مظهر آراء المستشرقين الغربيين من أنه

لا علاقة البتة بين الدين وبين المجتمع وقال ان الذين يقولون بأن للدين أثر فى المجتمع واهمون فان المجتمع قائم على أمران : القوانين الوضعية والمعاهدات والنظم الموروثة « فما دخل الدين اذن فى النظام الاجتماعى » ؟

وقد عرض كثير من كتابنا لرايهم فى الاستشراق والمستشرقين :

من ذاك ان محمد كرد على رئيس المجمع العلمى بدمشق الذى القى فى القاهرة (٧ مايو ١٩٢٧) محاضرة بمدرسة المعلمين العليا امتدح فيها المستشرقين بأنهم خدموا اللغة العربية باخراج ذخائرها وتعريف المعاصرين من اهلها بمجد اسلافهم وذكر عشرات من مستشرقى كل مملكة واسماء امهات الكتب التى كان لها الفضل فى طبعها .. وقال ان الاستعمار كان سببا من اسباب عناية الأوربيين بدراسة اللغات الأجنبية عامة والشرقية وفى مقدمتها العربية خاصة ورد عليه عبد العزيز شاويش فقال ان المستشرقين فى العصر الحديث قد اصبحوا دعاة للاستعمار وقال ان تادبهم بآداب العرب لم يزدهم الا جفوة وغلظة وعقوقا .

وقال ان المستشرقين انما يتفوقون بما يجدونه من مساعدات مادية ومعنوية فهم يسيرون فى البحث العامى تتقدمهم مدافع حكوماتهم وأموال أوقاتهم المرصودة لخدمتهم . وقال ان المستشرقين مع كل امتيازاتهم قل منهم من يفقه آداب اللغة وأسرار الاسلام ومنهم من يظن أن أكل لحم الجمل من الفروض الاسلامية وطبع احدهم كتابا عن القرآن ملىء بالأخطاء فى اللغة وان مستر فاولا مدير دار الكتب المصرية طعن فى القرآن فى محاضرة القاها فى مؤتمر المستشرقين فى الجزائر سنة ١٩٠٥ .

وتساءل الدكتور على العنانى (الهلال م ٤٠ ص ١٣٩٣) عن عناية المستشرقين بالأدب العربى وهل هى خالصة للعلم . وقال ان الغربيين الذين يكتبون فى أوربا عن الشرق ينقسمون الى قسمين : قسم يكتب فى الناحية السياسية . وقسم يكتب فى الناحية العلمية .

وهذا القسم الأخير ينقسم الى فريقين (١) فريق تحرر افراده من الهوى فى مباحثه العلمية (٢) وفريق تغلب عليه العواطف المغرضة ، والقسم الأول مهمته الاشادة بعظمة اوربا والحط من كرامة الشرق لتقرير نظرية دوام وصاية أوربا على الشرق ، والقسم الثانى : على القارىء الشرقى أن يتعرف روح كتابته ويفرق بين الكاتب الذى يتأثر بعاطفة مخصوصة وبين الذى يكتب للعلم مجردا من أيه عاطفة » ومؤدى الرأى التشكيك فى اغلب ما يكتب المستشرقون .

اما « روحى فيصل (الرسالة ع ١١١ ص ١٢٣١) فيرى أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله . فنظرت الى الأدب العربى والتاريخ الأسلامى والى كل ما انتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث الا ان بعض افراد هذه الطائفة انعدوا لا يتجاوزون عدد الأصابع وهم ازاء الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئا وقد قيل أن النادر لا حكم له » .

وقد عنى محمد كرد على بالدفاع عن المستشرقين والاشادة بفضلهم من : سلفتر دى ساسى (زعيمهم الأول) الى اليوم نتيجة لعملهم (فى الكشف عن تراثنا الذى كنا نجهله وطبع المخطوطات العربية) غير انه عاد فاعترف بخطر اعمالهم فقال (الرسالة ع ١١٤ ص ١٤٧٧) انى موافق على ما قاله (روحى فيصل) فى تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق الا اننى لا اغمط حق العاملين منهم . أعلم ان كثير منهم يعملون لسياسة بلادهم وان منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق سلما لخدمة دينهم على نحو ما فعل اسلافهم فى القرون الوسطى » .

اما الدكتور حسين الهراوى فقد هاجم المستشرقين بمناسبة تعيين « فنسك » عضوا فى المجتمع اللغوى المصرى (نوفمبر ١٩٣٣) فقال (الهلال م ٤٢ ص ٣٢١) : اذا قلبت اى كتاب اجتماعى او عمرانى باللغة الأجنبية يتكلم عن مصر او الشرق أو الاسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يستسيغها منطق وليس من الحقيقة فى شىء . ويلفت نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الدين الاسلامى من الصفات التى لا تنبو فقط عن الذوق السليم والحقيقة . بل ان الكتاب الأوربيين يصورون الاسلام بصورة بشعة غريبة لا تكاد تقرأها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ .

وقال : كنت أطالع هذه الكتب التاريخية فأجد فرقا كبيرا عندما يكتب عن التاريخ القديم كوصف مصر القديمة وآثارها وسوريا وتاريخها والعراق وماضيها . فاذا تكلمت عن الجزء الاسلامى او حياة سيدنا محمد (ص) اجد تحريفا ظاهرا واضحا وتشنيعا كثيرا .

وقال : اطلعت على تقرير لجنة العمل المغربى الذى كتبه المستشرق سيكارو يصف طرق مقاومة الاسلام وهو واحد من التقارير السرية التى يرسلها المستشرقون من البلاد المستعمرة الى حكوماتهم لمقاومة الاسلام لأنه روح يتنافى مع الاستعمار والتقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها باحياء اللهجات المحلية فى شمال

افريقيا وتجبيذ اللهجات العامة حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم » ويقول سيكارو أن الاسلام فى روحه الماضية قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغباتنا ونزعاتنا . وان من مصلحتنا التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا ».

قال : وفى زيارتى لأوربا علمت ان الأوربيين يربون طائفة من العلماء على كراهية الاسلام واحتقار الشعوب الاسلامية . وان المستشرقين جماعة يربون تربية استعمارية — ليعملوا فى المستعمرات — على اسلوب يحذرهم من العطف على الشرق لو الميل للاسلام .

وقال : اما عن مواضع دسائس المستشرقين فهم يتكلمون فى التاريخ الاسلامى بروح المؤرخ اما عن سيدنا محمد (ص) وعن الاسلام وعن القرآن فهم يتكامون بروح المنفر الذى يخيف الناس من الاسلام وبروح المتحامل الذى يكيل الشتائم من غير وزن .

وقال أن من طريقة « فنسك » فى البحث التوصل الى الآيات التي تتناسب مع الراى الذى يفترضه فاذا وجد آية لدخض رايه حذفها حذفا وانكرها انكارا حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على اقواله من غير تمحيص .وقال انهم تنقصهم فى مباحثهم عن الاسلام : « الروح العلمية » . ولهم فى الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم . وهى أنهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون أسبابه ، فاذا وجدوا فى القرآن آيات تتناسب فى معانيها مع فرضهم اقتبسوها ، واذا وجدوا آيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا أنها غير موجودة فى القرآن — وقال أننا اذا ما خلعنا عنهم تلك الزخارف البراقة من الوهم الذى أحاطوا به انفسهم لظهروا قوما ضعافا فى العلم لهم فى الاسلام مآرب سيئة » ا . هـ .

* * *

المستشرقون والاسلام للدكتور الهراوى

وحاول زكى مبارك الدفاع عن المستشرقين فاثبت كل ما وجه اليه من تهم (الهلال ص ٣٢٥ م ٤٢) قالوا : أن المستشرقين طلائع الاستعمار وهذا صحيح . على أن المستشرقين لا يستطيعون ان يقضوا اعمارهم جميعا وهم ادوات استعمارية فبعضهم تغلب عليه النزعة العلمية وتضعف النزعة الاستعمارية ، ومن دلائل ذلك انكباب كثير من المستشرقين على مسائل نظرية بحتة لا تقدم ولا تؤخر فى خدمة الاستعمار وقالوا : وللمستشرقين اغلاط : وهذا صحيح فان كبار المستشرقين لهم اغلاط مضحكة فى فهم المعانى الشعرية .

وقال زكى مبارك « وللمستشرقين اخطاء فى شرح قواعد الاسلام وهذا صحيح فلكثير منهم فصول لا تجمل بالعلماء . وخاصة حين يتحدثون عن حياة الرسول . ولهم نظرات الى حياته المنزلية والاجتماعية والتشريعية تدل على ان فريقا منهم يخدم بعض الهيئات الدينية » .

وقد سبقونا الى الدراسات الأدبية والاسلامية بنحو ثلاثة قرون . والباحث الجاد فى مصر والشرق لا يستطيع الفرار من بحوثهم : وليس لدى ما يمنع من الاعتراف بأن اثر المستشرقين ابقى فى ذهنى واوضح . ومن النصيحة أن اشير بتأثير خطوات المستشرقين فى غير زيغ ولا ضلال . ولا ننسى أن المستشرقين ناس لهم مطامع ولهم اهواء . واكثرهم لا يتصل فى بلده بغير وزارة المستعمرات وانا لا اهون من أغلال المستشرقين ولا ادعو الى متابعتهم فى غير بصيرة ولا روية » .

وقال الدكتور هيكل (حياة محمد ص ٦١) انهم متأثرون بالنصرانية الأدبية تأثرا يجعل اكثرهم ينظرون الى الأديان نظرة تملؤها الريبة . وتجعل الأقلية المستمسكين بمسيحيتهم يتأثرون بما كان بين المسيحية والعلم من نضال فيخضعون فى بحوثهم الاسلامية لمثل ما خضع له امثالهم فى بحوثهم المسيحية او بحوثهم الدينية بوجه عام .. وقال « أن الخطأ يتسرب الى بحوث المستشرقين : لعدم الدقة فى ادراك أسرار اللغة العربية تارة ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقدرات دين من الأديان او على هدم مقررات الأديان جميعا . ومن الأدلة على تأثر بعض المستشرقين بحرصهم على هدم المؤثرات الدينية واسرافهم فى ذلك ما تدل عليه مباحثهم من ان القرآن ليس وثيقة تاريخية لا محل للريبة فيها ، وان تجنيهم على الاسلام لم يمليه الا الحقد . وأن دراساتهم لم تمكنهم من ادراك روح الاسلام وأساس حضارته » .

ويضيف نجيب العتيقى (فى كتابه « المستشرقون ص ١٩٧) كيف ساعد المستشرقون ملوكهم وولاتهم فى استيلائهم على الشرق وعن طريقهم درسوا كل ما فى الشرق : عقليته وكتبه وأديانه وعقائده وتاريخه ولغاته مقدمة لغزوه — وبذلك تمكنوا من فرض ثقافتهم ولغاتهم فما بقى فى الشرق اليوم زاوية الا ولغة غربية تعلم رسميا فيها الى جانب لغاته « ومن اجل ذلك احسن ملوك الغرب

صلات المستشرقين وانتدبوهم سفراء وقناصل وتراجم وموظفين فى سلكى الجيش والسياسة ومنحوهم ألقاب الشرف كبارون وكونت والأوسمة وكراسى التدريس فى أشهر الجامعات » .

وقال شكيب ارسلان : انهم اذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة واردة فى زاوية كتاب قد يكون محرفا سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معيارا ومقياسا ، لا بل صيروها محكا يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة .. ويرجع هذا التهور الى قلة الاطلاع على الأصل .

وقال يوسف داغر فى كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) أن لبعض المستشرقين أبحاث فكرية تفتقر الى الدقة وذلك لعجمتهم وقلة خبرتهم بمذاهب الكلام عند العرب وضعف الروح العربى فيهم .

* * *

اخطاء المستشرقين

وقد سجل نجيب العقيقى — (ص ٢٢٣ من كتابه المستشرقون) أخطاء المستشرقين :

أولا : التعصب الدينى : وقال ان الضلال فى العصبية الدينية ، فاذا كتب المستشرق المسيحى عن ديانات الشرق غير المسيحية فلا يكتب بذلك القلم الذى يكتب به فى الآداب والتاريخ والأخلاق والعادات ، لأنه لم ينس دينه ساعتئذ ، منهم من ينكر أن يكون لمحمد ولد من الذكور ولو دعى بأبى القاسم ويشك فى تلك الشجاعة التى عرف بها العرب ويميل بها الى الخرافة . ومنهم كازانوفا الذى يتقول بأبى بكر انه أضاف فى جمعه القرآن قوله : أن الله أنزل القرآن على النبى » واغرب من ذلك قول مرغليوث انه كان النبى جمعية كالجمعيات السرية اليوم .

ثانيا : أخطاء الترجمة والنسخ : لما كان بعض المستشرقين لا يحسن الترجمة عمدوا الى الاستنتاجات . ترجم كازانوفا كلمة « أمى » بشعبى ومما يؤخذ على المستشرقين اعتمادهم على أصول اللغة ومعظمها لاقواعد له فيشرحون على الطريقة الكلامية دون معرفة القصد الذوقى فيها . وثمت تعابير عربية أو دخيلة يشق عليهم فهمها وخاصة اذا استندوا الى من تقدمهم من مستشرقين وقد كتبوها بالحروف اللاتينية التى كثيرا مالا تفى بحاجة اللفظة العربية .

ثالثا : نرى أن بعض هؤلاء الناس يغترون بنفوسهم فيترفعون عن العلماء العرب ولا ينظرون اليهم الا نظرتهم الى تلاميذ الكتاتيب .

نرى أن بعض هؤلاء — اى المتغربين العرب — خدعو بينهم وبين أنفسهم فظنوا ان المستشرقين أتوا فصل الخطاب والحجة الواضحة .

وقال نجيب العقيقى : أن السير وراء المستشرقين حتى النهاية هو عين الضلال .

× كما هاجم أمين الخولى الاستشراق (الأدب سبتمبر ١٩٥٧) وقال أن الاستشراق والاستعمار والتبشير أشبه بالحلقات الثلاثة المتداخلة وهاجم مؤتمراتهم التى قال انه يحضرها منذ عام ١٩٣٢ لأنها تتجاهل اللغة العربية بالرغم من انها لغة الدراسة الاسلامية على اختلاف صنوفها . وقال : أن هذه المجامع لا تعد اللغة العربية لغة لهم بصفة عامة ، وقال : ان كل اقتراح قدم فى مؤتمرات المستشرقين لجعل اللغة العربية لغة رسمية رفض .

* * *

المراجع

مجلة المجمع (دمشق) مجلد ٨ ص ٦٨٠ : خطاب كرد على فى مؤتمر المستشرقين باكسفورد .
حياة محمد : الدكتور هيكل
حسين الهرواى : المستشرقون والاسلام
أغراض الاستشراق : الرسالة ع ١١١ ص ١٣٣١ و ع ١١٤ ص ١٤٧٧
الهلال : المستشرقون : الهراوى وزكى مبارك م ٣٢١/٤٢
الهلال : المستشرقون والآداب العربية م ١٣٩٣/٤٠
الثقافة : عدد ١٤ ص ٢٢ وعدد ٧ ص ٣١ عدد ٢٧١٨ .
المكشوف : عدد ٤٣

(٢)

التبشير والاستعمار

ليس « التبشير » الا احد الحركات الكبرى للغزو الثقافي والتغريب والسيطرة على العالم العربى وقد سبق الاستعمار ومهد له وفق خطة ضخمة تهدف الى القضاء على العقائد الدينية والثقافات والقيم التى تقوم عليها مقدرات الأمة العربية باعتبار أن هذه العقائد قامت على أساس القوة الروحية والنفسية التى الهبت مشاعر هذه الأمة فى الدفاع عن كيانها والجهاد فى سبيل حريتها ، وقد وضع مخطط التبشير على أساس القضاء على كل مقاومة أو مناعة مسخرين العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية والثقافة والأدب واللغة فى سبيل هذا الهدف واستغلال فقر هذه الشعوب وجهلها وضعفها فى السيطرة على عقائدها وعواطفها ومشاعرها .

ويهدف مخطط التبشير الى :

١ — تشويه الثقافة الاسلامية والتراث العربى والاسلامى .

٢ — افساد الخصائص القومية فى البلاد العربية والاسلامية .

٣ — خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص مايؤدى الى الخضوع للمدنية الغربية .

٤ — توسيع شقة الخلاف بين الطوائف والمذاهب واثارة النزاع بين الأديان .

٥ — اخضاع الأمة الاسلامية والوطن العربى للاستعمار الغربى .

٦ — اعداد شخصيات عربية لاتقاوم النفوذ الأجنبى

وقد بدأ التبشير عمله ١٨٣٠ بعد ان اقره البابوات ورسموا خطته ووضعت الدول الاعتمادات الضخمة له ، وفى مقدمتهم بيوس الحادى عشر (ك / التبشير والاستعمار — م. خالدى و ع. فروخ) عن طريق المدارس الأجنبية والارساليات الخاصة والجمعيات العلمية والجامعات والأندية والصحافة والمستشفيات والملاجىء كطليعة للاستعمار وكوسيلة للسيطرة والثقافة الدينية والسياسية على العالم الاسلامى .

وعن طريق التعليم زيفوا التاريخ الوطنى والاسلامى والعربى . وطعنوا على العرب والاسلام .

وقد استخدم التبشير لتحقيق اغراضه فى افريقيا .. ومن ذلك ان (لفجنستون) الذى اكتشف وسط افريقيا لم تكن رحلته الكشفية الا جزءا من عمل البعثات التبشيرية .

وكان المبشرون من ناحية أخرى أداة لتقديم معلومات وبيانات الى وزارات الخارجية والمستعمرات واستغل الاستعمار صفا من دعاة التغريب فى البلاد العربية لمعاونة المبشرين ووضع خططهم وأفكارهم موضع التقريب الى الجماهير ، ونشرت فصول فى الصحف لاثارة الشكوك والاتهامات وخلق قضايا ثقافية تتعلق بالالحاد والاباحة باسم حرية العلم والتخلص من سلطان الدين والتقاليد ومهاجمة اللغة العربية والاسلام . ورموا كل من يقف فى وجه سمومهم بالجمود والرجعية .

* * *

عمل المبشرين فى ميدان التعليم

اتخذ التبشير اتجاهين كبيرين : الاتجاه الأول عن طريق التعليم وانشاء الكليات والمدارس وقد تركز فى لبنان ومصر واسانبول واستهدف المراة العربية بنوع خاص والاتجاه الثانى : وهو التبشير السرى وقد شمل العالم الاسلامى كله وقد بدأت حملات التبشير على الكيان العربى

فى الربع الأول من القرن التاسع عشر فى صورة المرسلين الأمريكان الذين وصلوا الى بيروت بزعامة غالى سميث عام ١٨٢٧ ثم بوصول فان ديك ١٨٤٠ ودانيال بليس مؤسس الجامعة الأمريكية ١٨٥٦ .

وبدأ نشاط اليسوعين (العازاريين) بانشاء اول مدرسة فى عنبطورة ١٨٣٤ واسس الانجليون الأمريكان اول مدرسة فى عبيه ١٨٤٦ ، وقد تم انشاء الجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية ، كما وفدت جماعة المرسلين الأمريكية الانجليين الى مصر ١٨٥٥ حيث انشأت كلية أسيوط ثم الكلية الأمريكية بالقاهرة (وقد وردت ارساليات لدول عربية متعددة وكانت كل دولة تحتضن مذهبا من مذاهب المسيحية ، فالكاثوليكية فى حماية فرنسا ، والأرثوزكية فى حماية روسيا ، والبروتستانتية فى حماية بريطانيا (انجلترا) وقد استهدف التبشير تحقيق غاياته الاستعمارية عن طريق التعليم وهو تنشئة جيل يدين بالولاء للدولة التى تتبعها المدرسة او الجامعة فضلا عن الولاء للثقافة الغربية نفسها والاستعمار والاستهانة بالقومية والدين واللغة) .

وقد عدت الجامعة الأمريكية فى بيروت مركزا هاما من مراكز الغزو الثقافى فى الشرق الأوسط كله واستهدفت منذ اليوم الأول تعليم الدين المسيحى والمذهب البروتستانتى ، وصرح المستر بنروز أحد عمداء الجامعة : أن الغاية الأولى من تأسيس الجامعة لم يكن تعليم العلم وانما نشر المذهب البروتستانتى .

وقد كان جميع رؤساء الجامعة الأمريكية ومدرسوها مبشرون على اساس انها مدرسة بروتستانتية ولذلك فهى تجبر الطلبة على حضور الصلوات .

وقد اسفرت الجامعة الأمريكية — وان توارى اتجاهها الآن قليلا — كل دروسها فى سبيل تأويل مسيحى لفروع العلم كالتاريخ وعلم النبات . وقد أعانت الكلية فى كل مناسبة أعرض فيها الطلبة المسلمون الذين تضمهم من الشام والعراق ومصر والسودان عن اجبارية دخول الكنيسة : انها كلية مسيحية اسست بأموال شعب مسيحى وانهم قد عملوا لايجاد تعلم يكون الانجيل من مواده ولذلك لابد أن تعرض منافع الدين المسيحى على كل تلميذ .

* * *

وقد صرح بنروز رئيس الجامعة الأمريكية (١٩٤٨) عن هدف التبشير من التعليم فقال : لقد برهن التعليم على انه اثمن وسائل التنصير .

ولذلك كان الهدف الأمريكى من التبشير هدفا دينيا اساسا ، ولكنه تحول الى هدف سياسى بعد أن بدات أمريكا تتدخل فى سياسة العالم العربى وخاصة موقفها من اسرائيل بعد أن خلقتها وأمدتها بالحياة وقد استهدفت هذه الدعوة :

(١) التشكيك فى الاسلام .

(٢) القضاء على اللغة العربية وتغليب اللهجات العامية .

(٣) كتابة هذه العلوم بالحروف اللاتينية .

أما هدف المبشرين الفرنسيين (ومركزهم الجامعة اليسوعية فى بيروت) فهو خلق صداقة روحية مع فرنسا .. فالاستعمار فى المؤسسات الفرنسية يستهدف خلق روابط ثقافية وسياسية مع فرنسا ، على أساس البرنامج الفرنسى الذى وضع عام ١٨٦٤ وهو « معرفة فرنسا ومحبتها » وقد أعطى الاحتلال الفرنسى ببيروت فرصة كبيرة فى سبيل دعم هذا الموقف .

ولا شك ان تعدد جهات التعليم فى الوطن العربى كانت فى حد ذاتها هدفا استعماريا وغزوا ثقافيا وتعزيزا التغريب وذلك بتمزيق وحدة الفكر العربى الاسلامى عن طريق تمزيق تيارات التعليم فى التبعية لفرنسا أو لبريطانيا أو لأمريكا مما يؤدى الى القضاء على الوحدة الفكرية ، وهكذا سيطرت هذه المعاهد التغريبية المسيحية النزعة على الشباب المثقف الذى أصبح بعد من قادة بلاده ، وذلك بانشاء فلسفة متسامحة مع الاستعمار ، محرومة من روح الجهاد والحرية التى يدعو اليها الاسلام .

* * *

اهداف التبشير

وقد لخص كثير من الباحثين اهداف التبشير فى أنه العمل لسيطرة الاستعمار سياسيا واقتصاديا وذلك بالقضاء على اللغات والأديان غير النصرانية والتاريخ

القومى موصلا الى استعباد اتباعها ، ذلك أن الاســـلام بأهدافه فى المقاومة وتاريخه فى الجهاد كان موضع خشية الدول الأوربية التى تراه قوة ضـــخمة تحول بينها وبين استعباد الأمة العربية والسيطرة عليها وترى أنه شديد المراس فى صــــد كل دخيل وانه دين الحرية والــكرامة والمقـــاومة ، وقد اجمـــع المبشرون ومنهم (كارل بيكر وجاردنر) أن القـــوة التى تكمن فى الاســـلام هى التى تخيف أوربا .

ولقد كان أشد ما يخشاه الاستعمار أن يتم الالتقاء بين أجزاء الأمة العربية فتتم الوحدة التىتقاوم الاستعمار — كما اشار المبشر لورنس برون — الى ذلك حين اشار الى أن هدف التبشير أن « يبقوا — أى المســـلمين — متفرقين حتى لايكون لهم وزن ولا تأثير اذ أن تجمع العرب يساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية » .

كما هدف التبشـــير الى اظهار الأوربيين فى ثوب الأبرار حماة الحضارة أنصار الحياه والعلم وذلك حتى يتمكنوا من الوصول الى قلوب العرب والمسلمين وتحقيق أهدافهم التى ترمى الى ســـلب القيم العربية العقليـــة والخلقية والروحية عنـــاصر قوتها وتمييع هـــذه القيم والتشكيك فيها .

ويرى المبشرون ن هدف التبشير فى الأغلب ليس نشر المســـيحية بقدر ما هـــو هدم الاســـلام . ويقول المستشرق هنرى جســـب أن (المبشرين) اســـتغلوا جهودهم لخدمة دولهم واذكوا نار العدواة فى الذين كانوا يبشرون بينهم .

* * *

التبشير والاســـلام

لا شك « أن محاربة الاسلام » هى العمل الأول للتبشير . وقد اتخذ لذلك خططا متعددة تقوم على أساس المغالطة فى تاريخ المسلمين ودينهم وتاريخ النبى محمـــد ووقائع حياته .

وكان أبرز ما يركز عليه التبشير هو محاولة اخضاع الاســـلام لمذاهب الفكر الغربى وفق ما خضـــعت له المسيحية ، وذلك بالاغضاء عن الحقيقة الواضحة التى لا سبيل الى انكارها او تجاهلها فى النظر الى الاســـلام وهى : أنه عقيدة ونظام اجتماعى وذلك بخلاف النصرانية .. ولذلك فان المسلمين ينظرون الى النظم الغربية التى تهدف الى اقامة مجتمعات جديدة على انهـــا تقوم على تجارب خاضعة للنجاح والفشل ، بينما يجد المسلمون عندهم نظاما اجتماعيا قابلا للتطور مع الزمن والالتقاء مع البيئات المختلفة وهم لذلك ليســـوا فى حاجة الى النظم الموضوعة تحت التجربة .

* * *

ومن الاتهامات التىيوجهها الفكر الغربىعن الاسلام أنه قام بالفتح على أساس السيف . وأنه سفك الدماء واقام المذابح والحرب فى سبيل تحقيق غايته وهو اتهام واضح خطاه ومدى المغالطة فيه ظاهرة .

(٢) ومن ذلك قولهم أن الفلاســـــفة العربية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ، وعند ريان أن كل مظهر للفلسفة الاسلامية انما هو للفرس واليونان أو النساطره أو اليعـــاقبة . وذلك الرأى مخالف لمـــا رواه المنصفون أمثال جوستاف لوبون من أن العرب لم يتقبلوا الفلاســـفة اليونانية فقط وانمـــا ناقشـــوها ونقحوها وزادوا فيها .

(٣) ادعى المبشرون أن نصـــارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة وأن البربر وحـــدهم هم أصحاب المدنية فى شمال أفريقية والأندلس . وأن العالم العـــربى هو (مصر والشـــام والعراق ونجد والحجاز واليمن) وأنه مسحته ٣ ملايين كيلو مربع وسكانه ٤٠ مليونا (مع أن مساحة الجزيرة العربية وحدها ٣ ملايين كيلوا مربع) وأن النهضة العربية بدأت فى مصر . وأن البربر لم يقيموا وحـــدهم مدينة المغـــرب والأندلس بل شاركهم العرب وأن البربر كالعرب مســـلمون ، والدنية التى خلقوها عربية ، وأن السودان وشمال أفريقيـــا وليبيا وتونس والجزائر ومراكش هى أجزاء من الوطن العربى وأن النهضة العربية بدأت فى مصر وليس فى لبنان وأن النهضة بدأت فى القسم الأخير من القرن التاســـع عشر وليس فى مطالع القرن التاسع عشر . وأن حصر الحركة فى نصـــارى لبنان والمبشرين الأمريكيين ظـــلم للتاريخ والأدب وخطأ لا مبرر له .

وقد صور عدد من المبشرين مدى خطر الاسلام على الاستعمار . وقال (أشعيا بومان) أن الاســـلام ليس دينا فحسب بل أنه من أركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعبا دخل الاسلام ثم عاد نصرانيا .

* * *

المــراة والتبشير

استهدفت خطة التبشـــير فى اساسها اســـتغلال المدارس المسيحية فى القاء بذور الشك فى نفوس النشء المسلم وافساد عقيدتهم . ولذلك كان الاهتمام بالفتـــــاة العربية بالغ الأهمية اذ ان تربيتها فى المدارس المسيحية والقاء بذور الشك فى نفسها منذ عهد النشأة مما يساعد على تحقيق هدف التبشير والاستعمار بالنسبة الى تحطيم الأسرة العربية والقضاء على الجيل الجديد الذى تنشئه الفتاة العربية التى تعلمت فى مدارس التبشـــير ـــ لذلك عول المبشرون على الغزو التبشيرى عن طريق المــراة فقال (اتين لامى) فى مجلة العالمين الفرنسية (سبتمبر سنة ۱۹۰۱) « ان تربية البنات فى مدارس الراهبـــات ادعى لحصولنا على حقيقة القصد ووصولنا الى نفس الغاية التى وراءها نسعى ، بل اقول ان تربية البنات فى مدارسنا هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الاسلام بيـــد اهله . ان التربية المسيحية او تربية الراهبات لبنـــات المسلمين توجد للاسلام فى داخل حصنه المنيع عدوه لداء لا يمكن للرجل قهرها لأنه سهل على المراة والحالة هذه ان تؤثر على احساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الاسلام وتربى أولادها على غير دين أبيهم » .

وقد انشئت اول مدرسة للفتات فى العالم العربى فى بيروت عام ۱۸۳۰ للمبشرين الأمريكان الذين اهتمـــوا بانشاء مدارس البنات ـــ أولا قبل مدارس الأولاد ـــ فى مصر وسوريا والسودان ، ووضعت الخطة على اساس ان التبشير يكون اتم حبكا فى مدارس البنات الداخليـــة حيث الصلة بالطالبات اوثق ولأنهـــا تنتزعهن من نفوذ حياة بيئة غير مسيحية ـــ كما قالت المبشرة ابا ميليجان ـــ حيث يجتمع بنات مسلمات عن اسر باشـــوات وبكوات تحت النفوذ المسيحى وليس ثمة طريق الى حصن الاسلام اقصر مسافة من هذه المدرسة » .

وقد عمد التبشير فى رسم هذه الخطة الى نظرية نفسية واضحة الدلالة هى ان الأثر الذى تحدثه الأم فى اطفالهـــا ـــ ذكورا واناثا ـــ حتى الصلة العـــاشرة من عمرهم بالغ الأهمية وبما ان النساء هن العنصر المحافظ فى الدفاع عن العقيدة ، لذلك كان لابد من العمـــل بين المسلمات على انه « وسيلة مهمة فى التعجيل بتنصـــير البلاد الاسلامية » وقد استعملوا لذلك المبشرات المثقفات ووضعوا البرامج التى تجعل سيطرتهم نفسيا على المراة العربية يسيرا .

وهذا هـــو السر فى اللهفة العجيبة التى يبديهـــا الاستعمار وكتابه وأعوانه من كتاب التغريب على تحرير المراة وتعليمها والدفاع عن دعاتها وهو ما لا يتفق مع خطط الاستعمار فى تأييد تنوير المراة وتعليمها وسفورها بينما هو يقف موقف الخصومة لتعليم الرجل وتثقيفه .

* * *

مخطط التبشـــير

بدأ التبشير عمله فى كنف الكنيسة لمقاومة الاسلام ثم اتجه الى العمل الســـياسى ، وقد اعان بلفور وزير خارجية بريطانيا (۱۹۱۷) ان المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور الهـــامة ولولاهم لتعـــذر على تلك الحكومات من تذلل كثيرا من العقبات .

وقد اتخذ التبشـــير فى اول امره خطة المهـــاجمة والبحث عن المناطق التى تصلح لتضليل اهلها ومحاولة تحويلهم الى المسيحية ، وذلك بوسائل الاغراء المختلفة ، غير ان هذه الخطة لم تجد نفعا وفشلت فشلا كبيرا ، فقد قاوم المسلمون عمليات التنصير وواجهوها بالخصـــومة مما دفع المبشرين الى الفشل والبحث عن خطط اخرى ، وقد كان المبشرون فى القرن التاسع عشر يدخلون فى جدال مع المسلمين يسوقون فيه الاتهامات الباطلة .

وقد عقد المبشرون عديدا من المؤتمرات واصـــدروا الوفا من النشرات والصحف والمجلات فى البلدان المختلفة وباللغات المختلفة كما استغلوا الصحافة غير التبشيرية لنشر اغراضهم بالتشكيك فى الاسلام ومهاجمة اللغـــة العربية والتاريخ وايقـــاع الخلاف بين الأديان والمذاهب والمعتقدات . وقد اتخذ التبشير من تقسيم العالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى فرصته الكبرى وعد هـــذا العمل بالنسبة له نصرا كبيرا ، غير انه لم يصـــل الى نتائج ذات اهمية واضحة .

وقد نصت معاهدة فرساى (المـــادة ٥٣٨) على جواز التبشير فى سوريا . وبذلك استطاع المبشرون فى الشام ان يضغطوا على البصيرية فى تلاد العلويين ونشر الدعوى بينهم بأنهم من احفاد الصليبيين .

وقد كان عام ۱۹۳۲ هو موعد تعديل هذه الخطط والاتجاه الى محاولة اقناع الأفراد والوصول الى قلوبهم عن طريق الصـــداقات واحترام العـــادات الشرقية والاسلامية للتمكن من بث آرائهم .

غير أن هـذه الخطة الجديدة لم تحقق للتبشير الوصول الى نتائج أكبر . وظهر المثقفون الذين آثروا أن يكونوا من دعاة التغريب وانكشف أمرهم ولم تخدع كتبهم ولا آرائهم المجموعة الواعية ، ولذلك كانت دعوات الفرعونية في مصر الفينيقية في لبنان والأشورية في العراق والبربرية في المغرب أسلحة التجزئة والتمزيق التي حمل لواءها التبشير ، ولقد كشف القس زويمر رأس المبشرين في العالم العربي عن فشـل جميع الخطط التي وضعت للتبشير بين المسلمين ونقلهم الى المسيحية . ودعا الى بذل مجهودات مضاعفة لهذا الغرض .ومن أمثلة ما كان يذاع من نشرات لدعم خطط التبشير ما كتبه القس باركين الى المبشرين يطالبهم فيه بحشد الجهود للعمل : في الجزيرة العربية ، ومما قاله « ان الحاجة شديدة الآن الى مائة مبشر يذهبون الى قبائل بلاد العرب المهملة التي لم تبلغهـا الدعوة بعد ، هناك نحـو مائة قبيلة في بلاد العرب يمكن تبليغهم الدعـوة وهم يسـكنون بلادا غير انجيلية مسـاحتها ثلث مساحة الهند وهم يعيشـون في الخيام .

اذهب بنفسـك الى بلاد العـرب . أسأل غيرك أيضا . احمل الكتاب المقدس الى بلاد العرب . ادع بلاد العرب والعرب الى المسـيح . ادع ٢٢٠ مليـونا من المسـلمين ليدينوا بديانة المسيح : (الجمعية العـالمية الصليبية للتنصير في العالم وبلاد العرب ١٩ هيبلندرود — ابرنورود — لندن) .

ومع ذلك فقد عجز التبشير أن يحقق لا في الجزيرة العربية ولا في قلب أفريقيا بمثل ما استطاعه التـاجر المسلم البسـيط من الدعوة لدينه بالرغم من الاعتمادات الضخمة وقوة الدول المسـتعمرة التي ظاهرت ركب التبشير .

تطور التبشير في العـالم العربي

اتخذ التبشير وسائل متعددة في سبيل تحقيق هدفه الذي هو ليس ادخال العرب المسلمين في المسيحية بقدر ما هو القضاء على الاسلام والتشكيك فيه والتهوين من شأن القيم العربية واللغة العربية والتاريخ ، وبذر بذور البلبلة في الفكر العربي الاسلامي واقامة ثقافات متعددة متصارعة وخلق جيل من مضطربي العقيدة ، الذين لا يقيمون وزنا لتراثهم ولا أمجـادهم ولا لغتهم ، والمتسـامحين مع الاستعمار والتغربين ، المعجبين بحضـارة الغرب ، المتطلعين الى مزيد من الحضـارة والمدينة لبلادهم عن طريق الاستعمار وكذلك خلق قادة لهم لا يدينون كثيرا بالقيم العربية الاسلامية في الحرية والكرامة والجهاد في سبيل الحق والالتقاء مع الغاصب ومصادقته واعتبـاره ممدنا ناشرا للحضارة والعلم .

وقد استطاع التبشير أن يحقق جانبا من هدفه عن طريق الجامعات والمدارس والصحف والبعثات ، بينمـا اخفق بالنسبة للمجموعات الشعبية الضخمة التي كانت رغم الفقر والجهل أصلب عودا من طبقة المثقفين .

* * *

لبنـان والتبشير

ولقد كان لبنان أخصب حقل للتبشير ولذلك ركز عليها المرسلون من كل أقطار العالم الغربي وجعـلوه مقرهم الأساسي للعالم العربي كله . وكان لبنـان في الستينات من القرن التاسع عشر موضع صراع ضخم بين بريطانيا وفرنسا ، عمل فيها كل فريق على تأييد طائفة ومحـاربة الأخرى واثارة الفتنة لتحقيق هدفه . وكانت بريطانيا قد ارسـلت الكاهن الايرلندي (وود) لاغراء البطريرك باعلان لبنان امارة مارونية مقـابل مساعدة الموارنة البريطانية . كما قصد اليها تشرشـل واونفرا واللادي استـنهوب لاثارة الصراع الطائفي بغيـة فتح المجال أمام بريطانيا غير أن فرنسا هي التي استطاعت أن تكسب الجولة لروابطها مع الموارنة المسيطرين على لبنان اذ ذاك والمرتبطين مع فرنسا على طريق الكاثوليكية

ولقد كان لنجاح التبشير في لبنان اثره في الدعوات التي انطلقت تنادي بأن لبنان بلد كاثوليكي وانه يجب أن يكون وطنا قوميا لكل المسيحيين في الوطن العربي ، كما انطلقت من لبنان الدعوة الى قيام وطن قومي لليهود في فلسطين .

وفاخر دعاة التغريب في لبنان بالدور الذي قامت به لبنان ابان الحرب الصليبية حيث أمد الموارنة طلائع الصليبيين بثلاثين الف نبال أجمع الفرنجة على الاعجاب بشجاعتهم ومهاراتهم . (فؤاد أفرام البستاني : الندوة ٢١ / حزيران / ١٩٤٨) وقد حمل لواء التبشير في لبنان غالي سمث ودانيـال بليس وكان أبرزهم « كرنيلوس فانديك » الذي اقام في لبنان طبيبا مبشرا اكثر من أربعين عاما (١٨٤٠ — ١٨٨٠) وقد تعلم اللغة العربية وانشأ مدرسة عبية الشهورة وعمل معلما واعظا ومبشرا وعني بترجمة التوراه والانجيل ، وقد اتم هـذه الترجمة عام

١٨٦٤ بمساعدة صديقيه البستانى والبازجى ، وهو صاحب فكرة البدء بالتبشير من القرية والتوسع فيه للوصول الى المدينة .

ولكى نرسم صورة لأثر التبشير فى الثقافة العربية والفكر الاسلامى نعرض نموذجا من تاريخنا كما يكتبه المبشرون ويدرسونه فى مدارس الارساليات الأجنبية فى لبنان بقصد تشويه تاريخنا واهدار عظمته وجلاله .

يقول (لاكولى) فى كتابه البحث من الدين الحقيقى : « فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق عدو جديد ذلك هو الاسلام الذى أسس على القوة . وقام على أشد انواع التعصب . لقد وضع محمد السيف فى أيدى من اتبعوه . وتساهل فى اقدس قوانين الأخلاق . ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب . وبعد قليل اصبحت آسية الصغرى وافريقية واسبانيا فريسة له .

ثم هاهى النصرانية تضع بسيف كارل مارتل سدا فى وجه الاسلام المنتصر عند بواتيه ٧٥٢ م ثم تعمل الحروب الصليبية فى مدى قرنين تقريبا (١٠٩٩ــ١٢٥٤) فى سبيل الدين لنجاة النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن » .

* * *

مصر فى ظل التبشير

ظهر التبشير فى مصر منذ أوائل القرن الماضى واتسع فى عهد اسماعيل وبلغ ذروته فى ظل الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وكان أبرز دعاته « القس زويمر » الذى اقتحم الأزهر ووزع منشوراته فيه علنا فى عهد حكم اسماعيل صدقى (١٩٣٣) وقد كانت : الجامعة الأمريكية ومستشفى هرمل هما ابرز معاقل التبشر فى مصر .

وقد كان احتلال السودان خطوة عزو بعيدة المدى بالنسبة لحركة التبشير فقد فتح لهما الطريق الى قلب افريقيا .

ويروى توفيق حبيب (الصحفى العجوز فى هامشة ٢٩/٤/٣٨ الأهرام) أنه فى أوائل القرن الماضى ١٨٠٠ حضر الى مصر خمسة من رجال الكنيسة الانجليزية للوعظ والتبشير ثم عادوا الى بلادهم الواحد بعد الآخر ولم يبق منهم الا رجل واحد هو المستر (ليدر) وسكن بالدرب الواسع ، واتصل ببطريرك الأقباط الانبا كليرس الرابع ذكر له ان الكنيسة الانجليزية مستعدة لانشاء مدرسة خاصة لتعليم ابناء الأقباط وارسل بعثة منهم الى مالطة للتعليم على حسابها . ثم انشأ الأسقف جوين الانجليزى مجلة (الشرق والغرب) وكنيسة فى حى قصر الدوبارة ومستشفى هرمل فى مصر القديمة . وكانت لها دار فى ميدان الأزهار (الفلكى) للمساجلات الأدبية والبحث فى العقائد لم تلبث أن عطلت منعا لما كان يقع فى بعض اجتماعاتهم من المشاغبات . وكان القس (جاردنر) من أبرز رجال الارسالية الانكليزية واعرفهم باللغة العربية وكان لهذا القس اليد الطولى فى تأسيس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس وانشاء اقسام مصرية لجمعية امجاد الشبان المسيحية » .

أما المبشرون الأمريكيون فقد ظهروا فى مصر فى عهد اسماعيل واخذوا يطوفون ارجاء البلاد للتبشير داعين الأقباط الأرثوذكس الى التمذهب بالمذهب البروتستانتى . واستمالوا عائلتى ويصا وخياط الذين تحولوا من أرثوذكس الى برتستانت (١٠ فبراير ١٩٣٢ — مجلة الدنيا المصورة) .

وقد كان للخديو اسماعيل دورا كبيرا فى تشجيع الارساليات ومدها بالمال والأرض اللازمة لانشاء المؤسسات . ولما اراد مقاومة مدارس المبشرين البروستانت لأنهم يتدخلون فى السياسة ويثيرون الاضطرابات فى البلاد منعته القنصليتين الانجليزية والأمريكية وأيدتا المبشرين وحملتا الحكومة المصرية على التقيد بالدستور العثمانى الذى ينص على احترام الحرية الدينية .

وقد اتسع نطاق التبشير بعد الاحتلال البريطانى وبلغ درجة بالغة الخطورة حتى ان عبد الله النديم هاجمه فى مجلة الأستاذ ١٨٩٣ ونشر فصلا من كتاب مبشر يدعى (يوحنا هورى) الألمانى سماه (الاسلام وتأثيره على تابعه) قال فيه : حيث أن الدين الاسلامى دين غير صحيح وأنه لا تأثير له فى حياة تابعيه الدينية ولا فى تقدمهم فى العلوم ، حينئذ يلزمنا ان نضع الدين النصرانى محله » .

وقال عبد الله نديم أنه لو ان اى مسلم كتب مثل هذا التعصب لقامت عليه قيامة اوربا وقالوا : هذا دعاء للحرب الدينية وتعرض للدين المسيحى وسحبوا تناصلهم ونادوا بين اتباعهم المعتمدين فى الشرق بالرحيل بدعوة فقدان الأمن العام وتوحش المسلمين ، فنحن نسأل من

ملأو اعمدة التيمس وغيرها من نسبة التعصب الى المصريين خصوصا والمسلمين عموما . هل راوا المسلمين اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم .أوتعرضوا لمسيحى بالمجادلة والمناظرة » .

وقد كان القس البروتستانتى « زويمر » رئيس ارسالية التبشير العربية فى البحرين ورأس مؤتمر المبشرين فى القاهرة ١٩٠٦ هو ابرز الدعاة الى وضع الخطط للتبشير فى العالم العربى .

وقد سمحت الجامعة الأمريكية فى القاهرة كما يذكر صاحب الهلال (١٥ يناير ١٩٠٤) بعقد حلقات جدل بين النصرانية والاسلامية . واحضار بعض الذين غرر بهم ليتكلموا وقد أدى ذلك الى اثارة كثير من الاضطراب والبلبلة تحت سمع الحكومة الخاضعة للاستعمار وبصرها .

وكان لعقد مؤتمر المبشرين فى القدس ١٩ ابريل عام ١٩٢٨ برئاسة القس جون موت الرئيس العام لجمعيات الشبان المسيحية ومطاعنه على الاسلام اسوأ الأثر فى نفوس العرب والمسلمين .

وقد استغل المبشرون حوادث تركيا حيث اعانهم على ذلك دعاة التغريب فى العالم العربى الذين هاجموا الاسلام ودعوا الى ان تطبق مصر أنظمة تركيا فى اللادينية واغلاق المساجد والكتابة بالحروف اللاتينية وكان ذلك ايذانا بحركة ضخمة مركزة بذات على اثر ذلك حيث اقتحم زويمر الأزهر الشريف وتمت اشتغال الطلاب بدروسهم (١٨ أبريل ١٩٢٨) ووزع عليهم رسائل تحتوى تشكيكا وطعنا فى الاسلام .

* * *

زويمر

ومن بين ما وزعه كتاب عنوانه (وجوب الرجوع الى القبلة القديمة) .

وقد أشارت الصحف الى انه دخل على طلبة القسم الرابع من السنة الأولى بالقسم العالى ومعه سيدة وثلاثة رجال وكان الشيخ على سرق الزنكلونى هو استاذ الفصل وقد سألوا عن بعض آيات من القرآن .

وهاجمت الصحف هذا العمل وقالت ان الامتيازات الأجنبية تحمى النزلاء من المثول أمام المحاكم المصرية ومن التقاضى امامها . ولكن هل تحمى مثل الدكتور زويمر الذى تضى سنينا طوالا يطعن فى دين الدولة ويوزع نشرات الطعن على اكبر معهد موجود فى الشرق وهو الأزهر ، وقالت الصحف ان كنيسة روما قد خصصت ملايين الجنيهات عام ١٩٢٩ للتبشير وتنصير المسلمين ومن ثم بدات جرائم خطف الاحداث وتعذيبهم واخضاعهم التنويم المغناطيسى :

وعلق فكرى أباظة (الأهرام ١٩٢٨/٤/٢٣) على الأحداث فقال : الا الدين يا جانب ، سكتنا على تهريب الحشيش والأفيون والكوكاكيين ، وسكتنا على تمتعكم بحرية القتل بالمسدس والسكين . وسكتنا على امتصاصكم دماءنا وخيراتنا عن طريق الفايظ والتجارة الخبيثة فلم نضرب عليكم الضرائب ، الا الدين يا أجانب ... لقد دخل الأب زويمر الأزهر . اذن فليكتسح الاسلام ودين الاسلام ما دامت الوكالة البريطانية وراءه تسنده وتحميه . أيها الناس : وصل منسوب الذل الى الأفواه » .

وقد اشتهر زويمر القس الأمريكى بعداوة الاسلام، وحرر كتبا هاجم فيها النبى والاسلام ، ومن رايه عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية . بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم واستمالة اهواءهم وتمريض أجسامهم ومواساة فقرائهم ، وقد دعا المبشرين النصارى الى توحيد العمل فى شن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويعتقد ان هزيمة المسلمين تمت فى الحرب العالمية الأولى وان هذا كان انتصارا ساحقا للكنيسة المسيحية . ويدعو الى اتباع برامج تعليمية مثل ما هو متبع فى كلية غردون بالسودان « فان هذه الخطة مما يزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية » وقد طالب الكنيسة بأن تعبىء جميع قواها وتشن الغارة على العالم الاسلامى ومن رأيه أن نشر المدنية الغربية فى العالم الاسلامى كفيل بزعزعة العقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين .

وقد بلغت حركة التبشير ذروتها عام ١٩٣٣ حيث وقعت حوادث تنصير فى الجامعة الأمريكية كان اولها (يوسف عز الدين عبد الرحمن) وقد تبين للنهاية من التحقيق (الأهرام — ١٩٣٢/٧/١٩) ان الجامعة الأمريكية تدرس للطلبة علم الأخلاق والانجيل . وتبين ان اجابات الطلبة تدل على نزعة دينية خاصة . وقد وجد أن منهج الأخلاق الذى يدرس بالجامعة يشمل دراسة نوح

وابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع بن نون وشمشون وشاول وداود وسليمان وايوب ودنيال .

وتبين أن هذا يدرس بدلا من الدين ويقوم بتدريسه اساتذة مسيحيون لجميع التلاميذ على السواء . ومن ناحية اخرى كانت هناك الارسالية الأسقفية الانجليزية

ولها ١٥ فرعا فى بولاق ومصر القديمة والجيزة وقصر الدوبارة وكان لمستشفى الدكتور هرمل فى مصر القديمة شهرة ضخمة فى أعمال التبشير فقد تبين انه يلقى على المرضى دروس الصباح من الانجيل من مبشر يذهب مع المريض الى الطبيب الذى يفحصه فيقابله بالبشاشة والترحاب ويسأله عما سمع مما القى من دروس الصباح وينبث المبشرون بين المرضى ويقومون بزيارات متعددة للمنازل بعد خروجهم من المستشفى .

واعلن الدكتور هيكل فى السياسة (١٩٣٣/٦/٢١) انه ثبت بالوثائق ان هذه المعاهد تتخذ برامجها التعليمية وسيلة لتغيير العقائد وانها تجعل النزعة الدينية هى الغالبة على كل شىء وانها تقدم الى تلاميذها كتبا تقضى بالطعن فى الدين الاسلامى وفى النبى العربى ، واشار بيان هيئة كبار العلماء (٢٧ يونيه ١٩٣٣) الى أن هذه المعاهد تعلم اولاد المسلمين امورا ضد الدين الاسلامى وضد النبى وضد القرآن الكريم . أما فى الملاجىء فانهم يتصيدون الفقراء الذين مسهم الضر ثم يضعونهم فيها ليطعمونهم وعند ذلك يتصرف المبشرون فى عقائدهم الدينية حتى يخرجوهم من دين الاسلام .

وقد اتسعت حملة الصحافة ضد التبشير وكان قوامها مهاجمة حكومة صدقى باشا على نحو حزبى ، ولم تكن هذه الحملة بقادرة على مقاومة هذا الخطر الا بمطالبة الحكومة بالقيام بعمل ايجابى ومناشدة الأغنياء واصحاب الراى الى انشاء مدارس ومستشفيات تحول بين التلاميذ والمرضى من الوقوع تحت سيطرة هذه المدارس ، كما ارتفعت الدعوة بالمطالبة بالعدل الاجتماعى ووضع نظم لأداء حق الطبقات الفقيرة وكان مصدر هذا العجز عن مقاومة التبشير بصفة فعالة حماية الامتيازات الأجنبية لهؤلاء الأجانب من المحاكم ، ولقد لقيت حركة التبشير ازدراء الوطن العربى كله بأساليبها الوحشية التى لم يعرف لها مثيلا فى الدعوة الى دين من الأديان حيث لم تضم من قبل دعوة قوامها الغدر والخيانة واستغلال الفقراء والجهلاء كما فعل الاستعمار عن طريق التبشير .

وقد صور الدكتور هيكل فى مذكراته السياسية (ص ٣٢٨/ج ١) كيف ظهر نشاط المبشرين بالمسيحية فى ثوب مخوف قال « لقد قالت الصحف يومئذ ان الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعايات التبشيرية وان بها اركان الحرب التى تنظم هذه الدعايات ، وكان غريبا حقا هذا النشاط الذى ابداه المبشرون والذى لم نسمع بمثله من عشرات السنين وقد امتد هذا النشاط من القاهرة الى بورسعيد الى غيرها من المدن والأقاليم . وتحدثت الصحف عن وسائل الاغراء التى يلجأ اليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ولتنصير الأطفال الأثرياء من أبناء المسلمين الفقراء ، وارتاع الناس لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير تجتمع فى دار الشبان المسلمين وكنت من أشد الأعضاء تحمسا لمقاومة التبشير ، اقتناعا منى بأن هذه الحركة يقصد بها اضعاف ما فى النفس من ثقة بدين الدولة ولما ينطوى عليه من قصد سياسى وهو اضعاف معنويات هذا الشعب باضعاف عقيدته » وقد اشار صاحب هامش الأهرام (١٩٣٣/٦/٢٤) الى موقف اقباط مصر من التبشير فقال : ان المسيحيين عارضوا الحملات وان جرجس فيلثاؤس عوض قال انه لم يسمع أن مسلما لجأ الى القبط لينصروه وانه قد وقع الخلاف بين الأقباط وهذه الارساليات .

* * *

ولم تكد حركة التبشير فى مصر تخف قليلا حتى ظهرت دعوة تبشيرية اخرى هى « البهائية » التى اصطنعت اساليب تفوق أساليب المبشرين فى الاباحية والغزو عن طريق المرأة ، وعقد الاجتماعات ذات الأضواء الصارخة والعرى ولكن هذه الدعوة لم تلق صدى الأعند بعض الأغرار والسذج ولم تقو على البقاء او احراز اى نجاح ، ومجمل هذه الدعوة أن بهاء الدين جاء للعصر الجديد وهو روح العصر الجديد وتهدف البهائية الى توحيد الأديان جميعا تحت علم البهائية ، وقالت النهضة الفكرية ١٩٣٣/٧/١٥ أن للبهائية اساليب تختلف عن اساليب المبشرين وتفوقهم ولهم فى اباحيتهم الأخلاقية اكبر ضرر لهم . وأن الذين يمدون المبشرين بالمال يمدون البهائيين . وبينهما فروق ولكنهما يلتقيان عن نقطة اساسية وغاية موجودة هى الخروج عن الاسلام والتشكيك فى الرسالة والنبى » .

* * *

فى الســـودان

وقد وجد الاستعمار البريطانى فى السودان مجالا خصبا لحملات التبشير التى انطلقت منه الى افريقيا كلها وتعالت الصيحات المتوالية بما يقع فى السودان وخاصة فى جنوبه من وسائل العنف والغزو لفرض المسيحية ، وقد وقعت عام ١٩٣٧ احداث ضخمة اذ تبين ان اهالى المناطق الجنوبيـــة من المسلمين لا يعاملون على قـــدم المساواة مع افراد الجاليات الاخرى ، وانه محظور عليهم اداء واجباتهم الدينية وان هناك موانع تحول دون سفر المسلمين من شمال السودان الى جنوبه .

ونشرت (جريدة السودان — ١٩٣٧/١٢/٢٥) ان المبشرين يتمتعون فى جنـــوب السودان بحماية الحكومة السودانية التى لها السلطة فى ابعاد من يرون ابعاده من التجار والموظفين غير المرغوب منهم ، وان المسلمين هناك يلقون عنتا فى سبيل اقامة شعائر دينهم مع مســـــاعدة المبشرين بالمال الذى تدفعه الحكومة كما عمدت بريطانيا الى محاولة اتخاذ لهجات القبائل فى جنوب السودان لغـــة رسمية لهم يدرسونها فى المدارس لتقوم محل اللغة العربية وتحول دون انتشار اللغة التى تمكنهم من معرفة الاسلام كما منعوا التكلم باللغة العربية فى هذه المناطق حتى تنشىء الرطانة الأعجميـــة .

وقد حاول حاكم السودان الانجليزى عندما وجهت له هذه الحقائق أن يدافع عن موقفه فقال : ان ما فرض فى جنوب السودان من القيود المحلية على صغار التجار وأمثالهم فقد قصد به منع استغلال الأهالى الذين هم فى ابسط حالات الفطرة استغلالا غير مشروع .

وفيما يتصل بذلك انشأ الانجليز كلية غردون عـــام ١٩٠٣ فى الخرطوم وقد جمعت لها بريطانيا ١٠٠ الف جنيه من أعيـــان انجلترا ونفذت فيهـــا نظاما يربطها بالثقافة الانجليزية .

* * *

فى الجــــــزائر

وفى الجـــزائر : قام الكردينال « لافيجرى » رئيس الاساقفة بعمـــل ضخم فى سبيل التبشير فقد كان ينشىء بعض مراكز التبشير فى منتصف الطرق الموصلة بين المدن على نمط الزوايا الاسلامية لاغراء المسلمين وتنصيرهم وكان يخفى طابعها المسيحى زيادة فى الخداع والتضليل ، ومن ذلك المركز الذى انشأه فى مدينة بسكره فى منتصف الطرق بين جبال الأوراس وبحيرات شط العرب واطلق عليـــه اسم بيت الله وليس المبشرون فيه لبـــاس رواد الصحراء تشبها باللباس الاسلامى .

وممـــا يذكر ان الكردينـــال (١٨٢٥ — ١٨٩٢) لافيجرى قد عجز بعد ان امضى اسقفا فى الجزائر اربعين سنة ان يحقق خطته فى تنصير المسلمين وكان قد عمل فى افريقيا والسودان بتكليف من البابا بيوس التاسع نفسه .

* * *

فشـــل الغـــزو

تحولت خطط الغزو التبشيرى فى خلال الفترة من ١٨٣٠ — وهو تاريخ احتلال الجزائر الى نهـــاية الحرب العالمية الثانية — اكثر من مرة وعقدت عشرات المؤتمرات والفت فى محاربة الاسلام والقرآن والنبى محمد اكثر من مائة الف كتاب وجندت أوربا عديد من كتابها من «فولتير» داعية الحرية الى زويمر ولافيجرى بل أن عددا من كبار المستشرقين قـــد تحولوا الى التبشير التحقـــوا بوزارة المستعمرات امثـــال ما سينون الفرنسى وجيب المستشرق الانجليزى الموظف بوزارة المستعمرات البريطانيـــة كما استعان التبشير بجميع الاقليات المستوطنة والطارئة فى الوطن العربى لمعاونته أمثال الارمن والاشوريين ومهاجرى اليهود والروس . وهاجمت فرنسا اليسوعيين فى بلادها وطاردتهم وحمتهم فى المستعمرات وامدتهم بالعون ووضع الاستعمار التبشيـــرى مخططا يرمى الى خلق دعـــوات : كالشعوبية والفرعونية والآشورية ، واثارة الشكوك فى اللغة العربية والاسلام والتاريخ ، وذلك كوسيلة لخلق جيل خاضع تابع مستغرب لا سيطرة للحرية ولا الكرامة العـــربية عليه .

*** وفى مصر وجد التبشير يعقوب ارتين باشا وكيل وزارة المعارف الذى عين المبشر «دوجلاس دنلوب» معلما فى مدرسة بالاسكندرية ثم نقل الى وزارة المعارف مفتشا ثم اصبح صاحب السلطان الاعلى على التعليم والتربية فى مصر طوال فترة الاحتلال وفى ظـــل كرومر وظل اثره قائما طـــوال الفتـــرة .**

وقد وجد التبشير فى كثير من الأحداث سبيله الى دفع خططـــه الى التنفيذ : فاستغل صـــدور الدستور العثمـــانى ١٩٠٨ فقال اســـتورد لروورد رئيس مؤتمر

عام ١٩١١ فى لكنوا بالهند أنه بعد الانقلاب العثمـــانى يمكن انتهاز الرصة لهداية العالم الاسلامى الى الانجيل .

كما استغلت فرصة الحرب العالمية الأولى وتقسيم الوطن العربى ، وقال زويمر ان هذا التقسيم هو الذى سيقضى على الاسلام ويحقق مهمة التبشـــير — وكان الاحتـــلال البريطانى لمصر والاحتلال الفرنسى للجـــزائر فرصة للتوسع بشمال أفريقيا ، وكان احتلال الســـودان فرصة للتوسع فى وســـط أفريقيا ، ومع كل الاعتمادات الضخمة التى وجهت للتبشير فى ميزانيات عدد من الدول الغربية كفرنســـا وانجلترا وأمريكا وايطاليـــا وهولندا وبالرغم من انشاء فروع لجمعيات الشـــبان والشابات المســـيحيات فى مختلف نواحى العالم العربى فقد كانت النتيجة هى ما قاله مستر أوجين يونج المندوب السامى الفرنسى (١٩٢٨) فى مؤلفه عن استعباد الاسلام : قال :

« أن الاســـلام قوة كبرى لا يمكن الاحاطة بهـــا ولا معرفتها معرفة تامة فلا العقيدة اللاتينية ولا المذهب الكاثوليكى يمكنهما أن ينالا من الاسلام شيئا أو يســـيطرا عليه . بل أن الأمر على العكس من ذلك ان الاســـلام ينتشر ويسير فى هذه الطريق بخطوات واسعة » .

وكانت نتيجة عمليات الغزو الضخمة باسم التبشير والتى انفقت فيها الدول المستعمرة ملايين الجنيهات انه لم يحدث انتقـــال فى صورة جمـــاعية من الاســـلام الى المسيحية على النحو الذى كان يتخيله دعاة التبشـــير . وكان ذلك مخيبا لآمالهم على طول الخط ، فبعد أكثر من تسعين عاما من العمل المتصل (١٨٤٠ الى ١٩٤٠) عاد المبشرون يغيرون خططهم ليحاولوا تحقيق نصر فردى فى هذا المجال بعد أن عجزوا عن النصر الجماعى ، غير أن كل الخطط فشلت ومؤدى هذه النتيجة ينطبق مع موقف الفكر العربى الاسلامى من الغزو الثقافى ، ويجرى وفق نظرية « التحدى ورد الفعل » التى لم يظهر أثرها فى أى عمل من أعمال التغريب الثقافى كما ظهر فى هذه الحركة .

وقد أشار مؤلف كتـــاب « فى الدراسات الدينية » الفرنسى الى عجز المبشرين فى مجال تحويل المسلمين عن الاسلام حيث قال : ينبغى أن نذكر أن الدين الاســـلامى مخالف كل المخـــالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة » .

* * *

المـــراجع

التبشير والاستعمار : الدكتوران مصطفى خالدى وعمر فروخ .
حاضر العالم الاســـلامى : ج ١ عجاج نويهض وشكيب ارسلان .
آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع : ساطع الحصرى .
مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل السياسية — ج ١ .
مجلة الفتح : محب الدين الخطيب : (العدد ٤٤) ٥ مايو عام ١٩٣٢ .

* * *

(٣)

منهج البحث العلمي الحديث

إزاء العقل العربي

كان من اهم ما دعا اليه الفكر الغربي وحمل لوائه المستشرقون منهج « البحث العلمي الحديث » وهو سليم الأسس يقتضي أن تمحو من نفسك كل راى وكل عقيدة سابقة من هذا البحث . وان يبدأ البحث بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية للوصول الى نتيجة علمية خاضعة البحث والتمحيص .

ولم يكن الغرب الذى دعا الى هذا المنهج محدثا في مذهبه ، وانما كان قد اتخذ اساسا له من مذهب الفكر العربي الاسلامي القديم في البحث الذى دعا الى العقل والبرهان « قل هاتوا برهانكم » والاقتناع بالحجة وتقديم العقل على ظاهر النص .

وقد جرى « الغزالي » على هذه الطريقة حيث أعلن في كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر واستدل حتى وصل الى ما وصل اليه من رأى على أساس الدليل والبرهان .

ولذلك فان ما ادعاه الغرب من ايمان العرب بالعقلية الغيبية محض افتراء لا أساس له ؛ فقد وصفت العقلية الشرقية بأنها جزئية تنتقل من الجزء الى الجزء الآخر دون أن تربط بين الأجزاء ، ولا تبحث في المقدمات والنتائج ولاتعنى بالتحليل وهذا مالايتفق مع مقدمات العقل العربي ولا الفكر العربي الاسلامي عامة الذى اثبت على طول القرون علميته وبراعته في الشك والنقد والبحث عن البرهان للوصول الى الحقائق على أساس المنطق والمقدمات والنتائج ووفق أسلوب التحليل .

يقول « ابن رشد » في تصوير منهج البحث العلمي العربي : يجب علينا اذا الفينا ممن تقدموا من الأمم السالفة نظرا في الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر الى هذا الذى قالوه من ذلك ، وما اثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه . وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرناهم منه وعذرناهم ان كل ما ادى اليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع فان ذلك الظاهر يقبل التأويل » .

ويقول الامام الشافعي في تصوير منهج البحث العلمي كما يراه : أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه ، لقد ادركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله عند هذه الأساطين فما اخذت منهم شيئا . وان احدهم لو أوتمن على بيت المال لكان أمينا ، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

وهذا يعني في نظر الفيلسوف العربي الأندلسي والفقيه العربي القاهرى ان يقوم البحث العلمي على أساس أهلية من يحمل العلم ، والقدرة على فحص النصوص ومطابقتها الحق على أساس البرهان والعقل ، وبذلك وضع الفكر العربي الاسلامي قواعد البحث العلمي واصول التفكير وحصرها في الملاحظة والاستقراء وتحكيم العقل .

ولقد تخلف الفكر العربي الاسلامي من بعد عن منهجه وعلاه التراب ثم جاء الغرب فوضعه في قالب جديد دون أن يخرج به عن مضمونه ولذلك فان نظريات باكون وديكارت ليست الا صورة مما جاء في أقوال ابن رشد والغزالي والشافعي .

وقد أعلن الفكر العربي الاسلامي «نظرية المعرفة» قبل الفكر الغربي بسبعة قرون ، هذه النظرية القائمة على أساس الاختبار المحسوس ، والاستقلال والتجربة دون التقليد ، قال ابن حزم « أن المعرفة تكون أولا بشهادة الحواس ، اى باختيار لما تقع عليه الحواس وما يقول

العقل أى بالضرورة من غير حاجة الى استعمال الحواس الخمس ، وببرهان راجع من قرب أو بعد الى شـهادة الحواس وأولها العقل .

وقال ابن حزم : أن التقليد حرام .

وعلى أساس نظريته التى هى من صميم الفكر العربى الاسلامى خالف كثيرا من الأقوال التى كانت معتمدة فى زمنه وهو القائل بأن الغرض من الفلسفة والشريعة انما هو « أصلاح النفس » .

وفيما يتصل بهذا ما عرف الفكر العربى الاسلامى من أصول النظريات السياسية المستقلة عن الفكر الأغريقى والرومانى . وقد سبقت ما أنتجه العقل الأوربى .

وابحـاث الامامة والعقد السـياسى والعـدل وتطبيقات الشيعة والمعتزلة والمرجئة وشئون المعـاملات والبيعة ، كلها غير مسبوقة وان كان ما ادعاه الغرب من أن اليونان هم وحدهم الذين عرفوا النظريات السياسية هى دعوى تغريبية تكذبها الوقائع الصحيحة .

وقد صور الغزالى فى كتـابه (المنقذ من الضلال) اسلوبه العلمى فى فهم الاسلام فقال أنه رأى « صـبيان النصارى ينشـأون على النصرانية ، وصـبيان اليهود ينشأون على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام وانه لم يقتنع بهذا الدين التقليدى اليقينى ولذلك اتجه الى ان يعلم حقائق الأمور ، وأن يبنى دينه على يقين ، ولذلك بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، وقال بالنص : كل ما اعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقـة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى » .

وتطبيقـا لنظرية « المنهج العلمى العربى » نقد الفيلسوف « النظام » آراء ارسطو كما نقضها الجاحظ أيضـا ونقد « البيرونى » نظريات اليونان والهنـد فى الرياضيات . ووقف الغزالى فى كتابه « المنقذ » موقف ديكارت الذى جاء من بعده .

وبعد فهل طبق الغرب منهج البحث العلمى الحديث عندما بحث تاريخ الأمة الاسلامية ودينها ولغتها وتراثها .

وهل تجرد كتاب الغرب ومحوا من انفسهم احقادهم وخصوماتهم وتعاليهم عندما نظروا الى تاريخ البلاد العربية أم تأثروا بنظريات جيبون ورينان فى الفرق بين السامية والآرية ونظريات الأجنـاس والعنصرية ورسالة الرجل الأبيض .

الواقع ان من ينظر الى ما كتبه علماء الغرب يجده مليئا بالافتراءات والأكاذيب على الاسلام والنبى والقرآن وتاريخ العرب وأصول دينهم وحضارتهم فهو فى أغلبـه جانح أشد الجنوح عن مذهب البحث العلمى الذى لا يريد الغرب حين يفرضه علينا الا اثارة الشـكوك والاتهامات ومحاولة التصغير من شأن بطولاتنا وأمجادنا .

والواقع أن نظرية قصر العلم على أساس البحث والملاحظة والاستقراء انما وضعت أول الأمر للنظريات العلمية وحدها ، ثم انسحبت على الفكر والتاريخ والعقيدة غير أن الايمان بقدرة العلم المطلقة لم تلبث أن تراجعت أمام الجوانب الغيبية واقرتهـا بعد أن أنكرتها أول الأمر انكارا مطلقا .

وكان « اوجسـت كمت » العالم الفرنسى أول من قدر ذلك حين قرن بفلسفته العلمية ديانة الانسانية .

ثم تحرر العلماء من قيد النظرية وأعلنوا الى أن العلم قد عجز عن ان يعد غذاء نفسيا للشعوب الغربية وأنه لا مفر من الالتجاء الى أديان الشرق ومذاهبه ، وقـد نشأت على اثر ذلك نظرية « اقتراض » الغرب لثقافات الشرق الروحية وظهر مذهب الثيوصوفية .

* * *

دعـاة التغـــريب

اعتمد التغريب على عناصر ثلاث (١) خليط الأفكار الغربية التي قذف بها الفكر العربي الاسلامي دفعة واحدة ، وركز فيها على النظريات التي طالما نظر فيها الغرب ورفضها وعارضها بنظريات أخرى وخاصة ما يتصل منها بانكار الخالق والشك في الأديان وتغليب جانب المادة والجنس كنظريات دارون وفرويد .

(٢) المستشرقون والمبشرون والعلماء الذين وردوا الى الشرق في أفواج متوالية وتحت أسماء وشعارات مختلفة ، والذين حملوا معهم أفكار جوبنيو وريفان حول فوارق اللون والعقل بين الآرية والسامية ورسالة الرجل الأبيض ، وقد حرص هؤلاء الكتاب والعلماء على نقل أسوأ الصور ، والاتهامات والأخطاء وكانوا بطبيعة الدراسات التي تلقوها واستعدادهم الطبيعي — الا القليل من المنصفين احرار الفكر — منحرفين استعماريين .

ولذلك كانت كتاباتهم جميعا بعيدة عن نزاهة النهج العلمي الحديث ، متعارضة مع الحقائق والوقائع .

(٣) كتاب العالم العربي المتغربين ، الذين سافروا في بعثات علمية الى فرنسا وبريطانيا وأمريكا ، والتقوا هناك بأساتذة من علماء التبشير والاستشراق فارتبطوا بهم فكريا وحملوا لواء نظرياتهم الى الوطن العربي . وترجع النظريات التي حملتها كثير من الدراسات والتي أحدثت ضجة في بلادنا الى اقتباساتها من آراء هؤلاء الكتاب وهي لا تخرج في مجموعها عن آراء مرجليوث ودوركهيم وليفي بريل وماسنيون ومرسيه وجميعهم مستشرقون متعصبون لليهودية أو المسيحية ، يخدمون الاستعمار ويحقدون على الاسلام واللغة العربية . ومن أمثلة ذلك ما تأثرت به رسالة (منصور فهمي) عن المرأة في الاسلام التي كتبها عام ١٩١٣ بآراء ليفي بريل الاسرائيلي كما تأثرت رسالة طه حسين عن ابن خلدون (١٩١٨) بآراء دوركهيم وتأثرت رسالة طه حسين عن الشعر الجاهلي بآراء مرجليوث وماسنيون .

وابرز مظاهر عمل هذه الطائفة : « التشكيك » فهؤلاء أقرب بالطبع الى أهل أوطانهم ويكتبون باللغة العربية ، ولذلك فان كتاباتهم من شأنها ان تجد قبولا خاصا اذا قامت بناء على منهج مرسوم ، فيه الموالاه والتدرج والتكرار ، وقد قام بهذا العمل كتاب كثيرون وصحف كثيرة من أهمها المقتطف والمقطم وكان أجرا كتاب هذه الدعوة : فرح انطون وسلامة موسى واسماعيل مظهر وطه حسين .

وهناك كتاب قاموا في مطلع حياتهم بهذا الدور ثم تخلوا عنه بعد أن تكشف لهم الحقائق من هؤلاء : منصور فهمي والدكتور هيكل وزكي مبارك .

ومما يذكر أن هناك كتاب سافروا الى أوربا ودرسوا بها واتصلوا بالمستشرقين والعلماء ودعاة التغريب ولكنهم استطاعوا الاحتفاظ بروحهم العربي الأصيل .

ولقد كان الكتاب المتغربون يوما من الأيام سلاحا بتارا ازاء كل قلم كريم أو رأى حكيم ، وكانوا يهاجمون كل دعوة الى الاعتدال في نقل الحضارة او المحافظة على الدين والقيم او مقومات الشخصية العربية او تراث الاسلام فما أن تنطلق دعوة من هذه الدعوات حتى تخرج لها أقلام دعاة التغريب لتدحرها متهمة اياها بالرجعية والسطحية والخيانة للحضارة ومقاومة تيار التمدن ومعارضة التطور .

ويمكن أن توصف كتابات هؤلاء الكتاب بأنها حملة تغريبية شاملة متعددة الجوانب ، فقد تناولت اللغة والزى والدين والمجتمع والمرأة وموقفنا من الشرق والغرب واقليمية الأدب والايمان بفرنسا ومهاجمة الشريعة الاسلامية .

وهاجم طه حسين احمد زكي باشا شيخ العروبة لأنه مجد مدنية العرب وأشاد بها وكشف عن حقائقها ورد أخطاء المستشرقين وكشف عن بغضهم ومغالطاتهم . واتهم سلامة موسى العرب بأنهم دبروا هجوما على المدنيات الرومانية والأفريقية .

وقال ان اسماعيل باشا اعظم من مصطفى كامل لأنه سبق الى اتخاذ قانون نابليون كما اعتبره زعيم المجددين .

* * *

المتعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية

والكاتب (فرح أنطون) نموذج لهؤلاء الكتاب فى اتهاماته للاسلام بالتعصب والمسيحية بالتسامح (الجامعة — يوليه ١٩٠٢) قال :

« اى كان أكثر تسامحا واقل تعصبا فما يختص بالعلم والعلماء : الدين المسيحى ام الدين الاسلامى فمنهم من يرى أن الدين المسيحى كان اكثر تسامحا من الدين الاسلامى لأن بعض علماء النصرانية وكتابها قالوا فيها اقوالا فى منتهى التطرف والغلو والتحامل ومع ذلك لم يضرهم شىء ، ويرد عليهم آخرون يقولون ان الدين الاسلامى كان اكثر تسامحا من الدين المسيحى فانكم هل رايتم فى تاريخ الدين الاسلامى علماء يحرقون وهم على قيد الحياة لأنهم انكروا ما انكروه كما جرى فى ديوان التفتيش فى اسبانيا ؟ كلا .

اننا نرى أن السلطة المدنية فى الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا . وبناء على ذلك يكون فى هذه الطريقة اصعب منها فى الطريقة المسيحية ، فان الديانة المسيحية فصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقى : وذلك بكلمة واحدة : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ثم ان العلم والفلسفة قد تمكنا الى الأبد من التغلب على الاضطهاد المسيحى ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا واينع ثمر التمدن الحديث ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامى » ا . هـ .

* * *

رد محمد عبده

« انى أعمل فى الجواب بما يلائم هذين الحكمين اجمالا : اما الأول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل راى بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

اما الثانى : فاسأل الجامعة فى جوابه : اين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين واين اولئك العلماء المضطهدون . واريد بالعلماء اولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو ورسو وأمثالهم .

فاذا ارادت — اى مجلة الجامعة — شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على اسبانيا ولتقف برهة من الزمان لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين من مدارس المسيحيين من جزويت وفرير وامريكان . فهل يمكننى أن اجد طالبا واحدا مسيحيا فى مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من اى ملة ، لا نجد الا قليلا منهم فى مدارس الحكومة ، فهل سمع ان والدا اضطهد لأنه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ، الا الا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم .

ومثله اشتراك المسلمين فى الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى فى الجرائد الاسلامية الا نادرا .

ولا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن ان يقال أن المسلمين أشد افراطا فيه ، وما على طالب الحقيقة الا أن يسبح بفكر ، فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق ومملكة الترنسفال قبل سقوطها وبلاد الناتال فى الجنوب ثم يرجع الى الجزائر وما يليها من جهة الغرب ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا . ولا تقبل لهم فيه المدينة عذرا .

* * *

الفكر العربى بين الغيبية والسطحية

وكتب اسماعيل مظهر فى المقتطف (فبراير ١٩٢٦) يهاجم الفكر العربى ويرميه بالغيبية والتحلل والسطحية قال : اذا نظرت فيما أبرز العرب من نتائج الفكر من علم وادب او فلسفة أو فن وجدت ان فيها اثار التخلخل والتشعب .ما هو جدير بأن يبرز فى عصر عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغربى ولم يعدها الى طريقة التحليل

والنقد . وذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلهـا المترجمون وجلهم من النساطرة واليهود ووثنى حران عن اليونان . ولكنك لا تجد عندهم مدارس فلسفة نسب اليهم ابتكارها فليس عندهم مدرسة تعزى الى الفارابى أو ابن رشد أو ابن سينا مثلا . فالمذهب الفلسـفى ظل رأيا فرديا عند العرب .

هذه العقلية بذاتها هى التى ورثها السيد الأفغانى عن العرب ، عقلية وقفت عند حد الأسـلوب الغيبى لم تتعده وتنكبت كل سبيل كان من الممكن أن يصل بها الى الأسلوب اليقينى .

ورد عليه الأمير (مصطفى الشـهابى) المقتطف نوفمبر ١٩٢٦ فقال :

اليونانيون ساروا فى بعض اتجاهاتهم العلمية على الأسـلوب اليقينى وحادوا عنه فى بعض آخر — وكذا أجـدادنا العرب — وقـد يكون اليونانيون أقرب الى الأسلوب اليقينى من العرب اجمالا ، ولم ينفرد العرب باتباع الأسلوب اليقينى فلا غضاضة اذن عليهم بل على العكس كانت علومهم المستمدة من علوم اليونان والفرس والهنود متأثرة بتأثير باقى الأقوام فى هاتيك العصـور المظلمة .

فالعرب وهم تلامذة اليونانيين قام منهم عدد غير قليل ممن اتبعوا الأسلوب الغيبى فى أبحاثهم فأثبتوا حقائق ستظل فخرا لهم الى الآن وخلاصة الرأى أنه يجب اما أن نقول بأن العرب كانوا كاليونانيين والرومانيين يتبعون الأسلوب الغيبى فى بعض أبحـاثهم واليقينى فى البعض الآخر . واما أن نحكم على الأقوام الغابرة جميعا حكما صارما فنقول انهم اصحاب اسلوب غيبى على الاطلاق وان الأسلوب اليقينى لم يوجد الا فى عهد اسحاق نيوتن وديكارت وفى هذه الحالة يشمل الحكم اليونانيين بلاريب .

* * *

تعددت دعوات التغريب ، وظهرت فى كل بقعة من الوطن العربى دعوة منها تختلف عن الدعوة التى تظهر فى المكان الآخر ، وهى منوعة بين معالم المزج بين الأديان ، أو هدم بعض هذه الأديان ، أو التغريب الكامل والهجوم على الاسلام والشرق واللغة العربية وظهرت دعوة الى الايمان بالغرب ايمانا كاملا وكذلك الى الأدب المحلى والى تقديم المستشرقين على علماء العرب فى فهم الاسلام والقرآن والدين ، وهناك دعوات فرنسا الأم والهجوم على الاسلام فى موقفه من المراة ونظرية ديكارت وغيرها .

وقد تحدثنا عن هذه النظريات فى أماكن متعددة من هذه الدراسة وهذه نظرة عامة اليها :

* * *

توحيد الاسلام والمسيحية

من بين دعوات التغريب والغزو الثقافى : دعوة التوحيد بين الاسلام والمسيحية وقد بلغت هذه الدعوة قمتها حين أيد الاستعمار الحركة البهائية باعتبارها « دينا » جديدا يتمشى مع روح العصر وتهدف الى توحيد الأديان جميعا تحت علم البهائية وقد تعدد الدعاة التى قدموا الى العالم العربى يحملون الدعوة الى محاولة التقاء الاسلام والمسيحية فى دين واحد . وقد جرى سجال فى هذا الشأن بين الشيخ محمد عبده واحد القسس الانجليز عام ١٨٨٧ فى دمشق ابان نفيه . وعندى انها دعوة ماكرة مغرضة لاتستهدف الا القضاء على الاسلام أو التشكيك فى شأنه .

وقد روى الشيخ حمزة فتح الله للدكتور حسين الهراوى (٨ يوليه ١٩٣٢ السياسة الأسبوعية) انه وفد على القطر المصرى فى أوائل هذا القرن رجل فرنسى يقال له (جيارة) أخذ يفاوض المفكرين العرب ورجال الأزهر فى فكرة توحيد الأديان ، فلما ذهب الى الشيخ حسن الطويل شيخ الأزهر : قال له : ان الفروق بين الأديان مسائل فرعية الغرض منها الدعوة الى الخير والنهى عن الشر فماذا علينا لو عملنا على ادماج هذه الأديان .

ويروى حمزة فتح الله أن الشيخ حسن الطويل كان يتناول افطاره فلم يلبث أن ابتسم ، وقال لامبشر جبارة فى تهكم :

— هل لك يا خواجة فى اكلة لذيذة من الفول المدمس

وقال « منيا ابراهيم » احد رجال المسيحية فى مصر لجباره : أنه من الخير للعالم والانسانية ان يهمل فكرته حتى لا يأتى بمذهب جديد فتكثر الملل والنحل !

٢ — ومما يتصل بهذه المؤامرات ما ذكره « بلنت » من أن أحد القسس الانجليز (اسحاق تيلور) التقى بالشيخ محمد عبده فى دمشق أثناء منفاه ١٨٨٧ وكان يقوم بالدعاية لتوحيد الاسلام والنصرانية .

٣ — وقد عقد المستشرقون والمبشرون عددا من المؤتمرات الخاصة للبحث فى تاريخ الأديان من اهمها مؤتمر باريس ١٩٣٣ الذى اشتركت فيها جامعات فرنسا وانجلترا وسويسرا وامريكا وايطاليا وبولونيا واسبانيا وهولندا والاستانة .

وفى مؤتمر الأديان الدولى ببروكسل عام ١٩٣٥ التى الشيخ أمين الخولى بحثا عن صلة الاسلام باصلاح المسيحية أشار فيه الى ما قامت به أوربا من اقتباس الاصلاح الدينى من الاسلام وقال : أن أثر الاسلام فى حياة أوربا الدينية لا يقل أبدا عن أثره فى حياتها الفلسفية والعلمية والفنية .

وفى مؤتمر الأديان العالمى (يوليو ١٩٣٦) الذى دعا الى تضافر جميع الأديان فى سبيل الاسلام وعقد فى لندن وأعلن انه يرمى الى تعزيز روح الأخاء والزمالة بين الشعوب على اختلاف أديانها وجنساتها ، وأن الاتفاقات

السياسية عجزت عن ايجاد أساس صحيح لسلام العالم وأن فى وسع كل ديانة أن تساهم فى حل مشكلة العالم الفكرية ، وقد دعى الأزهر الى الاشتراك فى هذا المؤتمر لتمثيل الاسلام ، وكتب شيخ الأزهر مصطفى المراغى رسالة عن المثل الأعلى للروحية صور فيها مفهوم الاسلام لرسالة السلام .

٤ — والواقع أن « التوفيق » بين الاسلام والمسيحية — وليس توحيدهما هى الدعوة التى حملها الأبرار فى الوطن العربى لمقاومة النفوذ الأجنبى الذى كان يعتمد دائما على التفرقة بين الطوائف والأديان ويناصر أحدها على الآخر .

وقد كان « التوفيق » بين الاسلام والأديان الأخرى اتجاه قديم معدود من أصول الشريعة .

وفى التاريخ الحديث التقى الهلال والصليب فى ثورة عام ١٩١٩ المصرية ، كما ترابطت المشاعر باسم الوطنية فى أنحاء الوطن العربى وحمل المسيحيون فى الشام لواء الدعوة الى القومية العربية ومزج الكتاب المسيحيون بين عواطف الاسلام والعروبة والتغنى بالتراث العربى الاسلامى وبطولة محمد وعمر وخالد باعتبارها بطولات عربية وقد مجد كتاب العرب من المسيحيين النبى محمد على أساس أنه مفخرة للعرب وأسمى مارون عبود ابنه محمدا وكتب لبيب الرياشى وشبلى ملاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلستبى والتقى المسلمون والمسيحيون فى معركة الجريه .

وأشار توماس ارنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » بأن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت فى رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء . بل أن هؤلاء الحكام من المسلمين كانوا هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين للبعض الآخر ويكفلون الحرية الدينية للجميع » وقد التقى رأى قادة الاسلام والمسيحية على العمل لصيانة هذه الوحدة فقد حدث عام ١٩٣٠ أن أرسل الشيخ اللبان شيخ معهد الاسكندرية خطابا الى الانبا يؤنس بطريرك الأقباط يقول فيه : أن فريقا متهوسا ممن ترعاه الكنيسة المرقسية يعمل على هدم ما بناه العقلاء ويدبر الحملات الطائشة ضد الاسلام دين الدولة الرسمى معرضا بذلك الوطن لأعظم الأخطار فأجاب الأنبا يؤنس بقوله : « اذا وجد فرد أو أفراد يعملون ضد الوحدة المقدسة بالطعن فى الدين الاسلامى الذى هو دين اخواننا فى الوطنية فانهم يكونون من شر الجناة على الوطن .

٥ — وقد اجرت مجلة الهلال استفتاء (ابريل ومايو عام ١٩٣٩) فى شأن توحيد الاسلام والمسيحية فكان رأى علماء المسلمين (فريد وجدى) أن الاسلام جاء للتوفيق بين جميع الأديان ورفع أسباب الخلاف بينهما . وقال ان الاسلام يتقدم الى الناس لا باعتبار انه دين جديد ولكنه باعتبار أنه دين البشرية الأقدم خالصا من جميع الشوائب التى الحقتها به الأجيال المتعاقبة .

وقال القس ابراهيم سعيد : ان الدين ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة لغاية وقال أنه يعتقد بامكان توحيد الأديان لا ببتر جزء من هذا الدين وجزء من ذاك الدين ليتكون منهما دينا واحدا ، وانما اعتقد بتوحيد الأديان على أساس روحى يحتفظ فيه كل بحسمه . وقال القمص سرجيوس : أن هناك اتحادا ممكنا هو أن تتحد المسيحية والاسلام فى محاربة الالحاد والاباحة .

ومعنى هذا أن مؤامرة استعمارية فكرية استهدفت الغزو الثقافى والتجزئة والقضاء على الاسلام أو تشويهه قد فشلت أيضا لأن عقائد الفكر العربى الاسلامى وقيمه استطاعت بعمقها وحيويتها أن تقاوم كل تيار من تيارات التغريب .

* * *

٢ — التغريب الكامل

وهناك دعوة تغريبية أخرى هى : الاتجاه المطلق الى الغرب وقد حمل لوائها سلامة موسى وطه حسين .

ويعارض (سلامة موسى) الشرقية والعربية والاسلامية ويهاجم اللغة العربية والدين والقومية العربية ويدعو الى التغريب الكامل وهذه مجمل آرائه :

× ليس هناك حد يجب أن نقف عنده من اقتباسنا من الحضارة الأوربية .

× لنا من العرب ألفاظهم ولا أقول لغتهم . بل لا أقول كل ألفاظهم ، فاننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية . وهى لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الآن .

× نحن فى حاجة الى ثقافة حرة ابعد ما تكون عن الاديان . ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة الى حد بعيد حتى يتحضر العلم وتتحضر الفاظه .

× علينا أن نرتبط بأوربا وأن يكون رباطنا بها قويا .. نتزوج من أبنائها وبناتها . وننظر للحيـاة نظرها ، ونجعل أدبنا يجرى وفق أدبها ، بعيدا عن منهج العرب ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها .

× اصطناع القبعة اكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا امة واحدة ، القبعة هى رمز الحضارة يلبسـها كل رجل متحضر .

أن الحركة التى قامت فى العـام الماضى ، وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها فى مهدها، فأثبتوا بذلك انهم لايزالون آسيويين فى انكارهم لايرغبون فى حضارة أوربا الا مكرهين .

× الجامع الأزهر يبث فينا ثقافة القرون المظلمة — واذا كانت الرابطة الدينية سـخافة فان الجامعة الدينية وقاحة .

× كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى فى الأدب ، كما أزاوله فهى تتلخص فى انه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا فانى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنه غريب عنى وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد حبى لها وتعلقى بها . وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها ، هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سرا وجهرة فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .

— نريد من الأدب أن يكون ادبا أوربيا ۹۹ فى المائة قائم على المعنى والقصد . لأعلى اللفظ كما كان الحـال عند العرب .

— نريد من التعليم ان يكون تعليما اوربيا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه .

* * *

● أن هذا الاعتقـاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض . ولهـذا المرض مضـاعفات . فنحن لانكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط . بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقـافة العربية ، فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كمـا يفعل ادباؤنا المساكين أمثال المـازنى والرافعى وندرس ابن الرومى ونبحث عن أصل المتنبى . ونتعصب للجاحظ وليس علينا للعرب اى ولاء . ثم يجب أن نذكر أن ادمان الدرس العرب يشتت الأدب المصرى ويجعله شائعـا لا لون له .

● الرابطة الشرقية سـخافة . اننا فى حاجة الى رابطة غربية .

× عندى أن قليلا جدا من الفاظ اللغة يكفينا بلاحاجة الى هذه القـائمة التى لا تكاد تخـلو منها صحيفة من الصحيح والخطأ .

واذا كانت ۸۵۰ كلمة انجليزية تكفى الانجليز فلماذا لا تكفينا مثله أو ضعفه أو ثلاثة أضعافه .

× أرى أن مصلحتنا ومصلحة العالم كله أن نغرس فى أذهان جميع العرب فى مصر والعراق وسوريا وشمال أفريقيا انهم اوربيون سلالة وثقافة وانهم يجب عليهم أن يسـيروا سيرة الشعوب الأوربية يتثقفون بثقـافتهم ويتعودون بعاداتهم .

× أن العلماء يتجهون الى القول بأن مصر هى التى انشئت الحضارة فى العالم وأن المصريين القدماء لم يكونوا أمة شرقية بل كانوا أمة غربية الدم والمزاج .

× حرمان لغتنا من كلمات الثقافة العصرية هو لذلك حرمان للأمة من المعيشة العصرية ، فنحن ما زلنا نعيش بكلمات الزراعة ، ولما نعرف كلمة الصـناعة ولذلك فان عقليتنا قديمة جامدة متبلدة تنظر الى الماضى . حتى اننا نؤلف فى ترجمة معاوية ابن أبى سـفيان فى الوقت الذى كان يجب أن نؤلف عن هنرى فورد أو كارل ماركس .

● بلاغتنا التقليدية هى بلاغة الانفعال والعـاطفة فى الوقت الذى نحتاج فيه الى تأكيد المنطق والعقل .

● ما تحمل اللغة من رواسـب تاريخية قد يعود علينا بالضرر لأنها كانت تخدم مجتمعا ربما كانت فضائله معدودة بين الجرائم فى سلوكنا العصرى .

* * *

٣ ـــ الايمان بالقرب

ويؤمن «زكى نجيب محمود» بالغرب ايمانا مطلقا : يقول : من الغرب تمنيت لو أشرق على بلادى شعاع من نور ، من الغرب الذى شاءت له ارادة الله أن يكون فى عصرنا مبعث المدينة ومنارها . ومنه ينتج العلم والفلسفة والأدب والفن . وتنشأ النظم الاجتماعية والسياسية . وبين اهله تقوم الثورات التى تحطم اسوار القديم لتنبت فى الأرض نباتا جديدا .

اننى فى ساعات حلمى ، حين احلم لبلادى باليوم الذى اشتهيه لها فانما اصورها لنفسى وقد كتبنا من اليسار الى اليمين كما يكتبون . وارتدينا من الثياب ما يرتدون . واكلنا كما تاكلون . لنفكر كما يفكرون وننظر الى الدنيا بمثل ما ينظرون » .

* * *

الأدب المحلى

دعا كثير من دعاة التغريب وفى مقدمتهم امين الخولى الى اقليمية الأدب وخلق ادب اقليمى « متميز موسوم بسمة الاستقلال ومطبوع بطابع البيئة المحلية بدلا من الأدب المشترك الذى (لا يميز اقليما على اقليم ولا بيئة على بيئة) ويرى ان عوامل البيئة المحلية تفرق بين الأقطار العربية « اقرا كتابه فى الأدب المصرى » .

* * *

علماء الأزهر والمستشرقين

ويرى طه حسين أن « المستشرق بول كازانوفا » أعظم علما فى الاسلام نفسه من علماء الأزهر ويقول (١٩٢٦/٣/٢٧ السياسة اليومية) :

« عرفته استاذا فى الكوليج دى فرانس ولم اكد اسمع له حتى اعجبت به اعجابا لم اعرف له حدا . كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، وكنت شديد الاعجاب بطائفة من المستشرقين ، ولكنى لم اكن اقدر ان هؤلاء المستشرقين يستطيعون ان يعرضوا فى اصابه وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه والكشف عن اسراره واغراضه .

فلم اكد اجلس الى كازانوفا حتى تغير رايى أو قل حتى ذهب رايى كله وما هى الا دروس سمعتها منه حتى استيقنت ان الرجل كان اقدر على فهم القرآن وأمهر فى فهمه وتفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون انهم خزنته وسدنته واصحاب الحق فى تأويله .

كان كازانوفا مسيحيا شديد الايمان بمسيحيته يذهب فيها الى حد التصوف . ولكنه كان اذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى فراس نسى من المسيحية واليهودية والاسلام كل شىء الا أن لها نصوصا يجب ان تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء .

نعم لم يكن مسلما ولكنه لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ولا متدينا حين كان يعرض لنص من نصوص القرآن يدرس لفظه ويكشف معناه ويبحث عن تاريخه » وظاهر فى هذا القول معنى الخداع فكازانوفا ليس الا مستشرقا متعصبا ضد الاسلام يلبس مسوح البحث العلمى ويتخذه وسيلة لمهاجمة الاسلام والتشكيك فيه .

* * *

نقل الحضارة وما يعاب وما يكره

« ودعا طه حسين أن (نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم) وان نقبل من الحضارة (خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب » وقال « أن العرب غزاة دخلاء على المصريين وان صلة مصر بالغرب أوثق منها بالشرق . وانه لاسبيل لنا ان نفعل غير هذا لأننا التزمنا امام أوربا ان نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الادارة ونسلك طريقتها فى التشريع فى معاهدة مونترو » .

* * *

عرب المغرب

كما هاجم الدكتور طه فى رسالته عن «ابن خلدون» عرب أفريقيا الشمالية ورماهم بالهمجية والتوحش قال : ان الفرنسيين قد عانوا مشقة شديدة فى سبيل اخضاعهم .. وزعم ن ابن خلدون مخطىء فى اسناده هذا العصيان من عرب المغرب الى العزة والاباء . وقال ان الفرنسيين انفسهم قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضاراتهم عليها ، ولم يستطع الرومان ولا الاسلام ان يلطفا من اخلاق هذه القبائل أو

يروضاها على الحياة المنظمة للشـــعوب المتدينة ولكن الحضارة الحديثة مع ما لديها من وسائل اقوى وانفذ قد تصل الى هذه الغـــاية يوما ما » ا . هـ (ص ١٠٨)
ولا شك ان هذا البحث ليس لوجه العلم ولا نصرة الحق وانما هو ارضاء للمســـتعمرين وتسمية الأشـــياء بغير وحمايته شيء والاقتباس من الحضارة شيء آخر وان اباء وحمايته شيء والاقتباس من الحضارة شيء آخر وان أباء المغرب وعزته ووقوفه في وجه الاســـتعمار لا يمكن ان يوصـــف ابدا بالتوحش والهمجية الا من كتاب التغريب الذين ينقلون وجهات نظر المستعمرين بألفاظ عربية .

* * *

فرنسا الأم

وقد شاد بعض كتاب العرب ومصر خاصة بفرنسا عندما تحطمت أمام الغزو الألمـــانى وخرت ، ونظمت في رثائها القصائد وقال الكتاب عنها انها — اى فرنسا — هي الوطن الروحى لهم ، حدث هـــذا في مصر في الوقت الذى كانت قنابل فرنسا تضرب دمشق والجزائر وتونس ومراكش وقال على الطنطاوى (دمشق) لزكى مبارك (القاهرة) لقد اثرت صلة هواك بملاهيها — اى فرنسا — وحبك لغـــانيها على صلتك باخوانك الذين ســـقاهم أبناء النور الصاب وأورثوهم شر مورث ؟ اثرت هذه على صلة الدم واللسان والاسلام ما كان لك ان تنساها .

وقال : ان الأســـتاذ الزيات صاحب الرســـالة شريكك فيما أعاتبك عليـــه وقال الزيات : يجب التفريق بين فرنسا السياسية وفرنسا الروحية ، فانه لو فعـــل ذلك لواتفقنا على ان فرنسا الروحية هي الوطن الفكرى لكل اديب .

وهـــذا كلام مضلل . لأن فرنســـا المستعمرة هى فرنســـا الروحية ، وان أبرز معالم الفـــكر الفرنسى هو التفرقة بين الســـامية والارية ، وبين الرجـــل الأبيض والرجل الملون ، وان دعوى المســـاواة والحرية والأخاء وانما هى كلمات براقة لا تعرفها فرنسا خارج فرنسا » .

* * *

المرأة والاسلام

ووقف الدكتور فخرى في الجامعة الأمريكية بالقاهرة (٤ فبراير ١٩١٠) وهاجم الشريعة الاسلامية باســـم العـــلم وطعن على الدين باسم الانتصـــار للمرأة وقال الدكتور فخرى ان الشريعة الاسلامية مخطئة لعدم مساواة الرجل والمرأة في الميراث .

* * *

طريقة ديكارت

ودعا دكتور محمد كامل حسين في مقال له ان يتقدم باحث جرىء ليحمل لواء رسالة ديكارت كما حمـــل لطفى السيد رسالة ارسطو وقال « يجب ان نخطـــو الخطوة التالية في تطور حياتنا الفكرية على الطريقـــة الغربية . وسيتم ذلك حين يقوم بيننـــا من يدعو الى ديكارت على طريقة لطفى السيد الى ارسطو ، ولن يكون ذلك بمجرد نقل مؤلفاته الى العربية وانما يكون بقيام رجل فيه روح التفكير التحليلى والايمان به والاستعداد الخاص له وان يكون دعوته الى طريقة ديكارت بأن يكون مثلا حيا لهذه الطريقة يحمل الناس عليها .

* * *

صراع الثقـــافات الغربيـــة

كان للثقافات الغربية الثلاث (الفرنسية والانجليزية والأمريكية) أثرها في الفكر العربي الاسلامي المعاصر، وكان صراعها بعيد المدى ، وذلك لأن لكل منها اتجاها وطابعا وأسلوبا مغايرا لأسلوب الثقـــافة الأخرى . لقد بدأت الارساليات الثلاث عملها في العـــالم العربي على هيئة الغزو ، كان أسلوبها أسلوب السيطرة ، كانت تحمل لواء الدعوة الدينية اللاهوتية التبشيرية في أول الأمر ثم تحولت عنها الى أسلوب التعليم الغربي بما يحمل من دعوة كل ارسالية الى تعزيز لغة دولتها وثقافتها .

وقد كان بين الارســـاليات الأمريكية والفرنســـية تنافس واضح بعد منتصف القرن التاسع عشر في لبنان ومصر ثم لم تلبث الارساليات الانجليزية أن ازدادت قوة بعد احتلال مصر ودخلت في صراع عنيف مع الارساليات الفرنسية مما خلق مشكلة الصراع بين الثقافتين الفرنسية والبريطانية في مصر ، أما في لبنان فقد ظلت الارساليات الأمريكية والفرنسية تتنازعان السلطان والدعوة للثقافتين السكسونية واللاتينية .

أما في المغرب العربي فقد سيطرت الثقافة الفرنسية سيطرة كاملة منفردة منذ بدأت تحتل هذا الجزء من الوطن العربي .

وعنـــدما عاد رفاعة الطهطاوي وعلى مبـــارك في الأربعينات من القرن التاسع عشر كان شعارهما « نقل الوجوه الحسنة من مدينة الغرب ونبذ السيء منها » وقد تحول هذا الاتجاه من بعد في بعثات العشر بينات من القرن العشرين عندما ارتفع الصوت بالتغريب الكامل .

ولا شك أن الثقـــافة الفرنسية كانت ذات أثر منذ قدم نابليون الى مصر وعندما توثق اتصـــال محمد على بفرنسا سياسيا وثقافيا واتجهت البعثات الى فرنســـا وتأثرت تركيا العثمانية بفرنسا بعد اعلان دستور الثورة الفرنسية بعد عام ١٧٨٩ مما وجه أنظار دعاة الاصلاح العثماني أمثال نامق كمال ومدحت الى اقتبـــاس النظم الأوربية وخاصة الدستور الفرنسي ، واتسع أمر المطالبة بالدستور فشمل تركيا ومصر وتونس .

فلما وقع الصراع بين دعاة الاصلاح من الاتحاديين في تركيا وبين السلطان عبد الحميد كانت فرنسا موئلا لهم ولما وقع الخلاف بين مصر وبريطانيا احتضنت فرنســـا كل مقاومي بريطانيا فوردها جمال الدين ومحمد عبـــده وأصدرا بها جريدة العروة الوثقى ووردها دعاة القومية العربية وأقاموا بها مؤتمر باريس ١٩١٩ ووردها مصطفى كامل وكان ذلك جزءا من خطة الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا .

ولقد حرص دعاة الثقافة الفرنسية الى الربط بين البلاد العربية وبين الثورة الفرنســـية وقالوا أن الحملة الفرنسية هي بداية اليقظة في العالم العربي . ولطالمـــا رددوا أن الثورة الفرنسية كانت ثورة (سياسية) لأنها انتهت بقلب نظام الحكم الملكي في فرنسا الى نظام جمهوري (واجتماعية) لأنها ردت الى العامة امتيازات الاشراف ورجال الدين ومحت الفوارق التي كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسي و (اقتصادية) غيرت نظام الضرائب والرسوم الجمركية والغت نظام الاحتكار ورفعت القيود التي كانت على الصـــناعات وانتزعت أملاك الكنيســـة وجعلتها ملكا للأمة .

ولكن هل كان العرب في حاجة الى مثل هذه الدعوة الى الحرية والاخاء والمساواة وهل كانت هـــذه البادىء جديدة بالنســـبة لثقافتهم وتراثهم . وان اعـــلان حقوق الانسان في ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ قد وقع بالنسبة للعرب من قبل ذلك بألف عام .

والواقع أن اليقظة العربية بدأت بحركة محمد بن عبد الوهاب وهي حركة سابقة على الثورة الفرنســـية وفيهـــا كل معاني « النهضـــة » على النحو الذي عرفه الشرق ؛ فاذا كانت عوامل الثورة الفرنسية قد نقلت الى

الشرق بعض المعانى المستحدثة للحرية فانما كانت هذه المعانى اساسا موجودة فى الثقافة العربية ولم تكن جديدة عليها . وان موقف العلماء عام ١٧٩٥ فى تحرير الشعب من ظلم الحكام وتوقيع وثيقة حقوق الانسان العربية فى مصر انما جاء قبل ان تستكمل الثورة الفرنسية نضوجها ، ولم يكن تقليدا لها ، وانما كان انبعاثا من واقعنا العربى الاسلامى ، فقد احرز العلماء نصرا بارغام ابراهيم بك ومراد بك على ان يوقعا حجة عامة يتعهدان فيها بأن يتوبا عن المظالم ويرجعا الى الحق ويكفا اتباعهما عن امتداد أيديهم الى أموال الناس وأن يسيرا فى الناس سيرة حسنة .

ثم كانت ثورة الأهالى على الحاكم خورشيد واقصائه تحمل نفس المعنى المستمد من المفهوم العربى للحرية وقد قال عمر مكرم بالنص :

« لقد كان لأهل مصر دائما الحق فى ان يعزلوا الوالى اذا اساء ولم يرض الناس عنه » .

لذلك فان اثر الثورة الفرنسية لم يكن اكثر من ترديد للمعانى التى كانت واضحة فى مقومات الفكر العربى الاسلامى والتى يمكن ان يقال انها انتقلت منه الى فرنسا وأوربا جميعا بحكم الاتصال وعمليات العطاء والأخذ التى تمت عن طريق امتداد الثقافة العربية من اسبانيا الى فرنسا وعن طريق الحروب الصليبية وعن طريق امتداد النفوذ العثمانى الاسلامى الى اسوار فينا .

غير ان الغزو الفكرى الفرنسى لم يدع فرصة فى خلال فترة ما بين الحربين دون أن يشير الى اثر الثورة الفرنسية فى الفكر العربى الاسلامى الحديث ومدى ما تأثرت به الدولة العثمانية والشام ومصر .

ويمكن القول بأن سلطان « الجديد » ، وارتباط الثقافة الغربية بالاحتلال العسكرى انما كانا هما المصدر الأول لاقتباس أنظمة الحكم الغربية . فقد كان لابد من رد فعل عربى للتحدى الغربى بالوقوف فى صف غزوه واحتلاله بنقل أنظمته ومحاولة تعريبها وهى محاولة لم تنجح اول الأمر ، ذلك لأن امثال اسماعيل وخير الدين التونسى ومصطفى كمال وكرومر وليوتى انما كانوا يهدفون جميعا الى فرض هذه الأنظمة السياسية فرضا للقضاء على الأنظمة المستمدة من الاسلام .

ولا شك أن دعوة « القومية » للتحرر من « استبداد العثمانيين » التى قامت فى الوطن العربى قد وجدت عونا من الغزو الثقافى العربى الذى كان يهدف من وراء مظاهر هذه الدعوة الى تفتيت الوحدة القائمة فى الوطن العربى ، فاذا جاء دور اكتمال دعوة القومية العربية حال دون قيامها كما حدث فعلا بعد الحرب العالمية الأولى بتمزيق الوطن العربى الى دول ودويلات .

* * *

الحملة الفرنسية

وقد كان لدعوة الغزو الثقافى الفرنسى اثرها البعيد المدى فى تصوير النتائج المترتبة على الحملة الفرنسية بحيث أمكن رسم صورة بعيدة عن الواقع لآثار ونتائج هذه الحملة وقد أغرقت كتب التاريخ التى يدرسها الطلبة فى العالم العربى يمثل هذه « الأكذوبة » الضخمة وقد تردد أن الحملة الفرنسية هى اول مجارى الثورة الفرنسية الى الشرق العربى وان ما أطلق عليه رئيف خورى « الفتح النابليونى » قد « هز جو الجمود الذى كان مخيما على مصر فنهضت واتجهت الميول الى الارتشاف من الثقافة الفرنسية » .

والواقع ان الحملة الفرنسية كانت أول صدام حقيقى بين الشرق والغرب بعد الحرب الصليبية . وان الوحدة العربية التى كانت قد غفت تحت سيطرة الجمود الذى اصاب الامبراطورية العثمانية لم تلبث ان استيقظت على هذا الغزو فواجهته مواجهة جبارة رائعة مازال التاريخ يحمل لها صورة من البطولة فى المقاومة والفداء فى البذل . اذن فليست الحملة الفرنسية هى التى ايقظت العروبة بآثارها ، بل ان العروبة استيقظت على هذه القوة الغازية وارغمتها على العودة وكانت ثمرة هذه اليقظة قيام منظمة المقاومة الشعبية التى عزلت الحاكم العثمانى وفرضت حاكما بدلا منه باختيار الشعب ، ثم بدات النهضة العسكرية والصناعية والثقافية التى وجهها محمد على الى عمل دكتاتورى لتحقيق مطامعه الخاصة فكان أن تحطم الكيان كله لأنه لم يقم على أساس من القوى الشعبية التى تحمل على كواهلها أعباء النهضات .

ولقد كانت نهضة مصر باسم « الامبراطورية العربية » فى عهد محمد على عملا ضخما لولا انه لم يقم على أساس شعبى من ناحية ولم يكن خالص للهدف من الناحية الأخرى ، وكانت دوافعه ذات مطامع خاصة لاقامة حكم أوتقراطى خالص لأسرته وابنائها واحفادها .

ولقد اتصل محمد على بفرنسا وكان هذا هو اساس تركيز الثقافة الفرنسية فى مصر لتكون من معاقلها اسوة بلبنان والمغرب .

ولقد كشفت فرنسا عن تبعية الحضارة الغربية وبعدها عن العمل الخالص لخير الوطن الذى تتصل به ، عندما اشتركت فرنسا مع سائر الدول العربية فى ضرب اسطول مصر فى « نفارين » وسحبها قادتها البحريين وضباطها الذين كانوا يعملون مع الحملة المصرية فى سوريا وكان هذا درسا ضخما للوطنية العربية فى عدم اعتمادها على الغرب .

وقد حرصت فرنسا على دعم الروابط الثقافية بينها وبين الوطن العربى ، اما فى لبنان فقد سيطرت فيها الثقافة الفرنسية سيطرة كاملة عن طريق الارساليات الكاثوليكية .

اما فى مصر فقد تنازعت الثقافة الانجليزية واللغة الانجليزية الثقافة الفرنسية بعد الاحتلال البريطانى عام (١٨٨٢) وان ظلت سيطرة الثقافة الفرنسية قائمة بدافعين ، الاول محاربة النفوذ البريطانى — فقد كان المصريون يقبلون على الثقافة الفرنسية بدافع وطنى حتى لا يتعلموا لغة المستعمر ولا ثقافته ، وكانت الطبقة الحاكمة من القصر الى الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة من اتباع الثقافة الفرنسية ، حتى كانت اللغة الفرنسية والى قبل الحرب العالمية الثانية هى اللغة الرسمية فى المكاتبات حتى مع بريطانيا ، وكان المفاوضون المصريون وفى مقدمتهم سعد زغلول لا يتحدثون الا باللغة الفرنسية ويتناولون نصوص المعاهدات ومداولاتها بها ما عدا فئة قليلة من السياسيين الذين خرجتهم كلية فيكتوريا التى كانت دعامة من دعائم الثقافة البريطانية ، ولقد ترددت فى مصر دعوات كثيرة لخدمة الثقافة الفرنسية وكانت اضخم الصحف العربية فى مصر (الأهرام) تحمل لواء الدعوة الى الثقافة الفرنسية وتهاجم الاتجاهات البريطانية السياسية خدمة لصالح فرنسا الاقتصادية والثقافية ، وعلى الجملة فقد كان الاتجاه الثقافى الفرنسى يعانى مقاومة الاستعمار البريطانى ومعارضته .

وكان للمدارس الفرنسية التى اتسع نطاقها اثرا كبيرا فى تأكيد هذا التيار ودعمه ، فضلا عما كانت تنشره الصحف فى مختلف المناسبات الثقافية عن فرنسا : عيد الثورة الفرنسية وسقوط الباستيل وعيد جان دارك والدراسات المتعددة عن كتاب الثورة الفرنسية وابطال فرنسا وقناة السويس .

وكانت الدعوة التغريبية الفرنسية « حضارة البحر الأبيض المتوسط » من الروابط الوهمية التى اقامتها فرنسا لتربط بينها وبين مصر ولبنان والمغرب باعتبارها جميعا دولا يجمعها مناخ البحر الأبيض ووحدته الجغرافية

وتردد ما قيل من ان لكل انسان وطنان : وطنه الخاص وفرنسا ، وما كان يردده سفير مصر فى فرنسا اذ ذاك قوله : بين بلدينا اللذين يصل بينهما البحر الأبيض ولا يفصل بينهما شىء تزداد علاقات الصداقة والثقة المستمرة وفى خلال مياه النيل والرون التى يمتزج فى البحر المتوسط يجرى تياران من تيارات الصداقة وفى خلال الأمواج المتتابعة فى تيارها نحو مصر تبدو لؤلؤة البحر المتوسط جزيرة (كوركسيا) حيث ولد نابليون » .

ومما يتصل بهذا قيام الجمعيات الثقافية الفرنسية فى مصر وقيام معاهد متعددة فرنسية فى روما واثينا ومصر وسوريا وتركيا لنشر الثقافة الفرنسية ، كما قامت اكاديمية البحر الأبيض المتوسط التى وصفتها مجلة الرسالة بأن مهمتها ان تساهم فى تأدية هذا الدور الذى تضطلع به فرنسا فى توجيه الثقافة فى البحر الأبيض المتوسط وأن اهتمام فرنسا بتوجيه الثقافة فى امم البحر الأبيض المتوسط يرجع الى عهد الصليبيين فقد بدأت فرنسا هذه المهمة فعلا فى لبنان منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

ولطالما ردد الأهرام (١٩٣٨/٥/١) بأن مصر ابنة فرنسا البكر فى الثقافة ، وقد قال مسيو فرنان برون سكرتير جمعية (فرنسا — مصر) ان فرنسا منذ ١٨٠٢ قد ساهمت فى تكوين خير المصريين وتثقيف عقولهم «وهى — اى مصر — ابنتنا البكر فى المشرق كما قال سعد زغلول » .

ومع هذا فان عديدا من كتاب فرنسا المشهورين الذين زاروا مصر امثال اندريه مروا وبول موران فرنسيس كاركو ، واندريه سجفريد ، وادوار هريو قد كتبوا عن مصر كتابة مشوية بروح السخرية والانتقاص .

ودعت الكاتبة المصرية « الفرنسية الثقافة » سيزانبراوى منذ عام ١٩٢٩ الى نشر الثقافة اللاتينية فى مصر لأنها تتفق مع استعداد المصريين وميولهم وان علينا ان ندخل اللغة الفرنسية فى التعليم الثانوى وان محاولات بريطانيا بانشاء مدارس انجليزية لم يضعف اثر الثقافة الفرنسية .

فى المغرب

وفى المغرب سيطر الفرنسيون على الثقافة وحاربوا الفكر العربى الاسلامى وقال هانوتو ١٨٩٧ لقد فصلنا بين شمال أفريقيا والتاريخ العربى ، وقد قام المارشال ليوتى بالدور الذى قام به كرومر ودنلوب فى مصر حيث فصل بين البربر والعرب ، وأوقف اللغة العربية والثقافة العربية وحصرها فى المساجد ، وقالت الأهرام (١٩٣٢/١/١٦) أن المارشال ليوتى الفرنسى خدم بلاده خدمة جليلة فى بلاد الاسلام وعرف طريقة استمالة المسلمين الى فرنسا .

***

فى لبنــــان

أما فى لبنان فقد أكد الفرنسيون فى أكثر من مناسبة أنها معقل لغتهم وثقافتهم الأول — كما قالت جريدة الطان (يونيو ١٩٣٧) وأنه « اذا كانت اللغة الفرنسية باقية فى العالم العربى — ماعدا فلسطين — كلغة من الدرجة الثانية بالنسبة للغة العربية مع محافظتها على سيادتها فى التجارة والعلاقات الاجتماعية فان الفضــل فى ذلك يرجع الى المرســاون العثمانيون والدينيون والمــدارس المســيحية والآباء اليســوعيين والارساليات العثمانية والاتحاد الفرنسى والاتحاد الاسرائيلى العام .

وقالت الطان « و لايزال الاعلام الفرنسيون الذ ن هاجروا من وطنهم الى الربوع الشرقية لنشر ثقــــافتنا يقومون بعلمهم الخطير .

الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية

غير أن الثقافة الفرنسية لم تنفرد بالسلطان الأوحد فى الوطن العربى ، فان الصراع بين الارساليات الفرنسية اليسوعية والكاثوليكية والأمريكية الانجلية البروتستانت قد بدأت فى لبنان منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

وقام الدكتور فانديك الأمريكى بدور ضخم فى هذا العمل وقد بدأت هذه الحركة بالقرى دون المدن . بدأها الفرنسيون من قرية (عينطورا) وبدأها الأمريكيين من مدرسة (عبية) ثم عمت لبنان ، وكان الدكتور « فنديك » يصور التنافس بين الأمريكيين والفرنسيين فيقول انا فى طريقى الى قرية كذا لأفتح مدرستين فاذا قيل له انهـــا لا تحتمل ذلك قال : سأفتح مدرسة وسيأتى اليسوعيون فيفتحون مدرسة اخــرى ، ثم نشأت الكلية الأمريكية والكلية اليســوعية فى بيروت غير أن هــذا الصراع لم يكن فى عنف الصراع الذى قام بين الثقافتين واللغتــين الفرنسية والانجليزية . ذلك لأن أمريكا لم تكن مشاركة فى الاحتلال العسكرى لأقطار الدول العربية مثل فرنسا وبريطانيا ، وانما كانت تعمل على السيطرة عن طريق الغــزو الثقافى . وان الصراع بين الثقافة الفرنسية والانجليزية انما قام على أساس الصراع السياسى بين الدولتين فى الشرق ، ومحاولة بريطانيا احلال ثقافتها محل الثقافة الفرنسية فى البلاد الواقعة تحت احتلالها وكان التيار الفكرى المهجرى تيارا أمريكيا وكانت الهجرة الى أمريكا جزء من الأثر الثقافى الأمريكى للفكر العربى .

لقد انفــرد نفوذ بريطانيا الثقافى فى العــراق والسودان وفلسطين كما انفرد نفوذ فرنسا الثقافى فى المغرب ، أما مصر فقد وقع الصراع حيث اخذ البريطانيون فى طرد الأساتذة الفرنسيين (ذوى النفوذ) من مدارس الحقوق والطب ووزارة المعارف وحلت اللغة الانجليزية بدل الفرنسية فى معظم المواد . وتولى الأساتذة الانجليز مقــاليد الادارة والتعليم فى معظم المعــاهد ، وتحولت البعثات الخارجية الى انجلترا بدلا من فرنسا .

وفى ميدان الصحافة الثقافية حملت مجلة المقتطف (التى صدرت فى بيروت (١٨٧٦) وانتقلت الى القاهرة عام (١٨٨٥) لواء الثقافة الانجليزية حيث كان أصحابها الدكاترة : صروف ونمر ومكاريوس من خريجى الجامعة الأمريكية ثم حملت « المقطم » لواء الدعوة الى الثقــافة الانجازية وتأكيد مركز اللغــة الانجليزية فى مصر وحملت الترجمة لواء الغزو الثقافى وتأثرت بالصراع بين الثقافتين .. وكانت فى أول الأمر فى خدمة البعثات التبشيرية حيث ترجمت التوراه والانجيل . ثم تحولت الى خدمة أغراض التغريب .

وكان الأدب الفرنسى أثيرا فى العــالم العربى لأن رواده ودعاته قد نقلوا الى الأدب العربى لونا معينا من ألوانه هو أدب الاباحة والكشف والجنس ، وقد لاحــظ المســتشرق « جب » ولاحظ « كرومر » من قبــله أن الثقافة الفرنسية انما فتنت المصريين لأنها تحرص على نقل اتجاه معين من الأدب الفرنسى لا الأدب الفرنسى فى جملته وقال « جب » اننا اذا تصورنا الثمرة التى قــد يؤدى الى انتاجها التلقيح بهذه العناصر السلبية والمتشككة فى الثقافة الفرنسية الحديثة فان المرأ لا يســعه الا أن يشاطر المحافظين خوفهم من أن يكون التخريب هو كل ما تقضى به هذه الدراسات الأدبية .

(الصراع بين اللغتين الفرنسية والانجليزية)

وقد كان صراع اللغتين فى مصر من أبرز معالم الصراع بين قوى الغزو الثقافى والسيطرة والتبعية عن طريق اللغة والثقافة وأخذت اللغة الانجليزية فى السيطرة على مناهج التعليم منذ اليوم الأول للاحتلال غير ان نفوذ الثقافة الانجليزية ظل ضعيفا بعامل احتلالها للبلاد وكراهية أهل الوطن لها .

وقد أدهش بريطانيا بعد مرور نصف قرن أن مركزها فى الغزو الثقافى ليس على النحو الذى يتفق من مكانها الاستعمارى فى المنطقة وقد أبدى ولى عهد بريطانيا ملاحظته من أن نفوذ اللغة الانجليزية فى مصر مازال محصورا فى دائرة ضيقة (يوليو ١٩٣٥) مع «أن لبريطانيا مركزا ممتازا فى مصر منذ ١٨٨٢» وقال أن اللغة الفرنسية لاتزال تعتبر اللغة الرسمية فى التخاطب مع الأجانب وانتقد ذلك، وقال أن المسئولية فيه ترجع الى «تسامح» البريطانيين، ودافعت الأهرام عن اقتراح الانجليز بالغاء دراسة الفرنسية من التعليم الثانوى فقالت (فى ١٩٣٥/٢/١٤) أن نشر الثقافة الانجليزية عن طريق تعلم لغتها انما كان ضرورة قضت بها ظروف ليست خفية ، وان المصريين لو تركوا وشأنهم لآثاروا الثقافة اللاتينية . وان أكثر من نصف قرن من قيام هذه الضرورة لم تكف لزحزحة اللغة الفرنسية عن مكانها .

وعللت سر ذلك بأن هذه المظاهرة نتيجة لدوافع قوية مشتقة من طبيعة البلاد وحاجتها العلمية والاقتصادية وهى وقوع مصر فى منطقة واحدة من البلاد اللاتينية يصلها بها البحر الأبيض الذى طالما أسموه «البحر اللاتينى» .. وأن التشريع فى الدولة وهو مظهر حياتها الاجتماعية مشتق من التشريع الفرنسى وقالت تقارير دعاة الثقافة الفرنسية (الأهرام ـــ ١٩٣٥/٣/١٦) أن اللغة الفرنسية فى مصر لها وظيفة « خاصة » فى تكوين أذهان التلاميذ . وأن أهمية الفرنسية لمصر انما مرده الى انها بلدا من تلاد البحر الأبيض ، وأن مصر اتصلت بالغرب عن طرق هذا البحر وانه اذا كانت مصر ترغب فى أن تكون على رأس بلاد الشرق الأدنى او على راس البلاد الاسلامية فيجب عليها أن تذكر أن سوريا ولبنان مثلا تحظى جميع الطبقات العليا فيها باتقان اللغة الفرنسية كذلك الحال فى بلاد شمال افريقيا الاسلامية .

وفى الجانب الآخر أعلن انصار الثقافة الانجليزية فى مصر ان اللغة الانجليزية لغة عالمية . والقى المستر باكستون محاضرة بالجامعة الأمريكية (١٩٣٤/١٢/١٩) قال فيها : أن من أهم مزايا اللغة الانجليزية سهولة تعلمها ، وقال ان اللغة العربية لا تصلح لما تصلح له لغة بلاده . وقال أن كلمة TOENTER لاتفيد الدخول فحسب بل « تفيد الدخول والتوغل فى » . وقال ان ما يقابل هذه الكلمة فى اللغة العربية فى كلمتين (يمشى فى) وغاب على اللغة العربية كثرة أصواتها ومترادفاتها ومثل لذلك بأن للأسد من الأسماء ما يزيد على مائة اسم وقال ان نفوذ اللغة الانجليزية يتوقف على نفوذ انجلترا فى العالم العربى .

وقال كاتب آخر (الأهرام ـــ ٣٥/٣/٢١) أن اللغة الانجليزية فى هذه السنوات الأخيرة تجرف امامها فى قوة وعنف جميع اللغات الدولية الأخرى حتى اصبح ازاما أن نسمعها فى المؤتمرات والاجتماعات الدولية . ويبلغ عدد متكلمى اللغة الانجليزية نحو ٥٠٠ مليون نسمة بينما يتكلم الفرنسية ٧٠ مليونا وتبلغ كلمات اللغة الانجلزية ربع مجموع كلمات اللغة الفرنسية فهى اسهل استظهارا وأقرب حفظا ، ثم أن تصريف الأفعال فيها اسهل من تصريف أفعال اللغات الأخرى وأن مراجع اللغة الانجليزية فى العلوم والفنون والسياسة هى اكبر مراجع اللغات جميعا .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى أصدر فيه عن « عبد السلام ذهنى » المستشار بالمحكمة المختلطة أحكاما باللغة العربية لأول مرة فهز العالم الغربى كله واضطربت فرنسا لأن المستشارين المصريين منذ انشاء هذه المحاكم فى عهد اسماعيل لم يصدروا أحكاما بغير اللغة الفرنسية مع أن القانون يجيز اصدار الأحكام باللغة العربية . وقد رفض رئيس المحكمة اجازة الأحكام التى أصدرها عبد السلام ذهنى وأوقف ارسال القضايا اليه وقد تبعه مستشارون آخرون فأصدروا أحكامهم باللغة العربية .

وقال الكثيرون : ان هذا الصراع بين اللغتين الفرنسية والانجليزية انما كان على حساب اللغة العربية، وان الحل الوحيد لوقف هذا الصراع هو احلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية التحكمة فى مرافق البلاد بحسبانها اللغة التى تستطيع « أن تتمتع بجميع عناصر القوة وتتسلح بكل الأسس القامة والتى تكفل لها النصر على أيه لغة أجنبية فى البلاد » .

ثم اتسع نطاق الدعوة الى احلال اللغة العربية فى خطابات البنوك واللافتات ومختلف أعمال الشركات والمصالح .

وأقامت بريطانيا « الاتحاد الانجليزى المصرى » برئاسة الدكتور احمد زكى ابو شادى الذى أعلن فى الصحف (١٩٢٦/١٢/٥) أن هدف الاتحاد « تنمية روح الولاء والمحبة بين مصر وبريطانيا ودعم حسن التفاهم الذى جنينا منه خير الثمرات » وان الاتحاد الانجليزى المصرى يعتمد على الوسائل الثقافية والاجتماعية .

وفى ميدان الصراع الفكرى بين الثقافتين ، اقام الفرنسيون مؤتمرا لكتاب اللغة الفرنسية من الشرقيين اشترك فيه الكتاب المصريون (يونيو ١٩٢٧) .

وقال رئيس المؤتمر ان ازدياد عدد الشرقيين الذين يختارون اللغة الفرنسية للتعبير عن افكارهم دليل على ما لفرنسا من النفوذ .

وجرت مساجلات بين منصور فهمى والصاوى محمد فى الأهرام بعنوان « من السين الى النيل » علامة على الروابط الفكرية بين كتاب مصر الذين اطلقوا على فرنسا وطنهم الروحى ، وفى حادثين هامين كشف الفرنسيون عن موقفهم الحقيقى من أن الثقافة الفرنسية انما هى عامل من عوامل الغزو والسيطرة واحلال التبعية . وكشف الكتاب المصريون فى الثانى عن مفاهيمهم الحقيقة ازاء فرنسا .

الأول : الغاء الامتيازات الأجنبية ١٩٣٧ بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

والثانى : سقوط فرنسا تحت براثن الغزو الألمانى ذلك انه عندما عقدت بريطانيا مع مصر معاهدة ١٩٣٦ وقفت فرنسا فى وجه الغاء الامتيازات وهددت بريطانيا بالاستيلاء على جميع المعاهد والمؤسسات التابعة للدول المختلفة وادارتها بمعرفتها .

وكانت فرنسا تخشى أن يضعف توقيع المعاهدة نفوذها فى مصر بعد الغاء المحاكم المختلطة ولذلك واصلت حملاتها لتثبت « النفوذ الفكرى الفرنسى » فى مصر ومن ذلك ما كتبه (اوكتاف اوبرى) فى الأهرام (٤/٩/ عام ١٩٣٦) حيث يقترح على فرنسا ان ترسل بطريق الجو الصحف والكتب الفرنسية حيث انها عن طريق البحر يقتضى وصولها تسعة ايام او عشرة أيام . وان عليها ان تزود دور السينما بالأفلام الفرنسية لمنافسة الدور الأخرى التى تعرض الأفلام المختلفة . وقال ان على فرنسا ان تبذل الجهود للمحافظة على الارث المتصل اليها من فرنسا القديمة ومقاومة الادارة البريطانية التى توجد فى وجهها عراقيل شديدة .

وتوالت اقوال الصحف الفرنسية مؤكدة ضرورة الاستمرار فى غزو العالم العربى عن طريق التعليم والتربية ، ولذلك اسرعت فرنسا فأرسلت مسيو هرير رئيس مجلس النواب الفرنسى وقال طه حسين عميد كلية الآداب اذ ذاك بمناسبة زيارته (١٩٣٨/٥/٥) « أن فرنسا لها صبغة مشهورة اذ انها اقدر الأمم على توثيق الصلات بينها وبين أمم الأرض » . وقال الدكتور هيكل وزير المعارف أذاك موجها كلامه الى مسيو هرير : حين تزور بعض البلاد الأجنبية ويلقاك اهل البلاد بما انت اهل له من الكبار انما يكرمون فيك فرنسا التى تمثلها أصدق مثل واروعه . تمثل ثقافتها الراقية الممتازة وتمثل ديمقراطيتها الحرة . تمثل حبها للخير ورغبتها فى السلم . تمثل شعورها الممتاز . الم تقل فى مقدمة كتابك البديع عن مركز فرنسا فى العالم ان الحياة الفرنسية يجب ان تقوم على أصلين اساسيين : احداهما مراعاة المنفعة المحققة، والآخر الوفاء بالعهد » ثم لم تلبث فرنسا أن دعت الدكتور طه حسين الى جامعة ليون (١٩٢٦/٩/١١) وانعمت عليه بنيشان جوقة الشرف من درجة اوفسية « تقديرا لمواهبه الأدبية وتوثيقا لعرى التعاون الفكرى بين فرنسا ومصر » وقال طه حسين هنالك : ان مصر مدينة بكثير من الفضل لفرنسا ، ووصفت جريدة البروجرية طه بأنه « رينان مصر الضرير » أو « رينان الاسلام » وقالت انه الف عددا من الكتب فى مختلف الموضوعات مبينا فيها الأفكار اليونانية المنقولة الى العبرية ثم الى العربية . ومنها الى الحضارة الغربية حيث ازدهرت فى علم الأدب الفرنسى وكيف رسخت فيه الأفكار الفرنسية فأعطاها فى بلاده قوة شديدة مؤثرة » وهكذا صورت صحافة فرنسا مفهوم طه حسين الحقيقى للثقافة الغربية وقال الدكتور طه : نحن مع تعلقنا بفرنسا بالفكر والقلب نحافظ على اتفاقنا الصادق مع انجلترا (معاهدة ١٩٣٦) فانها برت بوعدها لنا بمساعدتنا على توطيد اركان استقلالنا الوطنى ، ووصف طه حسين ايمانه بانجلترا وحرياتها الديمقراطية وقال ان على مصر ان تتوخى السير فى سنن الحضارة الغربية والرقى الديمقراطى ناهجة نهج فرنسا وانجلترا فى الأقرب العاجل .

وأشارت جريدة البروجريه الى العناية التى تبذلها قرينة طه حسين لمعونته وما كان لها من شأن عظيم فى حياته وانها قد هدت خطاه منذ كان فى مونبليه .

وقد الهم هذا الموقف الدكتور طه حسين وضـــع كتابه « مســـتقبل الثقافة فى مصر » الذى صـــور فيه ما ينبغى أن يكون عليـــه نظام التعليم والتثقيف فى مصر بعد الاستقلال كما أشار الى ذلك فى حديث له مع الأهرام فى ١٩٣٨/١٠/٧ بعـــد عودته من فرنســـا اثر احرازه دكتوراه جامعـــة ليون . قال أن قراءاته كانت عن نظم التعليم فى البلاد الاوربية والمعروف أن كتاب (مستقبل الثقافة) كان بعيد الأثر فى تيار التغريب الفكرى ، اذ أن طه حسين دعا فيه لأول مرة دعوته الجريئة الى نقـــل الحضارة : خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد وما يعاب وقال « أننا لا سبيل لنـــا غير ذلك فقد وقعنا فى مونترو معاهدة تفرض علينا أن نأخذ نظم الغرب فى الحكم وأساليبه فى الثقافة » .

× والموقف الثانى عندما سقطت فرنسا فى براثن الغزو الفرنسى واستقبل كتابنا العرب هذا الحدث بالرثاء البالغ لها . وفى مقدمتهم طه حسين .

ولم يقل احد من كتاب التغريب فى فرنسا كلمة الحق التى قالها المارشال بيتان «لقد جاءت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية .

وقد حمل كتاب العالم العربى على مصر وكتـــابها لهذا الموقف فى الوقت الذى كانت فيه فرنســـا (حاملة لواء الرأى الحر والحضارة) تضرب اهل دمشق بالمدافع وتذيق عرب المغرب أشد الوان الاضطهاد والعدوان باسم مبادىء الثورة الفرنسية : الحرية والأخاء والمســـاواة . وعجب كتاب سوريا من كتاب عرب يبكون على فرنسا متناسين ما فعلته بالعرب وما انزلته من النكبات بعـــد الحرب العالمية الأولى .

وآية عدوان فرنسا أن الجنرال ليوتى الاستعمارى الفرنسى الطاغية قد أختير عضوا فى الأكاديمية الفرنسية نظرا لعملة الأستعمارى فى شمال أفريقيـــا فكان خطابة الافتتاحى عن تمجيد الاستعمار وتزيينه والحث عليه ومما وقال « الأدب الفرنسى لاينفصل عن الاستعمار الفرنسى » .. وقال أن الاستعمار مصدر هام للقوة والثروة ومنبع لا ينضب الجيش وساحة تدريب وتكوين للقواد وقد ردد كتـــاب الغرب ما توصف به فرنسا من أنها محررة الأمم او مشعل النور وما هى الا اكاذيب .

وأشار ساطع الحصرى الى ما ادعاه كتاب مصر من التفريق بين فرنســـا الفكرية وفرنسا السياسية فقـــال انه محض اختلاق وانه لا يمكن التمييز بين فرنسا الأدبية التمدنة وفرنسا المستعمرة وأن الأدب الفرنسى لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص بل على العكس من ذلك انبرى لخدمة تلك السياســـة بكل الوسائل الممكنة فقـــد كتب الأدباء الفرنسيـون المقالات والخطب والأشعار والقصص والروايات التى تمجد الاستعمار وتزينه فى النفوس ، وأن الأكاديمية الفرنسية اختارت رجالها من بين صـــناديد الاستعمار وان الأدب الفرنسى لم يرفع النفس الفرنسية الى درجة الوصاية الرشـــيدة على ميراث الفضـــائل الانسانية . واكبر دليل على ذلك الأسس الاجتماعيـــة الفاسدة والبراكين الداخلية والأغلال والتفـــكك . وان فرنسا كانت أعظم عائق فى طريق المفاوضين المصريين فى مؤتمر مونترو لالغاء الامتيـــازات كما عرض كثيرون من الكتاب للادعاءات التى طالما رددها الفرنسيون عن أن ثورتهم هى أولى الثورات فقـــالوا ان هناك عشرات من الثورات قامت قبل ثورة باريس المعلومة ، وقد اعترف الفرنسيون بأنهم تأخروا فى تحقيق المساواة والعـــدل الاجتمـــاعى . كما نقد الفيلســـوف الانجليزى هربرت سنبسر الأسطورة القائلة بتفوق الفرنسيين على جميع الشعوب وانتقد انتقادا لاذعا المبالغات التى اطلقت على فرنسا لقب محررة الأمم . وقالوا ان سبق فرنسا انمـــا كان فى أواسط القرن السابع عشر واواخر القرن الثامن عشر غير أنه فى القرن التاسع عشر تبدلت حالة أوربا تبدلا هائلا ولم تحتفظ فرنسا بمنزلتها السابقة ، هـــذا فضلا عن انهيار فرنسا السريع ازاء الغزو الألمانى .

* * *

الثقافة الأمريكية

كان الغزو الثقافى الأمريكى فى الأول الأمر غـــزوا تبشيريا دينيا ثم تطور الى غزو عسكرى كامل عن طريق الارساليات والتبشير والسينما والصحف والمطبوعات . وقـــد أنشأت أمريكا ســـبع جامعات امريكية فى الوطن العربى غير المدارس والبعثـــات الدينية وبلغ ما ينفق عليها سنويا حوالى ١٥ مليونا من الدولارات .

واذا كان الاتجاه الثقـــافى الأمريكى هو محاولة سيطرة المسيحية البروتستانية على الاســـلام وعلى المسيحية فى المذاهب الأخرى ، فان هناك هدفا آخـــر أخذ مكانه بقوة هو تأييد « الصهيونية » فكريا وثقافيـــا وعن طريق البحث العلمى والتاريخى فى محاولة ايجاد حق

لليهود فى فلسطين ، وقد كان واضحا تمام الوضوح فى جميع الدراسات التى قام بها المستشرقون والمبشرون والكتاب اليهود فى مختلف المؤتمرات الفكرية العالمية والصحف والمؤلفات والموسوعات التاريخية ودوائر المعارف .

وقد تأثر العرب والمصريون فى الحرب العالمية الأولى بالدعوة التى حمل لوائها « ولســـون » رئيس الولايات المتحدة وهى «حق تقرير المصير» غير أن العرب صدموا أشد صدمة عندما أعلن ولسون موافقته على احتلال بريطانيا لمصر وفرنسا لسوريا ولبنان وتأكيد تصريح بلفور فى اقامة الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

كما كان لأمريكا انطباعات أخرى لزيارة روزفلت لمصر وتصريحاته عن تأييد احتلال بريطانيا ومن عامة رجال الغزو الثقافى الأمريكى فى العالم العربى(١) دانيال بايس الذى قام بتأسيس الجامعة الأمريكية فى بيروت(٢) تشارلز وطسن الذى قام بتأسيس الجامعة الأمريكية فى مصر(٣) كورنيلوس فان ديك الطبيب المبشر الأمريكى الذى عاش فى سوريا أربعين عاما واشترك مع نصيف اليازجى وبطرس البستانى فى ترجمة التوراة الى العربية

وقد تغلغل الغزو الأمريكى عن طريق التعليم وعن طرق الصحافة ثم تحقق له بعد ذلك الحصول على امتياز استخراج البترول فى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٤٣ وشملت عمليات الحفر أكثر من ٤٢٤ الف ميل وتداخل راس مال الأمريكى فى صناعة استخراج البترول ونفط الكويت ووضعت أمريكا يدها على ٤١ فى المائة من بترول البلاد العربية .

ثم كان لأمريكا دورها فى تمكين الصهيونية من السيطرة على جزء هام من الوطن العربى هو «فلسطين» كما عمدت أمريكا الى محاولة تقديم خدمات اقتصادية واجتماعية فى أنظمة تغريبية كالتربية الأساسية والاتجاه الى القرى والحصول على معلومات احصائية مختلفة عن الثروات ، وقد انشأت أمريكا مؤسسات تعليمية مختلفة فى لبنان ومصر والأردن . وادخلت أساليب علم النفس وتجاربه القائمة على نظريات فرويد والجنس لتحويل تفكيرنا ، عن الأسس الحقيقية للفكر العربى الاسلامى والخروج من تقاليدنا الى التقاليد الأمريكية ومحاولة الغض من آدابنا وتراثنا ومعالم فكرنا وشخصيتنا .

* * *

أثر الصراع فى الفكر العربى الاسلامى

وبعد : فماذا كان أثر هذا الصراع فى الفكر العربى الاسلامى .

كان أبلغ آثاره ماصوره فرح الله الحايك الكاتب اللبنانى (الرسالة — ١٠ يونيه ١٩٤٠) حين قال : يسألوننى لماذا نأخذ اللغة الفرنسية كأداة للتعبير . وجوابى هو جواب الأكثرية الساحقة من اللبنانيين ، فنحن لا نستطيع أن نفصل بين محبتنا لفرنسا بين تأثيرها الثقافى علينا . فنحن نعيش فى وسط فرنسى ، فرنسى فى روحه ولغته ، ورغم التباين العميق بين لغتنا العربية وبين اللغة الفرنسية فنحن نهضم هذه الى درجة أننا أصبحنا نفكر بالفرنسية » ولاشك أن هذا اغراب فى التغريب ، وذهاب فى « التبعية » والولاء للأجنبى الى ابعده حدوده ممايتعارض مع استقلال الفكر العربى الاسلامى ونزعته الحرة الى الاقتباس مع الاحتفاظ بشخصيته دون أن يندمج أو يستغرب أو ينطوى ، ومثل هذه الصورة تراها فى كتاب الياس ابو شبكة (روابط الروح بين العرب والفرنجة — ١٩٤٥) حيث يقول أن فرنسا اعظم جرم يرى فى العالم ، ويعمم فى تحيز فيرى أن جميع الحركات الشعبية والفكرية التى تمخضت عنها أوربا وآسيا انتهت اليها ، وأنه أن يكن نابليون فشل فى فتح سوريا فقد تولى هذا الفتح مكانة اعلام الفرنسيين فى رجال الأدب والعلم . وهكذا يرى الياس ابو شبكة أن سائر الآداب الانسانية مدينة لفرنسا بالشىء الكثير «لأن فرنسا هى الفرن الذى يخبز فيه خبز الانسان الثقافى » وجرى طه حسين مع دعوى جيبون ورينان فى التفرقة بين العقل الآرى والعقل السامى فطبق ذلك على الأدب العربى (الهلال نوفمبر ١٩٢٧) وقال : الفرق بين الأدب الفرنسى والأدب العربى هو فى الواقع فرق مابين العقل السامى والعقل الآرى . فالأدب العربى سطحى يقنع بالظواهر والأدب الفرنسى عميق دائم التغلغل . وفى الأدب الفرنسى وضوح وتحديد لا وجود لهما فى الأدب العربى . والأديب الفرنسى اذا عالج موضوعا ألم بالتفصيلات وهو مع ذلك لا ينسى الكل والمجموع . اما الأدب العربى فيجتزىء بأخذ وردة من البستان أو لون من الوردة . ولا يفكر فى البستان . فالمزاج العربى هو المزاج السامى الذى لا يحيط بالموضوع أجزائه وكلياته . ولا ينزع الى التحليل ودرس التفاصيل ، ثم يجب أن لا ننسى أن فى الأدب الفرنسى والأوربى على وجه العموم فنونا لم يعرفها العرب قط مثل التمثيل والقصص » .

وتمثل هذه العبارات هدف الغزو الثقافى والتغريب وهى اتهام الأدب العربى بالقصور عن الآداب

العالمية ، والنظرية أصلا تقوم على أساس ثبت بطلانه وهو الفرق بين الأوربيين والساميين من الناحية العقلية أو الثقافية ، وبالرغم من هذا فان طه حســين ناقض نفسه أكثر من مرة وهو ينقل نظريات التغريب وحمل لواء آراء المستشرقين والمبشرين ودعاة الغزو الثقـــافى حين قال بعد بنظرية البحـــر الأبيض وغيرها من النظريات المتعددة التى لم يقصد بها الوصول الى حقائق معينة ، وانما الى بلبلة الفـــكر العربى بعشرات من النظريات المتضاربة المتعصبة التى تهدف الى اثارة الشك وخلق روح الشبهات وولادة مذهب الاحتقار والاستهانة لقدراتنا وتتبيع الفكر العربى الاسلامى للفكر الغربىليكون صورة بالكربونمنه تضيع منها ملامح الشخصية العربيةومقومات كياننا الروحى وطابعنا الانسانى .

* * *

ولقد كان الهدف الأساسى للغزو الثقافى الغربى هو خلق جو من البلبلة والتشكك بتعدد ضروب الثقـــافات التابعة لها وأديان الهيئات الدينية التى قامت بانشائها وهى فى مجمـــوعها تخرج مجموعا مبلبـــلا من المتعلمين والمثقفين الذى يختلف فى الراى والنزعة والاتجـــاه بين التعليم الدينى الاسلامى الذى يقوم به الأزهر والقرويين والزيتونة والمدارس اللاهوتية البرتستانية والكاثوليكية والأرثوزكسية وبين اللغات الفرنسية والانجليزية وبين تيارات الثقافات اللاتينية والسكسونية مما يخلق تنوعا عجيبا يحول دون وحدة الفكر العربى الاسلامى والتـــاء المثقفين العرب امام اهداف موحدة وخاصة فى :

(١) مســـائل الحرية والقومية والتحرر الفـــكرى والتبعية الثقافية وقد ظهر ذلك واضحا فى اعجاب المثقفين العرب بالثقافة الفرنسية والتبعية لها .

وفى (٢) النظر بعين الاستهانة الى التاريخ العربى واللغة العربية والتراث العربى كله والتطلع الى النقل من الثقافة الغربية حتى فى الجوانب التى يبدو غثـــاها واضحا فى الفكر العربى الاسلامى ، وهذا هو أثر سيادة النزعة الأجنبية فى برامج التعليم التىسيطرت علىالوطن العـــربى ، خلال قرن كامل (١٨٤٠ — ١٩٤٠) حيث حرصت هذه المناهج على حجب مفاهيم الحرية وتاريخ الكفـــاح والانتصارات من البرامج الدراســـية والكتب والصحف حتى لا يكون عاملا فى تغذية الشعور القومى وقد صدرت عشرات المؤلفات حتى خلال هذه الفترة عن الثورة الفرنسية وأبطال أوربا وكتابها وفلاسفتها وعن مدن باريس ولندن ولم يصدر بما يوازى واحد فى المـــائة منها عن أبطالنا وأعلامنا ومدننا وتاريخنا .

* * *

دور الحضارة فى معركة الغزو الثقافى

اجمع المؤرخون والمفكرون المتصفون أن الحضارة العالمية التى أطلق عليها « الحضارة الغربية » هى تراث انسانى عالمى شاركت فيه البشرية كلها ، وكان للعرب دور كبير فيه . فان جذور هذه الحضارة التى قامت فى عصر النهضة كانت نتيجة لنقل العلوم التى انشأها المسلمون والترجمات التى نقلوها عن اليونان واضافوا اليها ونموها فى مختلف الفنون وهى ليست غربية الا بالاسم انما هى ملك مشاع للانسانية وهى ثمرة الحضارات القديمة جميعها .

* * *

موقف المسيحية من الحضارة

قامت الحضارة العالمية العصرية على أساس المادة والايمان بقدرة العلم المطلقة ، وقد ارتبط الأساس المادى للحضارة بانكار الدين والروحية واسس الألوهية والنبوات واقامة مذهب البحث على أساس العدمية والالحاد والشك فى كل ما وراء الواقع الملموس وقصر الايمان على ما يصل اليه البحث بالملاحظة والاستقراء .

وترجع هذه الخصومة للدين الى موقف الكنيسة الأوربية من العلم والحرية اذ ناهضتهما واستعدت محاكم التفتيش على العلماء وأفكارهم وبذلك ارتبط « الدين » فى عرف الغرب بالتعصب والوقوف فى وجه العلم ، وهكذا كان على الحضارة ان تصارع الكنيسة الأوربية اذ وجدتها جامدة معارضة لقبس الحرية وضياء الفكر ، كما طاردت رجال الكنيسة الى المعابد والأديرة واعلنت فصل الدين عن الدولة وبذلك لم تبق المسيحية فى المغرب الا كتراث تاريخى ووسيلة للاستعمار فى خارج اوربا ، وكذلك قامت الحضارة الغربية على الالحاد والشك والمادية والاباحية والتهافت على اللذة واطلاق الغرائز وتجهيز المرأة بالمغريات وقيام مذهب الاثرة وشرعية الربا وتغليب مذهب « الغاية تبرر الواسطة » واصطناع الميكافيلية فى السياسة وهى انكار الأخلاق فى سبيل تحقيق الغرض ، والبراجماتزم (وهو مذهب الذرائع وتبادل المنافع الذى يجعل لكل شىء ثمنا ومقابلا) .

موقف الانسان من الحضارة

كان الغزو الثقافى الغربى حريصا على ان ينقل الى الفكر الغربى هذه الشكوك والنزعات والزوايا الحادة المتضاربة ، محاولا تطبيق نظرياته على المجتمع العربى بعقائده ومذاهبه وافكاره وتراثه ، غير انه لم يقدر مدى الفروق بين الكنيسة وجمودها الذى واجه الحضارة الغربية وبين الاسلام ، فقد قصرت المسيحية عن التطور والاستجابة للحضارة ، ولكن الاسلام لم يكن طوال حياته جامدا ، بل كان مرنا قادرا على مواجهة التطور فى مختلف العصور والبيئات والأزمنة ، قادرا على الالتقاء بالحضارات والثقافات المختلفة ، والاقتباس منها ، وله فى ذلك تجربة ضخمة تكاد تكون مثلا حيا لذلك هى تجربته فى اقتباس الثقافة اليونانية والرومانية وحضارتهما ، فقد قامت فى ظل الدولة العباسية مدرسة ضخمة للترجمة والاقتباس كانت بعيدة المدى فى تطوير كل فنون الثقافة العربية وترجمة كتب العلم والطب والفن والفلسفة ، اذ حمل عباقرة علماء العرب هذه الفنون وزادوا فيها واضافوا اليها واقاموا نهضة علمية بعيدة المدى استمرت خمسة قرون كانت أوروبا خلالها تعيش فى دياجير الظلام حملت لواءها جامعات دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ، ثم عاد الغرب فاتصل بهذه الحضارة عن طريق الأندلس وفرنسا وعن طريق الحملات الصليبية ، وعن طريق تركيا العثمانية ، وعن طريق رحلات العلم المختلفة التى قام بها العلماء الغربيون الى الشرق .

* * *

الحضارة ومجتمع الغرب

ولقد كان للحضارة المادية ، أثرها فى المجتمع الغربى ، هذا المجتمع الذى عاش حياة مضطربة لم تعرف الاستقرار نظرا لكثرة المذاهب والعقائد والنزعات وتضاربها وتغلب المطامع والصراع المادى وقد تردد الغرب بين عشرات المذاهب التى خلقها وحاول بها أن

ينشىء مجتمعا مثاليا ، غير أن هـــذه الأنظمة والمذاهب والعقائد تداعت وفشلت ولم تحقق اى نتيجة ايجابية .

ثم كان لظهور المادية الماركسية الشيوعية اثرها فى قيـــام صراع عالمى ضخم بعيد المدى بين المجتمعـــــات الراسمالية المسيحية وبين المجتمعات الشيوعية الماركسية مما حال دون الوصول الى نظام مثالى (اثيوبيا) صالحة

وكان سقوط فرنسا دلالة كبرى على مدى الانهيار فى النفسية الغربية والمجتمع الغربى وهكذا عجزت الحضارة الغربية عن أن تقدم للانســـانية مجتمعا ناجحا ، وعاش فى ضرام من المذاهب المتناحرة ، القائمة على الاســـتعلاء بنعرة الجنس وعصبية اللون ومحاولة الســـيطرة على العالم الملون واستغلال الاستعمار لكل ما لدى الحضارة الغربية من علم وادب وفلسفة فى سبيل السيطرة . وكان غزو اوربا لآسيا وافريقيا غزوا استعماريا ماديا لا غزوا حضاريا ، انهارت معه كل ادعاءات الحضارة فى الحرية والاخاء والمساواة وتمدين الشعوب وحق تقرير المصـــير والحريات الأربع وما سوى ذلك من شعارات اعلنهـــا الغرب خادعا بها ، وتبددت فى ظـــل الأحداث الدموية الرهيبة كل دعوات الرجل الأبيض المتمدن وعن امانتـــه فى نقل الحضارة الى الجنس البشرى ، فقـــد تبين أن الاستعمار والاستغلال والمطامع المادية والاقتصادية هى الأسس الحقيقية للحضارة الغربية ، وقد اشـــترك فى هذه النزعة كلا المذهبين العالميين على العالم الغربى : الراسمالية المسيحية والشيوعية الماركسية ، فهما كلاهما : يحاربان الأديان وينكران الجوانب الروحية ويتصارعان على امتلاك اراضى جـــديدة بها خامات تقـــدم وقودا للمصانع واسواقا لتصريف الانتاج .

* * *

مادية الحضـــارة وروحية الشرق

غير أن هذا كله لم يمض دون أن يتنبه الفلاســـفة والمفكرون الى مدى خطر « مادية الحضارة العـــالمية » فتراجعت قدرة العلم الـــمادية المطلقة ، وظهرت مذاهب جديدة تهدم المذاهب القديمة ، واعلن قادة الفكر الغربى بأن الحضارة يجب أن تلتمس لها روح وايمان ، من ذلك دعوة اوجست كمنت الى ديانة الانسانية .

ووصل العلماء بتطور المفاهيم والأبحـــاث الى أن العلم قد عجز « وحده » عن أن يكون غـــــذاء نفسيا للشعوب الغربية ، وانه لا مفر من الالتجـــاء الى الشرق واديانه وروحانيته .

وكان هذا اعلانا لافلاس الحضارة الغربية المادية. وبدات اوربا فى الثلاثينيات من هذا القرن تبحث مذاهب الهند القديمة ، وانبعثت دعوة الثيوصوفيه وهو مذهب يدل على التعطش الروحى ، وكان العلامة « هالدين » عندما اصدر كتابه (المادية) قد اثار ضجة كبرى وصفت بأنها دقت المسمار الأخير فى نعش المـــادية فقد قال ان أولئـــك الذين يؤمنون بالمعجزات على حق ، ومثلهم فى صحة العقيدة اخوانهم الذين يؤمنون بأن الحياة أساسها كيمائى نفسى ، والنفس من عالم الأرواح منشئوها والبه مآبها ، وان الحقيقة التى طفق الانسان يبحث عنها دهورا عديدة ، واعيـــاه نشدانها ، هـــذه الحقيقة روحانية فى جوهرها ، والروح لا يدركها العقل .

ثم قال « انتشين » العالم المادى الكبير «ان العالم فكرة فى عقل الله » واعلن الكثيرون أن نظرية (النشوء والارتقاء) المبنية على « النظرية الحتمية » قد انهـــار جوهرها من الأساس بعـــــد ظهور نظرية تحطيم الذرة واثبات أنها تتجزأ .

وقال (هارلود لاســـــكى) انه اذا كانت أوربا تخلصت من وصمة التعصب المذهبى فى نطاق الدين فانها لا تزال تتخبط فى حمأة التعصب المذهبى فى نطاق الاقتصاد والسياسة .

وقال « لاسكى » ان الحضارة تمر بمحنة من الشك والجدف والالحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة لم تنذر بشر مستطير فى حياة الفرد وحياة الجماعة وان الحضارة فقدت ثقتها فى نفسها كما فقدت ايمانهـــا العميق بحيوية القيم الثقـــافية السائدة ، وعجزت عن تحقيق ذلك الوفاق المنشود بين عالم المثل الأعلى الممثل فى كتابات الانسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحـــافل بأهـــوائه واطماعه وخصوماته وان استفحال النظـــام الراسمالى سخر سلطات التشريع والسياسة لخدمة مصالحه دون احتضان برامج الاصلاح الاجتماعى ،

وقال (جون دودف) ان الغرب الذى يتيه فخـــرا بطابع حضارته الوضعية الحديثة ، هذا الطابع الذى يطلق عليه اسم « المودرنزم » او العصرية التطورية قد قامر بكل راس مـــاله على مائدة هذا المودرنزم ، بل وافنى شخصيته الانسانية بكل طاقاتها الابتداعية والروحية ،

داخل دولابها الآلى الرهيب ، ان هذا الدولاب الدائب الدوران تفعل البخار والكهرباء او الذرة قد غدا فى ذاته قيمة أساسية تقاس بها كل القيم فى مجتمع الغرب .

وقد اصبحت دول الغرب برمتها شوهاء الصورة « من الداخل » الى حد مخيف ، بعد أن سيطرت حضارة الالية الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لاهدف لها ولاناموس الا مجرد التطور الآلى الذاتى ، هذا التطور ، بل هـذا الاندفاع الذى يسن لنفسه بنفسه قانون حركته مستقلا عن روح الانسان ومعنوياته كلها مع أنها تراث الآلاف من السنين ، وما دامت الثقافة هى صورة حية للنفس الانسانية فى جهادها الدائب من أجل الاستعلاء وجهادها المنبثق من الداخل العميق الأغوار فلنا أن نحكم تبعا لذلك بأن أوربا وأمريكا محكومتان بدوافع شخصية آلية أو لا شعورية عمياء وليس بدوافع ثقافية عميقة واعية .

وتسائل (جون وودف) ماذا يبتغى الانسان من وراء السيطرة على الطبيعة ، وكشف اسرار الحياة : هل الهدف هو أن نسود الطبيعة أم تسودنا الطبيعة ، هل الهدف حين نهتك اسرار هذه الحياة سرا وراء سر أن نشتى بهذه الحياة أم أن نسعد بها نحن والأجيال القادمة .

وهكذا تبدو « الحضارة الغربية » وهى تتحول الى موقف الانهيار الذى وصفها به شبنجار فى كتابه احتضار الغرب) :

فقد كان مذهب ما قبل الحرب الأولى هو مذاهب الدم والحديد ، مذهب بسمارك وهو ذات المذهب الميكافيلى القديم القائم على نظرية «الغاية تبرر الواسطة» وبعد الحرب ظهر تعصب مذهبى جديد كان أقصى تطرفا : ممثلا فى الشيوعية والفاشية والنازية مع التعصب المذهبى المصطنع بصبغة قومية مسرفة وانقسم العالم الى معسكرين خصيمين هما : الدكتاتورى والرأسمالى .

* * *

وقد اجمعت آراء الباحثين على أن الحضارة الغربية مشرفة على عهـد انحطاط وتدهور وفنـاء ، كما اشار اشبنجلر فى كتابه (احتضار العرب) وقال ان الحضارة الغربية قد أجديت وافرغت جعبتها .

وقال ليونارد ولف (مقتطف أبريل ١٩٣٤) انه قد جرت محاولات ضخمة لمقاومة هـذه الحضارة ، اهمها ما قامت به الهند احياءا لحضـارتها الهندية القديمة . وقال : أن حركة التجديد فى تركيا انما كانت تهدف الى التحرر من العبء الاقتصادى والسياسى الذى لحقها من الحضارة الغربية » .

وقد عدد البـاحثون مظاهر الانهيار فى الحضـارة الغربية متمثلة فى « العنصرية » التى تنادى بسـياسة القوة و « الدعوة الجرمانية » ممثلة فى فلسفة نيتشـه وتطبيق الولايات المتحدة لسياسة الحـاجز اللونى فى طوائف الهنود وفى جنوب أفريقيا (وفى الولايات المتحدة ١٣ مليونا من الزنوج الأفريقى الأصل ، يعاملون اسـوأ معاملة) واضطراب ولسون بين اعلان المبادىء الثلاثة عشر فى حق تقرير المصير ، ثم تأييده الحماية على مصر ، والفلسفات المنحلة المادية والاتجاه نحو الجنس ، وغلبة المدرسة السريالية بعد الحرب الأولى تحمل بذور الحيرة والقلق والحقد والثورة ، وظهور المدرسة الوجودية بعد الحرب الثانية تحمل عناصر الشـك والنموية واطلاق العنان للأعصاب المنحلة ، ودعوة اخضاع الآداب العامة الى الاقتصاد ، وأن الحوادث الكبرى فى التـاريخ ترجع الى أزمات قامت فى نفوس الأفراد .

كما أكد الباحثون تعصب الحضارة الدينى والذهبى وقالوا أن الثقافة الأوربية لم تتخل قـط عن نصرانيتها وتعصبها . وأشاروا فى هذا الى تصريح ناظر معـارف هولندا فى مؤتمر المستشرقين ١٩٣١ فى لندن حين قال : أن هولندا لم تذهب الى الشرق لأجل التجارة بل لنشر حسنات الدين المسيحى . كما صرح وزير الخـارجية الألمانية بأن ثقافة ألمانيا مبنية على الدين المسيحى .

ويتصل هذا بما تظهره دول أوربا من مظهر لادينى فى الثقافة والحكم ، بينما تتعصب تعصبا واضحا للمسيحية فى المراسم الدينية وحفلات الكنائس وأسـماء الأحزاب وامداد البعثـات التبشيرية والارسـاليات بالاعتمادات الضخمة والدعاية .

هـذه هى صورة الحضـارة الغربية فى مذاهبها وعقائدها التى حاول الغرب ان يعرضها فى حملة الغزو الثقـافى والسياسى والعسـكرى على العرب وان يفرضها ، بينما لم يصل هو بعد الى نظام او عقيـدة او (طوبيا) صالحة لاقامة مجتمعه ، وهو فى خلال هـذا الاضطراب بين العقائد والنظم والنظريات التى لم تحقق أى نجاح ، يحاول أن يغزونا بها ، واتخذ عنا نحن لهـا حينا حين اعتنقنـا بعض هذه المذاهب ودافعنا عنهـا وتحمسنا لها وظهر منا كتاب يدعون الى نقلها نقلا كاملا ، دون أن يفكروا فى فوارق التفكير والزمن والبيئة والدين والثقافات ، فكان هذا الاضطراب العنيف الذى أصاب الفكر العربى الاسلامى ، وأصابه بالزلزلة العميقة ، وأقام فيه جوا عنيفا من الصراع الطويل حتى أمكن أن يتم التغلب على نظرية (النقل) وأبدالها بكلمة (الاقتباس) .

* * *

مواجهة الحضارة

كيف واجه الفكر العربى الاسلامى الثقافة الغربية والحضارة الغربية .

علينا قبل أن نصور ذلك أن نكشف عن الفرق بين الكلمتين : الثقافة والحضارة .

الثقافة فكر والحضارة مادة

وقد جرت ابحاث متعددة حول الثقافة والحضارة ، واختلط على كثير من الكتاب الفرق بينهما : وجملة القول فى هذا أن الحضارة هى الجانب المادى وان الثقافة هى الجانب الفكرى .

ويرى شبنجار هذا الرأى فيقول : أن الثقافة أفكار معارف وآراء . وأنها مجموعة المعارف والأفكار التى تمثل الحياة والتى تنمو بها الأمة وأن الثقافة من الحضارة بمثابة السبب من النتيجة .

ويرى شارلس ريشيه : أن الحضارة هى مجموعة الآراء والعادات الناشئة عن الجهود التى تبذلها الأمة فى ميادين العلوم والفنون والصناعات والدين .

ويفرق الدكتور عبد الوهاب عزام بين الثقافة والحضارة فيقول : فرق ما بين الصناعات والأخلاق والعادات . فاذا احسنا التفكير لم يلتبس علينا ما نأخذ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائجها وما نتجنب من أخلاقها وآدابها . فانه لا فرق بين الحساب والهندسة والكيمياء فى الشرق والغرب .

ولكن شتان ما بينهما من العقائد والخلق وسنن الاجتماع ، وما يتصل بذلك ، فان لكل أمة من اخلاقها وآدابها ثوبا حاكته القرون وعملت فيه الأجيال فليس يصلح لغيرها ولا يصلح لها غيره .

وقد أشار الباحثون الى الفرق بين البحث فى الحضارة والبحث فى الثقافة وكيف أنه لا يمكن تطبيق مبادىء التسامح التى طبقت فى مجال الحضارة والعلوم على الثقافة (الاجتماع والعقائد) .

معركة المواجهة

حمل دعاة التغريب فى هذا المجال رسالة المستشرقين فى الدعوة الى قبول الحضارة كلها (خيرها وشرها) وكان فى مقدمة هؤلاء سلامة موسى وطه حسين ولم يصيبوا نجاحا يذكر ، وفشلت الدعوة الى تعدد الثقافة والقضاء على توحيدها ، وعندما ارتفعت الأصوات بالدعوة الى ثقافة عربية خالصة موحدة هاجم سلامة موسى هذا الاتجاه . وقال انه ليس من مصلحة الأمة (البلاغ ١٩٣٦/٣/٢٦) وقال : ان من مصلحة الأمم فى تعدد الثقافة والبعد عن كل محاولة يراد بها التوحيد . وقال : ولسنا ننكر أن تعدد الثقافة يؤدى الى التزعزع والقلق ولكنه خير من الركود » .

ولا شك ان الدعوة الى تعدد الثقافة انما هى دعوة الى البلبلة وقتل مقومات الأمة ولذلك لم تلق اى قبول .

واعترف فيليب حتى بأن « التحرر الفكرى فى العالم العربى » اصطدم بمجموعة صلبة من المبادىء والأفكار هى (وحدانية الله ونبوة محمد ورسالته وتدسية الاسلام) وأن أحدا لم يخرج على هذه العقائد . وقال : أن بعض المفكرين حاول النظر الى الاسلام والقرآن بروح النقد (طه حسين وعلى عبد الرازق) غير أن هذا الاتجاه لقى مقاومة شديدة ومات فى مهده » .

ويقصد « فليب حتى » بالتحرر الفكرى ما نطلق عليه دعوة التغريب ، وقد لاحظ كثير من المستشرقين الذين بحثوا نتائج حملة التغريب « أن تأثير الفرنجة لم يتجاوز المدن لأن كل الوسائل والأساليب التى استخدمها الغربيون من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية أو سينما أو شراء للأقلام ، كل ذلك وقف عند حدود المدن ولم يتجاوز الى الريف » وكان من نتيجة ذلك

ما رسم من خطط جديدة بعد الحرب العالمية الثـــانية لاقتحام الريف بعد عجز التبشير والتغريب عن اقتحامه فى الفترة التى نبحثها .

وقد انقسم الراى بين المفكرين فى « نقل » الثقافة الغربية او « اقتباسها » ودعا زكى مبارك الى ما اسماه « الاستيعاب » وفى مقال له (هلال نوفمبر ١٩٣٦) عن الثقـــافة العربية وهل ينبغى استقلالها عن الثقـــافات الأجنبية : قال : نحن نريد أن يكون للأمم العربية ثقـــافة لهـــا خصائص واصـــول . ولكننا ننكر انقطاعهـــا عن الثقافات الأجنبية وقال ان فى اللغة الانجليزية الف كلمة عربية تدور على الألسنة فى المخاطبات والمكاتبات .

ودعا الى « استيعاب » الثقافات الأجنبية وقال : يحسن حين يمكن ذلك أن نهضمها بحيث تصبح عنصرا من ثقافتنا القومية . وقال : لا اوصيكم بالفنـــاء فى الآداب الأجنبية ، ولكن أوصـــيكم بالتخلق بأخلاق الأقوياء من الأجانب وعهدى بهم ينقلون الى لغاتهم ما يملكون نقله من جيـــــد الآراء ثم يتصرفون تصرف البقـــريين لا تصرف الناقلين ، وقال أن العرب القدماء هضموا أكثر ما عرفوا من الثقافات الأجنبية ثم فرضوا ثقافتهم على من اتصل بهم من الناس .

وعرض البـــاحثون لنظرية ابن خلدون عن « ولع المغلوب بتقليد الغـــالب » وما اورده شبنجلر فى نظرية (التشكل الكاذب) حيث قال : أن التشكل الكاذب يحدث عندما تضغط حضارة كبيرة قوية على حضـــارة قديمة ناشئة فتصبها فى قالبها وتعطيها أحيانا شكلا كاذبا لايمت الى شخصيتها الحقيقية العميقة بصلة » .

ويتصل بهـــذا فشل النتائج التى ترتبت على نقل الأنظمة السياسية والاجتماعية عن البلاد المتفوقة ، فان هذه الأنظمة قد طبقت فى الوطن العربى تطبيقـــا شكليا تقليديا دون تقدير لفوارق البيئة والزمن والطبيعة .

والواقع ان البلاد العربية كانت فى حاجة الى أن تمر بمرحلة يقظة حرة لا ضـــغط فيها هى مرحلة « التكيف » وصوغ أنظمة تتفق مع تراثنا وتتمشى مع ملامح شخصيتنا ومعالمها وتطورها غير أن الاستعمار حال دون ذلك .

ويمكن القول بأن (الحضارة المادية) يمكن نقلها واقتباسها ، ولكن (الثقافة الفكرية) نجد من العسير نقلها نقلا كاملا . وفى هذا ما قاله غاندى (اننا لم ننهمك فى النظريات بحثا عن حياتنا ، وانما انهمكنا فى حيـــاتنا بحثا عن النظريات فلم نترك أى عقـــائد تفرض وجودها على غير واقع ، توجه سير احداثنا وتصنع تاريخنا) .

ودعا توفيق الحكيم (الأهرام — ١٣/٥/١٩٣٨) الى أن ننخرط فى سلك الأمم الأوربية — اذا لم تكن لنـــا قدرة على خلق حضـــــارة شرقية ، أما اذا كان للشرق رسالة — كما يقول الدكتور هيكل — وكان الشرق هـــو المنوط باصلاح مافسد فى الغريب ، فان أول خطوة ينبغى ان نخطوها انما هى اعادة النظر فى الحضـــارة الأوربية ووصـــل توفيق الحكيم الى غايته حين قال : انك قـــد تســـتطيع أن تقتلع من راس الشرقى عظمة الســــماء ولا تستطيع مطلقـــا أن تقتلع منه عظمة (العلم الأوربى الحديث) وانه من اليسير ان تســـفه عند الشرقى الآن رسالة الأنبياء ولا يمكن أن تسفه رسالة الصناعةالكبرى، نعم اليوم لا يوجد شرق » ولا شك أن توفيق الحكيم قد جاوز الحق فى هذا التصوير لتحول الشرق عن الروحية الى المادية .

وقد جرى البحث عن نهضة الشرق وهل هىعربية أم غربية وتعددت الآراء ، ولكنها كانت فى الأغلب مجمعه على « الاقتباس » لا النقل (الهلال م ٣١) قال ميخائيل نعيمة : أن القائل لا غالب الا الله (أى الشرق) لأحكم فى نظرى من القائل لا غالب الا أنا (الغرب) وأن الغرب أحوج الى مدرسة الشرق .

وقال سلامة موسى : ليس هناك حد يجب أن نقف عنده من اقتباسنا من الحضارة الأوربية .

ودعا لطفى جمعه الى « الاقتباس » من الحضـــارة الغربية : الاشتراكية ومحـــو تعدد الزوجات والغـــاء الطربوش والحبرة وتوجيه التعليم الى الكيمياء والطبيعة والرياضيات .

وقال انيس المقـــدسى : أن جامعة الشرق العربى هى اللغة وليســـت الدين وحذر من تقليد الغرب تقليدا اعمى يذهب بشخصيتنا .

وقال جبران خليل جبران : ان الغربيين فى الماضى كانوا يتنـــاولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربى ، أما الشرقيون فى الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولـــكنه لا يتحول الى كيانهم الشرقى بل يحولهم الى شبه غربيين:

وقال (مستهل) السكرجلى : اذا كان لابد من الاقتباس من وسائل المدنية الغربية فيجب ان يكون بقدر ما يكفينا ، فاذا زاد عن الكفاية اخرنا . على ان يكون ذلك القدر ملائما لأخلاقنا وبيئتنا وعوائدنا الحسنة وبلادنا وهواءها .

وقال الرافعى : ان نهضة الشرق العربى لا ينهض بها الا الركنان الخالدان : الاسلام واللغة العربية فاذا أخذنا من الغرب فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ فى آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية .

* * *

(الحضارة)

وفى مجال البحث عن الحضارة القادمة : هل هى فرعونية أم عربية أم غربية وتعددت الآراء . قال الدكتور على ابراهيم : ان تقدمنا سيكون فى نطاق الحضارة الاسلامية مع الاقتباس من الحضارة الراهنة . وقال أن اللغة العربية تصلح لأن تكون لغة علمية ، وأننا لن نرتمى فى أحضان المدنية الحاضرة ولن نرفضها كلها . وقال منصور فهمى : أن هذه البلاد تلقت عن العرب اللغة والدين ، وانه اذا كان المصريون مصريون فهم عرب باعتبار لغتهم وما ادخلته اللغة فى نفوسهم من العواطف والأفكار . وقال أن هناك ثلاث روابط : رابطة الاسلام ورابطة الشرق والرابطة العربية :

وقال طه حسين : أن الدين العربى واللغة العربية مقومان اساسيان للحياة المصرية الحديثة ، وانه لا يرى رأى الذين ينكرون الحضارة او يتهمونها بالشر والفساد والاغراق فى حب المادة وقال أننا سنأخذ من الحضارة كل ما تحتاج اليه حياتنا العقلية وحياتنا المادية .

وقال الدكتور محمد شرف : أن حضارة المستقبل فى مصر ستكون اسلامية عربية ، لأن اللغة والدين من أسس الحضارة وهى غنية بمبادئها الرائعة وبلاغتها الكاملة (الهلال م ٣٩ — ص ٨١٧) .

* * *

(الدين والفكر العربى الاسلامى)

كما جرى البحث حول مكان الدين فى حياتنا الفكرية وذلك بمناسبة زيارة الكاتب الانجلزى روم لاندو للشرق

وقال المراغى : الاسلام كما يفسره الأزهر يسعى الى أن يطابق بين قواعده وبين مطالب الحياة . وأن الهدف هو التوفيق بين الروح والمادة توفيقا عمليا ونظريا فى أن واحد .

وقال : أنه ليس فى القرآن شىء يناقض العلم والحق . وأعتقد أن الأمة لن تهجر الدين وانها ستعود الى حماه .

وقال روم لاندو : أن الغربيين يعتقدون أن التفكير العربى تفكير نظرى ، فاذا كان تفكير مصر فى خلال أربعمائة عام لم يجاوز نطاق الفقه الدينى فقد يبدو أن هؤلاء الغربيين لم يخطئوا . وقال ان التفكير الغربى تفكير واقعى ينفر من المفروض النظرية وينصب على شئون اليوم ، أما التفكير العربى فيبدو أنه منوط ببحث القواعد التى سبق تقريرها فهو كقطع (الأرابيسك) لا ترى فيها حياة نابضة .

ورد على ذلك لطفى السيد فقال : يؤسفنى الا أوافقك فانى أرى نقيض ما ترى ، اذ يبدو لى أن التفكير العربى أقرب الى الواقع من التفكير الغربى فالشريعة الاسلامية التى ذكرتها دلالة على (نظرية) تفكيرنا ، ليست كالشريعة المسيحية مقصورة على بحث أصول العقائد والأخلاق فحسب ، بل تتناول تفاصيل الحياة ووقائعها ، فهى تضع قواعد للعمل وللزواج وللميراث ولما شاكل ذلك من أمور الحياة .

وتساءل روم لاندو : هل لا يزال الدين عاملا قويا فى الحياة المصرية وأجاب لطفى السيد : لا يزال أثره فى الحياة الاسلامية أوضح من أثره فى الحياة المسيحية ، ذلك لأن قواعدنا تقوم على قاعدة من القرآن . ومن العسير فى الأقطار الاسلامية أن تفرق كثيرا بين تعاليم الدين وأمور الحياة اليومية » .

وقد أشار كثير من الباحثين الى مدى الفارق بين الشرق والغرب من ناحية الدين ، فالغرب قد ترك دينه لأنه وجده يقف به عن التطور والانطلاق ، ولذلك فصله عن الدولة . أما الاسلام فانه لا يقف عقبة أمام الفكر العربى أو الحضارة ، بل أنه يفتح باب التطور . كل ما هناك أن صورة المسلمين قد تحاول أن تعطى صورة الاسلام وهذا خطأ ، فان جوهر الدين واضح الدلالة ، أما مظاهر المسلمين فانها بطول الزمن وبعوامل الاضطراب والقصور الماضية قد أصابها ما جعلها غير مطابقة تماما

لجوهر الدين وقد أشار « جب » فى تقرير له الى أن الشرق وصل الى نتيجة حاسمة هى اتخاذ سبيل المدرسة الوسطى التى تجمع خير ما فى ثقافة الغرب الى تراثها العربى المجدد قال « لقد أخذ جميع المسلمين المتنورين يسلكون سبيلا وسطا فأخذوا خير ما فى الشرق وخير ما فى الغرب . وأن الذكريات التاريخية والاعتزاز المشترك بالماضى سيظل لهما المكان الأعلى ولن يستطيع العرب أن يقطعوا صلتهم بالماضى كما قطعها الأتراك ولما كان الاسلام جزءا لا يتجزأ من الماضى فليس فى وسع المثل العربى الأعلى أن يتجرد منه تجردا تاما .

(الامتيازات واستعارة النظم)

هل ترك الغرب للعالم العربى حريته فى الاقتباس أو النقل من الحضارة ؟ الواقع أنه لم يفعل ، وأنه فرض نظمه القانونية والسياسية والاجتماعية وكانت الامتيازات الأجنبية عاملا هاما فى هذا المجال .

ذلك أن الغرب حين امتد نفوذه الى الوطن العربى عن طريق قناصله وارسالياته ثم عن طريق الاحتلال لم يتوقف أمام تحطيم الأنظمة ذات اللون الاسلامى القائم فى العالم العربى بل حطمها وأحل بدلا منها أنظمة جديدة منقولة من القوانين الأوربية . وكان ذلك فى مجال القضاء والتشريع والحكم ، كما فصل الاستعمار بين الاسلام والسياسية .

والقانون المدنى الأوربى يستقى من منبعين أحدهما رومانى والآخر مسيحى وكان اسماعيل أول من سمح بترجمة القوانين الفرنسية وجعلها أساسا لقوانين الدولة دون اشراك التشريع الاسلامى فى مواده .

كما عمد مصطفى كمال فى تركيا بعد الثورة التركية الى اقصاء التشريع الاسلامى كلية ، والعمل بقانون سويسرة المدنى وقانون الجزاء الايطالى .

وقال : ان التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادىء والتقاليد .

وقد كان واضحا أن عمل كلا من اسماعيل باشا فى مصر ومصطفى كمال فى تركيا ليس جريا حرا مع طبيعة التطور ، وانما كان مفروضا بنفوذ الغرب الفكرى والسياسى . اذ أن هذه القوانين كانت بعيدة عن العقلية العربية أو الاسلامية وعن الذوق والمنزع والشرب .. ولم يكن فيها ما يتفق مع الزمان ، والمكان . خاصة اذا عرف أنها نقلت . دون تعديل أو تنسيق مع أحوال البلاد وفروق الزمن والبيئة .

وقد عزل التشريع الاسلامى عزلا تاما فى هذه المرحلة مع سعة مذاهبه ويسره وأجازته العمل بالصالح المرسلة ، وقد اتخذ خصوم الاسلام من جمود بعض فقهاء العالم العربى الاسلامى حجة على جمود الشريعة .

وفى ابان وضع الدستور المصرى وبعد تشكيل لجنة الدستور (١١ أبريل ١٩٢٢) جرت أبحاث متعددة فى الصحف عن موقف اللجنة من التشريع الاسلامى ، وقد أخذت مواده من الدساتير الأوربية . ولم يرد فيه أى نص من الاسلام سوى العبارة التى تنص على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام .

ويتصل بهذا سيطرة الامتيازات الأجنبية على الحياة الفكرية والاجتماعية المصرية ، وحيلولتها دون اتخاذ السبيل الحر فى معاملاتها أو تشريعاتها أو احكامها وقد زاد فى وطأة الامتيازات بمصر انشاء المحاكم المختلطة فى عهد اسماعيل وظلت الامتيازات الأجنبية عقبة فى سبيل الاصلاح .

ويمكن القول بأن الامتيازات الأجنبية كانت ركيزة استعمارية بعيدة المدى ، فى مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة والفكر .

* * *

موقف الفكر العربى الإســـــلامى
من الصهيــونية والشـــيوعية

(١)

أثر الدعوة الصهيونية فى الفكر العربى المعاصر

كان للدعوة الصهيونية اثرها فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، بعد أن عم أثرها الفكر العالمى كله ، وتداخلت مع الفكر الغربى الاستعمارى والفكر الشرقى الماركسى . ولقد كان الفكر الصهيونى بالغ الأثر فى هذين التيارين المتصارعين . ولعل اول ما يقال هنا أن اقوى نظريات الهدم والتدمير والتخريب التى حمل لوائها الاستعمار الغربى والغزو الثقافى الى الشرق ، والى العالم الاسلامى انما كانت من (ابداع) فلاسفة يهود اصلا ، وصهيونيين ثانيا ، يحملون الدعوة الأساسية التى حملتها الصهيونية ولونت بها الفكر العالمى بقصد فرض سلطانها على الفكر العالمى والسيطرة على العالم ، وتحقيق حلم انشاء الحكومة اليهودية الكبرى التى تحكم العالم كله .

ولقد ظهر الصراع قويا بين الفكر الصهيونى والفكر المسيحى فى نواحى ، وظهر الالتقاء فى نواحى اخرى ، ومن هنا نشأت تيارات ثلاث كانت تتضارب فيما بينها ، ولكنها تلتقى عند هدف واحد هو : السيطرة على الوطن العربى الذى هو مفتاح العالم الأسود الأفرو آسيوى الذى ظل مركز الصراع بين الاستعمار الغربى والاستعمار الصهيونى والاستعمار البلشفى .

* * *

الماسونية الحديثة

واذا كانت الدعوة الصهيونية قد اخذت سبيل العمل الحقيقى لاقامة كيان يهودى بمؤتمر « بال » عام ١٨٩٧ الذى يعد أول مؤتمر صهيونى وضعت فيه خطط المشروع الأساسى للعمل على اقامة دولة يهودية . كما وضعت به بروتوكولات صهيون التى استمدت مقوماتها كنظام من « التلمود » ، فان هذا المؤتمر كان نتيجة لخطوات طويلة واعمال تمهيدية بعيدة المدى ، هذه الخطوات التى يمكن العودة بها الى الوراء ، ربما الى مائة وثمانين عاما ، اى الى عام ١٧١٧ وهو العام الذى ولدت فيه « الماسونية الحديثة » فى انجلترا ثم ١٧٢١ فى فرنسا حيث اعلنت الماسونية أن هدفها هو المحافظة على نفوذ الاسرائيليين واتخذت من هيكل سليمان شعارا لها ، وقد سيطرت اليهودية على اغلب محافل الماسونية فى العالم ووجهتها للعمل واليها عزى كل ما أريق من دم فى الاغتيالات الخفية التى دبرت ونفذت حيث سارت الماسونية مع الصهيونية لصنع الثورات او اشعال نيرانها او الاستفادة منها لتحقيق اغراضها .

وقد حققت الماسونية أكبر انتصار لها فى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ — ١٧٩٥) حيث كان أبرز أبطالها من اليهود : ميرابو وفولتير وروبسبير .

* * *

الماسونية

وقد حققت منظمات الماسونية نجاحا واضحا فى الوطن العربى كدعوة وظهر لها تيار فكرى واضح فى مؤلفات متعددة وكتابات وصحف ، فكتب فى الدعوة لها جورجى زيدان وكان شاهين مكاريوس بمجلته اللطائف من اكبر دعاماتها وكتب فى الترويج لها محمد سعيد المراغى وأحمد زكى أبو شادى وعزيز ميرهم وغيرهم كثيرون ، وهاجمها مؤلف كتاب «كشف الظنون عن حال الفرمسون» والأب لويس شيخو اليسوعى صاحب مجلة (الشرق) .

وقد طبعت قوانينها بالعربية فى بيروت ١٨٨١ وطبعت « النظامات » فى مصر ١٨٩٠ ووصفها جورجى زيدان بأنها اقدم الجمعيات الحية وارجع انشائها لأول القرن الثامن قبل الميلاد فى زمن (نومايومبيلوس) وقد تقلبت فى أحوال شتى ووصف عزيز ميرهم كلمة (الماسون) بمعنى البنيان ، وارجع تكوينها الأول الى البنائين الذين وضعوا فن البناء ، ثم تطورت من مزاولة فن البناء المادى الى فن البناء الأدبى والاجتماعى وبقى من آثار الجماعة

الأولى نظامها وترتيبها وطقوسها وآلاتها واصبح ذلك كله رموزا وأسرارا للكتابة عما يرمون اليه من تربية نفسسية وتشييد اجتماعى . وقال : أن المحافل الماسونية لم تجتمع فى سلطة عليا الا عام ١٧١٧ فى لندن وانتخب أستاذا أعظم لها الدوق دى مونتاجو .

وقد كشف كثير من الباحثين عن الصلة بين الماسون وبين اضطهاد اليهود ، فقال أنها تهدف فى الأغلب الى مقاومة التعصب الدينى وخلق جو من السماحة والحرية أمام اعضائها أياكان ديانتهم وأداء الخدمات لهم . وقد عزا اليها عزيز ميرهم (السياسة الاسبوعية ٢٦/١٢/١١) وغيرم أثرها فى الثورات وحركات التحرر . فأشار الى أنها وضعت شعار الثورة الفرنسية (حرية واخاء ومساواة) وان كبار رجال الثورة كانوا من الماسون أمثال ميرابو وبريسو وكاميل ديمولان ودانتون وان « لافييت » الذى املى وثيقة الاعتراف بحقوق الانسان والذى حرر الولايات المتحدة كان من الماسون .

وقال عزيز ميرهم : أن الماسون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية وفرقوا بين السلطة الدينية والسلطة الدينية للبابا ، وأنهم حملوا لواء الحرية الفكرية وهدموا سلطان الكنيسة فى ايطاليا وفرنسا وأنالوا تركيا دستورها بفضل محافلهم القائمة بها — وقد اختلفت الكنائس فى النظر الى الماسونية (هامش الصحفى العجوز — الأهرام ١٩٣٣/٦/٢) فالكنيسة الكاثوليكية تمقت الماسونية وتحاربها ، أما الكنيسة الانجليكانية فهى على عكس ذلك . ووصف تطور الماسونية فى مصر فقالت انها دخلت فى عهد اسماعيل ، وكان الخديو من اكبر رؤسائها وكان الأمراء والوزراء وكبار رجال القضاء أعضاء فى محافلها . ثم تطورت واتسع نطاقها . وتعددت لوجاتها ومحافلها ودخلها كل من هب ودب . وأشار الى ما قيل من فوائد الماسونية ومنافعها لاعضائها ومشتركيها وللهيئة الاجتماعية وما قيل « مما لا يصدق عن عقاب من يبوح بتلك الأسرار المقدسة وجزاءه العقاب بالقتل فى رائعة النهار بالسم او السيف والمسدس » .

وعارض رأى القائلين بالسرية وقال ان الفضائل يجب أن لا يكون سرا ، وان طبيعة العصر تنافى السرية وأصحاب الأسرار . وأشار الى أن موسولينى شتت المحافل الماسونية فى ايطاليا وتبعه هتلر .

وارتاب لويس شيخو اليسوعى (مجلد ١٥ ص ٣٢٦ — المشرق) فى أمر الماسونية فتساءل لماذا « تحتجب عن أعين الناس وتتستر فى زوايا الظلمات ولايجتمع أعضاؤها الا فى الليل الدامى فى بيوت يحصنونها بالحراس فلا يدخل الا من عرف كلمة الجواز السرية واذا دخلوا كتموا بكل حرص ما يدور بينهم من الأحاديث ، وأشار الى تعارض العمل الخيرى مع الاقسام والايمان بعدم البوح بالأسرار . وقال (أن للماسونية طقوسا ورتبا وازياء غريبة وملبسات وخطوات وطرقات وتهويلات فى درجاتها العديدة من الدرجة الأولى الى الدرجة الثلاث والثلاثين . ومن درجة الرفيق الى الأستاذ » .

وقد كشف معارضى الماسونية وأغلبهم من المسيحيين انها تهاجم السيحية وانها ترمى الى القضاء على الدين كما فعلت فى ثورات ١٧٨٩ الفرنسية و ١٩٢٠ الشيوعية و ١٩٢٦ التركية ، وقد ردد الدكتور صروف (المقتطف فبراير ١٩١٠) (اتهام بعض الناس للجمعية الماسونية بأنها حملة سياسية معادية لكل سلطة مدنية) ثم دافع عنهم وقال أن اتهامها بمعاداة الأديان لا يتفق مع وجود عدد كبير من رؤساء الأديان بها وقال : والذين يعرفون الجمعية الماسونية يعرفون حق المعرفة أنها ليس لها غرض الا أن تساعد أعضائها بعضهم بعضا فى أمورهم الزمنية وان يسعوا فى كل ما يعلى شأن البشر ولهم فى ذلك مآثر كثيرة » .

وقال خصوم الماسونية ان القضاء على سلطان الكنيسة وهدمه والفصل بين السلطة المدنية فى البابوية والمسيحية والغاء الخلافة فى تركيا كل هذا كان من عمل الماسونية التى هى فى نظره جمعية سرية صهيونية قامت وفق بروتوكولات صهيون وتسترت فى اغراضها وراء هذا الشعارات والأهداف ، وانها كانت ذات يد فى القضاء على كل من وقف أمام الصهيونية كاقصاء السلطان عبد الحميد ، ومدحت وهتلر وموسولينى وجمال الدين الأفغانى الذى انشق عن المحفل الماسونى وعارضه وأقام محفلا ماسونيا تابعا للمحفل الفرنسى .

ولقد تأثر الفكر العربى الاسلامى بأفكار الماسونية التى انتشرت فى العالم العربى وكان لها محافل متعددة فى مصر والشام والمغرب ، وكان جمال الدين الأفغانى قد دخل الماسونية ظنا بأنها تخدم أهدافه لتحرير العالم الاسلامى من الاستعمار .

اما فى العالم الاسلامى فقد تركزت الماسونية فى تركيا على نحو ضخم ، وكان لها سلطانها الواضح على جمعية الاتحاد والترقى العثمانية التى قامت نظمها أساسا وفق أنظمة الماسون وكان اغلب أعضائها من الماسون .

وقال الدكتور صروف أنها هى التى بثت فى نفوس

العثمانيين روح الحرية . وقد أعلن المؤرخ برتوبك بأن الماسونية كانت هى المحرك الأول والمرشد الأكبر فى تقويض الاستبداد العثمانى وخلع عبد الحميد .

* * *

الصهيونية فى أولى خطواتها

وقد كان نداء ١٧٩٨ الذى وجهه يهودى فرنسى الى اليهود للقيام بمعاونته فى اعطاءهم (أورشليم) داعيا الى تحقيق مشروع القدس واقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى ١٥ قطرا للاستيلاء على مصر والمنطقة الممتدة منها الى عكا الى البحر الميت الى البحر الأحمر مؤكدا أن هذا المركز يجعل — اليهود وفرنسا — مسيطرين على سير الملاحة فى البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب . كان هذا النداء مقدمة للنداء الذى وجهه « نابليون » عام ١٧٩٩ لمعاونته فى اعطاء اليهود « أورشليم » غير ان اليهود الذين كانوا حريصين على أن يتموا مشروعهم بأنفسهم قد تجاهلوا نابليون وقصدوا الى عمل آخر حين اتصلوا بالسلطان عبد الحميد من ناحية ثم بمحمد على من ناحية أخرى ، أما (السلطان عبد الحميد) فقد رفض العرض الذى يرمى الى استثمار مليون فدان فى السلط بفلسطين بالرغم من سخاء العرض الذى قدم له وهو فيما يروى بعض المؤرخين سبعة ملايين جنيها ذهبا . أما العرض السابق فيغلب أنه نجح حيث منح « محمد على » امتيازا واسع المدى لموسى مونتو فيورى الثرى اليهودى الكبير لشراء مساحات كبيرة كانت هى أولى المناطق التى استولى عليها اليهود فى فلسطين وبها أنشئت أول جمعية لاستثمار أراضى فلسطين عام ١٨٧٩ .

وفى هذه الفترة كتب . الدكتور تيودور هرتسل اليهودى النمساوى (١٨٩٥) كتابه الذى آثار ضجة وذيوعا (الوطن الاسرائيلى) والذى ترجم الى الفرنسية والانجليزية والعبرانية والنمساوية ، وقامت الفكرة فيه على أساس احتلال اليهود لفلسطين ، وخلاصة آراء هرتسل أن أعداء الساميين آخذون فى الازدياد ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم فى الأرض ، لذلك لابد من قيام جمعية سياسية مالية تشرف على شركة يهودية اقتصادية رأس مالها (كذا) مليون جنيه ومركزها لندن للقيام بشراء اراضى فلسطين التى يوجد بها هيكل سليمان على أساس أن الناس — أى اليهود — لا يساقون الا بمثل هذه الشعائر الدينية ، ورسم مؤتمر بال ١٨٩٧ خطة العمل : ايجاد وطن شرعى للشعب الاسرائيلى فى فلسطين وذلك مع احياء الآداب العبرانية ونشرها وتعاليمها وبعثها بعد انطوائها أكثر من الفى عام . وقد تحقق ذلك بانشاء الجامعة العبرية فى القدس وبدأ التنقيب على الآثار اليهودية .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت الى الفكر العربى الاسلامى محاولات كثيرة لتسميم حقائق التاريخ والفكر وذلك بمحاولة ابراء تحريف التاريخ والتراث العربى حيث دس اليهود فى مختلف المؤتمرات والمؤلفات والكتابات ما أطلقوا عليه حقهم الكاذب فى فلسطين ، وقد كان لهم من السلطان عن طريق فرنسا وبريطانيا ما مكنهم من التسلل الى كتب التاريخ التى تدرس فى المدارس الجامعات وعن طريق المستشرقين اليهود أو أصحاب الولاء للصهيونية الذين عملوا فى مصر ولبنان وغيرها من دول العالم العربى ، كما امتد نفوذهم الى الصحف العربية والمصرية بالذات وذلك ضمن خطة انشاء الصحف الكبرى فى روسيا والنمسا وايطاليا وانجلترا والصين واليابان والباكستان وقد استغل اليهود الاضطهاد الذى واجههم فى روسيا ابتداء من عام ١٨٨٣ وقضية ديفورس ١٨٦٧ التى تجلى فيها العداء لليهود على أشده ، وبدأ ظهور النزعات القومية فى أوربة مما أداهم الى الاندفاع فى الخطة التى حققت فى نهاية الحرب العالمية الأولى قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين بصدور وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٨ .

ويهمنا هنا أن نصور أثر الصهيونية فى الفكر والثقافة حيث ظهر عشرات من أعلام الفلاسفة والكتاب الذين سلطت عليهم قوة اليهود المادية وسلطانهم فى ميدان النشر والصحافة مختلف الأضواء ومن هؤلاء سبينوزا أكبر فلاسفة التاريخ اليهودى . وماكس نوردو الذى هاجم النظم البشرية : الدين والملكية والسياسة والذى تنبأ بالمدينة اليهودية المقبلة وقال : أرى أن مدينة اليوم القائمة على التشاؤم والكذاب والأنانية ستبيد وتتبعها مدينة ترتكز على الحق والغيريه والتفاؤل حيث تصبح الانسانية حقيقة واضحة لا معنى خياليا ، وكان من أعظم زعماء الصهيونية وعضد « هرتزل » عندما أسست الحركة الصهيونية وكان نائبا عنه فى مؤتمر « بال » وهو الزعيم الأكبر لمفكرى الصهيونية .

« وفرويد » داعية علم النفس الذى حاول بمذهبه تحطيم القيم الروحية للبشرية « ورويتر » صاحب أضخم وكالة أنباء فى العالم والذى سيطر ووجه أخبار العالم لحساب اليهود فى مدى امتد أكثر من سبعين عاما .

« واندريه مروا » الذى وجه الافكار الى الاثم عن طريق الادب ».

و « كارل ماركس » الذى وضـــع اساس المذهب الشيوعى وفق خطة الصهيونية فى السيطرة على العالم كما رسمها باروخ ليفى فى خطابه الى ماركس (مجــلة باريس يونيه ١٠٢٨) وقال فيه : يقتضى التنظيم الجديد للانسانية أن ينتشر أبناء اسرائيل على ســطح الأرض ويتسلموا فى كل مكان زمام الأمور ، خصوصا اذا نجحوا فى فرض اشراف شديد على الطبقة العــاملة . فينتقل زمام الحكومات فى العــالم الى أيدى الاسرائيليين تحت شعار الطبقة العاملة وتلغى حينئذ الملكية الفرديةوتفرض رقابتها على كل مكان من الأموال العامة » .

وقد ركز اليهود على خلق اســس الفكر اليهودى كمحاولة للسيطرة على التاريخ والفكر العــالمى وتحويل الانظار نحو تأييد اكاذيبهم فى ادعاء الحق التــاريخى فى فلسطين عن طريق انشاء الجامعة العبرية فى القدس وهو مشروع اعــده هرتزل وماكس نوردو وحاييم وايزمان ؟ وقد صور هذا المعنى (آنشتين) العلامة اليهودى الكبير حيث قال : ان الجامعة هى المكان الذى تتجلى فيهالنفس البشرية بأحلى معـــانيها . وليســت جامعات أوربا فى الحقيقة سوى مراجل تغلى فيها الوطنية المتطرفة غليانا أكلا . ويسود التعصب الأعمى فيها كل الأشياء الخارجة عن دائرة الأمة والسلالة وكل الأشياء التىتكون معصوبة بطابع فردى مختلف . وقال ان جامعتنا حرة طليقة من كل قيود التعصب والتحاسد » .

وفى هذه العبارات ما يرسم الهدف الحقيقى للثقافة العبرية القائمة على تمثل أحقــاد اسرائيل ومطامعها فى محاولتين كبيرتين ، الأولى : ابراز اثر اليهود فى الفــكر العربى القــديم ، والثــانى : محاولة تزييف التـــاريخ لاثبات حق وهمى فى فلسطين العربية .

وليس ادل على حقيقة أهداف الفكر الاسرائيلى من قول الدكتور أوسكار ليفى : نحن اليهود لســنا شيئا الا مفسدى العلم ومدمريه ومحركى الفتن فيه وجلاديه .

وقد وجهالفكر العربىالاسلامى هذه المحاولات ولم يقف أمامها صامتا وانما فندها واثبت أنها مسمومةومخالفة لحقيقة الواقع التـــاريخى وحتمية التاريخ ، فمنذ أربعين قرنا لا يعرف التاريخ لفلسطين ســـكانا غير العرب وبنو اسرائيل الذين طردوا مصر والتجأوا الى فلسطين انمـــا وجدوها اذ ذاك يسودها الشعب الكنعانى العربى ، ولم يكن بنو اسرائيل فى وقت من الأوقات اكثرية فى فلسطين، وأن الذين شردوا من فلسطين بعد تدمير الهيكل فى عهد القيصر « أدريانوس » لم يكونوا ســـــوى رجال الدين ولا يزيد عددهم عن خمسين الفا ، اما ســكان فلسطين الأصليين فلم يتعرضوا للتشريد ، وهذا ما يؤكد بالدليل القاطع ان الصهيونيين الموجودون الآن فى أوربا وامريكا ليسوا هم احفاد اليهود الذين أخرجوا من فلسطين وانهم بعيدون كل البعــد عن الجنس الاسرائيلى القديم وعن الدين اليهودى الصحيح وهم كذلك بعيدون عن الثقـــافة اليهودية السامية القديمة فليست لغتهم الأصــلية هى اللغة العبرية وأنهم انما يتكلفون بعث هــذه اللغة الميتة اليوم فى محاولة فاشلة لايجاد وحدة مصطنعة ، وأنثقافة الصهيونيين الحقيقية هى ثقافة جرمانية ولغتهم المسماه « يدش » هى اللغة الألمانية القديمة .

وقد انقضى الأجل الذى يربطهم باليهودية وانما هم يتخذون من الجنس والدين وسيلة للسيطرة العالمية .

* * *

(بروتوكولات صهيونية)

عندما عقــد (يتودور هريزل) المؤتمر الصهيونى الأول فى بال بسويسرا عام ١٨٩٧ اجتمع أكثر من ثلاثمائة من حكماء اسرائيل حيث رسموا خطة وضع العالم تحت سيطرة اليهود وتقويض أركان الحــكومات لاقامة دولة يهودية واحدة تحت تاج ملك من نسلداود ، وقد وضعت هذه الخطة موضع التنفيــذ فى بروتوكولات سرية أطلق عليها « بروتوكولات صهيون » .

وقال هرتزل الذى يعده اليهود رابع أربعـــة هم : موسى وسلمان وزروبابل « ومتى أصبحنا أسياد الناس لا ندع فى الوجود سوى ديانتنا التى تنــادى بالآله الذى يتعلق به مصيرنا ، لأننا نحن شعب الله المختار . ولأن مصيرنا يقرر مصير العالم ، ولذلك وجب علينا أن نلاشى سائر الأديان . فان أدى عملنا هذا الى قيام كفرة محدثين .. فسوف نجعلهم عبرة لشعوب لابد أن تخضع لديانة موسى المتينة الصــوابيه الكفيلة بأن توصلنا للســيادة على سائر الشعوب » .

وقــد كان من الخطط التى وضعت لتنفيذ وصايا « هرتزل » انشاء الماسونية الكونية ، والماسونيةالملوكية والماســونية الرمزية العــامة لمختلف الملــل والديانات

والأجناس ، وقد اتخذوا من الماسونية وسيلة لاستغلال غير اليهود فى الوصول الى المركز الخطير الذى احتلوه فى توجيه السياسة العالمية خاصة فى امريكا وانجلترا . وقد كانت الماسونية هى الأداة التي يتحقق بها حلم الصهيونية عن طريق تحطيم مقومات كل الشعوب والأديان ولها أن تتخذ شعاراً خادعا هو (الحرية والمساواة والاخاء) ليخفى حقيقة العمل لامبراطورية يهودا الكبرى .

وقد أشار كثير من الصهيونيين الى ان هدف بروتوكولات حكماء صهيون هى حكم الجماهير والأفراد عن طريق عبارات ونظريات وقواعد للحياة معدة اعدادا ماهرا وعن طريق شتى أنواع الخداع والحيل وقالوا : اننا وقفنا وراء الكواليس وحرصنا على أن تبقى منظمتنا مستترة خفية . ويتصل بهذا أن الصهيونية هى حاملة لواء الدعوة الى هدم الديانات . والقول بأن الأديان لم تعد تسد حاجات المجتمع الحديث ، وقد دست الصهيونية على رجال الكهنوت ملحدون يعملون قسسا ويتحدثون عن الالحاد عن طريق خفى ، وقد بلغ هذا العمل حدا عنيفا فيما يروى عن أن كبير حاخامى اليهود فى القسطنطينية وجه الى يهود فرنسا نصيحته : (اجعلوا من أبنائكم أطباء وصيادلة حتى يتمكنوا من القضاء على حياتهم دون أن تخشوا عقابا) .

وقد تضمنت هذه البروتوكولات (كما أوردها مترجمها محمد خليفة التونسى) خطة قوامها : استغلال العالم لمصلحة اليهود والسيطرة الكاملة على العالم ، وهدم الحكومات فى كل الأقطار والاستعاضة عنها بحكومات ملكية استبدادية ، واغراء الملوك باضطهاد الشعوب واغراء الشعوب باضطهاد الملوك . والقاء بذور الخلاف والشغب فى كل الدول عن طريق الجمعيات السرية والدينية والمحافل الماسونية ونقل الدول من التسامح الى التطرف السياسى والدينى فالاشتراكية فالاباحية فالفوضوية . وافساد أساليب الحكم . ووضع كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والسينما والجامعات والمسارح فى يد اليهود ووضع أسس الاقتصاد العالمى على أساس الذهب الذى يحتكره اليهود واحداث الأزمات الاقتصادية العالمية على الدوام .

وهذا نموذج من البروتوكولات :

* * *

البروتوكول الأول

« لقد أقمنا على أطلال الأرستقراطية الطبقية والوراثية أرستقراطية من عندنا على أساس بلوتراطى (الحكومة الأقلية الغنية التى تملك معظم الثروة) ولقد أقمنا الأرستقراطية الجديدة على الثروة التى تسلط عليها وعلى العلم الذى يروجه علماؤنا .

اننا فى صلاتنا بالناس كنا دائما نستثير مرضى ضحايانا من اجل المنافع ونحرك شرههم ونهمهم وحاجاتهم المادية .

وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده أن يحطم قادة الشعب وزعماءه وظاهر من هذا أن حكماء اليهود يوصون قومهم بأن يسددوا ضرباتهم الى القادة الذين هم فى الطليعة فاذا حطموهم تحطمت الأمم والطوائف التى يتبعهم من غير عناء » .

* * *

البروتوكول الثانى

« لضمان الرأى العام يجب أولا أن نحيره كل الحيرة بتغيرات من كل النواحى لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأميون (غير اليهود) فى متاهم وعندئذ سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو الا يكون لهم رأى فى المسائل السياسية . هذه المسائل لا يقصد منها أن يدركها الشعب بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب » . ا . هـ .

* * *

(السامية اليهودية)

ولقد حالت الصهيونية فى مخططها الذى قامت به بعد وعد بلفور ربط نفسها بالثقافة السامية حين اذاعت فى ظروف مختلفة أن أوربا المسيحية الآرية تضطهدها باسم السامية . وذلك لمحاولة تزييف الواقع التاريخى يربط الصهيونيين الذين لا رابطة حقيقية بينهم وبين اليهود منذ ٢٥٠٠ عام بالعرب باعتبار ان السامية كانت تجمع العرب واليهود ، والواقع أن هناك فارقا بين اليهودية الشرقية وبين الصهيونية الغربية لا سبيل الى انكاره ، مما لا سبيل الى الربط بينهما بوجه من الوجوه ، فضلا

عن انه ليس من المستطاع التصور بأن الخمسين الفا من المشردين قد استطاعوا رغم الذابح والاضطهادات المنكرة أن يصبحوا — خمسة عشر مليونا من الالان والسلاف يدينون بالدين اليهودى (دكتور محمد عوض محمد الهلال : يونيه ١٩٤٨) .

ولم يعد هناك شك أن الصهيونيين تغلغلوا فى الغرب واختلطوا بالشعوب الآرية فى خلال هذه القرون الطويلة اختلاطا أضاع صلتهم باليهودية والسامية وصهرهم مع الشعوب التى اندمجوا فيها ، وهى الشعوب الآرية مما أثر فى آرائهم وتفكيرهم ، لذلك لم يكن هناك ما يثبت أية رابطة بين الصهيونيين وبين الثقافة العربية الاسلامية التى عاشت مستقلة خلال تسعة عشر قرنا ، ومن الحقائق المؤكدة أن الفكر العربى الاسلامى قد نفر من أساس الفكر الغربى وهو الالحاد .

ولقد وقف يهود من مصر أمثال جاستون زنانيرى فى مؤتمر اللغات والآداب القديمة البحر المتوسط فى موناكو (نوفمبر ١٩٣٥) ليحاولوا الربط بين الصهيونية وبين السامية القديمة . ولم يكن هناك رد على مثل هذه الادعاءات من أن السامية بقيمها وبطولاتها وثقافتها القائمة على الدين والخلق والكرامة والوفاء تختلف تماما عن الصهيونية بمعالمها الجديدة ممثلة فى بروتوكولات صهيون وفى الاغراق فى المادية والدعوة الى اشاعة الاباحة والرذيلة فى العالم وتحطيم المعتقدات الاسلامية والمسيحية وسحق القيم الروحية والمعنوية واثارة الشكوك حول الألوهية وقيادة حركة التغريب .

وقد اتجهت الصهيونية الى مثل هذا الغزو الثقافى عن طريق اعادة ربط العرب واليهود معا ازاء حملات أوربا على السامية ، النزعة التى أطلق عليها Antisemitim وهى فى الواقع ليست موجهة الى السامية بقدر ما هى موجهة الى اليهود الصهيونيين دون غيرهم من الساميين .

وقد اشتدت دعوة (عداء السامية) فى أوربا بعد صدور وعد بلفور وقيام الثورة البلشفية الشيوعية فى روسيا ، فقد تكشف بالدلائل التى لا تقبل الشك أن اليهود هم زعماء الحركات الثورية والانقلابية فى العالم ، واليهم ينسب كل ما يقع من أزمات وحروب ، ومنهم رؤساء الشيوعية وناشروها فى العالم . وهم فى نفس الوقت ملوك المال والصيرفة الذين يسيطرون على أسعار السلع وتقلب العملة والأوراق المالية ، ولهم جهازا ضخما للاستعلام والجاسوسية فى مختلف انحاء العالم .

وأنهم قد استفادوا من الثورات الفرنسية ١٧٨٩ وأوقدوا نار الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ والثورة الروسية ١٩١٧ والثورية الايطالية ١٩٢٢ والثورة الاسبانية ١٩٣٠ .

وأنهم حماة الدعوات المتضاربة سواء الرأسمالية الغربية أو الشيوعية الروسية وذلك بقصد خلق كتلتين فى العالم وابقاء الصراع الدائم بين الشرق والغرب .

* * *

(الجامعة السامية)

وقد احتضنت بعض الدوائر فى مصر فكرة (الجامعة السامية) التى نادى بها اليهود ونشرت صحفها ابحاثا عنها حيث كانت بريطانيا تفرض حمايتها على هذه التيارات المتعددة وتبيح لها الظهور امعانا فى بلبلة اتجاه الفكر العربى ، يقول قدمى كوهين (الأهرام — ١٩٣١/٧/٥) أنه بدأ منذ عام ١٩٢٢ فى نشر سلسلة من الأبحاث حول (الجامعة السامية) وفى مقدمتها كتابه (افلاس الصهيونية) ويرى الصهيونية قائمة على قواعد واهية لا قيمة لها من الوجهة الأدبية والنفسية . أنها لن تسفر عن نتيجة مالم تحل المسألة التالية وهى :

هل الصهيونيون الذين يعودون الى فلسطين يكونون جلادى العرب فيجتاحون بلاد اخوانهم فى الدم ويخونون فضلهم . أم يعودون الى هذه البلاد للقيام بجميع الواجبات المفروضة على الشرقيين .

ويقول : الصهيونية اما أن تتحد مع الغرب او مع الشرق . وفى الحالة الأولى تظل شيئا حقيرا لا امل له فى البقاء الا إذا وضع نفسه موضع الجشع الاستعمارى الأجنبى ، وفى الحالة الثانية يكون مشروعا عظيما يبعث على أعظم الآمال فى نفوس الجنس الذى ينتسب اليه « شعب الله الخاص » وهو يدعو الى الاتفاق بين العرب والصهيونيين ويقول « الغاية فى نظرى اتحاد سامى يضم جميع البلاد الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر والاقيانوس الهندى وايران وتركيا وبين هذه الولايات المتحدة فى الشرق الأدنى . وانى أرى ولاية كبيرة يهودية تسع ابناء اسرائيل ، والوسيلة الوحيدة المؤدية لذلك يجب أن نجدها فى الجامعة السامية . أن النهضة العربية لا يمكن أن تسفر عن النتائج المنشودة دون معاونة اليهود .. كما اننا فى حاجة الى الاستعانة بالعرب ولغتهم البديعة لجعل لغتنا ملائمة لمقتضيات العصر . فأين يجد

العرب الحال اللازم لانهاض بلادهم واستثمارها . ان وجوده فى اوربا وأمريكا فانهم يدفعون فيه ثمنا غاليا . هذه الفكرة لا نصل لها الا باعتناق فكرة الجامعة السامية التى توحد جميع الموارد والجهود لتحقيق امانى الفريقين .. ان العبقرية اليهودية فى حاجة الى أن تستمد قوة جديدة من الأرض التى نشأت فيها ، وأن مهمة الجامعة السامية هى احياء الشرق وايجاد الصلة بين اليهود وبين العرب » . ا . هـ .

هـذه صورة من الاتجاه الصهيونى الذى حاول السيطرة على الفكر العربى لاقناعه بمغالطات واكاذيب فى محاولة ايجاد جامعةسامية بين العربوبين الصهيونيين الذين لا صحة لنسبهم واتصالهم الحقيقى بيهود العالم العربى ولا بالسامية اطلاقا ، فضلا عن الخداع العجيب الذى تطويه الكلمات المسمومة حين يدعى قدمى كوهين) المستشار بمحكمة الاستئناف بباريس بانه يكتب ما يطلق عليه (افلاس الصهيونية) فى حين انه يرسم مؤامرة اشد خطورة حين يحاولخداع العرب بصداقة الصهيونية وامكان الاخاء بينهما ، وهم يغدرون بجزء هام من أرض الأمة العربية يغتصبونه ، وقد رد عليه كثاون يفندون آرائه المسمومة . وقال محمد رفيق اللبابيدى (١٠/١٧ عام ١٩٣١ — الأهرام) انه اذا كانت الدعوة السامية معناها أن العرب يتسامحون فى حقوقهم ويتهاونون فى الدفاع عنها وينزلون طواعيه عن بلاد لم تبق ذرة فيها الا امتزجت بدم ابائهم واجدادهم فى سبيل ضفر اكاليل السامية وتكوين الولاية اليهودية لهى فكرة طائشة ، وقال أن غاية الدكتور مفادها أن تكون فلسطين العربية الخاصة هى هذه الولاية النكرة التى بسع جميع ابناء اسرائيل داخل ما يستبيح مما قاله انه يسوق العرب انفسهم دعاة فى سبيل السامية لخير الصهيونية التى يحاربها اسماء بزخرف القول .

وهكذا ارتبط « مؤتمر بال » بحركة فكرية امتدت وتضخمت وسيطرت على الصحف ومؤتمرات المستشرقين وأساتذة الجامعات وكتاب العالم ، فقامت دعوة اخرى للجامعة السامية الى جوار الدعوة الفرعونية والآشورية والبابلية والماركسية والشيوعية ، وقد القى الحاخام اليهودى فى مصر عدة محاضرات عن تطور اللغة العبرية حاول فيها أن يربط بينها وبين اللغة العربية مبينا مدى الدور الذى لعبه الفكر العبرى فى الفكر العربى القديم وظهرت مؤلفات تعلن يقظة الفكر اليهودى منها (كتاب يقظة الفكر اليهودى : ايلى ليفى أبو عسل — ١٩٣٤ مصر) .

(الحضارة اليهودية)

ولقد برز فى هذه الفترة تيار قوى أطلق عليه اسم (الحضارة اليهودية المستقبلية) كان أساس دعوته أن الحضارة المسيحية التى تحمل لوائها أوربا هى على وشك الزوال وستقوم مكانها حضارة أخرى ستكون أكثر اهتماما بالماديات ولكن على نسق آخر ، وقد صور عمر عنايت (العصور — فبراير ١٩٢٩) هذا التيار الذى انبثق عن الدور الذى قام به اليهود حين آثروا فى توجيه الراى العام الى جهة غير الجهة التى كان يتطلع اليها . وانهم قد استفادوا من القلق الاقتصادى الذى ينتج عن الحرب .. وقال انه اذا بحثت كل حركة هدامة او مجددة فى الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية اليهودية ، الأمر الذى يمكننا شاهدته متجليا فى موقفين : الأول فى روسيا والثانى فى فلسطين .

ففى روسيا نجد الثورة تزكيها الدعوة اليهودية التى تجد المجال فسيحا لمهاجمة المسيحية حاملة علم الدنية الحالية . اما فلسطين فاليهود يريدون أن يشيدوا بها نقطة ارتكاز يوجهون منها جودهم حيث شاءوا ، فكما أن روسيا ليست غير معمل البارود البلشفى الذى يعمل على نسف المدينة المسيحية ، فان فلسطين ليست سوى العش الذى ستولد فيه المدنية اليهودية المستقبلية ، ومن السهل ملاحظة التسيطر المالى اليهودى الآخذ بختناق العالم ومحاولة العمل لانشاء مملكة داود الجديدة » ومما يتصل بهذا الاتجاه ما عرف من انتهاء سيادة أوربا بعد الحرب العالمية الأولى وانتقال هذا السلطان الى امريكا التى عاونت على قيام اسرائيل . وبذلك تخلفت اوربا المسيحية الغربية وسقطت تحت سلطان امريكا التى تسيطر عليها الصهيونية . وكان هذا التركيز هو مقدمة لاعلان الصراع (كما أعلنهالحاخام عما نوفل ايفانوفنيش — ١٩٥٤ بودابست) بين امريكا وروسيا « حتى يضعف الخصمان وتتضعضع قواهما . ثم تتم السيطرة اليهودية على العالم . وذلك كمقدمة لتوليد جيل جديد يقوم على تزاوج البيض والسود لانشاء شعب من الجنس الأسود ونشر العقيدة الاسرائيلية فى جميع انحاء العالم — وقد بلغ عدد الصحف الصهيونية التى تصدر فى العالم وتوجه الراى العام ٨٩٩ يصدر منها فى الولايات المتحدة وحدها ٢٢٤ صحيفة .

وهكذا كان الفكر الصهيونى الجديد فى مقوماته هادفا الى الصراع مع المسيحية الغربية ومع الاسلام والفكر العربى الاسلامى فى ادق خصائصه ومقوماته .

وجملة القول : ان هدف الدعوة الصهيونية الفكرية كان بالغ الأثر فى حملة التغريب التى جعلت توامها البلبلة والتشكيك وتحطيم المعتقدات والقضاء على القيم الروحية والمعنوية واثارة الشبهات وادخال الاسرائيليات الى نصوص الدين .

وقد اتفقت اهداف التغريب المسيحى مع الدعوة الصهيونية التى لم تقم الا على اساس استعمارى يهدف الى اقتطاع منطقة من الوطن العربى باسم العنصرية لدعم بقاء الاستعمار فى العالم العربى ، وقد وصف الدعوة الصهيونية مستر مور غنتو سفير امريكا فى الاستانة بأنها « اعظم تضليل ظهر فى التاريخ اليهودى » .

وقد تحققت نتيجة لهذه الفلسفة اكبر جريمة فى تاريخ الامة الاسلامية والانسانية عامة حيث قامت اسرائيل تحقيقا لمبادىء التلمود وبروتوكولات صهيون وكنواة للمملكة المرتقبة التى تفرض سلطانها على العالم .

ولم تقم هذه الدولة — كما هو شأن كل اعمال الصهيونية — الا على سفك دماء ملايين البشر واستغلال الثورات والسيطرة على الحكومات بسلاح المال والاعلام

وقد كان لاحتلال الصهيونية لفلسطين ابعد الأثر فى الفكر العربى الاسلامى الذى اثاره هذا العمل الخطير وايقظ روحه ودفعه فى قوة الى المقاومة ووجه كل طاقاته الى العمل .

المراجع

اسرار الصهيونية : عبد المنعم شميس
بروتوكولات صهيونية : ترجمة محمد خليفة التونسى
صحف الأهرام والمقتطف والمشرق .

* * *

الدعــوة والشــيوعيــة

عندما وقع الوطن العربى تحت سيطرة الاستعمار الغربى ، كان مخطط تغريبه وتحطيم شخصيته يهدف الى توجيه تيارات فكرية متعددة متضاربة ، وكان لسـيطرة الاستعمار على أوجه الأعلام أثره فى رسم صـور مختلفة لهذه الآراء والمذاهب والدعوات .

ولقد كان من الطبيعى ان تصـل هذه الدعوات : الراسمالية المسيحية والصهيونية والماركسية والشيوعية الى الوطن العربى باعتبارها دعوات عالمية لهـا أجهزة ضخمة تذيعها ككل الأفكار والآراء والتيـارات ، غير ان الاستعمار الغربى كان حريصا على أن يوجه هذه الأفكار ويرسم لهـا صورا معينة حسـب وجهة نظره كتأييده للصهيونية ودعوته ومهاجمته للشـيوعية والاشتراكية . وليس أدل على هـدفه فى زعزعة العقـائد وأحداث اضطرابات ضخمة فى الحياة الفكرية العربية من أنه سمح بقيام دعوات وصحف وكتابات للشيوعية وهو على خلاف معا وخصومه وتعارض ، ذلك لأنه انما كان يهدف بذلك الى تعميق حملة التغريب وتحطيم الشخصية الاسلامية وتمزيقها وسلخها عن أهدافها ، فضلا عما فى الشيوعية من حملة عنيفة على « الاسلام » الذى كان الاستعمار حريصا على القضاء عليه والتشكيك فيه كمقوم ضـخم للحياة الفكرية .

وكانت تلك خطته دائما فى اذاعة الآراء ذات الصفة المتعارضة ، فى السياسة والأجتماع والتعليم والعقيدة وذلك لتفسيخ الفكر ومنعه من الاتجـاه فى طريق موحد وكان هذا جزءا من خطة التجزئة التى جعلهـا من ابرز أهدافه .

وكانت الدعوة الماركسية الشيوعية قد تسربت الى الفكر العربى الاسلامى بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ فى روسيا وتألفت أحزاب شيوعية سرية فى مصر وسورية قام على الدعوة لها والانفاق صهيونيون وكان (روزنتال) اليهودى هو رأس هذه الحركة فى مصر . وقد نظرت الأهرام (٧/١٠ علم ١٩٢٥) الى هذا الأمر من زاوية بريطانيـا لا من وجهة نظر الوطن العربى فقالت ان معظم شعوب الشرق مغـلوبة تئن بلادها تحـت النير الأجنبى وانهم — اى الشيوعيون — يأتون اليها من الطريق الذى يغربهم بها ، ومما يهم البلاشفة بنوع خاص أن يثيروا الاضـطرابات المشاكل فى كل بلد شرقى ذى صلة مباشرة أو غير مباشرة بالامبراطورية البريطانية لأنهم يرون فى هذه الامبراطورية عدوهم الطبيعى وهم يشجعون روح العـداء للانجليز فى أفغانستان وا ران والشرق الأوسط .

وأشارت الأهرام الى « أن مصر محاطة بالدعاية الشيوعية من معظم أطرافها ففى فلسطين حزب شيوعى خارج من صميم الحركة الصهيونية وملازم لها وهو يعمل فى السر والعلانية . وفى تونس تعمل الحركة الشيوعية وفى جدة وصل بلشفى مسلم يعمل فى الخفاء وعلقت على ذلك بأن مركز مصر الجغرافى يجعلها عرضة لجميع مايقذفه الغرب من العلل المادية والاجتماعية الى الخارج » .

وفى هذه الفترة جرت مساجلات بشأن الشيوعية والاشتراكية ، حيث قامت فئتـان ، احداهما تدعو الى الشـيوعية علانية والأخرى تدعو الى الاشـتراكية . وفتحت جريدة الأهرام منذ عام ١٩٢١ صفحاتها للكتابات المختلفة حول هذا الموضوع قائلة (١٩٢١/٨/١٦) ان حاجة البلد الاجتماعية تقضى علينا (اى الأهرام) وعلى كل عامل برقابة حزب كهذا لا لأننا نكره التعاليم والمذاهب الاشتراكية العلمية والعملية ، بل لأننـا نكره النظريات المتطرفة التى تقضى بالطفـرة ونحن نود التطـور رويدا رويدا . وقالت : أن لكل أمة أخلاقها وعوائدها ومنافعها وما يصح أن يجرى فى أيطاليا ورومانيا لا يصح ان يتبع فى مصر — وقال سـلامة موسى وعلى العنـانى ومحمد عبد الله عنان : انهم يستهجنون الطرق البواشـفية وأعلنوا تأكيد الاعتدال فى خطتهم (س . م — ٧/٤/ ١٩٢٢) وأن البولشفية الروسية أخفقت اخفـاقا يكاد يكون تاما ونشرت فى ربوع البلاد الروسية الخراب والدمار وان عددا كبيرا من الاشتراكيين قد أعلنوا عدم موافقتهم عليها لأنها لجأت الى تحقيق غايتها طفرة وغالت فى تطبيقها .. وأن الغرض هـو المذاكرة فى أغراض هـذا المذهب (الاشتراكية) وتطبيقه على الأحوال المصرية (س . م

— ١٩٢١/٨/٨) وطالب روزنتال بحقوق المستأجرين ثم باتحاد النقابات ، وكان سلامة موسى قد ألف عام ١٩١٤ رسالة فى الدعوة الى الاشتراكية عن طريق النشوء والارتقاء والتطور لا عن طريق الثورة ، وقال انه كان عضوا فى الجمعية الفابية الانجليزية وعرف من أعضائها مستر سدنى وب ، أصدر عزيز ميرهم بيان بتأليف الحزب الاشتراكى المصرى فى ٢٩ أغسطس ١٩٢١ غير أنه فى عام ١٩٢٤ وبعد صدور الدستور وقيام الحكم النيابى المصرى بدأت حملات متعددة على اتباع هذا الحزب واعتقل عدد كبير منهم فى الاسكندرية ، وقدموا للمحاكمة ثم تجددت الدعوة الى مقاومة الشيوعية فى فترات متوالية منها ١٩٢٧ و ١٩٣١ . وقد ثبت اتصال دعاة الحزبين الشيوعى والاشتراكى فى مصر بجهات خارجية وان دعوتهم لم تكن مستقلة لصالح مصر ومثل هذا يقال عن الأحزاب الأخرى التى ظهرت فى سوريا ولبنان وفلسطين تحت حماية الدول المستعمرة البريطانية والفرنسية .

وقد قاوم الرأى العام المفكر فى مصر هذه الدعوة ، وانكر « احمد حلمى » هذه الدعوة وبين خطرها على نظامنا الاجتماعى ومخالفتها للتعاليم الدينية ، ودعا رجال الدين والحكومة الى محاربة هذا الخطر وقال (٢٠/٨/ ١٩٢١ — الأهرام) انه ليس فى مصر مشكلة توصف بحق بمشكلة راس المال حتى يقال اننا لسنا فى حاجة الى تاليف مثل تلك الأحزاب ، ولا ندرى كيف ان الحكومة التى لم يتسع صدرها لاصدار الصحف اليومية الجديدة ، تتسع اليوم لتاليف حزب اشتراكى فى مصر على الانماط المتطرفة وقال : « هل نسوا ان الاشتراكية التى يدعون اليها تكفر بجميع الأديان وتجعل الأملاك من عقار واطيان ملكا لواضع اليد عليها والمناجم لعمالها والمصانع لصانعيها . ان كارل ماركس مع اعتدال افكاره لم تطقه حكومة بلاده بل حاكمته على نشر تعاليمه واخيرا نفته » .

وقال الشيخ التفتازانى (١٩٢١/٩/٢٤ — الاهرام) اى نقص فى الأديان التى تعرض للفقير من مال الغنى قدرا وتحتم على اولى الأمر البذل بين الجميع . انها لاحدى الكبر ان يقوم فينا نفر من الذين بهرتهم زخارف النظريات الخيالية فيستهينون فينا بقوة العقيدة والأثر على حسن ظن منهم ، ولو أنهم كانوا على حصافة فى الرأى لدعونا الى احياء موات احكام اديانا ولردنا الى الكتب السماوية والسنن النبوية » ورد عزيز ميرهم عن الحزب فقال « ان خصوم الاشتراكية بمصر لم يقوموا حتى الآن بدليل وجيه فى سبيل معارضتها وقال أنهم يحاربون أصحاب الثروة ويحاربون الاشتراكية باسم الدين للتأثير على عقول السذج ويحاربونها لا حبا فى الدين ولكن لأن جشعهم فى حب المال يجعلهم يظنون أن الدين يدافع عن مالهم .

وقال التفتازانى (١٩٢١/٩/٧ — الأهرام) هل جاءت الاشتراكية لتكمل نقصا فى الأديان السماوية . لقد صارت روسيا معملا كيماويا لعدة تجارب أسفر كل منها عن خيبة وفشل .

وقال عزيز ميرهم ردا عليه (١٩٢١/٩/١٣) : لا تظن أن التعصب للملكية الفردية يصل بانسان فيدعى بأنها ركن من اركان الدين . ان النظم الاجتماعية تتغير وتتبدل وتتطور فى اشكال مختلفة حسب الزمان والمكان .

وقال الشيخ عبد اللطيف بخيت (الأهرام — ١١/ ١٩٢١/٩) أن الاشتراكية ليست مخالفة للدين بل على العكس من ذلك نجد روح القرآن والسنة تتمشى مع الاشتراكية . ولما فتح عمرو بن العاص مصر وزع أرضها على الجند وغيرهم حسب ما يرى ولم يجد من الدين ما يمنعه » وترددت مناقشات طويلة بين سلامة موسى وعلى العنانى ومحمد عبد الله عنان وعزيز ميرهم (سبتمبر ١٩٢١ — الأهرام) وقال سلامة موسى فى ختام هذه المناقشات (١٩٢١/٩/٢٩) ان الاشتراكية فى نظره تستدعى حالة عليا من الرقى فى الأمة لم تصل اليها بعد الأمة الروسية ، وقال ان اشتراكية الروس هى اشتراكية عجلة وارهاق تشبه كل الشبه تلك الشيوعية التي فشلت فى باريس فى حصارها المشهور ١٨٧٠ ، و لاشك أن الاشتراكية المصرية ستكتسب لونا خاصا بتاثير الوسط المصرى والمزاج المصرى . والاشتراكية باتقسامها حقوق الغنى من الجهة الواحدة ستزيد فى حقوقه من الجهة الأخرى « وان ما ذكر من أمن الملكية مبدأ مقدس يجب ان تدافع عنه الحكومة وتحميه من كل اعتداء هو قول مثير للضحك عند عارفى تاريخ الملكية المصرية وعدد الملاك الآن ، ويكفينى ان اذكر أن نحوا من ثلاثة عشر الف نفس اى اقل من عدد طلبة الأزهر يملكون اكثر من نصف ثروة القطر الزراعية وان هذا العدد الصغير من الناس يملك ويتصرف فى ارزاق نحو ثمانية ملايين مصرى ، واشار الى ما فعله محمد على فى نزع ملكية الأرض فقال « لقد نزع محمد على ملكية الأرض ليشغلها على نفقته الخاصة فلما هم بابراز هذه الفكرة قامت فى وجهه صعوبات استعمل ازاءها كل انواع التهديد حتى اصبح المالك الوحيد لأكثرها فقد استولى على املاك المماليك ، والأراضى الموقوفة

ونزع ملكية الأراضى التى كانت لبقية الأفراد مدعيا حق التسلط على كل الاراضى لأنه الحاكم النائب على الخليفة المالك للأرض ، فاستحضر كل الملاك وطلب منهم ابراز حقوق ملكيتم فقدموا اليه حججهم رغم انوفهم ، فكان يضرب ببعضها عرض الحائط ويظهر بطلان بعضها الآخر ، ويمنى بعض الملاك بعوض ، ولما اصبحت جميع الأملاك فى قبضته أعدم كل ما لديه من الحجج واصبحت كل الأرض فى قبضته واستخدام الفلاحين فى زراعتها » .

ومن جملة هذه الآراء يظهر أن السجال لم يكن علميا ولا قوميا فلم يفرق الدعاة بين الاشتراكية والشيوعية ، كما أن دعوتهم ارتبطت بعوامل خارجة وباتصالات الأحزاب الشيوعية فى اوربا ، ولم تكن دعوة اشتراكية وطنية متصلة بالواقع المصرى او العربى او خالصة للهدف القومى المتحرر من المذاهب الغربية أو الاتصال بالشيوعية الدولية .

وكان خصوم هذه الآراء يتحدثون من الناحية الدينية وحدها ، ويعارضون المذهب دون مناقشته علميا ولم يكن الرأى العام يحتمل فى هذه الفترة مواجهة مثل هذه المذاهب على نحو يحقق الاستفادة من الصالح منها .

وقد كان الاستعمار وراء السماح بهذه الآراء اذ كان فى هذه الفترة (١٩٢١ — ١٩٢٣) يسيطر بالحماية والأحكام العرفية وقوة الاحتلال على توجيه الرأى العام فى ميدان الصحافة والفكر والاجتماع ، ولم ترفع الحماية الا بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وقد ظل المعتمد البريطانى الذى اصبح المندوب السامى بعد اعلان الاستقلال هو صاحب الرأى الأول فى كل هذه الأمور ، كما أن افساح جريدة الأهرام الصفحات الأولى والمقالات الافتتاحية منها لهذه الدعوة من ناحية تأييدها ومعارضتها انما كان يهدف الى خلق جو من البلبلة والتمزق وضرب الأفكار بعضا ببعض على نحو يحقق اهداف الغزو الثقافى والتغريب وتحطيم مقومات الفكر العربى الاسلامى والشخصية العربية الاسلامية . .

غير أنه فى خلال هذه الفترة التى نؤرخ لها — حتى الحرب العالمية الثانية — لم يتوقف الحديث عن الشيوعية على نحو أو آخر فى مقالات وأبحاث تتناول شخصيات لينين وتروتسكى وستالين أو مذهب التفسير المادى للتاريخ أو ثورة ١٩١٧ وسقوط القيصرية . كما جرت محاولات متعددة لتنظيم العلاقة بين أصحاب العمل والعمال وقامت نقابات العمال وجرى بحث مختلف المسائل المتصلة بالرأسمالية والاقطاع ، غير أن الاستعمار كان حريصا على دعم نظامه القائم على تسلط الاتجاهات الرأسمالية الغربية على مختلف التشريعات والقوانين ، وكان نفوذ الاقطاعيين من رؤساء الحكومات ورجال القصر والأحزاب يحول دون أى اتجاه نحو الاشتراكية الحقيقية المستمدة من الواقع العربى .

وقد واجه الفكر العربى الاسلامى الدعوة الماركسية الشيوعية فى مختلف مراحلها كما واجه مختلف النظريات الغربية ، وكان فى كل أدوار هذه الرحلة يكتشف فى عقائده وتراثه خير مافى هذه الدعوات لو أتيح له أن يحقق الاصلاح دون أن يتخلى عن معتقداته ، غير أن الاشتراكية الاسلامية كانت لا تزال تحارب من قيادة حركة التغريب فى سبيل الابقاء على أنظمة الاقطاع وسلطان رأس المال وفوارق الطبقات وحجب العدالة الاجتماعية .

وقد ظل دعاة الشيوعية أو الاشتراكية الغربية فى نظر الفكر العربى غرباء عنه على أساسين واضحين : أحدهما أن لدينا فى الاسلام وتراثه وشريعته مايحقق تنظيم المجتمع واشتراكيته ويحقق العدالة الاجتماعية دون الحاجة الى اقتباس نظم الآخرين فضلا عن أن التجربة التى حاولت الشيوعية تحقيقها فى روسيا لم تحقق النجاح الذى يكسبها القبول ، هذا بالاضافة عن نفوذ الفكر العربى من استبعاد « الاسلام » عن مجال النظم الاجتماعية .

وقد كان الفكر العربى الاسلامى يرى فى الشيوعية وجها آخر من الغزو الغربى لأمتنا لأنها تحمل أفكارا . ومذاهب بعيدة عن طبيعته فضلا عما كانت تتسم به الدعوة الشيوعية من الارتباط بموسكو ، وعدم قدرتها على التحرر من هذا القيد ، واستحالة مواجهة الاشتراكية كنظام يمكن أن نقتبل منه ما يتفق مع حاجة اى أمة من الأمم ، وهى فى هذا تحمل نفس الخطأ التطبيقى الذى يطالب به الغزو الاستعمارى من أن تقبل الأمة العربية الحضارة كاملة أو ترفضها جميعا .

وقد كشفت التجربة الشيوعية أمام الفكر العربى الاسلامى نتائج خطيرة زادت حذرها منها فقد الدين والحرية والمساواة . وصلب النظام الشيوعى حرية الفرد ووضعه تحت الوصاية القاهرة والرقابة الشديدة . ولم تنجح الشيوعية فى الغاء نظام الطبقات وعجزت عن أن تقرب بينها وبين سلطان الحكام شبيها بسلطان القيصرية وهى ان استطاعت أن تمحو طبقات قديمة فقد أحلت محلها طبقات جديدة .

وقد كان ايمان الشيوعية بأن الوسيلة الى تحقيق دعوتها انما تتم بالهدم والتخريب والثورات الحمراء والانقلابات الدامية مما نفر المسلمين فى مذهبها ، لأن قوام فكرها وشخصيتها انما بنى على الأخوة والوفاء والتسامح والاقتناع بالحجة .

وزاد من ذلك النفور أن التآمر كان جزءا هاما من جوهر الشيوعية ، وقد ظل ملازما لها حتى فى البلاد التى أصبح زمام الأمور فيها بيد الشيوعية نفسها .

كما اعتمدت الشيوعية على الارهاب وخداع الجماهير . وكان طابعها ولاء أنصارها دائما لقياداتهم الخارجية دون أوطانهم مع محاولة اثارة الفوضى فى هذه الأوطان للتخلص من حكوماتها الوطنية واقامة حكومات جديدة موالية للشيوعية .

* * *

الشيوعية وماركس

فاذا رجعنا الى « الشيوعية » كفكرة وجدنا أن صاحب الدعوة اليها هو الحاخام الاسرائيلى « كارل ماركس » . وقد عرف اليهود بأنهم يمثلون طبيعة الحقد وكراهية الانسانية وكانت مطامعهم دائما فى القضاء على كل القوى للسيطرة على العالم وهدم الأديان والقوميات.

وقد كان « ماركس » واحدا من صناع هذه المؤامرة الضخمة ، ولذلك فقد كانت فكرة « الشيوعية » كما فهمها وأرادها انما تهدف الى القضاء على القوميات والأديان وخلق قوة جديدة تصارع قوة (الراسمالية) وقد حمل اليهود لواء المذاهب الهدامة . وكان (ماركس نوردو) قد وضع مخططا لهذا العمل التخريبى حيث دعا الى تنشئة الجيل الصاعد على الكذب والتموية والمخادعة وعلى الأنانية وحب المنفعة والسعى وراءها بكل الطرق .

وقد وضع زعيم الشيوعية الأول اليهودى فى مذهبه خلاصة احقاد جنسه فقد قامت الدعوة على « بغض جميع الطبقات والحقد على البشر » وجاءت صدى لنفوس ملئة بالانتقام من مختلف طوائف الخلق ، وقد اعترف الصهيونيون أنهم أول من نادى بالشيوعية ، وقال اليهود أن الثورة الروسية كانت من نصيبهم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ولم يكن اتفاقا أن أنصار الشيوعية فى العالم من الصهيونيين وأن ٩٠ فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية ، وان المجلس الذى حكم روسيا بعد قيام الثورة الشيوعية ١٩١٧ كان مكونا من عشرة أعضاء بينهم ستة من اليهود .

واطالما ردد اليهود انهم اتخذوا من الشيوعية وسيلة للتغلب على العالم والوصول الى السيطرة وتسخير الموارد العالمية .

وقد أكد هذه المعانى ما قاله أحد زعماء الشيوعية « لينين » الذى اتفق أنه كان يهوديا أيضا وهو الذى حول فكر ماركس الى دولة ونظام قال « لا نحتاج الى الحب بل اننا أحوج الى البغض والأحقاد ، أنه يجب علينا أن نتعلم البغض وأن نرضعه مع اللبن » .

وقال نيتشه أن اليهود والروس سيكونان أهم العوامل فى المستقبل » :

* * *

(فكرة الشيوعية)

فاذا عرضنا لوجهة نظر الفكر العربى الاسلامى وجدنا مخالفة واضحة بين مفهوم الشيوعية ومقومات هذا الفكر . فهذه نظرية مادية خالصة ونظام مادى بحت . يستمد فكرته من فلسفة ملحدة تؤمن بمادية التاريخ فترى أن كل ما يقع فى التاريخ مرجعه الى الأسباب الاقتصادية .

وقد قال ماركس المقنن الأول للنظرية الشيوعية : ان الماركسية هى المادية وهى معادية للدين . وفى فلسفة الشيوعية : أنه لا حقيقة سوى المادة . وأن الانسان وأعماله مادة .

ويرد ماركس كل أسباب التطور التاريخى للبشرية الى العوامل الاقتصادية ، ويرى أن المال والعمل والانتاج والاستهلاك دون غيرها من الدوافع هى التى تسير الحركة التاريخية ، وقال أن مقاصد دعوته هى القضاء على التفاوت الطبقى بالتسوية بين الناس فى شئون العيش وأن طريق الوصول الى ذلك هو بالغاء الملكية الفردية والقضاء على ثروة الأفراد وأن ذلك يؤدى الى تحرير الطبقة العاملة والفقيرة من سيطرة الراسمالية .

وقد أعلن ماركس بأن تحقيق الاشتراكية لا يتم الا بالثورة والانقلاب والتآمر والقيام ببث هذا التآمر بين طبقة العمال ضد أصحاب رءوس الأموال .

أعلن ماركس هذه الآراء ١٨٦٤ وحاول ايجاد اتحاد بين عمال أوربا لمقاومة المموليين ، وفى عام ١٨٨٩ انشئت الدولية الثانية حيث عقدت مؤتمرات فى بروكسل ثم سقطت الحكومة القيصرية فى ١٦ مارس ١٩١٧ وبدات الثورة الشيوعية الروسية حيث قامت الدولية الثالثة عام ١٩١٩ .

وقد اعتنق لينين دعوة ماركس وحولها من نظرية فلسفية الى نظام للحكم وقد تبين فى أول مرحلة من التطبيق مدى الفارق البعيد بين مفهوم النظرية وبين امكان التطبيق ، لذلك لجأ « لينين » الى اعلان مرحلة وسطى هى ما اطلق عليه (ديكتاتورية العمال المؤقتة) ثم تطورت هذه الفترة المؤقتة التى استمرت حتى الآن اربعين عاما الى ما اطلق عليه « حكومة الصفوة والممتازة » : هؤلاء الذين وصفوا بالاخلاص والخبرة للفكرة الشيوعية ، وهكذا تطورت الشيوعية من ديكتاتورية عمل الى ديكتاتورية الصفوة الممتازة .

وجرت حركات التطهير المختلفة المتعاقبة لتخليص الحكم الى حاكم واحد ، فقد مات لينين ١٩٢٤/١/٢١ ووقع الصراع بين تروتسكى وستالين حتى استولى الآخر على الحكم ونفى تروتسكى وظل حاكما لروسيا حتى توفى فى مارس ١٩٥٣ . والسؤال الذى طالما وجهه الفكر العربى الاسلامى الى الشيوعية فى خلال هذه الفترة هو هل حققت الشيوعية :

× تحرير الطبقة العاملة والفقيرة .

× قيام مجتمع خال من الطبقات .

× انشاء القيادة الجماعية .

× الغاء التفاوت الطبقى وازالة الفوارق بينها .

× توزيع الثروة على افراد المجتمع بالعدل .

وقد عرض المفكرون لهذه الأهداف بالبحث ، وقالوا ان واحدا من هذه الأهداف الرئيسية للدعوة الشيوعية لم يتحقق . فقد أصبح العمال مسخرين لطبقة حاكمة جديدة . وأن الحكم ما زال دكتاتوريا استبداديا ، وان القيصرية لم يقض عليها ، فقد قام قيصر شيوعى بدلا من القيصر الأول فضلا عن ان الاضطراب والتغيير المستمر ما زال متصلا مما يدل على عدم استقرار النظام ومخالفته لسنن الطبيعة والنواميس الاجتماعية والنفسية للأمم .

مع القضاء المطلق على الحرية الشخصية وحرية الكتابة والراى والخطابة ، وكان أبرز ما اهتم الفكر العربى فى النظر اليه من امر الشيوعية : أمران : الدين والحرية .

* * *

(الدين)

وقد تبين أن الشيوعية دين جديد يحتقر الأديان القديمة ويقوم على « مادية » تنكر الله والرسالات . وقد ناهضت الأديان بالالحاد . وشنت عليها حربا متصلة والغت التعليم الدينى ونكرت الكتب المقدسة والهت لينين وستالين واباحت اللادينية والوثنية .

وقد أعلن قادة الماركسية الشيوعية : أن الشيوعية والدين ضدان لا يلتقيان ولا يأتلفان . فمن أراد أن يكون شيوعيا وجب أن يكون من غير دين وأعلنت الشيوعية حربها على المسيحية لأنها تحض على الرحمة . وقالت أن الرحمة مناقضة لتعاليمنا .

وقد أكد ذلك (لونا شارسكى) وزير التعليم السوفييتى : اذا قال : نحن نكره المسيحية والمسيحيين، وحتى أحسن المسيحيين خلقا نعده شر أعدائنا فهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة ، وذلك يخالف مبادئنا و « الحب المسيحى » عقبة فى سبيل تقدم الثورة .. فلنسقط حبنا لجيراننا فان ما يزيده هو الكراهية والعداوة ، وحينذاك نستطيع غزو العالم .

وأكدت الشيوعية أن التفسير المادى للتاريخ يناقض وجود الله فما دامت الأسباب الاقتصادية هى التى تملى على التاريخ حركته وتسيره حيث شاء فلا مجال هناك للاعتراف بالله خالق أو أى قوة وراء الغيب توجه البشر الى مصائرهم .

وهم يرون أن الدين ليس الا تفسيرا خاطئا للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة ولونا من الخداع صنعه بعض الناس ليستفيد به بعض الناس .

ويعللون انتشار الدين بالظروف المادية التى عاش فيها الانسان الأول . فيقولون ان الانسان الفطرى فى العهد البدائى كان يقف عاجزا حائرا امام الظواهر الطبيعية كالرعد والعواصف والفيضانات وغيرها ، وكان لجهله باسبابها يردها الى ارادة عليا تسعى الى

كسب عطفها . والتماس أسباب الزلفى لها بتقديم القرابين وقالوا أن الروحانيات مثاليات نظرية ، قد الغت الثورة الشيوعية العلاقة بين الكنيسة والدولة فأصدرت فى ١٩١٨/١/٢٣ مرسوما أعلن فصل الكنيسة عن الدولة وفصل المدرسة عن الكنيسة وحظر التعليم الدينى فى جميع الدارس وعزل الشرائع السماوية وحجبها عن علاقات المجتمع وعزل الشرائع السماوية وحجبها عن الشيوعية : أن الدين أفيون الشعوب واذن فلا حقيقة هناك **الا المادة . وقد كانت الحرب ضد الدين من ابرز اعمال** الثقافة الشيوعية .

وقد نقدت الديانات والكنائس والمنظمات الدينية وقالت : أن الله (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) قد مات وأن البحث عنه لا فائدة منه .

(الحرية)

وعارض الفكر العربى نظرة الشيوعية الى الحرية اذ جند الفكر الشيوعى كله فى سبيل تاكيد النظرية الشيوعية دون اى سماح بنقد فى أى فرع او فصيلة أو تصرف من تصرفاتها مهما كان .

ويتجه نظام التربية والتعليم الى الثقافة فى ظل النظرية الشيوعية ولا تتداول الا الكتب التى يسمح بها الحزب الشيوعى ، والصحف التى يصدرها الحزب ، والكتابة التى تنشر ما يؤيد النظرية ولا يوجد أدب حر وتوجه ابحاث التاريخ والعلوم الطبيعية والمسرح والسينما توجيها شيوعيا وتوقف على اغراض الشيوعية . وقد صور التاريخ ونقح للتمشى مع أغراض الحزب .كما منعت اى ثقافات أجنبية معارضة للشيوعية ، اما فى نظام الأسرة فقد قام على الانحلال . والعلاقة بين الرجل والمرأة تسير مع المفهوم الاقتصادى المادى للمجتمع . وقد الغى وضع الزوج كراس للعائلة وانعدام الحب . وبقى نظام الطبقات والتفاوت .

بين الغربية المسيحية والشيوعية

وهكذا وقف الفكر العربى الاسلامى موقفا واحدا بين النظرية الغربية المسيحية والنظرية الشرقية الشيوعية . فقد كانت النظرية الشيوعية امتدادا متطرفا للفكر الغربى نفسه الذى أعلن الايمان بالمادية واقصاء الدين عن المجتمع وانكار العقائد والروحيات .

فلم يكن هناك خلاف فى أن الدعوتين تغريب للأمة الاسلامية . وأن خلافهما فى المفهوم الاقتصادى هو فى ناحيته يختلف مع مفهوم الفكر العربى الاسلامى ، فقد عرف هذا الفكر منذ قديم الاشتراكية الاسلامية والعدل الاجتماعى والزكاة والتكافل الاجتماعى على نحو ليس فى غلو الراسمالية الغربية ولا عنف الشيوعية الشرقية .

وتساءل الفكر العربى الاسلامى : هل تتفق الشيوعية مع بلادنا وشخصيتنا كما تساءل من قبل بالنسبة للأنظمة الغربية التى اضطر الى نقلها تحت ضغط الاستعمار المسيطر على البلاد والذى فرض هذه الأنظمة : فرض دون مراعاة فوارق الزمن والحاجة والتطور والثقافة والمفاهيم العامة .

وقد وقف الفكر الغربى موقف المعارضة للراسمالية الغربية والشيوعية الماركسية معا ، وانكر هدف الراسمالية الأساسى من السيطرة على البلاد العربية . واستغلالها واعتصار ثرواتها واتخاذها مصدرا للخامات وسوقا للانتاج . كما وقف موقف المعارضة للشيوعية الماركسية وانكر هدفها الأساسى من تدمير أنظمته الاجتماعية والاقتصادية لاقامة حكومات تابعة للشيوعية الدولية .

وقد أيقظت الدعوة الشيوعية فى الفكر العربى الاسلامى مقوماته الأصيلة وفق نظرية « التحدى ورد الفعل » فبدأ يراجع تراثه ويستخرج منه ما فيه من قيم تتصل بالاشتراكية الاسلامية فى التقريب بين الطبقات وتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر ، وكان فى استطاعته أن يحقق نتائج باهرة لولا أن الاستعمار الغربى كان يحاول دون تغيير نظام الاقطاع والملكية والاستبداد والاستغلال وسيطرة رءوس الأموال الغربية وتجميد مواقف المجتمع والاقتصاد والفكر فى اتجاه غربى له مظهر ديمقراطى اسما مع التبعية الواضحة فى المحاولة .

وقال الفكر العربى الاسلامى : انه ليس أخطر على أمة من أن تنقل مذاهب أمة أخرى دون النظر الى طبيعتها وحاجتها وذوقها وروحها .

ولم يمانع الفكر العربى الاسلامى من أن «يقتبس» من أنظمة الراسمالية والشيوعية ما يزيده قوة على المحافظة على شخصية ومقوماته ويحقق له الاندفاع فى طريق القوة والحياة .

مواجهة الغزو ومعـارك المقـاومة

* السياسـة
* الدين
* المجتمع
* المرأة
* التعليم
* اللغة العربية
* الصحافة

لم تكن فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٨ — ١٩٣٩) الا معركة كبرى تفرعت منها معارك قوامها الغزو الثقافى من ناحية الاستعمار فى صورة التحدى والمقاومة ومن ناحية الفكر العربى الاسلامى فى صورة رد الفعل وقد امتدت هذه المعركة فى ميادين متعددة :

السياسة . الدين . المجتمع . التعليم . اللغة العربية . الصحافة .

ذلك أن الاستعمار فى سبيل تثبيت دعائم سلطانه كان يهدف الى تغيير مفاهيم الفكر العربى الاسلامى فى كل هذه الميادين . واحلال مفاهيم جديدة ، غير مرتبطة أدنى ارتباط بالماضى ولا بالشخصية العربية ، ولا جارية على سنة التطور الطبيعى .

وانما كان يهدف فى الأساس الى خلق جو من البلبلة والاضطراب والتمزق ، وخلق كتل فكرية متصارعة ومدارس متعددة ، وثنائية فى مختلف الميادين الفكرية ودعوات تجرى الى الوراء فتتعلق بالماضى المدفون محاولة ايقاظه واتخاذه أساسا لحضارة أو حياة ، والعمل على تمزيق الجبهة الموحدة واثارة الخلاف بين الأديان ، واثارة الصراع بين مذاهب الأديان وبعث خلافات قبلية وطائفية وجنسية . وكان يركز على « الدين » كأساس للثقافة العربية بغية التشكيك فيه ، ويعمل على تشويه « التاريخ » باعتباره التراث الذى يربطنا بأمجادنا وبطولاتنا حتى ننظر له نظرة الاستهانة . ويرمى الى القضاء على « اللغة » بتقوية اللهجات أو اللغة العامية الحلية وهو بذلك يرمى الى القضاء على أساس الوحدة التى تربط الأمة العربية من ناحية الدين والتاريخ واللغة . وكان « التعليم » أداة من أدوات هذا الغزو الثقافى فقد فرض معاهد الارساليات فى مختلف أنحاء الوطن العربى وبذلك خلق ثنائية التعليم وعن طريق هذه المعاهد والجامعات بث آرائه المسمومة فى اللغة والدين والتاريخ والحضارة .

وعن طريق « السياسة » خلق أسلوب المنفعة للقضاء على أسلوب الوطنية الخالصة ، وأحل الحزبية محل الوحدة ، وأقام الصراع بين الأحزاب المختلفة باسم النظام النيابى الغربى الحديث وذلك ليصرف النظر عن الهدف الأول وهو تحرير الوطن ، وحتى لا تقوم جبهة موحدة فى الوطن لمقاومته الا اذا شاء هو أن يخلق هذه الجبهة لتوقيع اتفاقية يحرض على أن يضم اليها كل العناصر ليكون كلا منها ملزما بتنفيذها اذا ما تولى الحكم

* * *

وعن طريق « الصحافة » قامت حركة التغريب ، فقد ظهرت صحف متينة البناء راسية الأساس مستمرة لا تغلق ولا تعطل ، وكانت هذه الصحف فى رعايته وتمويله ويظهر بعضها هدفه صريحا ويخفيه الآخر ، والذى يخفيه أشد خطرا من الذى يظهره ، قد أفسحت هذه الصحف صدرها لمختلف الآراء والنظريات والمذاهب من رجعية وتقدمية وشيوعية ورأسمالية ومنحرفة ودينية وملحدة واباحية ومتحررة ، وبذلك خلقت جوا عاصفا من البلبلة، يثير العقل ويقضى على روح الوحدة ويدفع دفعا الى التفكك والتجزئة والانحلال ويخلق عشرات المعسكرات والمذاهب والدعوات . وبذلك لا يستطيع الوطن أن يندفع فى طريق موحد ، ويصعب حمايته من التيارات الغربية التى تعصف به ، أما الصحف الوطنية الصادقة فقد كانت تعيش فى مهاب الأعاصير تصدر ثم تنذر وتحاكم وتغلق ، ولا تجد من المواد ما يدفعها الى الاستمرار أو القوة أو التبريز فى الميدان كغيرها فتظل لا تصل الا الى قلة من القراء . ويظل للصحف الأخرى سيطرتها عن طريق مظهرها القوى ودوام صدورها واتساع انتشارها .

وعن طريق الصحافة أذيعت آراء التغريب فى الدين واللغة والتاريخ وحمت الصحافة المستعمر وعملائه وأفسحت صدورها لهم ودافعت عنهم ، ولكن عن طريق الصحافة أيضا برزت روح المقاومة والنضال والدعوة الى الحرية والوحدة والقومية العربية وحماية مقدرات الأمة والدفاع عن كيانها وتاريخها وأمجادها .

* * *

كان الاحتلال الغربى للوطن العربى بدء مرحــلة جديدة بعيدة المدى فى الحيــاة السياسية والاجتماعيــة والفــكرية . كانت العــربية واقعــة تحت الاحتــلال البريطانى الفرنسى — وهــو الأغلب — تحت ســيطرة الامبراطورية العثمانية . ولم يكن ذلك احتلالا بقــدر ما كان ارتباطا قوامه الخلافة والسلطنة وقيام الامبراطورية التى تضــم العــــرب والأتراك وتخضـــع لنظـــام اللامركزية . حيث يقوم فى كل قطر حاكم أو سلطان يتبع السلطة العثمانية تبعية اســـمية قوامها الدعوة للخليفة على المنابر وصك العملة باسمه وجباية الضرائب له . ثم يستقل كل قطر بعد ذلك بشئون حكمه وأنظمته .

ولقد انفصلت مصر والجزائر فى وقت مبكر جدا عن الامبراطورية العثمــانية بعد احتلال بريطانيـــــا للأولى وفرنسا للثانية فى وقت بدأ النفوذ الغربى ينفذ الى الوطن العربى كله ويسيطر عليه من خلال حكم الخليفة العثمانى عن طريق الامتيازات وحماية الأجانب وانشـــاء مدارس ومحاكم خاصة بهم ونظم مختلفة للضرائب والتجارة .

ثم بدات حركات الاصلاح الدستورى تأخذ صـــورة النظم الغربية فى مصر وتركيا وتونس ، وسبقت مصر الى ذلك فى نهاية حكم اسماعيل ، ثم كان الدستور العثمانى الذى أصــدره « مدحت » فى أوائل حكم الســـــلطان عبد الحميد ثم النكسة التى اســـتمرت حتى عام ١٩٠٨ عندما صدر الدستور مرة أخرى وتوالت الدعوة فى الوطن العربى الى النظام النيابى الغربى .

حتى كانت الحرب العالمية الأولى ودخول تركيـــــا الحرب فى صف المانيا واتفاق العرب مع بريطانيـــا على دخول الحرب فى صفها مع الوعد باقامة حكومة عربية بعد الحرب ثم انسحاب بريطانيا من وعدها وتمزيقها الوطن العربى بالاشـــتراك مع فرنســـا واحتلاله من ثم بدأت سياسة تقسيم الوطن العربى الى اقطار وجرت محاولة تحــويل الأقطار الى أمم ، ونشر دعـــوة مصر للمصريين والسودان للسودانيين وسوريا للسوريين . وهى دعوات مظهرها الوطنية ولبابها التجزئة .

وأقام الاستعمار فى الوطن العــربى دعوات لهذه الوطنية الضـــيقة آزرها وأعانها ، وضرب بهــا القوى الوطنية الثائرة التى دعت الى الجلاء الشامل والاستقلال الكامل ، ثم أسلم اليها زمام الحكم . ودعاها الى توقيع معاهدات يعترف فيها بالاستقلال مع بقاء جيش الحماية وربطهـــا معه فى تحالف حربى ، وســـيطرة معتمدة على شئون الحكم واستعلاء سلطانه سلطانه الفعلى على الســلطان الشرعى وفرضه الأوامر على رؤساء الحكومات فى صورة نصـــائح ، ثم قيام دســـتور قوامه أنه هبة من الملك أو السلطان ، فيتجه فى مظهره الى ان تكون الأمة مصـــدر السلطات ثم يعطى للملك سلطات واسعة يحقق له بها عزل اى وزارة وايقاف البرلمان وحله ثم يقوم وفق هـــذا الدستور حكم نيـــابى على أساس الصراع الحزبى بين احزاب تتصارع من أجل الوصول الى الحكم ، وارضـــاء المستعمر والحصول على الغنـــائم السريعة ، أما دعاة الوطنية والجلاء فتظل أحزابهم مبعدة عن الحكم أو يقضى عليهم بالمحاكمات والسجن والنفى لانتهاك قواهم والجرى وفق النظام الحزبى وتعـــزيز الاقطاع وتمكين الحـــكام والوزراء من التوسع فى السيطرة واستغلال الطبقـــات الفقيرة فى الزراعة والصناعة ، ويحكم الاستعمار فى ظل النظام الدستورى العربى من وراء الوزراء الذين يرشحهم للملك ويفرض أعوانه فرضا فى المناصب التى يختـــارها وعن طريقهم يحقق أغراضه ويملى سياســـته عن طريق وزارة المعارف فى مناهج التعليم وعن طريق وزارة الحربية فى القضاء على القوة العســكرية واغلالها والســـيطرة عليهـــا وعن طريق وزارة المــالية فى الســـــيطرة على اقتصاديات البلاد .

وقد حمــل الفكر العربى الاسلامى لواء الدعوة الى الوطنية الخالصـــــة فى مقـــاومة الاســــتعمار — كما حمـــل من قبــل الدعـــوة الى مقـــاومة الاســـتبداد العثمـــــانى — وأقام فى الأدب العـــــربى الغافية ورفع معنويات الأمة ودفع اليأس عنها وتجنيدها للاستشهاد والدفاع عن الوطن ومقاومة الغاصب والادالة منه ، ومن أمثال هؤلاء مصطفى كامل فى مصر وعبدالعزيز

الثعالبى فى تونس واحمد طبارة فى سـوريا بأقلام نارية مؤمنة دفعت البلاد العربية الى الذود عن بلادها وتقديم الشهداء والارتباط بالوطن الام والقضـاء على مؤامرات المستعمر .

وقد وجد الاستعمار فى اقطار الوطن العربى حلفاء اعانوه فى القضاء على الروح الوطنية : امثال سـلطان باشـا فى مصر والملك عبد الله فى الأردن والجـلاوى فى مراكش ونورى السعيد فى العراق .

كما حمل السلاح زعماء آخرون جاهدوا بالدم امثال عمر المختار فى ليبيا ومحمد عبيد فى مصر ويوسف العظمة فى سوريا وماء العينين وعبد القادر الجزائرى وعبدالكريم الخطابى فى شمال افريقيا .

* * *

قامت الثورات المخبلفة فى الوطن العربى نتيجـــة للتعبئة الفكرية والروحية التى قام بها قادة أبرار ،وكانت هـــذه الثورات على الاســـتعمار تحمل لواء الدعوة الى الحرية واجلاء الأجنبى واسترداد حق الأوطان فى الحكم والحياة .

ولقد قاوم الاستعمار هذه الثروات بالحديد والنار وقتل وشنق وسجن وابعد مئات من الأحرار الذين قادوا هذه الثورات .

وامتدت هذه الثورات وترابطت فى الأقطار المختلفة فثورة مصر ١٩١٩ بعد الحرب العالمية الأولى كانت مقدمة لثورة ١٩٢٠ فى العراق و ١٩٢٤ فى السودان و ١٩٢٥ فى سوريا .

وكانت هذه الثورات فى مفهومها مقدمة لتحرير هذه الأجزاء من الأوطان من الحماية ومن الاحتلال . وقد عمد الاستعمار الى اطفاء نار هذه الثورات بوضع الماء على لهيبها المتقد ، وتحويل هدفها والقضاء على روحها . فقد كان للمستعمر اعوان وعملاء أعـــدهم للدور الذى أطلق عليه الحكم الذاتى ، ولم يرفع الاستعمار يده عن الحماية الا بعد أن درب عددا من أعوانه ليتسلموا زمام الحكم من بعده ، وفى مصر مثلا كان حزب الأمة هـــو القوة التى خلقها الاستعمار البريطانى منذ بدأ الاحتلال ١٨٨٢ الى ١٩٢٢ حين صـــدر تصريح ٢٨ فبراير الذى أعلن فيـــه استقلال مصر وكان فى خلال هذه الفترة قـــد قضى على القوة الوطنية الفعـــالة التى كان يقودها مصطفى كامل ومحمد فريد حتى لم يعد لهـــا من الشأن بعـــد الحرب ، ما يمكنها من تولى شئون الحكم فضلا عن انها كانت لاتؤمن بالمفاوضة الا بعد الجلاء الكامل وترفض تولى الحـــكم فى ظل الاستعمار ، أما هـــذه القوة التى أعدها خلال فترة ما قبل الحرب فقـــد كانت تؤمن بالالتقاء بالاســـتعمار فى منتصف الطريق وقبول ما يرضى الاستعمار بالتنازل عنه تدريجيا ، ولا يرى بأسا من تولى الحكم فى ظل الاحتلال ، لذلك كان اللقاء الأول بين ممثلى مصر وبين ممثلى بريطانيا بعد الهدنة بضم ثلاثة من حزب الأمة هم على شعراوى وعبد العزيز فهمى وسعد زغلول .

وقد كانت ثورة ١٩١٩ فى مصر هى عمليـــة تفريغ للشحنة الوطنية والروحية والفكرية التى قام بها الحزب الوطنى والتى كانت تحمل معنى واضحا هو اجلاء المستعمر عن أرض الوطن .

وقد هزت هذه الثورة العالم الغربى عامة وبريطانيا وكشفت عن روح المقاومة الباسلة ، لذلك فان بريطانيا اســـتطاعت أن تقضى على هـــذه الروح باعطاء مصر « الاستقلال » فى ظل الاحتلال والسماح باعلان الدستور واقامة الحـــكم النيابى تحت ســـلطة المعتمد البريطانى وبواســـطة أعوانه من رجال الأحـــزاب ولم تحقق ثورة عام ١٩١٩ ما كانت قـــد اندلعت من أجـــله ، بل ماتت أهدافها وذوت وحل بدلها تيار عاصف من الغزو الثقافى والسياسى والاجتماعى الذى كان بعيد المدى فى القضـــاء على الروح الوطنية الأصيلة وتحويلها الى عراك سياسى وصراع حزبى حول الغنائم والأســـلاب وكراسى الوزارة والبرلمان والى خلاف متضرم شامل حجب الهدف الأصيل وهو تحقيق الجلاء وبناء الوطن .

ولعل هذه الصورة لثورة ١٩١٩ هى نفس الصورة لثورات الأقطار العربية المختلفة فى الفترة التى تخلى فيها الاســـتعمار عن الحكم بنفســـه واوكل الحـــكم لأعوانه وعملائه .

وقد تأثر الفكر العربى الاسلامى بهذا التطور فأصبح المثقفون خداما لدى أصحاب المصالح الحقيقية والاقطاعيين وأصبحت اقلامهم مؤجرة لأهدافهم ، وظهر تجمع اكبر عدد من المثقفين فى حزب واحد صنعه الانجليز بعد الاستقلال ليقاوموا به حزبا آخر يضم الأغلبية الساحقة ، وكان جل اتباعه هم اعضاء حزب الأمة القديم الذى صنعه الاستعمار فى ظل الحماية ليقاوموا به الوطنيين الذين قادهم مصطفى كامل ولم يكونوا فى واقع الأمر حزبا بل كان الوطن كله .

ولقد حرص الاستعمار بعد القضـــاء على الثورات الوطنية التى قامت فى أنحاء الوطن العربى كله من المحيط الى الخليج ان يقهرها بقوة الحديد والنـــار ، وأن يحول

مجرى ثورتها دون أهدافها الطبيعية فيفرض على هـذه الأوطان حكاما من انصاره واعوانه ، مع ابعاد المجاهدين عن أوطانهم حيث ابعد خيرى باشا التونسى ومحمد فريد وعبد العزيز شاويش وعبد العزيز الثعالبى وسليمان البارونى (ليبيا) وشكرى القوتلى وشكيب ارسـلان وعلى الغاياتى ..

لقـد اراد هؤلاء أن يجعلوا قضية تحرير أوطانهم عالية ، وكان مصطفى كامل هو اول من خرج بقضية مصر من النطاق المحلى ، كذلك خرج شكيب ارسـلان بقضية البلاد العربية وطاف عبد العزيز الثعـالبى بالعـالم الاسلامى مبعدا عن وطنـه أربعة عشر عاما وطاف محمد فريد بأوربا وتركيـا ثمان سـنوات ومات مغتربا فى برلين ..

ولكن الاستعمار حرص دائما أن يجعل من قضية كل عربى قضية محلية ، فى نفس الوقت الذى تضافرت فيه قوى الاسـتعمار على مقاومة الأحـرار . وقد ظن مصطفى كامل نتيجة للخلاف القائم بين بريطانيا وفرنسا أن فى استطاعته استغلال فرنسا للدفاع عن قضية مصر ، غير أن الدولتين لم يلبثا أن عقدتا الاتفاق الودى ١٩٠٤ واطلقت كل منهما يد الآخر فى البلد الذى تحتله : فرنسا فى تونس وانجلترا فى مصر .

بل أن تصريح ولسون الذى اعلن حق كل شعب فى تقريره مصيره كان له هزة كبرى فى مصر والعالم العربى فلما أبرق زعماء مصر اليه يطالبون تاييده اعلن ولسون أنه يوافق على بقاء بريطانيا فى مصر ، وحال الاستعمار دون توحيد جبهة العمل لتحرير الوطن العربى وكان فيصل عن سوريا وسعد زغلول عن مصر وعبد العزيز الثعالبى عن تونس فى وقت واحد فى مؤتمر الصلح ، ولكن الاستعمار حال دون التقائهم ، ورفض سعد زغلول توحيد جهـاده مع العرب الذين يمثلهم فيصل ، وقال أن ذلك سـيحول بين بريطانيا وبين الاتفاق معه .

ولذلك فقـد لقى كل منهم الهوان وحيل بينه وبين دخول مؤتمر الصلح ، فلما عاد الى الدولة المحتلة ليتفاهم معها عرضت عليه عرضا مهينا ، وكانت الشعوب اقوى من الزعماء ، فان ملنر الذى جاء مصر ورفض أبناء الشعب الالتقاء به — اضطر سـعد زغلول أن يجلس معه على مائدة للمفاوضة وقدم سعد مشروعا اعترف فيه بموافقة مصر على بقاء جيش الاحتلال خلف قناة السويس (وهذا نص المادة ٨ من مشروع سعد باشا الى ملنر فى ١٧ يوليه عام ١٩٢٠ « لبريطانيا العظمى اذا رات لزوما ان تنشىء على مصاريفها بالشاطىء الآسيوى لقنال السويس نقطة عسكرية للمساعدة على ما عساه يحصـل من الهجمات الأجنبية على القنـال وتحديد هذه المنطقة يحصـل بعد بمعرفة لجنة مكونة من خبراء عسكريين من الطرفين بعدد متساو) » .

وهذا العرض يبين المدى البعيد بين مطالب محمـد فريد الذى كان فى هذه الفترة منفيا مريضا فى احدى أزقة برلين ، وبين عروض سعد باشا الذى كان يمثل وطنيـة ما بعد ثورة ١٩١٩ وهو اكبر وراثهـا ، وقد رفض ملنر مشروع سعد باشا بالرغم من هـذا ، واعلن فى مواجهة وفد مصر : أن بريطانيا واضـعة يدها على كل شىء فى مصر وأنه لا ينقصها الا أن يكون ذلك شرعيـا بموافقة وفد مصر وعرض ملنر :

— منح بريطانيا (العظمى) حق ابقاء قوة عسكرية فى الأرض المصرية لحماية مواصـلاتها الامبراطورية .

— تعين مصر بالاتفـاق مع الحـكومة البريطانية مستشارا ماليا يعهد اليه فى الوقت اللازم بالاختصاصات المالية التى لأعضاء صندوق الدين .

— تعين مصر بالاتفاق مع بريطانيا موظفا فى وزارة الحقانية يتمتع بحق الاتصـال بالوزير ، ويجب احاطته بجميع المسائل المتعلقة بادارة القضـاء فيما له مساس بالأجانب .

— يمنح الممثل البريطانى مركزا استثنائيا فى مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين .

— ألا تعقد مصر مع أى دولة اى اتفـاق الا بعد موافقة بريطانيا ولا تعين موظفين الا باذنها .

وكان هذا هو ثمرة ١٩١٩ ومنهج ورائها . ومدى تطور المفـاهيم الوطنية عن طريق القوى الجديدة التى سيطرت على الحكم فى مصر بعد القضـاء على الدعوة الوطنية التحررة التى كانت تطالب بالجلاء الكامل . وقد عاش دعاة الحزب الوطنى فى ظل المدرسـة (الواقعية الجديدة) المؤمنة بالتعاون مع الانجليز موضع السـخرية والتهكم من الأحزاب الحاكمة ، لأنهم دعوا الى «المفاوضة بعد الجلاء » ووجهت عبارات الهجاء العنيف الى مصطفى كامل ومحمد فريد على اعتبار أنهما كانا خياليين مغرقين فى اوهام .

وهكذا تحولت مفاهيم السياسة الى احتقار الدعوة الوطنية الخالصة ، وتغليب روح التفاهم مع الاستعمار وخلق جو من « الصداقة » بين الاستعمار والحكام .

ولكن الشعب ظل على عدائه لهم جميعا ، فقد كان معروفا أن القوى الثلاث : الملوك والحكام والانجليز يسيرون فى خط واحد يرسمه الاستعمار نفسه فالاستعمار هو الذى يحمى العرش ويفرض الوزراء ويغيرهم .

* * *

وقد تكشف « نقل » الأنظمة الغربية الديمقراطية فى الحكم عن نتائج فاشلة ، حيث كان البون شاسعا بين مدى صلاحية هذه النظم للوطن العربي وقيامها على أساس غير سليم هو بقاء جيش الاحتلال وسلطان المعتمد البريطانى وسلطة الملك .

ولم تكن هناك غير قوة واحدة هى قوة « الشعب » التى تبددت وراء انتسلبات الأحزاب وصراعها وتحولت عن مفاهيمها الأولى الصادقة الايمان بالحرية والوطنية الى المنفعة ، وتحصيل مكاسب الحكم مما ادى الى الانهيار فى مفاهيم القيم وغلبة روح الأنانية والانعزالية ، وظهور طبقة جديدة من الحكام المترفين الذين انفصلوا عن الشعب واستغلوه وحكموا باسمه ولحساب مطامعهم، ولقد كانت قوة الشعب تستعيد مراكزها فى المقاومة على فترات متباعدة فتتجه الى عمل من أعمال المقاومة فاذا حصدها رصاص الانجليز وساقها الى السجون توقفت ثم حتى يتجمع مرة أخرى لمعركة جديدة . وظلت هكذا بين القوة والضعف والاقدام ولكنها لم تمت .

* * *

سيطر الاستعمار على أقطار الوطن العربى بواسطة اربع قوى : الملوك . المعتمدون . المعتمدون غير الرسميين . العملاء . والأحزاب . الأقلام والصحف .

(١) الملوك : اما الملوك فقد كانوا دائما أدوات لستعمارية صالحة . ففى مصر مثلا ادعى الانجليز انهم احتلوا مصر لحماية عرش الخديو . وقد كان الملوك والسلاطين والخديويين فى الوطن العربى فى خدمة الاستعمار . وأسقط الاستعمار كل الملوك الذين عملوا لمقاومته ، كما حول الآخرين الى صفة كما فعل بالخديو عباس الذى احتضن الحركة الوطنية فلما أرسلت له بريطانيا المعتمد البريطانى « ونجت » بسياسة الوفاق أعطى ظهره للحركة الوطنية وقاومها .

ولقد قاوم الاستعمار اى انحراف فى الملوك سواء أكان لرفض تعيين رئيس وزراء معين كما وقع فى حادث ٤ فبراير ومحاصرة قصر عابدين بالدبابات أو على النطاق الوطنى الحر كما فعلت فرنسا مع الملك محمد الخامس الذى ظاهر حركة التحرير فى بلاده فأجبره الاستعمار على النفى ثم اضطر الى اعادته تحت ضغط قوة المقاومة الوطنية .

وللملوك والسلاطين قصة ، فقد تعاقدت بريطانيا مع عشرات منهم فى الجنوب العربى على نحو ذليل يعطى لبريطانيا الحق فى فرض سلطانها على كل شىء فى مقابل مرتبات قليلة وارتباط بالاستعمار البريطانى مدى الحياة .

وكان موقف بريطانيا من الشريف حسين غاية فى التآمر والخداع ، فقد تفاهمت معه بواسطة مندوبها مكماهون فى مصر على الانفصال عن الأتراك والانضمام لها فى مقابل اقامة دولة عربية بعد انتهاء الحرب . ثم تبين بعد اعلان الثورة خداعها له فاذا ما انتهت الحرب تنكرت لوعودها ، فاذا ما اختلف معها الشريف حسين ورفض قبول « وعد بلفور » أغروا به الملك عبد العزيز آل سعود الذى اجتاح الحجاز وأسقط مملكة الهاشميين .

وقصة الملك فيصل ملك سوريا ثم ملك العراق معروفة . فقد أذعن الملك لانذار القائد الفرنسى «غورو» وحل الجيش السورى فلما تحركت القوات الفرنسية لاحتلال دمشق هرب وترك الوطن يقاسى عقوبة الاستعمار القاسية بدون مقاومة .

ثم رشحه الاستعمار لعرش العراق وهيىء له السبيل وأبعد أهل البلاد الأصليين — وكان فى ذلك انما ينقل الملوك من قطر الى قطر كقطع الشطرنج ، فلما وصل الى العراق كان المعتمد البريطانى يرسى كوك هو الحاكم الحقيقى وقد سئل جلالته فى أن ينشىء جامعة فى بغداد فكان اعتذاره صورة لفهم الملوك لمكانهم من الاستعمار حيث فقال : اننى موظف فى الحكومة البريطانية برتبة ملك .. وقد رأى كيف أذل الاستعمار والده الملك حسين حين رفض الموافقة على وعد بلفور وأغرى به الملك سعود ليحتل ملكه فقبل التفاهم مع « وايزمان » ممثل الصهيونية وأعلن فى تصريحات له بأن فلسطين تقبل اليهود اخوانا للعرب بها !

وقد تنبه الاستعمار للجيل القادم من الملوك ففرض تعليم أولياء العهد فى بلاده . وقد اضطر الملك فؤاد أن يسلم ابنه لتربية بريطانية ، وكذلك فعل مع فيصل بن الملك غازى والملك حسين بن طلال . وكذلك فعل الاستعمار الفرنسى .

٢ — المعتمدون : اختارت بريطانيا وفرنسا لسيطرتها على أقطار العالم العربى معتمدون مدربون غاية فى المكر والدهاء ، كان أبرزهم كرومر فى مصر وليوتى فى المغرب وغورو فى سورية وولكوكس فى العراق وجلوب وصمويل فى الأردن وهور فى فلسطين وغردون فى السودان وجزريانى فى ايطاليا .

ولقد قام هؤلاء وعشرات غيرهم بدورهم فى دعم الاستعمار وتأكيد الغزو الثقافى وارتبط تاريخهم بأسوا أعمال الاستعمار ، فكرومر صاحب دنشواى وجزيريانى قاتل عمر المختار وليوتى صاحب دعوة فرنسة العرب فى المغرب وتجنيسهم وقام كرومر فى مصر بدور ضخم فى بناء أسس الاحتلال وكان نهجه التدخل الانجليزى فى كل فرع من فروع الادارة المصرية ورسم خطة انسحاب الجيش

المصرى من السودان ثم استعادته بقيادة كتشنر وتضى على المعارضة الفرنسية للاحتلال بتوقيع اتفاق ١٩٠٤ وبقاء قواعد اتفاقية ١٨٩٠ مع مصر وبها سيطر الانجليز على السودان كله وفرض على كل وزارة مستشارا انجليزيا يملى على الوزير ، وفى وزارة الداخلية مفتشون يسيطرون على المديرين وهو صاحب سياسة التفرقة والوقيعة بين المسلمين والأقباط وتقسيم الأمة الى أحزاب وشيع . والتفرقة بين مصر والسودان .

وهو صاحب الدعوة الى نظام رأسه انجليزية ويديه مصرية . وهو صانع زعماء حزب امة ، ومن الحكام امثال مصطفى فهمى الذى وصفه بالشجاعة الأدبية والاعتدال . وصهره سعد زغلول وهو القائل بأن الاستعمار البريطانى يبقى فى مصر الى الأبد .

وقد سيطر كرومر على القضاء فبعد ان كان القانون يحمى الفرد من بطش اية سلطة اذا نشر آراءه السياسية اصدر قانونا اصبح به القضاة الابتدائيون تحت نقوذه فى محكمة الاستئناف وحولها الى القضاه الابتدائيون بعد السلطة الادارية ، ثم نزع الاختصاص من قضايا الجنح بعد ان نزع استقلالهم . ونزعت سلطة القبض والتحقيق والاتهام من القضاء وتقررت للنيابة ١٨٦٥ وبذلك اصبح المواطن خاضعا للقبض عليه والتحقيق ضده واتهامه والحكم عليه بواسطة قضاة كلهم خاضعون للسلطة الادارية تحت اشراف الانجليز .

وقد صور كرومر أثره فى مصر (١٨٩٢) فقال : من يقارن الحالة الحاضرة بالحالة التى كانت عليها مصر منذ عشر سنوات يجد فرقا شاسعا ، فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الحرف والصناعات قد اختفت تماما وحلت محلها دكاكين مملوءة بالبضائع الاوربية والآن أقول ان كل شيء فى مصر يدخل فى امتياز ممنوح لاحدى الشركات الأوربية ومصر الآن تزرع القطن وبريطانيا تصنعه .

وكان أبرز أعمال كرومر نظام وظائف المستشارين الانجليز وهو النظام الذى وضعه على اساس قاعدة رءوس انجليزية وأيد مصرية . فقد وضع فى كل وزارة مستشار ، وهو اسم مبهم يفهم منه ان هذا الموظف الأجنبى سيكون رأيه استشاريا بينما كان فى الواقع هو كل شيء ولم يكن يستطيع اى وزير ان يقضى فى أمر اذا لم يكن قد حظى بتوقيع المستشار وقبوله . وبذلك سيطر كرومر بواسطة جهازه هذا على جميع تصرفات الحكم . وقد بسط هؤلاء المستشارين النفوذ الانجليزى بجميع الوسائل واهمها الاكثار من الوظفين الانجليز وباحلال انجليزى محل كل موظف اجنبى فرنسيا او المانيا .

وقد طاردوا كثيرا من رجال التعليم الفرنسيين بقصد صبغ جميع فروع التعليم بالصبغة الانجليزية . وجعل القوانين المصرية ولا سيما القانون الجنائى انجليزيا وجعل المرافعات باللغة الانجليزية بقصد القضاء على اللغة العربية والمظهر القومى ...

وقد كان الوزراء يخضعون خضوعا تاما لتعليمات المستشارين ، وكانت كل قرارات العقوبات والغرامات تنفذ بواسطة الموظفين المصريين ثم يكون رفع هذه المظالم بواسطة كرومر ورجاله ،وذلك حتى يقع فى أذهان الناس ان الاستعمار عادل وأن أبناء الوطن هم الظالمين وقد تمسك لورد ملنر فى مفاوضاته الأولى مع سعد زغلول ببقاء المستشار القضائى ولو باسم آخر على ان يكون له حق الدخول على وزير الحقانية ويؤخذ رأيه فى كل مايتعلق بالتشريعات التى تطبق على الأجانب وكذلك المستشار المالى .

وكان « دنلوب » مستشار كرومر فى وزارة المعارف من اقسى هؤلاء المستشارين واشدهم حرصا على هدم اللغة العربية ومحاربة الأزهر ومقاومة التاريخ الوطنى .

* * *

٣ — المعتمدون غير الرسميون

وكان الاستعمار فى الوطن العربى معتمدون غير رسميين ، وكان هؤلاء اشد خطرا من معتمديه الرسميين نظرا لأنهم كانوا يتغلغلون فى الوطنين ويحاولون خداعهم بأنهم أصدقاء للعرب يؤمنون بحقهم فى الحرية ، من هؤلاء فيلبى ولورنس ويلنت وقد عمل فيلبى مع الهاشميين أولا ثم عمل مع السعوديين . اما بلنت فهو صاحب الوساطة فى تخفيف الحكم على عرابى من الاعدام الى النفى واستخدام المحامين الانجليز الدفاع عنه وصديق الشيخ محمد عبده .

اما لورنس فان قصته غاية فى الاثارة . فهو البريطانى الذى وصف بأنه ملك العرب غير المتوج والذى كان له دوره الخطير فى الثورة العربية التى أعلنها العرب بقيادة الشريف حسين ١٩١٦ وقد أرسله الانجليز ليعاون فيصل فى الحرب مع الأتراك وقد شهد معه المعارك التى

بدأت من العقبة حتى دخول الجيش البريطانى الى القدس ودمشـــق ، وكان له دوره فى خداع العرب عن حقـــائق الموقف وعن المؤامرة التى كانت تدبر لهم بتقسيم وطنهم واهمال المقررات التى تم الاتفـــاق عليها بين مكماهون والشريف حسين وبذلك ضاعت آمالهم فى قيـــام دولة عربية .

وقد خدع العرب بزيه وعقـــاله ، وتحدثه باللهجة العربية المنتشرة فى قلب جزيرة العرب . وفضح بكتـــابة أعمدة الحكمة السبع حقيقة مشاعره نحو العرب ورماهم بكل نقيصة وقال : لو كنت ناصحا أمينا للعرب لقلت لهم . (لا تحاربوا) .

واشترك لورنس فى تقسيم العالم مع « تشرشل » واقامة الصهيونية فى فلســـطين ودخول فرنســـا دمشق واخراج فيصل ثم اختيـــاره لعرش العراق والتمهيد له بانشاء امارة شرق الأردن للأمير عبد الله .

وكانت مهمة جـــلوب فى الأردن الاتصـــال بالبدو والاعراب واجتياز الصحراء شرقا وغربا ، ولذلك فقـــد أجاد اللغة العربية الفصحى ولهجات القبـــائل المختلفة وعادات العرب واستطاع اكتســـاب ثقة الأعراب الذين يجوبون الصحراء وقد نجح فى حجزهم عن الاتصـــــال بالثورة فى فلسطين .

* * *

٤ ـ العمـــلاء

وكان العمـــلاء فى المنطقة من أعوان الاســـتعمار وأدواته . وعن طريقهم حكم وتسلط وضرب الوطنيين . ويعد سلطان باشا فى مصر نموذجا لهؤلاء العملاء فهـــو الذى مهـــد للجيش البريطانى الزحف على التـــل الكبير وصاحب الأعراب الذى كشفوا الطريق لمعسكر عرابى فى التل الكبير . وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد ، ومن لهم شـــأن يمنيهم بالخلع والرتب والأوســـمة . ومنحته الحكومة عشرة الاف جنيـــه وكافأته الحكومة الانجليزية بنيشان القديسين : جورج وميشيل ووضعه على صدره السرمالت قنصل الانجليز بالنيابة عن جلالة الملكة فيكتوريا

وقد وصفه الشـــيخ محمد عبده فى مذكراته : بانه الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد وجمع لهـــا وقودها وحطبها حتى امتد لهيبها وعم جميع الانحـــاء ثم هرب من طريقها عندما خاف أن يلدغه لســـان لهيبها ، وجاء فى آخر الأمر نائبـــا عن الحضرة الخديوية فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم ونال المكافأة من الجناب العالى بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها » .

ومن عملاء بريطانيا من الوزراء : حسين رشـــدى الذى دفع مصر فى الحرب العـــالمية الاولى الى جانب الانجليز وجند مليونى عامل مصرى فى ساحات القتـــال واقتطع غلات المصريين وأقواتهم ليمون بها جيوش صاحب الجلالة البريطانية وحلفائه وعمل على تقييد أسعار القطن . وقدمت مصر ملايين الجنيهات الى بريطانيا ، واعادة الموظفين الانجليـــزيين بأضخم المرتبـــات والاستغناء عن بعض الموظفين الانجليز مقابل غرامة باسم التعويضـــات التى كلفت مصر ملايين الجنيهـــات وفتح أعمـــال المنشئات الجديدة لخـــدمة بعض المصـــالح الانجليزية وتقديم الاحتكارات والرخص والامتيـــازات والاعانات للشركات الانجليزية فى مصر وتسخير التعريفة الجمركية لخـــدمة التجارة الانجليزية فى مصر على حساب المصريين والتسليم للانجليز باقتطاع الأراضى المصرية لهـــا تارة ولحليفتها ايطاليا تارة أخرى .

* * *

٥ ـ الأحزاب

كانت الأحزاب السياسية فى العالم العربى أداة من أدوات الاســـتعمار فان الدعوات الوطنية الى مقـــاومة الاستعمار التى بزغت فى العالم العربى بصفة عامة وفى الأقطار المختلفة لم تكن فى حقيقتها أحزابا ولكنها كانت قوى وطنية كاملة ، غير أن الاستعمار حرص على أن يســـبق فيجمع أعوانه من كبار الاقطاعيين وأصحاب الأرض والمـــال فى أحزاب قوية تصدر الصحف وتجهر بدعوتها فى وضوح . ولم تكن هذه الدعوة مكشوفة لتأييد الاستعمار ، ولكنهـــا كانت لبقة تدعو الى تغليب العقل على العاطفة ، ومحاولة الاســـتفادة من كسب كل ما يعطيه المحتل ، ولذلك فان محاسنته عندهم هى الطريق الصـــحيح وليس الطريق الآخر القائم على العاطفة من ناحية والتطرف فى المطالبة بالجلاء الكامل .

وفى مصر عندما التف المصريون حول « مصـــطفى كامل » أسرع كرومر بانشاء حزب الأمة وأصدر صحيفة الجريدة التى دعت الى التعقيل والمحاسنة .

وقد تكررت هذه التجربة فى كل قطر : فى سوريا وتونس والعراق .

وكانت الأحزاب أداة تحويل المعركة الوطنية الى معركة سياسية ، ومنازعات داخلية ، فتوزعت بذلك قوى الأمة وتبددت وحدة الشعب ، واستدعى ذلك أن يستعين البعض بقوة المستعمر على البعض الآخر واستطاع المحتل أن يوسع الشقة وأن يعين هذا على ذلك ، وتعرضت قضية الوطن لأبلغ الخطر واستتبع ذلك الانحدار الاجتماعى من الأهداف الوطنية العليا الى المصالح الفردية :

وقد قامت هذه الأحزاب على الأشخاص لا على المناهج فلم يكن لها برامج محددة .

وفى مصر كان مصطفى كامل يطالب بالجلاء ، بينما حزب الأمة لم يورد فى منهاجه الذى أعلن شيئا عن الجلاء او الاستقلال او الحرية، وانما أورد هذا المبدأ « أننوجه همنا ونصرف قوانا للحصول على حقنا الطبيعى وهو الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة وذلك بالسعى فى توسيع اختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين » وهذا مدى ما كان يطلب حزب الأمة .

وفى فلسطين كان لصراع الأحزاب اثره البعيد فى سيطرة اليهود وتمكنهم من الانقضاض عليها . وقد استغل الانجليز واليهود الخلاف بين أمين الحسينى وفخرى النشاشيبى وسعت بريطانيا لتعميق هذا الخلاف وتوسيع شقته .

***

٦ ــ الصحافة

وقد استغل الاستعمار الصحافة ، وكانت له فى معظم البلاد العربية صحف تعمل لحسابه فى صراحة وصحف تعمل له فى الخفاء ، وفى بعض الأقطار كانت هناك صحف لبريطانيا وصحف لفرنسا ، وكان بين هذه الصحف صراع خفى ، وكانت الصحف الموالية لفرنسا فى الأقطار التى احتلتها بريطانيا تعرض اتجاهات بريطانيا وتصرفاتها وتحمل بذلك لواء الدعوة الوطنية ظاهرا بينما هى تدافع عن مصالح فرنسا .

وفى مصر كانت صحيفة « المقطم » تتحدث صراحة عن دورها فى تأييد الاحتلال البريطانى ولها فى ذلك فلسفة عجيبة . وقد كشف المقتطف ــ وهو شقيق المقطم ــ عن هذا الدور تحت عنوان تشيع المقتطف للانجليز (عدد يوليو ١٩٠٥) « يرمون المقتطف بالتشيع للانجليز . ويقولون انه لا ينوء الا بالانجليز ولا يعترف بالفضل الا للانجليز ولا يستحسن الا ماهو انجليزى وبهما حملة هذا الغلو فى حب الانجليز على استحسان ما يستقبح من غيرهم ويشهدون على الأول باغضائه عن ترجمة حول سيمون الفيلسوف الفرنسى والسيد جمال الدين الأفغانى .

وقال الدكتور صروف : أن أكثر مطالعاتنا فى اللغة الانجليزية فنرى الترجمات المطلوبة فيها وهى فى الغالب عن رجالها ، أما جمال الدين فعذرنا فى اغفال ترجمته هو أننا لا تعرف الرجل ولم نقرأ له الا كتيبا لا يستحق لأجله مدحا .

وتحدث المقتطف عن الاستعمار البريطانى (يونيه ١٩٠٤) واعتذر لهم عن أنهم احتلوا أقطار الشرق بأن «بلاد الانجليز جزائر . ليس فيها من الحاصلات الزراعية ما يكفى أهلها فلما كثروا اضطرا أنيركبوا البحار ويتجروا بمصنوعاتهم فأوصلتهم التجارة الىأمريكا والهند وأفريقية واتفق أن بعض البلاد التى دخلوها كانت احكامها مختلة معتلة أو كانت خالية من الأحكام فكانوا يضطرون أن يلجأوا الى القوة دفاعا عن أنفسهم . والقوة تدعو الى الغلب والتملك » .

وبرر الدكتور صروف الإحتلال البريطانى فى مقتطف (يناير ١٩٠٧) فقال :

أن « الذى جرى عليه أهل السياسة حتى الآن انهم دخلوا بلادا امتلكوها كما فعل الأتراك لما دخلوا القطر المصرى والسورى وكما فعل محمد على عندما دخل السودان فانه امتلكها بحق الفتح . أما الذىفعله الانجليز فى القطر المصرى والقطر السودانى فبين بين ، لأنهم دخلوا القطرين واحتلوهما ولم يمتلكوهما بل اقتصروا على مساعدة الوطنيين فى ادارة شئون البلاد ، ولقد كان الداعى الى دخولهم القطر المصرى اختلال الأمن فيه وخوف أصحاب الديون المصريين على أموالهم . وأكثرهم من الانجليز والفرنسيون ، ولما استقل السودان عن مصر وسار بلادا مطموعا فيها لو لم تسترده مصر بمساعدة انكلترا لتدته فرنسا أو أى دولة اخرى وضمته الى املاكها وتحكمت بالنيل على اسلوب يجعل القطر المصرى فى قبضة يدها وتحت رحمتها فقامت بريطانيا وساعدت مصر على استرجاع السودان وقد استفاد

القطر المصرى والسودان بالاحتلال فوائد لا تقدر » .

وقال الدكتور صروف « ان احتلال بريطانيا لمصر دفعها الى التقدم (اغسطس ١٩٢١) ولو لم يحتل الانجليز القطر المصرى لبقى سائرا سيره الطبيعى كما كان سائرا حينئذ فليس فى كل قواميس الكون وقوانين العقل ما يجعلها تحكم انه كان يتقدم على سوريا ويتركها وراءه بمراحل كثيرة .

وقال فارس نمر (مارس ١٩١٠ المقتطف) ان كانوا يعيروني انى اعترفت للاحتلال بالاصلاح وللمحتلين بأعمال حسنة فى هذا القطر فانا على رؤوس الاشهاد احتلالى من اكبر الاحتلاليين لأنى جاهرت وشهدت ولم أخف ولم أنكر أن المحتلين أصلحوا هذا القطر اصلاحا عظيما ، ونشروا عليه الوية العدل والحرية وانهم رقوه ماديا وأدبيا . وقد استقرت الأفكار على أن الاحتلال لابد وأن يدوم حتى ترتقى الأمة المصرية فى المعرفة والعلم والقوة والكفاءة لتدبير امورها وتولى شئونها بنفسها وذلك يستغرق زمانا طويلا » .

ويصور المقطم (مايو ١٩١٠) كيف تنال مصر الحكومة النيابية فيقول :

أن مطالب الحزب الوطنى المتعلقة بالدستور من أشرف المطالب واجلها ، فنحن لا نذم غاية الحزب الوطنى بل غيرها ظاهرا وباطنا . والسبيل الذى نال به العثمانيون دستورهم يتعذر نيل الدستورية فى القطر المصرى . لأن احوال القطر المصرى مخالفة لأحوال تلك البلدان . أن للقطر المصرى علاقات خصوصية بالأوربيين تجعل نيلنا الدستور التام رغما عنهم صعبا جدا وان لم يكن ضربا من المحال .

وقد اعترف لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة ان ماليى أوربا الذين يملكون الدين المصرى هم الذين الجأوا الحكومة الانجليزية الى محاربة عرابى واحتلال القطر المصرى وديون هؤلاء الأوربيون لم ينتقص من ذلك الحين الى الآن بل زادت . للأوربيين فى أوربا ١٥٠ مليونى وللأوربيين فى مصر ٦٠ مليون أى ما يوازى ثلث ثروة هذا القطر .

هؤلاء الدائنون لم يأتمنوا غير انجلترا على حفظ ديونهم فالجأوها الى ارسال جنودها لاخماد الثورة العرابية واحتلال القطر المصرى .

فعلينا أن نقنع الأوربيين عموما والانجليز خاصة أننا كفؤ لحفظ الاصلاح الذى تم فى البلاد ، وكفئو لحفظ اموالهم ومصالحهم وتأدية الفوائد والاقساط فى مواعيدها وذلك بأن نسالم الأوربيين ونصادقهم على قدر الامكان وأن نناظرهم فى الاجتهاد وأن يهتم كل موظفى الحكومة بعمل ما يطلب منهم بأمانة واخلاص حتى نثبت أنه اكفأ للوظائف من الأوربيين . وأن ننشر الأمن والاطمئنان فى البلاد . وهذه السكة قد تكون طويلة نقطعها فى سنوات كثيرة ، وقد تكون قصيرة نقطعها فى سنة أو سنتين . واعتقد أن عقلاء الحزب الوطنى وحزب الأمة والحزب الدستورى يوافقوننا على ذلك .

والحكومة النيابية الحقيقية لا تنال فى القطر المصرى بالثورة والمغاضبة بل ما نرى » .

هذه هى فلسفة الاستعمار البريطانى فى مصر كما رسمتها اقلامه فى المقطم والمقتطف فى دعوة الى الذلة والاستسلام والخضوع ، وهو نفس النهج الذى سارت عليه « الجريدة » لسان حزب الأمة والتى كانت تدعى أنها للمصريين وليست للانجليز ولا للخديوى كما ظهر كتاب أشادوا بالامبراطورية البريطانية وركزوا على ضرورة تأكيد الصداقة معها .

* * *

المقاومة

كانت هذه القوى تعمل فى طريق واحد هو القضاء على الوحدة العربية بين الأقطار التى فصلها الاستعمار وجزئها ، والقضاء على الوحدة الداخلية ايضا بين ابناء القطر الواحد . ومحاولة خلق حياة فكرية اقليمية ضيقة تقوم على أساس اللهجة الاقليمية والانفصال عن اللغة الفصحى ، وانكار القيم الأساسية للشخصية العربية كالتاريخ والدين .

وفى القضاء على اللغة والتاريخ والدين قضاء على القوة النابضة التى تدفع الى الحرية والمطالبة بالجلاء وتخليص الكيان .

وكان لسيطرة الاستعمار على الصحافة والتعليم ووسائل الأعلام أثره فى اشاعة روح جديدة تقوم على أساس النظر الى الغرب نظرة الاكبار والنظر الى الشرق نظرة الاحتقار ، ومؤدى هذه النظرة محبة الغرب

والارتباط به واعتبار الاستعمار صلة حضـــارة وتمدين وليست صلة تسلط واستيلاء ، مع اكبار ثقــافة الغرب القائمة على اساس الالحاد والاباحة والماديةوالتنكر للقيم الروحية والانفصال تدريجيـــــا من الشرق والعروبة . والنظر الى التاريخ العربى نظرة الشك والتهكم . وبذلك يركز الاســـتعمار قواعده ويبقى الى الأبد كما كان يطمع كرومر فى مصر .

غير أن القوة الروحية والوطنية قد استطاعت أن تنفذ خلال هذا الضباب الكثيف ، وأن تشـــق طريقها فى مقاومة عزلاء من جميع أسلحة الاستعمار القوية الضخمة فكشفت عن خداع الاستعمار ، وأظهرت خيانات الملوك والأحـــــزاب واعوان الاســــتعمار وعملائه ، وتركت « ميسلون » فى سوريا « ودنشواى » فى مصر وأمثالهـــا فى السودان والمغرب جروحا دامية فىضمير البلاد العربية لم تلتئم ، وقد ظلت تثير على الاســـتعمار وأعوانه روح السخط ، وقاومت الصحافة الاستعمارية صحافة وطنية كانت اقلامها أشد أيمانا وصدقا . وابعد أثرا فى النفس العربية ، وقد كانت كلمة الحق والكلمة الوطنية بعيـــدة الأثر فى القضاء على القضايا الزائفة والأكاذيب وصنوف الخداع .

وفشلت كل معارك القضــــاء على اللغة العربية أو الدين أو التاريخ وتحطمت قضية اقامة صداقة بين البلاد العربية والاستعمار ، وارتفعت الصيحات فى كل مكان بالثورة على الاستعمار وأعوانه فاذا اخمدها الاستعمار ، تحولت الى ضرام قوى يتصـــــــل بالشعب عن طـــريق الصحافة والكتـــــابة والخطابة ويترتب الفرص ليتجمع جديد .

وفى شـــــوارع مدن عربية كثيرة ارتفعت النداءات بخيانة الملوك وخيانة زعماء ظلوا سنوات طويلةيخدعون شعوبهم ، وفى ميادين عامة وأمام مساجد مقدســـة قتل ملوك ووزراء خانوا أوطانهم :

ولم يستطع الاســــتعمار أن يحمى أعوانه الخونة فحاسبهم الشـــعب . وفى ظروف كثيرة فرض الشـــعب سلطانه فمنع المستوزرين من تولى الحكم حتى تجـــاب مطالبه ، واندفعت أيد حرة سوداء على الخونة فحررت الأوطان من كثير من العملاء .

وظلت هذه القوة الوطنية المؤمنة حية نابضة مهما حيل بينها وبين الظهور .

وحاولت الاقلام ان تبلغ كلمة الحق مهما حيل بينها وبين اعلانها فكانت النشرات والصحف السرية والكتابات الرمزية .

* * *

وكان لقضية فلسطين وخيانات ملوك العرب فيهـــا أثرها الكبير فى تاريخ روح الوطنية والدعوة الى الوحدة فى سبيل مقاومة الخطر .

وتنادت أجزاء الوطن العربى فى شـــعرها ونثرها بالرغم من حواجز الاستعمار وخرج زعماء أبرار فطافوا أنحاء العـــالم يكشفون مظالم الاســـتعمار ويندون به . وتلاقت طوائف المسلمين والمسيحيين فى مصر فى وحـــدة وطنية ، كما تلاقى العرب والبربر فى شمال أفريقيا لمواجهة الاستعمار الذى كان يسعى للتفريق بينهما ، وكشـــف الشعب خدعة الأحزاب السياسية وفشل النظم النيابية الغربية القائمة فى ظل جيوش الاحتلال وسلطان المندوب البريطانى ولم تنطل كلمات المقطم والمقتطف على الشعب الذى كان يعرف حقيقة طريقه .

ووجد الفكر العربى من هذه المعركة حصيلة ضخمة وزادته قوته حياة وزادت معالمه قوة ، وقد أفاد الفـــكر العربى من هذه المعارك انه جدد نفسه ، وأضاف لعمله دعائم جديدة فى سبيل دعم خطته والانطـــلاق فى طريقه محافظا على مقوماته متصلا بالحياة متطورا مع الزمن .

* * *

الدعوة إلى الوحـــدة العربيـــة

كانت « الدعوة الى الوحـــدة العربية » هى أبرز المعارك السياسية خلال ما بين الحربين ، فقـــد حرص الاستعمار على القضاء على الفكرة والحيلولة دون قيامها وذلك باقامة النظم الاقليمية واذاعة الدعوات الانفصالية المختلفة . وقد كانت «البلاد العربية» خلال الحرب تتطلع الى أن تصبح دولة قوية بعد انفصالها عن تركيا العثمانية ومؤازرتها للحلفاء على اساس وعود وعهود .

غير أن نهاية الحرب العالمية الأولى كشـــفت عن مؤامرة كبرى ذات شقين :

— تقسيم البلاد العربية الى أقطار تحت الانتداب الفرنسى والبريطانى بمقتضى معاهدة (سايكس بيكو) .

— اعلان تصريح بلفور بقيام وطن قومى لليهود فى فلسطين ولم تلبث هـــذه الخطة أن قضـــت على الدولة الهاشمية فى الحجاز وسيطرة السعوديين على الحجاز . ثم قيام عرشين هاشميين فى العراق لفيصل وفى الأردن لعبد الله .

وقد حرص الاســـتعمار الانجليزى أن يحجب مصر عن « دعوة القومية العـــربية » التى كانت ســـوريا هى مقرها الأصلى وموئلها حيث قدمت شهدائها وضحاياها .

وكانت مصر قد تخلصت من سيطرة حكم العثمانيين منذ سقطت تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وبذلك لم تشهد المعركة التى خاضتها الشام (باجزائها الثلاثة : سوريا ولبنان وفلسطين) والعراق والتى كانت المصـــدر الأساسى لانفصال العرب عن تركيا .

وفى مؤتمر الصلح رفض سعد زغلول أن يندمج مع العرب بزعامة فيصل فى سبيل الوصول الى حق « تقرير المصير » وقال عن العرب أنهم أصفار وأن تضيته مصرية وليست عربية ، وجرى عزل مصر عن العروبة والتركيز على انهـــا صاحبة المجد الفرعونى القديم ، وأنهـــا أم الحضارات العالمية وأن لها مركزا ممتازا بالنسبة للدول العربية : وجرى اتهـــام حملة لواء الوحدة العربية بأنهم أعوان الاستعمار البريطانى الذى تحاربه مصر ، ويقول المازنى ان فشل ثورة ١٩١٩ يرجع الى اننا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين وأن من خطل الرأى أن تنفرد كلواحدة من الأمم العربية بسعيها ، وكان سعد زغلول أحد الرجال الذين أعدهم الاستعمار ليحملوا لواء الزعامة بعد الحرب العالمية الأولى وقد وصف الانجليز بأنهم خصوم شرفاء معقولون .

ومن الطبيعى أن مثل هذا الاتجاه من شأنه أن يحول دون قيام رابطة بين مصر والدول العربية فى سبيل الدعوة القومية .

وقد ظلت مصر مركزا للدعوة الى القومية العربية ، كانت ملاذ كل المجاهدين الذين اضطهدوا فى أقطارهم ، وكانت قضية فلسطين فى أول الثلاثينـــات أول عامل من عوامل الترابط والدعوة الى الوحدة ، وقد سجل مؤتمر القدس (ديسمبر ١٩٣١) أن البلدان العربية وحـــدة لا يتجزأ ولا تسلم الأمة العربية ابدا بتجزئتها وقد اشترك فى المؤتمـــر مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وسورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية .

وكانت مصر فى خلال هذه الفترة معقد أمل الدول العربية لتتزعم هذه الحركة .

وقد تطورت فـــكرة القومية المصرية فى مصر حتى وصفها ساطع الحصرى عام ١٩٣٦ بأنها « حالة تخمر اجتماعى عميق يدفعها نحو الفكرة العربية بقوة شديدة ويجعلها تشعر بواجبها الطبيعى » .

وقد كان الاستعمارين البريطاني والفرنسي يخشيان سيطرة مصر على دعوة القومية العربية نظرا لاتجاه قلوب العرب اليها كدولة كبرى ، ولذلك عمد الغزو الثقافي الى خلق عديد من التيارات والدعوات فيها ليحول ذلك دون اتجاهها نحو هدف واحد . وكان ابرز هذه الاتجاهات : الاتجاه النيلي والاتجاه الاسلامي .

وقد وصفت مصر بأنها البلد الذي زودته الطبيعة بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في انهاض القومية العربية لأنها تقع — كما قال ساطع الحصري — في مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقي والآسيوي كما انها تكون أكبر كتلة من الكتل التي انقسم اليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف وأن هذه الكتلة قد أخذت حظا أوفر من الحضارة العالمية الحديثة .

* * *

ادارة الاستعمار

وقد رسم الاستعمار البريطاني والفرنسي خطة تأكيد التجزئة والحدود الوهمية للقضاء على وحدة الأمة العربية . وكان لها في تنفيذ هذه الخطة أعوان وعملاء ، أعوان من دهاقنة الاستعمار والسياسة أمثال جلوب وفيلبي ولورنس وعملاء أمثال سعد زغلول وفيصل وعبد الله ونوري السعيد والجلاوي وعن طريق هؤلاء وهؤلاء وقف الاستعمار في وجه الوحدة العربية .

* * *

الهاشميون

رسم تشرشل في مؤتمر القاهرة (١٢ آزار ١٩٢١) خطة الحكم في فلسطين والعراق والأردن : قال تشرشل للأمير عبد الله عند استيلاء فرنسا على سوريا : « لأن انجلترا محايدة في القضية بين العرب والفرنسيين وهم حلفاؤها فانها تنصح بلزوم انصراف الأمير فيصل بن الحسين عن سورية وسفره الى العراق ليرشح نفسه لملك العراق . وان الحكومة الانجليزية لا تريد أن ترى على عرش العراق الا الشخص الذي تعتمد عليه وأن طلاب عرش العراق كثيرون ومنهم ابن سعود وخزعل خان ، وأن على أن أوثر على العراق بأن يرضوا بالأمير فيصل » .

وقد نظم استفتاء شعبي عام لانتخاب الملك فيصل وذلك حتى يتخذ اختيار الملك شرعية واضحة ، وتلقى الأمير برقية من تشرشل تطلب اليه أن يصرح في خطاب التتويج عن عزمه على تسليم مقاليد الحكم الفعلي الى يد المتعهد البريطاني ونظمت الاستفتاء الأسسة بل وصحب (كور نواليس) فيصلا الى العراق ممثلا لبريطانيا وصحبت الكابتن بل الملك فيصل الى كل مكان تقدمه للقبائل وتهييء المآدب ، واعتقلت بريطانيا المنافس للعرش وارسلته الى جزيرة سيلان واعتقل كل من وقف في وجه فيصل . واهتمت بريطانيا بالاقطاعيين وأرسلت أبنائهم الى بريطانيا . وكانت تخلق العقبات لفيصل وتشعره بأن عرشه معرض للضياع اذا تخلف عنها .

وقد أيد فيصل وعد بلفور وقال : « نحن العرب لا سيما المتعلمين منا ننظر الى الحركة الصهيونية بأعمق العطف . وسوف نقدم لليهود أعظم ترحيب قلبي في الحضور الى البلاد . وقد كانت لنا ولاتزال أوثق العلاقات مع زعماء حركتكم وخاصة الدكتور وايزمان - وأننا نعمل سويا لبعث وانشاء الشرق الأدنى ، أن حركتنا تكمل الواحدة منهما الأخرى » ووقع فيصل ١٩١٨ على بيان باللغة الانجليزية بوصفه رئيسا للعرب اعترف فيه بوعد بلفور وبالهجرة اليهودية الى فلسطين واظهر عطفه على فكرة الوطن القومي وتم اتفاق فيصل ووايزمان على : أن أضمن وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية هي التعاون لترقية الدولة العربية وفلسطين .

وقد واجه فيصل عنف الحركة الوطنية في العراق وحاول أن يوازن بين رغبات بريطانيا وبين القومية العربية في العراق وكونت بريطانيا في العراق أعوانا وعملاء ، وكانت عبارة أذناب الاستعمار والعملاء هي : الواقعية ومسايرة الظروف .

* * *

عبد الله

أما الأمير عبد الله فقد استولى على احدى قطارات السكة الحديد الصاعدة من الحجاز الى الشمال ، وحين نفد الوقود من القطار ، كان عبد الله يتوقف — كما يروى الكاتب جيمس موريس — وينتزع أعمدة التلغرافات الخشبية ويضعها في القاطرة ويشعل فيها النار ، واستقبله كيركبرايد على الحدود وبقى معه حاكما باسم بريطانيا

ومستشارا للملك ٣٠ سنة وهو نفس الأسلوب الذى اصطنعته بريطانيا مع فيصل .

طلب الانجليز الى عبد الله أن يقبل عرش الأردن ، ووعدوه بعرش سوريا وكان يؤمن أن مستقبل العرب ووحدتهم تحت ظل الهاشميين وفى ولاء لبريطانيا العظمى وهو يؤمن بأن السيدة الوحيدة التى يمكن أن يقبل يدها هى مارى ملكة انجلترا .

وقد وصف الملك عبد الله موقفه من الانجليز (مذكراته) وقال ونستون تشرشل هو سعد بريطانيا وحظها ورجلها الفذ فى العصر الأخير « ومستر تشرشل هو الذى حضنى على أن أسعى لأخى فيصل فى أن يكون ملكا على العراق فأحل فى شرق الأردن واعمل بالحسنى لاستعادة وحدة سوريا وهو الذى سعى كل السعى فى أن يحل الوئام محل الخصام بين الوالد وابن السعود»

ودعا عبد الله العرب الى صداقة بريطانيا « أيها العرب اعلموا أن فى مصاحبة انجلترا وجوب الاستعداد ، وفى مخالفتها ما عجزت عنه الأمم الكبار وحاذروا فان انجلترا لا تقيم لأحد وزنا ان لم يكن كفؤا وانجلترا لاتبنى سياستها على العاطفة ، كونوا أقوياء حذرين تكن معكم بريطانيا وتوليكم اعتمادها » ويقول جلوب ان عبد الله كان يعتقد أن التحالف مع بريطانيا هو أسلم وأمن وسيلة لتأمين سلامة بلاده .

* * *

وقد عمل عبد الله مع ملوك العرب على ايقاف ثورة فلسطين ١٩٣٦ بعد أن بهرت العالم خلال ستة أشهر .

وكان لبريطانيا فى الوطن العربى اعوان : هم لورنس وفيلبى وجلوب وقد اثارت بأعوانها الخلاف بين الأسر الملكية الحاكمة فكان كل منهم فى صف ملك ، كان فيلبى يؤمن بصداقة عبد العزيز سعود لبريطانيا . وكان له دوره التاريخى فى ازكاء الحرب الأهلية بين السعوديين والهاشميين .

وكان جلوب هو نصير الهاشميين وصانع قوة البادية لحساب بريطانيا فى الأردن والتى قامت بدور خطير فى دحر ثورة رشيد الكيلانى ومعركة فلسطين من بعد وقد عمل جلوب على ايقاع الشقاق بين القبائل العراقية والسعودية .

* * *

وكان للاستعمار الفرنسى أعوانه فى المغرب ، كان هناك الجلاوى ذلك الاقطاعى العظيم الذى كان اكبر منتج للزيتون والغنم والمتحكم فى رقاب القبائل كما وصفه الكاتب الفرنسى (رينه بابان) والذى قال عنه انه أصبح بفضل مدافع الفرنسيين وطائراته سيد الأطلنطى دون منازع وأنه هو الذى قام بالأعمال الرهيبة والمآسى المخجلة التى تقضى على جميع الانتفاضات الوطنية .

وفى العراق قام نورى السعيد بالعمل ضد القومية العربية وقاوم دعوة العراق للقومية العربية ودعا الى (العراق للعراق) .

وقد وصفه بول جونسون بأنه آخر الحيل القديم من السياسيين العرب الذين استخدمتهم بريطانيا اداة تبطش بها وتقوم على احتلال الشرق الأوسط .

وقال وايزمان فى مذكراته : ان نورى السعيد وسطته الحكومة البريطانية رسميا لمفاوضة الهيئة العربية العليا بفلسطين لتهدئة اضطرابات ابريل ١٩٣٦ وقال أن العراق يمثله نورى السعيد كان مستعدا لقبول الوطن القومى اليهودى مع بعض الضمانات وقد هيمن نورى السعيد على مصائر العراق ٣٦ سنة وكان فاضل الجمالى عميلا آخر للاستعمار فى العراق .

وقد كانت دعوة حكام البلاد العربية عملاء الاستعمار هى « اقرار التجزئة وتنشئة الجيل الجديد على الاقليمية الضيقة ، وتأكيد الكيانات السياسية التى أوجدها الاستعمار ومحاولة جعلها كيانات مقدسة دائمة . واخذ أنظمة الحكم من الغرب بالرغم من عدم ملائمتها » .

* * *

معركة مقاومة التجزئة

وكان اقامة وطن قومى لليهود فى قلب الوطن العربى هو أخطر عمل وجه ضد القومية العربية وفصل العرب فى افريقيا عن العرب فى آسيا ، وقد تولت بريطانيا هذا العمل وقاومت من أجله كل انتفاضات القومية العربية فى فلسطين التى تاسى أهلها استعمارين : الاستعمار البريطانى والاستعمار الصهيونى .

وكان ملوك العرب سلاحا قويا فى يد بريطانيا

للقضاء على ثورة فلسطين وخداعها ، غير أن فلسطين كانت هى بؤرة القومية العربية والالتقاء الحقيقى بين الأجزاء العربية التى حاول الاستعمار فصلها ، وفى ظل هذه الحركة عادت مصر الى مكانها فى الصف العربى .

وفى خلال هذه الفترة اندلعت ثورات متعددة فى الوطن العربى ، كانت فى مجموعها تطالب بالحرية والاستقلال ، ولكنها كانت ترنوا من وراء الاستقلال الى ما هو أبعد من ذلك وهو الالتقاء مرة أخرى فى وحدة من أى نوع أو هو ما يوصف بعودة الأجزاء الى وضعها الطبيعى .

وقد ارتفعت أصوات : محمد الخضر حسين وعبد العزيز الثعالبى وهلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس وأمين الريحانى وشكيب ارسلان وعبد الرحمن عزام وساطع الحصرى والدكتور شهبندر والكاظمى والشبيبى والزهاوى والرصافى تدعو الى الوحدة والتجمع

وكانت مؤامرة « تهويد » فلسطين مدعاة لأن يبحر أمين الريحانى من أمريكا الى الوطن العربى ليلتقى بالأمراء والملوك ويسيح فى قلب الجزيرة العربية باحثا وراء الوحدة وهو ينادى « انى وان كان لبنان وطنى الصغير وسوريا وطنى الكبير فانى أنتسب الى الأمة العربية وطنى الأكبر .. وانى وان كانت المسيحية دين آبائى وأجدادى ، فانى أدين بدين كل من قال بالوحدة العربية وتجديد مجد العرب » وجرى العمل فى كل مكان فى سبيل تحطيم الحواجز التى كان يحرسها الاستعمار ويعززها وما كادت الأقطار العربية تتحرر وتحصل على الاستقلال حتى بدأت بالعمل على تغريب المناهج الدراسية . غير ان عوامل المقاومة ما لبثت أن برزت ، قامت قوة عربية فعالة فى الجيش العراقى ، وغير كثير من الكتاب آرائهم فى الاقليمية والتجزئة ، ومن هؤلاء محمود عزمى الذى أضطر بعد زيارته لبعض أقطار البلاد العربية أن يعلن أن الرابطة العربية هى آمن الروابط التى يصح أن تقوم عليها مساعينا ، بل انها الرابطة الوحيدة التى يجب أن نستند اليها فى تطورنا المحتوم ، ومعنى الرابطة العربية انها تلك التى تستند الى حوادث التاريخ التى وحدت بين نوع التفكير ونوع الحياة وأساليب الحكم وقواعد الاقتصاد فى تلك الكتلة المتصلة من المحيط الأطلنطى الى الخليج الفارسى والثقافة والحضارة والمطمح الأعلى انما هى العناصر الفعالة فى توحيد الاتجاه . وهى انما تقوم على واقع جغرافى وعلى واقع اجتماعى يؤيدهما واقع روحى عظيم » .

وبدأت معركة الاستعمار فى الغزو الثقافى فى سبيل دعم التجزئة تضعف ، فالحفريات والبحث عن الآثار القديمة وكشف حضارات البابليين والأشوريين والكلدانيين والحبسيين والفراعنة لم تعد لها تلك الرنة الأولى ، بل أخذت ترسم صورة ماض عظيم لأمة عربية عظيمة ، وظهرت النظريات التى تقول أن كل الموجات التى اندفعت الى العالم العربى وأقامت معظم هذه الحضارات انما خرجت من جزيرة العرب وفى مقدمتها : الفرعونية والفينيقية ، وتشكك الناس فى الكتب التى ألفت فى البلاد العربية لتربط هذه الأفكار بالماضى القديم أو تعزز التجزئة ، ولم تفلح نظرية الأدب المصرى والأدب السورى والأدب العراقى وفشلت نظرية عزل الأدب عن قضية الحرية والمقاومة والتجمع والوحدة .

وفى العراق تحطمت نظرية الأشورية ، وعجز الاستعمار عن أن يفرق بين العرب والأكراد على أساس دعواه الباطلة بأن العراق ليس شعبا واحدا .

وبالرغم من أن فرنسا عزلت تونس والجزائر ومراكش عن العالم العربى عزلا تاما فان عددا كبيرا من رجاله اقتحموا الأسوار الى مصر وسوريا والحجاز ورفعوا صوتهم وفضحوا أساليب الاستعمار الفرنسى وانضمت جموع من المثقفين الى معاهد الشرق العربى .

وكان عبد العزيز الثعالبى صوتا حيا مدويا ، فهو أول من دعا عام ١٩٣٤ الى قيام ثقافة عربية خالصة مستقلة عن الفكر الغربى على أساس مقوماتنا وتراثنا ولا يمنع ذلك من أن نقتبس ما نراه صالحا من الثقافة الغربية .

* * *

وجاء الى الأزهر كثيرون من ليبيا والمغرب كله ، وتنادت البلاد العربية فى كل مكان عند أى حدث أو ازمة فى أحداها ، ووصل صوت الرصافى الى تونس وصوت المنفلوطى الى ليبيا وصوت المغرب الى فلسطين .

وقام عبد الحميد بن باديس واخوانه بأضخم عمل فى تاريخ الفكر العربى المعاصر فى المغرب فقد أنشأ ثلاثمائة مدرسة فى مساجد الجزائر فى مدنها وقراها ودساكرها تعلم القرآن واللغة العربية وتقاوم خطة فرنسا فى القضاء على العربية والاسلام .
وهو داعية من دعاة الوحدة العربية ومن ذلك قوله « ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا وهى منا على بال فيها تعمل لوطننا الخاص » .

وانهارت الحوائط العالية للوطنية الضيقة التى كان يحميها دعاة التغريب فى العالم العربى وكان ، الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة من كشف خطة التغريب قال (السياسة الأسبوعية — ١٤ اكتوبر ١٩٣٢) لما عاد الشبان الذين سافروا الى اوربا صدمتهم ظاهرتان عجيبتان اثارتا دهشتهم لتناقضهما مع اصول الحضارة العربية تناقضا بينا (الأول) هذه الحرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الأوربى لحرية العقل (ثانيا) انتشار المبشرين الغربيين فى كل مكان من المدن الكبيرة والصغيرة بل فى القرى يدعون الى المسيحية .

وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون الى الحضارة الأوربية مستندة الى أصلها الصحيح : أى حرية البحث ونزاهة العلم ، ولكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن اقل اثارة لدهشتهم فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة ، وعندما كان يؤتى بلاد الغرب من الربح ما يمده بأسلوب الرخاء والترف ، فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدر الناظر لآثار الغرب فى الشرق ، ولم يقدم الغرب الى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوآتها هذه بل وقف حائلا دون انتشار العلم الصحيح ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وايلاما ، تلك أن الغرب الذى تزعم دولة أنه تحرر من قيود التعصب الدينى ما زال يذكر الحروب الصليبية التى نشبت خلال قرون بين المسيحية والاسلام ، وأن كلمة اللورد اللنبى يوم استولى على القدس وقوله أن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يجول بخاطر الدول الأوربية جميعا » ا هـ .

وهكذا انكشفت خدعة الغرب لخبرة ربائبه وتلاميذه وخدام دعوته التغريبية عندما انكشفت أكاذيب الاستعمار فى دعوته الى تمدين الشعوب وكذب شعاراته : الحرية والاخاء والمساواه ، ظهر أنه كان وراء كل فتنة وثورة ومؤامرة ، وأنه حرص القبائل والأجراء وأثار الخلافات القديمة بين المذاهب والأديان وشجع الخلافات الطائفة والعنصرية وخلق الأحزاب لافساح جهة الصراع والتجزئة وادعى أنه يحمى الأقليات وسيطر على الصحافة ووجهها لغاياته وأفسد حركة تحرير المرأة وحولها عن طريقها الحقيقى .

ولكن كل هذه المؤامرة الضخمة التى قصد بها الى تعزيز « التجزئة » وتأكيد الحدود المصطنعة ، فسدت ، عندئذ اضطر الاستعمار الى مجاراه العرب فى دعواة الى القومية العربية والوحدة آملا أن يستغلها وأن يسيطر بها على الأمة العربية وأن يدفع أعوانه وعملائه لقيادة هذه الحركة ، وأول ما يهدف اليه أن ينفث من الصدور ايمانها الذى يدفع الى الحركة ليتحول الى بخار يذهب فى الهواء ، وهو ما حدث فى نهاية هذه المرحلة وخلال الحرب العالمية الثانية .

* * *

— ٢ —
الـــدين

لم يتعرض فرع من فروع الفكر العربى للغزو الثقافى كما تعرض « الدين » ، ذلك لأن الدين كان ولا يزال فى الوطن العربى وفى الشرق دعامة هامة من دعامات الثقافة ومقوما من مقومات الأمة العربية . وعنصرا حيا ايجابيا غير منفصل من عناصر السياسة والاجتماع والاقتصاد .

ولقد كان الاستعمار يعرف خطر « الدين » وأثره فى الحياة العربية ومدى أثره فى الايمان بالحرية ومقاومة الغاصب وانماء القوة وحراسة الثغور . ولما كانت هذه العوامل من اخطر الأخطار على بقاء الاستعمار فقد كانت خطته فى القضاء على مصدر هذه القوة : وهو الدين واللغة والتاريخ . وكان الدين أهمها .

وقد أعد خطته فى مقاومة الدين على نحو دقيق خفى يسرى فى معالم الفكر والحياة سريانا بطيئا حاسما فى المفاهيم المختلفة . وقد امتدت هذه الخطة فشملت الثقافة والصحافة والتعليم والترجمة والبعثات الأجنبية ومفاهيم الاجتماع وتحرير المرأة ، ومن أجل هذا انطلقت دعوات الاستشراق والتبشير وظهرت مجموعات من دعاة التغريب ولما كان دين الغالبية فى الوطن العربى هو الاسلام فقد كانت الحملة كلها قد ركزت عليه باعتباره مصدر الثقافة والفكر والتراث المشترك .

ولقد استهدف الغزو الثقافى الى محاربة الاسلام القضاء على روحه القوية فى مجال الحياة والفكر حتى تنطوى قوته وفعاليته فى مجال مقاومة الاستعمار .

كان التعصب الدينى واضحا فى هذه الحرب ، التى صدرت عن حقد بالغ وخصومة عنيفة . ولم تصطنع فى أى جانب من جوانبها « المنهج العلمى » الذى ابتدعه الغرب وأقام على أساسه أبحاثه ونتائجه .

* * *

وكان أبرز الأخطاء التى طبقها الغرب فى الحديث عن « الاسلام » انه لم يحاول أن يفرق بين المسيحية والاسلام فى مفاهيمها ومقوماتها .

ولذلك حمل فى الحرب على الاسلام نفس المعاول التى حملها فى محاربة المسيحية ابان عصر النهضة بغية اقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة وظهرت أخطاء .. وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة وظهرت اخطاء رجال الدين فى تسلطهم واستبدادهم وجمودهم ووقوفهم فى وجهة الحرية والنهضة وغلوهم فى التعصب وبعدهم عن التطور .

ولقد كان الاسلام مختلفا أشد الاختلاف عن المسيحية فى هذه الناحية ، فان الاسلام لم يكن دينا فحسب ولكنه دين ونظام اجتماعى واقتصادى وسياسى كامل ، ولقد كان الاسلام متطورا دائما وقادرا على الاستجابة للحضارة وللزمن وللبيئات المختلفة ، وقد دخل هذه التجربة من قبل ولم يكن للاسلام كهنوت له صلة السيطرة والتحكم فى الناس والوساطة بينهم وبين الخالق

ولذلك فان المقارنة بين المسيحية والاسلام من هذه الناحية باطلة ، كما أن محاولة اخضاع الاسلام كدين ونظام لما خضعت له المسيحية — التي هى دين فحسب — ليس من الحق فى شىء .

ولكن التعصب وشهوة الحقد الأعمى والرغبة فى القضاء على روح الدين وتنحية الاسلام عن نفوذه فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حالت بين دعاة التغريب والغزو الثقافى وبين كشف هذه الحقائق . ولم يستطع اتباع المستشرقين والمبشرين من مفكرينا التعرف الى هذه الفوارق لأنهم اتصلوا بالفكر الغربى قبل أن يستكملوا مفاهيمهم فى الفكر الاسلامى ومقوماته .

واذا كان للاسلام فى هذه الفترة التى بدأ فيها الغزو الثقافى مغمز فانما كان فى تطبيقه لا فى مقوماته وأصوله ، هذه المقومات والأصول التى ظلت طوال القرون ضياءا هاديا وقوة حيه ، فان انصراف المسلمين عن مفاهيم الاسلام وضعف الحكومات والتخلف فى ميادين الحرب والسياسة ، والانصراف عن القوة والمقاومة ، قد أحل عصرا من الضعف والركود والتواكل والفرقعة وفرض سلطان الحكام المستبدين والعلماء الجامدين الذين أغلقوا باب الاجتهاد ووقفوا عند التقليد مما خلق غشاءا دقيقا من الأوهام والبدع والخرافات التى حاولت أن تحجب جوهر الاسلام ونقاءه ، وتحجزه وراء طبقة كثيفة من هذه الزيوف .

غير انه لم يخل من مصلح ينبرى ليكشف هذه الزيوف ويرفع هذا الغشاء ويدعو الى الاسلام المصفى ، ويحاول أن يعود بالناس الى بساطة الاسلام الأول ويسره وحقيقته الكامنة المختفية .

وقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى هى نقطة الانطلاق فى تحرير الاسلام من زيوف الجمود الذى انتهى الى الضعف والفساد بينما بدأت أوربا تستيقظ وتنقل آثار العرب وتترجمها وتكون بدأت أوربا تستيقظ وتنقل آثار العرب وتترجمها وتكون حضارتها وثقافتها الجديدة وتتنبه الى دورها فى القضاء على الاسلام والسيطرة على الشرق فى محاولة للانتقام من هزيمة الحروب الصليبية وخشية من اتساع نطاق الاسلام وتطويقه لأوربا عن طريق تركيا العثمانية التى وصلت الى أسوار « فيينا » وبعد أن توقفت من الجانب الآخر عن طريق الأندلس عند مصب نهر اللوار .

ولقد كانت خطة الغرب فى السيطرة على العالم العربى والاسلامى تهدف أساسا فى القضاء على الاسلام :

١ — كقوة حرة قوية لا تقبل الذل والاحتلال .
٢ — القضاء على جوهر الدين فى مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية .
٣ — اقصاء الاسلام عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد اتجهت حملات الغزو الثقافى الى وجهتين :

١ — الدين بصفة عامة .
٢ — الاسلام بصفة خاصة .

ولما كانت الحملات موجهة من الفكر الغربى المسيحى فان كل الحملات التى وجهت الى « الدين » كانت مقصودا بها الاسلام أساسا .

وقد تمثلت هذه الحملات على الدين فى أنه ظاهرة : من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وانما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وأن الديانات قيود وأغلال التزمها الناس بدعوى أنها منزلة خالدة ، وأن وضع الدين فى جانب العقل يقضى بهدمه ، وأن الدين لا يخلق الانسان . ولكن الانسان هو الذى صاغ الدين ، وليس الدين الا صدى الألم الذى يتردد فى نفوس المظلومين وأن الدين حادث « عمرانى » له قدره (التاريخى) وليس له صلة بالاقتصاد .

وقد واجه الاسلام حملات غزو ذات جوانب متعددة منها :

١ — الحملة على مفاهيم الاسلام وكتابه ورسوله وتاريخه .

٢ — الغزو عن طريق بعث اديان جديدة كالبابية والبهائية .

٣ — الغزو عن طريق تعميق تيار الالحاد فى العالم الاسلامى .

١ — وكانت الحمــلة التى قادها المســتشرقون والمبشرون منذ ١٨٣٠ قد حاولت أن توهم بنهاية الاسلام، ففى اوائل القــرن العشرين كان هنــــاك راى يرى أن الاســـــلام «لم يبق من عمره الا قرنان » وهى نبوءة الســـياسى المؤرخ « برايس » ، الذى قال ان احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته .

وأن الاســـلام سيذهب بذهاب الدولة العثمـــانية (الدكتور برون / ك / العرب والافريقيين) .

أو ان الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفســـه ، أما اذا احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة (الســـتشرق لنز بعد سياحته فى تومبكتو) .

وفى الحـــالات الثلاث التى تنبأ بها الســتشرقون والمبشرون الغربيون لم ينته الاسلام وكذبت نبوءاتهم ، ولم يذهب الاسلام نتيجة لذهاب الدولة العثمانية ولا يعد احتكاكه بالعلم والمدنية ، ولم يصدق ايضا ما ادعاه غيرهم من أن انحطاط المســلمين يرجع الى اســـباب متصـــلة بالاسلام نفســـه لعدم موافقته لروح التمدن — كما ذكر المســتشرق بيشون الالمـــانى ١٨٨١ فى كلامه عن تأثير الاسلام فى حياة أصحابه — كما حاول كتاب الغرب دائما تصـــوير المسلمين بصورة العـــدد القليل وذلك بايراد احصائيات مضللة :

ومع ذلك فقد عجزوا عن اخفـــاء الحقائق . فقد اشار المستشرق (مرجليوث) فى بحث له عن مســـتقبل الاسلام (الهلال مجلد ١٦ — ١٩٠٦) ان الاسلام غالب فى افريقيا وشائع فى آسيا ومعروف فى أوربا وأمريكا . ولم يظهر ما يدل على توقف انتشاره وخصوصا فى القرن الماضى لأنه نهض نهضة جديدة .

واورد قول المبشر « شاتليه » من أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يرتقى الآن وينتشر فى الهند والصين . أما الأديان الأخرى فانها آخذة فى الانحلال كما أورد ماذكر احد كبار المستشرقين من ان الاسلام سيعم الهند كلهـــا وقال أن جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها . وأن الاسلام قد انتشر مؤخرا فى بلاد الصين حتى أوجس أهل أوربا من انتشاره مخافة ان يصير ديانة الملكة فيحمل أهلهـــا على الممالك النصرانية فى أوربا مثل الحملات الصليبية فى العصـــور المظلمة . وأشار الى أن الاسلام ينتشر فى الهند والصين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار « مرجليوث » الى أن الاســـلام انتشر فى افريقيا بالحسنى بعد أن انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن أن يتوقف بعد ذهاب الحركة المهدية ، والحقيقة انه لا يزال آخذا فى الانتشار .

وكذب « مرجليوث » ما رواه زملائه المستشرقين من أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام وقال : انى ارى المسلمين تحت سلطة المسيحيين أرقى من المســيحيين عقلا وادبا ، واســـتشهد بقول المستشرق « روبل » الذى ذكر بعـــد سياحة للحبشـــة ١٨٣٨ أن الأحباش المسلمين أقدر على العمل وأسمى مداركا واكثر تهذيبا وعلما من الأحباش المسيحيين .

واشار « مرجليوث » الى ما ذكره الرحالة ستيفن هيدن بعد زيارته لآسيا من أن أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية وأن عشرات من زملائه عجزوا مثله وأن دعاة النصرانية قد

ينجحون فى البلاد التى لم يكن المسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام » ا . هـ .

* * *

— ٣ —

واذا كان مرجليوث قد حاول انصاف الاسلام ، فان الأب لامنس اليسوعى (المشرق : م ٢٨ (١٩٣٠) ص ٧٣٨) قد ساقه التعصب الى كثير من المغالطات .

وان كان قد ذكر أن انتهاء (الخلافة الاسلامية) بعد مرور ست سنوات لم يحدث شيئا من العقبات داخل الاسلام وخارجه وذلك فى قوله :

« وهكذا بعد أن مضى ست سنوات على القرار الكمالى القاضى على الخلافة فى آزار ١٩٢٤ نرى الاسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا وقد ركز (لامنس) هجومه على الاسلام فى » :

* تعسر اتفاق السنيين لأن بينهم كثير من المحافظين التقليديين الذين يحلمون باعادة الخلافة القديمة .

* أن اليقظة القومية قد أحدثت توسعا فى الفوارق بين المسلمين .

* أن الأتراك قد انصرفوا عن الاسلام كلية . وعن أبجدية العربية وكذلك الفرس واتجه المصريون الى الفرعونية .

* أن الأغلبية السنية فى العالم الاسلامى تنطوى على فرق من الأتراك العلمانيين ومن المسلمين الشيوعيين المقيمين فى الجمهوريات السوفييتية . والعصريين المتبشرين فى مصر والهند .

* الخلاف بين السنة والشيعة .

والواقع أن تقرير (لامنس) للاسلام على هذا النحو انما يقصد فيه تصوير الاسلام بصورة التفسخ والتجزؤ وانقضاء وحدته وقوته ، وهو غير صحيح فان الخلاف بين المذاهب الاسلامية لم يكن فى الواقع الا خلافا أملته اهواء السياسة ثم حاول الاستعمار اثارته من جديد لاستغلاله فى تمزيق جبهة الاسلام الموحدة .

وأن المسلمون قد تنبهوا الى مؤامرات الاستعمار . وتلاقوا على مقاومته ، وعلى الشك فى مقومات الفكر الغربى القائمة على التعصب والهوى ، وآمنوا بضرورة التجمع والاتحاد فى سبيل دفع عدوانه ، وقد حقق الفكر الاسلامى تطورا واضحا فى هذا السبيل حطم كل ما وهمه الأب لامنس ومن وراءه .

وأن الفريق الذى أطلق على (لامنس) اسم العصريين قد تنبه مبكرا لخدعة الغرب ضد الاسلام ومدى الفارق البعيد بين شعارات الحضارة الغربية البراقة وواقعها الدامى المختفى تحت كلمات الحرية والاخاء والمساواة .

وقد صور (لامنس) نتائج مؤامرة الغزو الثقافى الموجهة ضد الاسلام حتى عام (١٩٣٠) وما حققته فى ميادين التعليم والأزهر وترجمة القرآن وتحرير المرأة فقال :

١ — أن التعليم القرآنى هو فى تأخر مستمر ومطرد حتى فى البلاد الاسلامية المستقلة . وأن أبرز مظهر لذلك هو تطور التعليم الرسمى ولا سيما فى المعاهد العالية والثانوية « فهو يتحرر شيئا فشيئا من تأثير الدين حتى يصبح لا دينيا محضا كما هى الحال فى تركيا » .

٢ — أن دعاة التطور العصرى قد مدوا أصابعهم فى داخل الأزهر فاغتنموا حاجته الى الاصلاح وتدخلوا فى ادارة الدروس وتعديل البرامج التى حررت مرات حتى غدا تأثير ذلك العقل العلمى على شفير هار ففقد فى عشرين سنة ثلاثة أخماس طلابه وهكذا القول فى مدرسة الزيتونة فى تونس . فاذا أضفنا الى هذا ، الروح العصرى السائد فى الجامعة المصرية الجديدة والمستمد مبادئه من النقد الأدبى فهمنا أنه أبعد من أن تثبت الشبيبه الاسلامية فى مبادئها الدينية وعقائدها وأدركنا الصدمة القومية التى يعانيها اليوم الاسلام التقليدى .

٣ — محاولة تطبيق القرآن على ذوق العصر والأفكار العصرية ، والميول الظاهرة فى العالم الاسلامى للتخلص من الحرمات القرانية الشديدة فيما يختص بفائدة المال وآراء الأئمة الأقدمين فى الادانة والربا .

٤ — فى العالم الاسلامى اليوم حركة نسوية ترمى الى نزع الحجاب واعتاق النساء وتحتج على استئثار الرجل وحده بحق الطلاق وعلى انتقاص حق المرأة بالارشاد والشهادة . وقد حدثت فى بلاد العرب وسوريا

والعراق والجزائر ولا سيما مراكش . وقد عقد مؤتمر للمرأة في دمشق واحتججن كلهن على الحجاب احتجاجات شديدة ولكن لم تكن منهن من تجرأت فرفعت زاوية من خمارها » .

ولا شك أن ما أورد الأب لامنس في تقريره بعيد في كثير من تفاصيله عن الحقائق الواقعة ، والواقع أن الاسلام قد استطاع أن يلائم بينه وبين الحضارة في مختلف فروع الحياة .

ودعا الأب « لامنس » المسلمين أن ينهجوا نهج تركيا في السير مع التيار العصري واتخاذ المؤسسات الغربية بكاملها كما فعلت « بقصد محاربة أوربا بسلاحها نفسه » وأشار الى أن الاسلام لا يمكنه الاستمرار في عزلته والا كان عرضه للصدمة فالسقوط .

والواقع أن الاسلام لم يعتزل الحياة مطلقا وانه كان قادرا دائما على الالتقاء بالحضارة والتجاوب معها . وانه حاول دائما أن يلائم بين عقائده وقيمه وبين الحضارة الغربية وانه رفض أن يقبل منها ما يتعارض مع هذه القيم والعقائد .

وقد أعرب الأب لامنس بأن عدد المسلمين في ازدياد متصل وأنهم زادوا ٢٠ مليونا في أربع سنوات (١٩٣٠) وأن سكان الجزائر زادوا في مائة سنة خمس أضعاف منذ كانوا مليونا فأصبحوا خمسة ملايين وعزى زيادة عدد المسلمين من أنهم يقومون بنشر الدعاية لدينهم فيستميلون بعض جيرانهم من الزنوج في أفريقية وأبناء اللفوف السفلى في الهند . وأنهم في سبيل نشر الدعاية الاسلامية أسسوا مدارس خاصة يربى فيها المرسلون ويدرسون اللاهوت وطرق التمارين الجدلية والمناظرات الدينية وأن أشد هذه المدارس نشاطا مدرسة الشيعيين في لكنهو بالهند ومدارس الأحمدية في قاديان ولاهور بالهند ومدرسة دار الدعوة في مصر .

* * *

(٣)

أما السر ريتشارد وود قنصل في انجلترا في تونس فقد رفع عام ١٨٧٨ تقريرا الى وزير خارجية بريطانيا بعد دراسة شاملة للاسلام والمسلمين خلال فترة عمله لدولته في دمشق وتونس رد فيه على جميع ما وجه الغرب من اتهامات للاسلام وتصدى لدفع الاتهامات الخاصة : بمعاملة أهل الذمة من المسيحيين ورفضهم للأخذ بأسباب الحضارة .

* * *

(معاملة أهل الذمة)

قال : من أوهام الناس أن الاسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يجيز انتشار المعارف والتحلي بالعلوم .

ورد هذه الأوهام الباطلة ، وأكد أن الاسلام يرى أن الأخذ بأسباب التقدم لا ينافي أصول الشرع ، وأورد الأدلة على أن الاسلام يرى أن لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم « اذا ثبت أن غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وأنهم مثلهم في ايثار مصلحة الوطن والخير العام ، وأن الاسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية ولا يمنع استخدام النصارى واليهود واستند في ذلك على أقوال الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) وأشار الى أن المتأخرين من سلاطين الاسلام استأثروا بالسلطة واستبدوا بالتصرف فخرجوا عن منهج الشرع الاسلامي حتى توهم الأغبار أن سبب هذا الخلل هو ضيق نطاق الشرع الاسلامي وأنه لايضمن لغير المسلمين حقوقهم » .

وأكد أن الواقع يخالف هذا ، لأن الاسلام يحتم على الملك وسائر الحكام أن يفعلوا كل ما يدعو الى حسن توزيع العدل والانصاف في الحكم والتجرد من شوائب الأغراض والحظوظ الشخصية .

* * *

(الاسلام والمدنية)

٢ — وعرض ريتشارد وود للزعم الغربي الذي يزعمه مؤلفو الافرنج من أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء في معاريج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون انها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون .. وقال أن هذا وهم نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن . ويكفي برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو وابقراط واقليدس وبطليموس .

وقال : ان أكبر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن فى أوربا بأن الاسلام دين القوة والسيف وهذا الظن مخالف للواقع ولطبيعة الاسلام ولما جاء فى القرآن.

١ — وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

٢ — لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وأشار الى أن الباحث المدقق فى أسباب الفتن التى سفكت منها الدماء فى الشرق بعلم أن الباعث الوحيد فى حدوثها هو اصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لابقاء نار الثورة بين ذوى الأحقاد . وقال ومن هذا القبيل واقعة الدروز الموارنة وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين أن الاعتداء انما يبتدىء من جانب النصارى (كان ريتشارد دور صاحب التقرير قنصلا لدولته فى دمشق عام ١٨٦٠ ابان الفتنة المشهورة) .

وقال انه لا يجوز الظن بأن المسلمين ينفرون من مجلس الشورى ويرونه تقليدا أوربيا .

* * *

— ٤ —

واعترف (جورج سارتون) الأستاذ بجامعة هارفارد بأن الإسلام من أصح النظم الدينية وأجملها على حد تعبيره « وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الاطلاق ، ولكن المسلمين اليوم كثيروا البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام » وردد عبارة الشيخ محمد عبده « الاسلام محجوب بالمسلمين » وقال : اننا اذا نظرنا الى الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم تر تلك البادىء جلية واضحة ، وأكد أن المسلمين يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والتعليمية كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الى اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث على الأخذ بها .

وأشار (سارتون) الى أن الهزائم التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل هى على العكس زادت من ثقتهم بأنفسهم .

ويتنبأ بأن المسلمين سيعودون الى قيادة العالم كرة أخرى « ذلك أن شعوب الشرق الاسلامى وقد قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال ألفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا فليس هناك ما يمنع تلك الشعوب من ان تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد .

* * *

— ٥ —

وعرض المستشرق (هـ . ا . جب) لموقف الاسلام من الحضارة والغزو الثقافى ودعوة التغريب (الهلال — م ٤٧ ص ١٨٧٣) فأكد أنه رغم ما تسرب الى العالم الاسلامى من اتجاهات أوربا ونزعاتها وما أصاب جماعاته من الانحلال السياسى وما بينهما من التفاوت الفكرى ما زالت هناك رابطة وثيقة . نشأت من العقيدة والثقافة الدينية المشتركة وهى تؤلف بين المسلمين فى الشعور والرأى والمصلحة .

وأشار جب الى أن المسلمين ما زالوا متمسكين بدينهم متشبثين بعقيدتهم مؤمنين أثبت الايمان بأن الاسلام خير الأديان . وأن الاسلام لازال حتى يومنا هذا (١٩٥٠) عقيدة دينية راسخة وقاعدة اجتماعية ثابتة ونظاما خلقيا وطيدا .

وعرض جب لتجربة الاسلام مع الحضارة الحديثة فقال : ان الاسلام استطاع أن يوفق بين الحضارة ونظمه وبذلك مر بأزمة الالحاد . وقال : ان الوحدة الاسلامية حقيقة قائمة تزداد على الأيام قوة وجلاء ودلل على ذلك بأنه ما يكاد يغشى ربع من ربوع الاسلام أى حادثة خطيرة حتى تذيعها الصحف فى أرجاء آسيا وأفريقيا بأسلوب مثير عنيف فلا تلبث أن تتجاوب وتتلاقى

وقال : أن مقتل الشهيد عمر المختار كان له دوى وان أرجاء العالم الاسلامى من مراكش الى جاوه قد اضطربت له (كأنما قد مسها تيار كهربائى كاد يصعقها) وأشار جيب الى دور الاسلام اليوم بالنسبة لمادية الحضارة وانهيارها المعنوى فقال : أنه ما يزال للاسلام رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء ، فهو يقف وسط الشرق والغرب . وقد أثبت أكثر مما أثبت أى نظام سواء مقدرته على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة «واذا لم يكن بد من وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الاسلام » ولم يفت جب ان يشير الى ان الاسلام من حيث هو « عقيدة دينية » لم يفقد الا قليلا بتأثير الغزو الغربى — ولكنه تنحى عن

عرشه من حيث هو قاعدة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها ، وذلك بعد أن قامت الى جانبه قوى تحكم فى بعض الأحيان بما يناقض تعاليم الاسلام وأن الاسلام كله الى عهد قريب هو كل شيء فى حياة المسلم . وكانت حياته الاجتماعية واتجاهاته الفكرية مستمدة من الدين ومقترنة بالاسلام وأشار الى ما بذله محمد عبده وتلاميذه من الجهود التى عملت على التوفيق بين تعاليم الاسلام نظمه دين مطالب الحياة الحديثة وأساليبها » ١ . هـ .

* * *

— ٧ —

وقد وجد الاسلام من كتاب الغرب بعض المنصفين الى جانب الكثرة الغالبة منخصومة المتعصبين من أمثال : هنرى دى كاسترى وسيديو وجوستاف لوبون واسحق بطلر وواشنطن ارفنج ولو ثروب استوارد وتوماس كارليل وولز .

وفى مثل قول اللورد هدلى : الذى يرى أنه لو ندبت لجنة من الانجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

أو قول الدكتور كرنسيتان سنوك هير جرونجيه (البلاغ الأسبوعى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩) بأن الاسلام لا يقاوم النصرانية ، لأن الاسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث . ولن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه ابنائه الذين كسبهم من مئات الأجيال ، وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه وهم يمثلونه فى سائر بقاع الأرض .

وهو يؤكد ان المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربيين ، ويقول أنه فى الجامعات الكبرى نجد الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقولهم لا يزال اسلاميا . وقال انه كان يعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعته بمجرد الاطلاع على مبحثه الذى كتبه . اذ فى المسلمين ميلا قويا الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه على الحاجات المدنية .

ويشير المستشرق لوسين بوفا (الزهراء : شعبان ١٣٤٣ ص ٤٩٦ م ١) الى أن الاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق . وأن التقدم الذى نشاهده فى الممالك الاسلامية منذ قرن دليل على أن الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب وأن الاسلام سيظل موجودا دائما .

وأشار الى انحطاط العالم الاسلامى فقال : ليس الذنب فى اكثرها على المسلمين وانما هو نتيجة الحكم المطلق ، وجهل الحكومات الذى ادى الى انتشار الجهل ، واضطرار دول الاسلام الى خوض حروب كثيرة . والعجز عن توزيع العدل وسوء خطة الغربيين فى معاملة الشرقيين

* * *

الدين فى نظر العلم

وركز دعاة الغزو الثقافى والتغريب حملاتهم على جوانب متعددة فى الدين عامة والاسلام بصفة خاصة تنصب على أصول الاسلام . وقد وجه «هانوتو» الحملة على القدر والتوحيد ، وهاجم مستر سكوت الاسلام وادعى انه دين حرب دائم مع غير المؤمنين به — وقد كان كتابه عن الاسلام الملىء بالطاعن مما يدرس فى مدارس مصر (١٩١٥ وما بعدها) .

وركز « ارنست رينان » هجومه على التناقض بين الدين والعلم محاولا اثبات أنهما عدوان لدودان . وقد حاول علماء « المادية » فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أن يؤكدوا أن عهد « الدين » قد انقضى . وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامية . وقد كذبت الأحداث ادعائهم ، فان العلماء لم يلبثوا أن توصلوا الى وجود عالم روحانى وراء هذا العالم لا يمكن انكاره ، وأعلن ذلك فى المجتمع العلمى لما وراء علم النفس ١٩٢٠ ومؤتمر الأساقفة الانجليكان فى لا مبيث وانشأ كرسى لهذا العلم فى كل من جامعتى كمبروج واكسفورد .

وكف العلم عن غروره فى نهاية القرن التاسع عشر واعترف بأن لابد للمعرفة من وسائل أخرى غير وسائل الحس ووسائل التفكير وأنه لابد من « البصيرة » .

واستأنف العلماء مراجعة تصوف الهند واليونانيين والعبرانيين والسيحيين المليين للبحث عن أساس روحى للحضارة . وأعلن « أوجست كونت » الديانة الوضيعة وبذلك تحطمت نظرية (نهاية الدين) التى أعلنها دعاة المادية وكانوا يعتقدون أن العلم الحديث سيحل لهم كل شيء ويكشف لهم عن كل شيء . .

وجاء علمـاء يقولون ان مذهب « دارون » فرض وانه ليس حقيقة غير قابلة للنقص . وان الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية قد انهار . وان العـلم ليس كل شىء فى الوجود ، وان الدين وسيلة للسمو بالانسان الى مرتبة ارفع (الدكتور محمد خليل عبد الخالق — الهلال م ٣٩ ص ١١٣٧) واصبح العلم يسلم بوجود ما ليس قائما امام الحس ، وبدأ عصر اعتقاد ويقين بالقرى الغيبية واتسع التحقيق العلمى للمجهول واخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر ، وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وانمـا هو المظهر الوحيـد للتعبير عن الحقيقة (دكتور على توفيق شوشه (نفس المصدر) .

* * *

حمـــلة الإلحـــاد

ركز الاستعمار حملة ضخمة من الغزو الثقافي على « الدين » في الوطن العربي . هدفها مهاجمة جميع الأديان وزعزعة العقائد وخلق تيار عميق المجرى من « الالحاد » ، وكانت اوربا قد واجهت معركة ضخمة بين الالحاد والدين في القرن السادس عشر حين وقف رجال الكنيسة أمام النهضة محاولين مقاومة كشوفها واتهام اعلامها بالكفر والالحاد ، وقد نشأ الالحاد نتيجة لهذا الصراع الذي استعمل فيه رجال الدين سلطانهم فأسرفوا في البطش بخصومهم عن طريق محاكم التفتيش ثم انتصر العلم واعلن رفضه للدين عامة ومهاجمته ، وساعده على ذلك ظهور المذاهب المادية المنكرة لوجود الخالق والأديان والكتب المقدسة والأنبياء .

وقد حرصت علوم الطبيعة والفلسفة والكيمياء والجغرافيا والفلسفة أن تنقض الدين وتناقضه في كل قضاياها .

وبلغ الالحاد غايته في منتصف القرن التاسع عشر ثم عاد يتحدر مرة أخرى بعد أن اثبتت الكشوف وجود الروح وعادت الفطرة الانسانية الى خطها الأساسي ، وقد نقل الاستعمار ميدان المعركة الى العالم الاسلامي في حملة الغزو الثقافي ومن المسيحية الى الاسلام مع الفارق البعيد بينهما .

فالاسلام لم يقاوم الحضارة ولم يعارضها كما عارضها الاكليروس بل التقى بها دائما ، ولم يتعارض الاسلام مع العلم كما تعارضت المسيحية .

ولذلك فان حملة الالحاد قد حاولت أن تتخذ حججا اخرى لتعميق مجرى الالحاد في العالم الاسلامي .

وكانت حملة الالحاد التي حمل لواءها دعاة التغريب في بلادنا هو أن الذين يقيم حياتنا على اساس من التواكل وأن المتدين يبدأ بحثه من الوجوه المتجلية حوله ، فينتهي للخالق ومنه للطبيعة بينما الغربي يبدأ من المعالم المتطور لينتهي بعالم الغيب ، هذا التباين في منزع التفكير ذهب بالمتدينين الى الأعتقاد بأن العالم حادث ، أن الخالق مطلق التصرف في الكون منفصل عنه ومدبر له . وانه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وما سيكون .

وان الفرد المتدين في الشرق خاضع لارادة عليا هي ارادة الخالق الحره ، يقضي فيكون ويقدر فيحدث . أما الغربي الملحد فانه يتبع في تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها .

وان المتدين يستسلم للغيب استسلاما محضا ، بينما في الغرب يناضل الملحد قوى الغيب (اسماعيل ادهم — (الرسالة)سبتمبر ١٩٣٨) وحمل دعاة الالحاد لواء الدعوة الى القول بأن الاسلام هو سبب تأخر الشرق ، وان الدين يضع القيود ضد الحريات في الأدب والأخلاق ولذلك يتأخر الفن والأدب في ظل الدين وأباح دعاة الالحاد نقد القرآن والنظر في آياته وتبين ما فيها من فروق وصنفوها بالقوة والضعف .

الأديان الجديدة : البابية والبهائية والقاديانية

وقد حارب الغرب الاسلام بالدعوة الى أديان جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ، ولا شك أن ظهور الدعوات الجديدة التي تحمل أسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصحف والمجلات بالدعوة لها واذاعة مبادئها والحديث عنها انما كان عملا واضح الدلالة والأثر في حرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه وقد اكد ذلك الدكتور تشارلس ادمس حين قال أن « البابية » كانت وسيلة للانتقال من الاسلام للنصرانية .

وقد حرص دعاة التغريب على حمل لواء الدعوة الى هذه الأديان وداومت الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والعصور والأهرام والمقطم نشر ابحاث مطولة عن البابية والبهائية .

وقد كان موت زعيم البهائية : عباس عبد البهاء (نوفمبر ١٩٢١) مناسبة لحملة طويلة عريضة ، فقد

اشارت الصحف ان كان لنعيه وقع عظيم فى نفوس البهائيين فى أقطار المعمورة ، وقد نشرت الهلال التى أوردت الخبر تفاصيل كاملة عن مبادىء المذهب البهائى واهمها ان اساس الأديان واحد وان الطقوس التى دخلت عليها أدت الى التمزق والانقسام .

وقالت ان البهاء رمى الى تاسيس دين عملى نظر فيه الى تقويم الأخلاق ووجه دعوته الى العالم كله وليس الى الشيعة فقط ، فكتب الى ملوك الأرض وقالت ان البهائية فرع من البابية التى ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى عن طريق الميرزا على محمد الباب (المتوفى عام ١٨٥٢)وأن الباب رمى الى اصلاح الدين الاسلامى .

وقد أشار سلامة موسى فى المجلة اجلديدة (فبراير عام ١٩٣٠ الى ان البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة . وقالت ان هذا الذين يحب ان يلقى تاييدا فى مصر حتى ينتشر بين الطبقات التى لا تجد من الأديان السائدة او من العلوم والآداب ما يقنع نفوسها وقال : أن فى انتشار البهائية كبت للتعصب ودعوة الى اخاء البشر ، وأن تنزل على حاجة العصر الحاضر الذى يكره فيه تعدد الأديان وما تجلت فى مخالفة بعضها للبعض من تجزبات وتعصب .

ونشر (عمر عنايت) مجلة فى العصور ابحاثا متصلة عن البابية والبهائية وتعاليم البهائية وبشر عبد الجليل سعد الناس بالدين الجديد فى مجلة العصور (نوفمبر ١٩٢٩) وقال « قل هو نبأ عظيم » وطالب الناس بالا يتعجلوا الحكم عليه فانه سيتم به اتحاد الشرق والغرب والأديان والأجناس وبه تزول الحروب .

وترجمت العصور كتاب المبشر ج. ا. ا. سلمنت عن « بهاء الله والعصر الحديث » ونشر عباس العقاد فى الهلال بحثا بعنوان ساعة مع عبد البهاء (يناير ١٩٣٠ ونشرت الأهرام ٥/٥ و ١١/٥/١٩٣١ بحثا مطولا عن هيكل البهائية فى نيويورك وانتشار هذه الديانة التى « تدعو الى توحيد الأديان واللغة وترك العصبيات الدينية والجنسية ونبذ الجروب) .

٣ – واهتمت دوائر الغزو الثقافى والصحف بالدعوة القاديانية الأحمدية (الأهرام ٢٤/٩/١٩٣٣) التى قام بها (غلام احمد القاديانى) مسيح الهند المولود بقاديان بالبنجاب والذى ادعى انه المهدى المنتظر الذى يؤمن به المسلمون وينتظرونه وانتلخص عقيدتهم فى موت المسيح ودفنه وعدم انقطاع الوحى والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ فى القرآن .

وقد هاجمهم رشيد رضا (الأهرام ٢٧/٩/١٩٣٣) وقال ان دعوى غلام احمد بأنه المهدى المنتظر دعوى باطلة . وان القاديانى ادعى أولا انه المهدى ثم ادعى انه المسيح الموعود به وانه يوحى اليه وجاء بسخافات من النثر والشعر زعم أنها تنزل عليه . وحرف كثيرا من آيات القرآن والأحاديث الواردة .

واشار الى انه اعتمد فى دعواه ببقاء الوحى والنبوة غير التشريعية على أقوال بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى فى كتابه الانسان الكامل وابن عربى فى الفتوحات المكية والشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر .

* * *

حركة المقاومة ورد الفعل

ولم يقف الفكر الاسلامى مكتوفا امام هذه الحملات وانما واجهها بقوة ودحض اكاذيبها ، وكشف عن خداعها وتضليلها وتعصبها . ورفع الغشاء عن الأباطيل التى برع الغزو الثقافى فى حمل لواءها البراق ، والتى خدعت الكثير من دعاة التغريب فى العالم العربى فصدقوا شعارات الفكر الغربى وكلماته ذات الرنين وخدعهم المبشرون الذين تلقوا عليهم العلم فى جامعات أوربا ، وفرنسا بالذات ، امثال ما سنيون ودوركهام ومرسية ومرجليوث وليفى بريل وهم أساتذة منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وزكى مبارك .

والعجيب ان كتاب اوربا قد انقسموا ازاء العقائد الشرقية والاسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وامجادهم قسمين ، وأن مفكرين ذوى قدر وصوت عال قد انصفوا العرب ، ومع ذلك فان نظريات المبشرين والمستشرقين كانت دائما لها الغلب ، وكانت هى التى تتردد فى صحف مصر والوطن العربى – لا على أنها نظريات قابلة للنقض .. ولكن على انها حقائق ثابتة . ومما يذكر فى هذا الصدد أن « رينان » عندما عرض آرائه عن العرب والسامية وراجعه فيها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد امامه الا ان يعلن انه سيعاود النظر فى مراجعة على ضوء ما اورده جمال الدين فى الرد عليه ، ومع ذلك فان دعاة التغريب حملوا هذه النظريات فى الهجوم على الاسلام والعروبة واللغة العربية كحقائق تفرض فرضا .

وقد واجه الفكر العربى فى قوة وصراحة ووضوح وعلى نفس المنهج العقلى والمذهب الغربى فى البحث كل ما عرضه المبشرون والمستشرقون وخصوم العرب والاسلام ، وكشف زيفه . وابان أن هذه الحملة لم يقصد بها الا توهين عرى الاسلام وتشويه صورته وصرف أهله عنه ، وأشاروا الى صيحة « غلا دستون » رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا فى مجلس العموم البريطانى وهو يمسك بيده « القرآن » ويقول « أنه ما دام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم » .

وقد اعتبرت هذه الصيحة قاعدة للحملة التغريبية الضخمة المتصلة على الاسلام وعلى ضوئها وضع الغرب سياسته فى التعليم والثقافة محاولا الادعاء بأن الاسلام ليس فى حقيقته الا عبادات وصلوات وطرق صوفية وان القرآن يقرأ للبركة . مع الاغضاء المتعمد والتجاهل الشامل للاسلام كنظام اقتصادى واجتماعى ونظام للحكم ونظام للتربية والتعليم .

واستتبع هذا ، العمل على فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وقد عمل الفكر الاسلامى جاهدا على رد كل الشبهات التى أثارها المبشرون والمستشرقون ودعاة التعريب من أن كلمة الاسلام معناها الخضوع والاستسلام ، أو ان الاسلام تاريخيا فرع من الديانة الاسرائيلية والمسيحية (فيليب حتى (ك) الاسلام فى نظر الغرب) وكشف عن أن الاسلام لا يعنى الاستسلام وانه يختلف عن كلتا الديانتين .

* * *

٢ — جوهر الاسلام

وكشف الفكر العربى عن جوهر الاسلام فى أنه عقيدة ونظام ، وأن مبادىء الاسلام وتعاليمه صالحة للمجتمع على اختلاف الزمان والمكان . وان أركان العقيدة الاسلامية بسيطة قوامها التوحيد . وقد أقر الاسلام حقوق الحرية والاخاء والمساواة بين البشر ، والغى العصبية وفوارق الأجناس والالوان والدماء ، وجعل أساس التفاضل بالعمل وحزم العصبية القبلية ودعا الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونشر الاخاء بين الناس وحمل لواء الجهاد فى سبيل الدفاع عن العرض والأرض والوطن ونهى عن عبادة غير الله .

وتشمل الشريعة الاسلامية كافة التكليفات الشرعية العملية ، وتنظم العلاقات بين الناس فى الأسرة والمجتمع بما يحقق قيام مدنية فاضلة تقوم فيها العلاقات على دعائم ثابتة ودعا الى الحج كمؤتمر اسلامى عام .

وقد نظم الاسلام المجتمع على اساس الخلق والتعاون والتكافل .

وأقام الأسرة على أساس المودة ونظم العلاقات بين الناس وفرض نظام الشورى فى الحكم ، وأعلن احترامه للكرامة الانسانية والعدالة وعدم التفريق فى القضاء بين الغنى والفقير أو الأمير والسوقة ، وأعطى توزيع الأعمال بمقدار الكفاية ، وعالج الفقر بنظام العدالة الاجتماعية ، وجعل للفقير فى مال الغنى حقا معلوما هو الزكاة تجمعه الدولة ، وأوجب على ولى الأمر أن ينفق على الفقير العاجز ، وللقاضى أن يحكم له بما يكفيه من بيت مال المسلمين ، وأوجب على أهل كل قرية أن يقوموا بسداد حاجة فقرائها أن لم تكف الزكاة وأعطى المرأة حقها ومنحها حرية الارادة فى البيع والزواج والشراء ، وحث على طلب العلم وأقام الحكم العقلى فيه على أساس البرهان « قل هاتوا برهانكم » .

وقام الاسلام على قاعدة : لا ضرر ولا ضرار وعلى سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات فكل ماأفضى الى مباح فهو مباح ، وكما أباح اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، وقرر تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ودعا الى المساواة بين المسلمين فى الأحكام كذلك بينهم وبين من له ذمة وعهد فان لهم ما لكم وعليهم ما عليكم . وعمل على تقدير كثير من الأحكام بما تعورف به الناس وأعلن أن من اجتهد واخطأ فله أجر واحد ومن أجتهد وأصاب فله أجران .

* * *

— ٣ —

وكان « الاسلام » واسع الأفق فى لقاء الحضارة الغربية الحديثة وقد حرر الفكر الاسلامى نفسه بفتح باب الاجتهاد قبل أن تصل طلائع الغزو الغربى فان علماء القرن الثامن عشر قد دعوا الى فتح باب الاجتهاد بعد ان ظل مغلقا فترة طويلة . وأعادوا تفسير قوانين الاسلام وكشفوا عن وجه الاسلام الحقيقى بعد أن رفعوا الغشاء الذى خلفه الجمود والتقليد .

وكانت الحركات الوهابية والسنوسية ، وهى حركات منفصلة قامت فى الحجاز وليبيا والسودان علامات على وضوح مفاهيم الاسلام الحقيقية من تحرير الفكر وتحرير الوطن فى نفوس دعاتها ، قد عملت هذه الدعوات على التحرر من قيد التقليد والعودة بالاسلام الى منابعه الأولى وفى نفس الوقت قاومت الاستعمار الغربى .

كما توافرت فى (الاسلام) خلال معركة المقاومة التى شنها على الغزو الثقافى والتدخل الأجنبى مرونة واضحة فى تقبل خير ما فى الحضارة ، وتمكين المجتمع الاسلامى من التطور والعمل للملائمة بين الحضارة وبين أسس القيم الروحيةوالفكرية الاسلامية التىكانت أساسا ضروريا لبناء المجتمع الجديد .

* * *

الإسلام في معركة المقـــاومة

بين التجديد والاجتهاد والإصلاح

ولقـد اتجهت أفكار المصـلحين ودعاة الاجتهاد والتجديد من قادة الفكر العربي الاسلامي الى بحث قضايا الاسلام في مجال التطور ومواجهة الحضارة والاستعمار والغزو الثقافي وتناولت هذه القضايا بحث :

● لماذا تأخر المسلمون .

● هل يستطيع الإسلام تقبل الحضارة .

● ماهو الحد الذي يمـكن اقتباسه من الحضارة .

● ما هو سبب الضعف : هل هو الاسلام أم المسلمين.

وقد كشف البـاحثون عن أن أكـبر عوامل تخلف المسلمين هو :

١ ـ فساد أخلاق الأمراء والملوك والحكام الذين أعطوا أنفسـهم حرية التصرف على نحو استبدادي لا يراجع ، على أساس مفاهيم مغلوطة بأن هذه الشعوب ليست الا خدما لهم ، وقد بلغوا في هذا غاية الظلم والعنف فكانوا يقضـون على أي رجل حر يحاول أن يردهم عن استبدادهم أو يكشف عنه .

٢ ـ ضعف العلماء وتزلفهم للأمراء ومحاولة تبرير تصرفاتهم والفتوى بقتل كل رأى حر بحجة أنه خرج عن الجماعة .

٣ ـ دعاة التغريب الذين يهاجمون كل قديم بمـا فيه الدين واللغة والتراث .

٤ ـ الجـامدون من علمـاء الدين الذين قاوموا التطور والتجديد على نحو من الجهل والتعصب . والنظر الى الاسـلام على أنه دين وعبـاده فقط ، وليس نظام ومجتمع وحضارة . (شكيب أرسلان (ك) لماذا تأخر المسلمون) .

٢ ـ وكشـف الفكر العربي الاسـلامي عن أن في نصوص الاسلام وتاريخه أدلة ـ أكيدة ـ على أنه «دين» يسـتطيع أهله أن يجـدوا فيه كل ما يتفق مع مظاهر الحضارة والمسـايرة للزمن وتطبيق الأحـكام مع ملائمة الأحوال والظروف مع المحافظة على روح الدين ، وأنه ليس في الاسلام ما يمنعنا من أن نأخذ من حضارة العرب ما ينفعنا ويلقح حياتنا باللقاح المجدد ، وأن الوسيلة الى ذلك هو ظهور الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ العارف لحاجات العصر وتيارات الحضارة (محمود الشرقاوى) وأيد الشيخ محمد مصطفى المراغي هـذا الاتجاه حين أكد أن القرآن الـكريم حث المسلمين حثـا شديدا على طلب العلم وتدبر ما في الكون ، ودراسـة جميع المعارف والتأمل والبحث في الحقيقة ـ وقال : أن للمسلمين أن يأخذوا جميع ما في الحضـارة الحديثة من حسـن لا يتنافى مع دينهم وأن يقتبسـوا الرقى في جميع النواحي العلمية والمادية وقد أكد التاريخ الاسلامي هـذا المعنى بأن الاسـلام لم يكن يوما ما عدوا للرقى وخصما للعلم وأنا لا أعتقد أن هنـاك قاعدة علمية صحيحة تنافي الدين الاسلامي » أ . هـ .

٣ ـ رسم المفـكرون منهج الربط بين الاسـلام والحضارة والنظر الى الاسلام من الناحية العلمية : قال محمد فريد وجدى أن هذا أصبح من أشـد الضرورات الاجتماعية نظرا للتمرد المغتول على مالا يقوم على أسباب العلم الراهن ولا يوفى بشروط الفلسفة الوضعية .

٤ ـ كشف المفكرون المسلمون عن أن القصـور والنقص انما بسبب المسلمون لا الاسلام ، وأن مبـادىء الاسـلام كانت على الزمن قادرة على مواجهـة التطور

والحضارة ، وان الضعف الذى أصاب الأمة كان مصدره العوامل المختلفة التى تتصل بالجمود واقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع والقشور والتواكل وخطأ فهم عقيدة القضاء والقدر وقيام السلبية والفردية والترف والتخلف عن الزمن نتيجة لغلبة الجهل والتوقف عن الكفاح وحماية الثغور وسيطرة الأمراء المستبدين والعلماء الجامدين والاستهانة بالعدو .

ولقد استغل الاستعمار بعض طوائف المسلمين كرجال الطرق الذين أزروا السلطات الاستعمارية فى شمال أفريقيا والسودان .

أما الاسلام فى ذاته وجوهره فلم يكن عاملا من عوامل الضعف والقصور .

٥ ـ عارض المفكرون المسلمون الغرب فيما وصف به التفكير العربى الدينى من انه تفكير تجريدى، واستشهدوا فى ذلك بالاسلام وقالوا ان هذا الفكر رهن بالقواعد المرسومة شبيه بهندسة البناء العربية لا تحتوى صورة من صور الحياة المماثلة فى بنية الانسان وملامح وجهه » كما وصفه (روم لاندو) فى محاوره بينة وبين لطفى السيد (٢١ ـ مارس ١٩٣٨ ـ الرسالة) وقد رفض لطفى السيد هذا الرأى وقال له « ان الفكر العربى اشد ايغالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى . وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شئون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ، وهى تقضى بالوصايا فى أمور للمعيشة والزواج والميراث وأحسب اننا اقرب الى معرفة الحقيقة حين ندرس (المخيلة المسيحية) بتصور السماء والفردوس . اما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ! انها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد وفيها الأشجار والأزهار والحور العين » ا.هـ

* * *

الجماعات الاسلامية

وقد اتجهت مقاومة حرب الاسلام الى أعمال ايجابية متعددة كان ابرزها قيام الهيئات الاسلامية للدفاع عن الاسلام .كما طالب المفكرون بمحاربة البغاء وتطهير الأخلاق والدعوة الى أن يكون الدين مادة أساسية فى جميع مناهج التعليم . وكان الشيخ محمود ابو العيون فى مقدمة هؤلاء الدعاة .

وقد كانت جمعية الشبان المسلمين من ابرز هذه الأعمال التى تجمع فيها دعاة الاصلاح والمقاومة وقد تفرعت عنها جماعات أخرى كالأنصار والاخوان المسلمين ومصر الفتاة والتعريف الدولى بالاسلام والكفاح لتحرير الشعوب الاسلامية .

وقد واجهت (الشبان) أحداث العالم الاسلامى واصبحت ملتقى رجال العروبة والاسلام وحركات التحرر فى العالم العربى والاسلامى وكانت جبهة دفاع قوية الأثر فى مواجهة حركات التبشير والالحاد والتغريب ومعارك الاستعمار فى فلسطين وشمال أفريقيا وسوريا والجزائر، وأبدى المستشرق ، كامبفماير اهتمامه بما وراء هذه الحركة من خطر وأثر فى المستقبل ، ووصفها المستشرق جب بأنها اكبر دلالة على التنظيم الجديد فى الحياة الاجتماعية والعقلية فى العالم الاسلامى ، وقد سلكت الجمعية الى أهدافها فى تربية الشباب الاسلامى العناية بالخلق والرياضة كوسيلة الى القوة وكمال التكوين على أساس ان القوة مطلب أساسى فى الاسلام لدفع الاعتداء وارهاب العدو واحتمال مطالب الجهاد ، واستخدمت لهذا الغرض الخطابة ـ والمحاضرة والصحافة وكتابة الأبحاث والمقالات وقد كان للسيد محب الدين الخطيب الفضل الأول فى تأسيس هذه الجماعة ودفعها الى الأمام وان لم يظهر عمله موسوما باسمه اذا كان يفضل ان يرسم الخطط ويقف وراء منفذيها .

فقد روى محمود محمد شاكر (الفتح مجلد ٩ ـ ١٣٥٣) أنه فى ربيع الأول ١٣٤٦ زار مكتب محب الدين الخطيب فى المطبعة السلفية الشيخ محمد الخضر حسين وتحدثا عن اجتماعات الشبان المسيحية التى تدعو رجالا ليحاضروا فيها ومن بينهم رجل من رايه ان يجعل القرآن موضعا للتهكم والشك ثم التقى بهما عبد السلام محمد هارون وقد بدأ التفكير فى انشاء جماعة للشبان المسلمين .. وقد جمع محب الدين الخطيب بين رجلين هما أحمد تيمور باشا ومحمد الخضر حسين وضمت فى مجلسها الأول : محمود الحضيرى . محمود محمد شاكر ، هارون ومحمد خلاف . محمد أبو الفضل ابراهيم . توفيق أحمد محمد القاضى ، كمال اللبان ، عبد الفتاح كيرشاه . مصطفى محمود القاضى ، زكى القاضى واشترك فيها عبد العزيز شاويش والههياوى وأحمد ابراهيم ومحمد أحمد الغمراوى والدكتور يحيى الدوديرى والدكتور على مظهر ومحمود على فضل واختير عبد الحميد سعيد رئيسا لها .

وقد كان ابرز ما فى هذا العمل الايجابى الضخم انه اول تجمع لمقاومة الالحاد وخصومه الغرب المثقف الذى ورد جامعات اوربا واحرز ارقى درجات جامعات لندن وفيينا وغيرها . وقد كان هذا ابلغ رد على المثقفين الذين كانوا يحملون لواء الدعوة الى التغريب ويهاجمون الاسلام ويدفعون الفكر العربى الى مهاوى الحيرة والشكوك باذاعة الآراء الالحادية والدعوات الاباحية كتلاميذ واتباع للمستشرقين والبشرين ومؤازرين للاستعمار وعملاء للغز الثقافى ، ولا شك ان الجماعات الأخرى التى تفرعت عن الشبان المسلمين كنواة اولى للتجمع الفكرى كان لها دورها فى العمل للاسلام فى الفترة التالية لهذه الفترة التى نؤرخها مما ليس مكان بحثه هنا ، وقد ابرزت جماعة الشبان المسلمين دورها فى « الأخذ من محاسن حضارتى الشرق والغرب وترك ما فيها من مساوىء . غير متكلفة ولا معروفة عن الماضى الصالح والحياة العصرية النافعة لتقضى فى ذهن الشاب المسلم على الفهم المخطىء لحياة التدين من انها حياة الجمود على القديم ولو كان فاسدا والتغلب على الحديث ولو كان صالحا . والانفصال بين التفكير فى الدنيا والدين والانعزال من تيارات الحياة ومصارعتها وسوء الظن فيها والرهبة منها فقد آمنت الجمعية (ص ١٥ من (ك) ٣٠ عاما من حياة الشبان المسلمين) من أول يوم بانه لا نهوض للمسلمين الا بالحرص على الباقيات الصالحات منحضارة الشرق ومواريثه والحرص على اقتباس كل ما هو نافع مفيد من حضارة الغرب التى فيها من العلوم والفنون والآداب والأعمال ما جدد الحياة وأضاف اليها عجائب كثيرة وجعل المتخلفين عن الأخذ بها محكوما عليهم بالضعف والضياع » ا.هـ .

* * *

ترجمة معانى القرآن

كانت فكرة « ترجمة معانى القرآن » التى حمل لواءها محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر منذ عام ١٩٢٨ من اعمال مقاومة الغزو الثقافى والتغريب . ذلك ان الغربيين كانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٧) عن طريق المبشرين وتوالت الترجمات التى بلغت ٣٤ ترجمة ، وهى ترجمات مغلوطة محرفة ناقصة فى بعضها ومزيدة فى الأخرى .وقد انتشرت هذه الترجمات فى مختلف انحاء العالم على انها ترجمة حقيقية للاسلام ، وقد استعملها بعض من لا يعرفون اللغة العربية ، ولما كان فى ذلك من الخطر ما فيه على مفاهيم القرآن وبلاغته فقد كان لا بد من القيام بعمل من هذا النوع لترجمة « معانى القران » ترجمة صادقة .

وقد جرت معارك فكرية طويلة ١٩٣٢ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ حول ما اذا كانت الترجمة للقرآن هىترجمة كاملة أم ترجمة معانى القرآن ، وقد ذكرت مشيخة الأزهر (١٩٣٦/٤/١٦) أن تراجم القرآن الى مختلف اللغات الأعجمية قد شاع فى هذا العصر وأن بها اخطاء واغلاط شائنة تتنافى مع ما جاء فى الدين الاسلامى الحنيف وهى من أجل ذلك قد أنشأت قسما خاصا من مجلة نور الاسلام واستقدمت الاخصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات وأخذت من تفسير الالوسى والبيضاوى وغيرهما من التفاسير .

واشارت الى أن المراد من ترجمة معانى القرآن الكريم هو « بسط هذه المعانى تبسيطا محكما وتفسيرها تفسيرا دقيقا على أن تترجم المعانى بعد ذلك ، وقالت أن القرآن لفظ عربى معجز وله معنى ، أما نظمه العربى المعجز فلا سبيل الىنقل خصائصه لأن هذا مستحيل استحالة قطعية .

ودعا محمد فريد وجدى الى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة كاملة ، وذلك حتى يكون بنجوة من تحريف المحرفين وقال ان هذا العمل خير من أن يترك للمترجمين من متعصبة الأمم يحرفونه ويشوهون معانيه .

ونعى فريد وجدى على اسرار بعض العلماء على حبس الاسلام فى دائرة العربية التى لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية وهى اللغات الحية للدفاع عن نفسه ، وقال أن وضع القيود غير المعقولة فى مسألة نقله يقضى عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أعقابنا قرونا طويلة . ومعناه صده عن الجولان فى الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الأديان وأسفار المذاهب .

وقال : ان الاكتفاء بترجمة تفسير لا يؤدى الغرض المطلوب من نشره ، لأن المفكرين فى العالم يحبون أن يتأملوه عاريا من زخرف التفاسير والشروح والوان الآراء والأفهام لمعرفة قيمة الذاتية .

وقال ان كل ما يخشى منه ان يوكل امر البت فى هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات أجنبية فيخيل اليهم أنها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التى

توجد فى العربية ، وقال أن تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والزج به فى معترك الأفهام الى اليوم قضى عليه بأن لا يكسب انصارا من الأمم الغربية فصار قاصرا على الأمم الشرقية التى رضيت أن يكون حظها من دينها كحظ الببغاء .

وأشار الى حركة الأتراك التى أثرت فى الوطن العربى العربى أعظم تأثير وأبلغه وزاد اعجابه بها عند اقدامهم على كسر هذا السياج الفولاذى الذى وضعه المتأخرون امام ترجمة القرآن مع جوازه فى اقدم المذاهب الفقهية (١٩٢٢/٧/٢ الأهرام) .

وقد عارض ترجمة معانى القرآن كثيرون فى مقدمتهم الشيخ محمد سليمان وكيل المحكمة العليا الشرعية الذى وصفها بأن وراءها غرض استعمارى هو القضاء على القرآن تمهيدا للقضاء على الاسلام وتابعه محمد المهياوى وعارضها كذلك الشيخ الظواهرى وكان الخلاف سياسيا فى الأغلب .

ومما يذكر أن أول ترجمة للقرآن كانت باشارة بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كلنيه وقد تمت ١١٤٣ م وظلت مختفية نيفا واربعمائة سنة حتى طبعت ١٥٤٣ الى الفرنسية وطبع ١٦٤٧ ، ولم تكن ترجمة صحيحة وبها نقص وزيادة ، وترجم الى اللغة الألمانية ١٦١٦ والهولندية ١٦٤١ والرونسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والعبرانية ١٦٣٤ والآرية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٣١ والجاوية ١٩١٣ والنيغالية ١٩٠٨ والتركية ١٩١٣ .

وقد اعلنت ترجمات متعددة للمستشرقين والمبشرين من الأوربيين وكلها ترجمات تفسيرية وليست كاملة .

ومما يذكر ايضا أن القرآن ترجم فى عهد هشام ابن عبد الملك الى اللغة السريانية (لغة الحضارة فى ذلك العصر) ويوجد فى متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها ادوار كاربورى فى ٥٠ الف مجلد وتشمل ترجمة قديمة للقرآن منذ ٦٩٠ م وبها آيات كاملة ليست من القرآن .

* * *

الخلافات بين المذاهب الإسلامية

كان الخلاف بين المذاهب الاسلامية من العوامل التي استغلها الاستعمار في معركة الغزو الثقافي والتغريب فقد حرص على أن يثير الخلافات بين هذه الطوائف حتى يؤكد الفروق ويعمق التفرقة ، وقد كان أبرز هذه الخلافات التي أثارها الاستعمار :

* بين السنة الشيعة .

* بين السنة والمتصوفة .

* بين السنة والوهابية .

* * *

بين السنة والشيعة

* * *

حرص المبشرون والمستشرقون على دراسة المذاهب المختلفة في الاسلام فيما سوى مذهب السنة ، والاهتمام بها والتوسع فيها ، وكانت الشيعة من أهم هذه الأبحاث وبالرغم من أن الشيعة الاثنى عشرية والزيدية هي وجودها الموجودة الآن في العالم العربي ، فان هؤلاء الكتاب يحملون من روح الحقد والرغبة في بلبلة الأفكار وتصوير المذاهب بصورة مثيرة ، قد خلطوا بين هذين المذهبين المعتدلين وبين مذاهب الأغاخانية والحلول بقصد اثارة خلافات قديمة بائدة . وهم يهدفون من نشر مثل هذه الأبحاث في الوطن العربي الى اثارة السنيين على اخوانهم الشيعة دون أن يكون هناك ما يكشف بعض المغالطات والأخطاء المتعمدة .

وقد حرص الاستعمار في معركة الغزو الثقافي والتغريب الى احتضان كل الفرق كالأحمدية والبهائية واستغلالها في اثارة الفتنة بين المسلمين والتشكيك في المعتقدات الدينية وتوسيع دائرة الخلاف ، وذلك رغبة في تمزيق الوحدة الفكرية والدينية كجزء من خطة التجزئة الشاملة للفكر والوطنية واللغة والدين .

ولقد أثيرت أسباب هذا الخلاف عدة مرات نتيجة لكتابات مختلفة كتبت من جانب واحد مع حجب الجانب الآخر ، وقد جرت الدعوة في هذه المناسبات الى العمل على تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة في العراق وسوريا ، وحرص الأزهر على أن يشترك في بحث منشأ الخلاف والطرق العملية لازالته . وكتب محمد رضا المظفر من علماء النجف الاشرف (الرسالة م ٣ ص ١٦١٢) يقول نحن نفهم من كلمة (الشيعة) اذا قلناها الامامية الاثنى عشرية خاصة ، لأنهم الأكثرية من بين فرق الشيعة وذو المؤلفات والمعارف التي يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها ، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وايران والامارات العربية على الخليج الفارسي والهند وافغانستان . وهناك الزيدية في اليمن والبهرة في الهند . أما الفرق الأخرى فقد انقرضت في غير كان ولا يعرف لها أثر .

وقال : ان الخطأ هو الصاق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة (الشيعة بالمعنى المفهوم اليوم) وهذا ما يثير غضب الشيعة الأحياء من غير حاجة تدعو ولا ضرورة .

واشار الى ان الفرق التي وصفت بالمرجئة والغالية والمجسمية والمجبرة والسبكية وغيرها مما أورده الشهرستاني في كتابه الملل والنحل قد انتهى أمرها وقال ان كل مفاهيم الشيعة انها تتمسك بعترة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليس كعقيدة موالاة فحسب ، وانما تعني من التمسك بهم ان تأخذ بأقوالهم في أحكام النقلية وترجع اليهم في دين الاسلام وتدلل على أن ما جاء به النبي ورثوره عنه وعلم مكنون لديهم وهم أمناء عليه معصومون » .

واشار الى أن هذه الخلافات قد بذرتها السياسة لأغراضها في زمن بعيد لسنا ابناءه فلا يصطدم بآراء افراد لا نعرف عنهم كثيرا .

وقد أشار محب الدين الخطيب الى أن الخلاف بين أهل السنة والشيعة هو خلاف جوهري وأن أبرز هذا

الخلاف هو أن الشيعة الاثنا عشرية يدعون العصمة لأمير المؤمنين « على » واحد عشر رجلا من سلالته (ان لم يدمها « على » لنفسه او واحد من بنيه) وقال الخطيب : أن النبى وحده هو المعصوم فى هذه الأمة ولا معصوم فيها غيره وهو وحده مصدر التشريع وأصحاب رسول الله هم حملة شريعته وأمناؤها الذين ادوها الى الامناء بعدهم .

وأشار كثير من الباحثين بأن الخلاف بين السنة والشيعة ينصب على ثلاث مسائل ١ — الرجعة ٢ — زواج المتعة ٣ — عصمة الائمة (وان هذه جميعها مسائل فرعية فمادام الاختلاف لاينصب على أصول الدين ومبادئه الاساسية كالوحدانية والنبوة وفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج والتصديق بالميعاد والقبلة والقرآن فان خلاف ذلك يعد من المسائل الفرعية التى لا يضير الخلاف فيها) .

* * *

بين السنة والوهابية

وقد استغل الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب الخلاف بين أهل السنة والوهابيين ، وكان هذا منذ وقت بعيد ، عندما أغرت السلطة العثمانية محمد على بالوهابيين فى فجر دعوتهم فقامت تلك المعارك الضخمة التى قضت على القوة الجديدة التى كانت تحاول أن تحرر الاسلام من البدع والخرافات حول العقيدة الأصلية . وقد كانت هذه الدعوة تحمل فى ثناياها العمل بمفهوم الاسلام لتحرير الوطن الاسلامى من الاستبداد والنفوذ الاستعمارى الغربى الذى كان قد استفحل فى هذه الفترة

ولقد استطاعت الوهابية ان تعود الى قوتها فى مطالع القرن العشرين عندما سيطر الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٠٢ على الرياض عاصمة ملك آبائه « نجد » حينئذ عادت الوهابية الى قوتها وحياتها ، وقد استطاع فى خلال ربع قرن من السيطرة على مكة والمدينة وفرض مذهب الوهابية على هذه المنطقة حيث هدم المزارات والقباب ، ومضى ليضرب حدود العراق وسوريا ويهاجم مزارات الشيعة فى العراق وحدود الأردن .

ومنذ ذلك الوقت بدأ خلاف بين السنة والوهابية ، أو بين الطوائف التى تؤمن بالاسلام ايمانا وراثيا تقليديا وبين الدعوة الى تحرير الدين من زيوفه . .

وقد كان « محمد عبده » من أنصار الدعوة الى تحرير الاسلام على النحو الذى دعا اليه « محمد بن عبد الوهاب » ثم ظل الصراع قائما فى الأزهر وخارجه حول المذهب التقليدى والمذهب الوهابى حتى عاد «محمد مصطفى المراغى » الى حمل لواء الدعوة الى علاج امراض العالم الاسلامى وتحرير العقيدة .

وقد حدثت عام ١٩٣٧ اجتماعات متعددة حول توحيد المذاهب بين السنة والوهابية فى مصر على اسس خمسة .

١ — الحرية الفكرية وفتح باب الاجتهاد ٢ — القبور والأضرحة واشعال المسارج وزيادة المقابر ٣ — النذور وطريقة التصرف فيها ٤ — الاستغاثة والحلف بغير الله ٥ — البحث فى تقرير أن العلم لايناقض الدين .

وقد طلب احمد شفيق المؤرخ الى الملك عبد العزيز ابطال الرق فى الحجاز وقال « أن الرق الذى هو بها الآن فى الشرق ليس من الشريعة الحنيفية فى شىء » .

* * *

الخلاف بين السنة والصوفية

وكان الوجه الثالث للخلاف هو الخلاف بين أهل السنة والصوفية ، أو بين الفقه والتصوف . ولقد كان للطرق الصوفية دوران واضحان لا سبيل الى انكارهما : الدور الأول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمة اغراضه والدور الثانى هو ما قام به المتصوف المسلم فى قلب افريقيا من الدعوة للاسلام ونشره على نحو عجزت عنه قوى التبشير الضخمة المؤيدة بمال وجاه الدول المستعمرة .

وفى مصر فى ابان الاحتلال البريطانى كانت الطريقة الدمرداشية التى يرأسها عبد الرحيم الدمرداش تحظى برعاية الاستعمار . وقد حرصت الصحف الدائرة فى فلك التغريب أن تدعو لها وتحميها وتصورها بصورة العمل النافع .

وفى السودان وفى المغرب كانت بعض الطرق الصوفية اداة من أدواته وقد قام عبد الحميد بن باديس فى الجزائر ومحمد عبده وغيرهم من أهل الفهم الصحيح

للاسلام الى مقاومة هذا التيار الخاضع للاستعمار .

وقد صور محمد عبده الطرق الصوفية بانها : هذه الفئات التى تتكون « من خليط من الناس جمعتهم وحدة الفرار من الدنيا وحب الكسل والابتعاد عن اى عمل يعود على الانسانية بالنفع ، وهم اما فاشل عجزت نفسه عن السير فى طريق الحياة والأخذ بالأسباب والمسببات .وهم اما مسخ مشوه منبوذ فى المجتمع واما طريد من طرداء العدالة اراد ان يتستر وراء هذا المظهر الخادع حتي يفلت من القصاص واما شيخه قد القى فى روعه انه حبيب الله وصفيه وقد وجد لهؤلاء انصار ومحبذون يؤيدونها وينشرونها بين الجماهير فيخدرونهم بمخدرهم السام ، وهم يلقون فى روع الناس ان الحياة الدنيا دار فناء ويأخذون فى ذمها وتنفير الناس من العمل السليم ومما يؤثر عنهم قول العامة ان الرزق ليس بالشطارة وان المجتهد قد لا يكون له نصيب من الحياة وان الخامل قد يصيبه المجد فيها وان الدنيا دار فناء والزهد خير من التمسك بها . . . . » ا . هـ .

ومما يذكر فى هذا الصدد ان الاستعمار قد افاد من جموع الصوفية فى رسم صورة مزرية للشعوب التى احتلها ، وقد نشرت الصحف ان ١٨/٤/٣١ احتفالا فى تكية المولوية بالحلمية الجديدة قد حضره الأجانب من فرنسيين وأمريكان والمان وانجليز وثلاثة وزراء مفوضين وقالت ان الدراويش قاموا وانتظموا فى حلقة الذكر المستديرة واخذوا يذكرون الله . وكما احتدم الموسيقيون فى عزف الأناشيد رايت الدراويش قد احتدوا فى اللف والدوران على نحو بديع » .

وقد كانت تنقل هذه الصورة الى اوربا على انها هي صورة « الاسلام » وقد ظهرت فى خلال فترة سيطرة الاستعمار على الوطن العربى عديد من الطرق التى لم يكن لها هدف سوى خلق روح القدرية والنكوص عن الجهاد ومخالفة مفاهيم الاسلام فى الحرية والجهاد ، أما السنوسية والمهدوية فقد آمنت بمفاهيم الاسلام وقامت دعوتهما على اساس تحرير الوطن من الاستبداد العثمانى ومقاومة النفوذ الأجنبى وجهاد المهدوية ضد الانجليز وجهاد السنوسية ضد ايطاليا معروف .

وقد صور « أحمد توفيق المدنى » ما تطورت اليه الزوايا الصوفية فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي (ك/ الجزائر ــ ١٩٤١) حيث « انقلبت الزوايا بعد مؤسسيها الأولين الى معاهد خرافات واباطيل تستثمر غفلة العامة وبلههم فتنال منهم مال السحت الذى يدفعونه بصفة نذور وينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم ، وقد آل امر الكثيرمن هذه الزوايا والطرق الى احداث وثنية فى الاسلام واصبح شيخ الطريقة يتصف بأوصاف (الربوبية) فهو الذى يعطى ويمنع ويقبض ويبسط ، وتطور الأمر الى اقامةحفلات مؤلمة فى مواسم معينة بقصد جلب السواحين ، يقومون بدور المهرجين فى الملاعب ، والأوربيون يعتقدون ان ذلك هو عين الاسلام ، هذه المنكرات الدنسة جعلت المتنورين ينفرون من الاسلام وينبذونه ، ولذلك فقد قامت فى الجزائر حركة اصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات على راسها « الطيب العقبى » الذى كرس حياته وكتاباته لدحض مفتريات المفترين » .

واشار « علال الفاسى » فى كتابه « المغرب العربى » عن دور الطرق الصوفية فى مراكش قال « ان الدعاية الفرنسية جندت فى الشمال الافريقى قسما كبيرا من مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا ان يعملوا لصلحة رجال الحكم او الذين خلقتهم الادارة الفرنسية لتسخيرهم فى أغراضها فاشتغل محمود التيجانى فى الجزائر وعبد الحى الكتانى فى المغرب وابن عزوز فى تونس دعاة متحمسين للسياسة الفرنسية .

وقال : ان الطرق الصوفية كان لها اثر كبير فى المغرب العربى ولكن تدهور الأمل وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل قلب هذه الطرق الى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون نصبوا انفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية وبين الشعب ، فكانت السلطة لا تستطيع حفظ الأمن ولا جبى الضرائب ولا تعبئه الجيوش الا عن طريق هؤلاء الذين يدعون انهم يشفقون عليها من بركة نفوذهم ما يسهل عليها تحقيق أغراضهم ، وقد سار هؤلاء المشايخ يتجولون فى القبائل والمدن يبشرون بسقوط الألمان وبشاعة حكم الاتراك وينوهون بقيمة العمل العظيم الذى تقوم به فرنسا وانجلترا فى الشرق العربى » .

ومما ذكره علال الفاسى ان فرنسا اتجهت الىانشاء خلافة اسلامية فى افريقيا الاسلامية تحت حكم سلطان فرنسا .

ومما يتصل بهذا ان المسلمينالذين تنتبهوا الىخطر هذه الفرق على حركة التحرر قد تطنوا ايضا الى مفاهيم الاسلام الحقة التى تحرفها الطرق الصوفية على النحو الذى صوره الشيخ محمد عبده من الدعوة الى التواكل والقدرية وتنفير الناس من العمل ، وتحت هذه العناوين يمكن دعوة الناس الى قبول الاستعمار والرضى بالحاكم

المستبد وتحول الفكر الاجنبي ، وهذا ما يخلق اختلافا بينا مع ما دعا اليه الاسلام من الجهاد ومقاومة الغاصب واليقظة والسعي في الارض والتحام مجاهل العلم وكشف قوى الطبيعة والعمل المتصل .

ولا شك ان الطرق الصوفية في مذاهبها هذه تختلف اختلافا واضحا عن مذهب « التصوف العقلي او الجنيدي الذي دعا الى رياضة النفس على قمع الشهوات ورفض الدنيا . فان هذا المذهب من شأنه ان يدفع المسلم الى الجهاد في سبيل الله مفطومة نفسه عن كل لذة او متعة تصرفه عن هذا الجهاد ، مؤمنا بالاستشهاد في سبيل الحق الذي يؤمن به حيث يرى الدنيا لا تغريه ، وهذا هو الفهم الصوفي الذي فهمه المجاهدون من المسلمين في الصدر الاول ، اما الزهد بمعنى الانصراف عن الدنيا فهو ليس مذهبا في الاسلام » .

وقد حرص دعاة التغريب من المبشرين والمستشرقين وأعوانهم من كتاب الغرب الى البحث في الصوفية واثارة مذاهبها ودعاواها والحديث عن المتطرفين من دعاتها امثال : السهروردي وابن عربي والحلاج وعبد القادر الجيلاني ، وهم في ذلك انما يهدفون الى بلبلة الفكر العربي واثارة مذاهب الحادية ومعقدة يقصدون من ورائها تصوير الاسلام بصورة غير صورته البسيطة السهلة ، ومن ذلك مذهب الحلول ووحدة الوجود و « الشريعة والحقيقة » وغير ذلك من مذاهب كلامية لم تكن اصلا من الاسلام وانما ادخلت عليه من الفلسفات المسيحية والهندية واليونانية .

* * *

دعوة الاجتهاد

حمل الفكر العربي المعاصر لواء الدعوة الى فتح باب الاجتهاد والعودة بالدين الى منابعه الاولى كخطة لمقاومة حملات التغريب والغزو الثقافي وكوسيلة لاشاعة اليقظة والتحرر من قيود التقليد التي كانت عاملا اساسيا في تجميد الفكر خلال حكم العثمانيين .

وكان محمد بن عبد الوهاب اول من حمل هذا اللواء متأثرا بدعوة احمد بن حنبل وابن تيميه . غير ان الوهابية لم تستطع ان تجري المدى الواسع الكفيل بانتفاعها ، ثم جاءت دعوات من بعد حملت هذا اللواء وانطلقت به الى اقاليمها ، كالمهدية والسنوسية وغيرها ، غير ان جمال الدين الافغاني كان اقوى من حمل هذا اللواء الى العالم الاسلامي كله في كلماته القليلة وكتاباته النادرة ، وفي مصر حمل اللواء من بعده محمد عبده ورشيد رضا والمراغي ، وتأثرت خطاه الشام فظهر بها الكواكبي والمغربي والعراق فظهر بها آل الالوسي وفي المغرب برزت الدعوة الى السلفية واحتلت حيزا كبيرا من الفكر العربي كسلاح قوى لمقاومة الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي والتبعية الثقافية للغرب .

* * *

رأى الشيخ محمد عبده

ويرى الكثيرون ان محمد عبده هو عماد التجديد والاصلاح الديني في العصر الحديث (محمود الشرقاوي – ٢٥/١/٣٦ – البلاغ) فقد وضع في كتابه (الاسلام النصرانية) القاعدة حيث قال :

« عند النظر في اى دين للحكم له او عليه في قضية من القضايا يجب ان يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض اهله او محدثاتهم التي ربما تكون قد جاءتهم من دين آخر ، فاذا اريد ان يحتج بقول او عمل لاتباع ذلك الدين في بيان بعض اصوله فليؤخذ في ذلك بقول او عمل اقرب الى منشأ الدين ، ومن تلقوه على سذاجته من صاحب الدين نفسه » .

ومن آراء محمد عبده في تعليم المرأة وتعدد الزوجات يقول « ان الاسلام يقرر المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الأمور الجوهرية ، وان الاسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره دين انزل للناس كافة في شيء اكثر مما يتجلى في تكريمه للمرأة والاعتراف بما لها من مقام » .

ويرى ان تجويز تعدد الزوجات في الاسلام كان لضرورات اجتماعية جعلته محتوما ، على هذه الاباحة قد شرطت لها شروط ، واحيطت بتحفظات هي مستحيلة استحالة عملية ، وان الزواج بواحدة هو الأصل وهو المثل الأعلى في الحياة الزوجية .

ويرى محمد عبده في مجال الاجتهاد ان للامام ان يمنع المباح الذي تترتب عليه مفسدة ما دامت المفسدة قائمة به ولو المصلحة بخلافه ، وعنه محمود الشرقاوي : ان الشيخ محمد عبده يرى ان الشريعة ليست شيئا جامدا

لا يتحول بتحول الزمن والمصـــلحة بل هى مطاوعة لذلك دائرة على منفعة الناس .

* * *

راى رشيد رضا

وبرى رشيد رضا (٢٠ فبراير ١٩٣٦ — البلاغ) **لتجديد قواعد الشريعة بعد الرجوع الى بساطتها الأولى : أن يقوم علماء المسلمين بتأليف كتاب جامع لكل العقـــائد والمبادىء الأدبية التى أجمع عليها المســـلمون فى مختلف الفرق ، وأن ينقل هذا الكتاب الذى يعد دستورا الى كل اللغات التى ينطقون بها على أن يكون على قدر كبير من** المسامحة والتوسع .

اما ما وقع فيه الخلاف فى صدر الاســـلام فهو غير **واجب ، ويترك فيه الأمر الى التخيير ، وكذلك مســـائل الفروع يترك لكل مسلم أن يتبع فيها المذهب الذى يختاره** بمرور الزمن الى تخفيف حدة التعصب لمذهب معين .

وعنده ان توحيد العقـــائد بهذا الدستور سيؤدى

ويرى أنه بالنسبة لأحكام المعاملات والأمور الخاصة بالحياة والدنيا ومعايش الناس ينبغى أن تكون مستقلة عن الدين والا تعد جزءا من قانون مقـــدس لا يتبدل الى الأبد ولا يتغير ، بل يحكم فيها العرف على اختلاف الزمان والمكان .

ويرى أن طبيعة الاستمرار والجمود التى أوجدتها كتب المذاهب الأربعـــة المشهورة واوجدها أقفـــال باب الاجتهـــاد كان لها دخل كبير فى تأخر البلاد الاسلامية وعدول بعض الدول الاسلامية عن اتباع أحكام الشريعة .

ويرى مصطفى المراغى ان الموجة التى طغت على الشرق من الغرب ضد التدين اخذت تضعف وأخذ الشرق يدرك ضرر التقليـــد فى كل شىء ويدرك أن قوة الغرب وتفوقه لم يكن بهذه المسائل التـــافهة من التبرج والأناقة واختلاط الجنسين بل قامت على العلم والخلق ومجـــــد الوطن » .

* * *

موقف التغريب
إزاء الفقه والتشريع الإسلامى

كانت معركة الاسلام الكبرى مع التغريب هى مواجهة الادعاء بأن الاسلام دين عبادة وصلوات وطرق صوفية وأن القرآن كتاب يقرأ للبركة ، وأن الاسلام بذلك يجب فصله عن الدولة .

وقد حاول التغريب ودعاته تأكيد هذه النظرية الخاطئة فى كل بلاد العالم العربى والاسلامى بواسطة أجهزتهم المختلفة من صحافة وكتابات وجامعات ومحاضرات وأبحاث وذلك حتى يتم القضاء على الاسلام كنظام ومنهج اجتماعى وسياسى كامل .

والواقع كما يقول (نبيه أمين يونس) وهو احد المفكرين العرب المتصلين بدوائر الغرب (ك : هذا العالم العربى (ص ٤٦) أن الاسلام نظام تام شامل لمتطلبات الدنيا والآخرة ، وهو دين يعين علاقة الانسان بربه ، وهو نظام اجتماعى يحدد شكل الأسرة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وسلوك الأفراد فى معاملاتهم الدنيوية ، وهو نظام سياسى وتشريع مدنى يعين شكل الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وهو الى ما تقدم علم ومدنية وتاريخ) وانه لهذا كان بعيد الأثر « فى توحيد العرب والمسلمين عاطفيا وربطهم بوحدة المثل الأعلى وجعل النظم الاجتماعية والفكر متشابهة » .

وقد أشار جب الى أن « التغريب » استطاع أن ينزل الاسلام من فوق عرشه فى أنظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم .

وكان أهم ما دعا اليه الغربيون فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة .

وفى مجال الفقه الاسلامى أسقط الاستعمار النظم الاسلامية والقوانين القائمة وفرض بدلا منها الأنظمة والقوانين الأوربية المستمدة من الشريعة اليونانية والمسيحية دون النظر الى وجه الالتقاء او الخلاف او الحاجة .

وأثار فى ظل ذلك حملة ضخمة على الفقه والتشريع الاسلامى متهما اياهما بالقصور وعدم القدرة على الاستجابة والتطور .

غير أن هذه الحملة قد تحطمت على صخرة عاتية ، فقد عقدت مؤتمرات قانونية عالمية أشادت بالشريعة الاسلامية ، كان أبرزها مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى عام ١٩٣٢ الذى أكد مركز الشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع بعد البيانات والأبحاث التى قدمها الدكتور عبد الرازق السنهورى وعلى بدوى ومسيو لامبير وكان من نتيجة هذه الأبحاث أن قرر المؤتمر بالاجماع أن « الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن . وهى حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وانها جديرة بأن تشكل مصدراً ممتازاً من مصادر القانون وأكد استقلالها عن التشريع الرومانى » .

وقد أيد كثير من الباحثين الأوربيين المنصفين قوة الشريعة الاسلامية وقدرتها على مواجهة مطالب العصر ، وكان المسيو ادوار لمبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية فى القاهرة عام ١٩٠٦ كان قد أعد مؤلفا عن القانون المقارن ضمنه فصل عن الشريعة الاسلامية ، فلما جاء مصر اتصل بأعلام الشريعة وتاريخها وأصول تطبيقها ، وقد كان يظن أن القانون الرومانى أثر تأثيرا كبيرا فى الشريعة الاسلامية ولكن تبين له بعد ذلك أن هذه الشريعة مستقلة بذاتها . وأعلن أن فى الشريعة الاسلامية كنز لايفنى ومنبع لاينضب وانه خير ما يلجأ اليه المصريون فى العصر الحاضر فى البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمى » وقال أنه استبان له أن ليس للقانون الرومانى اى أثر فى الشريعة الاسلامية وأنها شريعة مستقلة .

وأعلن ليفى أولمان أستاذ الحقوق بجامعة باريس :

اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدرا للقانون المصرى .

وقال الدكتور ايزيكو انسابانو : أن الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا .

وقال فارس الخورى : ان محمدا أعظم عظماء العالم ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان واتمها واكملها، وان محمدا أودع شريعته المطهرة اربعةآلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية .

ولم يستطع علماء القانون المنصفون الا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس اليها باسم الله ولأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

وقال سنتلانا فى بعض مؤلفاته : أن فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم تقل ان فيه ما يكفى الانسانية كلها .

وقال سليم باز المسيحى اللبنانى « شارح مجلة احكام العدلية » : اعتقد بكل اطمئنان بأن فى الفقه الاسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات ولقضية والتزامات . وان فى مختلف خزائن البلاد الاسلامية ودور الكتب الأوربية فى هولندا وروما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى والمكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، الوف الكتب الفقهية الاسلامية التى هى جهود فحول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ولا حاجة من حاجات البشر فى التشريع الا تقدم لفقيه مسلم قول فيه ، وقال الدكتور محمود فتحى ان نظرية «الاعتساف» التى ابتكرها القانون المدنى الألمانى ١٧٨٧ قد تكلم فيها التشريع الاسلامى طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادى (أى قبل الف سنة) .

وقال الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا فى مؤتمر الحقوقيين : ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد اليها اذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد الفى سنة .

وقال هولكم استاذ الفلسفة بجامعة هارفارد : الشريعة الاسلامية تحتوى على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

وقال الدكتور عبد الرازق السنهورى : ان المقارنة بين الشريعة الاسلامية وبين شرائع الغرب كفيل بأن يظهر من ذخائر الشريعة الاسلامية فى المبادىء والنظريات مالا يقل فى رقى الصياغة واحكام الصنعة عن احدث المبادىء والنظريات واكثرها تقدما فى العالم الغربى .

وقال على بدوى : ليست مظاهر استقلال الفقه الاسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والأحوال الشخصية ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الاسلامى .

ويقول الدكتور صبحى محمصانى « فى كتاب العرب والحضارة الحديثة : التشريع الاسلامى كان وظل قادرا على التجاوب مع المجتمع . وقد فتح التشريع الاسلامى ابوابا للحفاظ على الغاية الاجتماعية والاقتصاد والاجتماع وقاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان (المقصور الفتوى) مسالك لصرف التشريع الى غايته الأساسية وهى تحقق مصلحة المجتمع الانسانى وقال : ان التشريع الاسلامى كان قابلا للتطور والنمو وملائمة الأمكنة والأزمنة المختلفة التى مرت عليه .

واشار «حسن جلال» الى انه فى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم أسبوع الفقه الاسلامى ودعت اليها عددا من المستشرقين واساتذة القانون فى الدول العربية وجرت أبحاث حول الفقه الاسلامى ، وأشار الى ان نقيب سابق للمحامين فى باريس قال : « لست ادرى كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى وعدم صلوحه اساسا تشريعيا يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبين ما نسمعه الآن مما يثبت بجلاء ان الفقه الاسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة اكيدة لامرية فى نفعها ، وان اختلاف المذاهب فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه ان يستجيب بمرونة لجميع مطالب الحياة الحديثة » .

* * *

الرد على ادعاءات المستشرقين

ورد كثير من الكتاب المنصفين على ادعاءات المستشرقين فقال الدكتور صبحى محمصانى (ك . العرب والحضارة الحديثة) انه مازعمه بعض المستشرقين

من ان الشريعة الاسلامية مقضى عليها بالخمول قول فاسد وقال ان ابرز ملامح الشريعة الاسلامية (١) ان الاجتهاد واجب فيها والتقليد الأعمى محرم (٢) ان الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا بل مجموع المذاهب (٣) ان توسيع الاستحسان والاستصلاح : كل ذلك كان له اثر فى جعل الشريعة الاسلامية من اعدل الشرائع واقربها الى المثل الاجتماعية العليا (٥) ان قاعدة تغيير الأحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص الى القرآن والسنة .

ودعا « جستنيان » ١٩٣١/١١/٧ (الأهرام) التى تجميع احكام الشريعة الاسلامية المتعلقة بالمعاملات فى (باندكت) اسلامى . وقال انه سيكون خير معوان للاسترشاد به فى اعداد موسوعة اسلامية عن المعاملات

* * *

الدكتور السنهورى

وقد خطا الدكتور عبد الرازق السنهورى خطوة واسعة فى سبيل التقنين الاسلامى المدنى عندما كان عميدا لكلية الحقوق فى بغداد فى وضع مشروع قانون مدنى جديد للعراق ، وان المشروع وضع على اساس احكام الفقه الاسلامى فى مذاهبه المتعددة (مطعما) بأحكام القوانين الأوربية .

وفى عام ١٩٣٨ بدأ الدكتور السنهورى والمسيو : لامبير فى وضع المشروع التجهيزى للقانون المدنى المصرى، متخذا من الشريعة الاسلامية اساسا وصفه « عبد المنعم الصدة » بأنه تراث قانونى طالما تنكرنا له واصدرنا فيه احكاما بالباطل وقال : أن مصر رزئت بقوانين اقتبس معظمها من قوانين اجنبية وضعت لأناس يختلفون عنا أشد الاختلاف فى العادات والأخلاق والبيئة ، واذا علمنا أن واضع قانوننا كان اجنبيا ادى مهمته فى أشهر معدودة، ولم يكلف نفسه فى اثنائها سوى القيام بنقل الأحكام التشريعية الأجنبية دون تعديل أو تحوير أمكننا ان ندرك الى احدى كان التعديل الزم » .

وقد أشار الدكتور السنهورى فى مقدمة كتابه « نظرية العقد » عن فكرته فى تمصير الفقه فقال : علينا اولا أن نحصر الفقه فنجعله فقها مصريا خالصا نرى فيه طابع قوميتنا ونلمس اثر عقليتنا ففقهنا حتى الآن لا يزال هو أيضا يحتله الأجنبى والأجنبى هنا فرنسى ، وهو احتلال آخر ليس بأخف وطأة ولا بأقل عنتا من أى احتلال آخر .

ان لدينا ثروة تشريعية بفرض علينا واجبنا ان نستغلها وأن نحسن استغلالها هى «الأحكام الشرعية الاسلامية» منها ما يعد مبادىء عامة أساسية هى بمثابة قواعد للنظام العام بحيث تسمو فوق كل تغيير أو تبديل ويتعين احترامها فى كل زمان ومكان » .

* ويقول الدكتور السنهورى فى كتابه نظرية العقد : « الشريعة الاسلامية شريعة الشرق ووجهها الهام وعصارة اذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ومشكاة من نور الاسلام يلتقى عندها الشرق والاسلام فيضىء ذلك بنور هذا ، ويسرى هذا فى روح ذلك حتى يمتزجا ويصيرا شيئا واحدا ، هذه الشريعة الاسلامية لو وطئت أكنافها وعبدت سبيلها لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا وفى تشريعنا ثم أنه ليشرفنا ان نطلع العالم بهذا النور الجديد فيضىء به جانبا من جوانب الثقافة العالمية فى القانون وقال : أنها دعوة باطلة تلك التى يقول أصحابها أن الشريعة الاسلامية التى كانت صالحة بالأمس لم تعد تصلح لأن يؤخذ بها اليوم .

وقد اوضح الدكتور محمد كامل مرسى وسيد مصطفى فى كتابهما (أصول القوانين) والدكتور على بدوى فى كتابه (تاريخ القانون) بجلاء ان الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وأنها غير ما يتوهمه البعض من ان احكام الشريعة الاسلامية ثابتة وغير متطورة ، وقال اننا حينما ننادى بالرجوع الى الشريعة الاسلامية لانطلب قلبا للأوضاع ومحوا لجميع الأحكام الحاضرة ، ذلك لأن جزءا كبيرا من التشريع الحالى يمكن قبوله واقراره وهو لا تنافى مع مبادىء الشريعة للاسلامية .

* * *

تجربة السنهورى

وأشار السنهورى الى تجربته فى التقنين المدنى الاسلامى (١٩٣٦/١١/٢٧) قال : وضعت نصب عينى عندما بدأت العمل فى وضع مشروع القانون المدنى أن أضع قانونا أوفق فيه ما بين احكام مجلة الأحكام العدلية وبين الشريعة الاسلامية بوجه عام . وأحدثت الأحكام المدنية المعمول بها فى البلاد الغربية . بدأت بوضع نموذج اخترته من بين التقنينات الغربية حديثها وقديمها ، واخترت لذلك بعض التقنينات الغربية وعلى رأسها

التقنين الفرنسى والتقنين المصرى والتونسى والمراكشى واللبنانى وأخذت من المشروع الفرنسى الايطالى و لتقنينات الجرمانية نموذجا يعد فى نظرى المثل الأعلى للتشريع المدنى فى العصر الحاضر . وبحثت ما يقابله من مذهب أبى حنيفة والمذاهب الأخرى الاسلامية . وهكذا قدمت للعراق مشروع عقد البيع مأخوذا من احدث التشريعات الغربية ولا يكاد يختلف فى شىء عن احكام الشريعة الاسلامية . وقد اخذ فقهاء المسلمين بعد تحفظات على وجهها الدكتور السنهورى .

* * *

موقف الفكر العربى من الحملة

وقد واجه الفكر الاسلامى المعاصر قضية التشريع الاسلامى مواجهة واضحة قوية كشف فيها عن عظمة هذا التشريع ومرونته وقدرته على مواجهة التطور والحضارة فى مختلف الأزمان والبيئات .

وقد دعا الفكر الاسلامى الى فتح باب الاجتهاد ورفض التقليد . وآمن بأن « المقلدون فى كل أمة المنتحلون اطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس » .

وظهر الاتجاه الى توحيد المذاهب الاسلامية وعدم التقليد بمذهب واحد ، على أساس الحقيقة التى تقول بأن الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا بل هى مجموع المذاهب دون تقييد .

وقد كشف عن ان الخلاف بين المذاهب لم يتم على المبادىء والتعاليم الأساسية بل كان وقفا على الفروع ، وان اختلاف المذاهب كان من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها ، وأن بعض الأحاديث قد وضعت فى بعض عصور التاريخ الاسلامى خدمة للسياسة وانتصارا لبعض الأحزاب (الدكتور محمصانى (ك) العرب والحضارة الحديثة) .

وكشفت الدراسات المختلفة عن ان الجماعة الاسلامية اعتقدت فى العصور المتأخرة أن أبواب الاجتهاد قد أقفلت فى وجه اى تفسير مما ادى الى ركود المجتمع الاسلامى . وأن الحركة الوهابية سبقت الغزو الثقافى وكانت ايذانا باليقظة وفتح باب الاجتهاد ، وقد ظهر هذا التيار وتعمق من بعد داعيا الى العودة الى القرآن والسنة واعادة فتح باب الاجتهاد واعادة تفسير قوانين الاسلام للجماعات وكشف الطبقة الجامدة التى علت وجه الفكر العربى الاسلامى وجرى تطويع القوانين العلمانية الغربية للحياة الاسلامية كما فعل الدكتور عبد الرازق السنهورى فى اعداد القانون المدنى فقد نص فى آخر مادة فى هذا القانون على انه اذا درست قضية وثبت انه لا يطبق عليها اى قانون وجب أن يعتمد الحكم فيها على ارحب تفسير لأى قانون اسلامى فى أحد المذاهب .

وكشفت هذه الأبحاث عن حقائق لا سبيل الى الشك فيها وهى أن الاسلام من حيث كونه نظاما مدنيا قد توافرت فيه مرونة تمكن المجتمع الاسلامى من التطور دون اهمال قواعده الأساسية باقراره حكم العادة والاجتماع والاجتهاد .

وأنه تشريع مرن قابل لأن يكون تشريع كل زمان ومكان وله القدرة على مسايرة حاجات المدنية الطارئة واحوال المجتمع المدنية .

وأن الاسلام لم يكن عائقا للمجكتمع عن التقدم ، وكانت صيحة جمال الدين الباكرة « يجب أن تتحرر عقول الناس من كدر الخرافات وصدأ الأوهام » وأن الاسلام دين ومجتمع وسياسة واقتصاد .

وكان هذا ردا حاسما على الحملات العنيفة التى وجهها الغرب الى الاسلام بقصد تنحيته عن مكانه فى الحياة العربية والقضاء على جوهره ومفاهيمه فى الجهاد والمقاومة والحرية من ناحية والقضاء على جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتغليب الأنظمة الغربية بحسبانه انه القوة التى تقاوم الاستعمار ، وذلك جريا وراء تمزيق الوحدة واضعاف الجبهة المذهبية والعصبية الشعوبية والحيلولة دون مبادىء الاسلام وتعاليمه وبين التطبيق والابقاء مع صلاحيتها التامة للمجتمع وقابليتها للتطور وضرورة بقائها .

وقد قال (ويلفرد كانتول شمت) بصدد الاشارة الى محاولة بناء مجتمع اسلامى فى القرن العشرين ان تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوحدة لن تثمر الجهود البته .

وبذلك كله فشلت دعوة التغريب فى « اقصاء الاسلام عن مجال الحياة ومناهج التربية والقضاء والحكم » .

لمـا كان الأزهر هو اداة الاسـلام وبوتقته فقـد حرص الاسـتعمار فى أن يوجـه اليه اعنف حمـلة وجهها فى معركة الغزو الثقافى كمحاولة للقضـاء عليه كمعقل من معاقل الاسـلام واللغة العربية ، وعاملا من عوامل التجمع الوطنى والقيـادة الشعبية . ولم ينس الاسـتعمار أنه كان مركزا ضـخما من مراكز المقـاومة للاسـتعمار الفرنسى ١٧٩٨ والاستعمار الانجلـيزى فى ثورة ١٩١٩ ، كان بوتقة الحركة الشعبية التى قاومت ظلم الحكام والأمراء والمماليك فى عهد ابراهيم ومراد ثم فى عزل الوالى خورشيد .

ولمـا كان الاستعمار حريصا على القضاء على كل ما يتصل بالدين واللغة والتـاريخ من مقومات الفـكر والشخصية العربية الاسلامية فقد كانت الحملة على الأزهر خفية مستترة لها طابع دقيق حتى لا تثير ثائرة الشعب ، وقد استطاع الاستعمار بأساليبه الماكرة أن يدير المعركة من الداخل وان يركز على التعليم المدنى ويعزله عن الأزهر على نحو خلق ثنـائية التعليم . اقصى الدين عن التعليم المدنى . ثم اضطهد بواسطة كرومر ودنلوب كل المدرسين الأزهرين وابعدهم عن المدرسة المدنية . بل أن هـذا الاتجاه قد عمقه الاستعمار فى محيط الحياة العملية حتى ابعـد خريجى الأزهر عن جميـع الوظائف فى دواوين الحكومة .

وقد كان الصراع الداخلى فى الأزهر هو اهم العوامل التى اوقفت خطة اصـلاح الأزهر فقـد قامت فى الأزهر جبهتين هما : جبهة الاصلاح والتجديد والاجتهـاد وعلى راس هذه المدرسـة الشيخ محمد عبده والجبهة الأخرى هى جبهـة التقليديين والمحـافظين والمؤمنين بغلق باب الاجتهاد وابقـاء الأنظمة القديمة فى التعليم على ما هى عليه ، لذلك قامت منذ اول القرن معركة متصلة بشـأن تجـديد الأزهر واصـلاحه وتنظيمه . وليس شـك أن الاستعمار كان حريصا على تجميد الأزهر وابقـاءه على منهجه القديم لا يستجيب للزمن كوسيلة من وسائل افنائه والقضاء عليه .

كما واجه الأزهر حملة اخرى من خارجه قام بهـا تلاميذه الذين اتجهوا الى الدراسات الأوربية والغربية ، واتصـلوا بالمستشرقين والمبشرين وكانوا أشد عنفـا وقسوة من الاستعمار عليه : أمثال طه حسـين وزكى مبارك وعلى عبد الرازق .

وقد اتصل الاستعمار بالأزهر على نحو ما ، حين ارتبط اعضاء هيئة كبـار العلماء بالسـفارة البريطانية والخديو والملك والاحزاب السياسية وكان الأزهر يوما ما اداة فى هذا الصراع بين الملك والأحزاب .

وفى هذا ما اشار اليه المقطم (أبريل ١٩٢٦) من أن كبار العلماء وفى مقدمتهم اصحاب الفضيلة الأسـتاذ الأكبر شـيخ الجامع الأزهر ورئيس المحـكمة الشرعية العليا ومفتى الديار المصرية بعد احياء ليلة القدر فى جامع الرفاعى يتوجهون الى دار المندوب السـامى فى الساعة العاشرة من مساء اليوم « اجابة لدعوة فخامه لورد لويد فيقضون السهرة فى تلك الدار » .

وقد كان ذلك مثارا لمعركة حامية أريد بها تشويه سمعة الأزهر فقد كتب فكرى أباظة فى الأهرام (٤/٩/ عام ١٩٢٦) يقول « اذن من الساعة العـاشرة حتى السحور سيمضى أصحاب الفضيلة العلماء السهرة فى دار الوكالة البريطانية بعد جامع الرفاعى. أى أنهم سيمضون ليلة القدر فى دار الوكالة . « بعيش الاسلام يا علمـا » ليلة القدر التى هى خير من الف شهر ، والتى يتلى فيهـا القرآن وتصـلى فيها الصلوات وتؤدى فيها العبـادات سيمضيها أصحاب الفضيلة فى دار حضرة صاحب الفخامة الحسـيب النسيب الشريف اللورد لويد السـكسونى البروتستانتى الأصلى .

كلوا هنيئا واشربوا مريئا بالله عليكم سادتى العلماء ليلة القـدر فى دار الوكالة البريطانية ولكن .. اذا رأيتم اللورد قد اضطر لشرب كاس من الوسكى حسب عادته « فصهينوا » أن الله يحب المصهينين يا علماء : أعربوا ما يأتى « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

وسخرت السياسة الأسبوعية (١٠/٤/١٩٢٦) من

الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية حين اشارت الى ان دعاءه ليلة القدر فى دار المندوب السامى كان :

اللهم يا مجيب كل سائل ورازق كل عالم وجاهل ، أنزلنا بسلطانك من هذه الدار خير المنازل وامنحنا حمايتها من كل لائم وعادل . وقربنا اللهم من ذى البأس الشديد مولانا السيد العميد ، وابسط لنا فى ظله المدود وحوضة المورود » .

وقد كان هـذا جزءا من حملة الغزو الثقـافى التى حرصت على تصوير الأزهريين بصورة مغرقة فى المادية، وذلك عن طريق ايجاد فوارق فى التقييم المادى للمتخرجين من النوعين من التعليم مما جعل الأزهرين يتصورون أنهم أقل قيمة أدبية وأقل منزلة . وكان اتجاه الأزهريين الى طلب المساواة فى التقدير المادى هو ما استغله الاستعمار لتصوير الأزهريين بأنهم اصحاب دنيا وليسوا أصحاب رسالة على نحو ما صوره الدكتور محمد البهى — « بأنه أدى الى أن تخف منزلتهم رويدا رويدا من نفوسهم ، ويعلم الله انهم لم يكونوا اصحاب دنيا وانما أرادوا أن يعيشوا فقط من اجل رسالة ازهرهم وهى فى الواقع رسالة مقاومة الاســتعمار » . وأشار الى أن هـذا العمل قد بلغ به المستعمر غاية له وهى « اضعاف المنزلة الأدبية للأزهر والمتخرجين فيه فى الرأى العام المصرى والرأى العـام الاسلامى العالمى » ..

* * *

(٢) الأزهر والاستعمار

وتتجلى مفاهيم الاستعمار لرسالة الأزهر فيمـا صوره لورد لويد ١٩٢٨ عن المهمة التى بدأها لورد كرومر ومضى فيها لتعويق الأزهر عن مهمته والحيلولة بينه وبين رسالته ، ومن رأى الاستعمار أن الأزهر هو مركز خطير من مراكز الدعاية ضد بريطانيا وانه فى مهمته تلك متعدد الامكانيات ، وأن الوطنيين قد استغلوا ذلك لتأييد مآربهم مما ترتب عليه نمو روح المعارضـة الشديدة لسـيطرة الانجليز على التعليم . ولما كان الانجليز يريدون القضاء على كل مقاومة فقد اتجهوا الى الأزهر الذى كان اسلوبه الوطنى عاملا هاما من عوامل المقاومة لتمسـكه بالدين ووصـفوا منهجه بأنه من الأساليب الجـافة القـديمة التى تقف حاجزا فى طريق أى اصلاح تعليمى كما وصفوا خريجى الأزهر بأنهم يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الدينى ولا يصيبون الا قدرا ضئيلا جدا من مرونة التفكير والتقدير .

وكان الاســتعمار يهدف من وراء ذلك الى غرض ماكر هو ان يلتقى الأزهر بالاستعمار فى « مرونة » تبعد عنـه ما اطلق عليه روح التعصــب . فاذا لم يستطع الأزهر التجــاوب فان ممثل بريطانيـا يعمد الى تجميد الأزهر والاتجاه الى التعليم المدنى الذى يحقق له ما يريد من تفاهم ولا شك ان ممثلوا الاستعمار البريطانى قـد اخفقوا فى أن يحققوا هذا اللقاء مع الأزهر كما اخفق من قبل المستعمر الفرنسى وفى كلا الحـالين عجزوا عن أن يحققوا فى الأزهر خطة تؤدى الى ما اطلق عليه « اختفاء التعصب » والواقع أن اصلاح الأزهر على النحو الذى اراده له الأبرار من دعاته لم يكن المقصود به القضاء على روحه الوطنية فى مقاومة الاستعمار وانما كان يراد به أن يحقق عن طـريق فتح باب الاجتهـاد والتطور فى نظمه ومناهجه خلق قوة أشد قوة لمقاومة الاستعمار والغـزو الثقافى واسـتبداد الملوك وطغيان الساسـة والاقطاع وفسـاد انظمة المجتمع السـياسية والاجتماعيـة والاقتصادية .

فهذه هى المهمة الأساسية التى كان الأزهر مسئولا عن مواجهتها على نحو ايجابى قوى .

* * *

(٣) الأزهـــر والسياسة

تأثر الأزهر بالصراع الحزبى وسـيطرة الاستعمار بعد ثورة ١٩١٩ وجرى فى مجارى الحزبية السياسية ، وكان أن أصبح للأزهر لونا حزبيا ومشـاركة فى الخلاف بين الملك والوزارة أو بين الأحزاب بعضـها البعض ، ويروى عبد الرحمن الرافعى (ك : فى أعقـاب الثورة جـ ١) « أنه ظهرت فى نهاية وزارة سعد زغلول ١٩٢٤ معارضة قوية فى صـفوف الأزهريين ضد وزارة سـعد ولم يعرف على وجه التحقيق سر هذا التحول على انه قد بدأ على اثر تقديم لجنة الفتها الحكومة لاصـلاح الأزهر تقريرها الى الحكومة وعدم نشره وحسبان الأزهريين أن مطالبهم لم تتحقق فأضربوا عن الدرس فى أوائل نوفمبر ، وقام المضربون فى العاصمة بمظاهرة كبيرة فى الشـوارع نادوا فيها نداء جديدا لم يكن مألوفا من قبل : « لا رئيس الا الملك » بعـد أن كان نداءهم المألوف « لا رئيس الا سـعـد » فعرف من أية ناحية حدث الايعاز بهـذا الاضراب وفهم ان السراى ارادت أن تحـرج الوزارة فأثارت مسألة الأزهـر وكان معروفا أن السراى تؤلب الأزهر على الوزراء وتدبر مظاهرات الأزهريين » .

وفى مذكرات الشـــيخ الظواهرى اشار الى ظروف تعيين شـــيخ الأزهر (أواســط عام ١٩٢٧) بعد وفاة الشيخ أبو الفضــل الجيزاوى . وتدخل اللورد لويد فى شئون الدين ونصيحته بتعيين الشيخ المراغى .

وقد أثار الظواهرى شبهات كثيرة وكان خصــما للمراغى وعلى خلاف دائم معه خلال فترة تبادلهما تولى مشيخة الأزهر الواحد بعد الآخر فى خلال فترة تمتــد من عام ١٩٢٧ الى عام ١٩٣٥ .

وكما وقع الخلاف بين الشيخ محمد عبده ــ ولم يكن شيخا للأزهر ــ وبين الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر حول اصلاح الأزهر وتجديده . فقد صــنع الاستعمار محورين فى الأزهر : أحدهما المراغى (٢٢ أغســطس عام ١٩٤٥) داعية اصــلاح الأزهر والرجل الذى يدين بمذهب محمد عبده وابن تيميه فى مفاهيم الاصلاح وتحريره من الزيوف والبدع وبين الظواهرى (١٣ مايو ١٩٤٤) صــديق الملك فؤاد والرجل الصــوفى المعروف بمحبتــه للأولياء والمؤمن بروح الأزهر التقليدية. وقد تولى المراغى شيخا للأزهر على كره من الملك فؤاد ثم قدم مذكرته فى اصلاح الأزهر ، وكان لها ضجيج فلما احس بمعارضتها من جهات متعددة كانت لا ترغب فى تطوير الأزهر قــدم استقالته ، هنالك ولى الظواهرى هذا المنصب واتيحت له الفرصة لأن يتحقق على يديه تنظيم للأزهر فى صــورة الأنظمة الحديثة .

ويقتصر مفهوم الاصلاح عنده الى حد تهذيب الكتب وطرق التــدريس . غير ان عهده وقــد اقترن بظروف سياسية حادة فاضطر الى أن يواجه ثورة أزهرية ضخمة كانت تطالب بعودة المراغى ، فلم يلبث ان استقال وعاد المراغى الى الأزهر مرة أخرى .

ولقد حاول الشيخ الظواهرى فى مذكراته أن يصور الشيخ المراغى بأنه صديق الانجليز لأنه أمضى مدة طويلة من حياته فى القضاء الشرعى فى السودان « وكان طبيعيا أن تنشأ الألفة والمودة بينه وبين كبار الموظفين البريطانيين وساستهم فى ذلك القطر الشقيق » .

وانه « هذه الفترة الطويلة التى قضاها الشــيخ المراغى قاضيا فى السودان قد مهدت له الفرصة الواسعة لكى يتعرف على عقلية هؤلاء الانجليز ويتفهم مشاربهم ومقدار تفكيرهم وحكمهم على الأشياء فلقد تصادقوا ، ولقد جلس وتناقش معهم فتبادلوا المودة وارتاح كل منهم للآخر » . وأشار الظواهرى الى أن « المراغى » قد اشــتهر عند الانجليز بسعة العقل والفــكر وذلك « عندما افتى ابان الحرب العالمية الأولى وكانت تركيا قد اعلنت الحرب وقتئذ على بريطانيا بأنه لا مانع من محاربة المسلم لأخيه المسلم. فقد كانت هذه الفتوى من أسباب استقرار النظام حينئذ فى السودان » .

وأشار الظواهرى أيضا الى أن الشــيخ المراغى الذى رشــحه الانجليز كان منذ تخرجه قد ترك الأزهر فنســيه زملاؤه الأزهريون لأنه لم يجلس معهم للتدريس على الكراسى المقامة بجوار الأعمدة ولم يتخرج احــد من الطلبة على يديه .

وذكر الظواهرى أن عودة المراغى للمرة الثانية الى الأزهر كانت بســعى الانجليز أيضا وان ذلك كان ابان مرض الملك فــؤاد اذ طلب مايلز (لامبسون) السفير البريطانى تعيين المراغى شيخا للأزهر ، وتســاءل عن الدوافع لرغبة الانجليز فى عــودة المراغى للأزهــر ، « اعلان ذلك صراحة فى الجرائد مع أن هــذا المنصب ، منصب دينى ولم يسبق تدخلهم فيه بهذا الشكل الظاهر » واشـــار الظواهرى الى أن الأزهر قد زج به فى خصم السياسة الحزبية فيما عــدا تدخل الأحزاب والمنــدوب البريطانى فى اختيار شيخ الأزهر وذلك « عندما ، تألفت فى الأزهر لجان للوفــد وأخرى للأحرار الدســتوريين ، فانصرف الطلبة بالسياســة عن الدرس وعن التحصيل والتفقه فى الدين وشغلوا بالنقاش الســياسى والتهريج السياسى والدعاية السياسية » ا . هـ .

وفيما يتصل بالسياسة وموقف الأزهر من الملك ، اخذ على علمــاء الأزهر انهم أيدوا رغبــة الملك فؤاد فى مطمعه بالخلافة وعقدوا مؤتمرا هاما لتأييد تنصيب الملك فؤاد خليفة للمســلمين بالرغم مما قد يتعارض مع مفهوم الحاكم واهليته لمثل هذا المنصب الاسلامى الكبير مما عد انه تأييد من الأزهر لحاكم مستبد .

الازهــر ودعــاة التغــريب

ولقد كان للأزهر دوره الواضــح فى مقاومة دعاة التغريب اذا دافع عن الاســلام ازاء كل حملة من هــذه الحملات ، فقد هاجم الأزهر : الالحاد والاباحة والبغــاء والتبشير ووقف موقفا حاسما بالنسبة لكتابى « الاسلام واصول لحكم » لعلى عبد الرازق و « الشعر الجاهلى » لطه حسين باعتبارهما ازهريين .

وقد كان هذا سببا هاما من أسباب حملة الصحافة على الأزهر ، وخاصة جريدة السياسة والصحف ذات اللون التغريبى ، وقد حملت جريدة السياسة على الشيخ محمد بخيت انتصارا للشــيخ على عبد الرازق وبلغت فى ذلك حد القول (١٢ اغسطس ١٩٢٥) « بان الدستور يكفل للناس حرية الاعتقاد . ويبيح لهم بذلك أن يتبرئوا عن دين الاســلام من غير أن يكون لهم فى ردتهم جــرح وهذه قوانين الدولة تبيح لهم الخمر وبمنازل الدعارة ، وبيوت القمار رخصا وتصدر ببيوت الربا قوانين » .

ورد الشيخ بخيت يهاجم هــذا المنطق ويقول كيف يعقل أن الدستور يبيح المسلمين أن يرتدوا عن دين الاسلام .

وقد سخرت السياسة الأسبوعية (١٠/٤/١٩٢٦) من الشيخ بخيت فقالت « أنه لا يعرف شيئا فى الشــيخ بخيت ثابتا لم يتغير الا عمامته فانه والحق يقال لم يغيرها الا مرة واحدة يوم توفى الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر » واتهمته بانه يتلون بكل لون وينتقل فى أى شكل لأنه اشتغل فى مطلع عمره باخراج العفاريت !

كما هاجمت السياسة الشيخ محمود ابو العيون فى حملته على البغاء أعنف الهجوم .

وهاجم طه حسين الأزهر سنوات طويلة بعد معركة كتاب الشعر الجاهلى .

وكان فى حملاته بعيدا عن روح البحث العلمى الذى يدعى أنه من رواده ساخرا متهكما كقوله « انا اعلم ان عمامة الشيخ تضيق بفهم هذه الكتب العلمية الخالصة التى يطبعهــا جمــاعة من المصريين والأجانب الشرقيين والغــربيين » وكان ذلك فى موقف دفاع من الأزهــر من كتاب حوى سبا للاسلام كان مقررا على طلبة الجامعة .

كما دعا طه حســين الى الغــاء الأزهر والى منع خريجيه من الاشتغال بأى عمل من الأعمــال ، ودعا فى كتابه مستقبل الثقافة الى ان يصبح الأزهر كلية دينيــة يدخلها من شاء بعد أن يتم تعليمه الثانوى — ولطه حسين مقال معروف ٣١ اغسطس ١٩١٣ قال « وجه الصواب فى اصلاح الأزهر عبارة عن حملة عنيفة على نسق الشعر المنثور ، هكذا هم جاهلون فى اللغة العربية ، هم جاهلون فى الفارســية والتركية والهندية ، هم عاجزون عن أن يذودوا عن الدين ويردوا عنه كيد خصومه. هم عاجزون لأنهم يجهلون الديانات الأخــرى ، هم عاجزون عن رد المخالفين . هم عاجزون عن أن يؤدوا ما للاسلام عليهم» والمقال كله قطعة من الحقد والخصومة والتعصب .

ولعلى عبد الرازق حملات متعددة على الأزهر غير ان أعنف ما كتب هو محاضرته التى القــاها فى الجامعة الأمريكية ١٩٣٢ (عن الدين واثره) فى وقت كانت البلاد تضــج من آثار حملة التبشير التى كان مصــدرها نفس الجامعة الأمريكية .

وقد وقف على عبد الرازق على منبر الجــامعة الأمريكية ابان هذه الحملة ليقول : أن حركات التبشــير المسيحى لا خطر منها على الاسلام .

ولقد كان هــذا عملا خطيرا فى عالم الفــكر عندما تستخدم الجامعة الأمريكية — مصدر التبشير والتى كانت تواجه أعنف حملة من الصحف والأزهر ورجال الفكر — شيخا ليهزا بالتبشير ولقد كان هذا نفس موقف طه حسين الذى تحدى المشاعر الوطنية والاسلامية فافتتح موسم

المحاضرات فى الجامعة الأمريكية فى عام التبشير — يقول على عبد الرازق « يخيل لمن يسمع حينا بعد حين أن المبشرين قد فتنوا طفلا أو خادعوا فتاة أن الأمر جلل وان الاسلام منهم على خطر . غير أن الذى يستنطق الأرقام ويستمع الى صوت الحقائق يجد اولئك المبشرين اقل شأنا من أن يصلوا بكيدهم الى حمى الاسلام أو ينالوا منه منالا ، ولن تبلغ جهود المبشرين وان تعاظمت ولا حيلهم وان دقت ما بلغت من قبل تلك الغوائل التى تقف فى طريق الاسلام » .

وقد حاول على عبد الرازق فى محاضرته بعد أن عدد ما وقع للاسلام من اخطار أن يعلن انالاسلام بخير ، وهو منطق عجيب .

اشار الى ان المصريين قد احتكموا الى غير قوانين الاسلام وان القوانين قد أصبحت فى مصر تؤخذ احيانا من قوانين أوربا والى أن الاسلام صريح فى تحريم الربا ، وأن المصريين قد أخذوا نظام البنوك ، وأشار أن الأزهر قد انشأ لتعضيد السياسة بانشاء قوة دينية « وما برح الأزهر يومئذ ربيب السياسة وآلة الحكام السياسيين وسندهم » ثم أشار الى الغاء الخلافة وتساءل عما اذا كانت هذه الأحداث كلها قد اثرت فى الاسلام . ثم قال أنها لم تضعف روح الدين وقال أن اصابة الخلق المصرى بالضعف والانحلال ظاهرة خلقية أنبغى أن يشتغل بالبحث عنها علماء الأخلاق قبل علماء الدين ، وقال أن خطر المبشرين هو خطر سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى وعلى رجال السياسة والأخلاق أن يبحثوا فى طريق الخلاص منه » وكان مفهوم الشيخ على عبد الرازق فى « الدين » هو مفهوم المبشرين والمستشرقين وخصوم الاسلام وهو أن الدين عبادات وليس نظاما اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ثم سخر من الدين والاسلام والأزهر فى نهاية محاضرته وقال « من كان يظن أن الاسلام بين جدران الأزهر وبين اللحى والعمائم فان الحضارة الحديثة فى مصر ستقضى على دينهم الذى يزعمون وتجتثه اصولا وفروعا » .

* * *

الدفاع عن الأزهـــر

وقد حاولت الصحافة الغربية أن تصور الأزهر فى كل مناسبة بصورة رجعية جريا مع معركة الغزو الثقافى.

ومن ذلك أن جريدة المورننج بوست كتبت فى (يناير عام ١٩٢٤) عن الأزهر انه هو « تلك البؤرة التى تضغط فيها على الأفكار لطمس العلوم حيث ما زال التلاميذ يتعلمون ان الأرض مسطحة وان الشمس تدور حولها «

وقد تصدى للرد على هذا رجل من خارج الأزهر هو احمد زكى باشا (الأهرام ١٩٢٤/٢/١) فأشار الى ماذكره الشريف الادريس وفضل الله العمرىوشهابالدين النويرى والأصفهانى « وكلهم قالوا بكرية الأرض من القاهرة التى نعيش فيها » . وقال أن علماء الأزهر قالوا بكرية الأرض . وانها تدور حول الشمس بينما كان البابا بعد ذلك بزمان طويل يصب أنواع التعذيب والتعزير على كل من هذين العبقريين الطليانى والبولندى اللذين قالا بعدهما فى بلاد أوربا بمثل هذا القول » .

* * *

مواجهة الأزهر الحضارة

وتعرض كثير من الكتاب للرد على ما اتهم به الأزهر من روح الجمود التى ترددت فى كثير من كتابات المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب بأن الأزهر قد شارك نقطة باكرة وكان له دور ضخم فى ميدانين :

الأول : مواجهة الحضارة بروح الاسلام وتقبل جوانبها الايجابية .

الثانية : مواجهة الاحتلال والاستعمار ومقاومته والجهاد فى سبيل دفعه وقتاله فى أكثر من معركة .

وقد كشفت هذه الأبحاث ان الشيخ حسن العطار وتلاميذه هى المدرسة الأولى التى واجهت الحضارة الغربية ابان الحملة الفرنسية ، فقد كان العطار خطيب أول حفل لتخريج أول فوج لمدرسة الطب فى كلمة اشار فيها الى أن العلم دولى وان الحضارة عالمية وان الأغريق والمسلمين ساهموا فيه يوما ما وان الأوربيين الآن هم اصحابه وان على المسلمين المحدثين ان يقبلوا عليه .

وهو الذى حرض تلاميذه على عبور البحر الى الغرب . فكان تلميذه رفاعة الطهطاوى أول رائد للفكر العربى المعاصر فقد استطاع وهو الأزهرى أن يدرس الفرنسية وأن يترجم منها وينشىء تيارا ضخما قوامه الجمع بين ثقافة العرب وثقافة الغرب .

وقد قام رجال الأزهر فى هذه الفترة بدور ضخم فى الدفاع عن مصالح الشعب وقد كان علمــاء الأزهر كما وصــفهم الشيخ الشــبراوى (١٧٥٠) « انمــا نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند ارباب الدولة والحــكام » .

ولم يبد الأزهر مقاومة لحركة التجديد ، بل تقبلها واعلن أن الاســلام لا يمانع فيها ، وقد أشار الشــيخ الجبرتى الى انه شاهد مع الشيخ العطار بعض تجــارب العلم واعلن ان الاسلام أقرب الى التجدد منذ البداءة وان التغريب ليس له قيمة اذا اقتصر على مجرد التقليد للغرب دون أن يكون تطعيما للميراث القديم .

* * *

صلاح الأزهر

وأشار الباحثون الى ان الأزهر حفظ اللغة العربية من طغيان اللغات الوافدة عليها ومن غلبة العــامية وان الشيخ حســن العطار اول من نبه الى اصلاح الأزهر بتقصى برنامج العــلم فيه وكان شــيخا له (١١٨٠ — ١٢٥٠) واشــار الى النقص كان ســببه اهمال كتب المتقدمين واهمال العلوم الحديثة والرياضة وأن الحمــلة الفرنسية كان لها أثرها فى نفسه .

كما دعا الى اصلاح الأزهر رفاعة الطهطاوى وهو تلميذه الذى وجهــه الى دراسة العلوم التى نبغ فيهــا الغرب . وقد دعا رفاعة الى ادخال العلوم العصرية فى الأزهر .

وكان جمال الدين الأفغانى من دعاة اصلاح مناهج الأزهر وقــد درس لمريديه خارج الأزهر علوم الــكلام والحكمة والهيئة والتصوف .

وقد جرت فى هذه الفترة محاولات لادخال العــلوم الرياضية والفلسفة غير أن شــيوخ الأزهر كانوا يرون بقاء القديم على قدمه ، وان النظر فى تلك العلوم ليس من شأنهم ولا حاجة لهم به — على حد تعبير عبد المتعــال الصعيدى فى كتابه « تاريخ اصلاح الأزهر » .

* * *

دور الشيخ محمد عبده

وتردد حديث طويل عن دور الشيخ محمد عبده فى اصلاح الأزهر والمؤامرات التى واجهت هذه الاصلاح . فقد حاول اقناع الخديو عبــاس باصلاح الأزهر وقال : « ان فى الامكان اصلاح الأمة باصــلاح الأزهر والمحاكم والأوقاف » غير ان كل ما وصل اليه هو انشاء مجلس ادارة الأزهر ١٨٩٦ م كان هو وعبد الكريم سليمان من اعضــائه وقد جرى خلاف فى وجهــات النظر حول مدى الاصلاح . وكان من رأى محمد عبده أن يكون اصلاحا كاملا يقضى على كل اثر للجمود فى الأزهر (على حــد تعبير عبد المتعــال الصعيدى) فلم يوافقــه أولو الأمر ونصحوه بالتدرج وكان من رأى بعض شــيوخ الأزهر الجامدين اصــلاح نظام التدريس والامتحان وكان هدف محمد عبده من شقين : الأول : الاصلاح الدينى وبعث روح الاجتهاد (والثانى) اصلاح المناهج .

وتحقق بذلك وضــع قانون يقوم باصــلاح نظام التدريس والامتحان أصبح به الأزهر ادارة نظامية وقــد سجل قانون الأزهر رقم ١٠ لسنة ١٩١١ أن الغرض من الجامع الأزهر هو :

- القيــام على حفظ الشريعة الغراء أصــولها وفروعها .
- تعليم اللغــة العربية ونشرها على وجه يفيــد الأمة .
- تخريج علماء يوكل اليهم أمر تعليم هذه العلوم فى المعاهد الدينية ومدارس الحكومة .

وقد روى أن الشيخ عبده هوجم فى معارضته للنظام القديم وقيل له فى مجال التدليل على تأكيد النظام القديم أنه تعلم ووصــل عن طريقه الى أرقى الدرجات فأجاب « ان كان لى حظ من العلم الصحيح فأنى لم احصله الا بعد أن مكثت عشر سنين اكنس من دماغى ما علق به من وســاخة الأزهر وهــو الى الآن لم يبلــغ ما أريده من النظافة » .

غير أن النظام الذى اقره الشيخ عبده لم يلبث أن عطل عند ما وقع الخلاف بينه وبين الخديو فانقلب أهل الأزهر على النظــام الحديث ووجه الشــيخ الظواهرى خطابا للخديو يطلب فيه الغاء النظام الجديد والعودة الى

ما أسماه « الدين كما تركه لنا الائمة » مشيرا الى « أن ما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهريه» وكانت الحجة التى حمل لواءها دعاة المحافظة هو أن النظام الجديد من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فى الأزهر ويحوله الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره .

وقد أيد الخديو ادخال العلوم الحديثة ورفض ما يسمى (بالاصلاح الدينى) وهو فتح باب الاجتهاد .

ثم لم يلبث العمل الجديد أن تميع لاختلاف مناهج التفكر بين مشايخ الأزهر فى هذه الفترة ، وقد كان الشيخان : سليم البشرى وعبد الرحمن الشربينى من أعداء النظام الجديد .

ثم لم يلبث الأزهريون أن ثاروا على النظام الجديد فصدر الأمر بالغائه عام ١٩٠٩ وكانت حجة الأزهريين أنه يلزمهم الامتحان فى العلوم الحديثة ويأخذهم بكثير من التكاليف وقد أعيد النظام القديم ١٩١٠ .

***

الأزهر القديم والأزهر الجديد

وتعد حركة الشيخ محمد مصطفى المراغى ١٩٢٩ هى المرحلة الثالثة لحركة الاصلاح التى دعا اليها الشيخ محمد عبده .

وتنصب دعوة المراغى على عنصرين أساسيين : (١) اصلاح الأزهر (٢) فتح باب الاجتهاد فى الدين والعلم .

وقد لقى منهج الاصلاح الدينى من أنصار الجمود فى الأزهر وخصوم الاجتهاد معارضةشديدة كما لقيها هذا المنهج قبل ثلاثة وثلاثين عاما (١٨٩٦ — ١٩٢٩) .

وقد ركز المراغى فى مذكرته التاريخية التى أعلنها فى (١٩٢٨/٨/٥) على أن العلماء فى القرون الأخيرة استكانوا الى الراحة وظنوا أن لا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس . وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث . وجهلوا ما جد فى الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء . فأعرض الناس عنهم ونقموا على الناس فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا انفسهم له وأصبح الاسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين .

وفى الاسلام عبادات وعقائد وأخلاق . وفقه فى نظام الأسرة وفقه فى المعاملات مثل البيع والرهن وفقه فى الجنايات .

وقد عرض الاسلام لعقائد لم تكن لأهل الأديان . وهوجم الاسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة ، هوجم من اتباع الأديان السابقة وهوجم من ناحية العلم ، وهوجم من أهل القانون ، لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدا تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ومعرفة ما فى الأديان السابقة ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الاقناع حيث يتطلب فهم الاسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحا وتتطلب معرفة فقهها وآدابها . والتاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره يتطلب العلم بقواعد الاجتماع » .

وقد كان لمذكرة الشيخ المراغى ضجة كبرى فى الصحف وأوساط الفكر والاصلاح ، وقد أقرت لجنة اصلاح الأزهر منهجه ، ثم لم تلبث سلطة الاستعمار المسيطرة على جهاز الحكم أن أوقفت المشروع طويلا وأشيع أن الملك فؤاد رفض مشروع المراغى فقدم استقالته .

وتولى « الظواهرى » مشيخة الأزهر وكان له من قبل رأى فى اصلاح الأزهر يختلف عن رأى المراغى ، ويقف عند اصلاح المناهج فى تهذيب الكتب وطرق التدريس .. دون النظر الى فكرة الاصلاح الدينى وفتح باب الاجتهاد فى العلم والدين التى وقف الاستعمار دونهما فى مشروعى محمد عبده والمراغى ، وتنفيذ مشروع اصلاح الأزهر على النحو الذى ارتضاه الاستعمار والملك فيما يتعلق بنظام المدرسة فحسب ، فلما أعيد المراغى ١٩٣٥ أعاد نشر مذكرته ومشروعه غير أنه فيما يبدو لم يتحقق الجانب الخاص بالاصلاح الدينى ، يقول عبد المتعال الصعيدى فى كتابه تاريخ الاصلاح فى الأزهر : « أن المراغى رأى بعد عودته للمرة الثانية مسالمة الرجعية فى الأزهر فلم يفاضبها كالمرة الأولى وآثر استعمال نفوذه فى ارضاء مطامعهم فى الوظائف وسار على نظام الظواهرى ولم يحدث فيه أى تغيير . وقد لقى من مناوأة أهل الأزهر ما لم يلقه فى عهده الأول حتى خرج عليه بعض أنصاره » ا . هـ .

ويبدو أن الشيخ المراغى قد وجه عنايته فى هــذه المرحلة الى ازالة الفوارق بين المذاهب الاسلامية فقــد أعلن فى حفل تكريمه (٤ يوليه ١٩٣٥) العمل على ازالة الفوارق المذهبية او تضيق شقة الخلاف بينها « فان الأمة فى محنة من هــذا التفرق ومن العصبية لهــذه الفرق ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع الى اســباب الخلاف ودراستها بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى الى الحق . وأن بعض هذه المذاهب قد اخذتها السياســة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلقت فيهم تعصــبا يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضــت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتــكز على ما يصوغه الخيال وما اقره أهلها : وهــذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم وجعلها شيعا فى الأصول والفروع ونتج عن هــذا التفريق حقد وبغضا يلبســان ثوب الدين » .

* * *

مهمة الأزهر كما يفهمها المراغى

وليس شــك أن الأزهر قد تطور فى هــذه الفترة تطورا واضحا ملموسا حتى أصبح يمكن القول بأن هناك أزهر قديم وأزهر حديث .

وقــد كان هذا مجال ســجال طويل ، وقد عرض المراغى لهذا الموقف ورسم صورة كاملة لمفهوم الأزهــر عنده ومدى الدور الذى استطاع أن يؤديه بعد أن خرج من ثوبه القديم (الأهرام ١٩٣٩/٥/٦) .

« من الناس من يقول ان الأزهر القديم كان متمسكا بدينــه أكثر من الأزهر الحديث وأنا أقول لهؤلاء : لا ، فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم .

« كل المفاسد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها الا أنه يطلب ازالتها ، فقد نظم البغــاء وليس للأزهر الحديث أثر فيه ، وأبيح الخمــر فى البلاد وليس للأزهر الحــديث شأن فيهــا ، ووجدت البدع فى الموالد والأسواق والقبور وليس للأزهر دخل فى وجودها .

كل هــذا وجد فى عهــد الأزهر القديم ، ولم يرفع صوته طالبا ازالة هذه المنكرات التى اســتقرت فى البلاد كأنهــا شأن من الشئون القومية والتى يطالب الأزهــر الحديث الآن بازالتها . فالأزهر مكبل بآثار الماضى وهو يعانى فى سبيل ازالة تلك الآثار ما يعانى .

ولقد اتصل الأزهر الحديث بالناس بالوعظ والارشاد على صــفحات الجرائد ليفهمهم دينهم فاســتفادت الأمة منه ، واستفاد العالم الاسلامى كذلك ، اما الأزهر القديم فكان قابعا بين الجدران لا أثر له فى الخــارج ولا يعرفه الناس الا بطريق السماع كأنه تاريخ من التواريخ .

٢ ــ الأزهر الحديث لمس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها ، لقد كان الأزهر يحتضر منــذ عشر سنوات .

ففى عام ١٩٢٨ أرادت وزارة الأوقاف أن تنشىء مدرســة للوعظ والارشاد وفى ذلك التاريخ كانت هنــاك مدرسة للقضاء وكانت هناك مدارس للغة العربية فلو أن مدرسة الوعظ والارشاد أنشئت فى وزارة الأوقاف لــكان علمــاء الأزهر الآن بين جدران الأزهــر كأنهم من الآثار القديمة .

* * *

نظم الدراســـة

وقال المراغى : كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة فى عبــارات الكتب وكان هذا هــو كل شىء اشتهروا به فى العلم .

وما كان يوجــد منهم من يستطيع أن يحاضر فى موضوع علمى أو أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقــارنة المذاهب ونقدها بل كانوا يعنــون بالألفــــاظ .

ــ أما الأزهر الحديث فقد احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به وأضاف الى ذلك أنه استطاع أن يحصل العلم تحصيلا حقيقيا وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها .

وقال المراغى ، منــذ ثلاثين سنة فكرنا فى اعادة خطب للمساجد أحسن من تلك الخطب المطبوعة التى كانت تتلى دائما على النــاس ولا تغير وأعلن عن ذلك فجاءنا خمسمائة خطبة لم نستطع أن ننتقى منها واحدة نقول أنها صالحة ، أما الآن فقد وجد فى الأزهر خطبــاء ووعــاظ ومرشــــدون يمكنهم أن يرتجلوا الخطب وأن يكتبوها .

ان الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة . ويقولون ان الأزهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة اذ يحظر حرية الفكر ويقف حجر عثرة طريق الأفكار العلمية الحرة .

ومن جهة أخرى يحرم الناس ملاذهم وشهواتهم والحياة لا تحتمل ولا تطاق اذا سيطر الأزهر عليها بسلطان الدين .

— أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر خطر عليها لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة .

والاسلام بطبيعته دين تسامح ومبادئه لم تعترف بالاكراه ، وقد حمى الاسلام أديان تخالفه وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة واجتهدوا أن يردوا عليها بالدليل .

فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى والآراء العلمية ولكن الأزهر يكره شيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين والأنبياء والأئمة ويكره أن يشكك العامة فى دينهم . والنشء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم وفى دائرته فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دون أن يخطر ببال أحد أن يقاومها أو يقف حجر عثرة فى سبيلها .

حرروا دينكم من كل ما غشيه . وخذوه من الينابيع الصحيحة خذوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة » ا . هـ .

* * *

تطور التعليم فى الأزهر

كان أخطر خطة خلقت الثنائية فى التعليم هى : اتجاه محمد على انشاء المدارس المدنية منفصلة عن الأزهر ومن هذه النقطة بدأت هذه الأزمة التى استمرت طويلا حول التعليم الدينى والتعليم المدنى .

ذلك أن محمد على كان يخشى الأزهر على أثر الدور الذى قام به فى مقاومة الحملة الفرنسية وسيطرة المقاومة الشعبية بقيادة علماء الأزهر وفرضها سلطانها فى انزال الحاكم التركى خورشيد وتوليته ، وقيامها بالسيطرة على الحكم عن طريق الدفاع عن حقوق الشعب ومطالبه ، ودفع مظالم محمد على فى رفع الضرائب وتسخير الشعب . ولذلك اتجه محمد على الى القضاء على هذه الجبهة الشعبية والتخلص منها نهائيا . وكان تجميد الأزهر جزء من هذه الخطة ، لذلك اتجه محمد على الى انشاء التعليم المدنى والاستعانة فى انشائه بالخبراء الفرنسيين الذين كانوا يؤمنون بضرورة القضاء على الأزهر كجزء من خطة الغزو الثقافى فى محاربة الاسلام واللغة العربية .

فلما كان عهد اسماعيل ازدادت درجة التغريب والاتجاه الى نقل أنظمة الغرب وقوانينه وتشريعاته ، وقد أغلق اسماعيل الباب أمام التشريع الاسلامى اغلاقا تاما وأخذ بالتشريعات الغربية دون مراعاة مقومات الحياة الاجتماعية فى الوطن العربى . وبذلك ازدادت عزلة الأزهر عن التطور والحياة .

وقد كانت علوم الأزهر قاصرة على علوم الدين واللغة كالنحو . الصرف والمعانى والبيان والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية وعلم الكلام والأخلاق والفقه والتفسير لم تحقق بعد حركة الشيخ محمد عبده ادخال علوم الحساب والطبيعة والكيمياء والهندسة والجغرافيا والعلوم العقلية والتاريخ وكان جمال الدين الأفغانى قد دعا الى ادخال التاريخ فى علوم الأزهر وقال : اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم فى دنياكم ، وأكد أن قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية وركن من أركان اليقين فلابد من تحصيله .

وقد احتال الشيخ محمد عبده فى ادخال العلوم الحديثة حتى أنه أطلق على علم الطبيعة « علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى الأجسام » وقد تراجع الأزهر بعد الشيخ محمد عبده عن العلوم الحديثة حتى كانت حركة الشيخ المراغى التى حققت اعادة تنظيم الأزهر ونقله الى نظام الجامعات الحديثة وتقسيم الدراسة العالية الى ثلاثة أقسام يتمثل كل قسم منها فى كلية ، وهى الشريعة واللغة العربية وأصول الدين وأقسام أخرى للتخصص وقد شمل مشروع اصلاح الأزهر منهجا كليا واضح المعالم يضم :

- ✻ دراسة القرآن والسنة دراسة شاملة .
- ✻ تهذيب العقائد والعبادات ونفى ما جد منها وابتدع .

* دراسة الفقه الاسلامى دراســة حرة خالية من التعصب الذهبى .

* دراسة الأديان لمقابلة ما فيها من عقائد وعبادات واحكام مما هو موجود فى الاسلام .

* دراسة أصول المذاهب فى العالم قديما وحديثا .

* دراسة اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف .

وهاجم الشيخ المراغى الكتب القديمة وقال انهــا كتب معقدة لها طريقة خاصة فى التأليف لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية وانما يفهمها من مارسها ومرن على فهمها وعرف اصطلاح مواقعها ودعا الى الاستغناء عنها بأحسن منها .

وقد تحقق وفق هذا المنهج (جمادى الآخرة ١٣٤٣) تحول الأزهر الى جامعة كبرى لتخريج أساتذة علوم اللغة العربية والدين والقضـــاة الشرعيين وأن تكون شـــهادة التخصص فيه مساوية لشهادات المدارس العليا وارسال بعثـــات من متخرجيه الى الجامعات الأوربية لدراســـة العلوم ، وادخل فى القسم الثـــانوى العلوم المدنية التى يشمل عليها منهج المدرسة التجهيزية الملحقة بدار العلوم ومنهج القسم الأدبى للمدارس الثانوية الأميرية . وحددت مدة التخصص ثلاث سنوات بعد الحصول على الشهادة العالمية كما ادخلت اللغات الأجنبية الى الأزهر (١٩٣٥) وهى الانجليزية والفرنسية والفارسية واليابانية والصينية فى كلية أصول الدين لمختلف السنين .

وسافرت اول بعثة ازهرية الى المانيا عام ١٩٣١ باسم بعثة محمد عبـــده . كما سافرت بعثـــة اخرى الى باريس (اغسطس ١٩٣٦) وتواصلت بعد ذلك البعثات .

وقد يحقق لافراد البعثات الحصـــول على اجازات الدكتوراه وكان أولها عن الأخلاق عند ابن مسكويه (محمد يوسف موسى)وعن سبينوزا (محمـــود حب الله) وعن الشريعة الاسلامية من السربون (عبد الرحمن تاج) .

كما تحقق فى عام ١٩٣٦ ابدال الجـــراية الأزهرية بمرتبات شهريةوقد كان بحث استبدالها قد بدأ عام ١٩١٠ بعد أن ترددت الشـــكوى من رداءة الخبز الأزهرى وقد أشارت المذكرة الخاصة بالغائها أن هذه العادة وأن كانت تقليدا من تقاليد الأزهر الا أنها أصبحت تجـــافى التطور العلمى .

كما تحقق اشتراك الأزهر فى عـــديد من المؤامرات الدولية :

● مؤتمر جامعة غرناطة (ديسمبر ١٩٣٢) .

● مؤتمر القوانين الدولى ـــ لاهاى (اغســـطس عام ١٩٣٧) .

* * *

— ٢ —

لقيت حركة اصـــلاح الأزهر التى قام بها المراغى عنه هجوما عنيفا من جهة الاستعمار والتغريب وحوربت وهوجم أسلوب الأزهر فى التدريس باللغة العربية حتى قال الدكتور أمير بقطر فى مؤتمر التعليم الذى عقـد فى جنيف عام ١٩٢٩ أن الأزهر خلق فى طاقة معينة من الســكان عقلية خاصة تتصادم مع مبادىء القرن العشرين ومثـله العليا فقد أسدلت حجابا كثيفا واقامت حائلا منيعـا بين ما نسميه العقلية الأزهرية وعقلية سائر الشعب المصرى، عقلية لا تتفق الا مع العصور القديمة الفطرية » .

وقال الدكتور رول جوست عميد كلية الآداب الثقافى الأمريكية « ان اثر العـربية كما تراها فى الأزهر لا يتفق مع التقدم الحـديث فى ميدان التربية ونخشى ان الاصلاح الحديث فى الأزهر لم يكن الا من قبل العناية بالسطح دون العمق فأدخل الأدوات والأجهزة وانشاء الأقسام لاتجدى نفعـا طالمـا كان النظام ذاته مطبوعا بطابع القـرون الوسطى » .

والواقع أن ما تنبأ به دعاة الغزو الثقـافى لم يكن صـحيحا وأن الأزهر حقق بعد اصـلاحه نتائج باهرة وشارك مشاركة فعالة فى الثقافة العربية الحديثة .

ولم يتوقف الغزو الثقافى المتصل ضـد الأزهر فى سبيل الغاية التى رسمها الاستعمار للقضاء عليه . وذلك بانشاء عديد من المدارس والكليات والجامعات والمعاهد التى حملت لواء تمزيق جبهـة الثقافة العربية وتعـديد جوانبها واتجاهاتها ، وبذلك حقق الاســتعمار هدفه فى القضاء على هذه الثقافة العربية ، ويرجع هذا اصلا الى خطأ محمد على فى فصل التعليم عن الأزهـر دون تطوير الأزهر نفسه لتحقيق هدف التعليم العام المدنى .

* * *

مهمة الأزهر

كانت الدعوة الى اصلاح الأزهر فما بين عام ١٩٢٩ الذى بدأت فيه بمذكرة المراغى الى عام ١٩٣٥ حيث عاد المراغى الى الأزهر فرصة واسعة لدراسات ومراجعات متعددة عن مهمة الأزهر ودوره فى الحياة الفكرية العربية والاسلامية .

وقد تحدث الكثيرون من الباحثين عن مهمة الأزهر فى العصر الحديث ومن رأى محمود الشرقاوى (٢ مارس ١٣٣٦) أن مهمة الأزهر ليست تخريج واعظين للشعب ومعلمين فى مدارس الحكومة وحفظه للقرآن او عرفاء فى الكتاتيب وانما مهمته تخريج صنوف من الرجال لهم اعمال ولهم مطامع وآمال وبين جفونهم وفى رؤسهم قلوب وعقول أبهى نورا .

وأن أول مهمة للأزهر مســايرة العصر وما فيه من التيارات المختلفة للذهن والحضارة والتفكير .وليس معنى هذا متابعة العبيد بل نزع خلق الانكفاء والجبن العقـلى والخوف من الدنيا والانزواء من الرأى والصـد عن كل جديد والخروج من هذا الخلق السلبى الى روح ايجـابى مقبـل على الأيام والأحداث مشرف على سير النــاس والحضارة مرتقب لكل جديد من الفكر .

وكان من رأى الشــيخ محمود شـلتوت أن يقوم اصلاح الأزهر على أساس التخلص من روح المناقشات اللفظية والتقديس للآراء والأفهام التى دونتهـا السابقون السمو بها عن مسـتوى النقد وكذلك التخلص من روح الاشتغال بالفروض والاجتهادات العقلية واختراع الحيل التى يتخلص بها من الحكم الشرعى . وكذلك التخلص من روح التعصب المذهبى الشديد .

* * *

— ٤ —

وقـد حقق الأزهر وجوده باشتراكه فى عديد من المؤتمرات العـالمية كمؤتمر جامعة غرناطة (ديســمبر عام ١٩٣٢) .

ومؤتمر الأديان العالمى فى لندن ١٩٣٦ ومؤتمر القوانين الدولى فى لاهاى (اغسطس ١٩٣٧) .

وفى مؤتمر الأديان العالمى وجه الشيخ المراغى رسالة دعا فيها الى تعاون أهل الأديان على تقوية الشعور الدينى واعادته بحيث يغمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله . وعلى اعزاز مركز الأديان أمام العلم وأمام تيارات التقدم العلمى والتحرر الفكرى . وقال : أن تقوية مركز الأديان يقى الحياة الانسانية من خطر تحكم المادة .

واشار الى ان الهدف هو جعل التدين اداة فعالة فى تهذيب الجماعة وتمكين العوامل المعنوية التى تشترك فيها الأديان من التأثير فى الحياة الانسانية الواقعية . وكذلك العمل على توجيه التشريع الى تأييد الأصول العامة المشتركة فى الأديان .

وقد حقق مؤتمر لاهاى نصرا كبيرا للاسلام والأزهر اذ أعلن « ان الشريعة الاسلامية لم تتأثر بالقانون الرومانى . بل هى شريعة مستقلة قائمة بذاتها ولا يوجد دليل مباشر أو غير مباشر يمكن أن يستنتج منه من الوجهة التاريخية أن القانون الرومانى كان له أى تأثير على الشريعة الاسلامية وأن الشريعة الاسلامية تحمل العناصر الكاملة التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية » .

وقد كان هذا ردا حاسما على كل التهم التى ساقها دعاة التغريب بالنسبة للشريعة الاسلامية والاسلام (اقرأ صحف ١٩٣٧/١١/٢٦) وقد كانت اللغة العربية هى احدى اللغات الرسمية فى هذا المؤتمر .

* * *

دور الأزهر

وبالرغم من محاولات الاستعمار لعزل الأزهر عن التطور الفكرى ، وابعاده عن محيط الحياة العامة ، فأن الأزهر شارك فى مختلف الأحداث وكان له دوره فيها : قاد الثورة على الحملة الفرنسية وقاد ثورة ١٩١٩ على الاستعمار البريطانى من قاب الأزهر ووقف من أحداث المغرب (الظهير البربرى) وليبيا (مقتل عمر المختار) وأحداث فلسطين وسوريا موقف الدفاع ، كما هاجم حركة التبشير الكبرى فى مصر ١٩٣٣ حيث طالب بجمع الكتب التى وضعها المبشرون للطعن فى الاسلام وألف لجانا فى مختلف الأقاليم لمناهضة المبشرين .

وطالب الشيخ عبد العزيز شاويش عام ١٩٢١ بادخال تعليم الفتاة الى الأزهر وقد اعترف الأب الكسيس همالون اليسوعى (م ٤ مجلة المشرق ص ٤٩) باجماع علماء الاسلام على انه لولا هذه المدرسة لما استمرت اللغة العربية لغة الشريعة فى الممالك الاسلامية » .

وقد حمل الأزهر ثلاث أمانات : حفظ التراث العربى الاسلامى وذلك بحماية اللغة . وحماية الشريعة وقيادة الحركة الوطنية . وبالرغم من مهاجمة كرومر وخلفائه له، ومهاجمة الصحف التى جرت فى ركاب الاستعمار والتغريب وبالرغم من محاولة عزله عن التطور فى مناهجه ورسالته، وانفصال التعليم المدنى عنه فقد ظل يحتفظ بنفوذ خطير .

وقد خرج الأزهر عددا كبيرا من اعلام الحياة الفكرية العربية : أمثال حسن العطار وحسن الطويل ورفاعة الطهطاوى وعياد الطنطاوى والمرصفى والمهدى ومحمد عبده وابراهيم النبراوى وابوخطوة كما خرج طائفة من الزعماء أمثال سعد زغلول وابراهيم الهلباوى وعبد السلام المويلحى وابراهيم اللقانى وعلى يوسف .

ومن عجب أن أغلب الذين عارضوا أفكار الاسلام وجروا فى ركب التغريب كانوا من الأزهر أمثال : طه حسين وعلى عبد الرازق وزكى مبارك وأن الذين دافعوا عن الاسلام كانوا من خارج الأزهر : أمثال جمال الدين الأفغانى وفريد وجدى واحمد تيمور وعبد الحميد سعيد ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا .

وقد صور اللورد لويد فى كتابه (مصر فى عهد كرومر) ملامح الخطة التى أريد بها ابعاد الأزهر عن مجال التطور والمشاركة فى الحياة العامة بحسبانه قوة تقف فى وجه الأهداف الاستعمارية لتغريب الفكر الأسلامى قال « أن أهمية الأزهر بصفته مركزا من مراكز الرعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات وقد ادرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مأربهم ، وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم به . أن التعليم الوطنى عند ما قدم الانجليز بمصر كان فى قبضة الجامع الأزهر الشديد التمسك بالدين والذى كان أسلوبه القديم يقف حاجزا عن طريق اى اصلاح تعليمى . وكان الطلبة الذين يتخرجون منه يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو كانت هذه الخطوة جليلة الخطر ، على أن الخطة الأولى التى يقوم بها اصلاح الأزهر من داخله اقوى فى اتخاذ ما نحن فى اشد الحاجة

اليه من اقامة العلائق الانجليزية المصرية على أساس من التفاهم والتعاطف المتبادل » .

وكان معنى هـذا ان التطور الذى يتطلع اليه الاستعمار هو تحوله عن هدفه فى حماية اللغة أو التسامح مع الاستعمار فى بث آرائه أو التخفف من العمل فى مجال الحركة الوطنية ومعنى خطة اصلاح الأزهر من داخله انما تعنى الالتقاء مع الاستعمار الغربى بما يحقق اقامة العلاقات المصرية البريطانية على أساس من التفاهم ولما كان ذلك غير ممكن ، فقد حرص الاستعمار على خلق معاهد جديدة لتخريج معلمى اللغة العربية والقضاء ، وفرق بين القيم المادية للمتخرجين من مدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم وكلية الآداب وبين خريجى كلية اللغة العربية وكلية الشريعة الأزهريتان . وكانت هذه محاولة لقصر الأزهريين على الامامة والخطابة فى المساجد وبذلك شعر الأزهريون بأنهم اقل منزلة فاذا طالبوا بمساواتهم اتهموا بأنهم طلاب دنيا وليسوا أصحاب رسالة .

وقد كان واضحا أن القس دنلوب عمد الى ابعاد الأزهريين عن المدارس الأولية والابتدائية ، وكان هذا جريا مع الخطة التى ترمى الى اقصاء الدين المناهج الدراسية .

وهكذا حقق الاستعمار :

* خلق ثنائية التعليم :

* عزل الأزهر وتجميده وخلق مدارس ومعاهد تتصل بالعلوم الحديثة .

* التفرقة فى القيم المادية بين خريجى الأزهر وخريجى المعاهد الأخرى .

* اقصاء الاسلام عن المناهج الدراسية .

* * *

وغلب على منهج الدراسة مذهب « ديوى » الذى يزدرى بالقيم والدين والروحية ويدعو الى مناهج تتصل بالحياة الواقعية .

وفى الوقت الذى كانت مناهج التعليم الرسمية فى مصر تتبع مذهب ديوى فى اقصاء الاسلام عن برامجه ، كانت المعاهد الأجنبية على اختلاف أنواعها والتى يدرس فيها ٧٠٪ من المسلمين تدرس المسيحية بمذاهبها وثقافتها .

ويمكن القول بأن هذه الخطة التغريبية التى اصطنعها الاستعمار مع الأزهر قد اصطنعت مع المعاهد التى تدرس اللغة العربية والاسلامية فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى كالزيتونة فى تونس والقرويين فى المغرب حيث عمد الاستعمار الى خلق جامعات ومعاهد تدين له بالولاء وتسير وفق مذاهبه وبخضع لسلطانه وأن كانت هذه المعاهد لم تلبث أن تحولت شيئا ما عما أريد لها .

* * *

التعـــــليم

ركز الاستعمار فى اكبر جانب من حملةالتغريب على التعليم وركز الغزو الثقافى اساسا على محـــاولة تغيير مناهج التعليم فى العالم العربى كوسيلة لدعم الاستعمار وبقائه يخلق جيل جديد من الشباب يصـــــل الى مقاعد الحكم يؤمن بصداقة الغرب ، ولذلك عمد الى تشـــكيله على نحو « مستغرب » قليل الصـــلة بالتراث العربى ، بعيد عن مفاهيم الحرية والكرامة والقوة التى تبثها تعاليم الاســـلام ، منكـــرا لروابط الدين واللغــــة العربية والتاريخ العربى ، معلق الطرف بأمجـــاد اوربا وعظمة حضارة الغرب ، ساخرا مستخفا بأمجاد الاسلام ، وقد ركز الاستعمار على تحقيق هذه الغاية فى التعليم بوسائل متعددة :

* انشـــــاء مدارس الارساليات الأجنبية والطـــوائف الدينية المختلفة .

* تجميد الجامعات الدينية الكبرى وخلق نظم دراسية مدنية مستقلة ومنفصلة عنها .

* قصر التعليم على ابنـــاء الاغنياء وحـــدهم الذين يدفعون المصروفات والغاء المجانية وحرمان الفقراء من التعليم نهائيا .

* وضـــع برامج مغربة تهدف الى تخريج موظفـــين فقط .

* التوسع فى انشاء الكتاتيب والحيلولة دون انشاء التعليم العالى .

* القضـــاء على اللغة العربية بادخال لغـــة المحتل وجعلها اللغة الأساسيةفى مختلف علوم الدراســة .

* الغاء تدريس الدين الاسلامى نهائيا . ودراســـة فلســــــفات ترتبط بالأديان البـــــائدة واليهودية والمسيحية .

* تشويه التـــــاريخ العربى بفرض كتب بأقـــــلام المستشرقين تقدم الاسلام على انه دين الســـيف وترسم العرب صورة مزدراة .

* التوسع فى دراسة تاريخ الدولة الفرنسية والدولة الانجليزية وتاريخ اوربا وحروبها وابطالها .

وفى مصر كان خطأ محمد على انه انفصل عن الازهر وانشأ تعليما مدنيا فى حين أن جميع الجـــامعات الاوربية كانت جامعات دينية فى أول الأمر ثم تحولت مدنية ، بل أن الأمريكيين واليسوعيين حين انشأ كل كليته فى لبنـــان بدأت دينية لاهوتية محضة ثم تحولت مع الزمن الى كلية عصرية .

غير ان سيطرة النفوذ الفرنسى على محمد على قد مكن الخبراء الفرنسيين الذين يحملون لواء دعوة التغريب والغزو الثقافى من أن يفوضوا انشاء تعليم مدنى لخلق ثنـــائية التعليم التى تؤدى الى تخريج طوائف مختلفـــة الثقافة مما يؤدى الى البلبلة والصراع وقد حدث هــــذا فعلا .

وفى تونس حيث توجد جامعة الزيتونة وفى المغرب حيث توجد جامعة القرويين وفى الجزار حيث توجد جامعة القيروان وكلها على نسق الأزهر حرص الاستعمار على تجميدها جميعا وانشاء أنظمة اخرى للتعليم لخلق هـــذه الثنائية أيضا والقضاء على اللغة العربية .

* * *

الاستعمار والتعليم

حرصت الدولتان المستعمرتان (فرنسا وانجلترا) وتبعتهما ايطاليا فى ليبيـــا — حرصت كل منهما على نشر ثقافتها ولغتها فى الأقطار التى تحتلها باعتبـــار أن النفوذ الثقافى مقدمة للنفوذ السياسى .

وقد قامت مناهج التعليم والثقافة الاستعمارية على اساس تغليب لغة الدولة المستعمرة ومحاولة القضاء على اللغة العربية باعتبارها لغة غير اساسية او بالاغضاء عنها او تغليب اللغة العامية عليها . كما حرص على أن يوجه التعليم توجيها يقصد به تخريج الموظفين والعمال الذين تحتاج اليهم مصالح الحكومة .

فضلا عن أن نظم التعليم ومناهجه كانت تعمل على تأكيد قيام قوميات ضيقة اساسها التجزئة وتعميق هذه الدعوات بما يؤدى الى فصل القطر الواحد عن العالم العربى من الوجهة الثقافية مع القضاء على التاريخ القومى والتراث الروحى والأمجاد الاسلامية والعربية المرتبطة بالمعارك ومقاومة الأعداء المغيرين وكذلك حجب تراجم الأبطال والقادة والأعلام .

وقد ارتبط هذا النظام بعقد معاهدات ثقافية تفرض فيها الدول الغربية على الدول العربية نظمها واتجاهاتها الهادفة الى الاستعمار التعليمى والثقافة وفرض استيراد اساتذة ومعلمين من البلاد المستعمرة يحملون اساليب التغريب ، ومحاولة خلق روح الاعجاب بأدب وامجاد وبطولات الدول المستعمرة وفرض تاريخ البلاد المستعمرة على الشباب العربى ومحاولة الايهام بوجود خلافات جذرية بين الدول العربية فى الجنس والثقافة والوطن .

ومن هذا ما حاولته فرنسا فى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش من الدعوة الى حضارة البحر الأبيض المتوسط وربط هذه الأجزاء العربية بالثقافة اللاتينية .

وفى المغرب : فرق الفرنسيون بين البربر والعرب وذلك بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية واحياء لهجاتهم القديمة بغية تمزيق الجبهة الوطنية .

وقد ارتبط هذا بتقييد السفر والتنقل بين البلاد العربية بقيود ثقيلة والحيلولة دون انتشار الكتب المطبوعة فى البلاد العربية وتشجيع اللهجات واللغات المحلية لبعض الطوائف « لتبعيد » البلاد العربية بعضها عن بعض على حد تعبير ساطع الحصرى .

* * *

تجربة مصر

وقد كانت تجربة مصر من اقسى هذه التجارب :

١ ــ حول التعليم بعد الاحتلال الى اللغة الانجليزية تدريجيا ولم يكد يحول عام ١٩٠٠ حتى كان التعليم فى جميع المدارس العالية والثانوية باللغة الانجليزية فتدهور التعليم وعجز الطلبة عن اجتياز حلقات الدراسة لرسوبهم مرتين وثلاثا واوقف « دنلوب » تأسيس المدارس الا فى حدود العدد الذى يكفى لتخريج الموظفين . والغيت مواد العلوم من المدارس مثل التاريخ الطبيعى .

٢ ــ الغيت « المجانية » فى جميع المدارس (بأنواعها الثلاث) وحرم ابناء الفقراء من دخولها ، واعلن يعقوب ارتين وكيل المعارف وعميل الاستعمار ويد دنلوب فى التنفيذ « أن وجود المجانية فى المدارس فى مصر امر غير عادل » .

وسجل كرومر هذا فى تقريره سنة ١٩٠٠ فقال انه فى عام ١٨٧٩ كانت نسبة المجانية فى الحكومة ٩٥٪ أما فى السنة الماضية (١٨٩٩) فان نسبة الذين يدفعون مصروفات مدرسية كانت ٩٨/٥ فى المائة وفى المدارس الثانوية ٨٦٪ وأنا واثق من أن هذه السياسة ستظل متبعة بثبات حتى تلغى طريقة التعليم المجانى كلية أو تكون فى حكم ذلك . وسجل فى تقريره ١٩٠٤ أن تلميذا واحدا فقط يتعلم الآن فى المدارس بالمجان .

* * *

الرد على مؤامرات الاستعمار فى التعليم

٣ ــ استبعد التعليم دراسة التاريخ القومى . ووضعت المناهج بصورة عملت على هبوط مستوى التعليم الثانوى بحيث اصبح يعادل مستوى التعليم الابتدائى فى فرنسا (من مذكرة ناظر مدرسة الحقوق المصرية الفرنسى) .

وبلغ جملة ما انفق على التعليم خلال ٢٥ سنة من عهد الاحتلال ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه من ميزانية بلغت ٢٥٨ مليون جنيه أى بنسبة واحد فى المائة .

وقد نقص عدد المدارس بعد الاحتلال بنسبة الربع ، كما نقص عدد تلاميذ المدارس . كما جمد الاحتلال (التعليم الدينى) الذى كان قائما على الثقافة الدينية وتخريج طائفة من المعلمين والفقهاء فى القرى بما فى ذلك الأزهر الشريف .

وأوقف الاستعمار اعانة الكتاتيب الاهلية وكان عددها ٩٦٤٧ كتابا .

كما حاصرت سلطات الاحتلال التعليم الثانوى والعالى فلم يكن بعد ١١ سنة من الاحتلال (١٨٩٣) سوى ثلاث مدارس ثانوية أميرية .

وعمدت بريطانيا الى عدم السماح للوطنيين بالانضمام الى هيئة التدريس ومحاربة الأزهريين ومعلمى الدين واللغة منهم والحيلولة دون تسرب أبناء الفقراء الى معاهد العلم حتى يظل التعليم قاصرا على أبناء الأغنياء الذين هم صنائع المستعمر أصلا والذين يدينون له بالثروة والحكم والبقاء ، وذلك فى سبيل اعداد جيل (مغرب) متفاهم ، يلتقى بالاستعمار لقاء الصداقة لا الخصومة وهو الجيل الذى سيطر فعلا على الحكم فى العالم العربى فى الثلاثينات من هذا القرن .

٤ — صور اللورد كرومر منهجه فى التعليم فى تقرير عام ١٩٠٠ (المقتطف مايو ١٩٠٠) على انه وسيلة للاستخدام فى وظائف الحكومة قال : ينظر كثيرون من الناشئة المصرية المتعلمة الى الاستخدام فى وظائف الحكومة كغاية لهم . المدارس التى انشدها وأرغب فى ان أراها هى التى تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب باللغة العربية ويكون الغرض منها تعليم الصنائع . لابد لجعل التلامذة يقومون بجانب من نفقات تعليمهم . يسرنى أن أقول أن نظارة المعارف رأت مضار التعليم المجانى وحاولت تلافيها منذ سنوات . ففى ١٨٧٩ كان الذين يتعلمون مجانا لا اقل من ٩٥ فى المائة من التلامذة الذى يتعلمون فى مدارس الحكومة . فى السنة الماضية كان عدد التلاميذ الذين يدفعون اجرة التعليم ٩٨ر٥ فى المائة فى المدارس الابتدائية و ٨٦ ٪ فى الثانوية وأرجو أن يستمر هذا الأمر حتى يبطل التعليم المجانى تماما . الذين يتعلمون لغات أجنبية ٥٩٤٥ منهم ٨٥ فى المائة يتعلمون اللغة الانجليزية . لابد من تعلم من هؤلاء لغة اجنبية ذلك انه ليس فى العربية كتب للتعليم فى بعض العلوم . أن اجتهاد الذين يهمهم أمر التعليم . يجب أن يكون مصروفا الى ترقية التعليم الابتدائى بواسطة « الكتاتيب » الاحصاء الآخر دل على أن ٨٩ر٥ فى المائة من الذكور و ٩٩ر٧ ٪ من الأناث لا يعرفون القراءة والكتابة يبلغ عدد الكتاتيب فى القطر المصرى ١٩٤٠٤ اعانت الوزارة ٢٤٦ كتابا منها .

وهكذا يكشف تقرير كرومر عن روح الاستعمار البريطانى فى مصر من ناحية التعليم على نحو واضح الدلالة وهى :

* الانصراف من التعليم العالى الى الكتاتيب .

* الغاء التعليم المجانى والقضاء على تعليم ابناء الفقراء .

* التعليم باللغة الانجليزية والقضاء على اللغة العربية .

* تخريج موظفين فقط .

٥ — ادى اهمال التعليم على أساس قاعدة «جهل الشعوب نافع للاستعمار وأنه بانتشار التعليم يصعب حكمهم» على حد تعبير احمد شفيق فى كتابه « مصر الحديثة ونفوذ الأجانب » الى انحطاط مدرسة الهندسة والطب فقد وكل الأمر فيها الى اساتذة من الانجليز « لم يكونوا يحملون شهادات تؤهلهم للعمل فيها حتى قل تلاميذ مدرسة الهندسة ، فلم يكن فيها عام ١٨٩٤ سوى ١٧ طالبا وكذلك مدرسة الحقوق التى ضعف التعليم فيها بعد أن عزل كرومر المشرفين عليها من العلماء الفرنسيين وتولاها «رجال من الانجليز لم تكن لهم الكفاءة المطلوبة» .

* * *

حوربت « اللغة العربية » كجزء من خطة القضاء على الوحدة العربية وقطع الصلة بين الماضي والحاضر ، وقد أشار اللورد دوفرين في تقريره (١٨٨٢) الى خطر اللغة العربية في التعليم في مصر .

فقال « ان الأمل في نجاح تهذيب العـــامة في مصر لا يزال ضعيفا ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة بدلا من تعلمهم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فان نسبة العـــامة الى الفصحى في اللغة العربية هي كنسبة اللغة الايطالية الحديثة الى اللغة اللاتينية القديمة » .

وقد كان هذا بدء حملة ضخمة على اللغة الفصحى فقد جرت تعليمات الاستعمار باغفال أمرها في المخاطبات ووضع التقارير وتأليف اللوائح والقوانين . وبدأت خطة ادخال اللغـــة الانجليزية في المدرســـة الابتدائية وجعلت لســـان التعلم في علمي الانشـــاء والجغرافيا ثم دخلت التعليم الثانوي وجعلت لســـان التعليم في علوم الطبيعة والتاريخ والجغرافيا .

ومما يذكر ان اللغة العربية كانت لغـــة التعليم في مدرسة الطب حتى اغارت عليها اللغة الانجليزية .

وقد كانت حجة المستشرقين والمبشرين في الهجوم على اللغة العربية أنهـــا لغة الخاصـــة وأنه لابد لنشر التعليم بين جميع طبقـــــات الشعب من اللغة المحـــكية (العـــامية) وهي حجة واهية لم تجد لهـــا مبررا وقد فشلت هذه الخطة وقضى عليها قضاءا تاما .

وقد اضطهد دناوب مدرسي اللغة العربية في وزارة المعارف وكان هو ورجاله يزدرون لابسي العمائم ويعملون على النيل منهم .

* * *

البعثـــــات

وكما عمدت بريطانيـــا الى ايقاف البعثـــات ايقافا نهائيا فلما اذنت بعد ذلك بايفاد بعثات وجهت ٩٠ في المائة منها الى بريطانيا .

وقـــد اعلن تصريح في مجلس العمـــوم البريطاني (٨ مارس ١٩٠٧) عن البعثات والتعلم جاء فيه « لقد مكثنا في مصر مدة ربع قرن وصلنا بالمصريين الى الانحطاط في التعلم وكان لهم بعثة علمية ينتخبونها من نجباء طلبتهم، أما نحن فقد ألغينا هذه البعثة واستبدلناها بلا شيء » .

وقد كانت البعثات ١٩١٧ لا يزيد عن ٢٥ طالبـــا يتلقون العلم في انجلترا ثم زادت سنة ١٩٢٠ اي٣١ طالبا

* * *

المدارس الأجنبية

وقد حرص الاستعمار البريطاني على تعديد الوان الثقافات لتمزيق جبهة الثقافة والفكر الاسلامي والقضاء على وحدته ، فأذن لعشرات من الارساليات بانشاء المدارس وقد كانت هـــذه المدارس حرة في دراساتها وغير مشرف عليها ، خاضعة لسلطان الامتيازات الأجنبية ، وكانت هي أوكار التبشير والعدوان على الاســـلام واللغة العربية والقومية وكل مقوماتنا وأمجادنا . وقد استهوت هـــذه المدارس الطبقـــات الأرستقراطية على حـــد تعبير محمد العشماوي (يناير ١٩٣٩ ـــ مجلة الحديث) بحسن قيامها على اللغة الأجنبية الأساسية لها وقد كان نجاحها قائما على أنقاض اللغة العربية .

وقد كان من الأعاجيب ان كتب التـــــاريخ العربي والاسلامي قد وضعها مبشرون مليئة بالسموم والأكاذيب وان قام أمثال الخواجة ميشيل والخواجة توما ـــ على حد تعبير (الرسالة ـــ ١٧ ديســـمبر ١٩٤٥) على تدريس سيرة النبي وابي بكر وعمر . وقد بلغ الأمر ان ذهب أبناء العرب الى أوربا ليتعلموا « اللغة العربية » لغتهم ، على المســـيو مارسيه في باريس « كأنمـــا باريس هي بادية البصرة وكأن مارســـيه من فصـــحاء بني عقيل أو كأنه

الأصمعى أو الخليل » . هكذا جنت المــدارس الأجنبية على اجيـــال متتالية خرجت منحرفة عن ايمانها بوطنهــا وتراثها وثقافتها وعقـــائدها ، حيث تلقوا دروسها على اجانب لا بصر لهم بعلوم العربية ولا علم لهم بمصادرها ولا قدرة لهم على فهمها » .

وكانت هــذه المدارس هى أعلى مظاهر الاستعمار الثقافى .

وقد شــهد مستر (جب) المســتشرق الانجليزى المعروف بهذا الخطر حين قال « فى أواخر القرن التاسع عشر نفذت الخطة الى ابعد من ذلك بانماء التعليم العلمانى تحت الاشراف الانجليزى فى مصر والهند . ولعل نصيبنا من الحق فى التهمة التى ترمى بها المدارس الأجنبية من انها مفسدة لقومية التلاميذ . فقد ربت فى التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية » . .

وقال ســير (بانيكار) فى كتابه مشــكلات الدول الآسيوية والأفريقية « وان هــذه المؤسسات اصــبحت موضع ريبة وشك ، حتى الجامعة الأمريكية التى بقيت مدة طويلة تعتبر مركز النهضة القومية نالت قسطها من النقد من قبل الوطنية ، ذلك ان القسم الاكبر من الجهود التربوية يقوم به مبشرون من رجال الدين ، وكان من الطبيعى أن يسيطر جو دينى على الكليات مما يضفى عليها صــبغة مسيحية وأن هذا له أثره فى ازعاج الأكثرية وأنه لم يكن محاولة لتغليب اللغة ولكن لتغليب الدين ايضا وأن من معايب النظم التربوية الحديثة فقــدان المثل الاجتماعية العليا والتوجيه السليم ، ولم يكن من مصلحة الاستعمار ان تروج تربية حيوية تدعو الى الانطلاق كان يراد التقليل من قيمة الثقافة الوطنية وتمجيد فضائل السيد الأجنبى وابراز اهداف التربية الاستعمارية واثارة الروح الانهزامية فى نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبخيراتهم دون عناء كبير » .

وقال فولتين شيرول فى كتابه

أنه مهما يكن الأساس الذى نقيم عليه حكمنا على نظام التعليم الذى أعد لناشئه المصريين تحت الحكم البريطانى فانه لم يستهدف البته تحرير البلاد ، ولا شك انه أعظم اخناق لنـــا . فبعد انصرام ما يقرب من اربعة عقود من الســنين ما تزال الأمية تعم ٩٢ ٪ من الذكور و ٩٩ فى المائة من الاناث بين سكان القطر العربى وقالت الدكتورة علاء عز الدين (العالم العربى ص ١٧٠) أن التعليم فى مصر كان متجافيا مع طبيعة الشــعب وبيئته فكان تلقيته بلغة اجنبية وكان يتجه اتجاها نظريا صرفا دون الالتفات الى حاجات الشعب .

وقال الدكتور حافظ عفيفى فى كتابه « على هامش السياسة » أن كثرة المدارس الأجنبية قاومت كل حركة ترمى الى تمصيرها ، كما أهملت اهمالا شنيعا أمر تعليم تلاميذها لغة البلاد وتاريخها وثقافتها واهتمت بتعليم لغة البلاد التى تنتمى اليها وحدها .

* * *

المدارس الأجنبية

كما حرص الاستعمار على انشاء معاهد وكليــات انجليزية صرفه خصــها بجانب كبير من عنــايته واعتبر خريجيها هم الحــكام الجدد فى العـــالم العربى ، فى مقدمة هذه الكليات : كلية فكتوريا التى خرجت أمين عثمان والأمير عبد الاله وتاريخهما معروف وتكشف كلمة اللورد لويد فى احتفال كلية فكتوريا السنوى بالاسكندرية ١٩٢٦ الصورة الكاملة لهذه الكلية وهدفها (المقتطف ص ٥٣٠ مايو ١٩٢٦) « قــد يهمكم أن تعلموا أن ابنـــاء الكلية السابقين ثمانية أجناس أو ٩ اجناس مختلفة ، وأن من الطلبـــة الآن ٣٠ فى المــائة مصريون و ٢٠ فى المــائة سكسون . ومنهم يونان ويهود وايطاليون وارمن وسوريون واحباش وغيرهم . . كل هؤلاء لا يمضى عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا « بوجهة النظر » البريطانية بفضل العشرة الوثيقـــة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على أن يفهموا اساليبنا ويعطفوا علينا . وأود كثيرا ان اشعر بأن كلية فيكتوريا تنجب نفرا من نخبـــة الموظفين والمعلمين والتجـــار . هذه الكلية تنمى فيهم الشـــعور الانجليزى ما يكون كافيا لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرق والغرب وان كل هذه المشاكل التى بين (بريطانيا ومصر) تحل اذا تعـــلم كل من الانجليز والمصريين أن ينظر الى رأى الفريق الآخر نظرا مقرونا بالفهم والعطف » .

* * *

مفهــوم التعليم

ولا شك ان مناهج التعليم فى ظــل الاحتلال كانت خالية من كل ما يقوى الروح الوطنى أو يشـــجع التفكير الصحيح . وكان التعليم لا طابع له من القومية يدل على

انه مستمد من روح الأمة ماضيها وعاداتها وتقاليدها — على حد تعبير محمد العشماوى — وهو صاحب خبرة طويلة فى وزارة المعارف — يرى أنه برنامج متشعب المواد مهلهل الأطراف ، خال من دراسة الفنون والآداب ولهما مع اللغة الوطنية أكبر الأثر فى ايقاظ الروح القومية .

وقد أجمع الباحثون على أن نظام التعليم كان عاجزا عن تجهيز الرجل والمرأة بما يجعلهما أكفاء لحمل عبء المسئولية الاجتماعية مما أدى الى أزمة خطيرة فى الأخلاق فى بلادنا وتدهور القيم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية فى هذه البلاد وأن اهمال تعليم التاريخ يضعف الروح الوطنية والقومية فى الصدور حيث يخرج الشاب وهو لا يعلم شيئا عن منشئه وأصله وحضارته .

* * *

الصراع بين التعليم الإنجليزى والفرنسى

وقد عمد الانجليز الى احلال لغتهم وثقـافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسية تدريجيا وخاصة فى المعـاهد والمدارس العليا التى كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق وأخرج الأساتذة الفرنسيون من الوظائف والمراكز المختلفة واحتل الأساتذة الانجليز بدلا منهم وقـد اسـتبدلت اللغة الانجليزية فى جميع المدارس باللغـة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزيةلغة أصلية والفرنسية اضافية .

وهاجم كرومر اسـلوب التعليم الفرنسى وقال ان أساتذة مدرسـة (الحقوق) لا يلامون على ما يرى فى التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس فى أسلوب التعليم الفرنسى ما يدعو الى هـذا الامتياز ودعا الى أفضلية الأسلوب الانجليزى لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسـه .

وقد حاولت جبهة الثقـافة الفرنسية فى مصر أن تدافع عن التعليم باللغة الفرنسـية ، وبررت ذلك بأن اللغة الفرنسـية هى لغة التجارة والجمعيـات العلمية والصالونات والسهرات والتداول بين الأجانب انفسهم ، وهى لذلك أوسع انتشارا فى هذه البلاد من اللغة الانجليزية وأن جميع الشركات بلا استثناء تستعمل اللغة الفرنسية، حتى الشركات الانجليزية فى مصر فمن كتب خطابا باللغة العربية الى بنك الانجلو أو الى غيره يأتيه الرد بالفرنسية لا بالانجليزية ولا بالعربية أما صحافتهم فى مصر فلا تطبع بالانجلـيزية الا جريدتان هم (الايجبشـيان غازيت) والايجبشيان ميل والأولى لايقرأها الا الانجليز ، وفى مصر خمس جرائد فرنسية مهمة غير المجلات وهى اللبمتية — الريفورم — الجنرال دى كير — البورص — الايكو .

ثم أن الحركة العلمية فى مصر تجرى كلهـا باللغة الفرنسية فمعظم المحاضرات التى تلقى فى الجمعية الملكية للاقتصاد والاحصاء والتشريع تلقى باللغة الفرنسـية ، والجامعة المصرية يلقى فيها بعض محاضرات بالفرنسية ولا يلقى فيها شىء باللغة الانجليزية (الأهرام ١١/اكتوبر عام ١٩٢٣) .

وبينما كانت انجلترا تحارب الثقافة الفرنسية كان القصر والحـكام الأتراك يؤيدون الثقافة الفرنسـية ، المعروف أن صراع اللغتين الفرنسية والانجليزية فى مصر انما كان على حساب اللغة العربية .

* * *

بعد الاسـتقلال

عندما صـدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ كان ذلك ايذانا بانتهاء السيطرة البريطانية على مختلف الشـئون وبدأ عهد جديد هو عهد الاستقلال ، وقد تركت بريطانيا ظاهريا سيطرتها على التعليم وتخلى المستشارون الانجليز عن مناصبهم ولكن هل انتهى نفوذهم ؟

لقد كان الأمر كله مجرد اختفـاء من فوق المسرح السياسى واخراج المسرحية من وراء الكواليس ، فهم قد اختفوا فعلا خلف المصريين من عملائهم وبقى نفوذ دنلوب فى وزارة المعارف قائما واستمرت الخطة التعليمية كما هى تستهدف تخريج موظفين فقط وظل القائمون بأمر التعليم فى وزارة المعـارف ممن رباهم دنلوب هم أصحاب الرأى الأعلى . وجد فريق جديد من المؤمنين بمذهب « ديوى » الذى ينص صراحة على اقصاء الدين من المناهج الدراسية وقد ظهر دعاة لأسـلوب التربية الانجليز أمثـال عطية الابراشى صاحب مقالات التعليم فى انجلترا — الأهرام ، مارس ١٩٣١) والدكتور مأمون عبد السلام (التعليم فى لندن — الأهرام فبراير١٩٢٣) وحافظ عفيفى صاحب كتاب الانجليز فى بلادهم .

* * *

معركة المقـاومة

وقد قاوم الفكر الاسلامى اتجاه التعليم كما رسمه الاستعمار منذ اليوم الأول ولم يستسلم له أو يتقبله ، وظل يصارع الانحراف التغريبى ممثلا فى كرومر ودنلوب وسعد زغلول وغيرهم فى معركة طويلة ممتدة .

وقد كانت مدرسة الحقوق أكبر مركز مقاومة ضد الاستعمار الانجليزى حيث تحولت الى خلية من خلايا الوطن المصرى ، لم تعدم مصر امثال أحمد حشمت وزيرا للمعارف يقاوم الانجليز ويصطدم بالاحتلال اصطداما شديدا ، وكان بينه وبين كتشنر ودنلوب معارك متعددة في هذا الصدد ، وعندما تولى نظارة المعارف ١٩١٢ أعاد قلم الترجمة لتعريب الكتب واخذ فى احياء ادب اللغة العربية وطبع الكتب العربية النادرة وبحث مشروعا لانشاء مجمع علمى أو اكاديمية لاحياء الآداب العربية يكون الغرض منها اصلاح اللغة العربية .

وقد ادخل علم الصحة فى المدارس وانشأ روضة الأطفال ومدارس التدبير المنزلى وفتح باب التأليف والترجمة للكتاب والمؤلفين .

وقد انزعج الاحتلال لهذه الخطوات وأسرع بنقله الى وزارة الأوقاف لتجميد نشاطه وقد كان حشمت صورة مضادة لسعد زغلول .

وقد تركزت هذه المقاومة فى ١ — معركة اللغة العربية ٢ — معركة تعليم الدين ٣ — تعليم الفقراء والمجانية .

＊ ＊ ＊

١ — اللغة العربية

وقد بدأت هذه المعركة عام ١٩٠٦ وكان أول من طالب باصلاح التعليم على يوسف صاحب المؤيد حيث قدم اقتراحا فى الجمعية العمومية بطلب عرض لوائح التعليم على الجمعية قبل اقرارها . واقترحت الجمعية العمومية على الحكومة ١٩٠٧ أن تجعل تعليم العلوم فى مدارسها باللغة العربية أن تكون العربية قاعدة التدريس كما كانت قبل الاحتلال ، ونص الاقتراح على « تعليم العلوم فى مدارس الحكومة باللغة العربية مع ايجاد الوسائل الفعالة لايجاد الكتب العربية الصالحة فى كل علم وفن .

وقد عارض سعد زغلول الاقتراح (وكان وزير المعارف الذى رشحه كرومر) فأظهر رغبته الشخصية فى احياء لغة البلاد لولا ما يراه من العثرات فى سبيل هذه الأمنية فهو يرى « أن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية الا ليتقوى التلاميذ فيها وعليهم الاستفادة من المدنية الأوربية ويفيدوا بلادهم ويقووا على الدخول مع الأجانب فى معترك الحياة » .

الى أن قال : واذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا ، فاننا نكون قد أسأنا الى بلادنا والى انفسنا اساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يوظفوا فى الجمارك أو البوسطة أو المحاكم العديدة التابعة للحكومة ويقتضى نظامها وجود موظفين يعرفون اللغة الأجنبية جيد المعرفة ولا أن يستخدموا فى بنك أو مصرف أو يشتركوا فى شركة من الشركات التى كثر تأسيسها فى البلاد ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ولا مترجمين ولا غير ذلك مما يحتاج الى براعة فى لغة أجنبية ، واذا قطعنا النظر عن ذلك كله وأردنا أن نشرع اليوم فى التعليم باللغة العربية اعترضنا صعوبات مادية هى قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعليم هذه الفنون باللغة العربية » .

ثم ناشد الأعضاء « الا يندفعوا فى هذه المسألة وراء احساسهم » اذ لا فائدة من طلب تعلمون من الآن أنه لا يقابل بغير الرفض لاستحالة تنفيذه (الهلال — ابريل ١٩٠٧) .

وقد بين المقاومون للتيار الاستعمارى التغريبى ومن بينهم جرجى زيدان نتائج التدريس باللغة العربية واللغة الأجنبية وكيف أن التعليم باللغة الأجنبية يؤدى الى ١ — الضعف فى اللغة العربية وآدابها ٢ — ضياع الجنسية العربية ٣ — انحصار العلم والتهذيب فى الطبقة العليا وبقاء العامة على جهلهم .

＊ ＊ ＊

٢ — اللغة والجنس

وقد جرت مساجلات متعددة حول اللغة العربية وقال خصومها : ماذا على المصريين لو استبدلوا لغتهم بالانجليزية مثلا كما حدث فى الولايات المتحدة . فيمكن أن تذهب اللغة العربية وتبقى الأمة المصرية متحدة بالجامعة الوطنية وكانت هذه احدى دعوات التغريب .

وقد رد عليها جرجى زيدان (الهلال — ابريل عام ١٩٠٧) فقال ان الانسان ضنين بجنسيته حريص على قوميته مهما يكن شأنها من الضعف حتى الأمم الهمجية فكيف بالعرب وتاريخهم مجيد يوجب الفخر لمن ينتسب اليه من أصحابه وذهاب اللغة ذهاب الجنسية فبقاء الأمة المصرية ولغتها انجليزية مثلا لا يضر أعقابها من أجيال عديدة اذ ينسون جنسيتهم القديمة ولا يعرفون الا الجنسية الجديدة .

وليس هناك وجه للمقـارنة بينها وبين لغة الهنود الحمر الذين يتخذون الانجليزية . أما اللغة العربية فانها لغة تمدن وعلم ودين وهى من ارقى لغات الأرض فضـلا عن ارتباطها بالدين الاسلامى .

* * *

٣ ــ اللغة وتدريس العلوم

واثيرت مشـكلة اللغة وتدريس العلوم بها (مايو عام ١٩٢٠) وكانت الصحف منبرا لمعركة حامية حولها .

وقد أبدى دعاة التغريب وحماة الغزو الثقـافى اعتراضا على صلاحية اللغة العربية لتدريس العـلوم فى الجامعة منها :

* تصور اللغة عن الوفاء عما تحتاجه علوم الطب من الالفاظ والاصطلاحات .

* المشقة فى ترجمة الكتب العربية ونشرها .

* صعوبة تحويل المدرسين الانجليز من مدرسين باللغة الانجليزية الى مدرسين باللغة العربية .

* ما ينشأ عن التعليم باللغة العربية من انقطاع الصلة بين الطبيب وبين علوم الطب بعد تخرجه .

* تعذر الدراسة على الطبيب فى المستقبل اذا اراد التوسعة فى معلوماته ونيل درجات عالية من الخارج .

وقد فند الدكتور أحمد عيسى كل هذه الاعتراضات وابان عظمة « اتسـاع اللغة العربية » وكثرة الفاظهـا وتعدد معانيها تعددا لا يدانيها فيه سوى اليونانية وقال « ان لغـة يبلغ ما امكن حصره من كلامها مائة الف مادة لا يمكن وصفها بالعى والقصور » .

وقال ان اللغة العربية هى لغة الفصاحة . هى لغة البلاغة يتسع المجال فيها للكاتب من اطناب وايجـاز وتصريح وتلميح وكناية واستعارة ولا يعجز الكاتب عن التعبير بها ارق المعانى وتصويرها حتى يخيل اليه انهـا مصورة امامه تلمس باليد (الأهرام ــ ٤ مايو ١٩٢٠) .

وقد عرض كثيرون لتأييد هذا الرأى : محمد شافعى اللبـان (١٤ مايو ١٩٢٠ الأهرام) والدكتور هيكل فى افتتاحية الأهرام ١٠ مايو ١٩٢٠ حيث نعى على ما يؤلف من الكتب باللغة الانجليزية او اى لغة أجنبية وبين أن ما يكتب باللغة العربية يكون فى متناول الجميع قراءته وفهم معلومه ، وقال ان اهم ملاحظة تكشف عن الضرر الفاحش الذى يجىء بسبب التعليم بلغة اجنبية هو عـدم التفاهم بين طائفة المعلمين وباقى الطوائف تفاهما تاما .

وقد ظلت معركة اللغـة العربية فى تعليم العلوم قائمة ، وظل الاسـتعمار ممثلا فى أعوانه وأتبـاعه فى الجامعة حريصا على أن لا يتحقق التعليم باللغة العربية فى مصر فى حين استطاعت سورية أن تحقق ذلك .

ومما يتصل بذلك ما طالب به زكى مبارك من ادخال اللغة العربية الى الاقسام الثانوية فى المدارس الأجنبية : وقال ان الطلاب معرضون لأصعب الأخطار من الوجهـة العمومية ان لم يحرسوا حراسـة من طغيان الدعايات المذهبية ولا يعصمهم من تلك الدعايات الا تذويدهم باللغة العربية . ودراسة تاريخ مصر دراسة عميقة تصـل بهم الى الثقة بأنهم نشأو فى وطن له ماض فى خـدمة العلوم والآداب والفنون .

وملاحظة زكى مبارك لها وزنها لأنها جاءت نتيجة خبرته أيام كان مفتشا لوزارة المعارف بالمدارس الأجنبية .

* * *

٥ ــ تعليم الدين

ولقد حرص الكثيرون على مقاومة اقصاء الدين عن مناهج التعليم وكان فى مقدمتهم الشيخ محمود ابو العيون الذى لم يترك مناسبة دون أن يثير هذه الرغبة وقد وجهها الى كل وزير للمعارف « أننا نريد أن يكون تعليم الدين فى المدارس مادة اساسية كباقى المواد التى ينجح فيهـا الطلاب او يرسب . ونريد أن يكون التعليم للعبادات والعقائد وسير أبطال الاسلام والأئمة المعروفين (خطابه الى وزير المعارف ١٩٣٠/١٠/٦) وكان قد تقدم به لأول مرة عام ١٩٢٣ ثم عام ١٩٢٥ .

وقد اشار عبدالصبور مرزوق فى كتابه فوضى التعليم فى مصر الى أن الانجليز علموا مدى خطر التربية الدينية على وجودهم حين « اوحوا الى عصبة مجرمة من خونة المصريين فأنزلوا بهم المحن » واشار الى قول جاروفالو المـربى الايطالى : أنه لمقـاومة الأجرام يجب رفع مسـتوى الاحسـاس الخلقى بالتعليم الصـحيح

القائم على اساس دينى . لأن اسباب الجريمة وموطنها الأساسى هو ضعف التكوين الأخلاقى لا العوامل الإقتصادية او الأحوال الاجتماعية .

* * *

٦ — تعليم الفقراء والمجانية

وقد كانت هذه معركة ضخمة من معارك المقاومة فقد حرص الاستعمار على وضع قاعدة تعليمية اساسية هى « عدم تعليم ابناء الفقراء والفلاحين حتى لا يتركوا طبقتهم » وقد دافع لطفى السيد عن هذا الراى فى « الجريدة » وكان التعليم قبل الاحتلال مجانيا .

وقد امتد هذا الاتجاه بعد الاستقلال . وقد كانت الاعتراضات دائما بان تعميم التعليم الالزامى تحول دونه الميزانيات التى لا تكفى ، وقد امتد هذا الى عام ١٩٣٩ (الدكتور هيكل — تعميم التعليم الالزامى يقتضى مبالغ طائلة) .

وقد دارت مساجلات متعددة حول اتجاهين فى التعليم :

(الأول) يرى ضرورة قصر التعليم على الصفوة بغيه اعداد القادة الذين يستطيعون أن يتولوا اصلاح البلاد والأخذ بيدها .

(الثانى) يرى أن التعليم حق من حقوق الشعب على الدولة أن تيسره للناس جميعا . اما تحسينه والرقى به فسيأتى مع الزمن .

ثم ظهرت نظريتان اخريان : هما ١ — محو الأمية ٢ — تعليم الأمة ، واسهبت الصحف فى بحث النظريتين : (الأهرام ١٩٢٥/٤/٢٠) (فالرأى القائل بنظرية محو الأمية يرى أن يكون تعلم الطفل المصرى والطفلة المصرية اجباريا من سن السابعة الى العاشرة والفريق القائل بنظرية تعليم الأمة يرى أن يكون تعليم الطفل المصرى والطفلة المصرية من سن السابعة الى الرابعة عشرة ما حولها .

أما ازالة الأمية فهى ايصال الطفل الى فك الخط) اما نظرية تعليم الأمة فهى اوسع من ذلك بكثير .

وقد كانت الصيحات تتعالى بالدعوة الى « الاستعانة بالبرامج الغربية واستقدام خبراء اجانب من التربويين الأوربيين والأمريكيين » دون تقدير مدى اهمية حاجتنا المحلية القومية اولا ودون نظر الى مدى ما يحمل هؤلاء الخبراء من آراء منحرفة وتغريبية أو ان يكونوا من دعاة الغزو الثقافى .

وقد كان للسياسة والاستعمار اثرهما فى انيوصف التعليم الأولى (الأهرام — ١٩٣٥/١١/٥) بأن الوزارة اخرجته عن طوره وجعلته غالى الثمن باهظ الحمل بحيث لا يقوى عليه الا أوساط الناس ومن فوقهم ، اما الفقراء وهم الذين انشىء لهم هذا التعليم فقد حيل بينهم وبينه وقد امتلأت سجلات الوزارة بمظاهر نفوذ الأهليين من نظام التعليم الالزامى وعدم مطابقته لعاداتهم وتقاليدهم » وحملت الكاتبة « مى » على التعليم الاجبارى ، بحجة أنه مؤد للبطالة وافقار الريف وازدحام المدن (٢٤/٢/١٨) — دون تحويل الفلاحين الذين يعملون فى الحقول الى افندية وعارض زكى المهندس واسماعيل القبانى فتح ابواب التعليم الثانوى لكل من اراد : وقال اسماعيل القبانى : انه ينبغى الا يدخل المدارس الثانوية الا لمن لديهم استعداد خاص يؤهلهم لها .

وعارض رياض شمس (١٩٢٩/٢/٢ — الاهرام) التعليم الاجبارى وقال انه خطر « لأننا اذا عممنا التعليم بين سائر طبقات الشعب فسيكون لدينا بعد سنين معدودة بضعة ملايين من الفلاحين ومعنى هذا أن بلدنا سيكون مسرحا لثورة اجتماعية » وطالبت الأهرام (محمد زكى عبدالقادر) بأن يحصر نطاق التعليم العالى فى أضيق نطاق ممكن (١ يولية / ١٩٠٩) ولا يبقى الا نوع واحد من المجانية هى مجانية التفوق والنبوغ وأن فكرة مساعدة الفقراء عن طريق المجانية هى فكرة غامضة وليس لها غرض مجدد فانه لا يمكن القول بانها تساعد على نشر العلم .

وهاجمت احسان احمد (الأهرام ١٩٢٩/١٦/٨) تقرير الخبير كلا باريد الذى استقدمته وزارة المعارف لنظر تعديل المناهج من ناحية الأساليب وملائمتها لقوى الطالب اما من الجهة الاجتماعية العامة وما تتطلبه حاجة البلاد من التعديل فلم يعالجها وعذره أنه غريب عن البلاد لا يعرف ما تحتاج اليه او تشكو منه ، وان الوطنيين أحق الناس بوضع مناهج تعليمهم حسب حاجتهم وظروفهم .

وكانت اكبر حملة على تعليم أيتام الفقراء ، وهى حملة عمر طوسون (٢٣»٣٢/١٢) فقد دعا الى (الغاء

المجانية بتاتا من التعليم الابتدائى والثانوى . وان يقتصر على التعليم الأولى . وبعد التعليم الأولى يترك التلميذ ليحترف حرفة أبيه او اى حرفة تناسب بيئته ودرجة تعلمه) .

كما وقف عدد من النواب فى مجلس النواب فحملوا على المجانية وفى مقدمةهؤلاء : محمود زكى. وسراج الدين شاهين . وقد أعلنا انه يكفى ان يتعلم ابناء الفقراء تعليما الزاميا . وقالت الأهرام (١٩٣٢/١٢/٢٧) ان محمود زكى شن غارة على المجانية وأشار على وزارة المعارف أن تعمل على الاقلال منها .

وقد هاجم هذا الاتجاه كثيرون من بينهم عمر الدسوقى وكان أبلغ رد على عمر طوسون والأرستقراطية الاقطاعية الاستعمارية فى عهد صدقى هو دفاع الشيخ صادق ابراهيم عرجون من علماء الأزهر (٣٣/١/١٩ — الأهرام) تحت عنوان « الأرستقراطية عقبة فاحذروها » .. وقد هاجم فيه هذا الاتجاه ضد تعليم اولاد الفقراء « فاننا رأيناهم يجمعون على حرمان هؤلاء المساكين الذين لا ذنب لهم الا أنهم ابناء الفقراء من التعليم العالى . على أن يعلموا تعليما أوليا فقط . ثم قال :

ماذا يكون الحال اذا اندفعت الأمة فى هذا التيار وأصبح متعلموها وقادة الرأى فيها من طبقة ابناء الأغنياء .. الا تسودها الأستقراطية الطاغية فتكم انفاسها وتعيدها سيرتها الأولى من الخضوع الى الفردية والاستعباد للحكام وتقديسهم تقديسا أعمى . ذلك الخلق الفاسد الذى جهد المستعمرون طوال حياتهم بيننا فى غرسه وتعهده والذى جاهدت الأمة فى الخلاص منه ، هل من استعداد أبناء الأغنياء وهم على ما نعلم من التربية المدللة والرفاهية المفرطة أن يقوموا بحاجات الأمة فى المستقبل فى خلق رجال سيضربون فى الحياة والمخاطر‌ه. لقد حدثنا التاريخ عن العبقرية فى أجواء الأكواخ الحقيرة .. وأن كثرة العلماء والعباقرة من الفقراء . ان الأمة المصرية نسبة العلم فيها ضئيلة جدا بل هى مخجلة حقا . وان هذه الأعوام التى طالت منها الاستعمار الأجنبى هابتها لم تكن الا نتيجة الجهل .

لنفرض أن الأمة استجابت الى هذه الدعوة الخطيرة وأصبح معظمها يحترف هذه الحرف . فماذا يكون مصير الحال . بلا ريب مصيره ارتفاع صوت هذه الأقلية المتحكمة المسيطرة تصرفه فى ملاذها وشهواتها او فى جيوب الأجانب المتعلمين لأنهم عرفوا طرق تصريف المال فى وجوهه العظيمة النافعة .

عالجوا الأزمة ولكن لا تحرموا عصب الأمة العلم فهو الذى سيغنيها وينقذها من أزمتها ويعيد اليها حريتها.

٧ — وطالب عباس عمار بالعناية بالناحية القومية فى التعليم (الأهرام ١٩٣٤/١٢/٣٠) فقال : علموا الطلبة تاريخهم فى تفصيل لنواحى عظمته وتحليل لما فيه من فخر وجلال . علموهم روح المدنية المصرية القديمة واروهم فضل مصر على الفن والعلم والأدب ، وان تكون موضوعات المطالعة مصرية تدور حول مدنيتنا وبيئتنا والشعر الذى نحفظه ينبغى أن يتغنى بماضينا ويلهب حماستنا والقصص التى تقص علينا يجب ان تقتبس من تاريخنا وعقائدنا وخرافاتنا . ياقوم عار أن يقف متخرج فى كلية الحقوق يوشح نفسه للسلك السياسى فيقول ان قناة السويس حد بيننا وبين الشام .

* * *

تجربة المغرب

عرضنا لتجربة الغزو الثقافى الانجليزى فى مصر اما الغزو الثقافى الفرنسى فى المغرب فقد كان أشد قسوة .

(١) فرضت اللغة الفرنسية باعتبارها اللغة الوحيدة فى الثقافة والتعليم .

(٢) عمدت الى التنصير (اقامة المسيحية محل الاسلام) ثم الى الفرنسية (احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية) .

وتذفت المغرب بأنطاره المختلفة بالارساليات التبشيرية .

(٣) اهمال اللغة العربية اهمالا كليا ثم مكافحة فعالة وتقويض دعائم المؤسسات التقليدية الدينية باستنضاب مواردها .

(٤) اذاعة دعاوى باطلة بين البربر تزعم بأنهم لم يكونوا مسلمين تماما وذلك فى محاولة لعزلهم عن العرب واستمالتهم لفرنسا .

(٥) منعت فرنسا التكلم بغير اللهجات البربرية او اللغة الفرنسية .

(٦) حظرت على الفقراء ومعلمى اللغة الفرنسية الانتقال الى مناطق البربر وتعليم القرآن بها .
وقد أشار (م لوكينز) الى هذه السياسة فقال

« ان سياسة الحماية تجلت فى ميدان التعليم فى شكل حرب منظمة ضد الثقافة الوطنية وفى شكل تنظيم تعليم عصرى يرمى قبل كل شىء الى تكوين موظفين فرنسيين فى الميدانين الادارى والفنى وأعوان مغاربة ثانويين » .

وقد أشار ساطع الحصرى الى هذه الخطة (الرسالة م ٤ ص ٢٥١) فقال « ذهبوا الى أنه يجب أن يرافق الفتح السياسى فتح معنوى بحيث يتقرب أهالى المستعمرات من المستعمرين وأن يندمجوا فيهم اندماجا وذلك بنشر لغة المستعمر وتعليم أهالى المستعمرات تعليما ينشىء فى نفوسهم حب المستعمر . وقد جعل الفرنسيون اللغة الفرنسية محورا لكل درس فى مناهجهم مع مادة ترمى الى تحبيب الأهلين فى الفرنسيين ومايترتب على أهل الجزائر نحو فرنسا مقابل الحماية التى تسديها اليهم والعدل الذى أدخلته الى بلادهم ونعمة التعلم والحضارة . وقال ساطع الحصرى أن هذه السياسة لم تنجح وأتت بالنقيض ولذلك تحولوا منها الى التعليم بغير تثقيف » على نحو ضيق جدا يجعلهم آلات صماء فى أيدى الاستعمار دون أن يدخل التعليم أى عنصر من عناصر الثقافة العامة .

وقد أشار علال الفاسى (المغرب) الى ذلك فقال : ان سياسة التعليم التى فرضها الاستعمار الفرنسى كانت تهدف الى محاربة اللغة العربية والاستعاضة عنها باللغة الفرنسية . وقد سلطت الحماية حربها على المنظمات الثقافية المغربية فأتلفت عددا كبيرا ، وصبت عدائها المستمر على (جامعة القرويين — والمغرب) وفروعها فى مراكش ومكناس والرباط وطنجة ووجده . وعمم التعليم الرسمى وضعفت نسبته ، وأصبحت نسبة التعلم فى عهد الاستعمار الفرنسى : ٢/٥ فى المائة (تونس) ٢ فى المائة (الجزائر) ٣٥/ فى المائة مراكش هذا بالاضافة الى نشر الدعايات التبشيرية والمحاولات لنشر المسيحية ونشر أساليب ملتوية لاستدراج المثقفين الى المسيحية فضلا عن الاضطهاد الدينى فى المساجد والمعابد والأوقاف الاسلامية

وجاء فى تقرير رسمى فرنسى (ساطع الحصرى ص ٤٧١ حولية التعليم ج ٢) أن أيالة (الجزائر) لن تصبح مملكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا (الفرنسية) هناك قومية . والعمل الجبار الذى يترتب علينا انجازه هو السعى وراء نشر الثقافة الفرنسية بين الأهالى بالتدريج الى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن .

وفى تونس : أنشأ الفرنسيون (١٨٨٣) مدارس ابتدائية فرنسية للأوربيين والعرب ليس بها لغة عربية وذلك لمحاولة تنشئة الأطفال تنشئة فرنسية صرفة) .

وقد قاوم الشعب العربى فى تونس والجزائر والمغرب هذا التيار وأسس مدارس حره من ماله الخاص .. غير أن السلطات الفرنسية قاومت هذه المدارس ولم تسمح الا بعدد ضئيل منها ، ولعل أعظم عمل تم فى هذا المجال هو ما قام به العلامة الشهيد : عبد الحميد بن باديس وزميليه فى الكفاح « البشير الابراهيمى » والطيب العقبى فى الجزائر حيث أسسوا ثلاثمائة مدرسة فى المساجد لحماية اللغة العربية .

وجملة القول ان العرب استطاعوا فى ميدان التعليم أن يواجهوا حملة لاتحدى بحملة رد الفعل ، وأن جميع البرامج التى وضعت لصبغ العرب باللون الفرنسى أو الانجليزى قد فشلت ، حتى أولئك الذين تلقوا الدراسات فى فرنسا وبريطانيا عاد منهم كثيرون وقد تحرروا من سلطان التغريب وعملوا على خلق فكر عربى حر قائم على الأسس العربية والاسلامية والأمجاد والقيم العربية الأصيلة وتحطمت نظرية الغرب فى القضاء على الشخصية العربية وأن استطاعوا تمييعها الى حد ما . وقد مضت الشخصية العربية تقاوم وتعمل فى سبيل التماسك .

* * *

نقص المناهج التعليمية

وبالجملة فان ما أبعده الاستعمار من المناهج التعليمية هو : الدين والتاريخ واللغة العربية وكانت نظرية « ديوى » هى أساس المناهج ونقطة الالتقاء مع التغريب .

* * *

نظرية ديوى

أبرز مظاهر مذهب ديوى فى التربية هو ابعاد الدين عن مجال التربية وكان هدفه هو ابعاد المسيحية عن برامج التعلم الغربى ، وقد قصد الاستعمار الى فرض

هذا المذهب فى دراسات مدارس المعلمين العليا التىكانت مجال تخريج رجال التربية فى مصر ، ورأى فى هذا عوضا عن الاشراف البريطانى على التعليم الذى كان يقوم به دنلوب حتى عام ١٩٢٢ وكانت نظرية ديوى عماد المنهج التربوى بعد ذلك ، وكان اسماعيل القبانى هو عماد هذه الدعوة وحامل لوائها بانشاء معهد التربية وليس ادل على اضطراب نظرية ديوى من انها هوجمت فى امريكا نفسها ورميت بأنها (مجردة من العناصر الصالحة لتنشيط الحياة الفكرية) .

وقد ظل لاتباع نظرية ديوى سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم فى خلال الفترة التى نؤرخها وبذلك استطاعت أن تبعد الاسلام عن مجال التربية والتعليم مع حملات مستمرة على أساليب التعليم الأزهرية وابعاد خريجيه عن مجالات التربية بحجة أطلق عليها «النقص فى مستوى الكفاية الفنية للتعليم » وذلك جريا مع الهدف التغريبى الواضح .

كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية التاريخية التى تعمل على بث أمجاد الأمة وعظمة الشخصية العربية فى نفوس الطلاب .

وقد حلت البرامج فى المدارس والمعاهد العربية فى عهد الاستعمار البريطانى والفرنسى فى مرحلتيه : مرحلة الحماية ومرحلة الاستقلال الذاتى من :

١ ــ الثقافة الاسلامية والتاريخ الاسلامى .

٢ ــ القرآن والدين الاسلامى .

٣ ــ أصول اللغة العربية وفلسفتها .

فى حين زيدت برامج اللغة الانجليزية أو الفرنسية على نحو مساو للغة العربية ، وغلب فى التاريخ دراسة التاريخ الاقليمى الذى يدعو الى خلق روح الانفصالية والتجزئة وتغليب تاريخ أوربا والشعوب الأوربية على نحو يصور الاستعمار بصورة العظمة والجلال . وفى الجزء القليل من تاريخ الوطن العربى والتاريخ الاسلامى كانت المناهج تخلو خلوا كاملا من الأمجاد والبطولات وتاريخ الأبرار المجاهدين . وفى خلال هذا التاريخ كانت هناك تزويرات وسموم يراد بها رسم صورة مشوهة لتاريخ الاسلام تبدو معه الأمة العربية فى صورة التفكك والصراع بين الحكام وابراز جوانب المؤامرات والخصومات وعوامل الصراع التى يراد بها القضاء على صورة الوحدة والقوة والتطور : وبالجملة فقد أقصى عن برامج التعليم فى المدارس والكليات العليا جانب الثقافة العربية الاسلامية .

وقد حدث هذا فى التعليم المدنى بينما ضعف التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية العربية وعزل خريجيه تقريبا عن التربية والحياة الفكرية .

* * *

اللغة العربية فى الجامعة

جرت معارك متعددة منذ ١٩٢٠ حول التعليم باللغة العربية فى الجامعات . كان أولاها بشأن التعليم بالعربية فى كلية الطب . وعارض فى ذلك على ابراهيم ونجيب محفوظ وعبد المجيد محمود وأمين عبد الرحمن وابراهيم شوقى وقدموا تقريرا نشرته الأهرام فى ١٩٢٢/٧/١ يعلنون فيه صعوبة ذلك ونتائجه السيئة .

بينما أجمع الأساتذة « على أن اللغة العربيةتصلح للتعليم وتسع جميع الاصطلاحات الفنية ، ومن أجل ايجاد كتب طبية عربية ، على المدرسين أن يبدأوا بتدريس الفروع الموكولة اليهم باللغة العربية كمقدمة لظهور كتب عربية طبية فى جميع الفروع » .

وهاجم الدكتور هيكل « الضرر الفاحش والخطر العظيم بسبب التعليم بلغة أجنبية وقال : انه لو أن اللغة العربية هى التى حلت محل اللغة الفرنسية فى تدريس الحقوق لكانت النتيجة الطبيعية أن تظهر بدل هذه المؤلفات الانجليزية مؤلفات عربية تعادلها (١٩٢٠/٥/١٠)»

ودعا محمد الشافعى اللبان الى التدريس باللغة العربية فى مدرسة الحقوق (١٩٢٠/٥/١٤) .

وكان للدكتور زكى مبارك دور واضح فى الدعوة لتعريب التعليم فى كلية العلوم بالذات ومختلف كليات الجامعة ، وقد كتب عديدا من المقالات فى يوليه وأغسطس عام ١٩٣١ قال : أن كل ما يجرى فى كلية العلوم يكتب باللغة الانجليزية حتى جداول الدروس والبيانات التى تعلق على الجدران . أليس معنى هذا أنه ليس لنا لغة ، وأن لغتنا ليست لغة مدنية ولا علم ، وانما تصلح فقط للمناوشات الكلامية فى الصحف والمجلات .

وقال : هم يزعمون أن اللغة العربية ليس فيها

مصطلحات علمية ، وهذه علة لا قيمة لها على الاطلاق . لأن اللغات المشهورة فى اوربا كالفرنسية والانجليزية لم يكن لها ايضا مصطلحات قبل نهضة العلم . ولا اكاد أصدق أن كلية الحقوق تريد أن تعود من جديد الى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب وقد قامت الدلائل على صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين وهى من أغنى اللغات فى مؤلفات الفقه والتشريع » .

ووجه هجومه الى لطفى السيد وطه حسين (١ - اغسطس ١٩٣٥ - البلاغ) فقال : هل توجد فى العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعلم لغة اجنبية غير الجامعات التى تنشىء فى المستعمرات : ان التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس . وقال : أتحتجون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية . فان احتججتم فأنا نسألكم ، ما هى القوة السحرية التىجعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة مكملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعتورها نقص . أن المصطلحات العلمية فى اللغات الأوربية تنحت نحتا من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية او الانجليزية ، فما الذى يمنع أن تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب فى وجه من يريدون أن تظل دائما اتباعا أبد الدهر لأبناء اللغات الأجنبية . أليس من العجب أن ندرس الطب باللغة الانجليزية فى بيروت وتدريس بالانجليزية فى القاهرة .

ولا شك أن الهدف من وراء ذلك كان هو أن يؤدى الدين والتاريخ الى تقوية الروح الوطنية واحياء الروح العربية الحرة .

* * *

اللغة الأجنبية

وقد اتصل بهذا غلبة اللغة الأجنبية على الألسنة حتى فى الأحاديث العامة والضعف الواضح فى اللغة العربية فى الكتابة والتعبير واذا كان الدكتور الطاهر الحميرى (تونس) فى كتابه مكافحة الثقافة يقول « انه يعرف عائلات تونسية كل حديثها بالفرنسية ولا يدخل فيه من العربية الا بعض الكلمات التى لا مقابل لها فى الفرنسية » فان هذا لم يكن مظهرا تونسيا بقدر ما هو مظهر عربى شامل فى هذه الفترة .

* * *

والدور الذى قام به « دنلوب » فى تحويل التعليم فى مصر عن الهدف الأسمى قد حقق نتائج اكيدة وظلقوى الأثر من بعده ، ذلك الهدف الذى يقصد الى تخريج موظفين فقط .

ومما يرويه « الدكتور محمد ناجى » أن الشيخ عبد العزيز شاويش بعد أن عاد من منفاه ١٩٢٣ عمل مديرا للتعليم الابتدائى بوزارة المعارف : يقول « على اثر عودتى لأول مرة تأسست مدرسة عبد العزيز وكان برنامجها يقتصر على سنة واحدة لتخريج معلمين فكتب تقريرا وجهه الى « دنلوب » قال فيه أن هذه المدرسة أسست لتخريج معلمين ، فالسنة التى قررتموها لا تكفى لتلقين تاصديها وتهذيبهم وتدريبهم وتعليمهم كيفيعلمون ، واقترح برنامجا من ثلاث سنوات .

وقرأ دنلوب التقرير وكتب عليه « غيابك عن مصر ثلاث سنوات متعاقبة وضعتك فى موضع المغالى فيما يطلب لقومه . ان امتك يكفيها معلم يستطيع أن يعلمها ألفا باء ومبادىء الحساب » !

* * *

المقاومة فى العالم العربى

كما تعددت حركات المقاومة فى جميع انحاء العالم العربى بعد حصوله على الاستقلال ، ففى العراق أمكن بفضل ساطع الحصرى ١٩٢١ أن توجد نظاما تعليميا يحمل طابعا قوميا خاصا بالرغم من ارتباطه باللغة الانجليزية كما عملت سوريا على تعريب الألفاظ والكتب ودراسات الجامعة واصبحت كليات الطب وغيرها تدرس باللغة العربية وهو ما لم تبلغه مصر وادخلت دراسات القومية العربية الى المناهج التعليمية .

ثم جرت ابحاث لتوحيد برامج التعليم فى البلاد العربية (اغسطس ١٩٢٧) وقد جرت هذه المشاورات بين مصر والعراق ومع الثعالبى زعيم تونس حول «توحيد الثقافة العربية بين الناطقين باللغة العربية » وقد أعلن الثعالبى أسفه لأن تكون الأمة العربية وهى ممتدة من شطوط الأطلنطى الى تخوم البلوخستان مقطعة الأوصال عارية من الثقافة ، ليس لها منهاج معين تتبعه ولا مبدأ تسير عليه وقال : « ان اليوم التى يجتمع فيه المراكش

والجزائرى والتونسى والطرابلسى والمصرى والفلسطينى والســـورى والحجازى واليمـــانى والنجدى والعمـــانى والعراقى لوضع منهاج للتعليم والثقافة لتوحيد روحيـــة هذه الأقطار يومئذ يعتقدون انهم عنصر غلاب ويســـتحيل من حقهم أن يرضوا بالموت حتف أنوفهم تحت صراعوختل سياسة الاستعمار . ان هذا العمل صعب ولكن أصعب منه احتمال الضيم وقبول الفناء فى ارادة الغير » كما دعا المجلس الاسلامى الاعلى فى فلسطين الى مؤتمر عربى عام للنظر فى توحيد مفاهيم التعليم وقد سجل احمد شفيق فى كتابة (أعمالى بعد مذكراتى) أنه تفـــاهم فى الفكرة مع الملك فيصل والملك سعود وأن لطفى السيد وزير المعارف رفض الفكرة ووقف فى وجهها وقال : لقـــد زرته واعدت الحديث معه فلم أجد عنده قبولا للفكرة .

* * *

الجامعة فى معركة الغزو الثقافى

كان انشاء « الجامعة المصرية » فى مصر من معارك مقاومة الغزو الثقافى فقد كانت الدعوة الى انشاءها حلقة من حلقات الحركة الوطنية ومقاومة الاستعمار .

ولقد فوجىء الاستعمار بالدعوة الى المشروع وهاجمه هجوما عنيفا ، وحاول ايقاف خطواته ، وقال كرومر معلقا « ان التعليم الذى تحتاج اليه الأمة المصرية هو تعليم « الكتاب » وحث الحكام والأعيان على انشاء الكتاتيب لتحويل تيار الراى العام عن مشروع الجامعة »

وقد استقبل الراى العام المشروع بشىء كثير من الايمان والتضحية وانهالت التبرعات التى بداها (مصطفى كامل الغمراوى) بخطاب أرسله لجريدة المؤيد (٣٠ — سبتمبر ١٩٠٦) متبرعا بمبلغ ٥٠٠ جنيه .

وفى ٤ اكتوبر ١٩٠٦ نشرت المؤيد أسماء مؤيدى المشروع وبلغت التبرعات ٤٤٨٥ جنيها وتبرع حسن زايد (المنوفية) ، ٥٠ فدانا وعقدت الجلسة التمهيدية فى بيت سعد زغلول (١٧ اكتوبر ١٩٠٦) وصدر قرار تأسيس الجامعة (٣٠ مايو ١٩٠٨) وافتتحت فى (٢١ ديسمبر ١٩٠٨) فى مجلس شورى القوانين (مجلس الشيوخ) .

وقد أشار حسن حسنى كامل فى رسالة الأهرام (٢٥/١٢/٢٤) ان اول مصرى نادى بوجوب انشاء جامعة مصرية هو مصطفى كامل عام ١٩٠٢ ولما عاد مصطفى كامل ١٩٠٦ من أوربا جمع المصريون ٥٠٠ جنيه للاحتفال به بعد دفاعه فى حادث دنشواى فأرسل خطابا الى محمد بك فريد (٢٥ سبتمبر ١٩٠٦) طلب فيه تحويل هذا المبلغ الى مشروع الجامعة وقال : على اللجنة ان تقوم بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس جامعة أهلية تجمع ابناء الفقراء والأغنياء على السواء .

غير أن سعد زغلول لم يلبث أن انسحب من مشروع الجامعة بعد تعيينه وزيرا للمعارف — وكان المنتظر أن يعضد المشروع ، وذكرت بعض المصادر أن احمد باشا المنشاوى كان قد عزم ١٩٠٥ على انشاء جامعة اهلية فى جهة باسوس وأبى الغيط على نفقته ومات قبل تنفيذ المشروع .

وأعلن أن الجامعة عبارة عن مدرسة علوم وآداب تفتح أبوابها لكل طالب وليس لها صبغة سياسية واشترط فى اللائحة أن من يريد الالتحاق أن يكون حاصلا على شهادة المدارس العليا أو دار العلوم أو القضاء الشرعى او متخرجا من الأزهر .

وفى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ افتتحت الجامعة الاهلية رسميا فى مكان الجامعة الأمريكية الآن بميدان الأزهار .

وكانت دراساتها : الحضارة الاسلامية والحضارات القديمة والتاريخ والجغرافيا عند العرب وادخلت ١٩١٠ مادة الأدب العربى .

واعترفت الحكومة بشهادات الجامعة (١٩١٣) حيث كان أحمد حشمت وزيرا للمعارف .

وكانت أطروحات الجامعة الأولى لطه حسين وحسن ابراهيم واحمد بيلى وحامد المرعشلى وزكى مبارك واسرائيل ولفنسون وفريد رفاعى واوفد عددا منهم الى وربا ليعودوا اساتذة .

وقد حاول الاستعمار أن يحارب الجامعة فاعلن الدوق غورست أن الجامعة غير مستقلة ووقامت قيامة الصحف .

وقد تولى التدريس فيها : احمد زكى باشا (الحضارة) اسماعيل رأفت (الجغرافيا) حفنى ناصف (الأدب العربى القديم) محمد الخضرى (التاريخ الاسلامى) محمد المهدى (الأدب العربى) .

كما القى بها محاضرات المستشرقين نلينو وجويدى وسنتيلانا واتجه عدد كبير من طلاب الأزهر الى الجامعة.

فى الجامعة بدأ المزج بين الثقافة العربية القديمة

والثقافة الغربية الجديدة وفتحت آفاق جديدة للبحث . وقال بعضهم معلقا ان منهج البحث يختلف عن منهج الأزهر فلم يقل المؤلف فى أول دروسه « قال المؤلف رحمه الله » ولم ترد كلمات الفنقلة ولا الحواشى والمتون .

وقد جرت محاولات كثيرة للقضاء على الجامعة وحاول الاستعمار تحويلها الى كلية اداب شرقية بدلا من جامعة كاملة . وحاول رجال الارساليات البروتستانت والانجليز رد العاملين والتدخل ، واتهام المشروع بالعقم خلال عامين متتابعين ١٩٠٧ — ١٩٠٨ ووصفت الجامعة بانها « كابوس بريطانيا العظمى » ثم انتصرت الجامعة على ازماتها وحصلت على اعانات من وزارة الأوقاف .

وقد تلقت من المتاحف والمعاهد الأدبية المختلفة كتبا وهدايا ومجموعات نادرة من الأحجار الجيولوجية والقطع الأثرية كما وهبت اليها مكتبات متعددة من اعلام الفكر فى مصر .

٢ — صور قاسم امين (أهرام ١٨ أبريل ١٩٠٨) الهدف من الجامعة فقال « لا يمكننا ان نكتفى الان بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة او الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا لاكتشاف المجهول . فئة يكون مبدؤها التعليم للتعليم . ان طائفة المتعلمين فى مصر وهم متخرجوا المدارس العالية يعملون على مبدأ (اكسب كثيرا وانفق قليلا) ولا تجد منهم العاقل المحب لعلمه أو فنه أو العاشق الذى يملك شهوة العمل قلبه» :

وقال على الشمسى : ان الجامعة ستبنى ملكات حب العلم والتعمق فيه وحب البحث العلمى لتخرج فى مصر طوائف من العلماء والباحثين المتحرزين لطلب الحقائق العلمية والفنية ، وذلك حتى تحمل مصر قسطها فى بناء الحضارة العالمية تشارك جماعة الأمم فى العمل على تقدم المدنية وترقية الانسانية .

٣ — رسم قرار انشاء الجامعة هدفها « ترقية مدارك المصريين وأخلاقهم وذلك بنشر الآداب والعلوم » ومن أخص الوسائل التى تتخذها لتحقيق غاياتها وسيلة البعثات (١) ترتيب تدريس مماثل للحاصل فى المدارس الجامعية بأوربا (٢) تنظيم محاضرات يلقيها أكابر رجال العلم والآداب (٣) منح جوائز لأصحاب المؤلفات العلمية والأدبية باللغة العربية .

* * *

الغزو فى ظل الجامعة الرسمية

ثم تحولت الى جامعة رسمية فى ١١ مارس ١٩٢٥ وعين لطفى السيد اول مدير للجامعة بعد ان أصبحت تابعة للدولة . وبدأت بكليات اربع : الحقوق والآداب والعلوم والطب . وكان عدد طلبتها عام ١٩٢٥ — ٢٠٢٧ طالبا ودخلت الفتاة الجامعة لأول مرة ١٩٢٩ .

وترى الأهرام : أن سلطات الاحتلال البريطانى سمحت بأن تضم الجامعة المصرية الى الحكومة خوفا من نفوذ الارساليات الأمريكية . فقد لاحظت اللجنة التى شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز أن الارسالية الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة فى أمريكا لانشاء جامعة أمريكية فى القاهرة على غرار جامعة بيروت وقد بدأت الدراسة الثانوية بها أكتوبر ١٩٢٠ (ومما يذكر الارساليات الأمريكية قدمت مصر ١٨٦٥ حيث أنشأت الكلية الأمريكية فى أسيوط واول مدرسة للبنات) .

وقد كانت أولى الطالبات بالجامعة سهير القلماوى ونعيمة الأيوبى وفاطمة سالم .

ولقد واجهت الجامعة منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافى والصراع بين مستشرقى فرنسا ومستشرقى انجلترا .

وكانت اولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثياب المستشرقين حيث يكلفون بالقاء دروس عن اللغة العربية والاسلام والقرآن وكان موضع الاعتراض ان هذه العلوم لا تحتاج الى اساتذة اجانب يكلفون الدولة مبالغ طائلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الأزهر وعلمائه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازانوفا وقال « اريد ان يعلم الناس انى سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصا فتمنيت لو اتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسى ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقا » ....

ورد محمود أبو العيون (٤ سبتمبر ١٩٢٣ — الأهرام) فهاجم هذا الاتجاه وقال ان كازانوفا وضع كتابا فى تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتابا فى فقه

اللغة وتاريخها وآدابها او مناهج تدريسها يرجع اليه علماء اللغة والأدب فيما جهلوه وهل وضع تفسيرا للقرآن لغويا خالصا . ان كان فعل هذا ليكونن له شأن كبير عندنا .

ثم هاجم طه حسين وقال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورايه فى كل تعاليمنا واذا كان قد راى ايثار أستاذه على كل عالم واديب فى مصر فيا ضيعة العلم فى مدارسنا العالية ، العلم الدينى الذى يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفا . ثم ذكر ابو العيون كيف أن جامعات المانيا وانجلترا وفرنسا استعانتبشيوخ اللغة العربية فى الماضى والحاضر وكان فى مستشرقيها الكفاية وأن حسن توفيق العدل والدكتور حامد والى وعبد العزيز شاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سلمان كانوا من هؤلاء الأعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافى التغريبى الذى تحمل لواءه الجامعة وقال : نحن بلينا بالتقليد الضار . وهو على الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعا واختيارا عن كل ميزاتنا ومشخصاتنا الى الغير ولو دام الحال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب افريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطة .. »

٢ — وكانت المشكلة الثانيةفى معركة الغزو الثقافى هى المحاضرات التى القاها الدكتور طه حسين ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلى فى كلية الآداب ودعا فيها اقصاء عنصرى القومية والدين فى مجال البحث العلمى . وهاجم الاسلام وانكر ما ورد فى القرآن من أخباره عن ابراهيم واسماعيل وطعن فى نسب النبى وانكر ان للاسلام اولية فى بلاد العرب وانه دين ابراهيم .

ثم تبين بعد أن قامت الضجة ضد ذلك الكتاب فى الصحف ومجلس النواب ان هذه الافكار ماخوذة من كتاب (مقالة عن الاسلام) لجرجس صال الانجليزى معربة عن الانجليزية بقلم من يدعى هاشم العربى ومطبوعة ١٨٩١ يرى فيهما ما راى الدكتور طه عن قصة ابراهيم واسماعيل وينسبه لنفسه على انه ابتكار من ابتكاراته وراى كما كشف عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب عام ١٩٣١ عن « نوته » لأحد الطلاباستملاها من محاضرات الدكتور طه على الطلبة فى القرآن ، وفيها بحث الدكتور الطلبة على نقد القرآن ويذكر لهم ان فى القرآن اسلوبين مختلفين كل الاختلاف : احدهما جاف وهو مستمد من البيئة المكية ففى هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، فلما هاجر النبى الى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة واصبح ذلك الاسلوب لينا ، وحث الدكتور طه الطلبة على أن ينظروا الى القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه النقد العلمى ما يجرى عليها وان يغضوا النظر عند البحث فيه عن قدسيته وعرض طه لفواتح السور وذكر عدة آراء فيها « منها قصة التعمية ومنها انها كانت فى الأصل علامات مميزة لمصاحف الصحابة » .

وقد ذكر (زكى مبارك) فى مجال سجال بينه وبين طه حسين أن المستشرقين فى السربون عندما قرأوا آراء طه حسين قالوا هذه بضاعتنا ردت الينا .

* * *

المعارك الادبية

٣ — ودار بحث طويل حول مهمة الجامعة ومقدار ما أدته للفكر العربى وقد أجمع الباحثون على أن التدريس فى الجامعة منذ انشائها (٩ يونيه ١٩٣٣ — الأهرام) لايختلف عن التدريس فى المدارس الثانوية فالطالب يرجع الى كلام المدرس والى الكتاب ولا يكون له رأيا خاصا ويعتمد على الحفظ أكثر من اعتماده على الادراك ، كما سجل موقف الطلبة من أساتذتهم وخروجهم على ماتواضع عليه الناس جميعا من احترام الأساتذة وتكريمهم والترفع عن هجر القول .

وقال لطفى السيد ان الجامعة لم تستطع ان تجعل اللغة العربية لغة التعليم كما هو مرجو وان كان لها فى التعليم خط عظيم فى كلية الحقوق وبعض اقسام الكليات الأخرى .

٤ — وقال الدكتور مشرفة : الذى ينقصنا هو روح العلم وجو التفكير الحر ، والجامعة المنشودة تنعى الروح العلمية الصحيحة : وواجب الجامعى هو واجبه أولا نحو نفسه وثانيا نحو الأسرة الجامعية .

وجرى نقد حول خريجى الجامعة وعدم الاستفادة منهم — الأهرام (١٩٢٦/٥/١٦) فأقصى عنها معظم المصريين الذين قامت على رؤوسهم الجامعة الاهلية القديمة ، ونحى عن ابوابا بعض الاكفاء من المصريين الذين كان يقضى تعليمهم بأن يكونوا بين جدرانها ، وبذلك حرم من وضع اسس الجامعة كثير من اكفاء المصريين ثم انفسح المجال للأجانب غثهم وسمينهم ولم يراع فى انتخابهم سوى أحقيتهم ، وها هى الجامعة تموج بهم ،

هؤلاء الأجانب قليل منهم من يفوق شباب مصر المتعلمين فى كفاءتهم واحس الانجليز بأن نصيبهم من الغنيمة ، ليس بالقدر الذى يجب ان ينالوه ، وكذلك تمر الآن بالجامعة موجة ترمى الى اكثار عدد الانجليز بالجامعة بكل الوسائل الممكنة » ا. هـ.

٦ — واشار تقرير لجنة المالية بمجلس الشيوخ (١٩٢٩/٦/١٥) الى ضرورة تمصير الجامعة وصوغها فى قالب مصرى لحما ودما لكى تمثل تفكيرنا الماضى وملأ الكراسى بأساتذة مصريين ، وقال التقرير ان كل العلوم لا تزال تلقى محاضراتها باللغة الانجليزية ولا يكاد يوجد فيها أكثر من اساتذة مصريين ، وأن مستوى التعليم الجامعى دون ما تنشده ولم يحقق كثير من الجامعيين الغرض المطلوب منهم .

٧ — وقال عباس عمار (الأهرام — ٣ / ١٠ / ١٩٢٦) : اول ما تستطيع جامعتنا أن تؤديه فى سبيل الواجب العلمى الذى يفرض عليها هو أن تحاول تغيير وجهة نظر المصريين والشرقيين الى العلم . وأن نسمو بعقليتنا عن هذا الفهم الخاطىء لقيمة العلم والعلماء . فالنزعة التى عندنا نزعة خطرة ونظرتنا الى العلم نظرة مادية بحته يخشى على العقلية المصرية منها ان ظلت تسير فى ذلك الاتجاه .

* * *

وقال : ان على الجامعة أن تحارب هذه النزعة وان تعلم تمام العلم أن جهادها فى سبيل غايتها العلمية لن يجدى الا اذا مهد له بذلك الأساس ، لأن حب العلم لذاته والشغف بالبحث والتفانى فى حب الحقيقة العلمية المجردة يتطلب ان يكون اساس الدراسة هو المثل الشخصى والدافع الذاتى .

والواجب الخاص هو الاهتمام بالدراسات المصرية والشرقية دراسة تفصيلية عميقة أشد العمق متسعة أكبر توسع .

وقال : أليس التراث المصرى تراثا حافلا لم تمط يد المصريين اللثام عن شىء منه ذى بال . ألسنا فى الدراسات الشرقية كلها عيالا على الغربيين المستشرقين ، بل ألسنا فى الدراسات الحديثة نفسها تقف مراجعنا عند حدود ما يكتبه الأجانب وتنحصر مهمة كتابنا فى ترجمة آرائهم وان هم احسنوا فيما يتجاوز تصرفهم دائرة التعديل والتنوير .

أليس يجرح كرامتنا ويمس الى حد كبير شعورنا ان نبقى نحن نجهل هذا التراث الخالد حتى يضع أجنبى يدنا على مواضع الفخر فيه وأن يولى الشرق وجهة غربية يستوحى منها عظمة الآباء والأجداد .

٨ — وقال الدكتور عبد الوهاب عزام (الهلال م ٤٠ ص ٣٤١) أننا كنا الى وقت قريب عالة على المستشرقين نأخذ منهم ولانعطيهم ، أما اليوم فنحن نزامل المستشرقين ونتضامن معهم فى احياء الثقافة العربية والقاء النور على حضارة الاسلام .

وقال : ان تراث العرب الفكرى مشتت فى بلاد الله قد نثرته الحروب الصليبية وبددته الغزوات فتقاسمته تركيا ودويلات أوربا ومن الضرورى استحضار هذه المخطوطات أو أخذ صور فوتغرافية لها .

* * *

اللغـــة العربيـــة

ركز الاستعمار فى غزوه الثقافى على «اللغة العربية» للقضاء عليها كقوة من قوى الوحدة والقومية العربيـــة والاسلام ، وسبيلا الى القضاء على الكيـــان العربى الاسلامى بما فيه من قيم ومقدرات وتراث يرتبط باللغـــة العربية .

ولقد كان هدف الاستعمار أن تصير اللغة العربية الى ما صارت اليه اللغـــة اللاتينية وأن تتطور اللهجـــة المحلية فى كل قطر فتصبح لغة مستقلة لها أدبها وثقافاتها منفصـــلة عن اللهجات الأخرى وبذلك يقضى على اللغة العربية والقرآن .

ولقد جند الاستعمار قواه لهذه الغاية وحرص عليها ورسمت خطط بعيـــدة المدى لذلك ، وفى المنـــاطق التى احتلتها بريطانيا سارت الخطة على نحو معين وفى مناطق استعمار فرنسا اتخذت الخطة شكلا آخر اشد عنفا .

وكان هـــدف هذه الحملة اتهـــام اللغة العربيـــة بالقصور ، وعدم الكفاية العلمية أو ارتفاع مســـتواها عن مفاهيم المجموعات العامة او اتهام حروفها ونطقهـــا وكتابتها بالصعوبة والتعقيد ، وكل هذه اتهـــامات حاول الاســـتعمار بها النفـــاذ الى غرضـــه فى الدعـــوة الى العـــامية او اســـتخدام الحروف اللاتينية وتحطيم عامود الشعر .

وقد توالت هذه الدعوات خلال هذه المرحلة الطويلة واستمرت وتعددت ، واحدة بعد الأخرى ، يحمل لواءها غربيون أجانب او وطنيون من دعاة التغريب .

١ — قدم المهندس وليم ولكوكس الى مصر ١٨٨٢ من الهند وقد كان موظفا بمصلحة الرى بها وقد دعا الى نشر العـــامية والتأليف بها وترجم بعض فصـــول من مسرحيات شكسبير ومن الانجيل الى العامية .

وله خطاب مشهور القاه فى نادى الأزبكية (يناير عام ١٨٩٣) وقد اســـتهله بقوله « لماذا لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » ...

قال : أن من جملة العوامل فى فقـــد قوة الاختراع عن المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشـــار باغفـــالها واســـتبدالها بالعـــامية اقتـــداء بالأمم الأخرى . وذكر بنوع خاص الأمة الانجليزية وقال انهـــا استفادت افادة كبيرة باغفـــال اللغة اللاتينية التى كانت لغة الكتـــابة عندها واستبدالها باللغـــة الانجليزية الحاضرة » .

وقد اتخذ لاذاعة هذه الفكرة بمعـــاونة سكرتيره احمـــد الأزهرى مجلة عنوانها « الأزهر » قالت الأهرام ٣٢/٧/٢٩ « لقد قاوم الرأى العام فكرته فأبطل المجلة ومع ذلك فقد ظل يؤلف باللغة العامية فكتب فى ذلك حياة المسيح وأعمـــال الرسل وترجم كتب العهد الجـــديد الى اللغة العـــامية المصرية وكان ينظم الزجل » . وهى فى الحقيقة لهجة وليست لغة .

٢ — كما ظهر بعد ذلك بقليل (١٨٩٧) كتـــاب أطلق عليه اسم « اللغة العـــامية المصرية بالحروف الأفرنجية » . وهو مشروع ينتقل خطوة ثانية بعد خطوة الدعوة الى العامية فيطالب بكتابتها بالحروف الأفرنجية .

وقد أعده بعض الأجانب ورتبت له ابجدية أفرنجية « عوض فيها عن الحروف العربية الخالصة بأحرف ذات علامات خاصة ومعه تمارين لاستعمال هـــذه الحروف » على حد تعبير مجلة المقتطف فى التبشير بالكتاب .

٣ — دعا وليم ويلمور احد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية الى اتخاذ اللغة العربية العامية للكتـــابة بدلا من اللغة الفصحى . واصدر كتابا عنوانه :

The Spofen Arobrc Of Egypt

وقـــد قال وليمور : ان أرباب الصـــحف أولى من غيرهم بكتابة اللغة المحلية واسماها (لغة القـــاهرة)

واشار الى كتابتها بحروف رومانية كما عنى ولمور بجعل الحروف دالة على الأصوات . ويقع كتـــابه فى ٤٠٠ صفحة .

قال وليمور : أنه يأسف اذ نسيت العربية الفصحى فى هذه البلاد ويرى انه يجب أن تدرس فى مدرسة جامعة مع غيرها من اللغات السامية كما يدرس اللغات الحية .

٤ ــ أصدر الكابتن وليم تمبل جردنر كتابه ــ اللغة العامية المصرية Egyptien Couoqniola bie كما انشا حلقة لتدريس اللغـــة العربية لطائفة المراســلين الذين يردون مصر من انجلترا وأمريكا وجعل هذا الكتاب وسيلة لغايته .

٥ ــ نشر المستشرق فنسنك رسائل عديدة مكتوبة بحروف اوربية فى اللغة المصرية القديمة ومن بينها رسالة للمقتطف أسماها « اجرومية مصرى » كتبها على هـــذا النحـــو (بل لســـان المصرى ومعها امسلة) يقصـــد (باللسان المصرى ومعها أمثلة) .

* * *

ــ ٢ ــ

وعلى ضوء هذا الاتجاه الذى بداه المبشرون وحملة الوية الغزو الثقـــافى كتب عـــدد كبير من دعاة التغريب محاولين خلق « أزمة » اللغة العربية وفى مقدمتهم الدكتور صروف واسعد داغر ولطفى الســـيد وقاسم أمين وأمين الخولى ومحمود تيمور وعبد العزيز فهمى .

فقد كتب الدكتور صروف عام ١٨٨١ يقول أن لغة الكتب عند الأفرنج لا نفترق كثيرا عن اللغة التى يتكلمون بها فيفهم العامى منهم كتاب الفلسفة ، أما نحن المتكلمين باللغة العربية فكتبنا ولا سيما كتب العلوم مكتوبة بلغـــة غير اللغـــة التى نتكلمهـــا ، والبعد بينهما كالبعـــد بين الفرنساوية والانجليزية أو بين اللاتينية والايطالية فلايقدر عامتنا على ادراك معانى الكتب ما لم يدرسوا لغتهـــا . ثم حاول أن يرسم حـــلا لعلاج ذلك فى واحـــد من طرق ثلاث :

* اما ان نكتب كتبا باللغة التى نتكلم بها كما فعل لأنفسنا « مع أنه ممكن ونخاف ان تدعو الأحوال اليه فى مستقبل غير بعيد » .

* أما ان نكتب كتباب باللغة التى نتكلم بها كما فعل الايطاليون وغيرهم من الأمم التى فسدت لغـــاتهم بتوالى الأزمات .

* أما ان نعـــلم أولادنا التعـــلم باللغة العربيـــة الصحيحة حتى تصبح ملـــكة فيهم ثم قال : ان هذا فيما نظن أشرف الطرق وأمنها وأنفعها لأن العربية الصحيحة واسعة المتن مضبوطة القواعد يمكنها أن تجارى العـــلم أكثر من كثير من لغات الأرض .

٢ ــ أما اسعد داغر فقد عقد فى هذا عام ١٨٩٦ منـــاظرة مع شـــديد يافث ثم جـــددها فى مارس ١٩٠٢ (المقتطف) وقال انه كتب فى عديد من الصحف ومنهـــا (ثمرات الفنون) ناعيا على اللغة العربية « انها لاتصلح أن تكون لغة تكلم ولم توضع الا لتكون لغة كتابة ، وبيان ذلك أن المتـــكلم من طبعه يطلب الاختصـــار فى حديثه . والكلام المعرب طويل جدا بسبب حركات الاعراب ولعدم امكان الاختصار فيه كما فى المحكى » ثم قال أنه « ليس فى اللغة المعربة ما فى اللغة العامية من الصلاحية للتـــكلم والمخاطبة ، ولذا قضى قانون تنازع البقـــاء أن تجفوها الالسنة والشفاه » وجملة رايه هو نقص اللغة المكتوبة وقصورها عن مجاراة اللغات الأجنبية .

٣ ــ وكتب لطفى السيد فى (الجريدة) فى شهرى ابريل ومايو ١٩١٣ عددا من المقالات فى (تمصير) اللغة العربية .

* * *

وقد اتهم اللغة العربية بأنها واسعة فى القاموس ، ضـــيقة فى الاستعمال مخصـــبة فى المعانى والمســـميات القديمة ، مجدبة فى المعانى الجديدة والاصطلاحات العلمية وأن رقيها قد انقطع من قرون طويلة فوقفت عند الحـــد الذى وصـــلت اليه أيام النهضة العباســـية ، ودعا الى استعمال الألفاظ الأعجمية والعامية المألوفة (كالأتومبيل والبســكلت والجاكتة والبنطلون والجـــزمة) وقال أنه لا يعرف سببا لهجر المألوف المشهور الى ابتكار غيره الا حب الأغـــراب ، ثم قال انه لا جرح على الـــكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ما شاء من المعانى ، وانه يريد أن لا يترك اللغة العـــامية تموت بابعـــاد عربيها وفصيحها عن عالم الكتابة والنزول بالضرورى من اللغة المكتوبة الى ميدان التخاطب والتعامل .

٤ — وقال قاسم أمين : أن اللغـــة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام ، بينما أخذت اللغـــات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم اهلهـــا فى الآداب والعلوم (وطالب بأن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل) وقال أن هذه الطريقة هى طريقة جميع اللغات الافرنكية والتركية وذلك بحذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاستقبال بدون أن يترتب على ذلك اخلال باللغـــة اذ تبقى مفرداتها كما هى .

٥ — وردد ســـلامة موسى دعوة « ولـــكوكس » فقال أن الهم الكبير الذى يشغل باله هو هذه اللغة التى نكتبها ولا نتـــكلمها فهو يرغب أن نهجرها . ونعود الى اللغة العامية « فنؤلف بها وندون بها آدابنا وعلومنا » . وردد دعوة قاسم أمين الذى نعى على اللغة الفصـــحى صعوبتها واقترح الغاء الأعراب فتسكن أواخر الكلمـــات وردد دعوة لطفى السيد باستعمال العامية .

وأشار الى أن الخورى فى ســـوريا قد حمل لواء الدعوة الى اصطناع العـــامية السورية بدلا من اللغـــة الفصحى وقال أن الصحف السورية والفلســـطينية حتى العراقية تبحث هـــذا الرأى ونسبته الى ضعف الحمية الوطنية .

٦ — وتحدث الدكتور جورجى صبحى فى محاضرة عن اللهجات العربية الدارجة فى مصر وتاريخ نشوئها . وأشار الى أن اللغة الدارجة حتى القرن الثـــالث عشر الميلادى لم تكن كونت فى مصر بعد ، وأشـــار الى طريقة تحول الفصحى الى عامية ، وأن أول تغير فى طريق تكوين اللهجات يقع على الحركات كظهور حرف (والامالة E

ثم يعقب ذلك الحروف الســـاكنة بأن نســـتبدل الحروف الحلقية بحروف أخف نطقا كابدال القـــاف همزة والطاء ضادا والذال دالا والثاء تاء .

٧ — وكتب عبد الله حســـين (الأهرام — ٤ مايو عام ١٩٢٦) فادعى أن اللغة العربية «عجزت عن تأدية» العبارة الدقيقة عن حياة الصناعة وسمو أسرار الطبيعة المكشوفة ، ظهر ذلك حين أراد المترجمون أن ينقلوا الى اللغة العربية كتب الأدب فاجتهد كل مترجم فى أن يؤدى المعنى الأجنبى باللغة العربية بتصرفه الشخصى .

وأشار الى العـــامية فقال : أن لغتنا لغة عامية هى فى الواقع أداة التعبير الحقيقية عن مطالبنا واحاديثنا ثم تساءل : عما اذا كان من المستحسن « تمصير » اللغة العربية أى جعلها لغة مصرية خالصة توضع لهـــا أسسها وقواميسها وقال ان هذا التمصير يسهل على مصر الاستفادة من بعض المعقول فى اللغة العامية .

— ودعا عبد العـــزيز فهمى (يناير ١٩٤٤) الى اتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية وقال : أن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون اللغة العربية الفصحى هى لغة الكتابة عند الجميع . وأن فى ذلك محنة حائقة بأهل العربية وانه تكليف للناس بما فوق طاقتهم وأن اللغة العربية سهلة المنال كاللغات الأجنبية .

ووصف اللغة العربية بأنها ليست لغة أمة واحـــدة لقوم بعينهم بل انها مجموع كل لهجات الأعراب البادين فى جـــزيرة العرب ، وانه من الظـــلم الزام المصريين وغير المصريين بها .

وانه من أجل ذلك فكر فى اتخاذ الحروف اللاتينيـــة وما فيهـــا من حروف الحركات بدل حروفنـــا العربية كما فعلت تركيا . ثم صور مزايا استعمال الحروف اللاتينية فقال : أن الحروف الهجـــائية الجديدة لا تخل بشىء من نغمات الحروف العربية بل تبرزها جميعا ، وقال أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لحل هذه المشكلة .

* * *

الرد على الحملات

وهكذا استمرت معركة الهجوم على اللغة العربية طوال هذه الفترة التى تزيد عن خمســـين عاما ، وكان واضحا من لهجة كتابها مدى التعصـــب والغرض وعنف وسائل الغزو الثقافى ومحاولة البحث عن كل وسيلة ممكنة للقضـــاء على اللغة العربية سواء كان ذلك بأقلام المبشرين من كتـــاب الغرب أم بأقـــلام دعاة التغريب من كتابنا .

وقد أجملت حملات الدفاع عن اللغة العربية حقائق واضحة لا سبيل الى انكارها منها :

* أن الفرق بين لغة الكتـــابة ولغة التكلم عندنا ليس بالشىء الكبير وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغـــة كتاب الانجليز ولغة عامتهم .

* أن الناطقين باللغة العربية تختلف لغتهم العامة باختلاف الاصقاع . والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامة ، فاستبدال الفصحى بالعامية المصرية يحرم كل قطر من الانتفاع بانتاج القطر الآخر .

* أن اغفال الفصحى يستوجب اغفال كل ما كتب عنها من العلوم منذ ١٣٠٠ سنة وهى خسارة لا حد لها .

* لا يعقل أن أمة لها لغة شهيرة ذات حروف منتشرة وانتاج ضخم وتراث كبير تترك حروفها هذه لتكتب بحروف غربية .

* الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى اذ لولا القرآن لتشتت شمل الشعب العربى .

* الاختصار فى الكتابة العربية مزية لها .

* أن الحروف العربية التى تستعمل فى سائر العالم العربى هى أهم مظاهر الوحدة .

* أن اللهجة العامية منحطة لانحطاط عقول الناطقين بها ولا تقوم مقام الفصحى فى اللغة العربية أرقى لغات العالم .

وقد رد جرجى زيدان على ويلم ويلمور (هلال فبراير ١٩٠٢) فقال « هم يشيرون علينا أن نتخذ اللغة العربية العامية بدلا من اللغة الفصحى فى الكتابة فاى اللغات العامية يريدون ان نتخذ . لغة مصر ام لغة الشام ام لغة العراق ام لغة الحجاز ام اليمن ام نجد ام المغرب . فان لكل من هذه البلاد لغة خاصة لا يفهمها عامة البلاد الأخرى ، فان قالوا الفوا لغة تشترك بين هذه اللغات قلنا أن اللغة لا تتألف بالتواطىء ، وانما هى جسم ينمو نموا طبيعيا على مقتضى ناموس الارتقاء . واسهل منه ان نبقى على اللغة الفصحى وهى أم لغاتنا العامة واقرب الى افهامنا من لغة جديدة ملتقطة من افواه الأمم » .

فان قالوا : ان كل أمة من هؤلاء لها لغتها ، فالسورى يكتب بلغة عامية الشام والمصرى بلغة عامية مصر كان ذلك راى القائلين بانحلال العالم العربى وتشتيت شمل الناطقين بالضاد . زد على ذلك ان المسلمين لا يستغنون عن تعلم اللغة الفصحى لمطالعة القرآن والحديث ، وان ما ينطبق على اللغة العربية وفروعها يختلف عما ينطبق على اللغة اللاتينية وفروعها، وأن استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية ضربة قاضية على العنصر العربى وعلى العلم فى اللغة العربية وان لغة العامة لا تكفى للتعبير عن القضايا العلمية الا باضافة الألفاظ العلمية الجديدة ، أما اللغة اللاتينية فلا تنطبق أحوالها على أحوال لغتنا الفصحى ولا يجوز القياس عليها .. وأن الفرق بين اللغة اللاتينية وفروعها أبعد كثيرا من الفرق بين اللغة العربية الفصحى وفروعها العامة .

وانه يكفى للشرق ما يعتوره من أسباب الشقاق حتى لم يبق له جامعة غير هذه اللغة فبالله الا أبقيتم عليها

وقال : أن تعليم الفصحى ليس بالأمر الشاق الذى يقتضى الأعوام الطوال ، أما استبدال الحروف العربية الاعتيادية بالحروف الأفرنجية فلا نرى له نتيجة سوى زيادة التعقيد بتطويل الكلمة وتلبك قراءتها .

٢ ــ وعلق الدكتور صروف فى المقتطف (فبراير عام ١٩٠٢) فقال : أن اقتصار المتعلمين فى مصر والشام على الكتابة باللغة المصرية وشيوع الكتب والجرائد فيها ولا سيما فى السنوات الأخيرة واعتياد اكثر الذين يعرفون القراءة على مطالعة الجرائد ، كل ذلك عضد اللغة المعربة وقواها حتى صار اهمالها متعذرا ان لم يكن مستحيلا . لذلك لا نطمع فى الكتابة المحكية الآن ولا نشير بها . ولكنا نطمع ونشير بالتوسع فى اللغة المكتوبة حتى يدخل فيها كلمة محكية لا تقابلها كلمة فصيحة مألوفة ، ونطمع ونشير بالتوسع فى التعريب حتى تجارى لغتنا لغات أوربا لذلك فاهتمام القاضى (ولمور) ومن جرى مجراه بضبط اللغة المحكيه جاء بعد أوانه .

ورد على قول ولمور : أن أصحاب الصحف أولى من غيرهم بكتابة اللغة المحكية فقال « أن ارباب الصحف أحرص الناس على اللغة المعربة » .

وقال : أن الذين انتقدوا على الكتابة العربية راو خلوها من الحركات ولا ندرى كيف ذهب عنهم ان هذا الأختصار فى الكتابة العربية مزية . وقال أن « ولمور » عنى يجعل الحروف دالة على الأصوات وهو عناء باطل ، لأن أصوات اللغة تعد بالمئات ونحن نكتفى بعشرين أو ثلاثين حرفا للدلالة عليها كلها .

٣ ــ وكتب عبد القادر حمزة (البلاغ الأسبوعى ــ ١٩٢٨) بمناسبة سماعه محاضرة فى الكولج دى فرانس

سمع فيها المستشرق (ما سنيون) تقول : ان اللغـة العربية تذهب الى المقصود راسا بينما اللغات الأوربية لا تصل الى ذلك الا تدريجيا . ثم قال ماسـنيون : انها توشك أن تشرف على الخطر اذ لم يسـعفها المصلحون بما تقوم من ضعفها ، وعلة العلل فى نظره هى الحروف العربية وما يدخل عليهـا من تغيير فى الرسم وتغيير فى الحركات يضيع المتعلم فيهما شطرا كبيرا من عمره ، ودعا الى أن ترسم اللغـة العربية بالحروف اللاتينية فلا تبقى ثمة حاجة الى شكل الحروف لتعرف حركاتها .

وقال عبد القادر حمزة : أن نزوع الترك فى كتـابة لغتهم بالحروف اللاتينية هو الذى يقذف بهذه الفكرة على اللغة العربية بحروفها الحـالية حملت مدنية كاملة ملأت بها جوانب الأرض فى مئات قليلة من السنين . وقد قطعت أدوارا فلم تجمد فى واحد منها ولم تهن بل تطورت فى كل دور بما يناسبه ، فالذين يقولون أنها بحروفها الحـالية اداة غير صالحة ينكرون حقيقة أثبتتها عدة قرون وهى أن الحروف التى ينتقصونها تمتاز على الحروف اللاتينية بأنها مشبكة والكتابة بها أسرع .

***

عظمة اللغة العربية

وقد دافع كثيرون من الكتاب والمفكرين عن « اللغة العربية » وكشفوا عن مفاهيمها وحقيقتها التى أنـكرها الغزو الثقافى وحرص على انكارها ليوصـل بذلك الى التقليل من شأنها والسخرية بها .

وقد اجمعوا على عظمة اتساع اللغة العربية وكثرة الفاظها وتعدد معانيها وقد أمكن حصر مائة الف مادة من كلامها مما لا يمكن معه وصفها بالقصور .

٢ ــ يتسـع مجالها لأغراض الكتـابة وفنون البلاغة : من اطناب وايجاز وتصريح وتلميح واستعارة .

٣ ــ خاضت معركة الترجمة من اليونانية والهندية ابان دولة الأمويين والعباسـيين حيث اسـتطاعت أن تستوعب كتب الطب والحكمة والحيوان والنبات والكيمياء والحيل والرياضيات والفلك مما لا يقع تحت حصر ، ولم يستعص عليها أى مصطلح ، وقد وصف الدكتور أحمـد عيسى كيف كانوا يحرصون على اللفظ اليونانى فيهندمونه بحسـب أوزان اللغة العربية اذا كان للفظ مكانا ومعنى خاصا مع وجود لفظ عربى فصيح يقابله فقالوا (قاطيغو رياس وطوبيقا وبارمنياس وبويطيقا وأنا لوطيقا) وعندهم لفظ المقولة والجدل والعبارة والشـعر والخطابة . . » ونقلوا كتب التشريح والنبـات مما لم يجدوا له فى لغتهم مقابلا فعربوه وادمجوه فى لغتهم .

٢ ــ وتختلف اللغة العربية عن اللغات الأخرى فى النمو والتطور ، فقد ظهرت فجأة فى شبابها دون أن تمـر بعهـد الطفولة وقد حققت خصـائصها الأصـيلة رغم اختلاطها باللغات الأخرى .

٣ ــ جمعت جميـع الأحرف التى فى اللغـات الأعجمية . ولها ستة أحرف لم تجتمع لغيرها من اللغات وهى المجموعة فى (تخذ ــ ضظغ) .

٤ ــ عاشت قرابة الألف وخمسمائة سـنة وهى تؤدى مهمتها اداة الخطابة والكتابة والصحافة . وهو ما يعد معجزة من عالم اللغات .

***

اللغة العربية والاستعمار

ولم يقف الاستعمار فى معركته مع اللغة العربية عند حملاته عليها ، بل حرص على اقصائها عن المحاكم والبنوك والمصـالح وفرض لغته بدلا منها ، كما عمل على اهمال اللغة العربية فى الأوساط المختلفة ، وغلب عليها اللغات الأجنبيـة ، وفى الأحاديث العـامة ظهرت الكلمـات الأجنبية على الألسـن كجزء من مركب النقص فى تقليـد الغالب ، وقد بلغ الأمر أن فرض على أصحاب المصالح وهم فى بلادهم أن يكتبوا رسائلهم وطلبـاتهم الى بعض الجهات باللغات الأجنبية . وأن يتلقى الوطنيون خطابات من هذه الجهات بلغاتها الأجنبية .

كما نعت الصحف على المصريين والشرقيين الذين يعرفون العربية أنهم يتكلمون باللغات الأوربية فيما بينهم . . ولم يقع هذا فى مصر وحدها بل كان سمة بالغة للفترة كلها فى مختلف بلاد العالم العربى المحتلة .

وقد ذكرت جريدة الجهـاد (١٩٣٤/٩/١٠) أن وزارة المالية توافيها ببياناتها الاحصائية مكتوبة بلغـة أجنبية .

واشارت جريدة مصر ١٩٣٤/٤/١٩ «أن الشركات

والبنوك ما تزال مصرة على تدوين كل مراسلاتها وعقودها مع أبناء البلاد بغير لغتهم ولم تر — حتى من المجاملة — أن تضع ملخصا باللغة العربية لعقودها ومراسلاتها كى يفهمها المستهلك الوطنى ، وأن ذلك حدث ليس اعتمادا على سلطتها الأجنبية القائمة على احتكار مادة من المواد الحيوية بل لأن لها وحدها حق استعمال لغتها مهما كان هذا الاستعمال من الاستهانة بكرامة الأمم التى تعيش فى دارها » .

ويتصل بهذا اللافتات الموضوعة فوق المحلات والشركات والمخازن وكلها مكتوبة باللغات الأوربية وحدها .

* * *

فى المحاكم المختلطة

وقد ظل الاستعمار يحول بين اللغة العربية وبين حقها فى المحاكم المختلطة مع أنها مقررة كاحدى اللغات الرسمية بهذه المحاكم منذ عام عام ١٨٧٥ ، غير أن قضاة هذه العهود من المصريين كانوا من الضعف بحيث أنهم لم يجرؤا على تحرير احكامهم باللغة العربية ، وظلت هذه الأحكام تصدر باللغة الفرنسية حتى جرؤ المستشار عبد السلام ذهنى (أبريل ١٩٣٤) فكتب ثلاثة احكام باللغة العربية وتمكن من النطق بها باللغة العربية وذلك فى جلسة ١٧ أبريل ١٩٣٤ ، وقد تمسك رئيس الدائرة السويسرى (هوربيه) دون الاعتراف بها وقد ثارت لذلك ضجة كبرى فكان حدثا ضخما بعيد المدى أحدث أزمة دولية .

وقال عبد السلام ذهنى : انه فى تمسكه باللغة العربية انما يقوم بواجب قانونى وأن لهذا التمسك رابطته الوثيقة باحياء اللغة العربية وتكريم اللسان المصرى القومى والترجمان العربى .

وقد دعا هذا مستشارا آخر هو محمد شكرى أن يقدم احكاما باللغة العربية فى ١٩٣٤/١٢/١٧ .

وجرى الدفاع عن موقف المستشار ذهنى بأن النص فى اللائحة المختلطة قد أشار باستعمار لغات أربع : هى العربية والفرنسية والايطالية والانجليزية ، وقالت الأهرام : انه لا شك جعل اللغة العربية فى المرتبة الأولى يدل على أن المشروع قد قصد أن تكون اللغة العربية هى الأولى ، واستتبع هذا البحث عن المرافعة باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة — وقد اجاب وزير الحقانية فى البرلمان بأنه ليس فى القانون ما يمنع المحامى من المرافعة باللغة العربية أمام المحاكم المختلطة لأن هذه اللغة واللغات الثلاثة الأخرى مقررة رسميا أمام هذه المحاكم ، وقد عقد المحامون أمام المحاكم المختلطة اجتماعات عدة للمطالبة بجعل اللغة العربية هى لغة المرافعة غير أنه حال بينهم وبين ذلك أن القضاة لم يكونوا يعرفونها .

وأشار عزيز خانكى بهذه المناسبة الى الضجة التى أثارها الأجانب عند ما ندب قاض مصرى لرئاسة جلسة المحكمة المختلطة وكان من نتائجها الغاء الانتداب حالا ورفضت الدول الغربية أن يتولى القضاة المصريون رئاسة الجلسات .

وقد ارتبطت الدعوة الى اعادة الكتابة باللغة العربية فى المصالح والشركات بالدعوة الوطنية فقد كان تغلب اللغة الأجنبية على اللغة العربية فى هذه المجالات امتهانا للكرامة القومية .

وفى سوريا انبعثت الدعوة الى أن اللغة العربية هى حصن منيع للوحدة القومية فقد تحدث عبد الرحمن شهبندر فى هذا المعنى فى القاهرة (٢٩ أبريل ١٩٢٩) وحذر من أن مدنية الغرب مهددة بالاكتساح ، كما اكتسحت أشرف تعاليمهم وأن الخطر الذى يهدد الثقافة العربية يجىء من ناحية اللغة العربية التى هى رمز المجتمع والذى وصفها « بلاكما روجيلين » بأنها ادت وظيفة مهمة فى التنظيم الاجتماعى . وقال أن من خنق اللغة فقد خنق نفسه لأنها هى أداة التنفس الوحيدة للأمة .

* * *

اصلاح اللغة العربية

وقد استبع هذا الاتجاه ، البحث فى اصلاح اللغة العربية واعدادها بحيث يقضى على ما يثار حولها من عجز وقصور وذلك بالتقريب بين العامية والعربية وتيسير قواعد اللغة العربية ، ودعا أحمد أمين الى تيسير التعريب والاشتقاق والقياس والتخفف من المفردات العسير الفهم وخاصة اعدام الكلمات الحوشية التى يمجها الذوق السليم ، ودعا المازنى الى ايثار الكلمة الشائعة بعد تصحيحها وازالة تحريفها وقال أن من الغلو المعيب أن تحاول تطهير اللغة العربية من كل لفظ دخيل .

ودعا غير هؤلاء اللى أن تنقل أسماء المسميات الحديثة من لغاتها الأجنبية بعد تهذيبها .

— ودعا الدكتور على مصطفى مشرفة الى تدوين العلوم باللغة العربية وقال أن هذا يؤدى الى تطوير اللغة العربية وقبولها للمصطلحات العلمية ، وقال : أن كل لغة حية انما تنمو عن طريق التأليف والكتابة . وقال أننا ننقل اليوم المعرفة عن غيرنا ثم نتركها عائمة لا تمت بصلة الى ماضيها ولا تتصل بتربتنا فهى بضاعة أجنبية عليها مسحة الغرابة .

وتحدث الدكتور هلال فارحى عن طريق التعريب فقال : أن لها وسائل متعددة : منها التعريب (ادخال ألفاظ أعجمية بحالتها الأصيلة) والتوليد (ادخال ألفاظ جديدة وضعها المولدون فى صدر الاسلام بطريق الاشتقاق) والترجمة (يحسب المعنى الأصلى) والاستبدال (استبدال الحروف الأعجمية الناقعة بحروف عربية متجانسة) والتسمية بالخاصيات (مثل كهربائية للترام) والمجاز والنقل (يطلق الأول على الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له لمشابهة بينها والثانى يطلق على الألفاظ المنقولة) والاقتباس (عن تعابير وردت كالشاهدة للكوبيا) والاشتقاق (نوع لفظ من آخر يشترط تناسبهما لفظا وتركيبا) .

وقال بهى الدين بركات أن وسيلة الاصلاح هى :

١ — جعل الكتابة العربية مفهومة مع المحافظة على خصائص الخط العربى والكتابة العربية .

٢ — تسهيل تدريس قواعد اللغة والبيان .

٣ — تغيير نظم التدريس بما يجعل الطلبة يعتادون التحصيل .

* * *

انشاء المجامع العربية

وقد اقتضت حاجة اللغة العربية الى التطور الى انشاء مجامع للغة العربية فأنشىء المجمع العلمى فى دمشق عام ١٩٢٠ والمجمع اللغوى فى القاهرة (١٩٣١) ثم أنشىء المجمع العلمى فى بغداد (١٩٤٧) .

وقد بدأت فكرة انشاء مجمع للغة العربية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر لوضع قاموس عربى قريب المأخذ سهل التناول . وقد عقدت اجتماعات لهذا الغرض فى بيت لطيف باشا سليم وبيت البكرى وفى الأزهر وحضرها الشيخ محمد عبده وعالم اسلامى هو الشيخ الشنقيطى وتبلورت عن انشاء أول مجمع لغوى ١٨٩٧ فى بيت البكرى بالخرنفش برئاسة ووكالة الشيخ محمد عبده وكان من أعضائه : أمين باشا فكرى والشنقيطى واسماعيل صبرى وحفنى ناصف ومحمد بيرم التونسى ومحمد الويلحى ومحمد عثمان جلال ومصطفى نجيب ، وقد عقد عدة جلسات سجلت فيها بعض الكلمات العاملة والدخيلة واتفق على عدة كلمات أوردها حسن السندوبى فى بحثه بالأهرام (١٩٣٤/٨/٨) .

وهى : المدرة بدلا من المحامى . ورحى بدلا من برافو ، والمسرة بدلا من التلفون ، وعم صباحا بدلا من بونجور ، وحراقة بدلا من طوربيد .

كما ذكر أنهم اختلفوا فى (الأتومبيل) وأطلق عليه شكيب أرسلان الفرارة وقال زكى باشا السيارة .

ثم تجددت الفكرة عام ١٩١٧ فعقد مجمع لغوى فى دار الكتب برئاسة سليم البشرى — شيخ الأزهر اذ ذاك — ووكيله الشيخ محمد بخيت وسكرتيره لطفى السيد ومن أعضائه عبد الرحمن قراعة ، حلمى عيسى ، رشيد رضا ، أحمد الاسكندرى ، عبد العزيز فهمى ، أحمد كمال وأمين واصف ، اسماعيل رأفت ، فارس نمر ، يعقوب صروف ، أحمد زكى ، حفنى ناصف ، أحمد تيمور ، أحمد عيسى واضافوا اليهم ثلاثة أعضاء فارسى وسريانى وعربى وعنوا بوضع معجم لغوى يفى حاجة العصر الحديث .

وقد أجمع الباحثون على أن مهمة المجمع هى :

— المحافظة على سلامة اللغة من غلبة اللغات عليها بما يخرجها عن أوضاعها الأصلية بتسجيل لغة أخرى .

— التوسع فى تطبيق بعض قواعدها الجزئية لتنويع طرق التعبير بها وتسهيل اضافة أسماء حديثة لمسميات حديثة الى معجماتها العلمية .

— العمل على أن تكون وافية بمطالب العلوم والفنون ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .

وضع معجم تاريخى للغة العربية .

ثم كانت المرحلة الثالثة هى انشاء مجمع اللغة العربية فى ١٩٣٢/١٢/١٤ من عدد العلماء والمفكرين وانضم اليه عدد من المستشرقين الانجليز والفرنسيين وغيرهم .

كما جرت خارج المجمع ابحاث واعمال هامة فى والأمير مصطفى الشهابى وقد عنى هؤلاء الباحثونبتعريب احمد عيسى والدكتور محمد شرف والدكتور امين المعلوف المصطلحات الطبية والعسكرية والزراعية — وكان من راى الدكتور احمد عيسى : انه لا مانع من استعمال الكلمات الاعجمية عند الضرورة على أن يستغنى عنها بعد أن توجد بديلات عربية عنها ولا مانع من التعريب ففى القرآن الكريم كلمات معربة كالسندس .

وقد واجه المجمع اللغوى فى مصر حملات متعددة ولكنها كانت مغرضة ، قام بها خصوم اللغة العربية وان بها عمله بطيئا فى هذه الفترة التى نؤرخها الا انه استطاع أن يحقق وضع عدد من المعاجم لألفاظ القرآن والحضارة وغيرها . بل أن عددا من اعضاء المجمع اليوم قد هاجموه قبل أن يشركوا فيه .

* * *

راى المنصفين

ولا شك ان اللغة العربية فى معركتها ازاء حملة الغزو الثقافى والتغريب قد استطاعت أن تحقق انتصارا كبيرا بمقاومة فكرة القضاء عليها والتقريب بين لغة الكلام ولغة الكتابة .

وقد شهد للغة العربية كثيرون من مفكرى الغرب حتى أن ارنست رينان — وهو على ما هو تعصبا وخصومة — شهد لها فى كتابه (تاريخ اللغات السامية) أنها بدات للعرب والعربية — فجأة على غاية الكمال وأن هذا عنده من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حله ، وقد انتشرت سلسلة اى سلاسة . غنية اى غنى ، كاملة لم يدخل عليها منذ ذلك العهد الى يومنا هذا اى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، اذ ظهرت لاول امرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الأندلس اكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

ولحظ شبنجلر فى كتابه انهيار الغرب « مدى تأثير اللغة العربية فى شكل تفكيرهم » وقال أن اللغة العربية لعبت دورا اساسيا كوسيلة للنشر المعارف وآلة للتفكير فى خلال المرحلة التاريخية التى بدأت حين احتكر العرب على حساب الرومان واليونان طريق الهند .

* * *

ويرى العلامة فريتاغ الألمانى فى معجمه الكبير عن اللاتينية والعربية ان اللغة العربية ليست اغنى لغات العالم فحسب بل أن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد ، وأن اختلافا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق أقام بيننا ونحن الغرباء عن العربية ، وبين ما الفوه حجابا لا نتبين ما وراءه الا بصعوبة .

٣ — وقال رينشرد كوتهيل (الهلال ١٩٢٠ م ٢٨) : انه لا يعقل ان تحل اللغة الفرنسية أو الانجليزية محل اللغة العربية وأن شعبا له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لا تفنى لا يخون ماضيه ولا ينبذ ارثا اتصل اليه بعد قرون طويلة عن آبائه واجداده ، وأن التباين الجزئى الذى يبدو بين اللهجات العربية لابد أن يزول وعليه فستكون عندنا منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة .

ولقد كان للعربية ماض مجيد وفى مذهبىأنه سيكون لها مستقبل باهر .

٤ — واكد وليم ورل (الهلال ١٩٢٠ م ٢٨) أن اللغة العربية لم تتقهقر قط فيما مضى امام اى لغة من اللغات التى احتكت بها وانها ستحافظ على كيانها فى المستقبل كما فعلت فى الماضى ، وأن لها لين ومرونة يمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر . وأن اللغات الاوربية فى خلال ٢٥٠ سنة لم تستطع السيطرة على العربية او اضعاف مكانها .

٥ — وقال مرجليوث (الهلال اكتوبر ١٩١٧) أن اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية ، وانها احدى ثلاث لغات استولت علىسكان المعمورة استيلاء لميحصل عليه غيرها (الانجليزية والأسبانية) وهى تخالف اختيها بأن زمان حدوثهما معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة ، اما اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ

وقال انطون الياس : أن اللغة العربية اقدم لغة

حية ، وارجع كثيرا من الكلمـــات الانجليزية واللاتينيـــة واليونانية وغيرها الى أصـــلها العربى وبرهن على أنه ليس لها فى غير العربية تحليل ولا تركيب ، قال أن بعض اللاتين قـــد اتخذوا لهم ديدنا هو اظهـــار اللغة العربية العظمى بمظهر لغـــة ميتة وغير مفهومة عند ثلاث أرباع المتكلمين بها . أما لغة الـــكلام فهى فى نظر هؤلاء اللاتين عبارة عن لهجات علمية لا ارتباط بينها ومصيرها الفنـــاء بعد زمن قليل .

وقال أن حسب هؤلاء ان يذهبوا الى مصر وسوريا ليتجلى لهم بالبرهان القاطع أن اللغة العربية التى وئدت قبل ان يحين اجلها هى على عكس ما يذهبون اليه لغـــة حية بكل ما فى الحياة من قوة » .

ولقد جاهد فى سبيل اللغة كثيرون منهم ثلاثةأقطاب لا يمكن تجاهل دورهم فى خدمة اللغة وحمايتها وتطورها : أحمد تيمور وعبد القادر المغربى وانستاس الكرملى (اقرأ دراسات عنهم فى كتابنا حماة اللغة العربية) .

ولعل خير ما يختم به البحث ما ســـجله الخليل فى كتاب العين من أن عـــدد أبنية كلام العرب المســـتعمل والمهمل (١٢٠٤١٢ر٣٠٥ر١٢) كلمة . وأن عدد الألفـــاظ العربية ٤٠٠ر٦٩٩ر٦ لفظ لا يستعمل منها الا ٥٦٢٠ لفظا والباقى مهمل .

* * *

المجتمـــــــع
إزاء الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب

لقـــد واجه مجتمعنـــا العربى بين الحربين معركة ضخمة فقد سقط الوطن العربى كله — تقريبا — فى قبضة الاستعمار وفرض عليه الغزو الثقافى والتغريب .

وكان على المجتمـــع ان يواجه تيـــــارا ضخما من الحضارة المادية فى مختلف صورها فقد خف سلطان الدين والمعانى الروحية ، وتغرب التعليم واستطاعت الصحافة أن تبث كثيرا من آراء الحرية والانطلاق .

كما فرض الاســـتعمار على الوطن العربى غـــزوا غريبا مدمرا يتمثل فى المخدرات والخيانات والبغاء العلنى المصرح به بأمر القانون . وواجه الشباب حيـــاة جديدة تختلف عن الحياة التى كان يحيـــاها آباؤه فى ظل هـــذه الاضـــواء والحريات ، وارتفعت صيحات تحرير المرأة . والدعوة الى تعلمها وسفورها ، واستتبع هـــذا ظهور مشاكل جديدة وقضـــايا متعددة منها أزمة الزواج ، كما واجهت الأسرة أزمات جديدة من التفكك والانحلال .

وحدثت تطورت فى شئون الزى والأغانى وظهرت الدعوات الى الاصلاح الاجتماعى .

ولا شك أن حركة الغزو الثقافى والتغريب التى قام بها الاستعمار قد ادت الى خلق جو من الانحلال والفساد وقد كانت حملة الاســـتعمار على الدين عاملا من عوامل الاستهانة بقواعد الخلق ومقومات الفضائل والقيم ، مما ادى الى الاستهانة بها وبذلك اضطرب المجتمع فى عناصره الثلاث : الشباب والأسرة والمجتمع .

وقد رسم محمود أبو العيون صورة المجتمع فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى فقال « انها — اى الحرب — تمخضت عن عجائب مدهشات . ظهر الجيش الأحمر فى روسيا وطغى سيله وصحا الرجل المريض فى الأناضول تحت ظل القنـــا وخفق البنـــوذ ، وازال شـــيخ الخلافة العثمانية الذى ارهب اوربا . كما أن ثورة ١٩١٩ تركت أثرا بالغا فى آداب الأمة المصرية وأخلاقها ولكنا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية نرمز لها بالتماثيل ونقيم لهـــا الأنصاب ، وما كنا نود ان نأخذ من معنـــاه كماله الأوفى يجر الى انتكاس واضمحلال فى كل معانى الحياة الناهضة وتلك التى بذلنا فى سبيلها مهجا غالية ودماء ذكية . نقول أن ثورة ١٩١٩ التى طأطأ لها التاريخ اجلالا وهومت لهـــا الأمم اكبارا واعظاما كانت فى حيـــاة مصر فجرا كاذبا لمع نوره فى آفاقها كلسان الشمعة ثم خبا واظلم وها نحن فى ديجور الظلمة تائهين حيارى » .

* * *

معركة الشـــباب

تأثر الشباب بالأفكار الغربية فى الحرية والانطلاق من القيود ، وكان للدعوات النازية والفاشية التى ظهرت فى أوربا أثرها فى أفكار الشباب المتطلع الى الحرية فقـــد اخذت مظهريات الأزياء العسكرية ، والصرخات المتطلعة، غير أن الأحزاب كانت ما تزال تفرض ســـلطانها ونفوذها وتحمل مع هذا جراثيم الاغراء بالمال ، والنزول عن معانى الوطنية الخالصـــة ، وتغليب النفعيـــة على القيم ، والمصلحة على التجرد . وجرى مع هذا اتجاه الى التخفف من اعباء الثقافة والجهاد والحرص على الحصـــول على النتائج السريعة بأقل جهد ، وأعانت السياسة على ذلك فى الجامعات والمدارس فحصل الشـــباب على القشور ، واكتفى بالشهادة الرسمية وبذلك ضعف المستوى الثقافى .

وقد وصفهم محمود ابو العيون (الأهرام ٣٤/١/٧) بأنهم من الطـــراوة والميوعة بحيث لا يقدسون ماضـــيا ولا يحفلون بمصير وأنهم يضيعون أوقات حياتهم فى العبث والمجون وان أفكارهم تصور الأوهام الفاســـدة والسنتهم تنطق بالألفاظ المستهجنة ونظراتهم خائنة . وانه لا شىء أفعل للعصـــبية ولا أزرى بالمـــروءة ولا اخطر لـــكرامة الشعوب من تلك الاباحة الخاسرة .

ويرى عباس عمار (٣٤/٢/١١) الاهرام — ان الحالة التعسة للشباب سيئة متوترة واليأس فى قلوبهم يملؤها حتى كادت تطفح به . وان نظرتهم الى التعليم مادية وان غرض الثقافة الأسمى يتلاشى ويزول فضلا عن اهمالهم للمثل العليا وتضحية مبادىء الأخلاق فى سبيل الغاية وبذلك امتهن التعليم وهانت على المعلمين انفسهم .

أما لطفى السيد فيرى أن الجيل الجديد افضل من الجيل القديم اذ كان قوام الأخلاق فى الماضى هو الخوف وأن ملاكها اليوم هو الحرية . وقال « أن عيب هذا الجيل أنه مفتون يتملكه الغرور وقال ان هذا رد فعلى طبيعى لطبائع الاستبداد التى كانت تشمل بمشخصاتها الحاكم والمحكوم جميعا كل فى دائرته . «فالحاكم يظلم المحكومين ورؤساء العائلات يتشبهون بهم فى دوائرهم الخاصة بل فى فى بيوتهم » .

* * *

ازمات الأسرة

وقد تأثرت الأسرة بالتطور الاجتماعى الذى احدثه الاستعمار فأصابها الاضطراب وضعفت عن التماسك نتيجة لثلاث ازمات متصلة (١) الاضراب عن الزواج (٢) تعدد حوادث الطلاق (٣) اضطراب العلاقات فى الأسرة ، وقد تبين أن انحلال الأسر فى الأوساط المثقفة ملفت للنظر وكان العامل الاقتصادى له أثره فى الاضراب عن الزواج كما كان لحرية الحياة الخارجية عن طريق البغاء السرى والعلنى اثرها فى ضعف الرغبة اليه .

وقد دعا المصلحون الى فرض ضريبة العزاب على من بلغوا سن الخامسة والعشرين أو جاوزوها (٤) ورفع مستوى المعيشة المادية وخفض المهور كحلول لهذه الأزمة .

وقد وصل بعضهم الى الاعتقاد بأن الحضارة قد كانت بعيدة الأثر فى اهدار ذلك الركن وتعريضه للانحلال حتى أن بعض المثقفين أصبح مقتنعا بأن الزواج ليس من ضرورات الحياة وأن فى الامكان الاستمتاع بالمراة بغير زواج .

ورأى البعض أن انتشار الاباحة وتنشيط عواملها كان عاملا من عوامل ازمة الزواج .

وقالوا فى تعليل ذلك أن ازمة الزواج غير موجودة فى الريف حيث لا توجد المدنية الحديثة وربما كان تطلع الزوج الى زوجة غنية تساعده بمالها فى الاستمتاع بزخارف الحياة ، أو انتظار الزوج يمر بمرحلة تكوين حياته والوصول الى درجة من الثراء تمكنه من تكوين بيت عصرى من هذه الأسباب .

ومما كان له أثر فى ازمة الأسرة : نزول المراة الى ميدان العمل وبلوغها حريتها التامة مما أضعف علاقتها بالأسرة . اذ لم يعد من الممكن أن تقضى وقتها فى أعمال المنزل وحمل عبء الأطفال بعد أن تحررت من هذه الشئون ووكلتها الى الخادمات .

* * *

أزمة الاختلاط

واتصلت بهذا أزمة الاختلاط بين الجنسين ، وقد لقى الاختلاط معارضة كبرى حتى من السيدات المثقفات اللائى اتهمن الرجل بأنه هو الذى قاد حركة المراة ووجهها على هواه ولمصلحته ، ولذلك فهو المسئول عما بها من أخطاء .

وقال عبد الحميد سعيد : أن اختلاط الجنسين فى بلادنا لا يؤدى الى الحب والتفاهم ولكن الى فوضى العواطف وفحش الميول . وغيرصحيح أن تقدم الأوربيين يرجع الى سفور المراة واشتراكها مع الرجل فى الأعمال ومنافستها له فى كسب الرزق .

وعارض هذا الراى راى يقول أن اختلاطا فى الدراسة تحت رقابة عيون الوزارة والأساتذة وفى سبيل العلم وفى بيئة راقية من غير شك من حيث النتائج من اختلاط خفى قد تقع فيه الطالبة فريسة لغواية تقضى على مستقبلها .

* * *

الزواج بالأجنبيات

ولقد كان للاستعمار أثره فى خلق مشكلة الزواج بالأجنبيات حرصا على كسب عدد من المثقفين الذين تعلموا فى أوربا كجزء من خطة تغريبهم وربطهم بأهداف الاستعمار . وطال الجدلحول الزواج بالأجنبيات ، وكان

هنـــاك رأى يقول ان الزواج المختلــط لا يورث الأبنـــاء الخـــارجين منه الا شر أخلاق الطرفين ، ومنهم من يقول أنه انما يورث خير ما عند الطرفين من غرائز . ومنهم من يقول بأن النتائج لا يمكن الحزم بها لأنها تبقى معلقة على طبائع الغرائز المتفاعلة .

وذكر (محمود عزمى وهو من المتزوجين بأجنبيات) بأن الشرقى المتزوج بغربية تظل حياته هادئة هيئته ما دما مقيمين فى الغرب فى البيئة التى تمكنت بينهما الألفة فيهـــا ولكن هذه الحياة لا تلبث أن تنقلب حياة مضــطربة اذا ما عادا الى الشرق .

وقد أيد محمود عزمى الزواج بالأجنبيــات وقال انه يســـاعد على تحقيق (الأخذ بناصيـــة المدنية الغربية) فيتعرفون عن طريقهن مختلف المنـــاحى العلمية للمدنية الغربية كما يعملون على « بث الدعوة للمدنية الغربية فى أوساطهم الشرقية التى تنتهى بالتعود على فكرة الاختلاط والنظر الى المرأة على أنها انسان وشخص يشـــــارك الرجـــل » وبذلك أكد محمود عزمى الغـــاية التى أرادها الاســـتعمار من تشجيع هـــذا الزواج ، بينما كان رأى المعارضين أن نتيجته كما قال فـــكرى أباظة « اننا نلقح دمنا المصرى بدم أجنبى لا يمكن أن يكون وفيا للوطن ولا وفيا للنيل ولا مواليا للأهرام . ثم يتغلغل هـــذا الدم فى أجساد الأولاد وأذهان الأولاد واحساس الأولاد فيغذى مخلوقات لا تحن لمصر حنين المصرى القح الخالص ، هذا فضلا عن النـــكبات الاجتماعية الـــكثيرة التى ينكبنا بها الزواج المختلط » .

ومن رأى بعض الباحثين ان الزوجة الأجنبية عندما تعود الى البيئة المصرية التى لم تتعود عاداتها ولم تألف عرفها ، فانها تكون جوا جديدا من الأجانب والأجنبيـــات الذين يمتون وطنها بدولة . وتجد أنها مبعدة هى وأولادها عن الوسط المصرى ، عندئذ ينتقل الزوج الى الوســـط الأجنبى بدلا من أن ينقل زوجته الى الوســـط المصرى ، لذلك ينشأ أولاده نشأة أجنبية لغة وثقافة وعاطفة .

وقد جرت أبحـــاث من شأن صـــدور قوانين تمنع الطلبـــة والموظفين والمصريين فى الخـــارج من الاقتران بأجنبيات .

وقد حدث حادث كان له أثره فى البحث عن أخطار الزواج بالأجنبيـــات ، ذلك هو أطلاق « مرغيت فهمى » الفرنسية الرصاص على زوجها على كامل فهمى (١٠ — يولية ١٩٢٣) وفى أثناء المحاكمة عزا المحامى الأجنبى عن المتهمين الى الشرقيين عامة والمصريين خاصة تهما غريبة أثارت الرأى العام .

* * *

المســـائل الجنســـية

وتعددت الأبحـــاث حول « الصراحة فى المســـائل الجنســـية » : وقد اختلف رأى البـــاحثين حول تغليب الصراحة أو الاخفاء ، وقال الدكتور ابراهيم ناجى « أن الذى نخشاه أن يفهم — أى المراهق والمراهقة — أشياء كثيرة على غير طبيعتها وأغلب الظن أنهما تلقيـــاها عن الجهال أو من الكتب المتداولة التجارية التى لا تطرق من الموضوع الا فى حدود ما تجده مروجا للكتاب .

وقال : أن علينا أن نتحدث فى صراحة لأننا قد نقع ضحايا جهل الأمراض التناسلية .

وقال فريد أبو حـــديد أنه اذا اضطهد الشـــعور الجنسى فان الأفراد يضطرون الى توجيهه الى مســـائل شتى .وقد يصبح الشعور الجنسى المكبوت عبـــارة عن قوة دافعة خفية تعمل على اختلاس اللذة الجنســـية فى الخفاء ولا تلبث هـــذه القوة أن تظهر بآثارها الاجتماعية الخطيرة .

* * *

تحديد النســـــل

وجرى البحث حول تقييد النســـل أو اطلاقه ويعد « مريت غالى » أول باحث اجتمـــاعى مصرى دعا الى تحديد النسل ، ورأى الدين أنه جائز بشروطه وظروفه .

وقد دعا سلامة موسى الى تحديد النســـل ثم عاد فأنكر الدعوة وخطأها .

* * *

تعـــدد الزوجات

كما جرى البحث حول تعدد الزوجات وخطر هـــذا التعدد ورأى الدين واضح فى هذا حيث لا يجوز التعدد الا لظروف خاصة .

معركة الغـــاء البغـــاء

وكانت معركة البغاء من اشد هذه المعارك واقواها فى ميدان البحث وقد حمل لواء الدعوة اليها الشيخ محمود ابو العيون ، فى سلسلة مقالات فى الأهرام بداها ١١/٢٠ سنة ١٩٢٣ واستهلها على هذا النحو :

« بين سمع الحكومة وبصرها تقـــام سوق للفجور وتنفض ســـوق ، وتذهب الأعراض ضحايا الشـــهوات والأطماع بلا نكير ولا رقيب وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيـــات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الأمصـــار والقرى طلائع وكتـــائب يختطفون كل طفلة ومعصر وعانس وخود ، وبين سمع الحـــكومة وبصرها والمخـــدرات تتمرد الروح الخبيثة ، ويؤســـس الزعيم « الغربى » مملكة منظمة ، داخلهـــا مفقود ، هنالك وفى سجون ذلك المستبد الظالم تزج الفتيات الغافلات جلبيات خزى وأســـيرات بغى . هنـــالك يمتهن الشرف وتزهق الانسانية وتطارد الفضيلة .

ثم هاجم الحكومة التى لم تأخذ درسا من الجلادين والجلادات (علام وابى الدهب وريا وسكينة وغير هؤلاء) وقال وهذه حادثة الغربى ثالثة الأسافى وفضـــيحة العمر وسبة الدهر .

ثم توالت مقالاته يعرض فيها لجوانب المشـــكلة . ويعرض « للمـــذاهب الاباحية الى تهـــدد البلاد بالمحن والزرايا ــــ فى الدين والخلق ، فتكثر الجنـــايات وتتكرر المؤامـــرات على اغتيـــال الأعراض وشرف البيوتات ، وتساءل عما وضعته الدولة من مراقبة لصون الأعراض بعد حادثة الغربى » .

وتســـاءل عما اذا كانت الحكومة (تجهل مواطن الموبقـــات والفسوق فى كل شـــارع وفى كل حى وفى كل منتدى ظاهر وفى أطراف المدينة واحشائها) وتحدث عن الزعيم الغربى (الذى هزه لكتابة هذه المقالات) فصور (ما اذهب من شرف وكرامة وما أقام من ولائم وحفلات قصـــف ونكر ضمت من ضمت من أعاظم الرجال واخطر السيدات وما شـــيد من معارض للفسوق يدعو اليهـــا سائحى الأفرنج للتفرج على المرات والفضائح بصـــور قبيحـــة كما يتفرجون على آثار الشرق ومدافن توت عنخ آمون) .

واشار الى حالة شارع (كلوت بك) وانتشـــار بيوت الفساد فيه وحوانيت تعاطى المكيفات والحـــانات المرخص بهـــا للأشربة وقال ان الحكومة ضـــعفت امام ســـلطان الاستعمار الذى فرض عليهـــا اباحة الزنا والترخيص بالمسكرات ولعب القمار وتغطية محـــاولات تجارة الرقيق فى خطف البنات .

ثم قدم كشفا بأماكن المنازل السرية بالعاصمة (١٧/ ١٢/١٩٢٣) وقال انها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين والتدليك والذهبيات المعـــدة للفجور ، ونادى « الغوث الغوث . النجدة النجدة » وكشف عن أن المصابين بالأمراض التناسلية يبلغ ٨٢٠ الف ــــ وقال أن هناك مليون اصابة فى العام ، وقال أن الحكومة ترخص بالبغـــــاء . ثم تهمل مراقبـــة البيوت السرية والآداب العامة .

* * *

ونقل أبو العيون نصـــا من تقرير قســـم اللوائح والرخص هو :

« أن الدول التى حرمت البغاء أو تجاهلته لم تفعل ذلك احتراما للدين والآداب والرأى العام فقط بل لأنهـــا رأت أيضا أن الاعتراف به رسميا مفســـدة للأخلاق وانه مسبب للأمراض موجد لجريمة الاسترقاق مروج لتجـــارة الرقيق الأبيض) .

ولم يتوقف محمود ابو العيون عند هذا الحد بل انه أجرى استطلاعا كاملا عن « فضيحة » الغربى التى هزت الدوائر المختلفة وكانت رمزا على مدى الخطر الذى وصلت اليه البلاد بنتيجة للغزو الغربى فى ميدان الاجتماع .

وكشف عن شخصية (ابراهيم محمدمحمود الغربى) الذى تعرض لافساد الأخلاق بأن اعتاد تحريض الفتيات اللاتى لم يبلغن ســـن الثانية عشر ســـنة على الفجور والفسق . ووضعهن فى منازل معدة للدعارة وعرضـــهن على المترددين لارتكاب الفاحشة معهن .

ثم وصـــف زيارته لهـــذه الشوارع والحـــارات « القذرة » لرؤيتهـــا وقال « رايت ما لم أره من قبل . رايت أسفل منظر وقع عليه نظرى ، لم أر سوقا للأعراض مرخصا بها من الحكومة مثل سوق الوسعة فى القـــاهرة هناك ، نساء لا عد لهن من جميع الألوان منهن السوداء والبيضـــاء والنحاســـية اللون ؛ جالســـات على ابواب منازلهن ينـــادين بالعربية كل من يمر ليرينه رخصـــتهن المصرح بها من الحكومة » .

ووصف ابراهيم الغربى : هذا الرجل « اذا شئت أن تقول بحق ـ هذا الشيطان ، بانه اشنع منظر تراه فى مصر وقال « وانى اعتقد انه الرجل الوحيد من نوعه فى العالم الذى يعلن عن مهنته صراحة وله ميزة تميزه عن زملائه فانه شرهم »

« فقلما تجد بين هؤلاء السياح من يغادر ارض الفراعنة قبل أن يرى ابراهيم الغربى . وجدنا منزل ابراهيم الغربى منارا بالأضواء الكثيرة ووجدنا القاصرات المرخص لهن جالسات فى مدخله ، كان ابراهيم الغربى بينهم مرتديا ملابس امراة ملونا وجهه كما تفعل النساء رغم سواده . له جلد أسود لامع وعينان واسعتان يضع على راسه طوقا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وتجد زراعيه عاريتين الى الكتف وبهما من الأساور الذهبية الثمينة عدد كبير ، وقد احصيت ما تحمله الذراع الواحدة منها فوجدت أنها أكثر من اربعة عشر صنفا من الأساور ، وكان حول رقبته عقد من الذهب ، ويحمل فى اصابعه خواتم عديدة ويضع فى رجليه خلخالا من الذهب ويلبس على جسمه ملابس مزركشة بالذهب والفضة والترتر مما يعكس الضوء فيبهر الأبصار ، انهم ينظرون اليه هناك كما لو كان شيئا خارقا للطبيعة ، أو كما لو كان شخصا مقدسا ، وسعيد هو الذى أتيحت له الفرصة أن يلمس جسمه وكثير من الوطنيين يجزمون بأنه اذا غضب على كائن من كان فجزاؤه الموت ، وعندى أنه يجب ضرب هذا المخلوق بالكرباج فى ميدان عام وامام الجمهور يقولون انه ذو ثروة طائلة ونفوذ واسع . وقيل لى أنه نظرا لنفوذه عرض اسمه على الخديو السابق من أجل ان ينعم عليه برتبة البكوية ... ولم يتوقف « أبو العيون » عن الدعوة الى الغاء البغاء الا بعد أن انبرت جريدة السياسة تقاومه وتسخر به ، هنالك توقفت الأهرام عن نشر مقالاته ، بعد أن كشف الستار عن فضائح هذه الجريمة وكشف عن شرور البغاء وحمل على الحكومة حملة منكرة .

ولم يلبث أن ارسل الى البرلمان فى أول جلسة من جلساته برقية يطالب بالغاء البغاء الرسمى ، وقام بمحاولة ضخمة حين مر على وزراء الدولة وعظماء البلاد وكتابها المصلحين يستكتبهم رأيهم فى البغاء ، هنالك ازدادت حملة الصحف التغريبية عليه وقاومت دعوته بالشتم والمنابذة ونشرت له المجلات صورا كاريكاتورية قاسية .

ووصفوه «بأنه مأجور وصنيعة ومشعوذ ودجال» .

ثم لم يلبث أن عاود الحملة فى يوليو ١٩٣٣ مستأنفا الدعوة الى محاربة البغاء بالدعوة الى مطاردة محترفيه وازالة مواخيره وهدم اسواقه النافقة فى العواصم والأمصار .

ووصف البغاء بأنه « احتراف امراة تبذل اعضاء جسمها للرجل فى مقابل اجر معين . والاسلام دين الدولة الرسمى يحرمه ويعاقب عليه ، والأديان كلها تضافرت على تحريمه . وقد راعى الشارع فى ذلك صيانة المجتمع من الشرور والمفاسد التى تتنافى مع الآداب والأخلاق والصحة ونظام الأمن » .

وبين أن أبلغ أضرار اباحة البغاء امتهانه لكرامة فريق من بنى الانسان ، وردد ما ورد فى تقرير عصبة الأمم سنة ١٩٢٧ عن تجارة الرقيق من أن مصر أصبحت ميدانا حيويا ومركزا هاما من المراكز الدولية .

وصور كيف أن الترخيص بالبغاء السرى سهل على الشباب الاستمتاع بالمراة من غير زواج ، ودعا الى سن قانون للزواج فى سن معينة وتعليم الدين اجباريا فى المدارس ومكافحة الأمراض السرية ودعا الى الغاء البغاء دفعة واحدة .

وكانت الحكومة قد اتخذت قرارا فى عام ١٩٣٢ لبحث موضوع البغاء وجرى اتصال اللجنة التى كونها الدكتور محمد شاهين وزير الصحة بمختلف الهيئات والطبقات للوقوف على وجهة نظرها وقد ظلت هذه اللجنة معطلة حتى عام ١٩٤١ عندما أعلنت توصيتها بالغاء البغاء الرسمى ولم يتم ذلك الا بعد عام ١٩٤٦ .

* * *

تحريم المسكرات

ودارت معركة أخرى لمحاربة المسكرات قادها الدكتور احمد علوش وحمل لواء الحرب فى سبيل ذلك أمدا طويلا عن طريق الصحافة والخطابة والنشرات وقد ورد فى رسائله أن نسبة مدمنى الخمر من المصريين لم تكن تزيد قبل الاحتلال البريطانى على ٧ أو ٨ فى المائة ؛ ونعى على الحكومة الترخيص بفتح محلات لبيع الخمور وطالب بتحريم الخمر صنعا وبيعا وشراءا واستعمالاً .

وبين كيف كانت المسكرات سببا فى ازدياد الجرائم

والاصابة بالجنون وحوادث الطلاق ونقصان قوة الانتاج . وكيف أن ما يرد للدولة من ايرادات نظير استيراد الخمور مهما بلغ مليون من الجنيهات فانه تقابله خسارة ضخمة فى القوة العاملة .

وهاجم عام ١٩٣٤ اعتزام الحكومة تخفيض الرسوم الجمركية على الأنبذة المستوردة من بلاد اليونان وردد ما قاله المؤتمر الدولى التاسع عشر للمسكرات ومعظم أعضائه من أساطين الطب وأكابر العلماء .

المخدرات

وكنت معركة المخدرات من أقسى هذه المعارك وأطولها ، ذلك أن حكمدار القاهرة « رسل باشا » الذى استمر فى هذا المنصب أكثر من عشرين عاماً كان يتولى بنفسه استيراد المخدرات وحماية وصولها الى الأراضى المصرية وتوزيعها ، وكان فى نفس الوقت مسئولا بحكم عمله الرسمى عن محاربتها ومقاومتها .

ولقد مر على مصر فترة انتشر فيها الكوكاكين والهروين بدرجة فاتكة وقد تبين أن العدد الأكبر من تجار المخدرات والمهربين هم من الأجانب الذين يحتمون بالامتيازات الأجنبية ولا يمكن محاكمتهم الا أمام محاكمهم الخاصة وقد ضبط فى عام ١٩٢٦ وحده ٥١٦٧ كيلو من الحشيش و ١٧٢ كيلو من الأفيون و ٦٤٦ كيلو من الكوكاكين و ٩ من المورفين واذا كان هذا هو ما صودر فان الكميات التى وصلت كانت لابد اضعاف ذلك . وقد كشفت التحقيقات المتوالية عن عصابات منظمة تنظيما دقيقا ينفق عليها بسخاء فى سبيل ادخال هذه المواد الى البلاد . وقد ورد فى التقارير أنه قبل سنة ١٩٢٢ لم يكن يعرف فى مصر سوى الحشيش والأفيون وأصبحت زراعة الحشيش ممنوعة فى مصر منعا باتا منذ الاحتلال البريطانى .

وذكر رسل باشا فى بعض تقاريره أن المخدرات لا تنحصر فى نوع واحد بل تتناول جميع أنواع السموم القاتلة للعقول والأجساد .

وطالبت الصحافة بتعديل قانون المحاكم المختلطة حتى يمكن محاكمة الأجانب الذين تتاجرون فى المخدرات ، غير أن الاستعمار كان يحول دائما دون تحقيق ذلك لاستمرار الغزو الاجتماعى عن طريق المخدرات ، ولقد تنبأت صحف لندن بأن الأمة المصرية واقعة لا محالة فى هوة الادمان على المخدرات وكتبت الديلى اكسبريس فى ٦ مارس ١٩٢٧ مقالا بعنوان « المصريون أخذوا يصيرون شعبا يدمن المخدرات » وقد جرت محاولات كثيرة لمقاومة هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة ، غير أن الاستعمار حال دون تحقيق أى عمل ايجابى فى هذا الصدد .

معركة الأغانى

وكانت معركة الأغانى احدى المعارك الفكرية الهامة فقد سيطر بعد الاحتلال البريطانى طابع من الأغانى المخنثة المرذولة وصف بأنه يشيع فى النفس الذلة والحسرة والموت .

ونبه الكتاب الى مدى الخطر الذى يهدد الأخلاق والرجولة من جراء الغناء الشائع على الألسنة والقيت تبعة الانحطاط على الشعراء .

وقد صور ابراهيم المصرى هذا التيار فقال : ان هذا اللون من الأدب فى جملته مخنث مرزول يعنى بالتأنق الشكلى والحلاوة اللفظية دون الفكر ، وأن أخلاقنا مخنثة مرذولة قوامها المجون وطابعها الاستخفاف وعدم الاكتراث ، وذوقنا نفسه مخنث مرزول يميل الى الرخاوة ويستمرىء النعومة ويستطيب كل ما هو رقيق حالم فاتر مريض » ووصف أثر ذلك على الشباب ، وقال انه يصدر عن موجات مروعة من التميع المادى الرخص واللهو الأنانى الفاجع » وبين غيره من الكتاب أن الأغانى والأناشيد المصرية لا تمثل روح فضائل العظمة والكبرياء والأنفة والشمم واحتقار الجبن والجبناء والنذالة والانذال ودعا الكتاب الى طرق أبواب الحماسة والحكم بجوار التشبيب والمديح وأبواب الفضائل والأخلاق بجوار الوجد والهيام « حتى تتخلل الحكمة النفوس الجامحة باعتبارها الطريق السهل الى المشاعر واستغلال هذه المفاتح فى الخير العام واصلاح النفوس » (حسين محمد الرفاعى ١٩٣٣/٦/٧) .

وقد جرجت الدعوة منذ عام ١٩٢٠ الى اعداد النشيد الوطنى (اسوه بالأمم الراقية) ونظم شوقى :

بنى مصر مكانكموا تهيا   فهيا مهدوا للملك هيا

ونظم الهراوى :

عنت مصر فلبينا كراما   لنا مصر فلاندع الزماما

معركة الزى

وكانت معركة الزى من أهم المعارك الاجتماعية . اتجهت الى استبدال الطربوش بالعمامة فى البيئات الدينية والأزهرية ، والقبعة بالطربوش فى البيئات المدنية .

وقد جرت معارك فى دار العلوم عام ١٩٢٥ حول استبدال الزى الأزهرى بالزى العصرى . وقال الشيخ حافظ عبد ربه أن الزى الأزهرى بوصفه الحالى عائق كبير يحجب عن صاحبه كثير من حقائق الحياة ويدفع به خطوات الى الوراء او على الأقل يمنعه من مشاركة المجتمع فى شتى مرافقه ونواحيه وانه فى الوقت نفسه يؤكد الطبقية بين صفوف الشعب ويبقى على الفوارق البغيضة المذمومة .

وقد جرى البحث حول العلاقة بين تغيير الزى وتغيير العقلية وهل يمكن ان يؤدى هذا التطور المادى الى تطور فكرى .

واتصلت الأبحاث بمناسبة الثورة التركية وفرض القبعة على الأتراك العثمانيين والغاء الطربوش والعمامة .

وقد جرت ابحاث حول العمامة والطربوش والقبعة .

وقيل أن « العمامة » زى دينى بحت لا صلة له بالمجتمع ولا بالاسلام ، وأن الزى الأزهرى خلقته الظروف ودعا اليه الوسط : وقد طالب علماء الأزهر بجعله مقصورا على رجال الدين . وردد الجانب الآخر أن العمامة زى اقره الشرع اذ كانت فى صدر الاسلام زيا يتميز به المسلمون عن غيرهم ، وأن الزى الأزهرى فضفاض يلائم بالصحة ولا يحول دون الاندماج فى المجتمع

وقد وجهت حملة ضخمة الى « العمامة » بقصد التخلص منها . وهاجم الشيخ التفتازانى خصوم العمامة (٢٠ مارس ١٩٢٦ — الأهرام) وقال أنه اذا اختفت العمامة تبر الطربوش لأنها لا تجد ما تستند اليه وقال : أن العمامة زى قومى وأن العمائم تيجان العرب . أما الطربوش فيكفى أن ينفرد بالظهور بعد العمامة ليختفى بعد أسبوع من تاريخ زوالها لأن الحملة عليه سهلة موفقة .. أما القبعة التى تريدونها زيا لنشء هذا البلد الكريم فهى مظهر الفناء المطلق الذى تبلع فجواته ، الشخصية المصرية وتضيع فى فيافيه مميزات اهل هذا البلد الظاهرية فلا تعرفهم بسيماهم وتراهم عبدة أزياء تغيرت ملامحهم »

* * *

٢ — الطربوش

أما الطربوش فتاريخه أنه جاء مع الأتراك العثمانيين الذين لبسوه بعد فتح القسطنطينية ، اخذه الأتراك من اليونان واخذته مصر من الأتراك ، وتخلى عنه مصطفى كمال . ومصر تلبس الطربوش قبل أن تصنع طربوشا واحدا وتستورده من النمسا . وقد لبس احمد زكى باشا سكرتير مجلس الوزراء الطربوش الأبيض بعد أن قاطعت مصر النمسا واضربت عن شراء بضائعها .

وقال المقطم فى حملته على الطربوش (١٤ يونيه عام ١٩١٧) أن الغربيين والشرقيين يظنون ان الطربوش شعار دينى اسلامى وهو ظن بعيد عن الحقيقة فانه ليس فى الاسلام زى خاص . كما أن الطربوش ليس شعارا اسلاميا كذلك البرنيطة ليست شعارا مسيحياً .

أما الطربوش فقد اقتبسه السلطان محمود الثانى العثمانى من الروم نصارى الأرخبيل ولم ينقضى أكثر من مائة سنة من اتخاذه غطاء للراس بدلا من يتجان الانكشارية ودعا المقطم الى ابطال الطربوش واستبداله بلباس آخر .

وقد ذكر الباحثون أن التمسك بالطربوش يرجع الى عوامل اهمها مسألة القومية والمصرية والشعار المصرى وتميز المصرى على غيره .

* * *

٣ — القبعــة

وقد جرت الدعوة الى القبعة كلباس صالح صحى بدلا من الطربوش يحبس الدم وتنجم عنه اضرار الصلع ، وانه ليس هنــاك ما ينص فى الدين على تحريم القبعة او اشتراط اى لباس آخر .

وقد تصــدت الرابطة الشرقية والجمعيــة الطبية المصرية لبحث الأمر من الوجهــة الطبية والدينية ، وذكر بأن الجمهورية التركية لم تتخذ القبعة لســبب صحى بل لســبب اجتماعى ، هو اختيار اللبــاس الأوربى وأفتت الرابطة والجمعية الطبية بأن افضل لباس للرأس يوافق مصر فى زمن الصيف هو (القلنسوة البيضاء) المصنوعة من الفلين .

وقال الدكتور محجوب ثابت فى حديث له مع محب الدين الخطيب (١٤ اغســطس ١٩٢٦) أن الطربوش صحيا خير من القبعة . وذكر انه لا يدافع عن الطربوش لذاته وقال : أما أن القبعة لباس المتمدنين فالتمدين ليس بالبرنيطة ولكن بالمعارف العلمية التى جعلت لابس القبعة يصل الى هذه المكانة فى الدنيا ، هذه المكانة التى وصــل اليها بعلوم القوة والثروة والعمران . وقال أن البرنيطة شعار أمم تحاول اســتلاب استقلالنا والاســتيلاء على ديارنا واحتقارنا فى اوطاننا وتاريخنا . وذكر ان الكماليين سجنوا من اجل القبعة من سجنوا وشردوا من شردوا .

وقال « متطربش » معلقا : تبرنطوا اذا شــئتموا واذا اردتم وتطربشوا اذا حلا لــكم . ولكن لا تنسوا أن الدين والوطنية والأخلاق والقومية ليست فى الثياب بل فى الألباب ، ولا فى الدثار بل الأفكار ولا فى شكل الملبوس بل فى العقول التى فى الرءوس .

واجمع كثير من الباحثين على أن مسألة الخروج من العمامة الى الطربوش ومن اللطربوش الى القبعة انما هى تقليد للغرب ، لا يقصــد به منفعة واضــحة او غاية معلومة . وجرى ذكر ما قال سعد زغلول فى معارضته لنبــذ الطربوش « مثل الذين يبدلون شعارهم بشــعار غيرهم كمثل الذين يتبرأون من انسابهم » وقال العقــاد « أن من ســقوط الهمة أن يتوارى الانسان وراء القبعة خجلا من جنسه » .

وقالت جريدة ما نشيســتر جارديان : انه بينمــا العرب والترك يستعبدون للأزياء الغربيةبأبشع اشكالها وأبعدها عن جمال الخيال والتصور يتحول الغربيون الى التنويع والتزويق .

وقد حققت هــذه الحملة تحول كثير من طلبة دار العلوم والقضاء الشرعى من العمامة الى الطربوش ومنع الأزهر التغيير .

وصــدرت فى مصر فتوى رسمية (٢٥/٣/١٩٢٦) بأن المذاهب الأربعة المعمول بها مجمعة على تحريم لبس القبعة عند عــدم الميل الى دين أصحابها وعدم قصــد الاستخفاف بدين الاســلام . وأن فى تغيير الزى القومى فناء للشخصية وذلك شأن الضعيف — وردت الفتوى على ما قيل من أن الزى الغربى يدفع احتقار الغربيين وقالت « أن الزى لايدفع احتقارا ولا يرد عارا مع فساد الخلق وتأخر العلم وعدم النهوض بالصنائع والأعمال الاقتصادية والأخلاقية » .

ولم تلبث أن وقعت حادثة الطربوش فى تركيا بين وزير مصر المفوض ومصطفى كمال أتاتورك حيث اشــار رئيس الجمهــورية التركيــة الى الوزير المصرى برفــع طربوشه فى حفل رسمى .

وقد امتدت معركة الطربوش الى ســوريا فكتبت جريدة النهار البيروتية (١٢/٩/١٩٣٣) بأن الطربوش نمســاوى ، وليس عربيا وانه يذهب ثروة البلاد ، وأن دمشق تســتورد مائتى الف طربوش كل عام وتدفع ربع مليون ليرة عثمانيــة على اقل تقــدير . وقالت : (اذا فرضنا أن الطربوش كان منتشرا منذ مئتى سنة فاننا نجد أن دمشق دفعت للنمسا ثمن طرابيش خمسين مليون ليرة عثمانية) وذكرت انه يجرى البحث عن غطاء آخر للرأس وهل القبعة الافرنجية ؟ اما الكوفية اليدوية . أم العمامة أم السدارة العراقية وقالت أن فــكرة اعدام الطربوش ليست فكرة حديثة فقد أحرق فى العام الفائت واستعيض عنه بالسدارة العراقية .

وفى العراق لبس الملك فيصل السدارة اعلانا لتحرر بلاده والابتعــاد عن زى الترك . وانتشرت الســدارة الوطنية فى العراق كما جرى عام ١٩٢٦ فرض الســترة والبنطلون على سائقى السيارات .

واثيرت مســالة الطربوش والقبعة مرة اخرى فى مصر بعد توقيع معاهدة ١٩٢٦ وجرى التفكير فى توحيد

الزى ووضع لباس جديد للراس ، واجمع الكثيرون على أن توحيد الزى لازمة من اللوازم الاستقلالية .

وصاح توفيق الحكيم (١٩٣٧/٣/٧ — الأهرام) : آن الأوان أن لكى نلبس القبعة ، وقال انه طالما يوجد فى مصر شىء اسمه طربوش وشىء اسمه قبعة فستبقى دائمـــا كلمة اهالى وكلمة اجانب ، ومهما مهدنا للتخلص من عار الامتيازات بمقتضى الاتفاقات أو بنصـــوص القوانين فان ذلك لن يخفف الا قليلا من وطأة تلك الامتيازات المعنوية والأدبية التى يتمتع بها كل لابس قبعة على حساب لابس الطربوش : ونادى : أيها الشـــباب أقدموا على لبس القبعة ولا تخشوا ما دمتم مقتنعين ان الطربوش لم يعد يصلح لحاضركم ولا مستقبلكم ، وقد رد كثيرون معترضين على رأيه وقال زكى طليمات أنه آن للوزراء والـــكبراء أن يخلعوا طرابيشهم .

واشير الى ان كلمة (قبعة) كلمة كلدانية . وأنها تســـمى فى قاموس الفـــيروزبادى « البرنس » وروت الأهرام ١٩٢٦/٣/١٤ أن (سليم سركيس) هو أول من فـــكر فى لبس القبعة بدلا من الطربوش عام ١٩١٧ وفى نفس العام كتب (شيخ) يطلب الى اخوانه المشايخ لبس الطربوش بدلا من العمائم ، وأن معنى ذلك ان فـــكرة استبدال القبعة بالطربوش هى فكرة مصرية لا تركية .

ولعل أعظم داعية للقبعة هو الدكتور محمود عزمى الذى حاول منذ عام ١٩٢٥ أن يستبدل الطربوش بالقبعة، غير انه لم يحقق هذا العمل الا صيف عام ١٩٢٦ متعللا «بالأخطاء الوراثية» التى حالت دون ذلك ، وقال مصطفى صادق الرافعى فى الرد عليه بأن هـــذا التحول مظهر من مظاهر التحلل الاجتماعى .

* * *

الســـينما

وكانت الســـينما من بين القضايا الاجتماعية التى جرى الجدل حول خطرها على المجتمع والأخلاق . ومدى أهمية اختيار القصـــص التى تعرضها لتوجيه الشـــباب والفتيات الى مفاهيم صحيحة للحياة دون أن تكون وسيلة للاغراء أو خلق جو من الأعجاب بالجريمة أو الاباحة .

ومع ذلك فقد ظلت القصة الســـينمائية عاملا من عوامل الهدم والتغريب واشاعة الاثارة والتحريض على الجريمة وتصوير الحياة الاجتماعية بصورة التحلل .

* * *

معركة المقـــاومة الاجتماعيـــة

كانت الحضارة الأوربية قد بدات تنفذ الى الشرق كله وتمتد الى جوانبه . وتمد فى كل مكانٍ معالمها صور اللذة والمتعة والترف وتغلبها على مقومات المجتمع العربى الأصيلة كوسيلة للقضاء على روحه المعنوية ودفعه الى التحلل والاستهانة بالقيم والـــكرامة والحرية ، وانتشرت صور الحضارة فى البيت والعلم والملبس والفن وخرجت دعوة تحرير المرأة الى غير مادعا اليه الذين حملوا لواءها كما تناثرت فى أنحـــاء الوطن العربى الحـــانات وانتشر البغاء الرسمى وظهرت معـــالم التفكك على الأسرة وبدأ الشباب يتحلل ويضعف عن مواجهة الأضواء ذات البريق ونشأت مشاكل الاختلاط وبدع المصـــايف على شواطىء البحار وزادت موجة تدهور المجتمع قوة ، واستعلن الاثم وبرزت الاباحة وهدفت السينما والمسرح والصحافة الى ارضـــاء الجماهير واغرائهـــا وهدهدة غرائزها ، وغلب التحلل على الأغانى والموسيقى .

غير أن الفكر العربى الاسلامى لم يقف ازاء هذه الموجة من التغريب الاجتماعى صامتا ، بل واجهها بالاصلاح ، وعمل على مقاومة التحلل ، ودعا المصلحون الى انشاء المجلس الأعلى للاصـــلاح الاجتمـــاعى (صحف ١٩٣٦/٤/٢٦) ليحمل رسالة الدعوة الى دراســـة تيارات تطور المجتمع وتتبعهـــا بما يكفل حسن أســـتغلالها لصالح الجمـــاعة والمجتمع « ذلك أن تطور المجتمع لا يمكن سد تيـــاره أو الوقوف فى سبيله لأنه نتيجة تفـــاعل عدة قوى طبيعية ومحلية وعائلية ليس من الميسور السيطرة عليها ، كما أن معالجة الاصلاح الاجتماعى بالمقـــالات والنصائح أصبح أسلوبا باليا ، ولذلك لابد أن تتجه الأبحـــاث الاجتماعية اتجاها علميا قائما على مناهج بحث لها وسائلها وموازينها الحقيقية ، فقد تقدم الاجتماع كعلم من العـــلوم النظرية وأمكن تطبيق نظرياته الاجتماعية تطبيقا علميا ، وخضعت المجتمعـــات الانســـانية الراقية منهـــا والمتأخرة للبحث الاجتماعى كما تخضع الكائنات الحية للبحث البيولوجى »

واشار الباحثون الى ان المجتمع المصرى كان متقدما على المجتمع التركى من عـــدة وجوه فى نظمـــه الادارية والاقتصادية والقضـــائية ، وكانت المرأة التركية تحســـد أختها المصرية لمـــا كانت تتمتع به من حقوق ، ثم انقلبت الآية بعـــد عام ١٩٢٤ اذ نادت تركيا بوضع سياســـة اجتماعية رسمت وسائلها وخططها وأقدمت على تنفيذها، وبدأ تحول المجتمع التركى .

ودعا المصـــلحون وفى مقدمتهم محمد فريد وجدى (الأهرام ١٩٣٦/٤/١٢) الى وضع سياسة للاصـــلاح الاجتماعى فى هذا الدور من الانتقال الذى تجتـــازه البلاد صيانة للآداب والأموال والأعراض التى تتحلل وتتلاشى أمام قوى عارمة منصبة عليها من ضروب شـــتى لا تجد حيالها من ملاذ تحتمى فيه دونها ، وقال وجدى « ان اول ما يؤثر على خيال الأمة فى هـــذا الدور هو أن تنفض عن رأسها غبار الخمول . وأشار الى الشر الذى تلقاه من نقلها مظاهر المدنية ، وفى هذه المظاهر ما هو شر محض والخير الذى فيهـــا لا يمكن الوصول اليه بمجرد التقليد ، وأشار المصلحون الى أن هناك آفات اجتماعية سرت فى جسد الأمة من مخلفات الاستعمار « الذى وضع بويضات جراثيمه بين جدران المدارس » وأن مرتعها الخصـــيب هو الطبقة العامة من الأمة .

* * *

وأشار عبد الله حسين (الأهرام ١٩٣٣/٩/٢) الى أن السياسة القومية للوطن ليست هى الاستقلال وانمـــا تتصل بسياســـة التعليم وسياسة المجتمع ، وان تكون المدرسة قومية البرنامج والروح ، وان المدرسة المصرية تهمل التاريخ المصرى أشد الاهمال وتقوم الدراسة على وضعها أجانب ، ودعا الى تربية العاطفة الوطنية بشراء البضـــاعة الوطنية . وانحى باللائمة على للطبقـــة الأرســـتقراطية الى تحتقر مصنـــوعات بلادها ولا يرضى رغبتها الا شراء كل شىء أوربى ، وطالب عباس عمـــار (١٩٣٣/٨/٣١) بضرورة وجود أمور ثلاثة يمتلك الشباب زمامها ليشيدوا صرح وطنهم شامخا هى :

(١) مثل اعلى يقوم على مبدأ الخدمة العامة ويرمى الى الخير العام .

(٢) عاطفة سامية ترتفع بصاحبها عن الأنانية المعقولة .

(٣) اعداد متين يضمن للمرء تحقيق هذه المثل العليا .

قال عباس عمار : أن مجتمعنا مريض تنتابه العلل، ومرجع النقص فى الاصلاح هو عجز الجماعات عن أن تكون لها برامج جلية تؤمن بها وتعمل على تحقيقها . ودعا الى قيام نظام « المخلات » التى تعد حجر الزاوية فى بناء الاصلاح الاجتماعى وهى (مؤسسات) تقام فى مناطق متفرقة فى المدن والقرى لرفع مستوى الحياة الاجتماعية فى كل منطقة .

وعالج منصور فهمى (١٩٣٩/٦/٢٠) ما اسماه « علة العلل فى مشاكلنا الاجتماعية وهو : الاقتباس من الحضارة بما يوافق حاجتنا أو قبولها قبولا كاملا » . وقال « أنى أتمسك بميراث انحدر الى بلدى منقرون وان استوحى ما يوحى به تاريخى وان استلهم ما يلهمنى جو بلادى . لسنا من الغرب وانها لكبيرة أن ننهج فى كل شىء سبيل الغربيين ، فالتقليد حدود — وكان طه حسين قد دعا الى قبول الحضارة الغربية كاملة غير مقبوضة « ما يحمد منها وما يعاب وما يحب منها وما يكره » .

واتجه الأزهر ووزارة الأوقاف الى الدعوة الى ابطال البدع والعادات الضارة وأشار وزير الأوقاف فى خطاب وجهه الى شيخ الأزهر (صحف ١٩٣٦/١/٢١) الى أن هناك عادات كثيرة وأمور عديدة لابست الشعائر الدينية واقترنت بأداء العبادة ، وتطاول الزمن حتى انطمست من بينها الحدود وتلاشت الفواصل فاختلط الأمر وظنها العامة دينا وأدوها عبادة ووجد من الناس من يدعو اليها باسم الدين ويحض على المحافظة على فعلها فتمكنت من النفوس وهى بدع ، واستولت على العقول وهى ضلال ، ونشأ عن ذلك جدل عنيف وخلاف شديد ملأ المساجد وأثار الفتن وأورث العداوة والبغضاء وأوجد التحزب والتفرق ، وأدى ذلك الى قيام طرائق وفرق وجماعات يضلل بعضها بعضا حتى اتخذ بعض الناس مساجد خاصة على قيد بضع خطوات من مساجد الجماعة » .

وأجاب شيخ الأزهر أن الموالد التى يقيمها أرباب الطرق لبعض الأولياء فى مساجد المسلمين لم تكن على عهد رسول الله بل هى من بدع الفاطميين التى شوهت جمال الدين وصورته أمام الناس بصورة لا تتفق وما ينبغى له من عظمة وجلال ، وهى انتهاك لحرمة المشاهد كالذى نجده عند اقامة الموالد من تقديرها بالأطعمة والأشربة ودخول الأطفال فيها حفاة أو بنعال ملوثة ، وقد يختلط فى تلك الموالد الرجال والنساء فتعظم الفتنة .

وأشد من هذا أن يتحول المسجد الى ملهى يتبارى فيه المغنون والمطربون فاذا كانت المغنية امرأة كما شوهد فى مساجد القاهرة كان الفساد أكبر والفتنة أعظم لأن المسجد فى وقت المولد يدخله جميع الناس ، فضلا عن حلقات الذكر التى تقوم على آلات الطرب والأناشيد الغرامية التى تنفخ فى نفوس الشبان روح الفسق ، كما تقوم على تحريف أسماء الله تعالى وصفاته والتمايل فى الذكر الى حد الرقص والخلاعة . والواجب تطهير المساجد من هذه البدع والمنكرات حتى تكون خالصة لما أعدها الله له من عبادته على الوجه الذى يحبه ويرضاه » .

كما هاجمت الصحف المسرح الفرنسى الخليع فى مصر وأعلن راغب غالى (الأهرام ١٩٣٢/١٢/٧) أننا نحتج على الذين يتوهمون أنهم يستميلوننا بمثل تلك البرنامج المشحونة بذاءة ، ودعا الحكومة الى عدم الانخداع بنظريات الفن والجمال المزيفة حينما يكون فى الأمر ما يخالف الآداب العامة أو تراخى الأخلاق .

* * *

(٧)

المـــــرأة

كانت الدعوة الى « تحرير المرأة » خطوة كبرى فى سبيل التطور وقد حملت دعويين : هما : تعليم المرأة وسفور المرأة ، غير أن الاستعمار قد حرص على الانحراف بهما عن اتجاهها الصحيح ، فقد حملت لواء الدعوة الى تحرير المرأة طائفة من نساء الطبقة الأرستقراطية وكان الدعاة يطمعون فى العمل فى هذا الميدان لكسب لون من الزعامة ، وقد حالت سيطرة هذا النوع من النساء على ميدان المرأة من اشتراك المرأة الشعبية ، كما كان لسيطرة الرجل على حركة تحرير المرأة دخل فى كثير من الأهواء التى وجهت الحركة وجهة غير صحيحة .

وقد كان قاسم امين فى دعوته الى تحرير المرأة انما يقيم منهاجه على أساس منقواعد الاسلام غير أن ماحدث هو أن قلة من ساكنات المدن هن اللائى خرجن من الحجاب . غير أن السفور كان عملاً مظهريا محضا ، ولم يقع ما دعا اليه قاقسم أمين من ارتفاع مستوى الأدب (مجلد ٤٦ الهلال ص ٩٧٦) وخلق سعادة البيوت ، بل الذى حدث أن صاحب هذا التطور ــ على حد يعتبر محمد فريد وجدى « تدهور مروع فى الآداب العامة وانتشار مفزع لمبدأ العزوبة ، واصبحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض وهرب الشابات من دور اهلهن » .

ونعت « ابنة الشاطىء » ما تكشفت عنه حركة تحرير المراة مما سمته « مهزلة أليمة موجعة » تلك هى « أن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم وهم يوهموننا اننا نعمل ويعملون معنا لحسابنا » ذلك ان الرجال رتبوا لنا الخروج زاعمين انهم يؤثرونا على أنفسهم ، ولكنهم كذبوا فى هذا الزعم فما اخرجونا الا ليحاربوا بنا السأمة والضجر فى دنياهم . ان اقسى ما نلقاه فى محنتنا هو شعورنا بما انكشف من ضعف الرجال وصغارهم ، ونحن شقيات بذلك فكان منه مرارة موجعة » وقد اشارت بنت الشاطىء الى هذا الانحراف « ان المراة دفعت ضريبة فادحة ثمنا للتطور ، ويكفى أن اشير فى ايجاز الى الخطأ الأكبر الذى شوه نهضتنا واعنى به انحراف المراة الجديدة عن طريقها الطبيعى وترفعها عن التفرغ لما نسميه « خدمة البيوت وتربية الأولاد » .

ذلك لأن مصر لم تخرج فتياتها من دورهن لتسد بهن فراغا كانت تشكوه فى ميادين الأعمال . وانما ارادت ان تجد فيهن الأمهات المستنيرات المثقفات . وهذه هى اليوم ترى البيوت منهن مقفرة خلاء . اما الأبناء فتركوا للخدم وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة لخطأ كبير فى فهم روح النهضة ، وبلغ من سوء ما وصلت اليه ان نادت مناديات بحذف نون النسوة من اللغة كأنما الأنوثة نقص ومذلة وعار ، واهدر الاعتراف بالأمومة كعمل من الأعمال الأصيلة لنا حتى سمعنا من يسأل كيف تعيش امه برئة معطلة ، يقصد الرئة المعطلة هؤلاء الباقيات فى بيوتهن يرعين الأولاد ، وزعموا أن المراة تستطيع أن تجمع بين عملها فى البيت ووظيفتها فى الخارج .

وقد نعى بعض المفكرين على أن القائمات بالعمل فى الميدان النسوى لا يعرفن اللغة العربية ولا ينطقنها وانما هم من المثقفات ثقافة فرنسية ، فهل يمكن ان يكون لهن اى نفع فى تفهم حياتنا وحاجياتها وهن منعزلات ثقافيا وارستقراطيا عن المجتمع . وقد اعتذرن بانهن بمعرفتهن للفرنسية يسمعن صوت المراة فى الخارج وقد اعترض احمد حسن الزيات على ذلك بأن الثقافة الأجنبية تفقد كثيرا من قيمتها اذا لم تقرن بقسط من الثقافة العربية السليمة وليس صحيحا ان قضية المراة تخدم فقط عن طريق الكتابة بالفرنسية لأن الفرنسية لا تقرأ فى برلين ولندن .

وصور الدكتور منصور فهمى ما اعتور الحركة النسوية فى ظل الاحتلال وشابها ما وصفه بأنه « تحول خروج النساء عن عزلتهن عن ان يكون وسيلة يسوغها شرف الغاية ليكون غاية لذاته » وقال أن من اشد العوامل التى اضعفت قيمة الاختلاط بين المراة والرجل هو انتشار الآراء دون ان تفهم على وجهها الصحيح ، ومن هذه الآراء ذهابهم الى ان الاختلاط بين النساء والرجال

وتوالى المجامع التى يتلاقون فيها من شأنه ان يهذب من المظاهر ويعمل على ترفيع النظرات وترفيق الآداب .

ولعل قاسم أمين كان يخشى ذلك فقال : والذى أراه هو أن الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة بمالا ترضاه عاطفة الحياة .. وهكذا ظلت حركة الاختلاط تنمو سريعا وتشيع الى أن أصبحت الفتاة التى كانت أمها منذ نيف وثلاثين عاما لا تستبيح لنفسها الاتصال ببعض المحارم أصبحت هذه الفتاة ترى الاتصال بالرجال للسمر . والتسلى حقا من حقوقها ، ومن المقرر ان الاختلاط بين الرجل والنساء اذا قام على غير مقتضياته الضرورية الجادة ، وكان منبعه اللهو والترف فانه لا يلبث أن يقوض دعائم الأمم .

وقد صور عباس عمار الحركة النسوية (الأهرام ١٩٣٣/٥/٢١) بأنها مظاهر لا أكثر ولا أقل ، وطالب بأن تقوم جهود المرأة على أساس السير فى الاصلاح على هدى ، ونعى على الفرق العظيم بين ثقافة الرجل وثقافة المرأة .

ووصف محمود أبو العيون حركة المرأة بأنها ثورة فهو يرى (الأهرام ١٩٣٣/١٢/٩) أن المرأة فهمت الحرية فهما معكوسا وفى ظل الحرية الزائفة تحررت المرأة المصرية من الآداب والأخلاق . ورأت فيهما قيودا يجب تحطيمها . وفى ظل الحرية الزائفة داست المرأة اقدس واجباتها كزوجة وأم وربة منزل فتهدمت تلك الأصول الثلاثة التى تبنى عليها حياة الأسرة وسعادة المجتمع ، وهاجمت «لبيبة هاشم» الظواهر الحسنة فى حرية المرأة وهى تخفى صفات قبيحة وقالت « أو لسنا نرى عيوب المدينة الأوربية بدأت تجر أذيالها بيننا فتكنس آثار الحشمة من طريقنا . أو لسنا نشعر بريحها المسموم تهب من الغرب فتذر من عيوننا رمادا تعمى به بصائرنا . ما أهمية الشعر مجزوزة أو مترسلا معقوصا أو مضفورا اذا كانت الراس لا تحوى عقلا وعلما » .

ونعت نعيمة المغربى (الأهرام ١٩٣٣/٩/١٢) على المرأة العربية الاسراف فى التقليد . والمباهاة بمعرفةاحدى اللغات الأجنبية فقالت « لا أريد أن يكون تعليمنا للغة أجنبية سببا لهجر لغتنا هجرا قد يكون لا لقاء بعده » .

وهاجم عبد الرحمن فهمى (الأهرام ١٩٣٩/٦/٢٥) خروج المرأة « عارية مرتدية ثوبا يظهر محاسن جسمها بعد أن تصبغ وجهها وقال : لقد حدثنا التاريخ أن الأمم العابثة أقل نجمها ، وقال ان قاسم أمين لم يكن يظن أن الأمر سيصل الى هذا « التدهور الخلقى الهادم لكيان الأمة » ودعا الى حرية الأمة التى تقوم على قواعد الدين — والتى أعطيت للمرأة فى صدر الأسلام فأباحت لها مزاولة أعمالها وادارة شئون ممتلكاتها فكانت تقابل من تشاء وتخطب فى الأجتماعات وتساجل الشعراء وتسابق الرجل الى حومه الوغى ... » .

ودعا نبيه أمين فارس المرأة العربية أن تتحرر أولا من الرجل نفسه « فان جميع أتعابها وبلاياها وجهلها وتأخرها يعود الى الرجل المتسلط عليها والى عقلية الرجل فهو مصدر جهلها وسبب شقائها » .

***

معارك تحرير المرأة

وقد مرت حركة تحرير المرأة فى مراحل متعددة : التعليم والسفور والمساواة والاختلاط والعمل وتنوعت حقوقها بين حقوق المجتمع والزواج والطلاق والحقوق السياسية .

معركة التعليم

وكانت الدعوة الى تعليم المراة أولى خطوات حركة تحرير المراة وقد قطعت المراة هذه المرحلة بخطا واسعة وحققت فيها نجاحا واضحا .

وقد اتسعت حركة التعليم النسوى فى مصر عام ١٩٢٤ حيث تم انشاء أول مدرسة ثانوية ، ودخلت الفتاة الجامعة عام ١٩٢٨ فتخرجت خمس فتيات عام ١٩٣٣ منهن : نعيمة الأيوبى وسهير القلماوى .

وسافر عدد من الفتيات الى الخارج وكان عدد الفتيات اللائى يتعلمن فى ذلك العام اكثر من ٥٠ الف فتاة .

غير أن الاستعمار كان حريصا على ان لا يحقق تعليم الفتاة الهدف منه ووصف هذا التعليم (١٦ نوفمبر عام ١٩٣١ — الأهرام — شهدى الشافعى) بأنه تعليم ناقص مبتور لا تجنى منه الفتاة الا غرورا وزهوا ، وانه فشل فشلا تاما فى تحقيق الغرض منه « وهو اخراج زوجة صالحة تستطيع أن تدبر شئون منزلها وتربى أطفالها » وقد وصف الكاتب فتاة اليوم : بأنها أيا كان نصيبها من التعليم تحتقر كل ما يتصل بالشئون المنزلية وترى انه لا يليق بها أن تقوم بما يقوم به الخدم .

وطالبت حنيفة حفنى ناصف (الصحف ٢٨/١/٣٠) الفتيات بالاستزادة من تعليم لغة البلاد وتاريخها والعمل لها وفتح الباب أمام من تظهر نبوغا للتبحر فى العلم .

ونعت (اسمت بدوى) على تعليم المراة وقالت انه لا يؤدى الا الى تعليم القشور دون اللب والعرض دون الجوهر . وقالت ان نظام التعليم من الفساد بحيث لاتفهم الفتاة قيمة ما تدرسه لتمتحن فيه آخر العام ، حى اذا فارقت المدرسة فارقت ما درسته فيها طوال مدة التعليم التى لا تتفق مع قصر وقت الفتاة الطبيعى مما يضطرها لطول المدة الى ترك المدرسة ، قبل أن تستفيد شيئا ينفعها فى حياتها الاجتماعية وقالت « أسماء فهمى » أن ما يوجد فى المجتمع المصرى من نقائص كالتفكك وضعف البنيان القومى وعدم الثقة بالنفس والغير وتضحية المصلحة العامة فى سبيل الأغراض الشخصية ، انما هو نتيجة لنقص تربيتنا القومية فى كل من المدرسة والمنزل ، وقالت ان من عوامل النقص هذه تلك المكانة التى يستمتع بها الأجنبى بيننا فى لغته وعاداته التى لهما كل احترام وبضاعته التى لها الرواج التام . وانه لمن المؤلم أن يعيش الأجنبى بيننا السنوات الطوال دون أن يفكر فى معرفة لغتنا .

وجرى البحث حول انشاء كلية للبنات فى الأزهر دعا اليها محمود ابو العيون وقال ان تعليم المراة الدين واجب محتوم . وأن المراة المصرية تعانى اشد ازمة فى حياتها الخلقية وان خير علاج لذلك هو تعليم المراة دينها ونعى على وزارة المعارف عجزها عن تعليم المراة أمر دينها .

* * *

٢ — معركة السفور

وكانت « معركة السفور » أضخم من معركة التعليم فقد كان هناك تسليم بمبدأ التعليم ، وكان الخلاف حول النوع والدرجة — أما السفور فقد قامت معارضة ضده بالرغم مما أورده قاسم أمين من حجج من نصوص الدين ودعا محمد فريد وجدى بعد اربعين عاما (١٩٣٢) ليؤكد رأيه فى ضرورة الحجاب ، وكان قد أعلنه عند صدور كتاب تحرير المراة ١٨٩٩ .

وقد أكدت له الأيام التى مرت — على حد قوله — ضرورة احتجاب النساء ، وأن الحجاب لا يحول دون

التعليم ولا المدنية يقول : « وقد ازددت فى عقيدتى هـــذه رسوخا » واشار الى « ان المزرون بالحجاب لا يجدون حجة ناهضة على منافاته لاكرم ضروب الوجود الاجتماعى واشار الى ان نســاء اليونان كن محجبــات فى عهدهم القديم ، ولم يمنع ذلك من ان يملأوا اطباق الارض علما وصاروا اعظم الامم جاها . كما ان الرومان بنوا صرح اكبر دولة لعهدهم ونساءهم محجبات فلما اسفرن فى آخر أيامهم اصـــبحوا اسرى شهواتهم . وتلاهم المســلمون ونساءهم محجبات فانتزعوا ســلطان الارض من براثن امتين لم يكن لهما ثالث فى العالم » .

وقال « انا أطلب للمراة جميع الحقوق الانســانية حتى حق الانتخاب والنيابة ولا أرى ان حجابها يمنعها من ذلك » . وقال « ان التصدع الذى دب دبيبه فى البيوت كان بسبب الغاء الحجاب (الأهرام ١٩٢٢/٩/١٤) » :
وعنـــدنا ان ذلك كان من باب اقامة الحجــة ، اذ ان السفور كان فى الثلاثينات قد قطع مرحلة طويلة ، ولم يعد هناك سبيل الى العودة به مرة اخرى وهو مع ذلك يدعو الى وجـــوب تعليمها « تعليما لا حــد له » وكان اول من قال بأن الاسلام فرض التعليم على المراة كما فرضته على الرجل . وســـمح لها بأن تكون قاضـــية ، وأن تحضر الصلوات فى المساجد وأن تشهد الأمور العــــامة وتبدى رايها فيها ، ولكنه أصر على ان الغربيين لم يحصلوا على ما حصلوا عليه بفضل السفور ولا بفضل الملاهى وصور غايته فى قوله : « انا لا أطلب سدودا من الحديد والفولاذ لتمنع عن مجتمعنا هذا التحلل الاجتماعى والاقتصادى فقد فشلت تجربة السفور وتركت وراءها اثرا من التدهور قد يعوزنا لمعالجة آثاره سنون » (الأهرام ١٩٣٢/٩/١٨).

ولم يكن هـــذا راى محمـــد فريد وجدى الـــكاتب الاجتماعى ذى الثقـــافة العصرية وحده ولكنه كان راى الجانب الداعى الى عدم اطلاق حرية المراة اطلاقا كاملا ويقابل هذا الراى ، راى جانب آخر يرى ان الحجاب ليس من الاسلام ويقوده عالم دينى هو الشيخ عبد القـــادر المغربى : قال ان الحجـــاب ليس من الاســـلام ، وأن الحجاب الاسلامى اثر من آثار ارستقراطية المراة وليس هو اثرا من آثار احتقارها أو عبوديتها .

واشار ابراهيم الهلباوى (الهلال م ٤٠ ص ١٩) الى ان السفور ليس ماديا فحسب بل هو معنوى ، وأن سفور المراة من حجابها لن يكون صحيحا اذا لم يصحبه سفور عقلها وروحها وعواطفها . وفى احتجاب عقلهـــا وانكماش روحها فناء .

وقالت فردوس كامل (١٩٣٢/٩/٢٢ الاهرام) ، ان الســـفور ليس هو مصدر الشـــقاء الاجتماعى والبلاء الأخلاقى الحـــاضر ، وليس الحجاب بمـــانع من هبوط المســـتوى الأخلاقى أو بباعث فينـــا روحا من الـــكمال واشارت الى ان للتدهور الاخلاقى المتفشى اسبابا اخرى تحتـــاج الى قوانين صـــارمة ورجال أقوياء ، وهاجمت « باسم عبد الملك » أثر الحجاب فى العقل ، فقالت : ان الحجاب نطاق ضرب حول وجه المراة وجسدها وليس له ادنى اتصال بعقلها وذهنها وأن تأخر المراة الشرقية راجع الى نقص فى انتهال من موارد العلم الصـــحيح ما يؤهلها لخوض غمار الحياة العملية بطريقة جديدة .

* * *

٣ — حقوق المراة

كانت المعركة الكبرى فيما بين الحربين هى معركة حقوق المراة وكان ابرز هـــذه المطالب : المطالبـــة « بالمساواة » بين الرجل والمراة مساواة تامة .

أما حقوق المراة التى دافعت عنهـــا وجاهدت من اجلها فهى :

* مساواة المراة بالرجل فى مختلف فروع التعليم وفتح ابواب التعليم الثـــانوى والعالى والبعثـــات الى أوربا .
* واصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية .
* ســـن قانون منع تعدد الزوجات الا لضرورة كعقم الزوجة أو المرض العضـال .
* مساواة المراة بالرجل فى الحقوق النيابية والحقوق التشريعية .
* تقييد الطلاق ووضع حد له .
* جعل الســـادسة عشرة ســـنا ادنى لزواج البنت ليتسنى لها تكوين عقلها وتحصيل قسط مناســـب من الثقافة والتعليم .
* اصلاح نظم الاحوال الشـــخصية فيما يتعلق بنظام الخطبة والزواج لتهيئة الجو للأسرة واســـتقرار الحياة الزوجية :

* مد حضانة الأم للطفل ومراعاة جانب المراة فى شروط بيت الطاعة .

* تغيير لباس المراة والغاء الحجاب .

وقد تحققت كل هذه المطالب في خلال هذه الفترة .

وكانت الدعوة الى المساواة بين الرجل والمراة مساواة كلية موضع معارك فكرية متعددة بين دعاة التغريب والمعتدلين من المجددين ، وعارض كثيرون هذه المساواة وقالوا انها مستحيلة عقلا وفعلا (ابراهيم عبد القادر المازنى) لأن لفظ المساواة لا يدل على صحة الادراك والفهم للحقائق الطبيعية التى تقيد كلا من الرجل والمراة على السواء — وعارض منصور فهمى (٤ فبراير عام ١٩٣٠) مساواة المراة بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات واثارت محاضرته عاصفة هوجاء .

وقد كانت مسائل الارث فى مقدمة المسائل التى شملها بحث المساواة .

واشار الدكتور السعيد مصطفى السعيد (الاهرام فى ١٩٣٦/٧/٢) الى هذا فقال : ان حقوق المراة المسلمة فى مصر مقيدة بالشريعة الاسلامية وان المنازعات التى تقوم بصدد الزواج والطلاق والميراث والهبة والوصية تحل عن طريق هذه الشريعة . وقال انها ميسرة .

غير ان سلامة موسى حمل حملة عنيفة على الميراث ودعا الى مساواة المراة والرجل فيه ، وقد عرض — عبد القادر المغربى لحكم الشرع فى توريث البنت نصف ارث أخيها فقال : ان الأبناء لما كانوا هم الذين يخلفون آباهم فى أسرتهم ، كانوا فى حاجة الى المال أكثر من اخواتهم البنات اللواتى يندمجن فى أسرة أخرى غير مكلفات فيها بالنفقة .

وقال محمد فريد وجدى (٣٠/٣/١٣ الأهرام) أن النظام الاجتماعى فى فلسفة الحسبة وهى فلسفة العصر الحاضر موافقا للنظام الاسلامى ، وقال أن هذا النظام كان يسمح أن لا يجعل لها حقا أصيلا فى الميراث ، ولكن الاسلام الذى زاد من ضمان حياتها وتوفير راحتها قدر لها نصف ما للرجل من ميراث .

وقد أراد سلامة موسى فى اتجاهه التغريبى ان يكسب الى دعوته هدى شعراوى فأرسل اليهنا محاضراته التى نشرها بجريدة المقطم (١٩٢٨/١٢/٢٣) ودعاها الى أن تطلب الى وزارة الحقانية سن قانون يساوى بين المراة والرجل فى حق الميراث .

وقد نشرت هدى شعراوى فى الأهرام ١٢/٢٨/ عام ١٩٢٨ رأيها فى هذا الصدد وقالت : انها لا تظن أن نهضتنا النسوية يجب أن تتبع أوربا فى كل مظاهرها . لأن لكل بلد تشريع وتقاليد ، وليس كل ما يصلح فى بعضها يصلح فى البعض الآخر ، وقالت انها لم تلاحظ تزمرا من المراة أو الشكوى من عدم مساواتها للرجل فى الميراث « والظاهر أن اقتناعها بما قسم لها من نصيب ناشىء من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالانفاق عليها وعلى أولادها كما منحها حق استقلال التصرف فى أموالها ، وأن الأوربية ترث بقدر ما يرث الرجل فضلا عن انها ملزمة بدفع المهر ومكلفة بالتخلى عن ادارة أموالها لزوجها فضلا عن أن الغربية لا حق لها فى ادارة ممتلكاتها اذ لا يمكن أن تنفق أى مبلغ من ما لها ولا أن تتعاقد مع الغير ولا أن تحترف حرفة بدون تصديق زوجها وموافقته » ا. هـ .

وعارض العقاد الرأى القائل بمساواة المراة : وقال انه لم يجد ما يدل على امكان مساواة المراة بالرجل ، ولم ير من النساء واحدة نبغت فى فن من الفنون الى درجة تعادل بها الرجل حتى من يشاء يذكرهن فى العصر الحديث كمدام كورى ، وليس دخول نساء الغرب فى الأعمال والوظائف دليلا على كفاءة المراة للقيام بأعمال الرجال وامكان مساواتها فان العبرة فى المساواة ليست بالحد الأدنى .

* * *

٤ — مهمة المرأة

وجرى البحث حول مهمة المراة : وانقسم الرأى حولها هل هى البيت أم العمل ، وأيد كثيرون من معتدلى المجددين الرأى الأول ، وقال العقاد ان المراة الشرقية احس بطبيعة الأنوثة من صاحبتها الغربية فهى أوفر منها حظا من عنصر النسوية . وهى على الجملة أم لأبنائها وآلف لزوجها واسكن الى المعيشة البيتية من صاحبتها الغربية ، وقال اننا نود ان تظل كما كانت فى كل عصر ملكة البيت الحاكمة المحكومة يسكن اليها الرجل من متاعب الحياة ويستدعى ذلك ان تعيش فى ظله وتعتمد فى شؤون العالم الخارجية عليه وتدع له كسب رزقها وتدبير

حاجاتها ، وقال ان عملها فى البيت هو اعداد الجيل القادم وهو أكبر وأجل من أن تجمع بينه وبين السعى فى طلب الرزق والاحتيال على شئون المعاش الا اذا كان خروجها الى معترك السعى والجهاد علامة على التقصير والخلل من جانب المجتمع ونذيرا بالشذوذ فى تقسيم الطبيعة .

وقال محمود أبو العيون : أن نظرية مشاركة المراة للرجل فى الوظائف العامة هى نظرية اقتصادية دلت التجارب على انها خطرة فى حياة الدولة لأنها تزيد العاطلين من الرجال .

وقال عباس عمار (الأهرام ١٩٣٣/٢/٨) ان وظيفة المراة هى «الأمومة» وهى لاتستطيع ان تغيرها أو تقلبها فتمسخها ، اذا فاعدادها يجب أن يكون مرتبطا أساسه بهذه المهمة التى خلقت لها . فهى لابد ان تتعلم تدبير المنزل ومبادىء الصحة ونفسية الأطفال ، ولا غنى لها عن أن تتثقف ليركن الزوج اليها وليرى فيها ناحية جذابة يميل لها ويطمئن اليها . وقال أنه ما يرمى بتثقيف البنت ان تجيد الرقص وأن ترطن بلغة اجنبية ، وهى مع ذلك عاجزة لا تشرح صدرا ولا تنظم بيتا . ولست ادعو الى أن تتعلم البنت ألوانا من العلوم لا تتصل بحياتها ، وانما أحب أن تعد البنت لتكون « أما » تفهم مهمتها بتنشئتها انشاء ربة البيت بكل معنى الكلمة « وقال انه ما دامت ظروف المجتمع الحالية قد لا تتحقق معها هذا الغرض الذى نعد المراة له وما دامت فرصة الزواج لم تعد ميسرة لكثير منه ن، فمن العبث أن نهمل هذا الجانب الواقعى ومن الأجحاف بحقوق المراة أن نسقط هذا الأمر من حسابنا وخير للمراة أن تتسلح بسلاح العمل وأن نعدها للحياة كما نعدها للبيت » .

* وقال فيلكس فارس (١٩٣٣/٢/٢٦ — الأهرام) اننا نخدع كثيرا من معنى حرية المراة الغربية وكثيرات من بنات بلادنا يضعن نصب أعينهن الفتاة العاملة فى أوربا كمثال أعلى للرقى الصحيح .

أنا من أنصار تعليم المراة وتهذيبها ، ولكن لا أريد المراة عاملة خارج بيتها يتحكم فيها الغرباء عنها ، فان لم تنزل الأهانة بها كامراة نزلت بها اهانات التقريع كمأمورة يجب عليها أن تمحو شخصيتها وتكيفها تبعا لواجبات التنظيم وقال : أن كل ما يمكن المراة أن تحترم به المجتمع من أعمال ليس الا فضولا ، فالمراة التى تنشىء أمة وتخلق وطنا لا تكون الا كالقابضة على الريح فى فضلها الموهـوم على الانسانية . . . أن ما يحسبه النساء حقا لهن وتطالبن به من عمل فى المجتمع ان هو الا عبودية مستحدثة من أنانية الرجل فهو المستفيد منها وهن ضحياتها .

وهاجمت المراة كل راى يدعو الى التحرر من التقليد الغربى الخالص وتطبيق ما يصلح لمجتمعنا وجيلنا .

فقالت أنجى أفلاطون : أن نداء « المراة للبيت » لا يؤدى فى حقيقته وجوهره الا الى تحطيم البيت وتشريد المراة والأطفال معا ، ذلك انه يعنى اعتبار المراة خادمة فى البيت لا صلة بينها وبين المجتمع الذى تعيش فيه ، لا تدرى عنه شيئا . ولا تساهم بشىء فى تدبير أموره وعلاج مشاكله ، ويعنى اخضاع المراة لسلطان الرجل اخضاعا تفنى به شخصيتها وكرامتها وآدميتها ويحرم المجتمع من جهود النصف من أعضائه .

وأن فكرة « المراة للبيت » ليس مضمونها سوى تجميع المساوىء التى تحيط بالأسرة المصرية . فهى تعنى للفتاة اجبارها على الزواج قسرا وكرها ، وتعنى للزوجة اباحة تعدد الزوجات واطلاق حق الطلاق والزنا والطاعة والتعذيب ، ولذلك فان « المراة للمجتمع وليست المراة للبيت » ودافع الكثيرون عن حق المراة فى العمل وقالوا انها عملت مع الرجل قبل ان تتعلم ، فى الحقول والمزارع وعملت فى التجارة ولذلك فليس هناك ما نخشاه من فتح أبواب التعليم للمراة .

* * *

٥ — معركة الاختلاط

وقد استتبع قضية العمل للمراة معركة جديدة هى : معركة الاختلاط .

وقال دعاة التغريب : أن السفور وسيلة لا غاية . وأن الغاية هى تكوين المجتمع المختلط . وقال ابراهيم المصرى : الواقع أن السفور أصبح لا يجدى اذا لم يقترن بوجود مجتمع مختلط اذ السفور فى ذاته وسيلة لا غاية .

وقال محمود عزمى : انه لا يتم اصلاح بغير اختلاط وتعادل فكرى بين الجنسين وافساح الطريق للمراة لغشيان المجتمعات العامة . وعنده « انه لا يمكن أن يتحقق اى اصلاح من الاصلاحات التى يقوم عليها كيان الأسرة الا اذا تحقق الاختلاط بين الجنسين فى المجتمعات الخاصة وفى المجتمعات العامة أيضا » .

وقد اباح طه حسين فى الجامعة اختلاط الجنسين وكان لذلك الأمر ضجة وكان رأى المعتدلين من المجددين أن الأمر يتطلب تمهيدا ثقـافيا وفكريا واجتماعيـا حتى لا يحدث من جراءه ما حدث من ضحايا وأزمات كان لهـا صدى بعيد المدى .

وعارض رجـل من الأزهر منع الاختلاط ، فقـال محمود الشرقاوى : نحن نقـاسى فى مصر حجابا صارما بين الشباب والفتاة وبين الرجل المرأة وأن هذه الحجب هى علة العلل فى قعودنا وتخلفنا فى الأدب والفن .

ورفض توفيق الحكيم تقليد الغرب فى كل شيء ورد ذلك الى مركب النقـص ، وقال أن علينـا أن نلائم بين الحاجة والوسيلة والضرورة والطريقة فى اطار طبـائعنا ونطاق طابعنا .

* * *

٦ ــ الحقوق السياسية

وكانت معركة الحقوق السياسية هى خاتمة هـذه المعـارك ، فقد ارتفعت الأصوات مطالبة بحقوق المرأة السياسية منذ عام ١٩٢٢ فى ابان وضع الدستور الأول وظلت هذه الدعوة تتردد فى مناسـبات متعددة ــ وقال فريد وجدى : انه ليس لدى المسلمين ما يمنع أن تجارى المرأة المسلمة اختها فى هذا المضمار ، بل أن لها من دينها باعثا قويا فقد أمر النبى (ص) أن تحضر النساء مجتمعات المسلمين العامة التى تعقد للتشاور ، وقد ردت امرأة على عمر فى مسألة تحديد المهر فرجع عن مشروعه .

وكان من رأى توفيق الحكيم أن هذا نوع من التهريج .. وقال انه لا يمـانع من أن يكون للمرأة صوت فى كل ما يقرر مصيرها على شريطة الا يحول ذلك دون استقلالها الطبيعى فلا تتلاشى فى مجالس الرجال ولا تضيع فى مجامع الأحزاب .

* * *

وقالت هدى شعراوى : أن ما تدعو اليه المرأة من المطالبة بالحقوق السياسية انما يهدف الى الاشتراك فى التشريع الذى يوضع بشأن الأسرة والمرأة والطفل وكذلك التنفيذ والمساهمة فى علاج الأحوال الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية ، واستشهد بعض الكتـاب يقول الكاتبة الألمـانية (مارجريت كروس) التى اقامت بمصر طويلا وكتبت تعارض فى اعطاء المرأة حق الانتخاب بحجة « أنه من النادر أن تفصل المرأة بين العاطفة والتفكير السياسى وتميل عادة الى انتخاب ذويها .

* * *

وقـــد امتدت حركة تحرير المراة فى الوطن العربى كلـــه ولقيت مثل ما لقيت فى مصر ، أصحاب معســـكر التغريب يدفعون المراة الى السفور والاختلاط والانطلاق، ودعاة الاعتـــدال من المجددين يطالبون بالانارة والتطور حتى لا يقع الصدام وتتكاثر الضحايا .

(فى لبنـــان)

وفى لبنان ارتفعت صيحة الدعوة الى تحرير المـــراة المسلمة باسم (نظيرة زين الدين) عام ١٩٢٩ فى كتاب ضخم بلغ ٤٢٠ صفحة من القطع الكبير اسمه « السفور والحجاب »اعتمد على الدعوة العاطفية واستغلال الآيات القرآنية والأحاديث فيما ذهب اليه من حرية الســـفور ، وقد بلغ الأمر أن فضلت الكاتبة المراة عن الرجل وقالت انها أصلح من الرجال عقلا ، وعارض العقاد هذا الراى لأن فضيلة المراة الكبرى عنده أنها متممة الرجل وليســـت منافسة له فى ميادين العمل والجهاد وقال العقاد : ان نهضـــة المراة ما برحت بخير ما طلبت حقهـــا وعرفت ان حقها لن يناقض حقوق الرجال . اما حين تطلب الحرية لتتحدى بها الرجل وتتمرد عليه فهى فاشـــلة وخاسرة ونادمة .

ـــ وقد هاجم مصطفى الغلايينى هدف كتاب نظيرة زين الدين : ان هذا الكتاب قد أجتمع على تاليفه عـــدد كبير من اللادينيين والمسيحيين والمبشرين وان الآنســـة وأباها (الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف فى الجمهورية اللبنانية) كانا اما مخدوعين او شريكين لهؤلاء الدساسين وأنه كشف النقاب عن غايات مؤلفى الكتاب وغيره ممن يسعون لافساد المسلمين والقضاء على عقائدهم وأخلاقهم بالقضاء على المراة والمسلمة .

وقال ان هذه هى الوسيلة التى وصل اليها أخيرا المبشرون بعـــد ان عجزوا عن الطعن فى الاســـلام وهى استخدام بعض أهله ، وقال أن فى عام ١٩٢٨ كثر اللغط والحديث حول مسالة المراة فى مصر وسوريا وفلســـطين ولبنـــان والعراق فى آن واحد ، ثم ظهر كتـــاب السفور والحجـــاب المكتوب بأقلام أذناب هؤلاء المبشرين الذين نعرف اسماءهم كلهم ونعرف اكثر اشخاصهم ، وقال أن مؤلفوا الكتاب قصدوا الى الطعن فى الاسلام فى صور من الأساليب خلابة مموهة بالبـــاطل من القول والزخرف من الكلام . وقد حاولوا اثبات ان الرجل لا عقل له او انه ناقص العقل وان المراة أصـــح منه عقلا . واثبـــات أن المفسرين كانوا مخطئين فى تفســـير آيات القرآن وانهم كانوا جهلة دساسين ، وطعن الكتاب على أكثر الصحابة كما طعن فى العلماء وأجرى الدس بين السنة والشريعة » ا. هـ .

وليس غريبـــا أن يحمل دعاة التغريب الدعوة الى السفور على هذا النحو ، فان هدى شعراوى التى حملت لواء الدعوة الى تحرير المراة فى مصر كانت ترنو الى المظهر به والزعامة اكثر مما ترنو الى الايجابية ، ولذلك لم تخرج الحركة النسوية فى مصر عن نطاق مجموعة من السيدات الأرستقراطيات ، وهدى شعراوى هى : ابنة ســـلطان باشا الذى رحب بالاستعمار وفتح الطريق امام الانجليز فى التل الكبير وزوجة شعراوى باشا أحـــد الثلاثة الذين قابلوا المندوب السامى البريطانى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٩١ .

وقد كانت حيـــاتها عبارة عن سلسلة من الرحلات الى أوربا للاشـــتراك فى المؤتمرات النســـوية فى روما وباريس وامســـتردام وبرلين ومرســـيليا واســـتامبول وبروكسل وبودابست وكوبنهاجن ، وقد جاء فى تشـــكيل جمعية الاتحاد النسائى (١ مايو ١٩٢٦) أنه واســـطة تعارف وتعاون بين المراة المصرية وأختها الغربية ، لازالة ما علق بأذهان الغربيين من تصور المراة المصرية عضوا اشل او لعبة من لعب الزينة فى أيدى الرجال .

وقد كانت هدى شعراوى حريصة على أن تحقق تشريعا يعصم الفتاة من الزواج قبل بلوغهـــا السادسة عشرة عن عمرها ، ولعل هذا يرجع الى أنها هى زوجت قبل هذا السن الى رجل فى مثل سن والدها فظلت حياتها التعيسة مضطربة طوال حياتها .

فى العــراق

وفى العراق دعا الزهاوى الى تحرير المــراة وكان لمقاله رنة كبرى وازمة كبرى حيث ندد بحجاب المراة وقال « ما بال الرجــل الذى هو ناقص بدون المراة بداب على اهانتها بهضم حقوقها . ثم ما بال الرجــل الذى لا يهتم الا بالمراة يهن ما به تمامه . وكيف يقول الرجل يجب ان اتمتع بالحرية التى هى اكبر حق من الحقوق الانســانية والتى هى مشــاع بينهما والمراة عنده متاع خلقت للذاته فاذا قضاها جاز له ان تستبدلها بمتاع آخر . (٢٨ — ايلول ١٩٠٨) .

وقداحدث مقاله بلبلة وانفجارا فى الأوساط العـراقية وقام علماء بغداد ضده . والف سعيد النقشبندى كتــاب (السيف البارق فى عنق المارق : الزهاوى) واتجه العلماء الى والى بغداد الفريق ناظم باشا يعرضــون عليه أمر الزهاوى وطالبوا بفصله من كلية الحقوق فعزل الزهاوى ولم يحاكم وامر بأن يعتكف فى داره خوفا من اغتيــاله . واخذت الصــحف تكتب عنــه اتذع الكلمــات وقد ايده « معروف الرصافى » وكتب عن حقوق المراة العراقية ثم غادر الزهاوى بغداد فى هجرة الى مصر والشام ، فلمــا ورد القاهرة كتب فى المؤيد مقالا عام ١٩١٠ العدد ٦١٣٨ تحت عنوان « المراة والدفاع عنها » كان له صــداه فى الشعب العراقى حيث ضرب منزل الزهاوى بالحجــارة وتاخرت النهضة النسوية فى العراق حتى عام ١٩٢١ عندما حمل الانجلز لوائها على يد الانجليزية (المس كلى) حيث اسست أول مدرسة للبنات (٢٠/١/١٩) احتفل بهــا العميد البريطانى .

وكانت أول فتاة عراقية تحصــل على شهادة هى (صبيحة الشــيخ داود) وقامت (أســماء الزهاوى) شــقيقة الشاعر بتشــكيل جمعيـــة نهضة السيدات البغداديات عام ١٩٢٤ واشــتركت العراق لأول مرة فى مؤتمر نسوى ١٩٢٩ عقد فى لبنان حيث ألقت فيه (امينة الرجال) كلمة باسم المراة العراقية .ثم ظهرت شاعرات وكاتبات عراقيات لمعت اسمائهن : امثال رباب الكاظمى ونازك الملائكة واميرة نور الدين ولميعة عبــاس وعاتكة الخورجى .

ويرى الزهاوى ان : على المراة العربية (اكتوبر عام ١٩٢٤) أن تأخذ من الغربية عادة الســفور فتمزق الحجاب الذى اســدله الجهل فسد عليهــا طريق النور وجعلها بمعزل عن الحياة الاجتماعية الا فى ظروف خاصة وان تأخذ عند الضرورة عادة الزواج والطلاق المدنيين ، ومما يذكر ان الزهاوى عند ماجاء مصر كانت معه زوجته المحجبة التى كانت لم تخرج معه فى طريق واحد .

وقد اتصلت الحركة النسوية فى الوطن العربى فعقد (ابريل ١٩٢٨) مؤتمران نســويان فى بيروت أحــدهما اقامته الجمعيات المسيحية فى لبنان واخر اقامته الجماعات الاسلامية فى بلاد الشام .

وقد دعا المؤتمران الى توحيد جهود المراة فيما يتعلق بتربية الولد وتهذيب النشء واصلاح العادات والنهضة بالاقتصــاديات الوطنية وتنشيط المصــنوعات الأهلية وتحسين حال الفتاة العاملة واصلاح السجون .

وقد اشترك فى مؤتمر بيروت ١٩٣٠ عنبره ســلام الخالدى وكريمة عاصى واحسان القوصى وجوليا دمشقية ونازك سركيس واميرة أبو عــز الدين وابتهــاج قدورة ومثلت فيه معظم البلاد العربية :

وقالت عنبره سلام (سورية) ان المراة السورية مهما تنوعت مشاربها ليست بالتأثير ولا بالطائشة وهى فى نهضتها لا تطلب الطفرة ولا تدعو الى الفوضى بل مبدؤها السير الى الأمام دون تحطيم أو تهديم .

ودعت عزيزة فوزى (مصر) الى حمــاية اللغة العربية وقالت : ان بعض الفتيات يعرضن عنها وتراهن يلوين ألسنتهن باللغات الأجنبية ، وقالت : ان فــكرة القضــاء على لغتنا العربية تدخل الى النفس غما ، وقد وصفت الــكاتبة الأمريكية روث فرانستس (٣٨/٢/٢٧ الأهرام) النهضة النسوية على هذا النحو :

الحركة النسوية فى سوريا أضعف منها فى العراق مع أن عدد المتعلمات السوريات اكثر بكثير من المتعلمات العراقيات . والمراة السورية تطورت فى العشر سنوات الأخيرة . ولكن تطورها كان مقصورا على تنويع شــكل النقاب لا القضاء عليه . ومن المدهش أن النقاب لا يزال موجودا فى بيروت ذاتها ونساء بيروت محجبات ونســاء رأس بيروت سافرات .

والمراة الدمشقية محجبة فى اى حى من احياء دمشق وحلب ، لا توجــد فيها حركة نسوية . ونســاء حمص يتساهلن بعض التساهل وعندهن قدر من الحرية ونساء فلسطين محجبات على الطريقة التركية القديمة . ولايوجد

فى فلسطين أى حركة ترمى الى سفور المراة .

وقد جرت الدعوة الى ايجاد « اتحاد نسائى شرقى عربى » تكون مهمته توحيد « الأمة العربية » يبث دعوة مبنية على الوطنية والحصافة ، وكان لمأساة فلسطين عام ١٩٣٦ وما بعدها اثرها فى تجمع المراة العربية من كل اقطارها فى مؤتمر فى القاهرة للدعوة الى حق فلسطين وحق العرب ، كما حمل المؤتمر العربى لواء الاحتجاج على حوادث سوريا ولبنان ، ولابد من أن نذكر هنا أن المراة العربية فى سائر الوطن العربى قد شاركت فى جميع الثورات والانتفاضات الوطنية وقدمن الضحايا ولم يحل الحجاب او غيره دون اداء دورها كاملا ، فقد حملت السلاح ومرضت الجرحى . وعملت فى المقاومة الشعبية. وقدمت الشهداء فى ثورات مصر وسوريا .

وخلاصة القول أن هذه الفترة ــ بين الحربين ــ كانت عصبية جدا حتى لقد وصفت الحركة النسوية بأنها غفلت عن خطر الأمومة فى حياة المراة والأمة ، فقصرت عن توجيه الفتاة الجديدة نحو مكانها الطبيعى فى البيت واعدادها لوظيفتها الأولى فى الحياة . ولعل مرجع هذا فيما ترى الكثيرات الى فتنتنا العمياء بمظاهر المدنية الغربية « فان الغرب رجع من زمن بعيد عن هذا الضلال وراح يكافح فى رد المراة الى مكانها الطبيعى فى البيت وان مشكلة رد المراة الى البيت هى مشكلة ما بعد الحرب » .

مراجع البحث

تحرير المراة : قاسم امين : ١٨٩٧ ــ القاهرة .
تحرير المراة والسفور : محمد فخرى :
هدى شعراوى فى النهضة : المراة : ١٩٤٨ القاهرة.
النسائيات : ملك حفنى ناصف
اكليل الغار لرأس المراة ، جرجى نقولا باز ، بيروت .
تحرير المراة العراقية : خضر العباسى .
الاسلام والمراة ، سعيد الأفغانى ١٩٤٥ دمشق .
المراة الحديثة ، عبد الله حسين ١٩٢٧ القاهرة .
محمد والمراة ، عبد القادر المغربى ١٩٢٨ ــ دمشق .
تحرير المراة فى الاسلام : مجد الدين حفنى ناصف ، عام ١٩٢٤ القاهرة .
السفور والحجاب ، نظيرة زين الدين بيروت .
المراة والشيوخ ، نظيرة زين الدين بيروت .
المراة الجديدة : قاسم امين ١٩٠٢ القاهرة ، بيروت .
المراة فى التمدن الحديث ، محمد جميل بهم ١٩٢٧بيروت
المراة فى التاريخ والشرائع ، محمد جميل بيهم ١٩٢٦ .
نهضة المراة المصرية ، عبد الفتاح عباده ١٩١٩ ــ القاهرة .
احتكم فانصفوها ، مادلين أرقش ١٩١٤ ــ بيروت .

* * *

(٨)

الصحـــــــافـة

كان دور الصحافـــة فى هـــذه المـرحلة ـــ ما بين الحربين ـــ مختلفـــا عن دورهـــا فى الفترة التى سبقت الحرب . فقد كان الملوك والخديويين والمحتلون ـــ سواء منهم الفـــرنسيون او الانجليز ـــ هم الذين يصـــدرون الصحف الرسمية التى تمثل آرائهم وتدافع عن اتجاهاتهم وكانت الصحف الأخرى التى صـــدرت بأمرهم وايعازهم لا تتردد فى أن تنسب نفسها اليهم . وقد تطور هذا الأمر فأصبحت الصحف تصدر ممثلة للأحزاب والهيئات ، فاذا اختفت وراء مبدأ (الحياد) فقد حق لها أن تدافع عن أى نفوذ او هيئة أو حكومة دون ان تخشى شيئا . وبعد أن كانت الصحف تدافع عن الوطنية فى جراة وعاطفة تحولت الى الاعتدال ، وبعد أن كانت تهاجم المحتل والدخيـــل ، أصبحت تناصر الحزب الذى تتبعه وتهاجم خصومه من أهل الوطن ، وتباعد بينها وبين القضية الوطنية . وكان لقيام حكومات جديدة فى الوطن العربى فى ظل الاستقلال الذاتى قد خلق جوا جديدا ، قد تولت الحكم فى الوطن العربى طائفة معينـــة او فئة خاصة ـــ كانت فترة الاحتـــلال والحماية الأولى فترة اعـــداد لها ـــ هـــذه الطائفة تؤمن بالالتقاء مع الاستعمار فى منتصف الطريق ولا تناهضه .

وفى مصر مثلا جاء الوفد فى شعبيته الضخمة بعـــد الحرب على انقاض الحـــزب الوطنى . مع الاختـــلاف الواضـــح فى الأهداف والوسائل ، فالحزب الوطنى كان عنيفا فى مقاومة الاحتلال جريئا فى مهاجمته عاطفيا فى هذا الهجوم ، اما الوفد فقد كان « متفاهما » مع الاحتلال على مذهب حزب الأمة ، وهو لم يلبث أن انقسم الى فريقين : فريق أصـــحاب المصـــالح الحقيقيـــة والأسر والبيوت والاقطـــاعيين ، وهؤلاء هم الذين انفصـــلوا تحت اسم « الأحرار الدستوريين » وبقيت المجموعة الشعبية تحت زعامة سعد زغلول تؤمن بالمفاوضة مع الانجليز وتلتقى بهم فى منتصـــف الطريق ، وقد دارت المعركة بين الوفد والأحـــرار طوال هذه الفترة على الحكم ، وتكسرت قوة الوفد الى احزاب ، ولم يلتق الوفد والأحرار فى ائتلاف الا مرتين عندما انشأ الملك حزب الاتحـــاد ١٩٢٥ ، وعندما الغى دستور ١٩٢٣ ، وانشأ حزب الشعب ١٩٣١ .

***

اخطاء الصـــحافة

وهكذا عاشت الصحافة فترة ما بين الحربين خادمة للأحزاب ، عاملة عنـــدها ، لا تستطيع أن تتحرر منها ، وبينما كانت صحف الوفد تعتمد على شعبيتها وأقلام كتابها فى عنفها وقسوتها امثال العقاد وعبد القادر حمزة وحافظ عوض وتوفيق دياب وغيرهم ، اعتمـــدت صحف الأحرار الدستورين على صناعة الصحافة وعلى اقـــلام الكتاب المؤمنين بالحضارة الغربية ، هؤلاء الذين عملوا فى جبهة الاقطاعيين واصحاب البيوتات وجعلوا من اقلامهم التى تحمل كلمات الحرية والتجديد والثقـــافة اداة للدفاع عن النظام الاستبدادى وحكم الأقلية .

كما ســـايرت الصـــحف المحايدة صـــحف الأحرار الدستوريين فى معركة الغزو الثقـــافى والتغريب ودعت جميعها الى محاســـنة الاستعمار ، وفتحت الطريق أمام جميع مختلف الدعوات وكانت لسانا حادا على كل من دعا الى اصلاح او اعتدال ، فهاجمت الشيخ محمود أبو العيون فى دعوته الى الغاء البغاء . واطلقت على القوى الوطنية الشعبية كلمة « الرعاع » واصطنعت اسلوب السخرية فى مهاجمة كل باحث أو مصلح لا ينتسب الى حزبها .

وكان كتاب هذه الصحف يعمدون الى اثارة الجماهير فى مشاعرهم بترجمة القصص الفرنسية الماجنة ، وكتابة الفصـــول النقدية اللاذعة فى مهاجمة القيم الاســـلامية والعربية وتحوير معالم التاريخ على النحو الذى يصـــور العصر الأموى والعبـــاسى بصورة التحلل . وفى ظلـــها وحمـــايتها أعلن كثير من « المجددين » الذين حملوا لواء الأفكار التغريبية آرائهم ودافعوا عنها .

حدث هـــذا بينما وقفت الصـــحف الوفدية موقف الاعتدال فى الراى والمحـــافظة على مشاعر الشـــعب ، وباعدت بينها وبين مغـــايظة الجماهير او اثارتهـــا وهو اسلوب لم تلبث فى ذلك الى ابعد مدى وكان دفاع جريدة السياسة عن الاسلام ومهاجمتها لحملات التبشير أقوى من دفاع الصحف الأخرى ، فضلا عن كتـــابات الدكتور

هيكل عن محمد وأبى بكر وعمر والاسلام ، وهكذا كانت الكتابات الادبية والدينية اسلحة من اسـلحة السياسة لكسب الجماهير وترويج الصحف .

أما الصحف المحـايدة (الأهرام ــ المقطم) فقد فتحت صفحاتها لكل دعوة وكل راى ، وتركت هذه الآراء تصطرع وتتقاتل ، وكان لهذا اثره البعيد فى خلق جو من البلبلة والاضطراب .

وعاشت الصحف المحـايدة على ارضاء الاستعمار والحكومات المتوالية بينما عاشت الصحف الحزبية على تأييد أحزابها ومهاجمة خصومها دون تقدير لأى عمل مهما كان نصيبه من النفع أو الضرر ، ولذلك فان صـحف اى حزب كانت تنعم بالهدوء ما دامت احزابها فى الحكم فاذا تخلت عنه واجهت الصعوبات من تحقيقـات ومحاكمات ومصادرات .

وكأنمـا كانت اقلام الصحف مسـتأجرة للأحزاب والصـحف ، لذلك كثر التنـاقض فى أفكارهم وكان لهم مواقف من بعض الأحداث ومواقف مضادة من مثل هـذه الأحداث .

وهيكل وطه حسين وكتـاب السياسة الذين كانوا ينـادون بحرية الراى ويحملون لواء حمـاية الدستور والحياة النيابية هم الذين أيدوا محمد محمود ابان حكمه الحديدى عام ١٩٢٩ عندما الغى الدستور واوقف الحياة النيـابية واستطاعوا ان يجدوا من المبررات ما يجعلونه مادة دفاعهم عن هذا العمل الذى يتناقض قطعا مع افكار الحرية التى طالما أعلنوها ، وقد ايدوا بالبرهان والمنطق ــ الذى كان سلاحهم دائما ــ تحديد حرية الصـحافة ومحاكمتها ومصـادرتها ومقاومتها والغى محمـد محمود رخصـة مائة صحفية وعطل وأنذر عشرات الصـحف المعارضة (وكذلك فعل اسماعيل صدقى) . (عام ١٩٣٠) ثم اذا بهم يواجهون المعركة بطريقة مضادة فى عهد صدقى باشا عندما الغى الدستور وأقام دستورا جديدا واضطهد الصحف ومن بينها صحف الأحرار الدسـتوريين ، هنالك عادوا إلى الدعوة الى الحرية وحماية الدستور متناقضين مع انفسهم ولمـا يمر عام واحد على المعركة الأولى .

ويبدو التناقض فى موقف صحف الأحرار الدستوريين فى كتابات هيكل وطه حسين وغيرهم من سـعد زغلول الذى كان خصما للأحرار فاذا هو من هو ضعفا وسقوطا وفشلا وتسلطا ، فاذا قام الائتلاف عام ١٩٢٦ بين الوفد والأحرار اذا سعد زغلول ــ فى كتـاباتهم ــ مثل رائع للبطولة والكفاية .

ويمكن القول ان الصـحافة فى هـذه الفترة غلبت الجوانب الشخصية والحزبية على الجوانب الوطنية ، وغلبت الخلاف الداخلى والصراع على كرسى الحكم على القضية الوطنية ذاتها .

كما سـجلت عنفا لا حـد له فى الهجـاء والنقد السـياسى استعملت فيه عبـارات وأساليب غاية فى القسوة والحدة والاتهام .

وقد وقفت الصحف فى صف أصحاب رءوس الأموال والاقطاعيين ووجهـات نظر النفوذ الأجنبى من جميـع المسائل التى عرضت لها فى مجال الاجتماع أو الاقتصاد أو الزراعة او الصناعة .

ورسمت الصـحافة لشخصيات لورنس وغردون وبلفور وهرتسـل وفيصـل وعبد الله ونورى السـعيد ومصطفى فهمى صـورا من البطولة . ووصفت الاهرام ثورة سوريا ١٩٢٥ بالعصيان ووصفت الثوار بالعصاه ، كما هاجمت الاهرام ثورة عبد الـكريم فى المغرب ١٩٢٦ لحساب فرنسا وانساقت فى تيار الاستعمار الخفى فنشرت ــ هى والمقطم ــ صفحات عن ما سمى حقوق اليهود فى فلسطين واحتفلتا بتكريم موسى بن ميمون فى دار الأوبرا وكانت وجهة نظرها بالنسبة لليهود فى فلسطين قريبة من وجهة نظر الانجليز واليهود .

واستعملت الصحف المحايدة الأسلوب المرن الذى يحمل اكثر من معنى ، كما حملت لواء الدعوة الى العامية، وأيد (الأهرام) النفوذ الفرنسى ودافع عنـه بينما أيد المقطم النفوذ البريطانى ودافع عنه .

وكانت الصحف المحايدة قوة كبرى لا سـبيل الى مقاومتها ، فبينما كان الحزب اذا تولى الحكم يحطم صحف خصومه ، كانت الصحف المحايدة تلقى المعونة والتقدير فتعيش وتقوى ويشتد ساعدها ، بينما تختفى الصـحف الوطنية وتغلق ابوابها . وقد داومت الأهرام الاحتفـال بأعياد فرنسا ووجهت اليها التحية والتقـدير : وكان يوم ١٤ يوليو هو صاحب افتتاحية الأهرام وقالت « مى » فى هذه المناسبة (١٤ يوليو ١٩٣٠) تحية لعيد الحرية ، تحية لفرنسا ، يا من علمت الانسان بأن له اسما وأن له حقا ، ولـكنك فى نفس الوقت اوحيت اليه بأمثولة الألم والجهاد العنيد .

ودافعت الصحف عن اسلوب الهجاء ، فقال حافظ عوض عنه (١٩٣١/١/٢٠) لا أعده سبا ، وانمـــا هو انتقاد ومداعبة الفها الكتاب فى العهد الأخير ـــ واحتفلت الاهرام بذكرى المائة الأولى لمولد غردون في١٩٢٣/١/٢٢ وعندما اشتدت حمـــلة التبشير وحملت الصـــحف لواء الهجوم ، وقال طه حسين : ســـاخرا بذلك كله « من المحقق أن الاســـلام لن يضعف به (أى التبشير) وأن المســـيحية لن تقوى » أو ، والـــكاتب يمكن أن يخرج من صـــحيفة الى أخرى اذا زيد أجـــره ، وربمـــا كان معنى خروجه تغيير مذهبه السياسى أو آرائه الأساسية.

وقد هاجمت الصـــحف الوفدية : خصـــمين هما : صـــحف الأحرار وصحف الحزب الوطنى . أما الأحرار فهم الطبقة ذات النفوذ الأسرى التى انفصـــلت عن الوفد واعتنقت مذهب حماية مصالح الطبقة الجديدة من أعوان الاستعمار البريطانى التى تنافس الطبقة التركية القديمة نصـــيرة فرنسا وتركيـــا ، بينما تناصر الطبقـــة الجديدة بريطانيا .

أما الحزب الوطنى فانه صاحب الدعوة الىالجلاء ، وقد لقى هـــذا الحزب هجوما عنيفـــا من الوفـــد واتهم بالاغراق فى الخيال .

ووصفت الصـــحف الوفدية مصـــطفى كامل بأنه « شـــحاذ يلبس الردنجوت » واتهمت محمـــد فريد بأنه استقراطى ليس من الشعب .

وكان حزب الأحرار متابعة لحزب الأمة على نفس الأسس وكان اعضائه هم أبناء الجيل الثانى لمؤسسه . وكان هيكل هو خليفة لطفى السيد فى قيادة الرأىورئاسة تحرير الصحيفة .

ولم يذكر حزب الأحرار فى برنامجه كلمة الجلاء .

وكان موقف الصحف كموقف الكتاب ، فقد ناصرت الأهرام جميع الحكومات بلا استثناء ولم تكتب كلمة هجوم واحدة ضد محمد محمود أو اسماعيل صدقى ابان حكمهما الاستبدادى الذى قيدت فيه الحريات وحطمت القيم عام ١٩٢٩ و ١٩٣٠ .

وانتقلت بعض صحف الوفد من تأييد الوفـــد الى خصومته ثم عادت الى الوفد كره أخرى وتحولت جريدة الشعب من مالك الى مالك وتحول الكتاب معها كالعبيدـــ على حد تعبير محمد زكى عبد القادر .

ولطالمـــا هاجمت الصـــحف واحدا من الزعماء او رؤساء الحكومات واتهمته بالخيانة ثم عادت فأثنت عليه، وضفرت له أكاليل الغار ، أمثال توفيق نســـيم ـــ الذى اتهم بالخيانة ، ثم وصف بالوطنية وقال عنه سعدزغلول أنه يستحق تقدير الوطن .

***

(القومية العربيـــة)

ووقفت الصحف المحايدة من القومية العربية موقفا غامضا فكانت تسمى الدول العربية : الجارات الشرقيات .. وكان الاستعمار البريطانى والنفوذ الفرنسى فى مصر وهما المسيطران على الصحف على حرص شـــديد بأن لا تحمل مصر لواء الدعوة الى الوحدة العربية أو معـــانى الروابط العميقة الجذور ، فاذا تحدثت عنها بين آن وآن رسمت مصر بصورة الزعامة والقيادة والتعالى عن الأمة العربية .

ولعبت المصروفات السرية دورا كبيرا فى حيـــاة الصحافة المصرية ، وكانت فى كثير من العهود سلاحا من أخطـــر الأسلحة على الصحافة : وقد قيل أن الصحافة كانت تدار بطريقة لولبية ، تعارض أو تبدو أنها تعارض ولكن لا تمتنـــع معارضتها من أن يقبض أصحابها ثمنـــا (جلال الحمامصى ـــ ك صحافتنا) .

وقال الدكتور عزمى (رسالة الصحافة ـــ الأهرام ١٩٣٦/٤/٧) أن بعض الصحف لها اتصالات بسفارات وأنظمة تعمل بواسطتها على تأييد وجهات نظرها الخاصة أو تقديمها للجمهور على نحو قد يبعد قليلا أو كثيرا عما تريده السياسات القومية للرأى العام من توجيه » .

وقال فكرى أباظـــه : أن الصحـــافة كانت قبـــل الاستقلال المزيف والبرلمانية المزيفة لا تخـــدم الا الكفاح والجهاد . أما اليوم فبالرغم من انتعاشها وانتفاضهـــا ويسرها وغنـــاها واستفحالها تعمل موظفـــة عند مختلف الأحزاب تنقل للرأى العام أوامر الزعماء واغراض الزعماء واهواء الزعمـــاء وتقتتل فيما بينها ، فبعد أن كانت آمرة اصبحت مأمورة ، وبعد أن كانت موحيـــة أصبحت تتلقى الوحى ، وبعد أن كانت وثيقة الصلة بالشعب اتخـــذتها عصابات الأحـــزاب اداة مسخرة لشهواتها ومطـــامعها فدفنت رسالتها العالية الحـــرة المستقلة فى قبر من قبور العبودية الحزبية ورمس من رموس الموتى » .

وقال فكرى أباظه : أن الصحفى المصرى عندما يطعن حسب الظروف ثم يمدح اذا تغيرت الظروف ، يندفع فى كلتا الحالتين . وينسى أن يحفظ اتزانه حفظا لخط الرجعة فى المستقبل .

وقال : حذار أن تقول أن فى مصر جريدة على الحياد بين الأحزاب وأن وجدت جريدة على الحياد فاعلم انه حياد ضعيف لاقيمة له .

وقال أن أى صحيفة كانت تقول فى الهجوم على صحيفة أخرى : الجريدة الصفراء النكراء ، جريدة الخونة ودعاة التردد والهزيمة ، وعن أى كاتب « الغبى الأحمق المأجور » .

وقال مصطفى الرافعى : لو عرفت الصحف وأهلها لرايت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفا وانما هى حوانيت تجارة . وأنه لايتقل النبوغ شىء كالعمل فى الصحافة فان أساس النبوغ العمق والتغلغل فى أسرار الأشياء ، أما الصحافة فلها أساس غير هذا ، وحالة الجمهور تجعل للصحافة عندنا مكانا طبيعيا لرجل السياسة قبل غيره .

وقال زكى مبارك : أن عشرات من الكتاب اشترت الحكومات المختلفة أقلامهم وقيدت مواهبهم وأغرتهم بالمرتب الثابت وكانت اجدى عليهم من شرف العمل لتحرير البلاد .

ويرجع الباحثون ضعف الصحافة الى أنها خضعت لسيطرة جهات متعددة منها الإستعمار والقصر والأحزاب والحكومات ، ثم خضعت لسلطان رأس المال والاعلان ، وكان هذا فى أيدى عملاء الصهيونية وأن عددا كبيرا من كتاب الصحف المصرية لم يكونوا من المصريين ولذلك لم تكن عواطفهم وطنية ، وكان أغلب أصحاب الصحفيين ومحرريها من غير المصريين أعوانا للحاكم والمستعمر ، وقد صور هذا النفوذ الكاتب البريطانى (بولسون نيومان) فى كتابه (بريطانيا العظمى فى مصر) يضاف الى هذا ولاء المثقفين للطبقة الحاكمة وللنفوذ الأسرى والاقطاعى الموالى للانجليز .

وقد كان للاستعمار أثره فى الصحافة فهو صانع هذا الاتجاه من النفاق والهزل والسخرية والتخدير وخداع الجماهير والتميع والبلبلة .

وقد أثر النفوذ المادى الصهيونى على الصحافة من جهة الاعلانات اذ كان الذين يتولون أمور الدعاية بالاعلانات والمقالات والأخبار فى الصحافة العربية يهودا صهيونيون من أعداء العرب (نقولا حداد) .

وترى جريدة السياسة الأسبوعية (١٩/٣/١٩٢٧) ان الصحافة هى التى خلقت التيارات السياسية فى البلاد وعليها تبعة ما فى التربية السياسية من مفاسد ، وقد صورت جريدة المانشستر جارديان بعض الصحف المعارضة فى مصر (١٩٢٩/٣/٢٣) بقولها : من الغريب فى مصر أن الجريدة التى لا ترعى كرامة الصحافة تباع كالكعك الساخن بسبب مقالات تنشرها لبعض مشاهير الكتاب يستعمل فيها كل ما فى حافظته من عبارات القذف والكلام البلدى البذىء والسباب .

وقالت جريدة فريكندرتر نستبونج أن معظم الصحف فى أيدى مسيحى لبنان الذين يحاولون تقليد أوربا ويميلون الى فرنسا على الخصوص .

ولا ينسى فى هذا المجال الصحف التى صدرت لحساب أفراد أو غايات خاصة ووصفت « بأنها وصلت الى أحط درجات المهانة ، وهوت الى حضيض الوضاعة والخسة . وخرجت على الآداب العامة وعمدت الى نهش الأعراض والتعرض للشخصيات واثارة الغرائز » ويعزو بعض الباحثين الى الاستعمار ، هذا التطاحن الذى أثير بين الصحف وجعلها منقسمة تجرى وراء الرزق والمورد فلم تستطع التحرر كلية للعمل الوطنى ، وقد أصدرت الحكومات الخاضعة للاستعمار فى العالم العربى فى مختلف البلاد العربية القوانين المقيدة للحرية الصحفية .

ولم تطبق هذه القوانين الا على الصحف الوطنية ، وعلى صحف المعارضة فى ابان حكم خصومها .

ولا شك كان الاستعمار يركز على الصحافة المصرية وأهدافها ويعزلها عن الأمة العربية ويخلق بها أجواء البلبلة التى يستغلها فى الوطن العربى كله نظرا لنفوذها فيه ، ولم يكن الصراع بين الصحف المحايدة كالأهرام والمقطم لحساب الوطن العربى بل كان صراعا بين نفوذى بريطانيا وفرنسا .

واذا كان المقطم قد عنى بالشئون العربية فانه كان انما يحمل وجهة نظر بريطانيا فيها .

وكانت الصحف المحايدة تؤيد الأفكار الغربية وتذيعها بصرف النظر على قدرة البلاد على التطور .

وقد سفت الصحافة كثيرا ولم تحاول أن ترتفع بالقارىء وكانت فى مجموع ابحاثها تعمد الى العبارات الانشائية ، وكانت كتاباتها سريعة غير ناضجة وانها عجزت عن أن تؤدى مهمة الصحافة الحقيقية وهى توخى المصالح العامة . واحترام المسئوليات والبعد عن التهريج

ومن العجب أن الصحف التى كانت تمثل الأقلية وأحزاب الأسر والاقطاع كانت تدافع عن الحرية وكانت تثور لحرية الرأى بينما تؤيد فى نفس الوقت الوزارة التى تعطل الدستور والحياة النيابية . مما يؤكد بأن المعانى والآراء والأقلام لم تكن الا ادوات فى سبيل غرض معين .

وقد فسر دفاع جريدة السياسة عن علي عبدالرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحكم) حينما كتبت جريدة السياسة عشرات المقالات فى الدفاع عن حرية الرأى — انه كان دفاعا خفيا عن أمرين . أولا : نفوذ اسرة علي عبدالرازق وهي احدى دعائم حزب الأحرار : ثانيا : خصومتها للملك فؤاد الذى كان يطمع فى الخلافة وتأييد رأى بريطانيا فى منعه من النجاح فى هذه الدعوة .

وقد أيد هيكل فى السياسة عمل (عدلى) على تحطيم وحدة الأمة بقيادة سعد ، وأيد (زيور) الذى جمع البرلمان فى الظهر وفضه فى المساء ، وأيد محمد محمود صاحب اليد الحديدية .

وقد دافعت صحف الأحرار والصحف المحايدة ، وبعض كتاب صحف الوفد عن تيار التغريب والارتباط بالغرب ، واندفعت وراء قبول الاستيراد فى الفكر وتقبل الثقافية الغربية قبولا كاملا دون تحفظ مع التبعية دون الاقتباس ، أما الصحافة الوطنية فكانت وسطا واكثر اعتدالا وتحفظا ، وكانت تدعو الى المحافظة واتخاذ سبيل الاقتباس والتحفظ ، غير أن صوت الصحف المحايدة كان اقوى ونفوذها كان أكبر .

وخلقت الصحف الهازلة تيارا عمل على تمييع كل القيم والمقدسات ، وادخال عنصر السخرية والتهريج على الثقافة والفكر والأهداف والمثل العليا ، وقد أشار توفيق حبيب الى صحف الكاريكاتير فقال أنها عملت منذ اليوم الأول على نهش الأعراض .

وقد عجزت الصحافة فى هذه الفترة على حل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكانت مقالاتها تمثل وجهات نظر معينة شخصية ، وهى وجهات نظر القصر أو الاستعمار أو الاقطاع أو الأحزاب ، ولم تتحدث الصحف عن حقوق العمال أو الفلاحين أو التعاون الا على نحو التنفيس عن الطاقة المكبوتة .

واختفت فى هذا العهد المثالية الصحفية التى حمل لوائها احمد توفيق ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز شاويش وكان آخر من حمل لوائها أمين الرافعى .

كما عجزت الصحف عن قول كلمة الحق ، فى كثير من المواقف ، واضطرت الى أن تداور ، ومن ذلك أن صحفا رفضت أن تنشر مذكرات محمد فريد لأن بها بيانات فاضحة عن تصرف اسماعيل ، وشاع أن الوكالة البريطانية تخطب ود كل لين العريكة (على حد تعبير محمد لطفى جمعه) .

وفى عهود حكومات احزاب الأقلية : الأحرار الدستوريين والاتحاد والشعب ، كانت أموال الصحف تجمع بواسطة العمد والمديرين ، وقد أنفق محمد محمود باشا على جريدة السياسة من ماله الخاص ما يقرب من ٥٠ الفا من الجنيهات .

ولم تكن هناك صحف مصرية تدخل المغرب الا جريدة الأهرام ، ولا تدخل العراق وفلسطين — فى فترة من الفترات — الا جريدة المقطم .

لا غرابة فى هذا الاضطراب الفكرى والصحفى كله فقد كانت عناصر اليهود والأتراك والسوريين والشركس واليونان هى التى تسيطر على السياسة والاقتصاد والصحافة .

* * *

ايجابية الصحافة

وبعد فماذا كان دور الصحافة الايجابى فى الفكر الاسلامى خلال هذه الفترة (ما بين الحربين) .

لقد قاومت الصحافة الاستعمار والمستعمرين واعوانهم ، ودافعت عن القيم والمقومات الاسلامية والعربية والمصرية ، كما دافعت عن اللغة العربية وحرية التعليم وهاجمت المخدرات والبغاء والتبشير .

وكان أبرز ما تناولته الصحافة فى موضوعات السياسية : الاستقلال والمفاوضات والدستور والسودان،

كما تناولت فى مشاكل المجتمع : تحرير المراة والسـفور والحجاب والبغاء والمخدرات والتبشير والتعاون وحقوق العامل والفلاح .

وقد كافحت لاصلاح اللغةالعربية وطورتها فتحولت من الركاكة فى التعبير من ناحية والسـجع والزخرف من ناحية اخرى الى اسلوب وسط بسيط تلغرافى ، ودافعت عن اللغة العربية حين هوجمت ، ودافعت عن الثقـافة العربية حين اصطرعت الثقافتين الفرنسية والانجليزية .

كما حاربت طغيان الأمراء والملوك والحكام والطغاة وهاجمت محمد على واسماعيل وقاومت الصحافة المصرية المعتمدين البريطانيين امثال : كرومر وغورست وجورج لويد .

ووقفت الصـحافة المصرية والعربيـة فى صـف الحرية فى الشرق فناصرت غاندى ضد الانجليز .

وهاجمت كل من وجـه الى الوطن الاتهام ، فردت بعنف على المحامى بابا كوس الذى هاجم مصر فى (١٦ يوليه ١٩٣٣) وقال : الأكربول صاف والنيل كدر .

وحملت لواء الهجوم عنالامتيازات الأجنبية والدفاع اصدار الأحكام باللغةالعربية منالمحاكم المختلطة والكتابة بالعربية فى الشركات والبنوك .وتحريم الزواج بالأجنبيات وحماية الأسرة وتقييد الطلاق . وتناولت ابحاث متعددة عى ابحـاث المراة وحقوقها ومشاكل الريف والصـناعة ومهاجمة الأغانى الماجنة كما هاجمت الدعوة الى نغمـة الأقلية والأكثرية :

ونشرت الأهرام لمحمود ابوالعيون مقالات (الصحيفة السوداء) التى هاجم فيها الاستعمار البريطانى هجوما عنيفا ، كما هاجم البغاء والتحلل فى مجموعات متعددة من المقالات .

وفتحت الصحف المصرية صفحاتها لكل ابطال الفكر العربى واحراره : امثال جمـال الدين الافغانى وشكيب ارسلان وعبد العزيز الثعالبى .

وكان كل زعمـاء العالم العـربى المبرزين فى تلك الفترة صحفيون من ذوى الأقلام الحرة : مصطفى كامل محمـد فريد وعبد العزيز شاويش والثعـالبى وصالح ابن يوسف وفائق السمرائى واميل الغورىوهلال الفاسى وعبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمى .

وتطورت الصحافة مرتين : من حيث اللغـة ومن حيث المعنى ، وانتقلت من صحافة الراى الى صـحافة الخبر ، وانتقلت من الجهود الفردية الى صحافة الأحزاب وجهود الجماعات ، وكان ابرز عناصر تطورها بعد ثورة سنة ١٩١٩ هو العناية باخبار العـالم الخارجى والخبر الداخلى والصورة .

واسـتطاعت رغم القيود والقوانين والاعانات ان تقاوم التغريب والاستعمار .

وصدرت صحف سرية فى معظم انحاء العالم العربى تحمل لواء الأفكـار الحرة التى كانت تحول الرقابة دون صدورها .

* * *

واثرت الصحافة المصرية فى العـالم العربى كله . وكتب بها رجال السياسة فى العالم العربى والاسلامى : ويمكن القول مع الأسف ان معظم محاكمات الصـحافة لم تكن من اجل الراى الحر فى الأغلب وانمـا كانت من اجل مسائل شخصية او خلافات خاصة .

وقد كان لمؤامرة فلسـطين اثرها البعيد المدى فى توجية الصحـافة العربية وتحريرها من القيود المختلفة ، ودفعهـا الى مواجهة الاستعمار والصـهيونية مواجهة صريحة .

ولا جدال فى أن الصحافة كانت مرآة الفكر العربى ونافذته الى المثقفين والقراء . وان جميع معارك الفـكر وموضوعات الثقافة ومفاهيمها ومعارك الوحدة والتجزئة والشعوبية والتغريب كلها دارت على صفحاتها .

وبالجملة فقد كانت الصحافة العربية فى هذه الفترة — ما بين الحربين — تمثل الرد على سـؤال واحد : هو البحث عن اساس لبناء قاعدة الثقافة والاجماع والفـكر والاقتصاد فى الوطن العربى .

وكان للمراة فى الصحافة العربية دور واضح ، فقد توالت كتاباتها الوطنية ،كتاباتها فى شئونها الخاصـة ،

وقد تصدت كثيرات منهن للمحاكمة ورفعن الصوت بالدعوة الى حقوق المرأة السياسية (٥)

وبعد : فهل يمكن أن يقال أن الصحافة العربية تستطيع ان تكون مرجعا موثوقا بأحكامه لكتابة تاريخ الأمة العربية فى هذه الفترة .

هذا ما يجب أن ننظر اليه بكل تحفظ ، وهو يتطلب منا دراسة أهداف كل صحيفة وهويتها أولا ، ويتطلب مراجعة آراء بعضها على البعض الآخر والتزود بكثير من الحذر واليقظة فى قبول آرائها — واعتقد أن فى الاعتماد الكامل على صحيفة معينة أو صحف معينة — طال عمرها وامتد — كثير من الخطأ .

هذا وبالله التوفيق . .

* * *

موضوعات البحث

الموضوع	صفحة
* مرحلة التحدى ورد الفعل	
حملات التغريب	٩٩
حملات على الجنس	١٠١
حملات على الدين	١٠٥
حملة هانوتو	١٠٩
حملات التعصب	١١٠
حملة كرومر	١١٢
النظرية اليونانية	١١٤
حملات التغريب والغزو الثقافى	١١٧
الحملة على العقائد والقيم	١١٩
دعوات التجزئة	١٢٤
تجزئة المغرب (البربر والعرب)	١٢٩
النظرية الفينيقية (لبنان)	١٣١
نظرية البحر المتوسط	١٣٥
المسلمون والمسيحيون فى مصر	١٣٩
التجزئة بالقومية الضيقة	١٤٠
الفرعونية والعربية	١٤٣
ادوات التغريب والغزو الثقافى	١٤٩
الاستشراق	١٥١
التبشير والاستعمار	١٥٣
منهج البحث العلمى الحديث	١٥٩
دعاة التغريب	١٦٩
دعوات التغريب	١٧١
صراع الثقافات الغربية	١٧٥
دور الحضارة فى المعركة	١٨١
مواجهة الحضارة	١٩٠
موقف الفكر العربى الاسلامى من الصهيونية والشيوعية	١٩٥
الدعوة الصهيونية	١٩٩
الدعوة الشيوعية	٢٠١
مواجهة الغزو ومعارك المقاومة	٢٠٩
السياسة	٢١٥
معركة القومية العربية	٢١٨
الدين	٢٢٠
الحملة على الاسلام	٢٣٤
حملة الالحاد	٢٣٥
الاسلام فى معركة المقاومة	٢٤١
ترجمة معانى القرآن	٢٤٥
	٢٤٧

الموضـــوع | صفحة

دار العلوم للطباعة

القاهرة ٨ شارع حسين حجازى ، قصر العينى ،
ت ٣٥٥١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ٢٣٢٠ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى × ١٧٦ — ١٤٢ — ٩٧٧